التفسير الكبير

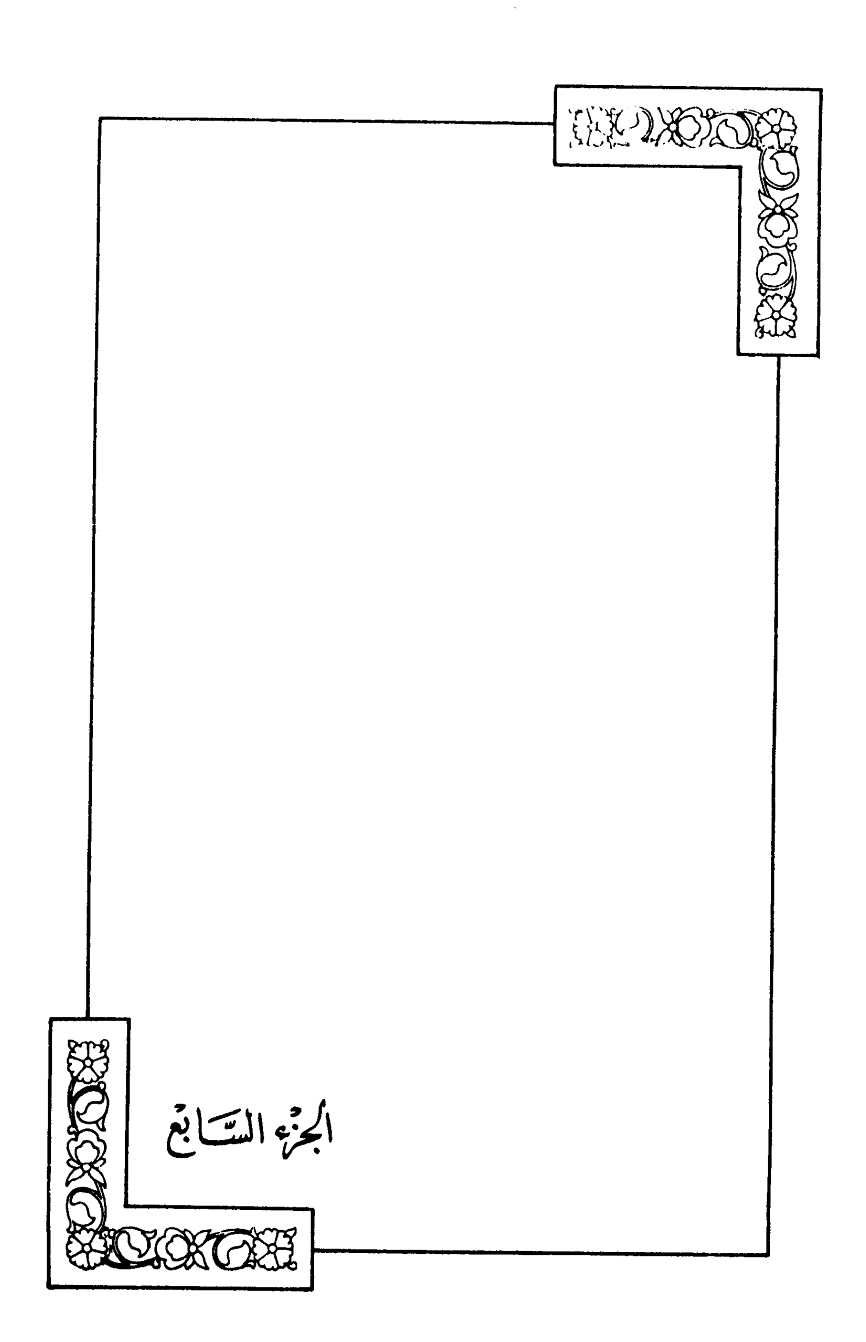
للإمام العلامة تقي الدين
ابن تيمية
ولد سنة ٦٦١ وتوفي سنة ٧٢٨هـ
رحمه الله تعالى

الجزء السابع

تحقيق وتعليق
الدكتور
عبد الرحمن عميرة
عضو اللجنة العلمية الدائمة
بجامعة الأزهر

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان




الجزء السابع

الطبعة الأولى
١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت. لبنان
هاتف: ٨٠١٣٣٢ - ٨٠٥٦٠٤ - ٨٠٠٨٤٢
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ تلكس: Nasher 41245 Le

سورة البينة
قال شيخ الإسلام رحمه الله
فصل

في قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَالمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ البَيِّنَةُ ﴾[1] .

فإن هذه السورة سورة جليلة القدر ، وقد ورد فيها فضائل ، وقد ثبت في الصحيح أن الله أمر نبيه أن يقرأها على أبي بن كعب ، ففي الصحيحين عن أنس بن مالك ، عن رسول الله ﷺ قال لأبي : « إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن » . قال : آلله سماني لك ؟ قال : « آلله سماك لي » قال : فجعل أبي يبكي . وفي رواية أخرى : « إن الله أمرني أن أقرأ عليك . « لم يكن الذين كفروا » . قال : سماني لك ؟ قال : « نعم » فبكى [2] ، وفي رواية للبخاري : وذكرت عند رب العالمين ؟ قال : « نعم » فذرفت عيناه قال قتادة : أنبئت أنه قرأ عليه : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ

---

(١) سورة البينة اية رقم ١ .

(٢) الحديث رواه الامام البخاري ٩٨ سورة ﴿ لم يكن ﴾ ١ باب ٤٩٥٩ حدثنا محمد بن بشار حدثنا غندر ، حدثنا شعبة قال سمعت قتادة عن أنس بن مالك رضي الله عنه ـ وذكره.
وهناك رواية أخرى للبخاري حدثنا حسان بن حسان حدثنا همام عن قتادة عن أنس رضي الله عنه وذكره .
وقد أخرجه الحاكم وأحمد والترمذي من طريق زر بن حبيش عن أبي بن كعب نفسه مطولاً ولفظه « إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن قال : فقرأ عليه لم يكن الذين كفروا والجمع بين الروايتين حمل المطلق على المقيد لقراءته لم يكن دون غيرها .

الكِتَابِ ﴾ (١) . وتخصيص هذه السورة بقراءتها على أبيّ يقتضي اختصاصها وامتيازها بما اقتضى ذلك .

وقوله : « أن أقرأ عليك » أي قراءة تبليغ وإسماع وتلقين ، ليس هي قراءة تلقين وتصحيح كما يقرأ المتعلم على المعلم ، فإن هذا قد ظنه بعضهم ، وجعلوا هذا من باب التواضع ، وجعل أبو حامد (٢) هذا مما يستدل به على تواضع المتعلم ، وليس هذا بشيء ، فإن هذه القراءة كان يقرأها على جبريل يعرض عليه القرآن كل عام ، فإنه هو الذي نزل عليه القرآن .

أما الناس فمنه تعلموه ، فكيف يصحح قراءته على أحد منهم ، أو يقرأ كما يقرأ المتعلم ؟ . ولكن قراءته على أبي بن كعب كما كان يقرأ القرآن على الإنس والجن ، فقد قرأ على الجن القرآن ، وكان إذا خرج إلى الناس يدعوهم إلى الإسلام ، ويقرأ عليهم القرآن ، ويقرأه على الناس في الصلاة وغير الصلاة .

قال تعالى : ﴿ فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ، وَإِذَا قُرِىءَ عَلَيْهِمُ القُرْآنُ لاَ يَسْجُدُونَ ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً ﴾ (٤) . وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى المُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ﴾ (٥) ، وذكر مثل هذا في غير موضع ، فهو يتلو على المؤمنين آيات الله .

وأبيّ بن كعب أمر بتخصيصه بالتلاوة عليه لفضيلة أبي واختصاصه بعلم

---

(١) سورة البينة آية رقم ١ .

(٢) هو محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي أبو حامد ، حجة الإسلام سبق الترجمة له في كلمة وافية ، وكانت وفاته عام ٥٠٥ هـ [راجع وفيات الأعيان ١ : ٤٦٣ وطبقات الشافعية ٤ : ١٠١] .

(٣) سورة الانشقاق آية رقم ٢٠ ـ ٢١ .

(٤) سورة مريم آية رقم ٥٨ .

(٥) سورة آل عمران آية رقم ١٦٤ .

القرآن ، كما ثبت في الصحاح عن عمر أنه قال : « أبيّ أقْرؤُنا وعلي أقضانا »[1] .

وفي الصحيح أنه قال لابن مسعود : « إقرأ عليَّ القرآن » . قال : أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : « إني أحبّ أن أسمعه من غيري »[2] . فقراءة ابن مسعود عليه في هذا الموضع لإسماعه إياه ، لا لأجل التصحيح والتلقين .

وفي معنى قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنِ ﴾ هؤلاء وهؤلاء ﴿ مُنْفَكِّينَ ﴾[3] ثلاثة أقوال ذكرها غير واحد من المفسرين .

هل المراد لم يكونوا منفكين عن الكفر ؟

أو هل لم يكونوا مكذبين بمحمد حتى بعث ، فلم يكونوا منفكين عن محمد والتصديق بنبوته حتى بعث ؟

أو المراد أنهم لم يكونوا متروكين حتى يُرسَل إليهم رسول ؟

وممن ذكر هذا أبو الفرج بن الجوزي . قال : **﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾** يعني اليهود والنصارى **﴿ والمشركين ﴾** وهم عبدة الأوثان : **﴿ منفكين ﴾** أي منفصلين وزائلين . يقال : فككت الشيء فانفك ، أي انفصل . والمعنى : لم يكونوا زائلين عن كفرهم وشركهم حتى أتتهم

---

(1) الحديث رواه البخاري في كتاب التفسير ٧ باب قوله تعالى **﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها ﴾** ٤٤٨١ حدثنا عمرو بن علي حدثنا يحيى ، حدثنا سفيان عن حبيب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال عمر - رضي الله عنه وذكره ، وأخرجه البغوي وعن عبد الرازق عن معمر عن قتادة عن النبي - ﷺ - أرحم أمتي بأمتي أبو بكر وأقضاهم علي » . ورواه الامام أحمد بن حنبل في المسند ٥ : ١١٣ (حلبي) .

(2) الحديث رواه البخاري في كتاب التفسير ٩ باب فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ٤٥٨٢ عن سفيان عن سليمان عن ابراهيم عن عبيدة عن عبدالله عن عمرو بن مرة قال : قال لي النبي - ﷺ - وذكره .

(3) سورة البينة آية رقم ١ .

البينة ، لفظه لفظ المستقبل ومعناه الماضي ، والبينة الرسول ، وهو محمد ﷺ بين لهم ضلالهم وجهلهم ، وهذا بيان عن نعمة الله على من آمن من الفريقين إذ أنقذهم به .

ولفظ البغوي (1) نحو هذا قال : لم يكونوا منتهين عن كفرهم وشركهم وقال أهل اللغة : ﴿ منفكين ﴾ منفصلين زائلين ، يقال : فككت الشيء فانفك ، أي انفصل ﴿ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ (2) لفظه مستقبل ومعناه الماضي ، أي حتى أتتهم البينة ـ الحجة الواضحة ـ يعني محمداً أتاهم بالقرآن ، فبين لهم ضلالتهم وجهالتهم ، ودعاهم إلى الإيمان ، فأنقذهم الله به من الجهل والضلالة . ولم يذكر غير هذا .

قال أبو الفرج : وذهب بعض المفسرين إلى أن معنى الآية : لم يختلفوا أن الله يبعث إليهم نبياً حتى بعث ، فافترقوا .

وقال بعضهم : لم يكونوا منفكين عن حجج الله حتى أقيمت عليهم البينة . قال : والوجه هو الأول .

وذكر الثلاثة أبو محمد بن عطية (3) ، لكن الثالث وجهه وقواه ، ولم يحكه عن غيره ، فقال : قوله : ﴿ منفكين ﴾ أي منفصلين متفرقين . تقول : انفك الشيء عن الشيء إذا انفصل عنه .

قال : و« ما انفك » التي هي من أخوات « كان » لا مدخل لها في هذه الآية ، فبين في هذه أن تكون هذه الصفة منفكة . قال : واختلف الناس

---

(1) هو الحسين بن مسعود بن محمد الفراء توفي عام ٥١٠ هـ سبق الترجمة له في كلمة وافية . [وراجع وفيات الأعيان ١ : ١٤٥ وتهذيب ابن عساكر ٤ : ٣٤٥ ودائرة المعارف الاسلامية ٤ : ٢٧] .

(2) سورة البينة آية رقم ١ .

(3) هو عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي توفي عام ٥٤٢ هـ سبق الترجمة له في كلمة وافية . [وراجع نفح الطيب ١ : ٥٩٣ وقضاة الأندلس ١٠٩ وبغية الملتمس ٣٧٦ وكشف الظنون ٤٣٩ وبغية الوعاة ٢٩٥] .

عمـاذا ؟ فقال مجـاهد وغيـره : لم يكونـوا منفكين عن الكفـر والضـلال حتى جـاءتهم البينة ، وأوقـع المستقبل مـوقـع المـاضي في ﴿ تـأتيهم ﴾ لأن بـأس الشريعة وعظمها لم يجيء بعد .

وقـال الفراء [1] وغيـره : لم يكونـوا منفكين عن معرفـة نبوة محمـد ﷺ والتـأكـد لأمره ، حتى جـاءتهم البينة فتفـرقوا عنـد ذلك. قـال : وذهب بعض النحـويين إلى أن هذا المنفي المتقـدم مع ﴿ منفكين ﴾ يجعلهم تلك هى مـع « كان » ويروى التقدير في خبرها « عارفين أمر محمد » أو نحو هذا .

قـال : وفي معنى الآيـة قـول ثـالث بـارع المعنى . وذلـك أن يكـون المـراد : لم يكونـوا هؤلاء منفكين من أمر الله وقـدرته ونـظره لهم حتى يبعث إليهم رسولاً منذراً تقوم عليهم به الحجة وتتم على من آمن النعمة فكأنه قال : ما كانوا يتركون سدى . قال : ولهذا المعنى نظائر في كتاب الله .

وقد ذكر الثعلبي [2] ثلاثة أقوال . لكن الثالث حكاه عمن جعل مقصوده إهلاكهم بإقامة الحجة وجعل ﴿ منفكين ﴾ بمعنى هالكين .

فقـال : لم يكـونـوا منفكين ومنتهين عن كفـرهم وشـركهم ، وقـال أهـل اللغة : زائلين . تقول العرب: ما انفك فلان يفعل كذا ، أي ما زال . وأصل الفك : الفتح ، ومنه فك الكتاب ، وفك الخلخـال . ﴿ حتى تأتيهم البينـة ﴾ الحجـة الواضحـة ، وهو محمـد أتاهم بـالقرآن ، فبين ضـلالتهم وجهالتهم ، ودعاهم إلى الإيمان .

قال ، وقال ابن كيسـان [3] : معناه لم يكن هؤلاء الكفـار تاركين صفـة

---

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافيـة . [وراجع إرشـاد الأريب ٧ : ٢٧٦ ووفيات الأعيـان ٢ : ٢٢٨ ومفتاح السعادة ١ : ١٤٤ وغاية النهاية ٢ : ٣٧١ ونزهة الالبا ١٢٦] .

(٢) هو أحمد بن محمد بن ابراهيم الثعلبي أبو اسحاق مفسر من أهل نيسابور له اشتغال بالتاريـخ من كتبـه (عرائس المجـالس) في قصص الأنبيـاء ، والكشف والبيـان في تفسـير القـرآن تـوفي عـام ٤٢٧ هـ [راجع ابن خلكان ١ : ٢٢ وإنباء الرواة ١ : ١١٩ والبداية والنهاية ١٢ : ٤٠] .

(٣) هو صالح بن كيسان المدني مؤدب أبناء عمر بن عبد العزيز كان من فقهاء المـدينة الجـامعين بـين =

محمد في كتابهم حتى بعث ، فلما بعث تفرقوا فيه .

وقال : قال العلماء في أول السورة إلى قوله : ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ [1] : حكمها فيمن آمن من أهل الكتاب والمشركين ﴿ وما تفرق ﴾ : حكمه فيمن لم يؤمن من أهل الكتاب بعد قيام الحجة عليهم .

قال : وقال بعض أئمة اللغة : قوله ﴿ منفكين ﴾ أي هالكين ، من قولهم: إنفك صلا المرأة عند الولادة ، وهو أن ينفصل ولا يلتئم فتهلك . ومعنى الآية : لم يكونوا هالكين مكذبين إلا بعد إقامة الحجة عليهم بإرسال الرسول وإنزال الكتاب .

وقد ذكر البغوي هذا والأول : قال والأول أصح . « قلت » : القول الثاني الذي حكاه عن ابن كيسان هو قول الفراء . وقد قدمه المهدوي على الأول فقال : ﴿ منفكين ﴾ من « انفك الشيء من الشيء » إذا فارقه . والمعنى لم يكونوا متفرقين إلا إذا جاءهم الرسول لمفارقتهم ما كان عندهم من خبره وصفته ، وكفرهم بعد البينات . قال : ولا يحتاج ﴿ منفكين ﴾ على هذا التأويل إلى خبر . ويدل على ذلك قوله : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ إلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَةُ ﴾ [2] .

قال ، وقال مجاهد : المعنى لم يكونوا منتهين عما هم عليه ، وعن مجاهد أيضاً: لم يكونوا ليؤمنوا حتى تأتيهم البينة .

قال ، وقال الفراء : لم يكونوا تاركين ذكر ما عندهم من ذكر النبي حتى ظهر ، فلما ظهر تفرقوا واختلفوا .

قلت : هذا المعنى هو الذي قدمه ، لكن الفراء وابن كيسان جعل

= الحديث والفقه ، وهو أحد الثقات في رواية الحديث . قال ابن ناصر الدين : عاش أكثر من مئة سنة وتوفي عام ١٤٠ هـ [راجع تهذيب التهذيب ٤ : ٣٩٩ وتهذيب ابن عساكر ٦ : ٣٧٨] .

(١) سورة البينة آية رقم ٣ .

(٢) سورة البينة آية رقم ٤ .

الانفكاك مفارقتهم وتركهم لذكره وخبره والبشارة به ، أي لم يكونوا مفارقين تاركين لما علموه من خبره حتى ظهر ، فانفكوا حينئذ . وذاك يقول : لم يكونوا منفكين، أي متفرقين ، إلا إذا جاء الرسول ، لمفارقتهم ما كان عندهم من خبره ، وهو معنى ما حكاه أبو الفرج : لم يختلفوا أن الله يبعث إليهم نبيّاً حتى بعث فافترقوا .

فالانفكاك انفكاك بعضهم عن بعض ، أو انفكاكهم عما كان عندهم من علمه وخبره ، وهذا القول ضعيف ـ لم يرد بهذه الآية قطعاً ، فإن الله لم يذكر أهل الكتاب ، بل ذكر الكفار من المشركين وأهل الكتاب ، ومعلوم أن المشركين لم يكونوا يعرفونه ويذكرونه ويجدونه في كتبهم ، كما كان ذلك عند أهل الكتاب ، ولا كانوا قبل مبعثه على دين واحد ، متفقين عليه . فلما جاء تفرقوا .

فيمتنع أن يقال : لم يكن المشركون تاركين لمعرفة محمد وذكره والإيمان به ، ولم يكونوا مختلفين في ذلك ، ولا متفرقين فيه حتى بعث ، فهذا معنى باطل في المشركين .

ولا يستقيم هذا أيضاً في أهل الكتاب ، فإن الله إنما ذكر الكفار منهم ، فقال : ﴿ **لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَالمُشْرِكِينَ** ﴾ [1] ومعلوم أن الذين كانوا يعرفون نبوته ويقرون به ويذكرونه قبل أن يبعث لم يكونوا كلهم كفاراً ، بل كان الإيمان أغلب عليهم .

يبين هذا أنه إذا ذكر تفرق الذين أوتوا الكتاب من بعد ما جاءتهم البينة ، فإنه يعمهم فيقول : ﴿ **وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَةُ** ﴾ [2] . وأنه لا يقول : كان الكفار من أهل الكتاب متفقين على

---

(١) سورة البينة آية رقم ١ .

(٢) سورة البينة آية رقم ٤ .

الحق حتى جاءتهم البينة .

وأيضاً فاستعمال لفظ « الانفكاك » في هذا غير معروف ، لا يعرف في اللغة له شاهد ، فتسمية الافتراق والاختلاف « انفكاكاً » غير معروف .

وأيضاً فهو لم يذكر لـ ﴿ **منفكين** ﴾ خبراً كما يقال : ما انفكوا يذكرون محمداً ، وما زالوا يؤمنون به ، ونحو ذلك ، وهذه التي هي من أخوات « كان » لا يقال فيها « ما كنت منفكاً » بل يقال « ما انفككت أفعل كذا » فهو يلي حرف « ما » .

وأيضاً فليس في اللفظ ما يدل على أن الانفكاك عن أمر محمد خاصة ، وأيضاً فهذا المعنى مذكور في قوله : ﴿ **وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ إلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَةُ** ﴾ (١) فلو أريد بهذه لكان تكريراً محضاً .

والقول الأول : أشهر عند المفسرين ، ومنهم من يذكر غيره ، كالبغوي وغيره ، فإنه معروف عن مجاهد ، والربيع بن أنس ، كما في التفسير المعروف عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد : ﴿ **منفكين** ﴾ قال : منافقين لم يكونوا ليؤمنوا حتى تبين لهم الحق ، وقال الربيع بن أنس : لم يزالوا مقيمين على الشك والريبة حتى جاءتهم البينة والرسل . وهذا القول يتضمن مدحهم والثناء عليهم بعد مجيء البينة ، ولهذا احتاج من قاله إلى أن يقول : هذا فيمن آمن من الفريقين في أنه بيان لنعمة الله عليهم ، وجعلوا قوله : ﴿ **وما تفرق الذين أوتوا الكتاب** ﴾ فيمن لم يؤمن منهم بمحمد ﷺ .

وهذا أيضاً ضعيف، فإن أهل الكتاب تفرقوا واختلفوا قبل إرسال محمد إليهم ، كما أخبر الله بذلك في غير موضع ، فقال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إسْرَائِيلَ الكِتَابَ وَالحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وفضَّلْنَاهُمْ عَلى العَالَمِينَ ، وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِنَ الأَمْرِ ، فَمَا اخْتَلَفُوا إلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ العِلْمُ**

(١) سورة البينة آية رقم ٤ .

بَغْياً بيْنَهُم، إنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيامَة فِيما كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفون﴾[1]. وقال: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ الله النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الكِتَابَ بِالحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾[3]، ثم قال: ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ فِيه إلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى الله الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِهِ، وَالله يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[4]

فأخبر أن الله هدى المؤمنين لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فكان الاختلاف قبل وجود أمة محمد ﷺ.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[5]. وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ العِلْمُ، إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[6] ثم قال تعالى: ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ـ لَقَدْ جَاءَكَ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ ﴾[7].

وقال تعالى: ﴿ تَالله لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ اليَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ

---

(١) سورة الجاثية آية رقم ١٦ ـ ١٧.

(٢) سورة الجاثية آية رقم ١٨.

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢١٣.

(٤) سورة البقرة آية رقم ٢١٣.

(٥) سورة النحل آية رقم ١٢٤.

(٦) سورة يونس آية رقم ٩٣.

(٧) سورة يونس آية رقم ٩٤.

لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [1] ، فقد أخبر تعالى أنه أرسل إلى أمم من قبل محمد ، وأن الشيطان زين لهم أعمالهم ، وهو - حين يبعث محمد - وليهم ، وأنه أنزل إليهم الكتاب ليبين لهم الذي اختلفوا فيه .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ، وَإِنَّهُ لَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [2] وقال لأمة محمد : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [3] . فهذا بين أنهم تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات قبل محمد ، وقد نهى الله أمته أن يكونوا مثلهم .

وقد قال تعالى : ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ، فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [4] . وقال عن اليهود : ﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [5] . وقال : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَماً مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ ﴾ [6] . وقد جاءت الأحاديث في السنن والمسند من وجوه عن النبي ﷺ أنه قال : « تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة » [7] . وإن كان بعض الناس - كابن حزم - يضعف هذه الأحاديث ، فأكثر أهل العلم قبلوها وصدقوها .

---

(١) سورة النحل آية رقم ٦٣ - ٦٤ .

(٢) سورة النمل آية رقم ٧٦ - ٧٧ .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ١٠٥ .

(٤) سورة المائدة آية رقم ١٤ .

(٥) سورة المائدة آية رقم ٦٤ .

(٦) سورة الأعراف آية رقم ١٦٨ .

(٧) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الفتن ١٧ باب افتراق الأمم ٣٩٩١ - ثنا محمد بن بشر ، ثنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره ورواه أبو داود في السنة ١ والامام الترمذي في الإيمان ١٨ ورواه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٣،٣٣٢ : ١٤٥ (حلبي) .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « ذروني ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » [1] .

وفي الصحيحين عنه أنه قال : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ، وأوتيناه من بعدهم ، فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه ، فهدانا الله له . الناس لنا فيه تبع ـ غداً لليهود ، وبعد غد للنصارى » [2] .

وهذا معلوم بالتواتر أن أهل الكتاب اختلفوا وتفرقوا قبل إرسال محمد ﷺ ، بل اليهود افترقوا قبل مجيء المسيح ، ثم لما جاء المسيح اختلفوا فيه ، ثم اختلف النصارى اختلافاً آخر . فكيف يقال : إن قوله ﴿ **وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ إلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَةُ** ﴾ [3] هو فيمن لم يؤمن بمحمد منهم ؟

وأيضاً فالذين كفروا بمحمد كفار ، وهم المذكورون في قوله : ﴿ **لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ البَيِّنَةُ** ﴾ [4] وهم تفرقوا واختلفوا فيما جاءت به الأنبياء قبل محمد ، وكفر من كفر منهم قبل إرسال محمد .

---

(١) الحديث رواه ابن ماجه في المقدمة ١ باب اتباع سنة رسول الله ـ ﷺ ـ ٢ ـ عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ وذكره .
ورواه الامام مسلم في الحج ٤١٢ والنسائي في المناسك ١ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ١٩٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٨ ، ٣١٣ (حلبي) .

(٢) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء ٥٤ باب ٣٤٦٦ ، ٣٤٨٦ حدثنا وهيب ، قال : حدثني طاوس عن أبيه عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه عن النبي ـ ﷺ ـ قال : وذكره .
ورواه في الأيمان ١ والديات ١٥ والتعبير ٤٠ والتوحيد ٣٥ ورواه الامام مسلم في الجمعة ١٩ ـ ٢١ والنسائي في الجمعة ١ والدارمي في المقدمة ٨ .

(٣) سورة البينة آية رقم ٤ .

(٤) سورة البينة آية رقم ١ .

وكان منهم من لم يكفر ، بل كان مؤمناً بالأنبياء كما قال تعالى : ﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ (١) ، ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَماً مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً ، مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ،وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٣) . وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِم مِن رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ، مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ (٤) .

وفي صحيح مسلم وغيره عن عياض بن حمار عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم - عربهم وعجمهم - إلا بقايا من أهل الكتاب ، وإن ربي قال لي : قم في قريش فأنذرهم ، فقلت : أي رب ! إذاً يثلغوا رأسي حتى يدعوه خبزة ، فقال : إني مبتليك ومبتل بك ، ومنزل عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرأه نائماً ويقظاناً ، فابعث جنداً نبعث مثليهم ، وقاتل بمن أطاعك من عصاك » (٥) والحديث أطول من هذا .

والمقصود هنا الكلام على الآية ، فنقول : القول الثالث وهو أصح الأقوال لفظاً ومعنى .

أما من جهة اللفظ ودلالته وبيانه ، فإن هذا اللفظ هو مستعمل فيما يلزم به الإنسان - يعني اختياره - ويقهر عليه إذا تخلص منه ، يقال : انفك منه ،

---

(١) سورة الأعراف آية رقم ١٥٩ .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ١٦٨ .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ١١٣ - ١١٤ .

(٤) سورة المائدة آية رقم ٦٦ .

(٥) الحديث رواه الامام مسلم في الجنة ٦٣ والامام أحمد بن حنبل في المسند ٤ : ١٦٢ (حلبي) .

كالأسير والرقيق المقهور بالرق والأسر ، يقال : فككت الأسير فانفك ، وفككت الرقبة ، قال تعالى : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا العَقَبَةُ ، فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ [1] .

وقال النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري : « عودوا المريض ، واطعموا الجائع ، وفكوا العاني » [2] . وفي الصحيح أيضاً أن علياً لما سئل عما في الصحيفة فقال : فيها العقل ، وفكاك الأسير ، وأن لا يقتل مسلم بكافر .

ففكه : فصله عمن يقهره ويستولي عليه بغير اختياره ، والتفريق بينهما .

ويقال : فلان ما يفك فلاناً حتى يوقعه في كذا وكذا ، والمتولي لا يفك هذا حتى يفعل كذا ـ يقال لمن لزم غيره واستولى عليه إما بقدرة وقهر ، وإما بتحسين وتزيين وأسباب ، حتى يصير بها مطيعاً له .

ويقال للمستولي عليه : هو ما ينفك من هذا ، كما لا ينفك الأسير والرقيق من المستولي عليه .

فقوله : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَالمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ ﴾ [3] ، أي لم يكونوا متروكين باختيار أنفسهم ـ يفعلون ما يهوونه لا حجر عليهم ، كما أن المنفك لا حجر عليه ، وهو لم يقل « مفكوكين » بل قال ﴿ منفكين ﴾ . وهذا أحسن ، فإنه نفي لفعلهم ، ولو قال «مفكوكين» كان التقدير : لم يكونوا مسيبين مخلين ، فهو نفي لفعل غيرهم ، والمقصود أنهم

---

(١) سورة البلد آية رقم ١٢ .

(٢) الحديث رواه الامام البخاري في الجهاد ١٧١ باب فكاك الأسير فيه عن أبي موسى عن النبي ـ ﷺ ٣٠٤٦ عن منصور عن أبي وائل عن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ وذكره .
ورواه أيضاً في الأطعمة ١ والنكاح ٧١ والمرض ٤ ورواه الامام أحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٢٣ ، ٣١ ، ٤٨ ، ٣٩٤ ، ٤٠٦ (حلبي) .

(٣) سورة البينة آية رقم ١ .

لم يكونوا متروكين - لا يؤمرون ولا ينهون ، ولا ترسل إليهم رسل ، بل يفعلون ما شاؤوا مما تهواه الأنفس .

والمعنى أن الله ما يخليهم ولا يتركهم ، فهو لا يفكهم حتى يبعث إليهم رسولاً ، وهذا كقوله : ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً ﴾ [1] لا يؤمر ولا ينهى . أي أيظن أن هذا يكون ؟ هذا ما لا يكون البتة ، بل لا بد أن يؤمر وينهى .

وقريب من ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ، وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ، أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ ﴾ [2] وهذا استفهام إنكار ، أي لأجل إسرافكم نترك إنزال الذكر ، ونعرض عن إرسال الرسل ، ومن كره إرسالهم ؟ فإن الأول تكذيب بوجودهم ، والثاني يتضمن بغضهم وكراهة ما جاؤوا به . قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ الله فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [3] وقال عن مؤمن آل فرعون : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ الله مِن بَعْدِهِ رَسُولاً ، كَذَلِكَ يُضِلُّ الله مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴾ [4] . وأما من كذب بهم بعد الإرسال فكفره ظاهر ، ولكن من ظن أن الله لا يرسل إليه رسولاً ، وأنه يترك سدى مهملاً لا يؤمر ولا ينهى ، فهذا أيضاً مما ذمه الله ، إذا كان لا بد من إرسال الرسل وإنزال الكتب ، كما أنه أيضاً لا بد من الجزاء على الأعمال بالثواب والعقاب وقيام القيامة .

ولهذا ينكر سبحانه على من ظن أن ذلك لا يكون ، فقال تعالى :

---

(١) سورة القيامة آية رقم ٣٦ .
(٢) سورة الزخرف آية رقم ٣ - ٥ .
(٣) سورة محمد آية رقم ٩ .
(٤) سورة غافر آية رقم ٣٤ .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ، ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ، أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ ؟أَمْ نَجْعَلُ المُتقِينَ كَالفُجَّارِ ؟ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقنَاكُمْ عَبَثاً وأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرجَعُون ﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالحَقِّ ، وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الجَمِيلَ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الخَلَّاقُ العَلِيمُ ﴾ [3] وقال : ﴿ وَخَلَقَ الله السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بِالحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ [4] . وقال عن أولي الألباب : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ الله قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً ، سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [5] ونحوه في القرآن مما يبين أن الأمر والنهي ، والثواب والعقاب ، والمعاد ، مما لا بد منه ، وينكر على من ظن أو حسب أن ذلك لا يكون، وهو يقتضي وجوب وقوع ذلك ، وأنه يمتنع أن لا يقع . وهذا متفق عليه بين أهل الملل المصدقين للرسل من المسلمين وغيرهم من جهة تصديق الخبر ، فإن الله أخبر بذلك ، وخبره صدق ، فلا بد من وقوع مخبره ، وهو واجب بحكم وعده وخبره ، فإنه إذا علم أن ذلك سيكون ، وأخبر أنه سيكون ، فلا بد أن يكون ، فيمتنع أن يكون شيء على خلاف ما علمه وأخبر به ، وكتبه وقدره .

وأيضاً فإنه قد شاء ذلك ، وما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولا بدّ أن يقع كل ما شاءه .

---

(١) سورة ص آية رقم ٢٧ ـ ٢٨ .

(٢) سورة المؤمنون آية رقم ١١٥ .

(٣) سورة الحجرآية رقم ٨٥ ـ ٨٦ .

(٤) سورة الجاثية آية رقم ٢٢ .

(٥) سورة آل عمران آية رقم ١٩١ .

لكن هل يقال : إن المشيئة موجبة ، فيه نزاع ، وكذلك يقال: إن ذلك وجب لإيجابه له على نفسه ، أو لاقتضاء حكمته ذلك ، فيه أيضاً نزاع .

وما أقسم ليفعلنه فلا بدّ أن يقع ، والقسم متضمن معنى الخبر ، ومعنى الحض والطلب ، لكن في ثبوت الثاني في حق الله نزاع بين الناس ، كقوله : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (١) وقوله : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ (٢) .

والذين قالوا إن حكمته أو حكمه أو مشيئته توجب ذلك يقولون: إن ذلك قد يعرف بالعقل ، فيقولون : إنه قد يعرف بالعقل أنه لا بد من إرسال الرسل ، وأن ذلك واجب في حكمه وحكمته ، وهذا قول كثير من الطوائف ، أو أكثرهم .

ومنهم من يقول : لا يعلم شيء من ذلك إلا بالخبر ، وهذا قول الجهمية والأشعرية ، وذاك قول المعتزلة ، والكرامية ، والحنفية ، أو أكثرهم .

وأما أصحاب مالك ، والشافعي ، وأحمد ، فمنهم من يقول بهذا ، ولكن جمهور الفقهاء مع السلف يثبتون الحكمة والتعليل ، وإنما ينفي ذلك منهم من وافق الجهمية المجبرة ، كالأشعري ومن وافقه .

وكذلك جمهورهم يثبتون للأفعال صفات بها كانت حسنة أو سيئة قبيحة ، لا يجعلون حسنها وقبحها ترجيحاً لأحد الأمرين بلا مرجح بل لمحض المشيئة ، كما تقوله الجهمية ومن وافقهم .

هذا قول الأئمة والجمهور ، كما أن الأئمة والجمهور على إثبات القدر والإيمان به ، وأن الله خالق كل شيء ، وأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم

---

(١) سورة ص آية رقم ٨٥ .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ١٦٧ .

يكن ، لا يقولون بقول من أنكر القدر من المعتزلة ونحوهم ، ولا يقول من أنكر حكمة الرب من الجهمية المجبرة ونحوهم .

فلا يقولون بقول القدرية النفاة للقدر ، ولا بقول القدرية المجبرة الذين يستلزم قولهم إنكار الأمر والنهي ، والوعد والوعيد ، والجزاء بالثواب والعقاب ، لا سيما من أفصح منهم بذلك ، أو قال : إن من شهد القدر سقط عنه الأمر والنهي والوعد والوعيد .

فآمنوا بما جاءت به الرسل في الجملة ، وأوجبوا ما أوجبه الله ، وحرموا ما حرمه الله ، وآمنوا بالجنة والنار ، واجتهدوا في متابعة الرسل ، لكن أخطأوا حيث نفوا القدر ، وظنوا أن إثباته يناقض الأمر والنهي [والوعد] والوعيد ، وأنه لا يتم إيمانهم بأن الله عادل صادق حتى يكذبوا بالقدر ، وبإخراج أهل الكبائر من النار ، ظنًّا منهم أن الله أخبر بأن كل من كان له ذنب يستحق به العذاب لا يخرجه من النار ، ولا يرحمه أبداً ، فلم يجوزوا أن يعذب بذنبه ثم يرحم ، بل عندهم من كان له ذنب يستحق به العذاب لم يرحم أبداً .

وهم وإن كانوا لم يتعمدوا تكذيب الرسل فقولهم هذا يتضمن مخالفة الأخبار المتواترة عند أهل العلم بالحديث عن النبي ﷺ في خروج أهل الذنوب من النار ، وشفاعة الشفعاء فيهم ، ويتضمن أنهم آيسوا الخلق من رحمة الله مع تكذيبهم بعموم خلق الله ، ومشيئته وقدرته ، حيث زعموا أن من الحوادث ما لا يقدر عليه ولا يشاءه ولا يخلقه .

وتشبهوا بالمجوس من هذا الوجه ، حتى قيل : القدرية مجوس هذه الأمة .

وقابلهم أولئك ، فتوقفوا في خبر الله مطلقاً ، حتى أنكروا صنفي العموم ، فلم يعلموا بخبره ما أخبر به من الوعد والوعيد . فلا يجزمون بالنجاة للصنف الذين يعلم الله أنهم آمنوا وعملوا الصالحات ، وكانوا من أعظم الناس طاعة لله ، إذا كان لأحدهم سيئة واحدة صغيرة ، ولا بالعذاب للصنف الذين

يعلم الله أنهم أفجر أهل القبلة وشرها ، بل يجوزون مع علم الله بهذا وبهذا أن يعذب أهل الحسنات الكبيرة على سيئة صغيرة عذاباً ما يعذبه أحداً من أهل القبلة ، وأن يدخل فجار أهل القبلة الجنة مع السابقين الأولين .

وبسط الكلام على هؤلاء وهؤلاء له مقام آخر .

والمقصود هنا أن هذه السورة دلت على ما تدل عليه مواضع أخر من القرآن ، من أن الله يرسل الرسل إلى الناس تأمرهم وتنهاهم ـ يرسلهم مبشرين ومنذرين ، كما قال تعالى : ﴿ **وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ** ﴾ (١) ينذرون الذين أساؤوا عقوبات أعمالهم ، ويبشرون الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالنعيم المقيم ، و﴿ **أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً مَاكِثِينَ فِيهِ أَبداً** ﴾ (٢)

فقوله : ﴿ **لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مَنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَالمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ البَيِّنَةُ** ﴾ (٣) بيان منه أن الكفار لم يكن الله ليدعهم ويتركهم على ما هم عليه من الكفر ، بل لا يفكهم حتى يرسل إليهم الرسول بشيراً ونذيراً ﴿ **لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالحُسْنَى** ﴾ (٤).

ومما يبين ذلك أن « حتى » حرف غاية ، وما بعد الغاية يخالف ما قبلها ، كما في قوله : ﴿ **حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الفَجْرِ** ﴾ (٥) وقوله ﴿ **حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ** ﴾ (٦) وقوله : ﴿ **حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ** ﴾ (٧) ونظائر ذلك .

---

(١) سورة الأنعام آية رقم ٤٨ .
(٢) سورة الكهف آية رقم ٢ ـ ٣ .
(٣) سورة البينة آية رقم ١ .
(٤) سورة النجم آية رقم ٣١ .
(٥) سورة البقرة آية رقم ١٨٧ .
(٦) سورة البقرة آية رقم ٢٢٢ .
(٧) سورة البقرة آية رقم ٢٣٠ .

فلو أريد أنهم لم يكونوا منتهين ويؤمنون حتى يتبين لهم الحق لزم أن يكونوا كلهم بعد مجيء البينة قد انتهوا وآمنوا . فإن اللفظ عام فيهم . وكذلك لو كان المراد أنهم كانوا متفقين على تصديق الرسول حتى بعث لزم أن يكونوا كلهم كانوا يعرفونه قبل إرساله إليهم ، وأنهم كلهم بعد إرساله تفرقوا واختلفوا ، وكلاهما باطل ، فكثير منهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني ، ولم يكونوا يعرفون ما في الكتب من بعثه ومن أمور أخر ، ولما بعث فقد آمن به خلق كثير منهم ، ولم يتفرقوا كلهم عن الإيمان به .

وحينئذ فالآية لم تتضمن مدحهم مطلقاً ، كما ظن من ظن أن معناها أنهم لم ينتهوا ولم يؤمنوا حتى يتبين لهم الحق ، ولا تتضمن ذمهم مطلقاً ، كما ظن من ظن أنهم لما جاءهم الرسول تفرقوا واختلفوا بعد ما كانوا متفقين على التصديق ، بل تضمنت مدح من آمن منهم بالرسول ، وذم من لم يؤمن ، والإخبار أنه لا بد من إرسال الرسول إليهم ، فيؤمن به بعضهم ويكفر بعض .

قال تعالى : ﴿ **تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ، مِنْهُم مَن كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ، وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ** ﴾ (١) .

ثم إن الذين آمنوا بالرسل لا بد أن يمتحنهم ليميز بين الصادق والكاذب كما قال تعالى : ﴿ **أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ** ﴾ (٢)

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٥٣ .

(٢) سورة العنكبوت آية رقم ٢ ـ ٣ .

ثم قـال : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّـذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَـاتِ أَنْ يَسْبِقُـونَـا ، سَـاءَ مَـا يَحْكُمُونَ ﴾ (١) .

فالناس إذا أرسـل إليهم أحد رجلين : إمـا رجل آمن بهم في الـظاهر ، فلا بد أن يمتحن حتى يتبين الصـادق من الكاذب . وإمـا رجل عمـل السيئات ولم يؤمن ، فلا يفوت الله ، بل هو آخذه ـ سبحانه وتعالى .

ولهذا انقسم الناس في الرسل إلى ثـلاثة أقسـام ـ مؤمن باطن وظـاهر ، وكافر مظهر للكفر ، ومنافق مظهر للإيمان مبطن للكفر ، ومن حين هاجر النبي ﷺ إلى المدينة حصـل هذا الانقسـام ، وأنزل الله تعـالى في أول البقرة أربـع آيـات في صفة المؤمنين ، وآيتين في صفـة الكافـرين ، وبضع عشـرة آية في صفة المنافقين .

وأما حين كان بمكة وكان المؤمنون مستضعفين ، فلم يكن أحد يحتـاج إلى النفاق ، بل كان من المؤمنين من يكتم إيمانه من كثير من الناس . ومنهم من يتكلم بالكفر مكرهاً مع طمأنينة قلبه بالإيمان ، وهذا مؤمن باطناً وظاهراً ، فإنه وإن أظهر الكفر لبعض النـاس لما أكـره عليه ، أو كتم عنـه إيمانـه ، فهو بتكلم بالإيمان في خلوته ومع من يـأمنه ، ويعمـل بما يمكنـه ، وما عجـز عنه فقد سقط عنه .

ولهـذا قال العلمـاء ، منهم أحمد بن حنبـل : لم يكن يمكنهم نفـاق ، إنما كان النفاق بالمدينة .

ولكن كـان بمكة من في قلبـه مرض ، كمـا قـال في السـورة المكيـة : ﴿ وَلاَ يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ وَالمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُـولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَـرَضٌ والكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ الله بِهَذَا مَثَلاً ﴾ (٢) .

---

(١) سورة العنكبوت آية رقم ٤ .

(٢) سورة المدثر آية رقم ٣١ .

وهو سبحانه قد ذكر أن المظهرين للإيمان ما كان ليدعهم حتى يميز الخبيث من الطيب ويمتحنهم ، كما قال تعالى : ﴿ **مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يمِيزَ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ** ﴾ (١) . وقال : ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ، وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ (٢) . وقال تعالى ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ ، مَسَّتْهُمُ البَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ ، أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ** ﴾ (٣) وأمثال ذلك .

فكذلك الذين كفروا لم يكن ليتركهم حتى يبعث إليهم الرسول بالآيات البينات . فهذا معنى قوله ﴿ **لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَالمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ البَيِّنَةُ** ﴾ (٤) . وهم إذا جاءتهم البينة منهم من يؤمن ، ومنهم من يكفر .

وإذا قيل : إن الآية تتضمن بعد ذلك المعنى الآخر ، وهو أنهم لم يكونوا ليهتدوا ويعرفوا الحق ويؤمنوا حتى تأتيهم البينة ، إذ لا طريق لهم إلى معرفة الحق إلا برسول يأتي من الله أيضاً ، أو لم يكونوا منتهين متعظين وإن عرفوا الحق حتى يأتيهم من الله من يذكرهم ، فهذا المعنى لا يناقض ذاك .

بخلاف قول من قال : لم يكن المشركون وأهل الكتاب تاركين لمعرفة محمد ولذكره ، ولم يكونوا متفرقين فيه ، بل متفقين على الإيمان به ، حتى جاءتهم البينة ، فتركوا الإيمان به وتفرقوا ، فإن هذا غير مراد قطعاً .

ومما يبين ذلك قوله: ﴿ **حتى تأتيهم البينة** ﴾ ولم يقل « حتى أتتهم »

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٧٩ .
(٢) سورة التوبة آية رقم ١٦ .
(٣) سورة البقرة آية رقم ٢١٤ .
(٤) سورة البينة آية رقم ١ .

وأولئك لما لم يفهموا معنى الآية ظنوا أن الموضع موضع الماضي ، وأن المراد : ما انفكوا عما كانوا عليه ـ إما من كفر ، وإما من إيمان ـ حتى أتتهم البينة ـ فلما قيل ﴿ **حتى تأتيهم البينة** ﴾ أشكل عليهم ، وقال بعضهم : لما تأتهم كلها .

وأما على المعنى الصحيح فالموضع موضع المضارع ، كقوله تعالى : ﴿ **مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ** ﴾ (١) . فإن المراد : ما كانوا مفكوكين متروكين حتى تأتيهم البينة .

وهو سبحانه قال : ﴿ **لم يكن الذين كفروا** ﴾ و﴿ **لم** ﴾ وإن كانت تقلب المضارع ماضياً فذاك إذا تجرد ، فقيل « لم يأت » و« لم يذهب » فمعناه « ما أتى » و« ما ذهب » .

وأما إذا قيل « لم يكن يفعل هذا » و﴿ **لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً** ﴾ (٢) فالمقصود معنى الفعل الدائم مطلقاً ، وإذا قيل « لم يكن فلان آتياً حتى يذهب إليه فلان » بخلاف ما إذا قلت : لم يكن فلان قد أتى حتى ذهب إليه فلان » . ولو قيل « ما كان فلان فاعلاً لهذا حتى يكون كذا » كان نحو ذاك بخلاف ما إذا قيل « ما كان فلان قد فعل حتى أتى فلان » . فنفي المضارع الذي خبره اسم فاعل وهو الدائم ، والمراد : لم يكونوا في الحال والاستقبال متروكين حتى تأتيهم البينة ، ولو قيل هنا « حتى أتتهم البينة » لم يكن موضعه .

وكذلك لو أراد الانتهاء عن الكفر والإيمان لقيل ﴿ **حتى تأتيهم البينة** ﴾ أي لم يكونوا يعرفون الحق حتى يأتيهم نبي يعرفهم ، أو لم يكونوا متعظين عاملين حتى يأتي من يعظهم ويذكرهم ، فليس هذا موضع الماضي ، بخلاف ما لو قيل « ما زالوا كافرين حتى أتاهم » .

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٧٩ .

(٢) سورة النساء آية رقم ١٣٧ .

فالآية تتضمن الإخبار عن وجوب إثبات البينة ، وامتناع الانفكاك بدونها ، لم يقصد بها مجرد الخبر عن عدم الانفكاك ثم ثبوته في الماضي وهو كما لو قيل « لم يكونوا ينفكون حتى تأتيهم البينة » لكن هنا ذكر اسم الفاعلين ، فقيل ﴿ **منفكين** ﴾ .

وهو سبحانه لما ذكر أنه لا بد من إرسال الرسل إلى الذين كفروا من المشركين وأهل الكتاب لتقوم عليهم الحجة بذلك ذكر بعد هذا أن أهل الكتاب الذين آمنوا بالرسل ما تفرقوا إلا من بعد ما جاءتهم البينة ، وقامت عليهم الحجة ، فبينات الله وحجته قامت على هؤلاء وهؤلاء .

وهو لم يعذب واحداً من الحزبين إلا بعد أن جاءتهم البينة، وقامت عليهم الحجة ، كما في قصة ومن أرسل إليه ، فإن الله لم يدع فرعون وقومه حتى أرسل إليهم موسى ، ولم يعذبهم إلا بعد إقامة الحجة . ثم لما آمن بنو إسرائيل بالكتب والرسل لم يتفرقوا ويختلفوا إلا من بعد ما جاءتهم البينة ، فلم يكونوا معذورين في ذلك .

ولهذا نهيت أمة محمد عن التشبه بهم ، فقيل : ﴿ **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ** ﴾ (1) .

والناس الذين بعث إليهم محمد هم كذلك ، فمن كان كافراً لم يكن منفكاً حتى تأتيه البينة ، ومن آمن بمحمد من الأمم ثم تفرقوا واختلفوا فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءتهم البينة .

وما أمر الجميع ﴿ **إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ** ﴾ (2) .

والآية تضمنت مدح الرب وذكر حكمته وعدله وحجته في أنه لا يدعهم

---

(1) سورة آل عمران آية رقم ١٠٥ .

(2) سورة البينة آية رقم ٥

حتى يرسل إليهم رسولاً ، كما قال لأهل الكتاب : ﴿ **قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ، فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ** ﴾ (1) الآية ، لم تتضمن مدحهم على بقائهم على الكفر حتى يأتي الرسول ، فإن هذا غايته أن لا يعاقبوا عليه حتى يأتي الرسول ، لا أن يحمدوا عليه حتى يأتي الرسول ، فإن هذا لا يقوله عاقل ، ولم يقله أحد ، لا سيما وأهل الكتاب قد قامت عليهم الحجة بأنبياء قبله .

ونظير هذا في اللفظ قوله : ﴿ **وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ** ﴾ (2) . ليس المراد : ما كنتم بالغيه في الماضي ، بل هذه حالهم دائماً .

فقوله : ﴿ **لم يكن الذين كفروا ـ منفكين حتى تأتيهم** ﴾ يقتضي أن هذه حالهم دائماً .

وتضمنت السورة ذكر أصناف الخلق ، وما أمر الله به جميع العباد ، وأن ذلك أمر لا بد منه ـ لا بد من إرسال الرسل ، وإنزال الكتب ـ وبيان السعداء أهل الجنة ، والأشقياء أهل النار .

فقوله : ﴿ **لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ، رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً** ﴾ (3) جملة . فيه بيان إرسال [الرسول] إلى الجميع ، وقوله : ﴿ **وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ** ﴾ (4) فيه إقامة الحجة على أهل الشرائع ، وذم تفرقهم واختلافهم ، وأن ذلك بعد أن جاءتهم البينة . وهاتان الجملتان نظيرهما قوله : ﴿ **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ** ،

---

(1) سورة المائدة آية رقم ١٩ .

(2) سورة النحل آية رقم ٧ .

(3) سورة البينة آية رقم ١ -٢ .

(4) سورة البينة آية رقم ٤ .

وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الكِتَابَ بِالحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ [1] ، ثم قال : ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِما جَاءَتْهُمُ البَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ، فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِهِ ﴾[2] .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ، وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى المُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [3] . ثم قال : ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ العِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾ [4] . وقوله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾ [5] في سورة « هود » وسورة « فصلت » .

ثم ذكر ما أمر به الجميع بقوله : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ القَيِّمَةِ ﴾ [6] . ثم ذكر عاقبة الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ، وعاقبة الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

---

(1) سورة البقرة آية رقم ٢١٣ .
(2) سورة البقرة آية رقم ٢١٣ .
(3) سورة الشورى آية رقم ١٣ .
(4) سورة الشورى آية رقم ١٤ .
(5) سورة هود آية رقم ١١٠ وسورة فصلت آية رقم ٤٥ .
(6) سورة البينة آية رقم ٥ .

فصل

وقولـه : ﴿ وَمَـا تَفَـرَّقَ الَّـذِينَ أُوتُـوا الكِتَـابَ إِلَّا مِنْ بَعْـدِ مَـا جَـاءَتْهُمُ البَيِّنَةُ ﴾ (١). قال طائفة من المفسـرين : هو تفـرقهم في محمد بعـد أن كانـوا مجتمعين على الإيمان به .

ثم من هؤلاء من جعـل تفـرقهم إيمـان بعضهم وكفـر بعض . قـال البغوي : ثم ذكر من لم يؤمن من أهل الكتاب ، فقـال : ﴿ **وما تفـرق الذين أوتـوا الكتاب إلا من بعـد ما جـاءتهم البينة** ﴾ . أي البيـان في كتبهم أنه نبي مرسل . قال المفسرون : لم يـزل أهل الكتـاب مجتمعين في تصديق محمـد حتى بعثه الله ، فلما بعث تفـرقوا في أمـره واختلفوا فـآمن به بعضهم وكفـر به بعضهم .

وهكـذا ذكر طـائفة في قـوله : ﴿ وَلَقَـدْ بَوَّأْنَـا بَنِي إِسْرَائِيـلَ مُبَوَّأَ صِـدْقٍ وَرَزَقْنَـاهُمْ مِنَ الـطَّيِّبَـاتِ ، فَمَـا اخْتَلَفُـوا حَتَّىٰ جَـاءَهُمُ العِلْمُ ﴾ (٢) قـال أبـو الفرج ، قال ابن عباس : ما اختلفوا في أمر محمـد ، لم يزالـوا به مصـدقين حتى جـاءهم العلم ، يعني القرآن ، وروي عنـه : حتى جاءهم العلم ، يعني محمداً ، فعلى هذا يكـون العلم هنا عبـارة عن المعلوم ، وبيان هـذا أنه لمـا

(١) سورة البينة آية رقم ٤ .

(٢) سورة يونس آية رقم ٩٣ .

جاءهم اختلفوا في تصديقه ، فكفر به أكثرهم بغياً وحسداً بعد أن كانوا مجتمعين على تصديقه بغياً وحسداً .

ومنهم من جعل المتفرقين كلهم كفاراً . قال ابن عطية : ثم ذكر تعالى مذمة من لم يؤمن من أهل الكتاب من بني إسرائيل من أنهم لم يتفرقوا في أمر محمد إلا من بعد أن رأوا الآيات الواضحة ، وكانوا من قبل متفقين على نبوته وصفته ، فلما جاء من العرب حسدوه . وكذلك قال الثعلبي : ما تفرق الذين أوتوا الكتاب في أمر محمد فكذبوه إلا من بعد ما جاءتهم البينة - البيان في كتبهم أنه نبي مرسل . قال العلماء : من أول هذه السورة إلى قوله : ﴿ **فيها كتب قيمة** ﴾ حكمها فيمن آمن من أهل الكتاب والمشركين ، ﴿ **وما تفرق** ﴾ حكمه فيمن لم يؤمن من أهل الكتاب بعد قيام الحجة عليه .

وكذلك قال أبو الفرج . قال : ﴿ **وما تفرق الذين أوتوا الكتاب** ﴾ يعني من لم يؤمن . ﴿ **إلا من بعد ما جاءتهم البينة** ﴾ ، وفيها ثلاثة أقوال : أحدها أنه محمد ، والمعنى لم يزالوا مجتمعين على الإيمان به حتى بعث . قاله الأكثرون :

والثاني : القرآن ، قاله أبو العالية [1] .

والثالث : ما في كتبهم من بيان نبوته ، ذكره الماوردي [2] ،

« **قلت** » : هذا هو الذي قطع به أكثر المفسرين ، ولم يذكر الثعلبي ،

---

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية فليرجع إليه .

(٢) هو علي بن محمد بن حبيب أبو الحسن الماوردي أقضى قضاة عصره من العلماء الباحثين ، أصحاب التصانيف الكثيرة النافعة ، ولد في البصرة عام ٣٦٤ هـ وانتقل إلى بغداد ، وولي القضاء في بلدان كثيرة ثم جعل « أقضى القضاة » في أيام القائم بأمر الله العباسي وكان يميل إلى مذهب الاعتزال ، وله المكانة العريقة عند الخلفاء توفي ببغداد عام ٤٥٠ هـ من كتبه « أدب الدنيا والدين » و « الأحكام السلطانية » وغير ذلك كثير . [راجع السبكي ٣ : ٣٠٣ والوفيات ١ : ٣٢٦] .

والبغوي ، وغيرهما سواه .

وأبو العالية إنما قال : الكتاب ، لم يقل : القرآن . هكـذا رواه ابن أبي حـاتم بالإسنـاد المعـروف عن الـربيـع بن أنس : ﴿ **إلا من بعـد مـا جـاءتهم البينة** ﴾ قال : قال أبو العالية : الكتاب ، ومراد أبي العالية ، جنس الكتـاب ، فيتنـاول الكتاب الأول ، كمـا قـال : ﴿ **وَلَقَـدْ آتَيْنَـا مُـوسَى الكِتَـابَ فَـاخْتُلِفَ فِيهِ** ﴾ [1] في موضعين من القرآن ، وقال تعـالى : ﴿ **فَبَعَثَ الله النَبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنـذِرِينَ وَأَنْـزَلَ مَعَهُمُ الكِتَـابَ بِـالحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّـاسِ فِيمَـا اخْتَلَفُـوا فِيهِ** ﴾ [2] . ثم قال : ﴿ **وَمَـا اخْتَلَفَ فِيهِ إلاَّ الَّـذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْـدِ مَا جَـاءَتْهُمُ البَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ، فَهَدَى الله الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِهِ** ﴾[3] .

وهـذا التفسير معـروف عن أبي العاليـة ، ورواه عن أبي بن كعب [4] .

ورواه ابن أبي حاتم وغيره عن الربيع ، عن أبي العـالية ، عن أبي بن كعب ، أنـه كـان يقرأها : ﴿ **كَـانَ النَّـاسُ أُمَّـةً وَاحِـدَةً فَبَعَثَ الله النَبِيِّينَ مُبَشِّـرِينَ وَمُنْـذِرِينَ** ﴾ [5]وأن الله إنمـا أرسـل الـرسـل وأنـزل الكتب عنـد الاختـلاف ، ﴿ **وأنـزل معهم الكتاب بـالحق** ﴾ . قـال : أنـزل الكتـاب عنـد الاختـلاف . ﴿ **وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه** ﴾ يعني بني إسرائيل . أوتـوا الكتاب والعلم

---

(١) سورة هود آية رقم ١١٠ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢١٣ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢١٣ .

(٤) هو أبي بن كعب بن قيس بن عبيد من بني النجار من الخزرج أبـو المنذر صحـابي أنصاري كـان قبل الاسلام حبراً من أحبار اليهود مطلعاً على الكتب القـديمة يكتب ويقـرأ ، ولما أسلم كـان من كتاب الوحي ، وشهد بدراً ، وأحداً ، والخندق والمشاهد كلها مع رسـول الله - ﷺ - وشهد مـع عمر وقعة الجابية له في الصحيحين وغيـرهما ١٦٤ حـديثاً تـوفي عام ٢١ هـ [راجـع طبقات ابن سعد ٣ القسم الثاني ٥٩ ، وغاية النهاية ١ : ٣١ وصفة الصفوة ١ : ١٨٨]

(٥) سورة البقرة آية رقم ٢١٣ وقد جاءت الآية محرفة في المـطبوعـة حيث جاءت ﴿ **كـان الناس أمة واحدة فاختلفوا** ﴾ .

﴿ من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم ﴾ يقول بغياً على الدنيا وطلب ملكها وزخرفها وزينتها أيهم يكون له الملك والمهابة في الناس ، فبغى بعضهم على بعض ، وضرب بعضهم رقاب بعض ﴿ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِهِ ﴾ [1] ، يقول : فهداهم الله عند الاختلاف أنهم أقاموا على ما جاءت به الرسل قبل الاختلاف ـ أقاموا على الإخلاص لله وحده ، وعبادته لا شريك له ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وأقاموا على الأمر الأول الذي كان قبل الاختلاف ، واعتزلوا الاختلاف ، فكانوا شهداء على الناس يوم القيامة ـ كانوا شهداء على قوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم شعيب ، وآل فرعون، إن رسلهم قد بلّغتهم وأنهم كذبوا رسلهم. قلت: الإختلاف في كتاب الله نوعان : أحدهما يذم فيه المختلفين كلهم ، كقوله ﴿ وإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ [2] وقوله : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَحِمَ رَبُّكَ ﴾ [3] ، والثاني يمدح المؤمنين ويذم الكافرين ، كقوله ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللهُ ما اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتهم البَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا ، وَلَكِنَّ اللهَ يَفعَل مَا يُرِيدُ ﴾ [4] وقوله : ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ، فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ [5] وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ ، إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [6] . وإذا كان كذلك فالذي ذمه من تفرق أهل الكتاب

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢١٣ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٧٦ .

(٣) سورة هود آية رقم ١١٨ ـ ١١٩ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ٢٥٣ .

(٥) سورة الحج آية رقم ١٩ ـ ٢٣

(٦) سورة الحج آية رقم ١٧ .

واختلافهم ذم فيه الجميع ، ونهى عن التشبه بهم ، فقال : ﴿ وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ البَيِّنَاتُ ﴾ (١) . وقال : ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾ (٢) .

وذلك بأن تؤمن طائفة ببعض حق وتكفر بما عند الأخرى من الحق ، وتزيد في الحق باطلاً ، كما اختلف اليهود والنصارى في المسيح وغير ذلك .

وحينئذ نقول : من قال إن أهل الكتاب ما تفرقوا في محمد إلا من بعد ما بعث ، إرادة إيمان بعضهم وكفر بعضهم ، كما قاله طائفة فالمذموم هنا من كفر ، لا من آمن ، فلا يذم كل المختلفين ، ولكن يذم من كان يعرف أنه رسول ، فلما جاء كفر به حسداً أو بغياً ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ الله مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ على الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَلَمَّا جَاءَهُم مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ الله عَلَى الكَافِرِينَ ﴾ (٣) .

وإن أريد بالتفرق فيه أنهم كلهم كفروا به وتفرقت أقوالهم فيه فليس الأمر كذلك ، وقد بين القرآن في غير موضع أنهم تفرقوا واختلفوا قبل إرسال محمد ﷺ ، فاختلاف هؤلاء وتفرقهم في محمد ﷺ هو من جملة ما تفرقوا واختلفوا فيه . والله أعلم .

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٠٥ .
(٢) سورة البقرة آية رقم ٢١٣ .
(٣) سورة البقرة آية رقم ٨٩ .



سورة التكاثر

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

فصل

« سورة التكاثر » قيل فيها : ﴿ زُرْتُمُ المَقَابِرَ ﴾ [1] تنبيهاً على أن الزائر لا بد أن ينتقل عن مزاره ، فهو تنبيه على البعث .

ثم قال : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ، ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [2] فهذا خبر عن علمهم في المستقبل ، ولهذا روي عن علي أنه في عذاب القبر ، ثم قال : ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليَقِينِ ﴾ [3] فهذا إشارة إلى علمهم في الحال ، والخبر محذوف : أي لكان الأمر فوق الوصف ، ولعلمتم أمراً عظيماً ، ولألهاكم عما ألهاكم ، فإن الالتهاء بالتكاثر إنما وقع من الغفلة وعدم اليقين ، كما قال : ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [4] ومثل قول النبي ﷺ : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً »[5] وحذف جواب لو كثير في القرآن

---

(1) سورة التكاثر آية رقم ١ .

(2) سورة التكاثر آية رقم ٣ -٤ .

(3) سورة التكاثر آية رقم ٥ .

(4) سورة الأعراف آية رقم ١٣٦ .

(5) هذا جزء من حديث طويل رواه الامام البخاري في كتاب الكسوف ٢ باب الصدقة في الكسوف ١٠٤٤ عن مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنها قالت « خسفت الشمس في عهد رسول الله - ﷺ - فصلى رسول الله - ﷺ - بالناس فقام فأطال القيام ثم ركع فأطال الركوع ثم قام فأطال القيام - وهو دون القيام الأول ثم ركع فأطال الركوع - وهو دون الركوع الأول ثم =

تعظيماً له وتفخيماً ، فإنه أعظم من أن يوصف أو يتصور بسماع لفظ ، إذ المخبر ليس كالمعاين ، ولهذا اتبع ذلك بالقسم على الرؤية التي هي عين اليقين ، التي هي فوق الخبر الذي هو علم اليقين ، فقال ﴿ **لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ ، ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عين اليَقِين** ﴾ (١) وهذا الكلام جواب قسم محذوف مستقبل ، مع كون جواب لو محذوفاً كما تقدم ، في أحد القولين ، وفي الآخر هو متعلق بلو ، لكن يقال جواب لو إنما يكون ماضياً ، فيقال : لرأيتم الجحيم ، كقول النبي ﷺ : « لو تكونون على الحال التي تكونون عندي لصافحتكم الملائكة في طرقكم وعلى فرشكم » (٢) ولو كان ماضياً فليس مما يؤكد بل يقال : لو يجيء لأجى . وجواب هذا أنه جواب قسم محذوف سد مسد جواب لو . كقوله : ﴿ **وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ** ﴾ (٣) وله نظائر في القرآن وكلام العرب ، فإن الكلام إذا اشتمل على قسم وشرط وكل منهما يقتضي جوابه أجيب الأول منهما ، وهو هنا القسم ، وهو المقصود .

= سجد فأطال السجود ثم فعل في الركعة الثانية مثل ما فعل في الأول ثم انصرف وقد انجلت الشمس فخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك فادعوا الله وكبروا وصلوا وتصدقوا ثم قال يا أمة محمد والله ما من أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته يا أمة محمد : وذكره .

ورواه أيضاً في التفسير ٥ آية ١٢ والنكاح ١٠٧ والرقاق ٢٧ ، وأيمان ٣ ورواه الامام مسلم في الصلاة ١١٢ والكسوف ١ ، والفضائل ١٣٤ والنسائي في السهو ١٠٢ والكسوف ١١ ، ٢٣ والترمذي في الزهد ٩ وابن ماجة في الزهد ١٩ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٥٧ ، ٣١٣ ، ٤١٨ ، ٤٣٣ (حلبي) .

(١) سورة التكاثر آية رقم ٦ ـ ٧ .

(٢) هذا جزء من حديث طويل رواه ابن ماجه في الزهد ٢٨ باب المداومة على العمل ٤٢٣٩ ـ عن سفيان عن الجرير عن أبي عثمان ، عن حنظلة الكاتب التميمي قال : كنا عند رسول الله ـ ﷺ فذكرنا الجنة والنار حتى كأنا رأي العين فقمت إلى أهلي وولدي فضحكت ولعبت قال فذكرت الذي كنا فيه فخرجت فلقيت أبا بكر فقلت نافقت نافقت فقال أبو بكر إنا لنفعله فذهب حنظلة فذكره للنبي ـ ﷺ فقال : يا حنظلة : وذكره .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ١٢١ .

وعلى هذا القول يكون المعنى : والله لو تعلمون علم اليقين ، لترون الجحيم بقلوبكم ، والأول هو المشهور ، ومن المفسرين من لم يذكر سواه ، وهو الذي أثروه عن متقدميهم ، ويدل على صحته وأنه الحق أن قوله : ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا ـ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ ﴾ [1] معطوف على ما قبله ، فيكون داخلاً في حيزه ، فلو كان الأول معلقاً بالشرط لكان المعطوف عليه كذلك ، وهو باطل ، لأن رؤيتها عين اليقين ، والمسألة عن النعيم ليس معلقاً بأن يعلموها في الدنيا علم اليقين .

وأيضاً فتفسير الرؤية المطلقة برؤية القلب ليس هو المعروف من كلام العرب .

وأيضاً فيكون الشرط هو الجواب ، فإن المعنى حينئذ لو علمتم علم اليقين لرأيتم بقلوبكم ، وذلك هو العلم ، فالمعنى لو علمتم لعلمتم ، وهذا لا يفيد ، ولو أريد بمشاهدة القلب قدر زائد على مجرد العلم ، فهذا معلوم أن من علم الشيء أمكنه أن يجعل مشاهداً له بقلبه . وأيضاً فهذا المعنى لو كان مفيداً لم يكن مما يستحق القسم عليه ، فإنه ليس بطائل .

وأيضاً فقوله : ﴿ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ [2] لم يذكر المعلوم ، حتى يستلزم العلم به العلم بالجحيم ، فإن أريد معلوم خاص ، فلا دليل في الشرط عليه ، حتى يصح الارتباط ، وإن أريد المعلوم العام وهو ما بعد الموت فذاك يستلزم العلم بالجحيم وغيرها ، وهذا فيه نظر ، فقد يسأل ويقال : قوله : ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [3] لم يذكر فيه المعلوم بل أطلق .

ومعلوم أن كل أحد سوف يعلم شيئاً لم يكن علمه ، وجوابه : أن سياق الكلام يقتضي الوعيد والتهديد ، حيث افتتحه بقوله ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ [4] .

---

(١) سورة التكاثر آية رقم ٧ ـ ٨ .

(٢) سورة التكاثر آية رقم ٥ .

(٣) سورة التكاثر آية رقم ٣ ـ ٤ .

(٤) سورة التكاثر آية رقم ١ .

وأيضاً فمثل هذا الكلام قد صار في العرف يستعمل في الوعيد غـالباً ، أو في الوعد ، وإذا كان العلم مقيداً بالسياق اللفظي وبالوضع العرفي فقوله : ﴿ **لو تعلمون** ﴾ هو ذاك العلم ، أخبر بوقوعه مستقبلاً ، ثم علق بوقـوعه حـاضراً ، وقيد المعلق به بعلم اليقين ، فإنهم قـد يعلمون مـا بعد المـوت ، لكن ليس علماً هو يقين ...

سورة الهمزة
قال شيخ الإسلام رحمه الله

فصل

قوله : ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾[1] هـو الطعان العياب كما قال : ﴿هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ [2] وقال : ﴿ وَمِنْهُم مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّـدَقَاتِ ﴾ [3] وقـال : ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [4] . والهمزة أشد ، لأن الهمز الدفـع بشدة ، ومنه الهمزة من الحروف ، وهي نقرة في الحلق ، ومنـه : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُـوذُ بِكَ مِنْ هَمَـزَاتِ الشَّيَاطِـينِ ﴾ [5] ومنه قـول النبي ﷺ : « أعـوذ بـالله من الشيـطان الرجيم ، من همزه ، ونفخه ، ونفثه » [6] وقال : «همزه الموتة » وهي الصرع ،

---

(١) سورة الهمزة آية رقم ١ .

(٢) سورة القلم آية رقم ١١ .

(٣) سورة التوبة آية رقم ٥٨ .

(٤) سورة التوبة آية رقم ٧٩ .

(٥) سورة المؤمنون آية رقم ٩٧ .

(٦) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب اقامة الصـلاة والسنة فيهـا ٢ باب الاستعـاذة في الصلاة ٨٠٧ - عن عمـرو بن مرة عن عـاصم العنزي ، عن ابن جبـير بن مطعم عن أبيـه قال : رأيت رسـول الله - ﷺ - حين دخل في الصلاة قال : الله أكبر كبيراً . الله أكبر كبيراً ثلاثاً ، الحمـد لله كثيراً ، الحمد لله كثيراً ثلاثاً سبحان الله بكرة وأصيلاً ثلاثاً وذكره . =

فالهمز مثل الطعن لفظاً ومعنى .

واللمز كالذم والعيب ، وإنما ذم من يكثر الهمز ، واللمز ـ فإن الهمزة واللمزة هو الذي يفعل ذلك كثيراً ، و« الهمزة » و« اللمزة » الذي يفعل ذلك به ، كما في نظائره مثل الضحكة والضحكة ، واللعبة واللعبة وقوله : ﴿ **الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ** ﴾ (١) وصفه بالطعن في الناس ، والعيب لهم ، ويجمع المال وتعديده ، وهذا نظير قوله : ﴿ **وَاللهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ** ﴾ (٢) في « النساء » و« الحديد » فإن الهمزة اللمزة يشبه المختال الفخور ، والجماع المحصى نظير البخيل ، وكذلك نظيرهما : « قوله : ﴿ **هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ، مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ، عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ** ﴾ (٣) وصفه بالكبر والبخل ، وكذلك قوله : ﴿ **وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ** ﴾ (٤) فهذه خمس مواضع ، وذلك ناشىء عن حب الشرف والمال ، فإن محبة الشرف تحمل على انتقاص غيره بالهمز واللمز والفخر والخيلاء ، ومحبة المال تحمل على البخل ، وضد ذلك من أعطى فلم يبخل ، واتقى فلم يهمز ، ولم يلمز ، وأيضاً فإن المعطي نفع الناس ، والمتقي لم يضرهم ، فنفع ولم يضر ، وأما المختال الفخور البخيل ، فإنه ببخله منعهم الخير ؛ وبفخره سامهم الضر ، فضرهم ولم ينفعهم ، وكذلك « الهمزة الذي جمع مالاً » ونظيره قارون الذي جمع مالاً ، وكان من قوم موسى فبغى عليهم .

ومن تدبر القرآن وجد بعضه يفسر بعضاً ، فإنه كما قال ابن عباس في

= قال عمرو : همزه الموتة ، ونفثه الشعر ، ونفخه الكبر ، والموتة نوع من الجنون والصرع يعتري الإنسان ، فإذا أفاق عاد إليه كمال العقل .

(١) سورة الهمزة آية رقم ٢ .

(٢) سورة الحديد آية رقم ٢٣ ـ ٢٤ .

(٣) سورة القلم من ١١ ـ ١٣ .

(٤) سورة الليل آية رقم ٨ .

رواية الوالبي : مشتمل على الأقسام ، والأمثال ، وهو تفسير : « متشابهاً مثاني » .

ولهذا جاء كتاب الله جامعاً ، كما قال ﷺ : « أعطيت جوامع الكلم » (١) وقال تعالى : ﴿ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ ﴾ (٢) فالتشابه يكون في الأمثال ، والمثاني في الأقسام ، فإن التثنية في مطلق التعديد ، كما قد قيل في قوله : ﴿ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ (٣) وكما في قول حذيفة « كنا نقول بين السجدتين : رب اغفر لي ، رب اغفر لي » وكما يقال : فعلت هذا مرة بعد مرة ، فتثنية اللفظ يراد به التعديد ، لأن العدد ما زاد على الواحد ، وهو أول التثنية ، وكذلك ثنيت الثوب ، أعم من أن يكون مرتين فقط أو مطلق العدد ، فهو جميعه متشابه ، يصدق بعضه بعضاً ، ليس مختلفاً ، بل كل خبر وأمر منه يشابه الخبر ، لاتحاد مقصود الأمرين ، ولاتحاد الحقيقة التي إليها مرجع الموجودات .

فلما كانت الحقائق المقصودة والموجودة ترجع إلى أصل واحد ، وهو الله سبحانه ، كان الكلام الحق فيها خبراً ، وأمراً متشابهاً ، ليس بمنزلة المختلف المتناقض ، كما يوجد في كلام أكثر البشر ، والمصنفون ـ الكبار منهم ـ يقولون شيئاً ثم ينقضونه ، وهو جميعه مثانٍ ، لأنه استوفيت فيه الأقسام المختلفة ، فإن الله يقول : ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ (٤)فذكر الزوجين مثاني ، والأخبار

---

(١) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب التعبير ١١ باب رؤيا الليل ٦٩٩٨ حدثنا محمد بن عبد الرحمن الطفاوي ، حدثنا أيوب عن محمد عن أبي هريرة قال : قال النبي ـ ﷺ ـ أعطيت مفاتيح الكلم ـ ونصرت بالرعب ، وبينا أنا نائم البارحة إذ أتيت بمفاتيح خزائن الأرض حتى وضعت في يدي » .

قال أبو هريرة : فذهب رسول الله ـ ﷺ ـ وأنتم تنتقلونها » .

ورواه الإمام مسلم في المساجد ٥ ـ ٨ والأشربة ٧٢ ورواه الترمذي في السيرة وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ١٧٢ ، ٢١٢ ، ٢٥٠ ، ٢٦٤ ، ٢٦٨ (حلبي) .

(٢) سورة الزمر آية رقم ٢٣ .

(٣) سورة الملك آية رقم ٤ .

(٤) سورة الذاريات آية رقم ٤٩ .

عن الحقائق بما هي عليه بحيث يحكم على الشيء بحكم نظيره ، وهو حكم على المعنى الواحد المشترك خبراً أو طلباً خطاب متشابه ، فهو متشابه مثانٍ .

وهذا في المعاني مثل الوجوه والنظائر في الألفاظ فإن كل شيئين من الأعيان والأعراض وغير ذلك إما أن يكون أحدهما مثل الآخر ، أو لا يكون مثله فهي الأمثال ، وجمعها هو التأليف ، وإذا جاءت بلفظ واحد كانت نظائر ، وإن لم يكن مثله فهو خلافه سواء كان ضداً أو لم يكن ، وقد يقال : إما أن يجمعهما جنس أولاً ، فإن لم يجمعهما جنس فأحدهما بعيد عن الآخر ، ولا مناسبة بينهما ، وإن جمعهما جنس فهي الأقسام ، وجمعها هو التصنيف ، ودلالة اللفظ الواحد على المعاني المختلفة تسمى الوجوه ، والكلام الجامع هو الذي يستوفي الأقسام المختلفة ، والنظائر المتماثلة جمعاً بين المتماثلين ، وفرقاً بين المختلفين . بحيث يبقى محيطاً ، وإلا فذكر أحد القسمين أو المثلين لا يفيد التمام ، ولا يكون الكلم محيطاً ، ولا الكلم جوامع ، وهو فعل غالب الناس في كلامهم .

والحقائق في نفسها : منها المختلف ، ومنها المؤتلف ، والمختلفان بينهما اتفاق من وجه ، وافتراق من وجه ، فإذا أحاط الكلام بالأقسام المختلفة ، والأمثال المؤتلفة كان جامعاً ، وباعتبار هذه المعاني كانت ضروب القياس العقلي المنطقي ثلاثة : الحمليات والشرطيات المتصلة ، والشرطيات المنفصلة .

فالأول للحقائق المتماثلة الداخلة في القضية الجامعة .

والثاني للمختلفات التي ليست متضادة ، بل تتلازم تارة ، ولا تتلازم أخرى .

والثالث للحقائق المتضادة المتنافية ، إما وجوداً أو عدماً ، وهي النقيضان ، وإما وجوداً فقط ، وهو أعم من النقيضين ، وإما عدماً فقط ، وهو أخص من النقيضين .

فالحمليات للمثلين ، والأمثال ، والشرطيات المنفصلة للمتضادين ،

والمتضـــادات ويسمى التقسيم ، والسبــر ، والتــرديــد ، والبيـــاني ، والمتصلة للخلافين غير المتضادين ، ويسمى التلازم .



سورة الكوثر
وقال شيخ الإسلام

أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية
رحمه الله

« سورة الكوثر » ما أجلها من سورة ؟ وأغزر فوائدها على اختصارها ، وحقيقة معناها تعلم من آخرها ، فإنه سبحانه وتعالى بتر شانىء رسوله من كل خير ، فبتر ذكره وأهله وماله فيخسر ذلك في الآخرة ، وبتر حياته فلا ينتفع بها ، ولا يتزود فيها صالحاً لمعاده ، ويبتر قلبه فلا يعي الخير ، ولا يؤهله لمعرفته ومحبته ، والإيمان برسله ، ويبتر أعماله فلا يستعمله في طاعة ، ويبتره من الأنصار فلا يجد له ناصراً ، ولا عوناً ، ويبتره من جميع القرب والأعمال الصالحة فلا يذوق لها طعماً ، ولا يجد لها حلاوة ، وإن باشرها بظاهره ، فقلبه شارد عنها ، وهذا جزاء من شنأ بعض ما جاء به الرسول ﷺ ورده لأجل هواه ، أو متبوعه ، أو شيخه ، أو أميره ، أو كبيره ، كمن شنأ آيات الصفات ، وأحاديث الصفات وتأولها على غير مراد الله ورسوله منها ، أو حملها على ما يوافق مذهبه ، ومذهب طائفته ، أو تمنى أن لا تكون آيات الصفات أنزلت ، ولا أحاديث الصفات قالها رسول الله ﷺ .

ومن أقوى علامات شناءته لها ، وكراهته لها أنه إذا سمعها حين يستدل بها أهل السنة على ما دلت عليه من الحق اشمأز من ذلك ، وحاد ونفر عن ذلك ، لما في قلبه من البغض لها والنفرة عنها ، فأي شانىء للرسول أعظم من

هذا ، وكذلك أهل السماع الذين يرقصون على سماع الغنا والقصائد والدفوف والشبابات إذا سمعوا القرآن يتلى ويقرأ في مجالسهم استطالوا ذلك واستثقلوه ، فأي شنآن أعظم من هذا ، وقس على هذا سائر الطوائف في هذا الباب . وكذلك من آثر كلام الناس وعلومهم على القرآن والسنة ، فلولا أنه شانىء لما جاء به الرسول ما فعل ذلك ، حتى إن بعضهم لينسى القرآن بعد أن حفظه ، ويشتغل بقول فلان وفلان ، ولكن أعظم من شنأه ورده : من كفر به وجحده وجعله أساطير الأولين ، وسحراً يؤثر ، فهذا أعظم وألم انبتاراً وكل من شنأه له نصيب من الانبتار ، على قدر شناءته له فهؤلاء لما شنؤه وعادوه جازاهم الله بأن جعل الخير كله معادياً لهم ، فبترهم منه ، وخص نبيه ﷺ بضد ذلك ، وهو أنه أعطاه الكوثر ، وهو من الخير الكثير الذي آتاه الله في الدنيا والآخرة . فمما أعطاه في الدنيا الهدى والنصر والتأييد وقرة العين والنفس وشرح الصدر ، ونعم قلبه بذكره وحبه بحيث لا يشبه نعيمه نعيم في الدنيا البتة ، وأعطاه في الآخرة الوسيلة والمقام المحمود ، وجعله أول من يفتح له ولأمته باب الجنة ، وأعطاه في الآخرة لواء الحمد ، والحوض العظيم ، في موقف القيامة إلى غير ذلك ، وجعل المؤمنين كلهم أولاده وهو أب لهم ، وهذا ضد حال الأبتر الذي يشنؤه ويشنأ ما جاء به .

وقوله : ﴿ إنَّ شَانِئَكَ ﴾ [1] أي مبغضك ، والأبتر المقطوع النسل ، الذي لا يولد له خير ، ولا عمل صالح فلا يتولد عنه خير ، ولا عمل صالح ، قيل لأبي بكر بن عياش : إن بالمسجد قوماً يجلسون ويجلس إليهم ، فقال : من جلس للناس ، جلس الناس إليه ، ولكن أهل السنة يموتون ، ويحيى ذكرهم ، وأهل البدعة يموتون ويموت ذكرهم ، لأن أهل السنة أحيوا ما جاء به الرسول ﷺ فكان لهم نصيب من قوله : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [2] وأهل

---

(١) سورة الكوثر آية رقم ٣ .

(٢) سورة الشرح آية رقم ٤ .

البدعة شنأوا ما جاء به الرسول ﷺ فكان لهم نصيب من قوله : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ﴾ (١) .

فالحذر الحذر أيها الرجل من أن تكره شيئاً مما جاء به الرسول ﷺ ، أو ترده لأجل هواك ، أو انتصاراً لمذهبك ، أو لشيخك ، أو لأجل اشتغالك بالشهوات ، أو بالدنيا ، فإن الله لم يوجب على أحد طاعة أحد إلا طاعة رسوله ، والأخذ بما جاء به ، بحيث لو خالف العبد جميع الخلق ، واتبع الرسول ما سأله الله عن مخالفة أحد فإن من يطيع أو يطاع إنما يطاع تبعاً للرسول ، وإلا لو أمر بخلاف ما أمر به الرسول ما أطيع ، فاعلم ذلك واسمع ، وأطع واتبع ، ولا تبتدع ، تكن أبتر مردوداً عليك عملك ، بل لا خير في عمل أبتر من الأتباع ولا خير في عامله والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ ﴾ (٢) تدل هذه الآية على عطية كثيرة صادرة عن معط كبير غني واسع ، وأنه تعالى وملائكته وجنده معه : صدر الآية « بإن » الدالة على التأكيد ، وتحقيق الخبر ، وجاء الفعل بلفظ الماضي الدال على التحقيق ، وأنه أمر ثابت واقع ، ولا يدفعه ما فيه من الإيذان ، بأن إعطاء الكوثر سابق في القدر الأول حين قدرت مقادير الخلائق ، قبل أن يخلقهم بخمسين ألف سنة ، وحذف موصوف الكوثر ليكون أبلغ في العموم ، لما فيه من عدم التعيين ، وأتى بالصفة أي أنه سبحانه وتعالى قال : ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ فوصفه بالكوثر ، والكوثر المعروف إنما هو نهر في الجنة ، كما قد وردت به الأحاديث الصحيحة الصريحة ، وقال ابن عباس الكوثر إنما هو الخير الكثير الذي أعطاه الله أياه ، وإذا كان أقل أهل الجنة من له فيها مثل الدنيا عشر مرات ، فما الظن بما

---

(١) سورة الكوثر آية رقم ٣ .

(٢) سورة الكوثر آية رقم ١ .

لرسول الله ﷺ مما أعده الله له فيها ، فالكوثر علامة وأمارة على تعدد ما أعده الله له من الخيرات ، واتصالها وزيادتها ، وسموا لمنزلة وارتفاعها ، وأن ذلك النهر وهو الكوثر أعظم أنهار الجنة وأطيبها ماء ، وأعذبها وأحلاها وأعلاها .

وذلك أنه أتى فيه بلام التعريف الدالة على كمال المسمى وتمامه ، كقوله : زيد العالم ، زيد الشجاع ، أي لا أعلم منه ولا أشجع منه ، وكذلك قوله : ﴿ **إنا أعطيناك الكوثر** ﴾ . دل على أنه أعطا الخير كله كاملاً موفراً ، وإن نال منه بعض أمته شيئاً كان ذلك الذي ناله ببركة اتباعه ، والاقتداء به ، مع أن له ﷺ مثل أجره من غير أن ينقص من أجل المتبع له شيء ففيه الإشارة إلى أن الله تعالى يعطيه في الجنة بقدر أجور أمته كلهم من غير أن ينتقص من أجورهم ، فإنه هو السبب في هدايتهم ، ونجاتهم ، فينبغي بل يجب على العبد اتباعه والاقتداء به ، وأن يمتثل ما أمره به ويكثر من العمل الصالح صوماً وصلاة وصدقة وطهارة ، ليكون له مثل أجره ، فإنه إذا فعل المحظورات فات الرسول مثل أجر ما فرط فيه من الخير ، فإن فعل المحظور مع ترك المأمور قوي وزره ، وصعبت نجاته لارتكابه المحظور وتركه المأمور ، وإن فعل المأمور وارتكب المحظور دخل فيمن يشفع فيه الرسول ﷺ لكونه ناله مثل أجر ما فعله من المأمور ، وإلى الله إياب الخلق ، وعليه حسابهم ، وهو أعلم بحالهم ، أي بأحوال عباده ، فإن شفاعته لأهل الكبائر من أمته ، والمحسن إنما أحسن بتوفيق الله له ، والمسيء لا حجة له ولا عذر .

والمقصود أن الكوثر نهر في الجنة وهو من الخير الكثير الذي أعطاه الله رسوله ﷺ في الدنيا والآخرة ، وهذا غير ما يعطيه الله من الأجر الذي هو مثل أجور أمته إلى يوم القيامة ، فكل من قرأ أو علم أو عمل صالحاً أو علم غيره أو تصدق أو حج أو جاهد أو رابط أو تاب أو صبر أو توكل أو نال مقاماً من المقامات القلبية من خشية أو خوف ومعرفة وغير ذلك ، فله مثل أجره من غير أن ينقص من أجر ذلك العامل ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ [1] أمره الله أن يجمع بين هاتين العبادتين العظيمتين ، وهما الصلاة والنسك الدالتان على القرب والتواضع والافتقار وحسن الظن ، وقوة اليقين ، وطمأنينة القلب إلى الله ، وإلى عدته وأمره ، وفضله ، وخلفه ، عكس حال أهل الكبر والنفرة، وأهل الغنى عن الله الذين لا حاجة في صلاتهم إلى ربهم يسألونه إياها ، والذين لا ينحرون له خوفاً من الفقر ، وتركاً لإعانة الفقراء وإعطائهم ، وسوء الظن منهم بربهم ، ولهذا جمع الله بينهما ، في قوله تعالى : - ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ [2] والنسك هي الذبيحة ابتغاء وجهه .

والمقصود : أن الصلاة والنسك هما أجل ما يتقرب به إلى الله فإنه أتى فيهما بالفاء الدالة على السبب ، لأن فعل ذلك وهو الصلاة والنحر سبب للقيام بشكر ما أعطاه الله إياه من الكوثر ، والخير الكثير ، فشكر المنعم عليه وعبادته أعظمها هاتان العبادتان ، بل الصلاة نهاية العبادات ، وغاية الغايات . كأنه يقول : ﴿ **إنا أعطيناك الكوثر** ﴾ الخير الكثير ، وأنعمنا عليك بذلك لأجل قيامك لنا بهاتين العبادتين ، شكراً لإنعامنا عليك . وهما السبب لأنعامنا عليك بذلك ، فقم لنا بهما ، فإن الصلاة والنحر محفوفان بإنعام قبلهما ، وإنعام بعدهما ، وأجل العبادات المالية النحر ، وأجل العبادات البدنية الصلاة ، وما يجتمع للعبد في الصلاة لا يجتمع له في غيرها من سائر العبادات ، كما عرفه أرباب القلوب الحية ، وأصحاب الهمم العالية ، وما يجتمع له في نحره من إيثار الله ، وحسن الظن به وقوة اليقين ، والوثوق بما في يد الله أمر عجيب ، إذا قارن ذلك الإيمان والإخلاص ، وقد امتثل النبي ﷺ أمر ربه فكان كثير الصلاة لربه كثير النحر ، حتى نحر بيده في حجة الوداع ثلاثاً وستين بدنة ، وكان ينحر في الأعياد وغيرها .

---

(1) سورة الكوثر آية رقم ٢ .

(2) سورة الأنعام آية رقم ١٦٢ .

وفي قوله : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ [1] إشارة إلى أنك لا تتأسف على شيء من الدنيا ، كما ذكر ذلك في آخر « طه » و« الحجر » وغيرهما، وفيها الإشارة إلى ترك الالتفات إلى الناس وما ينالك منهم ، بل صل لربك وانحر ، وفيها التعريض بحال الأبتر الشانىء ، الذي صلاته ونسكه لغير الله .

وفي قوله : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ﴾ [2] أنواع من التأكيد : أحدها : - تصدير الجملة بـ ﴿ إنّ ﴾ .

الثاني : - الإتيان بضمير الفصل الدال على قوة الإسناد والإختصاص .

الثالث : - مجيء الخبر على أفعل التفضيل ، دون اسم المفعول .

الرابع : تعريفه باللام الدالة على حصول هذا الموصوف له بتمامه ، وأنه أحق به من غيره ، ونظير هذا في التأكيد قوله : ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَىٰ ﴾ [3] .

ومن فوائدها اللطيفة الالتفات في قوله : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ [4] . الدالة على أن ربك مستحق لذلك ، وأنت جدير بأن تعبده ، وتنحر له . والله أعلم .

---

(١) سورة الكوثر آية رقم ١ -٢ .
(٢) سورة الكوثر آية رقم ٣ .
(٣) سورة طه آية رقم ٦٨ .
(٤) سورة الكوثر آية رقم ٢ .

سورة الكافرون

قال الشيخ رحمه الله

فصل

في سورة ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾

للناس في وجه تكرير البراءة من الجانبين طرق حيث قال : ﴿ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ، وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ [1] . ثم قال : ﴿ وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ، وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ [2] ، منها قولان مشهوران ذكرهما كثير من المفسرين ، هل كرر الكلام للتوكيد ، أو لنفي الحال والاستقبال ؟ .

قال أبو الفرج : في تكرار الكلام قولان : أحدهما أنه لتأكيد الأمر وحسم أطماعهم فيه ، قاله الفراء ، وقد أفعمنا هذا في سورة الرحمن ، قال ابن قتيبة : التكرير في سورة الرحمن للتوكيد . قال : وهذه مذاهب العرب أن التكرير للتوكيد والإفهام ، كما أن مذاهبهم الاختصار للتخفيف والإيجاز ، لأن افتتان المتعلم والخطيب في الفنون أحسن من اقتصاده في المقام على فن واحد ، يقول القائل : والله لا أفعله ، ثم والله لا أفعله ، إذا أراد التوكيد وحسم الأطماع من أن يفعله ، كما يقول : والله أفعله ؟ باضمار ﴿ لا ﴾ إذا أراد الاختصار ويقول للمرسل ، المستعجل : اعجل اعجل ! والرامي ارم ،

---

(١) سورة الكافرون آية رقم ٢ -٣ .

(٢) سورة الكافرون آية رقم ٤ -٥ .

ارم ، قال الشاعر :
كم نعمة كانت لكم ، وكم وكم ؟

وقال الآخر : ـ

هـل سـألـت جـمـوع كـنـ ـدة يـوم ولـوا أيـن أينا[1] ؟

وربما جاءت الصفة فأرادوا توكيدها ، واستوحشوا من إعادتها ثانية ، لأنها كلمة واحدة فغيروا منها حرفاً .

قال ابن قتيبة[2] : فلما عدد الله في هذه السورة إنعامه ، وذكر عباده آلاءه ونبههم على قدرته ، جعل كل كلمة فاصلة بين نعمتين لتفهيمهم النعم وتقريرهم بها ، كقولك للرجل ، ألم أنزلك منزلاً وكنت طريداً ؟ أفتنكر هذا ؟ ألم أحج بك وكنت صروراً ؟ أفتنكر هذا ؟

« قلت » : قال ابن قتيبة : تكرار الكلام في ﴿ **قل يا أيها الكافرون** ﴾ لتكرار الوقت ، وذلك أنهم قالوا : إن سرك أن ندخل في دينك عاماً ، فادخل في ديننا عاماً ، فنزلت هذه السورة .

قلت : هذا الكلام الذي ذكره بإعادة اللفظ وإن كان كلام العرب وغير العرب ، فإن جميع الأمم يؤكدون إما في الطلب، وإما في الخبر ، بتكرار الكلام ، ومنه قول النبي ﷺ : « والله؟ لأغزون قريشاً ، ثم والله ؟ لأغزون قريشاً ، ثم والله ؟ لأغزون قريشاً ، ثم قال : إن شاء الله . ثم لم يغزهم »[3] .

وروي عنه أنه في غزوة تبوك كان يقود به حذيفة[4] ، ويسوق به

---

(١) في هذا البيت نقص في أوله أدى إلى خلل عروضي ، ولعل صحته : أو هل سألت . . . الخ والبيت من البحر الكامل .

(٢) هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة توفي عام ٢٧٦ هـ سبق الترجمة له في كلمة وافية . [وراجع وفيات الأعيان ١ : ٢٥١ وآداب اللغة ٢ : ١٧٠ ، ولسان الميزان ٣ : ٣٥٧ ودائرة المعارف الإسلامية ١ : ٢٦٠] .

(٣) الحديث رواه أبو داود في كتاب الإيمان ١٧ .

(٤) هو حذيفة بن حسل بن جابر العبسي أبو عبدالله ، واليمان لقب توفي عام ٣٦ هـ [راجع ابن

عمار [1] ، فخرج بضعة عشر رجلاً حتى صعدوا العقبة ركباناً متلثمين وكانوا قد أرادوا الفتك برسول الله ﷺ ، فقال لحذيفة : قد ، قد ، ولعمار : سق ، سق .

فهذا أكثر ، لكن ليس في القرآن من هذا شيء ، فإن القرآن له شأن اختص به ، لا يشبهه كلام البشر ـ لا كلام نبي ، ولا غيره ، وإن كان نزل بلغة العرب ، فلا يقدر مخلوق أن يأتي بسورة ، ولا ببعض سورة مثله .

فليس في القرآن تكرار للفظ بعينه عقب الأول قط ، وإنما في سورة الرحمن خطابه بذلك بعد كل آية ، لم يذكر متوالياً ، وهذا النمط أرفع من الأول .

وكذلك قصص القرآن ليس فيها تكرارٌ ، كما ظنه بعضهم . و﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ** ﴾ [2] ليس فيها لفظ تكرار إلا قوله : ﴿ **وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ** ﴾ [3] وهو مع الفصل بينهما بجملة .

وقد شبهوا ما في سورة الرحمن بقول القائل لمن أحسن إليه وتابع عليه بالأيادي وهو ينكرها ويكفرها : ألم تك فقيراً فأغنيتك ؟ أفتنكر هذا ؟ ألم تك عرياناً فكسوتك ؟ أفتنكر هذا ، ألم تك خاملاً فعرفتك ؟ ونحو ذلك . وهذا أقرب من التكرار المتوالي ، كما في اليمين المكررة .

وكذلك ما يقوله بعضهم إنه قد يعطف الشيء لمجرد تغاير اللفظ ،

= عساكر ٤ : ٩٣ وتهذيب التهذيب ٢ : ٢١٩ والاصابة ١ : ٣١٧ وحلية الأولياء ١ : ٢٧٠ وأسد الغابة والجمع ١٠٧ وفيه : واسم اليمان حسيل بن عمرو بن ربيعة]

(١) هو عمار بن ياسر بن عامر الكناني أبو اليقظان صحابي من الولاة الشجعان توفي عام ٣٧ هـ وسبق الترجمة له [راجع الاستيعاب بهامش الاصابة ٢ : ٤٦٩ والاصابة ت ٥٧٠٦ والطبري ٦ : ٢١ وحلية الأولياء ١ : ١٣٩] .

(٢) سورة الكافرون آية رقم ١ .

(٣) سورة الكافرون آية رقم ٥ .

كقــولـه :

فألفى قولها كذباً وميناً

فليس في القرآن من هذا شيء ، ولا يـذكر فيـه لفظ زائـد إلا لمعنى زائـد وإن كـان في ضمن ذلك التـوكيد ، ومـا يجيء من زيادة اللفظ في مثـل قـولـه : ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ** ﴾[1] ، وقـولـه : ﴿ **عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِين** ﴾[2] ، وقوله : ﴿ **قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُون** ﴾[3] فالمعنى مع هذا أزيد من المعنى بدونه ، فزيادة اللفظ لزيادة المعنى ، وقـوة اللفظ لقوة المعنى ، والضم أقـوى من الكسر ، والكسر أقـوى من الفتح ، ولهـذا يقطع عـلى الضم لما هـو أقوى مثـل « الكُـره » و « الكره » فـالكره هـو الشيء المكـروه . . كقـولـه : ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ** ﴾[4] والكره المصـدر ، كقولـه ﴿ **طَوْعاً أَوْ كَرْهاً** ﴾[5] والشيء الذي في نفسه مكروه أقوى من نفس كراهة الكاره .

وكذلك « الذبح » و« الذبح » فالذبح : المذبـوح ، كقولـه : ﴿ **وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ** ﴾[6] ، والذبـح : الفعل ، والـذبح : مـذبـوح ، وهـو جسـد يذبح ، فهو أكمل من نفس الفعل .

قال أبو الفرج : والقول الثاني أن المعنى : ﴿ **لا أعبد ما تعبدون** ﴾ في حالي هذه ، ﴿ **ولا أنتم** ﴾ في حالكم هذه ﴿ **عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم** ﴾ في مـا أستقبـل ، وكـذلـك ﴿ **أنتم** ﴾ فنفى عنهم في الحـال والاستقبال ، وهذا في قوم بأعيـانهم أعلمه الله أنهم لا يؤمنـون ، كما ذكـرناه عن مقاتل ، فلا يكون حينئذ تكرار ، قال : وهذا قول ثعلب ، والزجاج .

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٥٩ .

(٢) سورة المؤمنون آية رقم ٤٠ .

(٣) سورة الأعراف آية رقم ٣ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ٢١٦ .

(٥) سورة فصلت آية رقم ١١ .

(٦) سورة الصافات آية رقم ١٠٧ .

قلت : قد ذكر القولين جماعة ، لكن منهم من جعل القول الأول قول أكثر أهل المعاني ، فقالوا ـ واللفظ للبغوي : معنى الآية : لا أعبد ما تعبدون في الحال ، ولا أنا عابد ما عبدتم في الاستقبال ، ولا أنتم عابدون ما أعبد في الاستقبال ، وهذا خطاب لمن سبق في علم الله أنهم لا يؤمنون .

قال : وقال أكثر أهل المعاني : نزل بلسان العرب على مجاري خطابهم ، ومن مذاهبهم التكرار إرادة للتوكيد والإفهام ، كما أن من مذاهبهم الاختصار للتخفيف والإيجاز .

قلت : ومن المفسرين من لم يذكر غير الثاني ـ منهم المهدوي [1] وابن عطية . قال ابن عطية : لما كان قوله : ﴿ **لا أعبد** ﴾ محتملاً أن يراد به الآن ، ويبقى المستأنف منتظراً ما يكون فيه من عبادته ـ جاء البيان بقوله : ﴿ **وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ** ﴾ [2] ، أي أبداً ما حييت ، ثم جاء قوله : ﴿ **وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ** ﴾ [3] الثاني حتماً عليهم أنهم لا يؤمنون أبداً ، كالذين كشف الغيب عنهم ، كما قيل لنوح : ﴿ **إِنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ** ﴾ [4] إما أن هذا فخطاب لمعينين ، وقوم نوح قد عموا بذلك .

قال : فهذا معنى الترديد الذي في السورة ، وهو بارع الفصاحة ، وليس هو بتكرار فقط ، بل فيه ما ذكرته ، مع الإبلاغ والتوكيد ، وزيادة الأمر بياناً وتبرياً منهم .

قلت : هذا القول أجود من الذي قبله من جهة بيانهم لمعنى زائد على

---

(١) هو محمد بن ابراهيم المهدوي أبو عبدالله : فقيه من أهل المهدية بالمغرب نزل بفاس وتوفي بها عام ٥٩٥ هـ عرفه صاحب جذوة الاقتباس بالفقيه العالم الصالح صاحب كتاب الهداية [راجع جذوة الاقتباس ١٦٩] .

(٢) سورة الكافرون آية رقم ٤ .

(٣) سورة الكافرون آية رقم ٥ .

(٤) سورة هود آية رقم ٣٦ .

التكرير ، لكن فيه نقص من جهة أخرى ، وهو جعلهم هذا خطاباً لمعينين ، فنقصوا معنى السورة من هذا الوجه .

وهذا غلط ، فإن قوله : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ ﴾ (١) خطاب لكل كافر ، وكان يقرأ بها في المدينة بعد موت أولئك المعينين ، ويأمر بها ويقول هي براءة من الشرك ، فلو كانت خطاباً لأولئك المعينين ، أو لمن علم منهم أنه يموت كافراً ، لم يخاطب بها من لم يعلم ذلك منه . وأيضاً فأولئك المعينون إن صح أنه إنما خاطبهم فلم يكن إذ ذاك علم أنهم يموتون على الكفر .

والقول بأنه إنما خاطب بها معينين قول لم يقله من يعتمد عليه ، ولكن قد قال مقاتل بن سليمان (٢) : إنها نزلت في أبي جهل والمستهزئين ، ولم يؤمن من الذين نزلت فيهم أحد ، ونقل مقاتل وحده مما لا يعتمد عليه باتفاق أهل الحديث ، كنقل الكلبي (٣) .

ولهذا كان المصنفون في التفسير من أهل النقل لا يذكرون عن واحد منهما شيئاً ، كمحمد بن جرير ، وعبد الرحمن بن أبي حاتم (٤) ، وأبي بكر

---

(١) سورة الكافرون آية رقم ١ .

(٢) هو مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء البلخي أبو الحسن من أعلام المفسرين ، أصله من بلخ انتقل الى البصرة ، ودخل بغداد فحدث بها وتوفي بالبصرة عام ١٥٠ هـ كان متروك الحديث ، من كتبه « التفسير الكبير » و« نوادر التفسير » ، و« الرد على القدرية » وغير ذلك كثير . [راجع وفيات الأعيان ٢ : ١١٢ وتهذيب ١٠ :٢٧٩ وميزان الاعتدال ٣ : ١٩٦ وتاريخ بغداد ١٣ : ١٦٠] .

(٣) هو محمد بن السائب بن بشر بن عمرو بن الحارث الكلبي توفي عام ١٤٦ هـ سبق الترجمة له . [وراجع تهذيب التهذيب ٩ : ١٧٨ ووفيات الأعيان ١ : ٤٩٣ وميزان الاعتدال ٣ : ٦١ والوافي بالوفيات ٣ : ٨٣ والمعارف لابن قتيبة ٢٣٣] .

(٤) هو عبد الرحمن بن محمد أبي حاتم بن ادريس بن المنذر التميمي الحنظلي الرازي أبو محمد ، حافظ للحديث من كبارهم كان منزله في درب حنظلة بالري وإليهما نسبته له تصانيف

ابن المنذر [1] ، فضلاً عن مثل أحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه . وقد ذكر غيره هذا عن قريش مطلقاً ، كما رواه عبد بن حميد [2] عن وهب [3] بن منبه قال : قالت قريش للنبي ﷺ : إن سرك أن ندخل في دينك عاماً وتدخل في ديننا عاماً ، فنزلت ﴿ **قل يا أيها الكافرون** ﴾ حتى ختمها ، وعن ابن عباس ، قالت قريش : يا محمد ! لو استلمت آلهتنا لعبدنا إلهك ، فنزلت السورة . وعن قتادة قال : أمره الله أن ينادي الكفار فناداهم بقوله ﴿ **يا أيها** ﴾ .

وروى ابن حاتم عن وهب بن منبه : قال كفار قريش ، فذكره ، وقال عكرمة : برأه الله بهذه السورة من عبدة جميع الأوثان ودين جميع الكفار ، وقال قتادة : أمر الله نبيه أن يتبرأ من المشركين فتبرأ منهم .

وروى قتادة عن زرارة بن أوفى : كانت تسمى « المقشقشة » يقال قشقش فلان ، إذا برىء من مرضه ، فهي تبرىء صاحبها من الشرك . وبهذا بعثها النبي ﷺ في الحديث المعروف في المسند والترمذي من حديث إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن فروة بن نوفل عن أبيه عن النبي ﷺ قال

= منها « الجرح والتعديل » و« التفسير » و« الرد على الجهمية » توفي عام ٣٢٧ هـ . [راجع تذكرة الحفاظ ٣ : ٤٦ وفوات الوفيات ١ : ٢٦٠ وطبقات الحنابلة ٢ : ٥٥] .

(١) هو محمد بن ابراهيم بن المنذر النيسابوري ، أبو بكر : فقيه مجتهد من الحفاظ كان شيخ الحرم بمكة ، قال الذهبي : ابن المنذر صاحب الكتب التي لم يصنف مثلها منها « المبسوط » في الفقه ، و« الأوسط » في السنن « وتفسير القرآن » وغير ذلك كثير توفي عام ٣١٩ هـ . [راجع تذكرة الحفاظ ٣ : ٤ والوفيات ١ : ٤٦١ وطبقات الشافعية ٢ : ١٢٦ ولسان الميزان ٥ : ٢٧] .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٣) هو وهبة بن منبه الأنباري الصنعاني الذماري أبو عبدالله مؤرخ كثير الأخبار من الكتب القديمة ، عالم بأساطير الأولين ولا سيما الاسرائيليات ، يعد في التابعين ، أصله من أبناء الفهرس الذين بعث بهم كسرى إلى اليمن ، وأمه من حمير ولد عام ٣٤ هـ بصنعاء ومات بها عام ١١٤ هـ [راجع المعارف لابن قتيبة ٢٠٢ وتاريخ الاسلام للذهبي ٥ : ١٤ - ١٦ وشذرات الذهب ١ : ١٥٠] .

له : « مجيء ما جاء بك ؟ قال : جئت يا رسول الله لتعلمني شيئاً أقوله عند منامي . قال : « إذا أخذت مضجعك فاقرأ ﴿ **قل يا أيها الكافرون** ﴾ ثم نم على خاتمتها ، فإنها براءة من الشرك » .

رواه غير واحد عن أبي إسحاق ، وكان تارة يسنده ، وتارة يرسله ، رواه عنه زهير ، وإسرائيل مسنداً ، ورواه عنه شعبة ولم يذكر عن أبيه وقال « عن أبي إسحاق ، عن رجل ، عن فروة بن نوفل » ولم يقل « عن أبيه » قال الترمذي : وحديث زهير أشبه وأصح من حديث شعبة . قال : وقد روي هذا الحديث من غير هذا الوجه ، فرواه عبد الرحمن بن نوفل ، عن أبيه ، عن النبي ﷺ وعبد الرحمن بن نوفل هو أخو فروة بن نوفل .

قلت : وقد رواه عن أبي اسحاق ، اسماعيل بن أبي خالد ، قال : جاء رجل من أشجع إلى النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله علمني كلاماً أقوله عند منامي . قال : « إنك لنا ظئر، اقرأ ﴿ **قل يا أيها الكافرون** ﴾ عند منامك ، فإنها براءة من الشرك » .

فقد أمر رسول الله ﷺ واحداً من المسلمين أن يقرأها ، وأخبره أنها براءة من الشرك ، فلو كان الخطاب لمن يموت على الشرك كانت براءة من دين أولئك فقط ، لم تكن براءة من الشرك الذي يسلم صاحبه فيما بعد ، ومعلوم أن المقصود منها أن تكون براءة من كل شرك ـ اعتقادي وعملي .

وقوله : ﴿ **لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ** ﴾ (1) خطاب لكل كافر وإن أسلم فيما بعد ، فدينه قبل الإسلام له كان والمؤمنون بريئون منه ، وإن غفره الله له بالتوبة منه ، كما قال لنبيه ﴿ **فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ (2) فإنه بريء من معاصي أصحابه وإن تابوا منها ، وهذا كقوله : ﴿ **وَإِن كَذَّبُوكَ**

(1) سورة الكافرون آية رقم ٦ .

(2) سورة الشعراء آية رقم ٢١٦ .

فَقُـلِ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ، أَنْتُمْ بَـرِيئُـونَ مِمَّـا أَعْمَـلُ وَأَنـا بَـرِيءٌ مِمَّـا تَعْمَلُونَ ﴾ (1)

وروى ابن أبي حاتم ، حدثنا أبي ثنا محمد بن موسى الجرشي ، ثنا أبو خلف عبدالله بن عيسى ، ثنا داود بن أبي هند ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أن قريشاً دعوا رسول الله ﷺ إلى أن يعطوه مالاً فيكون أغنى رجل فيهم ، ويزوجوه ما شاء من النساء ، ويطأوا عقبه - أي يسودوه - فقالوا : هذا لك عندنا ، يا محمد ! وكف عن شتم آلهتنا ، فلا تذكرها بسوء ، فإن لم تفعل فإنا نعرض عليك خصلة واحدة ، وهي لك ولنا فيها صلاح . قال : « ما هي ؟ » . قالوا : نعبد آلهتنا سنة - اللات والعزى - ونعبد إلهك سنة - قال : « حتى أنظر ما يأتيني من ربي » . فجاءه الوحي من الله من اللوح المحفوظ . ﴿ **قل يا أيها الكافرون** ﴾ إلى آخرها . وأنزل الله عليه : ﴿ **قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الجَاهِلُونَ ، وَلَقَدْ أُوْحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ ، بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكن مِنَ الشَّاكِرِينَ** ﴾ (2) .

وقوله : ﴿ **أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون** ﴾ خطاب لكل من عبد غير الله وإن كان قد قدر له أن يتوب فيما بعد ، وكذلك كل مؤمن يخاطب بهذا من عبد غير الله .

وقوله في هذا الحديث : « حتى أنظر ما يأتيني من ربي » قد يقول هذا من يقصد به دفع الظالمين بالتي هي أحسن ليجعل حجته أن الذي عليه طاعته قد منع من ذلك ، فيؤخر الجواب حتى يستأمره ، وإن كان هو يعلم أن هذا القول الذي قالوه لا سبيل إليه .

---

(1) سورة يونس آية رقم ٤١ .
(2) سورة الزمر آية رقم ٦٤ - ٦٦ .

وقد تخطب إلى الرجل ابنته فيقول : حتى أشاور أمها ، وهو يريد أن لا يزوجها بذلك ، ويعلم أن أمها لا تشير بـه ، وكذلـك قد يقـول النائب : حتى أشاور السلطان .

فليس في مثل هذا الجواب تردد ولا تجـويز منـه أن الله يبيح لـه ذلك . وقد كان جماعة من قـريش من الذين يـأمرونـه وأصحابـه أن يعبدوا غيـر الله ، ويقاتلونهم ، ويعادونهم عداوة عظيمة على ذلك ، ثم تابوا وأسلموا وقرأوا هذه السورة .

ومن النقلة من يعين نـاساً غيـر الذين عينهم غيـره ، منهم من يذكـر أبـا جهل وطائفة ، ومنهم من يذكر عتبة بن ربيعة وطائفة ، ومنهم من يذكر الوليـد ابن مغيـرة وطائفـة ، ومنهم من يقول : طلبـوا أن يعبدوا الله معـه عامـاً ويعبـد آلهتهم معهم عاماً ، ومنهم من يقول : طلبوا أن يستلم آلهتهم .

ومنهم من يقول : طلبوا الاشتراك ، كما روى ابن أبي حـاتم وغيره عن ابن اسحاق قال : حدثني سعيد بن ميناء مولى أبي البختري قال : لقي الـوليد ابن المغيـرة ، والعاص بن وائـل ، والأسود بن المـطلب ، وأميـة بن خلف ، رسول الله ﷺ ، فقالوا : هلم فلنعبد مـا تعبد وتعبـد ما نعبـد ، ولنشترك نحن وأنت في أمرنا كله ، فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينـا كنا قـد شركنـاك فيه وأخذنا بحظنا منه ، وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما بيدك كنت قـد شركتنـا في أمرنا وأخذت بحظك منه . فأنزل الله السورة .

وهذا منقول عن عبيد بن عمير، وفيه أن القائل له عتبـة ، وأمية . فهـذه الروايات متطابقة على معنى واحـد ، وهو أنهم طلبـوا منه أن يـدخل في شيء من دينهم ، ويدخلوا في شيء من دينه ، ثم إن كانت كلها صحيحة فقد طلب منه تارة هذا وتارة هذا ، وقوم هذا وقوم هذا .

وعلى كل تقدير فالخطاب للمشركين كلهم ـ من مضى ، ومن يـأتي إلى يوم القيامة .

وقد أمره الله بالبراءة من كل معبود سواه ، وهذه ملة إبراهيم الخليل ، وهو مبعوث بملته . قال الله تعالى : ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ، وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ** ﴾ [1] .

وقال الخليل أيضاً : ﴿ **يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ، إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ [2] . وقال : ﴿ **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ . إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءاؤا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله ، كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِالله وَحْدَهُ** ﴾[3] وقال لنبيه : ﴿ **وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ، أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ [4] . فقد أمره الله أن يتبرأ من عمل كل من كذبه ، وتبريه هذا يتناول المشركين وأهل الكتاب .

وقد ذكر المهدوي هذا القول ، وذكر معه قولين آخرين ، فقال : الألف واللام ترجع إلى معهود وإن كانت للجنس حيث كانت صفة ، لأن لامها مخاطبة لمن سبق في علم الله أن يموت كافراً ، فهي من الخصوص الذي جاء بلفظ العموم .

وتكرير ما كرر فيها ليس بتكرير في المعنى ، ولا في اللفظ ، سوى موضع واحد منها ، فإنه تكرير في اللفظ دون المعنى ، بل معنى ﴿ **لا أعبد ما تعبدون** ﴾ في الحال ، ﴿ **ولا أنتم عابدون ما أعبد** ﴾ في الحال ، ﴿ **ولا أنا**

---

(١) سورة الزخرف آية رقم ٢٦-٢٨ .
(٢) سورة الأنعام آية رقم ٧٨ - ٧٩ .
(٣) سورة الممتحنة آية رقم ٤ .
(٤) سورة يونس آية رقم ٤١ .

عابد ما عبدتم ﴾ في الاستقبال ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ في الاستقبال .

قال : فقد اختلف اللفظ والمعنى في قوله ﴿ لا أعبد ﴾ ، وما بعده ﴿ ولا أنا ﴾ ، وتكرر ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ في اللفظ دون المعنى . قال : وقيل إن معنى الأول : ولا أنتم عابدون ما عبدت . ومعنى الثاني : ولا أنتم عابدون ما أعبد ، فعدل عن لفظ ﴿ عبدتُ ﴾ للإشعار بأن ما عبد في الماضي هو الذي يعبد في المستقبل ـ قد يقع أحدهما موقع الآخر ، وأكثر ما يأتي ذلك في إخبار الله تعالى ، ويجوز أن تكون ﴿ ما ﴾ والفعل مصدراً ، وقيل إن معنى الآيات وتقديرها : قل يا أيها الكافرون ! لا أعبد الأصنام . الذي تعبدون ، ولا أنتم عابدون الذي أعبده ، لإشراككم به ، واتخاذكم معه الأصنام ، فإن زعمتم أنكم تعبدونه فأنتم كاذبون ، لأنكم تعبدونه مشركين به ، فأنا لا أعبد ما عبدتم ، أي مثل عبادتكم ، فهو في الثاني مصدر ، وكذلك : ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ [1] هو في الثاني مصدر أيضاً ، معناه ولا أنتم عابدون مثل عبادتي التي هي توحيد . قلت : القول الثالث هو في معنى الثاني ، لكن جعل قوله : ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ [2] معنيين : أحدهما بمعنى « ما عبدت » ، والآخر بمعنى ﴿ ما أعبد ﴾ ليطابق قوله لهم ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ [3] ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴾ [4] .

فلما تبرأ من أن يعبد في الحال والاستقبال ما يعبدونه في الماضي والحال ، كذلك برأهم من عبادة ما يعبد في الحال والاستقبال ، لكن العبارة عنهم وقعت بلفظ الماضي ، قال هؤلاء : وإنما لم يقل في حقه : « ما عبدت » للإشعار بأن ما أعبده في الماضي هو الذي أعبده في المستقبل .

قلت : أصحاب هذا القول أرادوا المطابقة كما تقدم . لكن إذا أريد

(١) سورة الكافرون آية رقم ٥ .

(٢) سورة الكافرون آية رقم ٥ .

(٣) سورة الكافرون آية رقم ٢ .

(٤) سورة الكافرون آية رقم ٤ .

بقوله : ﴿ **ما عبدتم** ﴾ [ما أريد] بقوله : ﴿ **ما أعبد** ﴾ ـ في أحد الموضعين الماضي ـ كان التقدير على ما ذكروه : لا أنا عابد في المستقبل ما عبدتم في الماضي ، فيكون قد نفى عن نفسه في المستقبل عبادة ما عبدوه في الماضي دون ما يعبدونه في المستقبل . وكذلك إذا قيل : ﴿ **وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ** ﴾ [1] ، أي في الماضي ، فسواء أريد بما يعبدون الحال أو الاستقبال إنما نفى عبادة ما عبدوه في الماضي ، وهذا أنقص لمعنى الآية ، وكيف يتبرأ في المستقبل من عبادة ما عبدوه في الماضي فقط ؟ وكذلك هم ؟ .

وإن قيل : في المستقبل قد يعبدون الله بالانتقال عن الكفر ، فهو في الحال والاستقبال لا يعبد ما عبدوه ، قيل : فعلى هذا لا يقال لهؤلاء ولا أنتم عابدون في المستقبل ما عبدت في الماضي ، بل قد يعبدون في المستقبل ـ إذا انتقلوا ـ ربه الذي عبده فيما مضى . وإن قيل : قول هؤلاء هو القول الثاني ـ لا أعبد في الحال ما تعبدون في الحال ، ولا أعبد في المستقبل ما تعبدون في المستقبل قيل ولفظ الآية : ﴿ **ولا أنا عابد ما عبدتم** ﴾ ، ليس لفظها « ولا أنا عابد ما تعبدون » . فقوله : ﴿ **ما عبدتم** ﴾ إن أريد به الماضي الذي أراده هؤلاء فسد المعنى ، وإن أريد به المستقبل بطل ما ذكروه من أن المضارع بمعنى الماضي في قوله : ﴿ **وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ** ﴾[2] . فإن الماضي هنا بمعنى المضارع ، فإذا كان المضارع مطابقاً له بقي مضارعاً ـ لم ينقل إلى الماضي ـ فيكون عكس المقصود .

والقول الرابع الذي ذكره قول من جعل ﴿ **ما** ﴾ مصدرية ، في الجملة الثانية دون الأخرى ، وهذا أيضاً ليس في الكلام ما يدل على الفرق بينهما ، وإذا جعلت في الجمل كلها مصدرية كان أقرب إلى الصواب مع أن هذا المعنى الذي تدل عليه ﴿ **ما** ﴾ المصدرية حاصل بقوله ﴿ **ما** ﴾ ، فإنه لم

---

(١) سورة الكافرون آية رقم ٥ .

(٢) سورة الكافرون آية رقم ٥ .

يقل : « ولا أنتم عابدون من أعبد » ، بل قال : ﴿ **ما أعبد** ﴾ . ولفظ ﴿ **ما** ﴾ يدل على الصفة بخلاف « من » فإنه يدل على العين ، كقوله : ﴿ **فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ** ﴾ [1] أي الطيب ، ﴿ **وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا** ﴾ [2] أي وبانيها ، ونظيره قوله : ﴿ **إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي ، قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ** ﴾ [3] ولم يقل « من تعبدون من بعدي » .

وهذا نظير [قوله] ﴿ **ولا أنتم عابدون ما أعبد** ﴾ سواء ، فالمعنى : لا أعبد معبودكم ، ولا أنتم عابدون معبودي .

فقوله : ﴿ **ولا أنتم عابدون ما أعبد** ﴾ يتناول شركهم ، فإنه ليس بعبادة لله ، فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه ، فإذا أشركوا به لم يكونوا عابدين له وإن دعوه وصلوا له .

وأيضاً فما عبدوا ما يعبده ، وهو الموصوف بأنه معبود له على جهة الاختصاص ، بل هذا يتناول عبادته وحده ، ويتناول الرب الذي أخبر به بما له من الأسماء والصفات ، فمن كذب به في بعض ما أخبر به عنه فما عبد ما يعبده من كل وجه .

وأيضاً فالشرائع قد تتنوع في العبادات ، فيكون المعبود واحداً وإن لم تكن العبادة مثل العبادة ، وهؤلاء لا يتبرأ منهم ، فكل من عبدالله مخلصاً له الدين فهو مسلم في كل وقت ، ولكن عبادته لا تكون إلا بما شرعه ، فلو قال : لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتي ، فقد يظن أنه تدخل فيه البراءة من كل عبادة تخالف صورتها صورة عبادته ، وإنما البراءة من المعبود وعبادته .

---

(١) سورة النساء آية رقم ٣ .

(٢) سورة الشمس آية رقم ٥ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ١٣٣ .

فصل

إذا تبين هـذا فنقـول : القـرآن تنـزيـل من حكيم حميـد ، وهـو كتـاب أحكمت آياته ثم فصلت .

ولو أن رجلاً من بني آدم له علم ، أو حكمة، أو خطبة ، أو قصيدة ، أو مصنف ، فهذب ألفاظ ذلك وأتى فيه بمثل هذا التغاير لعلم أنه قصد في ذلـك حكمة ، وأنه لم يخـالف بين الألفاظ مـع اتحاد المعنى سـدى ، فكيف بكلام رب العالمين ، وأحكم الحاكمين ، لا سيما وقد قال فيه : ﴿ **قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لاَ يَأْتُـونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَـانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً** ﴾ [1] .

فنقـول : الفعـل المضـارع هـو في اللغـة يتنـاول الـزمن الـدائم سـوى الماضي ، فيعم الحاضر والمستقبل ، كمـا قال سيبـويه [2] : وبنـوه لما مضى من الـزمـان ، ولمـا هـو دائم لم ينقـطع ، ولمـا لم يـأت ـ بمعنى المـاضي ، والمضـارع ، وفعل الأمـر ، فجعـل المضـارع لمـا هـو من الـزمـان دائمـاً لم ينقطع ، وقد يتناول الحاضر والمستقبل .

فقوله : ﴿ **لا أعبد** ﴾ يتناول نفي عبادته لمعبـودهم في الزمـان الحاضـر

---

(١) سورة الإسراء آية رقم ٨٨ .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

والزمان المستقبل ، وقوله : ﴿ **ما تعبدون** ﴾ يتناول ما يعبدونه في الحاضر والمستقبل ، كلاهما مضارع .

وقال في الجملة الثانية عن نفسه : ﴿ **ولا أنا عابد ما عبدتم** ﴾ ، فلم يقل « لا أعبد » ، بل قال : ﴿ **ولا أنا عابد** ﴾ . ولم يقل « ما تعبدون » . بل قال : ﴿ **ما عبدتم** ﴾ . فاللفظ في فعله وفعلهم مغاير للفظ في الجملة الأولى .

والنفي بهذه الجملة الثانية أعم من النفي بالأولى ، فإنه قال : ﴿ **ولا أنا عابد ما عبدتم** ﴾ بصيغة الماضي ، فهو يتناول ما عبدوه في الزمن الماضي ، لأن المشركين يعبدون آلهة شتى ، وليس معبودهم في كل وقت هو المعبود في الوقت الآخر ، كما أن كل طائفة لها معبود سوى معبود الطائفة الأخرى .

فقوله : ﴿ **ولا أنا عابد ما عبدتم** ﴾ براءة من كل ما عبدوه في الأزمنة الماضية ، كما تبرأ أولاً مما عبدوه في الحال والاستقبال ، فتضمنت الجملتان البراءة من كل ما يعبده المشركون والكافرون في كل زمان ـ ماض ، وحاضر ، ومستقبل ، وقوله أولاً : ﴿ **لا أعبد ما تعبدون** ﴾ لا يتناول هذا كله .

وقوله : ﴿ **ولا أنا عابد** ﴾ اسم فاعل قد عمل عمل الفعل ، ليس مضافاً ، فهو يتناول الحال والاستقبال أيضاً ، لكنه جملة اسمية ، والنفي بما بعد الفعل فيه زيادة معنى ، كما تقول : ما أفعل هذا ، وما أنا بفاعله . وقولك : « ما هو بفاعل هذا أبداً » أبلغ من قولك « ما يفعله أبداً » فإنه نفي عن الذات صدور هذا الفعل عنها ، بخلاف قولك « ما يفعل هذا » ، فإنه لا ينفي إمكانه وجوازه منه ، ولا يدل على أنه لا يصلح له ولا ينبغي له ! بخلاف قوله « ما هو فاعلاً ، وما هو بفاعل » كما في قوله : ﴿ **فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ** ﴾ [1] وقوله : ﴿ **مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ**

---

(١) سورة النحل آية رقم ٧١ .

﴿ بُمصْرِخيَّ ﴾ [1] وقوله : ﴿ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [2] . ﴿ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي العُمْيِ ﴾ [3] . ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي القُبُورِ ، ﴾ [4] ﴿ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ الله ﴾ [5] .

ولا يقال : الجملة الإسمية ترك الثبوت ، ونفي ذلك لا يقتضي نفي العارض ، فإن هذه الجملة في معنى الفعلية نفي ، لكونها عملت عمل الفعل ، لكنها دلت على اتصاف الذات بهذا ، فنفت عن الذات أن يعرض لها هذا الفعل تنزيهاً للذات ونفياً لقبولها لذلك ، فالأول نفى الفعل في الماضي والمستقبل ، والثاني نفى قبوله في الماضي مع الحاضر والمستقبل » .

فقوله : ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ ، أي نفسي لا تقبل ، ولا يصلح لها أن تعبد ما عبدتموه قط ولو كنتم عبدتموه في الماضي فقط . فأي معبود عبدتموه في وقت ، فأنا لا أقبل أن أعبده في وقت من الأوقات .

ففي هذا من عموم عبادتهم في الماضي والمستقبل ، ومن قوة براءته وامتناعه وعدم قبوله لهذه العبادة في جميع الأزمان ما ليس في الجملة الأولى ، تلك تضمنت نفي الفعل في الزمان غير الماضي ، وهذه تضمنت نفي إمكانه وقبوله لما كان معبوداً لهم ولو في بعض الزمان الماضي فقط .

والتقدير : ما عبدتموه ولو في بعض الأزمان الماضية فأنا لا يمكنني ولا يسوغ لي أن أعبده أبداً .

ولكن لم ينف إلا ما يكون منه في الحاضر والمستقبل لأن المقصود

---

(١) سورة ابراهيم آية رقم ٢٢ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٨٥ .

(٣) سورة النمل آية رقم ٨١ .

(٤) سورة فاطر آية رقم ٢٢ .

(٥) سورة البقرة آية رقم ١٠٢ .

براءته هو في الحال والاستقبال ، وهذه السورة يؤمر بها كل مسلم وإن كان قد أشرك بالله قبل قراءتها .

فهو يتبرأ في الحاضر والمستقبل مما يعبده المشركون في أي زمان كان ، وينفي جواز عبادته لمعبودهم ، ويبين أن مثل هذا لا يكون ولا يصلح ولا يسوغ ، فهو ينفي جوازه شرعاً ووقوعاً ، فإن مثل هذا الكلام لا يقال إلا فيما يستقبح من الأفعال ، كمن دعي إلى ظلم أو فاحشة فقال : « أنا أفعل هذا ؟ ما أنا بفاعل هذا أبداً » وهذا كقوله : ﴿ **وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ، وَمَا بعضُهم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ** ﴾ [1] .

فهو يتضمن نفي الفعل بغضاً فيه وكراهة له ، بخلاف قوله : « لا أفعل » فقد يتركه الإنسان وهو يحبه لغرض آخر ، فإذا قال : « ما أنا عابد ما عبدتم » دل على البغض والكراهية والمقت لمعبودهم ولعبادتهم إياه وهذه هي البراءة .

ولهذا تستعمل في ضد الولاية فيقال : تول فلاناً ، وتبرأ من فلان ، كما قال تعالى : ﴿ **إذ قالوا لقومهم إنا برءاؤا منكم ومما تعبدون من دون الله** ﴾ - الآية .

وأما قوله عن الكفار : ﴿ **ولا أنتم عابدون ما أعبد** ﴾ فهو خطاب لجنس الكفار وإن أسلموا فيما بعد ، فهو خطاب لهم ما داموا كفاراً ، فإذا أسلموا لم يتناولهم ذلك ، فإنهم حينئذ مؤمنون ، لا كافرون . وإن كانوا منافقين فهم كافرون في الباطن فيتناولهم الخطاب .

وهذا كما يقال : قل يا أيها المحاربون ، والمخاصمون ، والمقاتلون ، والمعادون ، فهو خطاب لهم ما داموا متصفين بهذه الصفة . وما دام الكافر كافراً فإنه لا يعبد الله ، وإنما يعبد الشيطان ، سواء كان متظاهراً ، أو غير

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٤٥ .

متظاهر به كاليهود .

فإن اليهود لا يعبدون الله ، وإنما يعبدون الشيطان ، لأن عبادة الله إنما تكون بما شرع وأمر ، وهم وإن زعموا أنهم يعبدونه فتلك الأعمال المبدلة والمنهى عنها هو يكرهها ويبغضها ، وينهى عنها ، فليست عبادة .

فكل كافر بمحمد لا يعبد ما يعبده محمد ما دام كافراً ، والفعل المضارع يتناول ما هو دائم لا ينقطع ، فهو ما دام كافراً لا يعبد معبود محمد ﷺ - لا في الحاضر ولا في المستقبل .

ولم يقل عنهم « ولا تعبدون ما أعبد » ، بل ذكر الجملة الإسمية ليبين أن نفس نفوسكم الخبيثة الكافرة بريئة من عبادة إله محمد ، لا يمكن أن تعبده ما دامت كافرة ، إذ لا تكون عابدته إلا بأن تعبده وحده بما أمر به على لسان محمد ، ومن كان كافراً بمحمد لا يكون عمله عبادة لله قط .

وتبرئتهم من عبادة الله جاءت بلفظ واحد بجملة اسمية تقتضي براءة ذواتهم من عبادة الله ، لم تقتصر على نفي الفعل .

ولم يحتج أن يقول فيهم : « ولا أنتم عابدون ما عبدت » كما قال في نفسه : ﴿ **ولا أنا عابد ما عبدتم** ﴾ لوجهين :

أحدهما : - أن كل مؤمن فهو مأمور بقراءة هذه السورة ، ومنهم من كان معبوده غير الله ، فلو قال : « ولا أنتم عابدون ما عبدت » لقالوا : بل نحن نعبد ما كنت تعبد لما كنت مشركاً ، بخلاف ما إذا قال : « ولا أنتم عابدون ما أعبده في هذا الوقت » ، ولم يقل « ما أنا عابد له » إذ نفسه قد لا تكون عابدة له مطلقاً ، وقد يجوز أن يعبد الواحد من الناس غير الله في المستقبل ، فلا يكون من لم يعبد ما يعبده في المستقبل مذموماً ، بخلاف المؤمن الذي يخاطب بهذه السورة غيره ، فإنه حين يقولها ما يعبد إلا الله ، فهو يقول للكفار : ﴿ **ولا أنتم عابدون ما أعبد** ﴾ الآن وذكر النفي عن الكفار في

الجملتين لتقارب كل جملة جملة ، فلما قال : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ [1] ، فنفى الفعل ، قال : ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ [2] .

ثم لما زاد النفي بنفي جواز ذلك وبراءة النفس منه ـ ذكر ما يدل على كراهته له وقبحه ، ونفى أن يعبد شيئاً مما عبدوه ولو في بعض الزمان ـ قال : **﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾** ، بل أنتم بريئون من عبادة ما أعبده ، فليس لبراءتي ، وكمال براءتي وبعدي من معبودكم وكمال قربي إلى الله في عبادتي له وحده لا شريك له ؛ يكون لكم نصيب من هذه العبادة ، بل أنتم أيضاً في هذه الحال لا تعبدون ما أعبد ـ لا في الحال الأولى ، ولا في الثانية .

ولو اقتصر في تبريهم من عبادة الله على الجملة الأولى لم يكن فيها تبرئة لهم في هذه الحال الثانية ، فبرأهم من معبوده حين البراءة الأولى الخاصة ، وحين البراءة الثانية العامة القاطعة .

وهم لم يختلف حالهم في الحالين ، بل هم فيهما لا يعبدون ما يعبد ، فلم يكن في تغيير العبارة فائدة ، وإنما غيرت العبارة في حقه وحق المؤمنين لتغيير المعنيين .

والإنسان يقوي يقينه وإخلاصه ، وتوحيده ، وبراءته من الشرك وأهله ، وبغضه لما يعبدون ولعبادتهم ، فرفع درجته في ذلك ، وهو في ذلك يقول للكفار « لا تعبدون ما أعبد » في هذه الحال ـ سواء كانوا هم قد زاد كفرهم وبغضهم له أو لم يزد .

فالمقصود بالسورة أن المؤمن يتبرأ منهم ، ويخبرهم أنهم برآء منه ، وتبريه منهم إنشاء ينشئه ، كما ينشىء المتكلم بالشهادتين ، وهذا يزيد وينقص ، ويقوي ويضعف .

---

(1) سورة الكافرون اية رقم ٢ .

(2) سورة الكافرون آية رقم ٣ و٥ .

وأما هم فهو يخبر ببراءتهم منه في هذه الحال ، لا ينشىء شيئاً لم يكن فيهم ، فخطاب المؤمن عن حالهم خبر عن حالهم ، والخبر مطابق للمخبر عنه ، فلم يتغير لفظ خبره عنهم ، إذا كانوا في كل وقت من أوقات عبادته لله لا يعبدون ما يعبد ، فهذا اللفظ الخبري مطابق لحالهم في جميع الأوقات ـ زادوا أو نقصوا .

ولا يجوز للمؤمن أن ينشىء زيادهم في كفرهم ، فإن ذلك محرم ، بل هو مأمور بدعائهم إلى الإيمان ، وليس له أن ينقصهم في خبره عما هم متصفون به ، فلم يكن في الإخبار عن حالهم زيادة فيما هم عليه ولا نقص ، فلم يغير لفظ الخبر في الحالين بلفظ واحد ، وأما المؤمن نفسه فهو مأمور بأن ينشىء قوة الإخلاص لله وحده ، وعبادته وحده ، والبراءة من كل معبود سواه وعبادته ، وبراءته منه ومن عابديه ، وقوله : ﴿ **لا أعبد ما تعبدون** ﴾ وإن كان لفظها خبراً ففيها معنى الإنشاء كسائر ألفاظ الإنشاءات ، كقوله « أشهد أن لا إله إلا الله » ، وقوله : ﴿ **إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ، إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي** ﴾ [1] وقوله : ﴿ **إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ** ﴾ [2] فكل هذه الأقوال فيها معنى الإنشاء لها ينشئه المؤمن في نفسه من زيادة البراءة من الشرك وهي المقشقشة التي تقشقش من الشرك ، كما يقشقش المريض من المرض ، فإن الشرك والكفر أعظم أمراض القلوب ، فأمر المؤمن بقول يوجب في قلبه من البراءة من الشرك ما لم يكن في قلبه قبل ذلك ، وكلما قاله ازداد براءة من الشرك ، وقلبه شفاء من المرض ، وإن كان الكفرة المخاطبون لا يزدادون بالإخبار عنهم إلا كفراً ، فالجملة الخبرية تطابق المخبر عنه ، والإنشاء يوجب إحداث ما لم يكن . فقيل : ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ ، لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ** ﴾ [3] . أي أنا ممتنع من هذا ، تارك له ، ثم قال : « ولا أنا عابد ما عبدتم » أي أنا بريء

---

(١) سورة الزخرف آية رقم ٢٦ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ٧٨ .

(٣) سورة الكافرون آية رقم ١ -٢ .

من هـذا ، متنزه عنـه ، مـزكٍ لنفسي منـه، فـإن الشـرك أعـظم مـا تنجس بـه النفس ، وأعظم تزكية النفس وتطهيرها تزكيتها منه وتطهيرها منه ، فما أنا عابد قط ما عبدتم في وقت من الأوقات .

وأنتم مع ذلك ما أنتم عابدون ما أعبد ، بل أنتم بريئون مما أعبد ، وأنا بريء مما تعبدون ، مأمور بالبراءة منه ، وطالب زيادة البراءة منه ، ومجتهد في ذلك .

وأنا أخبر عنكم بأنكم بريئون مما أعبد ، إما لكونكم تأمرون بذلـك وإما لكـونكم تعبدونـه ، فلا أخبـر به ، فـإنه كـذب ، وإما لكـونكم تجتهـدون في البراءة وتبالغون فيها ، فبهـا تختلف فيه أحوالكم .

وأنا لا يسوغ لي أن أذكـر ما يـزيل بـراءتكم ، ولا أكذب عليكم فـإنكم تنقصون منها إذا تبرأت ، بل التبري منها داع وباعث لمن له عقل أن ينظر في سبب هـذه البـراءة، لا سيمـا في حق الـرســول الـذي خــوطب أولاً بقـولـه ﴿ قل ﴾ .

فلينظر العاقل في سبب براءتي من الشرك وما أنتم عليـه ، واختياري بـه عـداوتكم ، والصبر على أذاكم ، واحتمـالي هذه المكـاره العظيمـة ، بعد مـا كنتم تعـظمونني غـاية التعـظيم ، وتصفونني بـالأمانـة ، وتسمـونني « الأمين » وتفضلونني على غيـري ، ونسبي فيكم أفضل نسب وتعـرفون مـا جعل الله فيَّ من العقــل والمعـرفــة ومكـارم الأخــلاق وحسن المقـاصــد وطلب العــدل والإحسان ، وأني لا أختار لأحد منكم سوءاً ، ولا أريد أن أصيب أحداً بشر ، فاختياري للبراءة مما تعبدون ، وإظهاري لسبهم وشتمهم . أهـو سدى ليس لـه موجب أو وجه ؟ فانظروا في ذلك . ففي السورة دعاء وبعث للكفار إلى طلب الحق ومعرفته ، مع ما فيها من كمال البراءة منهم .

ومعانيها كثيرة شريفة يطول وصفها .

وقوله : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ ﴾ [1] يتناول كل كافر ، فهو لا يعبد ما يعبده أحد من الكفار ، ولا مشركي العرب ، ولا غيرهم من المشركين والكفار أهل الكتاب ـ لا اليهود ولا النصارى ، ولا غيرهم من أصناف الكفار ، وذلك أنه قال : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ [2] . فذكر لفظ ﴿ ما ﴾ ولم يقل : « من تعبدون » . و﴿ ما ﴾ تدل على الصفة كما تقدم ، وما ذكره المهدوي وغيره من أنه قال : ﴿ ما أعبد ﴾ ولم يقل « من أعبد » ـ يقابل به « ولا أنا عابد [ما عبدتم] الذي يراد به الأصنام ، فضعيف جداً يغير اللغة ويخص عموم القرآن ـ وهو عموم مقصود ـ ويزيل المعنى الذي به تعلقت هذه البراءة .

فإن ﴿ما﴾ في اللغة إما لما لا يعلم، ولصفات ما يعلم، كما في قوله : ﴿ فَانْكِحُوا مَا طَابَ ﴾ [3] ، ﴿ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ [4] ، ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَىٰ ﴾ [5] ، وفي التسبيح المأثور أنه يقال عند سماع الرعد : « سبحان ما سبحت له » ومثله كثير فقوله : ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ [6] جار على أصل اللغة ، وأيضاً فقوله : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ [7] خطاب للكفار مطلقاً ، فهو لا يعبد الملائكة ولا غير ذلك مما عبد من دون الله ـ وإن كان ما عبد أهل العلم والعقل فعبر عن ذواتهم بـ « من » فتخصيص البراءة من الشرك بشرك مشركي العرب غلط عظيم ، وإنما هي براءة من كل مشرك .

وكون الرب يتصف بما تتصف به الأصنام من عدم العلم ما لا يجوز

---

(١) سورة الكافرون آية رقم ١ .

(٢) سورة الكافرون آية رقم ٢ .

(٣) سورة النساء آية رقم ٣ وتكملة الآية ﴿ لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا ﴾ .

(٤) سورة الشمس آية رقم ٧ وتكملة الآية ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ .

(٥) سورة الليل آية رقم ٣ .

(٦) سورة الكافرون آية رقم ٣ .

(٧) سورة الكافرون آية رقم ٢ .

عليه ، ولا تصح المقابلة في مثل ذلك ، بل المقصود ذكر الصفات والإخبار بمعبود الرسول والمؤمنين ليتبرأ من معبودهم ويبرئهم من معبوده . وإذا قال اليهود : نحن نقصد عبادة الله . كانوا كاذبين ، سواء عرفوا أنهم كاذبون أم لم يعرفوا ، كما يقول النصارى : إنا نعبد الله وحده وما نحن بمشركين ، وهم كاذبون ، لأنهم لو أرادوا عبادته لعبدوه بما أمر به ، وهو الشرع ، لا بالمنسوخ المبدل .

وأيضاً فالرب الذي يزعمون أنهم يقصدون عبادته هو عندهم رب لم ينزل الإنجيل ولا القرآن ، ولا أرسل المسيح ولا محمداً ، بل هو عند بعضهم فقير ، وعند بعضهم بخيل ، وعند بعضهم عاجز ، وعند بعضهم لا يقدر أن يغير ما شرعه ، وعند جميعهم أنه أيد الكاذبين المفترين عليه الذين يزعمون أنهم رسله وليسوا رسله ، بل هم كاذبون سحرة ، قد أيدهم ونصرهم ، ونصر أتباعهم على أوليائه المؤمنين ، لأنهم عند أنفسهم أولياؤه دون الناس ، فالرب الذي يعبدونه هو دائماً ينصر أعداءه . فهم يعبدون هذا الرب ، والرسول والمؤمنون لا يعبدون هذا المعبود الذي تعبده اليهود ، فهو منزه عما وصفت به اليهود معبودها من جهة كونه معبوداً لهم ـ منزه عن هذه الإضافة ، فليس هو معبوداً لليهود ، وإنما في جبلاتهم صفات ليست هي صفاته زينها لهم الشيطان ، فهم يقصدون عبادة المتصف بتلك الصفات ، وإنما هو الشيطان .

فالرسول والمؤمنون لا يعبدون شيئاً تعبده اليهود ـ وإن كانوا يعبدون من يعبدونه ، وهذا مما يظهر به فائدة ما ذكرنا .

وعلى هذا فقوله : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [1] خطاب لجميع الكفار كما دلت عليه الآية . وبهذا يظهر خطأ من قال إنه خطاب للمشركين

---

(١) سورة الكافرون آية رقم ٦ .

والنصارى دون اليهود ، كما في قول ابن زيد : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [(١)] قال للمشركين والنصارى ، واليهود لا يعبدون إلا الله ، ولا يشركون إلا أنهم يكفرون ببعض الأنبياء بما جاؤوا به من عند الله ، ويكفرون برسول الله ﷺ وبما جاء به ، وقتلوا طوائف الأنبياء ظلماً وعدواناً . قال : إلا العصابة التي تقول حيث خرج بخت نصر ، وقيل : من سموا عزيراً « ابن الله » ولم يعبدوه ، ولم يفعلوا كما فعلت النصارى ـ قالت : المسيح ابن الله ، وعبدته .

فهذا الذي ذكره من أن اليهود لا تشرك كما أشركت العرب والنصارى صحيح ، لكنهم مع هذا لا يعبدون الله ، بل يستكبرون عن عبادته ، ويعبدون الشيطان ، لا يعبدون الله ، ومن قال إن اليهود تعبد الله فقد غلط غلطاً قبيحاً ، فكل من عبدالله كان سعيداً من أهل الجنة ، وكان من عباد الله الصالحين . قال تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ، إِنَّهُ لكم عَدُوٌّ مُبِينٌ ، وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ [(٢)] .

وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن : « إنك تأتي قوماً أهل كتاب ، فأول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ـ وفي رواية : « فادعهم إلى عبادة الله فإذا عرفوا الله فأعلمهم . . . » [(٣)] .

فلا يعبد إلا الله بعد أن أرسل محمداً وعرفت رسالته وبلغت . ولهذا اتفق العلماء على أن أعمالهم حابطة ، ولو عبدوا الله لم تحبط أعمالهم ، فإن

---

(١) سورة الكافرون آية رقم ٦ .

(٢) سورة يس آية رقم ٦٠ ـ ٦١ .

(٣) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الإيمان ـ حدثنا أمية بن بسطام العيش حدثنا يزيد بن زريع ، حدثنا روح وهو ابن القاسم عن إسماعيل بن أمية عن يحيى بن عبدالله بن صيفي عن أبي معبد عن ابن عباس أن رسول الله ـ ﷺ ـ لما بعث معاذاً الى اليمن : وذكره وفيه زيادة « أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم فإذا فعلوا فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم فتر على فقرائهم فإذا أطاعوا فخذ منهم وتوقَّ كرائم أموالهم » .

الله لا يظلم أحداً .

وقبل إرسال محمد إنما كان يعبد الله من عبده بما أمر به ، فأما من ترك عبادته بما أمر به واتبع هواه فهو لا يعبد الله، إنما يعبد الشيطان ، ويعبد الطاغوت ، وقد أخبر الله عن اليهود بأنهم عبدوا الطاغوت ، وأنه لعنهم وغضب عليهم وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت .

وهو اسم جنس يدخل فيه الشيطان ، والوثن ، والكهان ، والدرهم والدينار ، وغير ذلك ، وقال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾ (١) . وقال : ﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ كِتَابَ الله وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ، وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيمَانَ ، وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ (٢) ـ الآية .

وهم أشد عداوة للمؤمنين من النصارى ، وكفرهم أغلظ ، وهم مغضوب عليهم ، ولهذا قيل : إنهم تحت النصارى في النار ، واليهود إن لم يعبدوا المسيح فقد افتروا عليه وعلى أمه بما هو أعظم من كفر النصارى ، ولهذا جعل الله النصارى فوقهم الى يوم القيامة .

فالنصارى مشركون يعبدون الله ويشركون به ، وأما اليهود فلا يعبدون الله، بل هم معطلون لعبادته، مستكبرون عنها ـ كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم استكبروا ففريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون ، بل هم متبعون أهواءهم ، عابدون للشيطان .

فالنبي والمؤمنون لا يعبدون ما تعبده اليهود ، وهم وإن وصفوا الله ببعض ما يستحقه فهم يصفونه بما هو منزه عنه ، وليس في قلوبهم عبادة له

---

(١) سورة النساء آية رقم ٥١ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٠١ ـ ١٠٢ .

وحده ، فإن ذلك لا يكون إلا لمن عبده بما أمره بـه . والسورة لم يقـل فيها : « يا أيها المشركون » حتى يقال فيها إنها إنما تناولت من أشرك ، بل قال ﴿ **يـا أيها الكافرون** ﴾ فتناولت كل كافر ، سواء كان ممن يظهر الشرك ، أو كـان فيه تعطيل لما يستحقه الله واستكبار عن عبادته ، والتعطيـل شر من الشـرك ، وكل معطل فلا بد أن يكون مشركاً .

والنصارى مع شركهم لهم عبادات كثيـرة ، واليهود من أقـل الأمم عبادة وأبعدهم عن العبادة لله وحده ، لكن قد يعـرفون مـا لا تعرفـه النصارى ، لكن بلا عبادة وعمل بالعلم ، فهم مغضوب عليهم، وأولئك ضالون ، وكلاهمـا قد برأ الله منهم رسوله والمؤمنين .

وفي هذه الأمة من يعرف ما لا تعرفه اليهود والنصارى بلا عمل بالعلم ، ففيهم شبه ، كما قال سفيان بن عيينة [(١)] : من فسد من علمائنا كـان فيه شبـه من اليهود ، ومن فسد من عبادنا كـان فيه شبـه من النصارى ، بـل قد قـال أبو هريرة : ما أقرب الليلة من البارحة ، أنتم أشبه الناس ببني إسـرائيل ، بـل في الحديث الصحيح : « لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، حتى لـو دخلوا جحر ضب لـدخلتمـوه » قـالـوا : اليهـود والنصـارى ؟ قـال : فمن ؟ » وفي رواية : فارس والروم ؟ قال : « ومن الناس إلا أولئك ؟ [(٢)] .

---

(١) هو سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي ، أبـو محمد ، محـدث الحرم المكي ، من المـوالي ، ولد بالكوفة عام ١٠٧ هـ وسكن مكة وتوفي بها عام ١٩٨ هـ كان حافظاً ثقة ، واسع العلم كبـير القدر . قال الشافعي ، لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز ، وكان أعـور وحج سبعـين سنة له الجامع في الحديث ، وكتاب في التفسير . [راجع تذكرة الحفاظ ١ : ٢٤٢ وصفة الصفوة ٢ : ١٣٠ ، وابن خلكان ١ : ٢١٠ وميزان الاعتدال ١ : ٣٩٧ وحلية الأولياء ٧ : ٢٧٠] .

(٢) الحـديث رواه الامام البخـاري في كتاب أحـاديث الأنبيـاء ٥٠ بـاب مـا ذكـر عن بني إسـرائيـل ٣٤٥٦ ـ عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد رضي الله عنه أن النبي ـ ﷺ ـ قال : وذكره .

ورواه في الاعتصـام ١٤، ورواه الإمام مسلم في العلم ـ ٦ وابن مـاجه في كتـاب الفتن ١٧ باب =

وقال : « افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة . وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها في النار إلا واحدة »[1] .

وقد بسط هذا في غير هذا الموضع ، وبين فيه حال الفرقة الناجية الذين هم على مثل ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه .

ومما يوضح ما تقدم أن قوله : ﴿ **لا أَعْبُدُ ما تعبدون . ولا أنتم عابدون ما أعبد** ﴾ معناه المعبود ، ولكن هو لفظ مطلق يتناول الواحد والكثير ، والمذكر والمؤنث ، فهو يتناول كل معبود لهم .

والمعبود هو الإله ، فكأنه قال : « لا أعبد إلهكم ، ولا تعبدون إلهي ، كما ذكر الله في قصة يعقوب . قال تعالى : ﴿ **أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ المَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي ، قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وإِسْحَقَ ، إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** ﴾[2] ، واسم الإله والمعبود يتضمن إضافة إلى العابد ، وقال : ﴿ **إله آبائك إبراهيم واسماعيل واسحاق** ﴾ ، هو الذي يعبده هؤلاء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ ويألهونه .

وإنما يعبده من كان على ملتهم ، كما قال يوسف ﴿ **إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ . وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسحاقَ وَيَعْقُوبَ . مَا كانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ ، ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى**

= افتراق الأمم ٣٩٩٤ بسنده عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه .
وفي الزوائد : إسناده صحيح ورجاله ثقات .
ورواه الامام أحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٣٢٥ ، ٣٢٧ (حلبي)

(١) سبق تخريج هذا الحديث .
(٢) سورة البقرة آية رقم ١٣٣ .

النَّـاسِ ـ إلى قولـه ـ **ذَلِكَ الـدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّـاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾** [1] .

فتبين أن ملة آبائه هي عبادة الله ، وهي ملة إبراهيم ، وقد قال تعالى : **﴿ وَمَنْ يَـرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِـهَ نَفْسَهُ** ـ إلى قـوله ـ **فَـلاَ تَمُـوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾** [2] .

وإذا كـان كذلـك فاليهـود والنصارى ليسـوا على ملة إبـراهيم ، وإذا لـم يكونوا على ملته لم يكونوا يعبدون إله إبراهيم ، فإن من عبد إلـه ابراهيم كـان على ملته . قال تعالى : **﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ، قُـلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ، وَمَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ** ـ إلى قوله ـ **وَهُوَ السَّمِيـعُ العَلِيمُ ﴾** [3] فقوله : **﴿ قل بل ملة إبـراهيم ﴾** يبين أن ما عليـه اليهود والنصـارى ينافي ملة إبراهيم .

وهذا بعد مبعث محمد لا ريب فيه ، فإنه هو الذي بعث بملة إبراهيم ، والطائفتان كانتا خارجتين عنها بما وقع منهم من التبـديل ، قـال تعالى : **﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّـاسِ بِإِبْـرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَـذَا النَّبِيُّ وَالَّـذِينَ آمَنُـوا ﴾** [4] وقـال : **﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إبراهيم ﴾** [5] ـ الآية . وقال : **﴿ ثُمَّ أَوحَيْنا إليكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إبراهيمَ حَنيفاً ﴾** [6] .

وقوله : **﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَن مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِـهَ نَفْسَهُ ﴾** [7] يبين أن

---

(١) سورة يوسف آية رقم ٣٧ ـ ٤٠ .
(٢) سورة البقرة آية رقم ١٣٠ ـ ١٣٢ .
(٣) سورة البقرة آية رقم ١٣٥ ـ ١٣٧ .
(٤) سورة آل عمران آية رقم ٦٨ .
(٥) سورة الأنعام آية رقم ١٦١ .
(٦) سورة النحل آية رقم ١٢٣ .
(٧) سورة البقرة آية رقم ١٣٠ .

كل من رغب عنها فقد سفه نفسه ، وفيه من جهة الإعراب والمعنى قولان : -

أحدهما : وهو قول الفراء وغيره من نحاة الكوفة واختيار ابن قتيبة وغيره ، وهو معنى قول أكثر السلف - أن النفس هي التي سفهت. فإن ﴿ **سفه** ﴾ فعل لازم لا يتعدى ، لكن المعنى ، إلا من كان سفيهاً فجعل الفعل له ونصب النفس على التمييز لا النكرة ، كقوله : ﴿ **وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً** ﴾ [1] .

وأما الكوفيون فعرفوا هذا وهذا . قال الفراء : نصب النفس على التشبيه بالتفسير ، كما يقال : ضقت بالأمر ذرعاً ، معناه : ضاق ذرعي به ، ومثله ﴿ **واشتعل الرأس شيباً** ﴾ أي اشتعل الشيب في الرأس . قال : ومنه قوله : ألم فلان رأسه ، ووجع بطنه، ورشد أمره ، وكان الأصل : سفهت نفس زيد ، ورشد أمره ، فلما حول الفعل إلى زيد انتصب ما بعده على التمييز .

فهذه شواهد عرفها الفراء من كلام العرب ، ومثله قوله : غبن فلان رأيه ، وبطر عيشه ، ومثل هذا قوله ﴿ **بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا** ﴾ [2] . أي بطرت نفس المعيشة ، وهذا معنى قول يمان بن رباب : حمق رأيه ونفسه ، وهو معنى قول ابن السائب : ضل من قبل نفسه ، وقول أبي روق : عجز رأيه عن نفسه .

والبصريون لم يعرفوا ذلك ، فمنهم من قال : جهل نفسه ، كما قاله ابن كيسان ، والزجاج ، قال : لأن من عبد غير الله فقد جهل نفسه لأنه لم يعلم خالقها .

وهذا الذي قاله ضعيف ، فإنه إن قيل إن المعنى صحيح فهو إنما قال ﴿ **سفه** ﴾ و﴿ **سفه** ﴾ فعل لازم ، ليس بمتعدّ ، و« جهل » فعل متعد ، وليس

---

(١) سورة مريم آية رقم ٤ .

(٢) سورة القصص آية رقم ٥٨ .

في كلام العرب « سفهت كذا » البتة بمعنى « جهلته » بل قالوا : سفه بالضم - سفاهة ، أي صار سفيهاً ، وسفه - بالكسر - أي حصل منه سفه ، كما قالوا في « فقه وفقه » . ونقل بعضهم : سفهت الشرب إذا أكثرت منه ، وهو يوافق ما حكاه الفراء ، أي صار شربه سفهاً ، فسفه شربه لما جاوز الحد .

وقال الأخفش [1] ، ويونس : نصب بإسقاط الخافض ، أي سفه في نفسه ، وقولهم « بإسقاط الخافض » ليس هو أصلاً فيعتبر به ، ولكن قد تنزع حروف الجر في مواضع مسموعة ، فيتعدى الفعل بنفسه ، وإن كان مقيساً في بعض الصور فـ ﴿ سفه ﴾ ليس من هذا ، لا يقال : سفهت أمر الله ، ولا دين الإسلام ، بمعنى : جهلته ، أي سفهت فيه ، وإنما يوصف بالسفه وينصب على التمييز ما خص به ، مثل نفسه أو شربه ، ونحو ذلك .

والمقصود أن كل من رغب عن ملة ابراهيم فهو سفيه ، قال أبو العالية : رغبت اليهود والنصارى عن ملة إبراهيم ، وابتدعوا اليهودية والنصرانية ، وليست من الله ، وتركوا دين إبراهيم ، وكذلك قال قتادة : بدلوا دين الأنبياء ، واتبعوا المنسوخ .

فأما موسى والمسيح ومن اتبعهما فهم على ملة إبراهيم متبعون له ، وهو إمامهم ، وهذا معنى قوله : ﴿ **إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ [2] . فهو يتناول الذين اتبعوه قبل مبعث محمد وبعد مبعثه ، وقيل إنه عام ، قال الحسن البصري : كل مؤمن ولي إبراهيم ممن مضى وممن بقي ، وقال الربيع بن أنس : هم المؤمنون الذين صدقوا نبي الله

---

(١) هو سعيد بن مسعدة المجاشعي بالولاء البلخي ثم البصري أبو الحسن المعروف بالأخفش الأوسط : نحوي : عالم باللغة والأدب من أهل بلخ سكن البصرة ، وأخذ العربية من سيبويه ، وصنف كتباً منها « تفسير معاني القرآن » وشرح أبيات المعاني ، والاشتقاق وغير ذلك كثير توفي عام ٢١٥ هـ . [راجع وفيات الأعيان ١ : ٢٠٨ وإنباه الرواة ٢ : ٣٦ وبغية الوعاة ٢٥٨] .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٦٨ .

واتبعوه ، وكان محمد والذين معه من المؤمنين أولى الناس بـإبراهيم ، وهـذا وغيره مما يبين أن اليهود والنصارى لا يعبدون الله ، وليسوا على ملة إبراهيم .

فإن قيل : فالمشرك يعبد الله وغيره بـدليل قـول الخليل : ﴿ **أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ، أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ ، فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ العَالَمِينَ** ﴾ [1] . فقد استثناه مما يعبدون ، فدل على أنهم كانوا يعبدون الله ، وكذلك قوله : ﴿ **إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ، إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي** ﴾ [2] ، واستثناه أيضاً ، وفي المسند وغيره حديث حصين الخزاعي لما قال له النبي ﷺ : « يا حصين ؟ كم تعبد اليوم ؟ » قال : سبعة آلهة ـ ستة في الأرض وواحد في السماء ، قال : « فمن الذي تعد لرغبتك ورهبتك ؟ » قال : الذي في السماء [3] .

قيل : هذا قـول المشركين ، كما تقول اليهود والنصارى : نحن نعبد الله . فهم يظنون أن عبادته مع الشرك به عبادة ، وهم كاذبون في هذا . وأما قول الخليل ففيه قولان : قال طائفة : إنه استثناء منقطع ، وقال عبد الرحمن ابن زيد : كانوا يعبدون الله مع آلهتهم .

وعلى هذا فهذا لفظ مقيد . فإنه قال ﴿ **ما تعبدون** ﴾ . فسماه عبادة إذا عرف المراد ، لكن ليست هي العبادة التي هي عند الله عبادة ، فإنه كما قال تعالى : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه بريء ، وهو كله للذي أشرك »[4] . وهذا كقوله تعالى : ﴿ **وَمَا يُؤْمِنُ**

---

(١) سورة الشعراء آية رقم ٧٥ ـ ٧٧ .

(٢) سورة الزخرف آية رقم ٢٦ ـ ٢٧ .

(٣) سبق تخريج هذا الحديث وراجع الاستيعاب في معرفة الأصحاب عند ترجمة (حصين الخزاعي) .

(٤) الحديث رواه ابن ماجه في الزهد ٢١ باب الرياء والسمعة ٤٢٠٢ ثنا عبد العزيز بن أبي حازم عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه ، عن أبي هريرة ، أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : قال الله عز وجل وذكره .

أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ (١) . سماه إيماناً مع التقييد ، وإلا فالمشرك الذي جعل مع الله إلهاً آخر لا يدخل في مسمى الإيمان عند الإطلاق ، وقد قال : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِالجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾ (٢) ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ فهذا مع التقييد ، ومع الإطلاق فالإيمان هو الإيمان بالله ، والبشارة بالخير .

وقوله : ﴿ وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ (٣) نفي العبادة مطلقاً ، ليس هو نفي لما قد يسمى عبادة مع التقييد ، والمشرك إذا كان يعبد الله ويعبد غيره فيقال : إنه يعبد الله وغيره ، أو يعبده مشركاً به . لا يقال : إنه يعبد مطلقاً ، والمعطل الذي لا يعبد شيئاً شر منه ، والعبادة المطلقة المعتدلة هي المقبولة ، وعبادة المشرك ليست مقبولة .

ومما يوضح هذا قوله : ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ المَوْتُ ﴾ (٤) الآية . قالوا فيها : ﴿ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ - إلى قوله - إِلَهاً وَاحِداً ﴾ (٥) فهذا بدل من الأول في أظهر الوجهين ، فإن النكرة تبدل من المعرفة ، كما في قوله : ﴿ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ ، نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ (٦) ، فذكرت معرفة وموصوفة ، كذلك قالوا : « نعبد إلهك » فعرفوه ، ثم قالوا « إلهاً واحداً » فوصفوه ، والبدل في حكم تكرير العامل أحياناً ، كما في قوله : ﴿ قَالَ المَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ﴾ (٧) فالتقدير :

= في الزوائد : اسناده صحيح ورجاله ثقات ورواه الامام مسلم في الزهد ٤٦ والامام أحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٤٦٦ ، ٤ : ٢١٥ (حلبي) .

(١) سورة يوسف آية رقم ١٠٦ .

(٢) سورة النساء آية رقم ٥١ .

(٣) سورة الكافرون آية رقم ٣ و ٥ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ١٣٣ .

(٥) سورة البقرة آية رقم ١٣٣ .

(٦) سورة العلق آية رقم ١٥ - ١٦ .

(٧) سورة الأعراف آية رقم ٧٥ .

نعبد إلهك ، نعبد إلهاً واحداً ، ونحن له مسلمون . فجمعوا بين الخبرين بأمرين ـ بأنهم يعبدون إلهه ، وأنهم إنما يعبدون إلهاً واحداً ، فمن عبد إلهين لم يكن عابداً لإلهه وإله آبائه ، وإنما يعبد إلهه من عبد إلهاً واحداً .

ولو كان من عبدالله وعبد معه غيره عابداً له لكانت عبادته نوعين ـ عبادة إشراك ، وعبادة إخلاص ، وإذا كان كذلك لم يكن قوله : « إلهاً واحداً بدلاً . لأن هذا كل من كل ، ليس هو بدل بعض من كل . فعلم أن إلهه وإله آبائه لا يكون إلا إلهاً واحداً . والوجه الثاني : قوله : ﴿ **إلهاً واحداً** ﴾ نصب على الحال ، لكنها حال لازمة ، فإنه لا يكون إلا إلهاً واحداً ، كقوله : ﴿ **وَهُوَ الحَقُّ مُصَدِّقاً** ﴾ [1] ، وهو لا يكون إلا مصدقاً ، ومنه ﴿ **مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً** ﴾ [2] . ﴿ **وَيَقْتُلُونَ النَبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ** ﴾ [3] . فمن عبد معه غيره فما عبده إلهاً واحداً ، ومن أشرك به فما عبده ، وهو لا يكون إلا إلهاً واحداً ، فإذا لم يعبده في الحال اللازمة له لم تكن له حال أخرى يعبده فيها ، فما عبده .

فإن قيل : المشرك يجعل معه آلهة أخرى ، فهو يعبد في حال ليس هو فيها الواحد ، قيل : هذا غلط منشأه أن لفظ « الإله » [4] يراد به المستحق للالهية ، ويراد به ما اتخذه الناس إلهاً وإن لم يكن إلهاً في نفس الأمر ، بل هي أسماء سموها هم وآباؤهم ، فتلك ليست في نفسها آلهة ، وإنما هي آلهة في أنفس العابدين ، فإلهيتها أمر قدره المشركون ، وجعلوه في أنفسهم من غير أن يكون مطابقاً للخارج ، كالذي يجعل من ليس بعالم عالماً ، ومن ليس بحي حياً ، ومن ليس بصادق ولا عدل صادقاً وعدلاً فيقال : هذا عندك

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٩١ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٣٥ .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ٢١ .

(٤) سقط من المطبوعة (لفظ) .

صادق ، وعادل ، وعـالم ، وتلك اعتقادات غيـر مطابقـة ، وأقوال كـاذبة غيـر لائقة [1] .

ولهذا يجعل سبحانه ذلك من باب الافتراء والكذب ، كما قال أصحاب الكهف : ﴿ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ، لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ على الله كَذِباً ﴾ [2] . وقـال الخليـل : ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً ﴾ [3] . وقال : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ الله شُرَكَاءَ ؟ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [4] أي أيّ شيء يتبـع الـذين يشـركـون ؟ وإنمـا يتبعـون الـظن والخـرص ، وهـو الحزر . هذا صواب . وأن ما استفهامية ، وقد قيل إنهـا نافيـة ، وبعضهم لم يـذكر غيـره ، كـأبي الفـرج ، وهـو ضعيف كمـا قـد بين ذلـك في غيـر هـذا الموضع .

وقـال هـود : ﴿ اعْبُدُوا الله مَالَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ [5] . وإذا كانت الهيـة ما سـوى الله أمراً مختلقـاً يوجـد في الذهن واللسان لا وجود له في الأعيان ، وهو من باب الكذب والاعتقاد الباطل الـذي ليس بمطابق ، وما عند عابـديها من الحب والخـوف والرجـاء لها تـابع لـذلك الاعتقاد الباطل ، كمن اعتقد في شخص أنه صـادق فصدقـه فيما يقـول ، وبنى على إخبـاره أعمالاً كثيـرة ، فلما تبين كـذبه ظهـر فساد تلك الأعمـال كأتبـاع مسيلمـة [6] ، والأسود [7] ، وغيـرهما من أصحـاب الزوايـا والترهـات ، ومـا

---

(١) في المطبوعة بزيادة جملة (غير لائقة) .

(٢) سورة الكهف آية رقم ١٥ .

(٣) سورة العنكبوت آية رقم ١٧ .

(٤) سورة يونس آية رقم ٦٦ .

(٥) سورة هود آية رقم ٥٠ .

(٦) هو مسيلمة بن ثمامة بن كبير الكذاب تـوفي عام ١٢ هـ سبق الترجمة لـه . [وراجع ابن هشـام ٣ : ٧٤ والروض الأنف ٢ : ٣٤٠ والكامل لابن الأثير ٢ : ١٣٧ ـ ١٤٠] .

(٧) هـو عبهلة بن كعب بن عوف العنسي المـذحجي ذو الخمار متنبىء مشعـوذ من أهـل اليمن كـان

يشرعونه لأتباعهم مما لم يأذن به الله ، بخلاف الصادق والصدق .

ولهذا كانت كلمة التوحيد ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ (١) ، وقال في كلمة الشرك ﴿ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَالَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ (٢) ، فليس [لها] أساس ثابت ، ولا فرع ثابت ، إذ كانت باطلة ، كأقوال الكاذبين وأعمالهم ، بل هي أعظم الكذب ، والافتراء مع الحب لها .

والشرك أعظم الظلم ، قال ابن مسعود ، قلت : يا رسول الله ! أي الذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل لله نداً وهو خلقك » (٣) .

فنفس تألههم لها ، وعبادتهم إياها ، وتعظيمها ، وحبها ، ودعائها ، واعتقادها آلهة ، والخبر عنها بأنها آلهة موجود ، كما كان اعتقاد الكذابين موجوداً . وأما نفس اتصافها بالالهية فمفقود ، كاتصاف مسيلمة بالنبوة . فهنا حالان ـ حال للعابد ، وحال للمعبود ، فأما العابدون فكلهم في قلوبهم عبادة وتأله لمن عبدوه ، وأما المعبودون فالرحمن له الإلهية ، وما سواه لا إلهية له ، بل هو ميت لا يملك لعابديه ضراً ولا نفعاً . ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إذاً لابْتَغَوْا إلَىٰ ذِي العَرْشِ سَبِيلاً ﴾ (٤) وهو في أصح القولين

= بطاشاً جباراً أسلم لما أسلمت اليمن ، وارتد في أيام النبي ـ ﷺ ـ وادعى النبوة وأرى قومه أعاجيب استهواهم بها قتل عام ١١ هـ . [راجع ابن الأثير حوادث سنة ١١ هـ وتاريخ الخميس ٢ : ١٥٥ ودائرة المعارف الاسلامية ٢ : ١٩٨] .

(١) سورة ابراهيم آية رقم ٢٤ .

(٢) سورة ابراهيم آية رقم ٢٦ .

(٣) الحديث رواه البخاري في التفسير ٢ : ٢ ، ٢٥ والأدب ٢٠ والحدود ٢٠ والديات ١ والتوحيد ٤٠ ـ ٤٦ ومسلم في الإيمان ١٤١، ١٤٢ وأبو داود في الطلاق ٥٠ والترمذي في التفسير سورة ٢٥ ، ١ ، ٣ والنسائي في أيمان ٦ والتحريم ٤ وأحمد بن حنبل ١ : ٣٨٠ ، ٤٣١ (حلبي) .

(٤) سورة الاسراء آية رقم ٤٢ .

﴿ سبيلاً ﴾ بالتقرب بعبادته وذكره ، ولهذا قال بعدها : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ والأرضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾[1] فأخبر عن الخلائق كلها أنها تسبح بحمده ، وقد بسط هذا في موضع آخر .

فقوله : ﴿ نعبد إلهك ـ إلهاً واحداً ﴾ إذا قيل إنه منصوب على الحال ، فإما أن يكون حالاً من الفاعل العابد ، أو من المفعول المعبود ، فالأول : نعبده في حال كوننا مخلصين لا نعبد إلا إياه ، والثاني : نعبده في الحال اللازمة له ، وهو أنه إله واحد ، فنعبده مخلصين معترفين له بأنه الإله وحده دون ما سواه .

فإن كان التقدير هذا الثاني امتنع أن يكون المشرك عابداً له . فإنه لا يعبده في هذه الحالة ، وهو سبحانه ليست له حال أخرى يعبده فيها . وإن كان التقدير الأول فقد يمكن أن نعبده في حال أخرى نتخذ معه آلهة أخرى في أنفسنا .

لكن قوله : ﴿ إلهاً واحداً ﴾ دليل على أنها حال من المعبود ، بخلاف ما إذا قيل : نعبده مخلصين له الدين ، فإن هذه حال من الفاعل .

ولهذا يأتي هذا في القرآن كثيراً ، كقوله : ﴿ فَاعْبُدِ الله مُخْلِصَاً لَهُ الدِّينَ ﴾ [2] ، وقوله : ﴿ قُلِ الله أَعْبُدُ مُخْلِصَاً لَهُ دِينِي ﴾ [3] ، فهذه حال من الفاعل فإنه يكون تارة مخلصاً ، وتارة مشركاً ، وأما الرب تعالى فإنه لا يكون إلا إلهاً واحداً .

والحال وإن كانت صفة للمفعول فهي أيضاً حال للفاعل ، فإنهم قالوا : نعبده في هذه الحال ، فلزم أن عبادتهم له ليست في غير هذا الحال ، وبين

---

(١) سورة الإسراء آية رقم ٤٤ .

(٢) سورة الزمر آية رقم ٢ .

(٣) سورة الزمر آية رقم ١٤ .

أن قوله : ﴿ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَـهَ أَبَائِكَ . . . إِلَهاً وَاحِداً ﴾ (١) هي حال متعلقة بالفاعل والمفعول جميعاً ـ بالعابد والمعبود ، فإن العامل فيها ـ المتعلق بها ـ العبادة ، وهي فعل العابد ، والذي يقال له المفعول في العربية هو المعبود .

كما قيل في الجملة ﴿ وَنَحْنُ لَـهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (٢) . قيل : هي واو العطف . وقيل : واو الحال أي نعبده في هذه الحال . قالوا : وهي حال من فاعل ﴿ نعبد ﴾ أو مفعوله لرجوع الهاء إليه في ﴿ له ﴾ وهذا الترديد غلط ، إذ هي حال منهما جميعاً ، فإنهم إذا عبدوه وهم مسلمون ، فهم مسلمون حال كونهم عابدين ، وحال كونه معبوداً ، إذ كونهم عابدين وكونه معبوداً ليس مختصاً بمقارنة أحدهما دون الآخر .

فالظرف والحال هنا كلمة وليست مفرداً ، ولهذا اشتبه عليهم . فإن المفرد لا يمكن أن يكون في اللفظ صفة لهذا وهذا . فإذا قلت : ضربت زيداً قاعداً ، فالقعود حال للفاعل أو المفعول . وإذا قلت : ضربته والناس قعود ، فليس هذه الحال من أحدهما دون الآخر ، بل هي مقارنة للضرب المتعلق بها ، كأنه قال : ضربته في زمان قعود الناس . فهو ظرف للفعل المتعلق بالفاعل والمفعول ، بخلاف ما إذا قلت : ضربته في حال قعودي أو قعوده ، فهذا يختلف .

والآية فيها ﴿ إلهاً واحداً ﴾ . فهذه حال من المعبود بلا ريب ، فلزم أنهم إنما عبدوه في حال كونه إلهاً واحداً ، وهذه لازمة له .

وإذا قيل ـ المراد : في حال كونه معبوداً واحداً لا نتخذ معه معبوداً آخر ، فهذه حال ليست لازمة ، لكنه صفة للعابدين ، لا له ، قيل : هذا ليس

---

(١) الآية ﴿ أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ﴾ . سورة ص آية رقم ٥ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٣٦ والآية ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل الى ابراهيم وإسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ .

فيه مدح له ، ولا وصف له بأنه يستحق الإلهية ، لكن فيها وصفهم فقط .

وأيضاً فقوله : ﴿ إلهاً واحداً ﴾ كقوله : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ (١) فهو في نفسه إله واحد وإن جعل معه المشركون آلهة بالافتراء والحب ، فيجب أن يكون المراد ما دل عليه هذا الاسم .

ولو أرادوا ذلك المعنى لقالوا : نعبده مخلصين له الدين ، وهذا المعنى قد ذكروه في الجملة الثانية ، وهي قولهم : ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ ، لا سيما إذا جعلت حالاً ، أي نعبده إلهاً واحداً في حال إسلامنا له ، وإسلامهم له يتضمن إخلاص الدين له ، وخضوعهم ، واستسلامهم لأحكامه ، بخلاف غير المسلمين .

ولهذا قال آمراً للمؤمنين أن يقولوا : ﴿ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ، وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ، لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (٢) .

ثم قال : ﴿ صبغة الله ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً ، وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ، قُلْ أتحاجُّوننا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ، وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾ (٣) .

وفي هذه الآيات معان جليلة ليس هذا موضع استيفائها .

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٦٣ وتكملة الآية ﴿ لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٣٦ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ١٣٨ ـ ١٣٩ .



فصل

وهذا النزاع في قوله : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ ﴾ [1] هل هو خطاب لجنس الكفار كما قاله الأكثرون ، أو لمن علم أنه يموت كافراً كما قاله بعضهم ، يتعلق بمسمى « الكافر » ومسمى « المؤمن » .

فطائفة تقول : هذا إنما يتناول من وافى القيامة بالإيمان ، فاسم المؤمن عندهم إنما هو لمن مات مؤمناً ، فأما من آمن ثم ارتد فذاك ليس عندهم بإيمان .

وهذا اختيار الأشعري ، وطائفة من أصحاب أحمد ، وغيرهم ، وهكذا يقال : الكافر [من] مات كافراً .

وهؤلاء يقولون : إن حب الله وبغضه ، ورضاه وسخطه ، وولايته وعداوته ، إنما يتعلق بالموافاة فقط ، فالله يحب من علم أنه يموت مؤمناً . ويرضى عنه ويواليه بحب قديم وموالاة قديمة ويقولون : إن عمر حال كفره كان ولياً لله .

وهذا القول معروف عن ابن كلاب ومن تبعه ، كالأشعري وغيره . وأكثر الطوائف يخالفونه في ذلك فيقولون : بل قد يكون الرجل عدواً لله ثم يصير

---

(١) سورة الكافرون آية رقم ١ .

ولياً لله ، ويكون الله يبغضه ثم يحبه ، وهذا مذهب الفقهاء والعامة، وهو قول المعتزلة ، والكرامية ، والحنفية قاطبة ، وقدماء المالكية ، والشافعية ، والحنبلية .

وعلى هذا يدل القرآن ، كقوله : ﴿ **قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ** ﴾ [1] ، ﴿ **وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ** ﴾ [2] . وقوله : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا** ﴾ [3] . فوصفهم بكفر بعد إيمان ، وإيمان بعد كفر ، وأخبر عن الذين كفروا أنهم كفار ، وأنهم إن انتهوا يغفر لهم ما قد سلف . وقال ﴿ **فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ** ﴾ [4] وقال : ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ** ﴾ [5] .

وفي الصحيحين في حديث الشفاعة : تقول الأنبياء : « إن ربي قد غضب غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله » [6] .

وفي دعاء الحجاج عند الملتزم عن ابن عباس وغيره : « فإن كنت رضيت عني فازدد عني رضىً ، وإلا فمن الآن فارض عني » . وبعضهم حذف « فارض عني » فظن بعض الفقهاء أنه « فمن الآن » أنه من « المن » وهو تصحيف ، وإنما هو من حروف الجر كما في تمام الكلام وإلا فمن الآن فارض عني .

فبين أنه يزداد رضىً ، وأنه يرضى في وقت محدود ، وشواهد هذا كثيرة ، وهو مبسوط في مواضع .

---

(١) سورة ال عمران اية رقم ٣١ .
(٢) سورة الزمر آية رقم ٧ .
(٣) سورة النساء آية رقم ١٣٧ .
(٤) هذا جزء من حديث طويل رواه الامام البخاري في كتاب الأنبياء ٣ باب قول الله عز وجل ﴿ **ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه** ﴾ هود ٢٥ ، ٣٣٤٠ عن أبي زرعة عن أبي هريرة - رضي الله عنه قال : وذكره ورواه أيضاً في التفسير ١٧ - ٥ ورواه الإمام مسلم في الايمان ٣٢٧ والترمذي في القيامة ١٠ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٤٣٥ ، ٤٣٦ (حلبي) .
(٥) سورة الزخرف آية رقم ٥٥ .
(٦) سورة محمد آية رقم ٢٨ .

فصل

ونظير القول في ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ ﴾ [1] القولان في قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [2] فإن للناس في هذه الآية قولين : -

أحدهما : أنها خاصة بمن يموت كافراً ، وهذا منقول عن مقاتل ، كما قال في قوله : ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ ، وكذلك نقل عن الضحاك [3] ، قالا : نزلت في مشركي العرب ، كأبي جهل ، وأبي طالب ، وأبي لهب ، ممن لم يسلم ، وقال الضحاك : نزلت في أبي جهل ، وخمسة من أهل بيته .

وطائفة من المفسرين لم يذكروا غير هذا القول ، كالثعلبي والبغوي وابن الجوزي ، قال البغوي : هذه الآية في أقوام حقت عليهم كلمة الشقاوة في سابق علم الله .

وقال ابن الجوزي ، قال شيخنا علي بن عبيدالله : وهذه الآية وردت بلفظ العموم والمراد بها الخصوص ، لأنها آذنت بأن الكفار حين إنذارهم لا

---

(١) سورة الكافرون آية رقم ١ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٦ .

(٣) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

يؤمنون ، وقد آمن كثير من الكفار عند إنذارهم ، ولو كانت على ظاهرها في العموم لكان خبر الله بخلاف مخبره ، فلذلك وجب نقلها إلى الخصوص .

والقول الثاني : أن الآية على مقتضاها ، والمراد بها أن الإنذار وعدمه سواء بالنسبة إلى الكافر ما دام كافراً ، لا ينفعه الإنذار ولا يؤثر فيه ، كما قيل مثل ذلك في الآيات إنها غير موجبة للإيمان وقد جمع بينهما في قوله : ﴿ **وَما تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [1] . فالآيات أفقية ، وأرضية ، وقرآنية ،وهي أدلة العلم ، والإنذار يقتضي الخوف ، فالآيات لمن إذا عرف الحق عمل به ، فهذا تنفعه الحكمة ، والإنذار لمن يعرف الحق وله هوى يصده فينذر بالعذاب الذي يدعوه إلى مخالفة هواه ، وهو خوف العذاب ، وهذا هو الذي يحتاج إلى الموعظة الحسنة ، وآخر لا يقبل الحق فيحتاج إلى الجدل ، فيجادل بالتي هي أحسن .

وقد قال تعالى : ﴿ **وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ المَلاَئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ المَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ** ﴾ [2] ، وقال : ﴿ **إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا** ﴾ [3] . ﴿ **إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالغَيْبِ** ﴾ [4] .

فالمراد أن الكافر ما دام كافراً لا يقبل الحق سواء أنذر أم لم ينذر ، ولا يؤمن ما دام كذلك ، لأن على قلبه وسمعه وبصره موانع تصده عن الفهم والقبول ، وهكذا حال من غلب عليه هواه .

وهو سبحانه لم يقل : « إنهم لا يؤمنون » وقيل ذلك لمن سبقت عليه الشقوة ، أو حقت عليه الكلمة ، كقوله : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ**

---

(١) سورة يونس آية رقم ١٠١ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١١١ .

(٣) سورة النازعات آية رقم ٤٥ .

(٤) سورة يس آية رقم ١١ .

﴿ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ، وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ (١) فبين أن هؤلاء لا يؤمنون إلا حين لا ينفعهم إيمانهم وقت رؤية العذاب الأليم ، كإيمان فرعون المذكور قبلها ، وموسى قد دعا عليه فقال : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ، قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا ﴾ (٢) .

وأما إذا أطلق سبحانه الكفار فهو مثل قوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ ﴾ (٣) الآية . فبين أنهم قد يؤمنوا إذا شاء . وآية البقرة مطلقة عامة ، فإنه ذكر في أول السورة أربع آيات في صفة المؤمنين ، وآيتين في صفة الكافرين ، وبضع عشرة آية في المنافقين ، فبين حال الكافر المصر على كفره أن الإنذار لا ينفعه للحجب التي على قلبه وسمعه وبصره. وليس كما قال : إن الله لا يهدي أحداً من هؤلاء ، فيسمع ويقبل ، ولكن هو حين يكون كافراً لا تتناوله الآية ، وهذا كما يقال في الكافر الحربي : لا يجوز أن تعقد له الذمة ، ولا يكون قط من أهل دار الإسلام ما دام حربياً . فالكفار ما داموا كفاراً هم بهذه المثابة ، لهم موانع تمنعهم من الإيمان كما أن للمنافقين موانع تمنعهم ما داموا كذلك ، وإن أنذروا ، وهذا كقوله : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٤) ، فهذا مثل كل كافر ما دام كافراً .

وذلك لا يمنع أن يكونوا قد يسمعون [إذا زال الغطاء الذي على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ، فإنهم لا يسمعون] لذلك المعنى المشتق منه وهو الكفر ، فما داموا هذه حالهم فهم كذلك ، ولكن تغير الحال ممكن ، كما قال : ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ وكما هو الواقع .

(١) سورة يونس آية رقم ٩٦ - ٩٧ .
(٢) سورة يونس آية رقم ٨٨ - ٨٩ .
(٣) سورة الأنعام آية رقم ١١١ .
(٤) سورة البقرة آية رقم ١٧١ .

ومثل هذا يفيد أن الإنسان لا يعتقد أنه بدعائه وإنذاره وبيانه يحصل الهدى ولو كان أكمل الناس ، وأن الداعي وإن كان صالحاً ناصحاً مخلصاً فقد لا يستجيب المدعو ـ لا لنقص في الدعاء ، لكن لفساد في المدعو .

وهذا لأن حصول المطلوب متوقف على فعل الفاعل وقبول القابل ، كالسيف القاطع يؤثر بشرط قبول المحل فيه ـ لا يقطع الحجارة والحديد ونحو ذلك ، والنفخ يؤثر إن كان هناك قابل ـ لا يؤثر في الرماد . والدعاء ، والتعليم ، والإرشاد ، وكل ما كان من هذا الجنس ، له فاعل وهو المتكلم بالعلم والهدى والنذارة ، وله قابل وهو المستمع ، فإذا كان المستمع قابلاً حصل الإنذار التام ، والتعليم التام، والهدى التام ، وإن لم يكن قابلاً قيل : علمته فلم يتعلم ، وهديته فلم يهتد ، وخاطبته فلم يصغ ، ونحو ذلك .

فقوله في القرآن : ﴿ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [1] هو من هذا ، إنما يهتدي من يقبل الاهتداء ، وهم المتقون ، لا كل أحد ، وليس المراد أنهم كانوا متقين قبل اهتدائهم ، بل قد يكونون كفاراً، لكن إنما يهتدي به من كان متقياً، فمن اتقى الله اهتدى بالقرآن ، والعلم والإنذار إنما يكون بما أمر به القرآن .

وهكذا قوله : ﴿ لِيُنْذِرَ مَن كَانَ حَيّاً ﴾ [2] الإنذار التام ، فإن الحي يقبله ، ولهذا قال : ﴿ وَيَحِقَّ القَوْلُ عَلَى الكَافِرِينَ ﴾ [3] فهم لم يقبلوا الإنذار . ومثله قوله : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا ﴾ [4] .

وعكسه قوله : ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الفَاسِقِينَ ﴾ [5] . أي كل من ضل به

(١) سورة البقرة اية رقم ٢ .
(٢) سورة يس آية رقم ٧٠ .
(٣) سورة يس آية رقم ٧٠ .
(٤) سورة النازعات آية رقم ٤٥ .
(٥) سورة البقرة آية رقم ٢٦ .

فهـو فاسق ، فهـو ذم لمن يضل بـه ، فإنـه فاسق ، ليس أنـه كان فـاسقاً قبـل ذلك .

ولهـذا تـأولهـا سعـد بن أبي وقـاص [1] في الخـوارج ، وسمـاهم « فاسقين » ، لأنهم ضلوا بالقرآن ، فمن ضل بالقرآن فهو فاسق .

فقوله : ﴿ إن الذين كفروا ﴾ من هذا الباب ، والتقدير : من ختم على قلبه وجعل على سمعه وبصره غشـاوة فسواء عليـك أنذرتـه أم لم تنذره هـو لا يؤمن ، أي ما دام كذلك .

ولكن هذا قد يزول وفي صفة النبي ﷺ : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَـذِيراً ﴾ [2] وحـرزاً للأميين ، أنت عبـدي ورسولي ، سميتـك « المتوكـل » لست بفظ ، ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء ، فأفتح [به] أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً [3] .

وقد قال : ﴿ لِتُنْـذِرَ قَوْمـاً مَا أُنْـذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَـافِلُونَ ، لقد حَقَّ القَوْلُ

---

(1) هو سعد بن أبي وقاص مالك بن أهيب بن عبد مناف القرشي الزهري ، أبو اسحاق الصحـابي الأمير ، فاتح العراق ، ومدائن كسرى وأحد الستة الذين عينهم عمر للخـلافة ، وأول من رمى بسهم في سبيل الله ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، ويقال له فارس الاسلام أسلم وهـو ابن ١٧ سنة وشهد بدراً وافتتـح القادسية ونزل أرض الكـوفة ، لـه في كتب الحديث ٢٧١ حـديثاً توفي عام ٥٥ هـ [راجع الريـاض النضرة ٢ : ٢٩٢ وتـاريخ الخميس ١ : ٤٩٩ ، والتهـذيب ٣ : ٤٨٣ وتهذيب ابن عساكر ٦ : ٩٣

(2) سورة الأحزاب آية رقم ٤٥

(3) الحديث رواه البخاري في كتاب التفسير ٣ باب ﴿ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ﴾ .
٤٨٣٨ حدثنا عبدالله بن مسلمة حـدثنا عبـد العزيـز بن أبي سلمة عن هـلال بن أبي هلال عن عطاء بن يسار عن عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما وذكره .
ورواه أيضـاً في البيوع ٥٠ والـدارمي في المقدمـة ٢ وفضائـل القرآن ١ وأحمـد بن حنبـل في المسند ٢ : ١٧٤ (حلبي) .

عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [1] فدل على أن بعضهم يؤمنون ، ثم قال : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أعناقهم أَغْلالاً - إلى قوله - إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالغَيْبِ ﴾ [2] . فهذا هو الإنذار التام ، وهو الإنذار الذي يقبله المنذر وينتفع به .

وقوله ﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ ﴾ [3] هو أصل الإنذار ، كما يقال في البليد والمشغول الذهن بأمور الدنيا والشهوات : سواء عليك أعلمته أم لم تعلمه لا يتعلم ولا يقبل الهدى ، ويقال في الذكي الفارغ : إنما يتعلم مثل هذا ، ثم المشغول قد يتفرغ ، وقد يصلح ذهن بعد فساده ، ويفسد بعد صلاحه لفساد قلبه وصلاحه .

وعلى هذا القول أكثر تفسير السلف ، كما ذكره ابن اسحاق ، وقد رواه ابن أبي حاتم وغيره . قال ابن إسحاق ، حدثني محمد بن أبي محمد ، عن عكرمة أو سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : ﴿ **إن الذين كفروا**﴾ أي بما أنزل إليك ، وإن قالوا : إنا قد آمنا بما جاءنا قبلك . ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [4] أي أنهم قد كفروا بما عندهم من ذكرك وجحدوا ما أخذ عليهم من الميثاق فقد كفروا بما جاءك وبما عندهم مما جاءهم به غيرك ، فكيف يسمعون منك إنذاراً وتحذيراً ؟ .

فقد تبين أنهم لا يسمعون الإنذار لكفرهم بما عندهم وما جاءك من الحق ، ومعلوم أن منهم خلقاً تابوا بعد ذلك وآمنوا .

وروي عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية قال : آيتان في قادة

---

(١) سورة يس آية رقم ٦ - ٧ .

(٢) سورة يس آية رقم ٨ - ١١ .

(٣) سورة يس آية رقم ١٠ وقد جاءت هذه الآية محرفة في المطبوعة حيث ذكرت سواء بدون الواو .

(٤) سورة البقرة آية رقم ٦ .

الأحـزاب : ﴿ **إن الـذين كفـروا سـواء عليهم أأنـذرتهم أم لم تنـذرهم لا يؤمنون** ﴾ قال : هم الـذين ذكرهم الله في هـذه الآية : ﴿ **أَلَمْ تَـرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ** ﴾ [١] .

« قلت » : جعلهم قـادة الأحـزاب لكـونهم أضلوا الأتبـاع فـأحلوهم دار البوار ، والأحزاب يوم الخندق قد أسلم عامة قادتها ، وحسن إسلامهم ، مثـل عكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أميـة ، وسهيل بن عمـرو ، وأبي سفيان ، وهؤلاء أسلم منهم من أسلم عام الفتح ، وهم الطلقاء، ومنهم من أسلم قبـل ذلك ، والحزب الآخر غطفان ، وقد أسلموا أيضاً .

والآية لا بد أن تتنـاول كفار أهـل الكتاب ، كمـا قال ابن اسحاق، فإن السـورة مدنيـة ، وإن تنـاولت مـع ذلـك المشـركين ، فهي تعم كـل كـافـر ، ومقاتل ، والضحاك ، يخصها ببعض مشـركي العرب ، وابن السـائب يقول : هي إنمـا نزلت في اليهـود ، منهم حيي بن أخـطب ، وكـذلـك مـا ذكـره ابن اسحاق ، عن ابن عباس ، أنها في اليهود ، وأبو العالية يقول : إنهـا نزلت في قادة الأحزاب .

والآيـة تعم هؤلاء كلهم وغيرهم ، كمـا أن آيـات المؤمنين والمنـافقين كـان سبب نـزولهـا [المؤمنين والمنـافقين المـوجـودين وقت النـزول ، وهي تعمهم] وغيـرهم من المؤمنين والمنافقين إلى قيـام السـاعـة . والمقصـود أن قـولـه : ﴿ **سَـوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْـذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْـذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُـونَ** ﴾ [٢] كقـولـه : ﴿ **فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُـدْبِرِينَ ، وَمَـا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلاَلَتِهِمْ** ﴾ [٣] ، وقوله : ﴿ **أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَـوْ كَانُـوا**

---

(١) سورة ابراهيم آية رقم ٢٨ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٦ .

(٣) سورة الروم آية رقم ٥٢ ـ ٥٣ .

لَا يَعْقِلُونَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ ، أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كانوا لا يُبْصِرُونَ ﴾[1] .

وكل هذا فيه بيان أن مجرد دعائك وتبليغك وحرصك على هداهم ليس موجب ذلك ، وإنما يحصل ذلك إذا شاء الله هداهم فشرح صدورهم للإسلام ، كما قال تعالى : ﴿ إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ ﴾ [2] ففيه تعزية لرسوله ﷺ وبينت الآية أن تبليغك وإن لم يهتدوا به ففيه مصالح عظيمة وغير ذلك .

وفيه بيان أن الهدى هدى الله ـ فـ ﴿ مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً ﴾ [3] وقد قال له : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [4] . ففيه تقرير التوحيد ، وتقرير مقصود الرسالة .

وهو سبحانه أخبر عمن لا يؤمن فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ، وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ﴾ [5] . وقال : ﴿ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ [6] ، ثم قال ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [7] فخص في هذه الآية ، وفي تلك : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ [8] . وهم الذين حق عليهم القول ، أي حق عليهم ما قاله الله سبحانه ، وكتبه ، وقدره ، فجعل الموجب هو التقدير السابق ، وهو قوله .

والقول وإن كان قد يكون خبراً مجرداً بما سيكون ، وقد يكون قولاً

---

(١) سورة يونس آية رقم ٤٢ ـ ٤٣ .
(٢) سورة النحل آية رقم ٣٧.
(٣) سورة الكهف آية رقم ١٧ .
(٤) سورة القصص آية رقم ٥٦ .
(٥) سورة يونس آية رقم ٩٦ ـ ٩٧ .
(٦) سورة يس آية رقم ٦ .
(٧) سورة يس آية رقم ٧ .
(٨) سورة يونس آية رقم ٩٦ .

يتضمن أشياء كاليمين المتضمنة للحض والمنع ، فقد ذكر في مواضع تقدم اليمين ، كقوله : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي ﴾ (١) ونحو ذلك .

فهو خبر عما قاله ، أو قاله وكتبه ، وهو التقدير الذي يتضمن أنه قدر ما يفعله ، وعلمه ، وكتبه ، كما تظاهرت النصوص بأن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، والقدر تضمن علمه بما سيكون ، ومشيئته لوجود ما قدره وعلم أن سيخلقه . والقول قد يكون خبراً ، وقد يكون فيه معنى الطلب ـ الحض والمنع ـ بالقسم ، وإما لكتابته على نفسه ، كقوله ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) وقوله : « يا عبادي ! إني حرمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا » (٤) . وأما قوله : ﴿ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٥) ، فهذا مختص بالكفار ، وهو الوعيد المتضمن الجزاء على الأعمال ، كما قال تعالى لإبليس : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٦) وقوله : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى ﴾ (٧) أي إن عذابهم له أجل مسمى ، إما يوم القيامة ، وإما في الدنيا كيوم بدر ، وإما عقب الموت ـ وقد ذكر في الآية الأقوال الثلاثة ، فلولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لكان العذاب

---

(١) سورة السجدة آية رقم ١٣ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ٥٤ .

(٣) سورة الروم آية رقم ٤٧ .

(٤) الحديث رواه الامام مسلم في الظلم ـ حدثنا سعيد بن عبد العزيز عن ربيعة بن يزيد عن أبي ادريس الخولاني عن أبي ذر عن النبي ﷺ ـ فيما يروى عن الله تبارك وتعالى أنه قال : وذكره . وهو حديث طويل جداً .

(٥) سورة الزمر آية رقم ٧١ .

(٦) سورة ص آية رقم ٨٥ .

(٧) سورة طه آية رقم ١٢٩ .

لزاماً ، أي لازماً لهم ، فإن المقتضى له قائم تام ، وهو كفرهم .

وأما إذا أطلق القول على الكفار من غير تقييد فإنه لا يريد من [لا] يؤمن منهم ، فإن اللفظ لا يدل على ذلك البتة .

وأيضاً فإن هذا لا فائدة فيه ، إذ كان أولئك غير معروفين ، وإنما هم طائفة قد حق عليهم القول ، وهم لا يتميزون من غيرهم ، بل هو مأمور بإنذار الجميع ، وفيهم من يؤمن ومن لا يؤمن ، فذكر اللفظ العام ، وإرادة أولئك دون غيرهم ـ ليس فيه بيان للمراد الخاص ، وذكر المعنى الذي أوجب أنهم لا يؤمنون قط ، ولا فيه تعليق الحكم بالمعنى العام ، وكلام الله تعالى يصان عن مثل ذلك .

وما ذكر من الموانع هي موجودة في كل من لم يقبل الإنذار ، سواء كان كافراً أَمْ منافقاً أَمْ فاسقاً أَمْ غير ذلك ، لسبب يوجب ذلك ، فيمتنع قبول الإنذار بسبب الموانع ، ولكن هذه الموانع قد تزول ، فإنها ليست لازمة لكل كافر .

وإذا كان المانع ما سبق من القول الذي حق عليهم فقد لا يزول أبداً ، كما قال : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ، وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ** ﴾ [1] .

وقد يذكر هذا وهذا .

وأما إذا اقتصر على ذكر الموانع التي فيهم ، ولم يذكر ما سبق من القول ، فهذه الموانع يرجى زوالها ويمكن ما لم يذكر معها ما يقتضي امتناع تغير حالهم وحصول الهدى .

(١) سورة يونس آية رقم ٩٦ـ ٩٧ .

فصل

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ ، لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ (١) . جاء الخطاب فيها بـ ﴿ ما ﴾ ، ولم يجيء بـ « من » ، فقال : ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ لم يقل « لا أعبد من تعبدون » ، لأن « من » لمن يعلم ، والأصنام لا تعلم .

[وهذا القول ضعيف جداً] فإن معبود المشركين يدخل فيه من يعلم كالملائكة والأنبياء والجن والإنس ، ومن لم يعلم ، وعند الاجتماع تغلب صيغة أولي العلم ، كما في قوله : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ﴾ (٢) .

فإذا أخبر عنهم بحال من يعلم عبر عنهم بعبادته ، كما في قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ، أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ﴾ (٣) . الآية فعبر عنهم بضمير الجمع الجمع المذكر ، وهو لأولي العلم .

وأما ما لا يعلم فجمعه مؤنث ، كما تقول : الأموال جمعتها ، والحجارة قذفتها . فـ ﴿ ما ﴾ هي لما لا يعلم ، ولصفات من يعلم ، ولهذا

---

(١) سورة الكافرون آية رقم ١ -٢ .

(٢) سورة النور آية رقم ٤٥ .

(٣) سورة الأعراف آية رقم ١٩٤ - ١٩٥ .

تكون للجنس العام ، لأن شمول الجنس لما تحته هو باعتبار صفاته ، كما قال : ﴿ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ (١) أي الذي طاب والطيب من النساء ، فلما قصد الإخبار عن الموصوف بالطيب ، وقصد هذه الصفة دون مجرد العين ، عبر بـ ﴿ ما ﴾ .

ولو عبر بـ « من » كان المقصود مجرد العين والصفة للتعريف ، حتى لو فقدت لكانت غير مقصودة، كما إذا قلت : جاءني من يعرف ، ومن كان أمس في المسجد ، ومن فعل كذا ، ونحو ذلك ، فالمقصود الإخبار عن عينه والصلة للتعريف وإن كانت تلك الصفة قد ذهبت . ومنه قوله : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ، وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ، ونَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ (٢)ـ على القول الصحيح إنها اسم موصول ، والمعنى : وبانيها ، وطاحيها ، ومسويها . [و] لما قال ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ (٣) ـ أخبر بـ « من » لأن المقصود الإخبار عن فلاح عينه وإن كان فعله للتزكية والتدسية قد ذهب في الدنيا .

فالقسم هناك بالموصوف بحيث أنه إنما أقسم بهذا الموصوف والصفة لازمة ، فإنه لا توجد مبنية إلا ببانيها ، ولا مطحية إلا بطاحيها ، ولا مسواة إلا بمسويها ، وأما المرء المزكي نفسه والمدسيها فقد انقضى عمله في الدنيا ، وفلاحه وخيبته في الآخرة ليس مستلزماً لذلك العمل . ونحو هذا قوله ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى ﴾(١٤) .

ولهذا يستفهم بها عن صفات من يعلم في قوله ﴿ وَمَا رَبُّ

---

(١) سورة النساء آية رقم ٣ .
(٢) سورة الشمس آية رقم ٥ ـ ٧ .
(٣) سورة الشمس آية رقم ٩ ـ ١٠ .
(٤) سورة الليل آية رقم ٣ .

الْعَالَمِينَ ﴾ (1) كما يستفهم ـ على وجه ـ بها في قوله : ﴿ ماذا تعبدون ﴾ .
وأما قوله : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ (2) فالاستفهام عن عين الخالق للتمييز بينه وبين الآلهة التي تعبد ، فإن المستفهمين بها كانوا مقرين بصفة الخالق ، وإنما طلب بالاستفهام تعيينه وتمييزه ، ولتقام عليهم الحجة باستحقاقه وحده العبادة .

وأما فرعون فكان منكراً للموصوف المسمى ، فاستفهم بصيغة ﴿ ما ﴾ لأنه لم يكن مقراً به ، طالباً لتعيينه ، ولهذا كان الجواب في هذا الاستفهام بقول موسى ﴿ ربُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (3) ، وبقوله ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴾ (4) فأجاب أيضاً بالصفة ، وهناك قال : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ (5) ، فكان الجواب بالاسم المميز للمسمى من غيره ، وكذلك قوله : ﴿ قُلْ لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا ﴾ (6) ـ إلى تمام الآيات .

فقوله : ﴿ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ، وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ (7) يقتضي تنزيهه عن كل موصوف بأنه معبودهم ، لأن كل ما عبده الكافر وجبت البراءة منه ، لأن كل من كان كافراً لا يكون معبوده الإله الذي يعبده المؤمن ، إذ لو كان هو معبوده لكان مؤمناً ، لا كافراً ، وذلك يتضمن أموراً .

أحدها : أن ذلك يستلزم براءته من أعيان من يعبدونهم من دون الله .

الثاني : أنهم إذا عبدوا الله وغيره فمعبودهم المجموع ، وهو لا يعبد

(1) سورة الشعراء آية رقم ٢٣ .
(2) سورة لقمان آية رقم ٢٥ .
(3) سورة الرعد آية رقم ١٦ وسورة الاسراء آية رقم ١٠٢ .
(4) سورة الشعراء آية رقم ٢٦ وسورة الصافات آية رقم ١٢٦ .
(5) سورة الزخرف آية رقم ٨٧ .
(6) سورة المؤمنون آية رقم ٨٤ .
(7) سورة الكافرون آية رقم ٢ ـ ٣ .

المجموع ـ لا يعبد إلا الله وحده ، فيعبده على وجه إخلاص الدين لـه ، لا على وجه الشرك بينه وبين غيره .

وبهـذا يـظهـر الفـرق بين هـذا وبين قـول الخليـل : ﴿ **إِنَّنِي بَـرَاءٌ مِمَّـا تَعْبُدُونَ ، إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي** ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ **أَفَرَأَيْتُم مَـا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ، أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الأَقْدَمُونَ ، فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ العَالَمِينَ** ﴾ (٢) . بأن يقال : هنـا نفي عبادة المجموع ، وذلـك لا ينفي عبادة الـواحد الـذي هو الله ، والخليـل تبرأ من المجموع ، وذلك يقتضي البراءة من كل واحد ، فاستثنى ، أو يقال : الخليـل تبـرأ من كـل المعبـودين ـ من الجميـع ـ فـوجب أن يستثني رب العالمين . ولهذا لمـا وقع مستثنى في أول الكـلام في قولـه ﴿ **قَدْ كَـانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْراهِيمَ والَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قالوا لِقَومِهِم إِنَّا بُرءاؤا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدون مِنْ دُونِ الله** ﴾ (٣) لم يحتج إلى استثناء آخر .

وأما هذه السورة فإن فيها التبري من عبـادة ما يعبـدون ، لا من نفس ما يعبـدون ، وهو بـريء منهم ، ومن عبادتهم ، وممـا يعبدون ، فـإن ذلـك كله باطل ، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ ، يقول الله : « أنا أغني الشـركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه غيري فـأنا منـه بريء ، وهـو كله للذي أشرك » (٤) .

فعبادة الله كلها باطلة ، لا يقال : نصيب الله منها حق ، والباقي باطل ، بخلاف معبودهم ، فإن الله إله حق ، وما سواه آلهة باطلة . فلمـا تبرأ الخليـل من المعبودين احتاج إلى استثناء رب العالمين ، ولمـا كان في هـذه تبرؤه من أن يعبد ما يعبدون ، فكان المنفى هو العبادة ، تبرأ من عبادة المجمـوع الذين

---

(١) سورة الزخرف آية رقم ٢٦ .

(٢) سورة الشعراء آية رقم ٧٥ ـ ٧٧ .

(٣) سورة الممتحنة آية رقم ٤ .

(٤) سبق تخريج هذا الحديث قريباً من هذا .

يعبدهم الكافرون .

الثالث : إن كان النفي عن الموصوف بأنه معبودهم ، لا عن عينه ، فهو لا يعبد شيئاً من حيث هو معبودهم ، لأنه من حيث هو معبودهم هم مشركون به ، فوجبت البراءة من عبادته على ذلك الوجه ، ولو قال « من تعبدون » لكان يقال : إلا رب العالمين ، لأن النفي واقع على عين المعبود ، وليس إذا لم يعبد ما يعبدون متبرئاً منه ومعادياً له حتى يحتاج إلى الاستثناء ، بل هو تارك لعبادة ما يعبدون .

وهذا يتبين بالوجه الرابع : وهو قوله : ﴿ **ولا أنتم عابدون ما أعبد** ﴾ نفى عنهم عبادة معبوده فهم إذا عبدوا الله مشركين به لم يكونوا عابدين معبوده ، وكذلك هو إذا عبده مخلصاً له الدين لم يكن عابداً معبودهم .

الوجه الخامس : أنهم لو عينوا الله بما ليس هو الله ، وقصدوا عبادة الله معتقدين أن هذا هو الله ، كالذين عبدوا العجل ، والذين عبدوا المسيح ، والذين يعبدون الدجال ، والذين يعبدون ما يعبدون من دنياهم وهواهم ، ومن عبد من هذه الأمة ، فهم عند نفوسهم إنما يعبدون الله ، لكن هذا المعبود الذي لهم ليس هو الله . فإذا قال : ﴿ **لا أعبد ما تعبدون** ﴾ كان متبرئاً من هؤلاء المعبودين ، وإن كان مقصود العابدين هو الله .

الوجه السادس : أنهم إذا وصفوا الله بما هو بريء منه ، كالصاحبة ، والولد ، والشريك ، وأنه فقير أو بخيل ، أو غير ذلك ، وعبدوه كذلك ، فهو بريء من المعبود الذي لهؤلاء ، فإن هذا ليس هو الله ، كما قال النبي ﷺ : « ألا ترون كيف يصرف الله عني سب قريش ؟ يسبون مذمماً وأنا محمد » [1] . فهم وإن قصدوا عينه لكن لما وصفوه بأنه مذمم كان سبهم

---

(١) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب المناقب ١٧ باب ما جاء في أسماء رسول الله - ﷺ - ٣٥٣٣ عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة - رضي الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ - =

واقعاً على من هو مذمم ، وهو محمد ـ ﷺ ، وذاك ليس هو الله . فـالمؤمنون براء مما يعبد هؤلاء .

الوجه السابع : أن كل من لم يؤمن بما وصف به الرسـول ربه فهـو في الحقيقة لم يعبد ما عبده الرسول من تلك الجهة .

وقس على هذا فلتتأمـل هذه المعـاني ، وتخلص وتهذب ، والله تعـالى أعلم .

= وذكـره ، ورواه النسائي في الـطلاق ٢٥ وأحمد بن حنبـل في المسند ٢ : ٢٤٤ ، ٣٤٠ ، ٣٦٩ (حلبي) .

سورة تبت

قال شيخ الإسلام قدس الله روحه

« سورة تبت » نزلت في هذا وامرأته ،وهما من أشرف بطنين في قريش ، وهو عم علي ، وهي عمة معاوية ، واللذان تداولا الخلافة في الأمة هذان البطنان : بنو أمية ، وبنو هاشم ، وأما أبو بكر وعمر فمن قبيلتين أبعد عنه ـ ﷺ ـ واتفق في عهدهما ما لم يتفق بعدهما .

وليس في القرآن ذم من كفر به ـ ﷺ ـ باسمه إلا هذا وامرأته ، ففيه أن الأنساب لا عبرة بها، بل صاحب الشرف يكون ذمه على تخلفه عن الواجب أعظم ، كما قال تعالى : ﴿ **يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ** ﴾ [1] الآية . قال النحاس : ﴿ **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ** ﴾ [2] دعاء عليه بالخسر ، وفي قراءة عبدالله : « وقد تب » وقوله : ﴿ **وما كسب** ﴾ أي ولده ، فإن قوله : ﴿ **وما كسب** ﴾ يتناوله ، كما في الحديث ولده من كسبه [3] ، واستدل بها على جواز الأكل من مال الولد ، ثم أخبر أنه : ﴿ **سَيَصْلَىٰ**

---

(١) سورة الأحزاب آية رقم ٣٠ .

(٢) سورة المسد آية رقم ١ .

(٣) الحديث رواه ابن ماجه في التجارات (١) باب الحث على المكاسب ٢١٣٧ ثنا أبو معاوية ، ثنا الأعمش ، عن ابراهيم عن الأسود عن عائشة قالت : قال رسول الله ـ ﷺ ـ إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وإن ولده من كسبه .
ورواه النسائي في البيوع ١ والدارمي في البيوع ٦ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٦ : ٣١ ، ٤٢ ، ١٢٧، ١٩٣، ٢٢٠ (حلبي) .

نَاراً ﴾ [1] أخبر بزوال الخير ، وحصول الشر ، و« الصلي » الدخول والاحتراق جميعاً ، وقوله : ﴿ **حمالة الحطب** ﴾ إن كان مثلاً للنميمة ، لأنها تضرم الشر ، فيكون حطب القلوب ، وقد يقال : ذنبها أعظم ، وحمل النميمة لا يوصف بالحبل في الجيد ، وإن كان وصفاً لحالها في الآخرة ، كما وصف بعلها وهو يصلى ، وهي تحمل الحطب عليه ، كما أعانته على الكفر ، فيكون من حشر الأزواج ، وفيه عبرة لكل متعاونين على الإثم أو على إثم ما ، أو عدوان ما .

ويكون القرآن قد عمم الأقسام الممكنة في الزوجين ، وهي أربعة : إما كإبراهيم وامرأته ، وإما هذا وامرأته ، وإما فرعون وامرأته ، وأما نوح وامرأته ، ولوط ، ويستقيم أن يفسر حمل الحطب بالنميمة [2] بحمل الوقود في الآخرة كقوله : « من كان له لسانان » الخ . . . والله تعالى أعلم .

---

(1) سورة المسد آية رقم ٣ وتكملة الآية ﴿ **ذات لهب** ﴾

(2) قال مجاهد ، وعروة ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة والثوري والسدي حمالة الحطب ، كانت تمشي بالنميمة واختاره ابن جرير ، وقال العوفي عن ابن عباس وعطية الجدلي والضحاك وابن زيد كانت تضع الشوك في طريق رسول الله ـ ﷺ .

تم بحمد الله وحسن توفيقه التفسير الكبير في مساء يوم الخميس ٤ جمادى الثاني ١٤٠٦ هـ الموافق ١٣ فبراير ١٩٨٦ م بمسقط ـ سلطنة عمان .

سورة الإخلاص

سئل شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية رضي الله عنه عما ورد في سورة ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [1]

أنها تعدل ثلث القرآن .

وكذلك ورد في سورة الزلزلة و﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ ﴾[2] والفاتحة هل ما ورد في هذه المعادلة ثابت في المجموع ، أم في البعض ؟

ومن روى ذلك ؟

وما ثبت من ذلك ؟

وما معنى هذه المعادلة ، وكلام الله واحد بالنسبة إليه عز وجل ؟

وهل هذه المفاضلة بتقدير ثبوتها - متعدية إلى الأسماء والصفات ، أم لا ؟

والصفات القديمة ، والأسماء القديمة هل يجوز المفاضلة بينها مع أنها

---

(1) سورة الإخلاص آية رقم ١ .

(2) سورة الكافرون آية رقم ١ وعن سعد بن أبي وقاص قال : قال رسول الله - ﷺ - من قرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ فكأنما قرأ ثلث القرآن ، ومن قرأ ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ فكأنما قرأ ربع القرآن . رواه الطبراني في الصغير .

قال صاحب مجمع الزوائد : وفيه من لم أعرفهم .

قديمة ؟

ومن القائل بذلك ، وفي أي كتبه قال ذلك ؟ ووجه الترجيح في ذلك بما يمكن من دليل عقلي ، ونقلي ؟

فأجاب رضي الله عنه :

الحمد لله ، أما الذي أخرجه أصحاب الصحيح - كالبخاري ومسلم - فأخرجوا فضل ﴿ قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ ﴾ (١) وروى عن الدارقطني (٢) أنه قال : لم يصح في فضل سورة أكثر مما صح في فضلها .

وكذلك أخرجوا فضل « فاتحة الكتاب » قال ﷺ فيها « إنه لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآن مثلها » (٣) لم يذكر فيها أنها تعدل جزءاً

---

(١) سورة الصمد آية رقم ١ .

(٢) هو علي بن عمر بن أحمد بن مهدي أبو الحسن الدارقطني الشافعي إمام عصره في الحديث ، وأول من صنف القراءات وعقد لها أبواباً ولد بدار القطن عام ٣٠٦ هـ من أحياء بغداد ، ورحل الى مصر فساعد وزير كافور الأخشيدي على تأليف مسنده ، وعاد الى بغداد فتوفي بها عام ٣٨٥ هـ من تصانيفه كتاب السنن ، والمجتبى من السنن المأثورة ، والمؤتلف والمختلف ، والضعفاء وغير ذلك كثير توفي عام ٣٨٥ هـ [راجع وفيات الأعيان ١ : ٢٣١ ومفتاح السعادة : ١٤ ودائرة المعارف الإسلامية ٩ - ٨٨ - ٩٠] .

(٣) قال الامام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا عبد الرحمن بن ابراهيم ، حدثنا العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : خرج رسول الله - ﷺ - على أبي بن كعب وهو يصلي فقال : يا أبي فالتفت ثم لم يجبه ثم قال أبي فخفف أبي ثم انصرف الى رسول الله - ﷺ - فقال : السلام عليك أي رسول الله فقال وعليك السلام ما منعك أي أبي إذ دعوتك أن تجيبني فقال أي رسول الله - ﷺ - إني كنت في الصلاة ، قال : أو لست تجد فيما أوحى الله اليّ ﴿ **استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم** ﴾ قال : بلى يا رسول الله لا أعود قال : أتحب أن أعلمك سورة لم تنزل لا في التوراة ، ولا في الإنجيل ، ولا في الزبور ، ولا في الفرقان مثلها . .؟ قلت نعم . فلما دنونا من الباب قلت: أي رسول الله ما السورة التي وعدتني . .؟ قال : ما تقرأ في الصلاة . .؟ فقرأت عليه أم القرآن ، قال : والذي نفسي بيده ما أنزل الله في التوراة ولا في الانجيل ، ولا في الزبور ، ولا في الفرقان مثلها ، إنها السبع المثاني » .
ورواه الترمذي بسنده عن أبي هريرة . وقال : هذا حديث حسن صحيح .

من القرآن كما قال في ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ « إنها تعدل ثلث القرآن » .

ففي صحيح البخاري عن الضحاك المشرقي عن أبي سعيد الخدري قال :

قال رسول الله ﷺ لأصحابه : أيعجز أحدكم أن يقرأ بثلث القرآن في ليلة ؟ فشق ذلك عليهم وقالوا : « أينا يطيق ذلك يا رسول الله ؟ قال «الله الواحد الصمد ثلث القرآن » [1] وفي صحيح مسلم عن معدان بن أبي طلحة عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : أيعجز أحدكم أن يقرأ في ليلة ثلث القرآن ؟

قالوا : وكيف يقرأ ثلث القرآن ؟

قال ﴿ قل هو الله أحد ﴾ تعدل ثلث القرآن [2] وروى مسلم أيضاً عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : إن الله جزأ القرآن ثلاثة أجزاء فجعل ﴿ قل هو الله أحد ﴾ جزءاً من أجزاء القرآن ، وفي صحيح البخاري عن عبد الرحمن ابن عبد الله بن أبي صعصعة عن أبي سعيد أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ يرددها ، فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ فذكر ذلك له ، وكان الرجل يتقالها ، فقال رسول الله ﷺ « والذي نفسي بيده : إنها لتعدل ثلث القرآن » [3] وأخرج عن أبي سعيد قال : أخبرني أخي قتادة بن النعمان أن

---

(١) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب فضائل القرآن ٣ باب فضل ﴿ قل هو الله أحد ﴾ فيه عمرة عن عائشة عن النبي - ﷺ - ٥٠١٥ - حدثنا عمر بن حفص ، حدثنا أبي ، حدثنا الأعمش حدثنا ابراهيم والضحاك المشرقي عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه قال : قال النبي - ﷺ - وذكره .

(٢) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب صلاة المسافرين باب فضل قراءة ﴿ قل هو الله أحد ﴾ عن شعبة عن قتادة عن سالم بن أبي الجعد عن معدان بن أبي طلحة عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ - قال : وذكره .

(٣) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب فضائل القرآن ٣ باب فضل ﴿ قل هو الله أحد ﴾ فيه =

رجلاً قام في زمن رسول الله ﷺ يقرأ من السحر ﴿ قل هو الله أحد ﴾ لا يزيد عليها الحديث » بنحوه .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : احشدوا فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن ، قال : فحشد من حشد ، ثم خرج نبي الله ﷺ فقرأ ﴿ قل هو الله ﴾ ثم دخل فقال بعضنا لبعض : إني أرى هذا خبراً جاءه من السماء فذاك الذي أدخله ، ثم خرج نبي الله ﷺ فقال : إني قلت لكم سأقرأ عليكم ثلث القرآن ، ألا إنها تعدل ثلث القرآن . وفي لفظ له قال : خرج علينا رسول الله ﷺ فقال : أقرأ عليكم ثلث القرآن ، فقرأ ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصَّمَدُ ﴾ حتى ختمها [1] وأما حديث الزلزلة ، و﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ فروى الترمذي عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : من قرأ إذا زلزلت عدلت له نصف القرآن .

ومن قرأ ﴿ إذا زلزلت ﴾ عدلت له نصف القرآن ومن قرأ ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ عدلت له ربع القرآن وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ ﴿ إذا زلزلت ﴾ تعدل نصف القرآن و﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ تعدل ربع القرآن . رواهما الترمذي ، وقال عن كل منهما : غريب [2] . وأما حديث

= عمرة عن عائشة عن النبي - ﷺ - ٥٠١٣ عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة عن أبيه عن أبي سعيد الخدري وذكره .

(١) الحديث رواه الإمام مسلم في كتاب صلاة المسافرين باب فضل قراءة قل هو الله أحد - عن يحيى قال ابن حاتم ، حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا يزيد بن كيسان ، حدثنا أبو حازم عن أبي هريرة قال قال رسول الله - ﷺ - وذكره .

(٢) عن سلمة بن وردان أن أنس بن مالك صاحب رسول الله - ﷺ - حدثه أن رسول الله - ﷺ - سأل رجلاً من صحابته فقال : أي فلان هل تزوجت . . ؟ قال : لا . وليس عندي ما أتزوج به . قال : أليس معك ﴿ قل هو الله أحد ﴾ قال : بلى . قال : ربع القرآن قال : أليس معك ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ قال : بلى . قال : ربع القرآن قال : أليس معك ﴿ إذا زلزلت ﴾ قال : بلى . قال : ربع القرآن . قال : أليس معك ﴿ إذا جاء نصر الله ﴾ قال : بلى . قال : =

« الفاتحة » فروى البخاري في صحيحه عن أبي سعيد بن المعلى قال : كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه فقلت : يا رسول الله إني كنت أصلي ، قال : ألم يقل الله ﴿ **استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم** ﴾ ثم قال : لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن قال ﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم »[1] .

وفي السنن والمسانيد من حديث العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال لأبي بن كعب « ألا أعلمك سورة ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها ـ قال ـ فإني أرجو أن لا تخرج من هذا الباب حتى تعلمها . . وقال فيه : كيف تقرأ في الصلاة ؟ فقرأت عليه أم القرآن ، فقال والذي نفسي بيده ، ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ، ولا في الزبور ، ولا في القرآن مثلها ، إنها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيته »[2] .

ورواه مالك في الموطأ عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبي سعيد مولى عامر بن كريز مرسلاً . وفي صحيح مسلم عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : ألم تر آيات أنزلت الليلة لم ير مثلهن قط ، ﴿ **قل أعوذ برب**

= ربع القرآن قال : أليس معك « **آية الكرسي** » قال : بلى . قال : ربع القرآن قال : تزوج ، تزوج ، تزوج . ثلاث مرات . رواه الترمذي باختصار آية الكرسي . رواه أحمد ، وسلمة ضعيف . هكذا قال : صاحب مجمع الزوائد .

(١) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب فضائل القرآن ٩ باب فضل فاتحة الكتاب ٥٠٠٦ حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا شعبة ، قال : حدثني خبيب بن عبد الرحمن عن حفص بن عاصم عن أبي سعيد بن المعلى قال : وذكره .

(٢) سبق تخريج هذا الحديث في هذا الجزء . وفي الباب عن أنس بن مالك ، ورواه عبد الله بن الامام أحمد عن إسماعيل بن أبي معمر عن أبي أسامة عن عبد الحميد بن جعفر عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة عن أبي بن كعب فذكره مطولاً ، وقد رواه الترمذي والنسائي جميعاً عن أبي عمار حسين بن حريث عن الفضل بن موسى عن عبد الحميد بن جعفر عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة عن أبي بن كعب

الفلق ﴾ و﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ .

وفي لفظ قـال لي رسـول ﷺ أنـزل علي آيـات لم يـر مثلهن قط ، المعوذتان فقد أخبر في هذا الحديث الصحيح أنه لم ير مثل المعـوذتين ، كما أخبـر أنه لم ينـزل في التوراة ولا في الانجيـل ولا في الزبـور ، ولا في القرآن مثل الفاتحة ، وهذا مما يبين لنا فضل القرآن على بعض

فصل
عن التفاضل بين كلام الله تعالى

وأما السؤال عن معنى هذه المعادلة مع الاشتراك في كون الجميع كلام الله ، فهذا السؤال يتضمن شيئين :

أحدهما : أن كلام الله هل بعضه أفضل من بعض ، أم لا ؟

والثاني : ما معنى كون ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ تعدل ثلث القرآن ؟ وما سبب ذلك ؟

فنقول :

أما الأول فهو مسألة كبيرة ، والناس متنازعون فيها نزاعاً منتشراً ، فطوائف يقولون : بعض كلام الله أفضل من بعض ، كما نطقت به النصوص النبوية حيث أخبر عن الفاتحة أنه لم ينزل في الكتب الثلاثة مثلها .

وأخبر عن سورة الاخلاص أنها تعدل ثلث القرآن وعدلها لثلثه يمنع مساواتها لمقدارها في الحروف وجعل آية الكرسي أعظم آية في القرآن ، كما ثبت ذلك في الصحيح أيضاً.

وكما ثبت ذلك في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال لأبي بن كعب : يا أبا المنذر أتدري أي آية في كتاب الله معك أعظم ؟ قال : قلت : الله ورسوله أعلم .

قال : يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله أعظم قال : فقلت : ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ قال : فضرب في صدري وقال : ليهنك العلم أبا المنذر » (١) ورواه ابن أبي شيبة في مسنده بإسناد مسلم ، وزاد فيه « والذي نفسي بيده إن لهذه الآية لساناً وشفتين تقدس الملك عند ساق العرش » .

وروى أنها سيدة آي القرآن .

وقال في المعوذتين : لم ير مثلهن قط .

وقد قال تعالى ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ (٢) .

فأخبر أنه يأتي بخير منها أو مثلها ، وهذا بيان من الله لكون تلك الآية قد يأتي بمثلها تارة أو خير منها أخرى فدل ذلك على أن الآيات تتماثل تارة وتتفاضل أخرى ، وأيضاً فالتوراة والإنجيل والقرآن جميعاً كلام الله ، مع علم المسلمين بأن القرآن أفضل الكتب الثلاثة ، قال تعالى ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ ﴾ (٣) وقال تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٤) وقال تعالى ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا القُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ (٥) .

---

(١) قال الامام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا سفيان عن سعيد الجريري عن أبي السليل عن عبد الله بن رباح عن أبي بن كعب أن النبي ـ ﷺ سأله : أي آية في كتاب الله أعظم . . .؟ قال : الله ورسوله أعلم ، فرددها مراراً ثم قال أبي : آية الكرسي قال الرسول عليه السلام : ليهنك العلم أبا المنذر ، والذي نفسي بيده إن لها لساناً وشفتين تقدس الملك عند ساق العرش ، ورواه الامام مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة عن عبد الأعلى بن عبد الأعلى عن الجريري به وليس عنده زيادة (والذي نفسي بيده) الخ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٠٦ .

(٣) سورة المائدة آية رقم ٤٨ .

(٤) سورة الحجر آية رقم ٩ .

(٥) سورة الإسراء آية رقم ٨٨ .

وقال تعالى ﴿ الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ الله ﴾[1] فأخبر أنه أحسن الحديث ، فدل على أنه أحسن من سائر الأحاديث المنزلة من عند الله وغير المنزلة وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ المَثَانِي وَالقُرْآنَ العَظِيمَ ﴾[2] .

وسواء كان المراد بذلك الفاتحة أو القرآن كله فإنه يدل على أن القرآن العظيم له اختصاص بهذا الوصف على ما ليس كذلك .

وقد سمى الله القرآن كله مجيداً وكريماً وعزيزاً . وقد تحدى الخلق بأن يأتوا بمثله ، أو بمثل عشر سور منه ، أو بمثل سورة منه فقال . ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ [3] وقال ﴿ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ [4] وقال ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِن مِثْلِهِ ﴾ [5] .

وخصه بأنه لا يقرأ في الصلاة إلا هو ، فليس لأحد أن يقرأ غيره مع قراءته ، ولا بدون قراءته ، ولا يصلي بلا قرآن ، فلا يقوم غيره مقامه مع القدرة عليه وكذلك لا يقوم غير الفاتحة مقامها من كل وجه باتفاق المسلمين ، سواء قيل بأنها فرض تعاد الصلاة بتركها ، أو قيل بأنها واجبة يأثم تاركها ولا إعادة عليه أو قيل : إنها سنة ، فلم يقل أحد إن قراءة غيرها مساو لقراءتها من كل وجه .

وخص القرآن بأنه لا يمس مصحفه إلا طاهر ، كما ثبت ذلك عن الصحابة ـ مثل سعد وسلمان وابن عمر ـ وجماهير السلف والخلف الفقهاء الأربعة وغيرهم ، ومضت به سنة رسول الله ﷺ في كتابه الذي كتبه لعمرو بن حزم ، الذي لا ريب في أنه كتبه له ، ودل على ذلك كتاب الله ، وكذلك لا

---

(١) سورة الزمر آية رقم ٢٣ .
(٢) سورة الحجر آية رقم ٨٧ .
(٣) سورة الطور آية رقم ٣٤ .
(٤) سورة هود آية رقم ١٣ .
(٥) سورة البقرة آية رقم ٢٣ .

يقرأ الجنب القرآن عند جماهير العلماء الفقهاء الأربعة وغيرهم كما دلت على ذلك السنة .

وتفضيل أحد الكلامين بأحكام توجب تشريفه يدل على أنه أفضل في نفسه ، وإن كان ذلك ترجيحاً لأحد المتماثلين بلا مرجح .

وهذا خلاف ما علم من سنة الرب تعالى في شرعه بل وفي خلقه ، وخلاف ما تدل عليه الدلائل العقلية مع الشرعية .

وأيضاً فقد قال تعالى ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِن رَبِّكُم ﴾[1] .

وقال تعالى ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾[2] .

وقال تعالى ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾[3] فدل على أن فيما أنزل حسن وأحسن سواء كان الأحسن هو الناسخ الذي يجب الأخذ به دون المنسوخ ، إذ كان لا ينسخ آية إلا يأتي بخير منها أو مثلها ، أو كان غير ذلك .

والقول بأن كلام الله بعضه أفضل من بعض هو القول المأثور عن السلف ، وهو الذي عليه أئمة الفقهاء من الطوائف الأربعة وغيرهم ، وكلام القائلين بذلك كثير منتشر في كتب كثيرة ، مثل ما سيأتي ذكره عن أبي العباس ابن سريج[4] في تفسيره لهذا الحديث بأن الله أنزل القرآن على ثلاث

---

(١) سورة الزمر آية رقم ٥٥ .

(٢) سورة الزمر آية رقم ١٨ .

(٣) سورة الأعراف آية رقم ١٤٥ .

(٤) هو أحمد بن عمر بن سريج البغدادي أبو العباس ، فقيه الشافعية في عصره ، مولده عام ٢٤٩ هـ ووفاته في بغداد عام ٣٠٦ هـ له نحو ٤٠٠ مصنف منها الأقسام والخصال ، وليَّ القضاء بشيراز ، وقام بنصرة المذهب الشافعي ، فنشره في أكثر الآفاق حتى قيل : بعث الله عمر بن عبد العزيز على رأس المئة من الهجرة فأظهر السنة ، وأمات البدعة ومن الله في المئة الثانية بالامام الشافعي ، فأحيى السنة ، وأخفى البدعة ، ومنَّ بابن سريج في المئة الثالثة فنصر السنن وخذل =

أقسام : ثلث منه أحكام وثلث منه وعد ووعيد ، وثلث منه الأسماء والصفات وهذه السورة جمعت الأسماء والصفات .

ومثل ما ذكره أصحاب الشافعي وأحمد في مسألة تعيين الفاتحة في الصلاة .

قال أبو المظفر منصور بن محمد السمعاني الشافعي في كتابه « الاصطلام » وأما قولهم: إن سائر الأحكام المتعلقة بالقرآن لا تختص بالفاتحة .

قلت : سائر الأحكام قد تعلقت بالقرآن على العموم وهذا على الخصوص ، بدليل أن عندنا قراءة الفاتحة على التعيين مشروعة على الوجوب وعندكم على السنة قال : وقد قال أصحابنا : إن قراءة الفاتحة لما وجبت في الصلاة وجب أن تتعين الفاتحة ، لأن القرآن امتاز عن غيره بالإعجاز ، وأقل ما يحصل به الإعجاز سورة ، وهذه السورة أشرف السور لأنها السبع المثاني ، ولأنها تصلح عوضاً عن جميع السور ولا تصلح جميع السور عوضاً عنها ، ولأنها تشتمل على ما لا تشتمل سورة ما على قدرها من الآيات وذلك من الثناء والتحميد للرب ، والاستعانة والاستعاذة والدعاء من العبد ، فإذا صارت هذه السورة أشرف السور ، وكانت الصلاة أشرف الحالات ، فتعينت أشرف السور في أشرف الحالات وبينوا من شرفها على غيرها ما ذكروه .

وكذلك ذكر ذلك من ذكره من أصحاب أحمد كالقاضي أبي يعلى (١)

= البدع ، وكان حاضر الجواب ، له مناظرات ومساجلات مع محمد بن داود الظاهري ، وله نظم حسن . [راجع طبقات الشافعية للسبكي ٣ : ٨٧ والبداية والنهاية ١١ : ١٢٩ ، ووفيات الأعيان ١ : ١٧ وتاريخ بغداد ٤ : ٢٨٧]

(١) هو محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن الفراء أبو يعلى ، عالم عصره في الأصول والفروع ، وأنواع الفنون ، من أهل بغداد ، ارتفعت مكانته عند القادر ، والقائم ، وولاه القائم دار الخلافة والحريم ، له تصانيف كثيرة ، منها الإيمان ، والأحكام السلطانية، والكفاية في أصول =

ابن القاضي أبي حازم ، ابن القاضي أبي يعلى ، ابن الفراء، قال في تعليقه - ومن خطه نقلت - قال في مسألة كون قراءة الفاتحة ركنا في الصلاة أما الطريق المعتمد في المسألة فهو أنا نقول : الصلاة أشرف العبادات وجبت فيها القراءة ، فوجب أن يتعين لها أشرف السور ، والفاتحة أشرف السور ، فوجب أن تتعين .

قال : وأعلم أنا نحتاج في تمهيد هذه الطريقة الى شيئين :

أحدهما : أن الصلاة أشرف العبادات .

والثاني : أن الحمد أشرف السور .

واستدل على ذلك بما ذكره قال : وأما الدليل على أن فاتحة الكتاب أشرف ، فالنص والمعنى ، والحكم أما النص فما تقدم من أنها عوض من غيرها .

وعن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : فاتحة الكتاب شفاء من السم .

وقال الحسن البصري : أنزل الله مائة كتاب وأربعة كتب من السماء أودع علومها أربعة منها :

التوراة والإنجيل والزبور ، والفرقان .

ثم أودع علوم هذه الأربعة الفرقان ، ثم أودع علوم القرآن المفصل ، ثم أودع علوم المفصل فاتحة الكتاب ، فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع كتب الله المنزلة ، ومن قرأها فكأنما قرأ التوراة والإنجيل والزبور

الفقه ، وأحكام القرآن ، وعيون المسائل ، وأربع مقدمات في أصول الديانات ، ومقدمة في الأدب، وردود على الأشعرية توفي عام ٤٥٨ هـ . [راجع طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ٢ : ١٩٣ - ٢٣٠ ومختصره للنابلسي ٣٧٧ ، وتاريخ بغداد ٢ : ٢٥٦ ، وشذرات الذهب ٣ : ٣٠٦ والوافي بالوفيات ٣ : ٧] .

والقرآن .

وأما المعنى فهو أن الله قابلها بجميع القرآن فقال : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَـاكَ سَبْعاً مِنَ المَثَانِي وَالقُرْآنَ العَظِيمَ ﴾ [1] وهذه حقيقة لا يدانيها غيرها فيها .

قلت : هـذا على قول من جعلهـا هي السبع المثـاني ، وجعـل القـرآن العظيم جميع القرآن، قال : ولأنها تسمى أم القرآن وأم الشيء أصله ومادته ، ولهـذا سمى الله مكة أم القـرى لشرفهـا عليهن ، ولأنها السبـع المثاني ولأنهـا تشتمل على ما لا تشتمل عليه سورة من الثناء والتحميد للرب تعالى والاستعانة به ، والاستعاذة والدعاء من العبـد ، على ما قـال النبي ﷺ يقول الله تعـالى : « قسمت الصلاة بيني وبين عبدي »[2] الحديث المشهور .

قال : ولأنه لم ينـزل مثلها في التـوراة ولا في الانجيل ولا في الـزبور ، ولا في شيء من الكتب يدل عليها أنها تيسر قراءتها على كل أحد مـا لا يتيسر غيرها من القرآن وتضرب بها الأمثال .

ولهذا يقال : فـلان يحفظ الشيء مثل الفـاتحة وإذا كـانت بهذه المثـابة فغيرها لا يساويها في هذا فاختصت بالشرف ، ولأنها السبع المثاني .

قـال أهل التفسيـر : معنى ذلك أنهـا تثنى قراءتهـا في كل ركعـة ، قـال بعضهم : ثنى نزولها على النبي ﷺ قلت : وفيه أقوال أخر .

قال : وأما الحكم فلأنه تستحب قـراءتها في كـل ركعة ويكـره الإخلال بها ، ولولا أنها أشرف لما اختصت بهذا المعنى يدل عليه أن عنـد المنازعين -

---

(1) سورة الحجر آية رقم ٨٧ .

(2) الحـديث رواه الامـام مسلم في كتـاب الصـلاة ٣٨ - ٤٠ ورواه أبـو داود في الصـلاة ١٣٢ ، والترمذي في التفسير سورة ١ ، ١ والنسائي في الافتتاح ٢٣ وابن ماجه في كتاب الأدب ٥٢ باب ثواب القرآن ٣٧٨٤ - حدثنا أبو مروان محمد بن عثمان العثمـاني ، ثنا عبـد العزيـز بن أبي حازم عن العـلاء بن عبد الـرحمن ، عن أبيـه ، عن أبي هـريـرة ، قـال : سمعت رسـول الله - ﷺ - يقول - قال الله عز وجل وذكره .

يعني أصحاب أبي حنيفة ـ أن من أخل بقراءتها وجب عليه سجود السهو فنقول : لا يخلو إما أن تكون ركناً أو ليست بركن . فإن كانت ركناً وجب أن لا تجبر بالسجود ، وإن لم تكن ركناً وجب أن لا يجب عليه سجود .

قلت: يعني بذلك: أن السجود لا يجب إلا بترك واجب في حال العمد، فإذا سها عنه وجب له السجود ، وما كان واجباً فإذا تعمد تركه وجب أن تبطل صلاته ؛ لأنه لم يفعل ما أمر به ، بخلاف من سها عن بعض الواجبات ، فإن هذا يمكن أن يجبر ما تركه بسجود السهو .

ومذهب مالك وأحمد وأبي حنيفة أن سجود السهو واجب ، لأن من الواجبات ما إذا تركه سهواً لم تبطل الصلاة ، كما لا تبطل بالزيادة سهواً باتفاق العلماء ، ولو زاد عمداً لبطلت الصلاة ، لكن مالكاً وأحمد في المشهور عنهما يقولان : ما كان واجباً إذا تركه عمداً بطلت صلاته وإذا تركه سهواً فمنه ما يبطل الصلاة ، ومنه ما ينجبر بسجود السهو ، فترك الركوع والسجود والقراءة يبطل الصلاة مطلقاً ، وترك التشهد الأول عندهما يبطل الصلاة عهده ، ويجب السجود لسهوه .

وأما أبو حنيفة فيقول : الواجب الذي ليس بفرض كالفاتحة ـ إذا تركه كان مسيئاً ولا يبطل الصلاة. والشافعي لا يفرق في الصلاة بين الركن والواجب ، ولكن فرق بينهما في الحج هو وسائر الأئمة .

والمقصود هنا ذكر بعض من قال : إن الفاتحة أشرف من غيرها وقال أبو عمر بن عبد البر [1] ، وأما قول النبي ﷺ لأبي : هل تعلم سورة ما أنزل الله

---

(1) هو يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي المالكي أبو عمر من كبار حفاظ الحديث ، مؤرخ ، أديب ، بحاثة يقال له حافظ المغرب ولد بقرطبة ، ورحل رحلات طويلة في غربي الأندلس وشرقيها وولي قضاء لشبونة وتوفي بشاطبة عام ٤٦٣ هـ .
من كتبه : الدرر في اختصار المغازي والسير ، والعقل والعقلاء ، والاستيعاب في معرفة الأصحاب ، وجامع بيان العلم وفضله ، والتمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ، والنقص =

لا في التوراة ولا في الانجيل ولا في الزبور ، ولا في القرآن مثلها ، فمعناه مثلها في جمعها لمعاني الخير ، لأن فيها الثناء على الله عز وجل بما هو أهله وما يستحقه من الحمد الذي هو له حقيقة لا لغيره ؛ لأن كل نعمة وخير منه لا من سواه ، فهو الخالق الرازق لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ، وهو محمود على ذلك ، وإن حمد غيره فإليه يعود الحمد ، وفيها التعظيم له وأنه الرب للعالم أجمع ومالك الدنيا والآخرة وهو المعبود والمستعان ، وفيها تعليم الدعاء والهدى ، ومجانبة طريق من ضل وغوى ، والدعاء لباب العبادة ، فهي أجمع سورة للخير ليس في الكتب مثلها على هذه الوجوه قال : وقد قيل : إن معنى ذلك أنها تجزىء الصلاة بها دون غيرها ولا يجزىء غيرها عنها، وليس هذا بتأويل مجتمع عليه ، قلت : يعني بذلك أن في هذا نزاعاً بين العلماء ، وهو كون الصلاة لا تجزىء إلا بها وهذا يدل على أن الوصف الأول متفق عليه بين العلماء وهو أنها أفضل السور.

ومن هذا الباب ما في الكتاب والسنة من تفضيل القرآن على غيره من كلام الله التوراة والإنجيل وسائر الكتب وأن السلف كلهم كانوا مقرين بذلك ، ليس فيهم من يقول : الجميع كلام الله فلا يفضل للقرآن على غيره . قال الله تعالى ﴿ **اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ** ﴾ (1) فأخبر أنه أحسن الحديث .

وقال تعالى ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـٰذَا القُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الغَافِلِينَ** ﴾ (2) و ﴿ **أحسن القصص** ﴾ قيل : إنه مصدر، وقيل : أنه مفعول به .

= لحديث الموطأ أو تجريد التمهيد ، والإنصاف فيما بين العلماء من الاختلاف . وغير ذلك كثير .
[راجع بغية الملتمس ٤٧٤ ووفيات الأعيان ٢ : ٣٤٨ وآداب اللغة ٣ : ٦٦ ، وجمهرة الأنساب ٢٨٥ والمغرب في حلى المغرب ٢ : ٤٠٧] .

(1) سورة الزمر آية رقم ٢٣ .

(2) سورة يوسف آية رقم ٣ .

قيل : المعنى : نحن نقص عليك أحسن القصص .

كما يقال : نكلمك أحسن التكليم ، ونبين لك أحسن البيان قال الزجاج : نحن نبين لك أحسن البيان ، والقاص الذي يأتي بالقصة على حقيقتها .

قال : وقوله ﴿ **بما أوحينا إليك هذا القرآن** ﴾ أي بوحينا إليك هذا القرآن .

ومن قال هذا قال : بما أوحينا إليك هذا القرآن وعلى هذا القول فهو كقوله : نقرأ عليك أحسن القراءة ونتلوا عليك أحسن التلاوة ، والثاني أن المعنى نقص عليك أحسن ما يقص ، أي أحسن الأخبار المقصوصات ، كما قال في السورة الأخرى : ﴿ **اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ** ﴾ (١) وقال : ﴿ **وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً** ﴾ (٢)

ويدل على ذلك قوله في قصة موسى ﴿ **فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ القَصَصَ** ﴾ (٣) .

وقوله ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الأَلْبَابِ** ﴾ (٤) المراد خبرهم ونبأهم وحديثهم ، ليس المراد مجرد المصدر والقولان متلازمان في المعنى كما سنبينه ، ولهذا يجوز أن يكون هذا المنصوب قد جمع معنى المصدر ومعنى المفعول به لأن فيه كلا المعنيين بخلاف المواضع التي يباين فيها الفعل المفعول به ، فإنه إذا انتصب بهذا المعنى امتنع المعنى الآخر .

ومن رجح الأول من النحاة ـ كالزجاج (٥) وغيره ـ

---

(١) سورة الزمر آية رقم ٢٣ .
(٢) سورة النساء آية رقم ١٢٢ .
(٣) سورة القصص آية رقم ٢٥ .
(٤) سورة يوسف آية رقم ١١١ .
(٥) هو ابراهيم بن السري بن سهل ، أبو اسحاق الزجاج ، عالم بالنحو واللغة ، ولد عام ٢٤١ هـ في بغداد وتوفي عام ٣١١ هـ كان في فتوته يخرط الزجاج ، ومال الى النحو فعلمه المبرد ، أصاب =

قالوا القصص مصدر ، يقال : قص أثره يقصه قصصاً ومنه قوله تعالى ﴿ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً ﴾ [1] وكذلك اقتص أثره وتقصص ، وقد اقتصصت الحديث رويته على وجهه ، وقد اقتص عليه الخبر قصصاً وليس القصص بالفتح جمع قصة كما يظنه بعض العامة فإن ذلك يقال في قصص بالكسر واحدة قصة ، والقصة هي الأمر والحديث الذي يقص ، فعلة بمعنى مفعول وجمعه قصص بالكسر .

وقوله ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ ﴾ [2] بالفتح لم يقل أحسن القصص بالكسر ، ولكن بعض الناس ظنوا أن المراد أحسن القصص بالكسر ، وأن تلك القصة قصة يوسف ، وذكر هذا طائفة من المفسرين ثم ذكروا : لم سميت أحسن القصص ؟

فقيل : لأنه ليس في القرآن قصة تتضمن من العبر والحكم والنكت ما تتضمن هذه القصة .

وقيل : لامتداد الأوقات بين مبتداها ومنتهاها .

وقيل لحسن محاورة يوسف وإخوته ، وصبره على أذاهم وإغضائه عن ذكر ما تعاطوه عند اللقاء ، وكرمه في العفو ، وقيل : لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين والإنس والجن والانعام والطير وسير الملوك والمماليك والتجار والعلماء والجهال والرجال والنساء ومكرهن وحيلهن ، وفيها أيضاً ذكر التوحيد والفقه والسير وتعبير الرؤ يا والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش فصارت أحسن القصص لما فيها من المعاني ، والفوائد التي تصلح

= ثروة كبيرة ، وكانت له مناقشات مع ثعلب وغيره من كتبه معاني القرآن ، والاشتقاق، وخلق الإنسان ، واعراب القرآن . [راجع معجم الأدباء ١ :٤٧ وابن النديم وانباه الرواة ١ : ١٥٩ واداب اللغة ٢ : ١٨١ وتاريخ بغداد ٦ : ٨٩] .

(١) سورة الكهف آية رقم ٦٤ .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٣ .

للدين والدنيا وقيل فيها ذكر الحبيب والمحبوب ، وقيل ﴿ **أحسن** ﴾ بمعنى أعجب .

والذين يجعلون قصة يوسف أحسن القصص منهم من يعلم أن ﴿ **القصص** ﴾ بالفتح هو النبأ والخبر ، ويقولون هي أحسن الأخبار والأنباء ، وكثير منهم يظن أن المراد أحسن القصص بالكسر ، وهؤلاء جهال بالعربية وكلا القولين خطأ ، وليس المراد بقوله ﴿ **أحسن القصص** ﴾ قصة يوسف وحدها ، بل هي مما قصه الله ، ومما يدخل في أحسن القصص .

ولهذا قال تعالى في آخر السورة ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِم مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ، أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلاَ تَعْقِلُونَ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَشَاءُ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ (١) فبين أن العبرة في قصص المرسلين ، وأمر بالنظر في عاقبة من كذبهم ، وعاقبتهم بالنصر .

ومن المعلوم أن قصة موسى وما جرى له مع فرعون وغيره أعظم وأشرف من قصة يوسف بكثير كثير ولهذا هي أعظم قصص الأنبياء التي تذكر في القرآن ثناها الله أكثر من غيرها ، وبسطها وطولها أكثر من غيرها ، بل قصص سائر الأنبياء كنوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم من المرسلين ـ أعظم من قصة يوسف ، وذلك لأن الذين عادوا يوسف لم يعادوه على الدين بل عادوه عداوة دنيوية ، وحسدوه على محبة أبيه له وظلموه فصبر واتقى الله وابتلى صلوات الله عليه بمن ظلمه وبمن دعاه إلى الفاحشة فصبر واتقى الله في هذا

---

(١) سورة يوسف آية رقم ١٠٩ ـ ١١١ .

وفي هذا فكانت قصته من أحسن القصص ، وهي أحسن من القصص التي لم تقص في القرآن ، فإن الناس قد يظلمون ويحسدون ويدعون إلى الفاحشة ويبتلون بالملك ، لكن ليس من لم يذكر في القرآن ممن اتقى الله وصبر مثل يوسف ، ولا فيهم من كانت عاقبته أحسن العواقب في الدنيا والآخرة مثل يوسف .

وهذا كما أن قصة أهل الكهف وقصة ذي القرنين كل منهما هي في جنسها أحسن من غيرها ، فقصة ذي القرنين أحسن قصص الملوك ، وقصة أهل الكهف أحسن قصص أولياء الله الذين كانوا في زمن الفترة فقوله تعالى ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ** ﴾ [1] يتناول كل ما قصه في كتابه فهو أحسن مما لم يقصه ليس المراد أن قصة يوسف أحسن ما قص في القرآن وأين ما جرى ليوسف مما جرى لموسى ونوح وابراهيم وغيرهم من الرسل ؟!

وأين ما عودي أولئك مما عودي فيه يوسف ؟! وأين فضل أولئك عند الله وعلو درجتهم من يوسف صلوات الله عليهم أجمعين ؟

وأين نصر أولئك من نصر يوسف ، فإن يوسف كما قال الله تعالى ﴿ **وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [2] .

وأذل الله الذين ظلموه ، ثم تابوا فكان فيها من العبرة أن المظلوم المحسود إذا صبر واتقى الله كانت له العاقبة ، وأن الظالم الحاسد قد يتوب الله عليه ويعفو عنه ، وأن المظلوم ينبغي له العفو عن ظالمه إذا قدر عليه .

وبهذا اعتبر النبي ﷺ يوم فتح مكة لما قام على باب الكعبة ، وقد أذل الله له الذين عادوه وحاربوه من الطلقاء ، فقال : ماذا أنتم قائلون ؟ فقالوا :

---

(١) سورة يوسف آية رقم ٣ .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٥٦ .

نقول : أخ كريم وابن عم كريم فقال : إني قائل لكم كما قال يوسف لإخوته : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (١) .

وكذلك عائشة لما ظلمت وافترى عليها ، وقيل لها : إن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه ، فقالت في كلامها : أقول كما قال أبو يوسف ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ (٢)

ففي قصة يوسف أنواع من العبرة للمظلوم والمحسود والمبتلي بدواعي الفواحش والذنوب وغير ذلك .

لكن أين قصة نوح وابراهيم وموسى والمسيح ونحوهم ممن كانت قصته أنه دعا الخلق إلى عبادة الله وحده لا شريك له فكذبوه وآذوه وآذوا من آمن به ؟

فإن هؤلاء أوذوا اختياراً منهم لعبادة الله فعودوا ، وأوذوا في محبة الله وعبادته باختيارهم ، فإنهم لولا إيمانهم ودعوتهم الخلق إلى عبادة الله لما أوذوا ، وهذا بخلاف من أوذي بغير اختياره ، كما أخذ يوسف من أبيه بغير اختياره ، ولهذا كانت محنة يوسف بالنسوة وامرأة العزيز ، واختياره السجن على معصية الله . أعظم من إيمانه ، ودرجته عند الله وأجره من صبره على ظلم إخوته له ، ولهذا يعظم يوسف بهذا أعظم مما يعظم بذلك .

ولهذا قال تعالى فيه ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٣) .

وهذا كالصبر عن المعاصي مع الصبر على المصائب فالأول أعظم ، وهو صبر المتقين أولياء الله .

---

(١) سورة يوسف آية رقم ٩٢ .
(٢) سورة يوسف آية رقم ١٨ .
(٣) سورة يوسف آية رقم ٢٤ .

قال سهل بن عبد الله التستري [1] : أفعال البر يفعلها البر والفاجر . ولن يصبر عن المعاصي إلا صديق ، ويوسف صلوات الله وسلامه عليه كان صديقاً نبياً .

وأما من يظلم بغير اختياره ويصبر فهذا كثير ومن لم يصبر صبر الكرام سلا سلو البهائم . وكذلك إذا مكن المظلوم وقهر ظالمه فتاب الظالم وخضع له فعفوه عنه من المحاسن والفضائل ، لكن هذا يفعله خلق كثير من أهل الدين وعقلاء الدنيا ، فإن حلم الملوك والولاة أجمع لأمرهم وطاعة الناس لهم ، وتأليفهم لقلوب الناس .

وكان معاوية من أحلم الناس ، وكان المأمون حليماً حتى كان يقول : لو علم الناس محبتي في العفو تقربوا إلي بالذنوب ولهذا لما قدر على من نازعه في الملك ـ وهو عمه ابراهيم بن المهدي ـ عفا عنه .

وأما الصبر عن الشهوات والهوى الغالب لله ، لا رجاء لمخلوق ولا خوفاً منه ، مع كثرة الدواعي إلى فعل الفاحشة ، واختياره الحبس الطويل على ذلك كما قال يوسف ﴿ **رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ** ﴾ [2] فهذا لا يوجد نظيره إلا في خيار عباد الله الصالحين ، وأوليائه المتقين ، كما قال تعالى ﴿ **كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المُخْلَصِينَ** ﴾ [3] .

فهذا من عباد الله المخلصين الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ** ﴾ [4] ولهذا لم يصدر من يوسف الصديق ذنب أصلاً

---

(١) هو سهل بن عبد الله بن يونس التستري أبو محمد ، أحد أئمة التصوف ، وعلمائهم ، والمتكلمين في علوم الاخلاص ، والرياضيات وعيوب الأفعال ، له كتاب في التفسير ، مختصر ، وكتاب رقائق المحبين وغير ذلك توفي عام ٢٨٣ هـ [راجع طبقات الصوفية ٢٠٦ ، والوفيات ١ : ٢١٨ وحلية الأولياء ١٠ : ١٨٩ ، والشعراني ١ : ٦٦ ، والمناوي ١ : ٢٣٧] .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٣٣ .

(٣) سورة يوسف آية رقم ٢٤ .

(٤) سورة الحجر آية رقم ٤٢ .

بل الهم الذي هم به لما تركه لله كتب له به حسنة ولهذا لم يذكر عنه سبحانه توبة واستغفاراً كما ذكر توبة الأنبياء كآدم وداود ونوح وغيرهم وإن لم يذكر عن أولئك الأنبياء فاحشة ولله الحمد . وإنما كانت توباتهم من أمور أخر هي حسنات بالنسبة إلى غيرهم ، ولهذا لا يعرف ليوسف نظير فيما ابتلي به من دواعي الفاحشة ، وتقواه وصبره في ذلك وإنما يعرف لغيره ما هو دون ذلك كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال « سبعة يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله ورجل معلق قلبه بالمسجد إذا خرج حتى يعود إليه ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » (١) .

وإذا كان الصبر على الأذى لئلا يفعل الفاحشة أعظم من صبره على ظلم إخوته، فكيف يصبر الرسل على أذى المكذبين لئلا يتركوا ما أمروا به من دعوتهم إلى عبادة الله وحده ، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ؟

فهذا الصبر هو من جنس الجهاد في سبيل الله إذ كان الجهاد مقصوداً به أن تكون كلمة الله هي العليا وأن الدين كله لله ، فالجهاد والصبر فيه أفضل الأعمال كما قال النبي ﷺ : رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله » (٢) .

---

(١) الحديث أخرجه الشيخان عن أبي هريرة ـ والبخاري في ٨٦ كتاب الحدود ١٩ باب فضل من ترك الفواحش ، ورواه الامام مسلم في ١٢ ـ كتاب الزكاة ٣٠ باب فضل إخفاء الصدقة حديث ٩١ ورواه الامام مالك في الموطأ ٥ باب ما جاء في المتحابين في الله ١٤ وحدثني عن مالك عن خبيب ابن عبد الرحمن الأنصاري عن حفص بن عاصم، عن أبي سعيد الخدري ، أو عن أبي هريرة ، أنه قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ وذكره .

(٢) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الفتن ١٢ باب كف اللسان في الفتنة ٣٩٧٣ ـ حدثنا محمد بن =

وهو حديث صحيح رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه وهو من حديث معاذ بن جبل الطويل ـ وهو أحب الأعمال إلى الله ـ فالصبر على تلك المعصية صبر المهاجر الذي هجر ما نهي عنه ، وصبر المجاهد الذي جاهد نفسه في الله ، وجاهد عدو الله الظاهر والباطن ، والمهاجر الصابر على ترك الذنب إنما جاهد نفسه وشيطانه ، ثم يجاهد عدو الله الظاهر لتكون كلمة الله هي العليا ، ويكون الدين كله لله ، وصبر المظلوم صبر المصاب لكن المصاب بمصيبة سماوية تصبر نفسه ما لا تصبر نفس من ظلمه الناس، فإن ذاك يستشعر أن الله هو الذي فعل به هذا فتيأس نفسه من الدفع والمعاقبة ، وأخذ الثأر بخلاف المظلوم الذي ظلمه الناس ، فإن نفسه تستشعر أن ظالمه يمكن دفعه وعقوبته ، وأخذ ثأره منه فالصبر على هذه المصيبة أفضل وأعظم كصبر يوسف صلوات الله عليه وسلامه ، وهذا يكون لأن صاحبه يعلم أن الله قدر ذلك فيصبر على ذلك كالمصائب السماوية ، ويكون أيضاً لينال ثواب الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ، وليسلم قلبه من الغل للناس وكلا النوعين يشترك في أن صاحبه يستشعر أن ذلك بذنوبه ، وهو مما يكفر الله به سيئاته ويستغفر ويتوب ، وأيضاً فيرى أن ذلك الصبر واجب عليه وأن الجزع مما يعاقب عليه ، وإن ارتقى إلى الرضا رأى أن الرضا جنة الدنيا ومستراح العابدين وباب الله الأعظم ، وأن رأى ذلك نعمة لما فيه من صلاح قلبه ودينه ، وقربه إلى الله وتكفير سيئاته وصونه عن ذنوب تدعوه إليها شياطين الإنس والجن شكر الله على هذه النعم .

فالمصائب السماوية والآدمية تشترك في هذه الأمور ومعرفة الناس بهذه

= أبي عمر العدني ، ثنا عبد الله بن معاذ عن معمر عن عاصم بن أبي النجود ، عن أبي وائل ، عن معاذ بن جبل ، قال : كنت مع النبي ـ ﷺ ـ في سفر ـ فأصبحت يوماً قريباً منه ونحن نسير فقلت يا رسول الله . أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار. قال : لقد سألت عظيماً وإنه ليسير على من يسره الله عليه وذكره . ورواه الامام الترمذي في كتاب الإيمان ٨ وأحمد بن حنبل في المسند ٥ : ٢٣١ ، ٢٣٨ (حلبي) .

الأمور وعلمهم بها هـو من فضل الله يمن بـه على من يشاء من عبـاده ، ولهذا كانت أحوال الناس في المصائب وغيرها متباينة تبايناً عظيماً ثم إذا شهـد العبد القدر وأن هذا أمـر قدره الله وقضـاه ، وهو الخـالق له ، فهـو مع الصبـر يسلم للرب القـادر المالـك الذي يفعـل ما يشـاء ، وهذا حـال الصابـر ، وقد يسلم تـسليـمــه للرب المحسـن المـدبـر لـه بحسن اختيـاره الـذي لا يـقضي للمؤمن من قضاء إلا كان خيراً له ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصـابتـه ضـراء صبـر فكـان خيـراً لـه كـما رواه مـسلم في صـحيحـه عن صهيب عن النبي ﷺ ، وهـذا تسليم راض لعلمه بحسن اختيـار الله له ، وهذا يورث الشكر ، وقد يسلم تسليمه للرب المحسن إليه المتفضل عليه بنعم عظيمة وإن لم ير هذا نعمة فيكون تسليمه تسليم راض غير شاكر ، وقـد يسلم تسليمه لله الذي لا إله إلا هو المستحق لأن يعبد لذاته ، وهو محمود على كل ما يفعله ، فإنـه عليم حكيم رحيم ، لا يفعل شيئـاً إلا لحكمة ، وهـو مستحق لمحبته وعبادته وحمده على كل ما خلقه ، فهذا تسليم عبد عابد حامد ، وهذا من الحمـادين الذين هم أول من يـدعى إلى الجنة ، ومن بينهم صـاحب لواء الحمد ، وآدم ، فمن دونه تحت لوائه ، وهذا يكون القضاء خيراً له ونعمة من الله عليه .

لكن يكــون حمـده لله ، ورضــاه بقضـائــه من حيث عـرف الله وأحبــه وعبـده ، لاستحقاقـه الألوهيـة ، وحده لا شـريك لـه ، فيكون صبـره ورضـاه وحمده من عبادته الصادرة عن هذه المعرفة والشهادة ، وهذا يشهد بقلبه أنه لا إله إلا الله ، والاله عندهم هو المستحق للعبادة بخلاف من لم يشهـد إلا مجرد ربوبيته ومشيئته وقدرته ، أو مجرد إحسـانه ونعمتـه ، فإنهمـا مشهدان نـاقصان قـاصران ، وإنمـا يقتصر عليهمـا من نقص علمه بـالله وبدينـه الـذي بعث بـه رسـله ، وأنزل به كتبه وكأهل البدع من الجهمية والقدرية الجبرية ، والقدرية المعتزلة ، فـإن الأول مشهد أولئـك ، والثاني مشهـد هؤلاء ، وشهود ربـوبيته وقدرته ومشيئتـه مع شهـود رحمته وإحسـانه وفضله ، مـع شهود الهيتـه ومحبته

ورضاه وحمده ، والثناء عليه ومجده هو مشهد أهل العلم والإيمان من أهل السنة والجماعة التابعين بإحسان للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار .

وهذه الأمور لبسطها موضع آخر .

والمقصود هنا أن هذا يكون للمؤمن في عموم المصائب وما يكون بأفعال المؤمنين فله فيه كظم الغيظ والعفو عن الناس .

ويوسف الصديق صلوات الله عليه كان له هذا ، وأعلى من ذلك الصبر على الفاحشة مع قوة الداعي إليها فهذا الصبر أعظم من ذلك الصبر ، بل وأعظم من الصبر على الطاعة ، ولهذا قال سبحانه في وصف المتقين الذين أعد لهم الجنة ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِن رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالكَاظِمِينَ الغَيْظَ وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ . وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ . أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَغْفِرَةٌ مِن رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ ﴾ (١) .

فوصفهم بالكرم والحلم ، وبالإنفاق وكظم الغيظ والعفو عن الناس ، ثم لما جاءت الشهوات المحرمات وصفهم بالتوبة منها فقال :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ ، وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) فوصفهم بالتوبة منها ، وترك الإصرار عليها ، لا بترك ذلك بالكلية ، فإن النبي ﷺ قال في الحديث الصحيح : كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة ، فالعينان تزنيان وزناهما النظر ، والأذن تزني وزناها السمع واللسان

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٣٣ ـ ١٣٦ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٣٥ .

يزني وزناه النطق ، واليد تزني وزناها البطش ، والرجل تزني وزناها المشي والقلب يتمنى ويشتهي ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه » [١] .

وفي الحديث « كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » [٢] .

فلا بد للإنسان من مقدمات الكبيرة ، وكثير منهم يقع في الكبيرة فيؤمر بالتوبة ، ويؤمرون أن لا يصروا على صغيرة ، فإنه لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار .

ويوسف ﷺ صبر على الذنب مطلقاً ولم يوجد منه إلا هم تركه لله كتب له به حسنة . وقد ذكر طائفة من المفسرين أنه وجد منه بعض المقدمات ، مثل حل السراويل ، والجلوس مجلس الخاتن ، ونحو ذلك ، لكن ليس هذا منقولاً نقلاً يصدق به ، فإن هذا لم ينقل عن النبي ﷺ ، ومثل هذه الاسرائيليات إذا لم تنقل عن النبي ﷺ لم يعرف صدقها ولهذا لا يجوز تصديقها ، ولا تكذيبها إلا بدليل والله تعالى يقول في القرآن ﴿ **كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالفَحْشَاءَ** ﴾ [٣] فدل القرآن على أنه صرف عنه السوء والفحشاء مطلقاً ، ولو كان قد فعل صغيرة لتاب منها ، والقرآن ليس فيه ذكر توبته ، ومن وقع منه بعض أنواع السوء والفحشاء لم يكن ذلك قد صرف عنه ، بل يكون قد وقع وتاب الله عليه منه . والقرآن يدل على خلاف هذا وقد شهدت النسوة له أنهن ما علمن عليه من سوء ، ولو كان قد بدت منه هذه المقدمات لكانت

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد في المسند ١ : ٤١٢ ، ٢ : ٣٤٣ ، ٣٧٢ ، ٤١١ ، ٥٢٨ ، ٥٣٥ ، ٥٢٦ (حلبي)

(٢) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الزهد ٣٠ باب ذكر التوبة ٤٢٥١ حدثنا أحمد بن منيع ، ثنا زيد ابن الحباب ، ثنا علي بن مسعدة عن قتادة عن أنس قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ وذكره .
ورواه الترمذي في كتاب القيامة ٤٩ ، والدارمي في كتاب الرقاق ١٨ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٣ : ١٩٨ (حلبي)

(٣) سورة يوسف آية رقم ٢٤ .

المرأة قد رأت ذلك، وهي من النسوة اللاتي شهدن وقلن ما علمنا عليه من سوء ، وقالت مع ذلك ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾[1]وقالت ﴿ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [2] وقوله « سوء » نكرة في سياق النفي ، فدل ذلك على أن المرأة لم تر منه سوءاً ، فإن الهم في القلب لم تطلع عليه ، ولو اطلعت عليه فإنه إذا تركه لله كان حسنة ، ولو تركه مطلقاً لم يكن حسنة ولا سيئة ، فإنه لا إثم فيه إلا مع القول أو العمل .

وأما قصة نوح وابراهيم وموسى وعيسى وغيرهم صلوات الله عليهم فتلك أعظم ، والواقع فيها من الجانبين ، فما فعلته الأنبياء من الدعوة إلى توحيد الله وعبادته ودينه وإظهار آياته وأمره ونهيه ووعده ووعيده ، ومجاهدة المكذبين لهم والصبر على أذاهم هو أعظم عند الله ، ولهذا كانوا أفضل من يوسف صلوات الله عليهم أجمعين . وما صبروا عليه وعنه أعظم من الذي صبر يوسف عليه وعنه ، وعبادتهم لله وطاعتهم وتقواهم وصبرهم بما فعلوه أعظم من طاعة يوسف وعبادته وتقواه ، أولئك أولو العزم . الذين خصهم الله بالذكر في قوله ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ [3] وقال تعالى ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ [4] ﴾ وهم يوم القيامة الذين تطلب منهم الأمم الشفاعة ، وبهم أمر خاتم الرسل أن يقتدي في الصبر ، فقيل له . ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ [5] فقصصهم أحسن من قصة يوسف ، ولهذا ثناها الله في القرآن لا سيما قصة موسى . قال الإمام أحمد بن حنبل أحسن أحاديث الأنبياء حديث تكليم الله لموسى . والمقصود

---

(١) سورة يوسف آية رقم ٣٢ .
(٢) سورة يوسف آية رقم ٥١ .
(٣) سورة الأحزاب آية رقم ٧ .
(٤) سورة الشورى آية رقم ١٣ .
(٥) سورة الأحقاف آية رقم ٣٥ .

هنا أن قوله « أحسن القصص » قد قيل إنه مصدر ، وقيل : إنه مفعول به ، والقولان متلازمان لكن الصحيح أن القصص مفعول به وإن كان أصله مصدراً ، فقد غلب استعماله في المقصوص كما في لفظ الخبر والنبأ ، والاستعمال يدل على ذلك كما تقدم ذكره ، وقد اعترف بذلك أهل اللغة قال الجوهري [1] : وقد قص عليه الخبر قصصاً ، والاسم أيضاً القصص بالفتح ، وضع موضع المصدر ، حتى صار أغلب عليه ، فقوله أحسن القصص كقوله « نخبرك أحسن الخبر ، وننبؤك أحسن النبأ ، ونحدثك أحسن الحديث ولفظ الكلام يراد به مصدر كلمه تكليماً ، ويراد به نفس القول، فإن القول فيه فعل من القائل هو مسمى المصدر ، والقول ينشأ عن ذلك الفعل ، ولهذا تارة يجعل القول نوعاً من العمل ؛ لأنه حاصل بعمل ، وتارة يجعل قسيماً له ، يقال : القول والعمل ، وكذلك قد يقال في لفظ « القصص » ، و« البيان » ، و« الحديث » و« الخبر » ، ونحو ذلك .

فإذا أريد بالقصص ونحوه المصدر الذي مسماه الفعل فهو مستلزم للقول ، والقول تابع ، وإذا أريد به نفس الكلام والقول فهو مستلزم للفعل تابع للفعل ، فالمصادر الجارية على سنن الأفعال يراد بها الفعل كقولك : كلمته تكليماً ، وأخبرته إخباراً ، وأما ما لم يجر على سنن الأفعال يراد بها الفعل كقولك كلمته تكليماً ، وأخبرته إخباراً وأما ما لم يجر على سنن الفعل - مثل الكلام والخبر ونحو ذلك - فإن هذا إذا أطلق أريد به القول،وكذلك قد يقال في لفظ القصص فإن مصدره القياسي قصاً ، مثل عده عداً ومده مداً ، وكذلك قصه قصاً .

وأما قصص فليس هو قياس مصدر المضعف ولم يذكروا على كونه مصدراً إلا قوله ﴿ **فارتدا على آثارهما قصصاً** ﴾ .

---

(1) سبق الترجمة له في كلمة وافية . [راجع : معجم الأدباء ٢ : ٢٦٩ والنجوم الزاهرة ٤ : ٢٠٧ ولسان الميزان ١ : ٤٠٠ وإنباه الرواة ١ : ١٩٤ ونزهة الألبا ٤١٨] .

وهذا لا يدل على أنه مصدر ، بل قد يكون اسم مصدر أقيم مقامه ، كقوله ﴿ وَاللهُ أَنبَتَكُم مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً ﴾ [1] .

وإن جعل مصدر قص الأثر لم يلزم أن يكون مصدر قص الحديث . لأن الحديث خبر ونبأ ، فكان لفظ قصص كلفظ خبر ونبأ وكلام .

وأسماء المصادر في باب الكلام تتضمن القول نفسه ، وتدل على فعل القائل بطريق التضمن واللزوم ، فإنك إذا قلت : الكلام والخبر والحدث والنبأ والقصص ، لم يكن مثل قولك : التكليم والإنباء والإخبار والتحديث ، ولهذا يقال : إنه منصوب على المفعول به ، واسم المصدر ينتصب على المصدر كما في قوله ﴿ والله أَنبَتَكُم مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً ﴾ [1] فإذا قال : كلمته كلاماً حسناً وحدثته حديثاً طيباً ، وأخبرته أخباراً سارة ، وقصصت عليه قصصاً صادقة ، ونحو ذلك كان هذا منصوباً على المفعول به ، لم يكن هذا كقولك كلمته تكليماً ، وأنبأته انباء ، فتبين أن قوله ﴿ أَحْسَنَ القَصَصِ ﴾ [2] منصوب على المفعول وكل ما قصه الله فهو أحسن القصص ، ولكن هذا إذا كان يتضمن معنى المصدر ، ومعنى المفعول به جاز أن ينتصب على المعنيين جميعاً ، فإنهما متلازمان ، تقول : قلت قولاً حسناً وقد أسمعته قولاً ، ولم يسمع الفعل الذي هو مسمى المصدر ، وإنما سمع الصوت .

وتقول : قال يقول قولاً فتجعله مصدراً ، والصوت نفسه ليس هو مسمى المصدر ، وإنما مسمى المصدر الفعل المستلزم للصوت ، ولكن هما متلازمان ولهذا تنازع أهل السنة والحديث في التلاوة والقرآن هل هي القرآن المتلو أم لا ؟

---

(١) سورة نوح آية رقم ١٧ .

(٣) سورة يوسف آية رقم ٣ وتكملة الآية ﴿ بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ .

وقد تفطن ابن قتيبة [1] وغيره لما يناسب هذا المعنى وتكلم عليه .

وسبب الاشتباه أن المتلو هو القرآن نفسه الذي هو الكلام والتلاوة قد يراد بها هذا وقد يراد بها نفس حركة التالي وفعله وقد يراد بها الأمران جميعاً .

فمن قال : التلاوة هي المتلو أراد بالتلاوة نفس القرآن المسموع وذلك هو المتلو ومن قال غيره أراد بالتلاوة حركة العبد وفعله ، وتلك ليست هي القرآن ومن نهى عن أن يقال : التلاوة هي المتلو أو غير المتلو ؛ فلأن لفظ التلاوة يجمع الأمرين كما نهى الامام أحمد وغيره عن أن يقال : لفظي بالقرآن مخلوق أو غير مخلوق [2] ؛ لأن اللفظ يراد به الملفوظ نفسه الذي هو كلام الله ، ويراد به مصدر لفظ يلفظ لفظاً وهو فعل العبد وأطلق قوم من أهل الحديث أن لفظي بالقرآن غير مخلوق ، وأطلق ناس آخرون أن لفظي به مخلوق .

قال ابن قتيبة : لم يتنازع أهل الحديث في شيء من أقوالهم إلا في مسألة اللفظ ، وهذا كان تنازع أهل الحديث والسنة ، الذين كانوا في زمن أحمد بن حنبل ، وأصحابه الذين أدركوه ثم جاء بعد هؤلاء طائفة قالوا : التلاوة غير المتلو ، وأرادوا بالتلاوة نفس كلام الله العربي الذي هو القرآن ، وأرادوا بالمتلو معنى واحداً قائماً بذات الله .

وقال آخرون : التلاوة هي المتلو ، وأرادوا بالتلاوة نفس الأصوات المسموعة من القرآن ، جعلوا ما سمع من الأصوات هو نفس الكلام الذي ليس بمخلوق ، ولم يميزوا بين سماع الكلام من المتكلم ، وبين سماعه من

---

(١) هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري - سبق الترجمة له في كلمة وافية - وتوفي عام ٢٧٦ هـ [وراجع وفيات الأعيان ١ : ٢٥١ والأنباري ٢٧٢ ولسان الميزان ٣ : ٣٥٧ وآداب اللغة ٢ : ١٧٠ ودائرة المعارف الاسلامية ١ : ٢٦٠] .

(٢) راجع ما كتبه الامام البخاري في كتابه (خلق أفعال العباد) عند حديثه عن هذه الجملة . بتحقيقنا وتعليقنا عليه . طبع دار عكاظ بجدة .

المبلغ له عنه ، فزاد كل من هؤلاء وهؤلاء من البدع ما لم يكن يقوله أحد من أهـل السنة والعلم ، فلم يكن من أهـل السنة من يقـول : إن القـرآن العـربي ليس هو كلام الله ، ولا يجعـل المتلو مجرد معنى ، ولا كـان فيهم من يقول : إن أصـوات العبـاد ـ وغيـرهـا من خصـائصهم ـ غيـر مخلوق ، بـل هم كلهم متفقون على أن القرآن المتلو هو القرآن العربي الذي نزله روح القدس من الله بالحق ، وهو كلام الله الذي تكلم له ، ولكن تنازعـوا في تلاوة العبـاد له هـل هي القرآن نفسه ، أم هي الفعل الذي يقرأ به القرآن ؟

والتحقيق أن لفظ « التلاوة » يراد به هذا وهذا ولفظ ﴿ **القرآن** ﴾ يـراد به المصدر ، ويراد به الكلام قـال الله تعالى ﴿ **إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ** ﴾ (١) .

وفي الصحيحين عن ابن عبـاس قال : إن علينـا أن نجمعه في قلبـك ، وتقرأه بلسانك (٢) .

وقـال أهل العـربية : يقـال قـرأت الكتـاب قـراءة وقـرآنـاً ، ومنـه قـول حسان (٣) :

ضحّـوا بـاشمط عنـوان السجـود بـه   يقــطع الليــل تـسبـيحــاً وقــرآنــا

وقـد قـال تعـالى ﴿ **فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ** ﴾ (٤) .

---

(١) سورة القيامة آية رقم ١٧ ـ ١٩ .

(٢) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب التفسير ٢ باب ﴿ **فإذا قرأناه** ﴾ قال ابن عباس : قرأناه : بيناه ، فاتبع : اعمل به **٤٩٢٩** حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا جرير ، عن موسى بن أبي عائشة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله : وذكره .

(٣) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٤) سورة النحل آية رقم ٩٨ .

وقال تعالى ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً ﴾ [1] وقال تعالى ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا ﴾ [2] وهم إنما يستمعون الكلام نفسه ، ولا يستمعون مسمى المصدر الذي هو الفعل ، فإن ذلك لا يسمع فقوله ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ [3] من هذا الباب ، من باب نقرأ عليك أحسن القصص كما قال تعالى ﴿ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ ﴾ [4] .

وقال ﴿ فإذا قرأناه ﴾ قال ابن عباس : أي قرأه جبريل ﴿ فاتبع قرآنه ﴾ فاستمع له حتى يقضي قراءته .

والمشهور في قوله ﴿ وإذا قرأت القرآن ﴾ أنه منصوب على المفعول به ، فكذلك أحسن القصص ، لكن في كلاهما معنى المصدر أيضاً كما تقدم ، ففيه معنى المفعول به ، ومعنى المصدر جميعاً ، وقد يغلب هذا كما في قوله ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ [5] .

فالمراد هنا نفس مسمى المصدر ، وقد يغلب هذا تارة كما في قوله ﴿ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا ﴾ [6] . وقوله ﴿ قُل لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هذا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ [7] وقوله ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [8] وغالب ما يذكر لفظ ﴿ القرآن ﴾ إنما يراد به نفس الكلام ، لا

---

(١) سورة الاسراء آية رقم ٤٥ .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ٢٠٤ .

(٣) سورة يوسف آية رقم ٣ .

(٤) سورة القصص آية رقم ٣ وتكملة الآية ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ .

(٥) سورة القيامة آية رقم ١٧ .

(٦) سورة الأعراف آية رقم ٢٠٤ .

(٧) سورة الاسراء آية رقم ٨٨ .

(٨) سورة الاسراء آية رقم ٩ وتكملة الآية ﴿ ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ﴾ .

يراد به التكلم بالكلام الذي هو مسمى المصدر .

ومثل هذا كثير في اللغة يكون أمران متلازمان إما دائماً ، وإما غالباً، فيطلق الاسم عليهما ويغلب هذا تارة ، وهذا تارة ، وقد يقع على أحدهما مفرداً كلفظ « النهر » و« القرية » و« الميزاب » ونحو ذلك مما فيه حال ومحل فالاسم يتناول مجرى الماء والماء الجاري ، وكذلك لفظ القرية يتناول المساكن والسكان ، ثم تقول : حفر النهر فالمراد به المجرى ، وتقول : جرى النهر فالمراد به الماء ، وتقول جرى الميزاب ، تعني الماء ونصب الميزاب ، تعني الخشب ، وقال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ الله مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيها رِزْقُهَا رَغَداً مِن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ الله فَأَذَاقَهَا الله لِبَاسَ الجُوعِ ﴾ [1] والمراد السكان في المكان وقال تعالى ﴿ وَكَم مِن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ [2] وقال تعالى ﴿ وَاسأَلِ القَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ [3] .

وقال تعالى ﴿ وَتِلْكَ القُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ﴾ [4] وقال تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إذَا أَخَذَ القُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ [5] .

وقال تعالى ﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ القُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [6] وقال تعالى ﴿ فَكَأَيِّنْ مِن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ

---

(١) سورة النحل آية رقم ١١٢ وتكملة الآية ﴿ والخوف بما كانوا يصنعون ﴾ .
(٢) سورة الأعراف آية رقم ٤ .
(٣) سورة يوسف آية رقم ٨٢ .
(٤) سورة الكهف آية رقم ٥٩ .
(٥) سورة هود آية رقم ١٠٢ .
(٦) سورة الأنعام آية رقم ٩٢ وقد جاءت الآية في المطبوعة محرفة حيث قال :« لتنذر » بدون (الواو) .

مَشِيدٍ ﴾ [1] .

والخاوي على عروشه المكان لا السكان وقال تعالى ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ [2] لما كان المقصود بالقرية هم السكان كان إرادتهم أكثر في كتاب الله وكذلك لفظ النهر لما كان المقصود هو الماء كان إرادته أكثر كقوله ﴿ وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ ﴾ [3] .

وقوله ﴿ وَفَجَّرْنَا خِلاَلَهُمَا نَهَراً ﴾ [4] فهذا كثير أكثر من قولهم حفرنا النهر .

وكذلك إطلاق لفظ القرآن على نفس الكلام أكثر من إطلاق على نفس التكلم وكذلك لفظ الكلام والقول والقصص وسائر أنواع الكلام يراد بها نفس الكلام أكثر مما يراد بها فعل المتكلم ، وهذه الأمور لبسطها موضع آخر .

والمقصود هنا أن قوله تعالى ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ [5] المراد الكلام الذي هو أحسن القصص ، وهو عام في كل ما قصه الله لم بخص به سورة يوسف ولهذا قال ﴿ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـٰذَا الْقُرْآنَ ﴾ [6] ولم يقل : بما أوحينا إليك هذه السورة ، والآثار المأثورة في ذلك عن السلف تدل كلها على ذلك وعلى أنهم كانوا يعتقدون أن القرآن أفضل من سائر الكتب ، وهو المراد . والمراد من هذا حاصل على كل تقدير ، فسواء كان أحسن القصص مصدراً ، أو مفعولاً أو جامعاً للأمرين فهو يدل على أن القرآن وما في القرآن من القصص أحسن من غيره ، فإنا قد ذكرنا أنهم متلازمان فأيهما كان

---

(١) سورة الحج آية رقم ٤٥ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٥٩ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ٦ وتكملة الآية ﴿ فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ﴾ .

(٤) سورة الكهف آية رقم ٣٣

(٥) سورة يوسف آية رقم ٣ .

(٦) سورة يوسف آية رقم ٣ وتكملة الآية ﴿ وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ .

أحسن كـان الآخـر أحسن ، فتبين أن قـولـه تعـالى ﴿ أَحْسَنَ القَصَصِ ﴾ [1] كقوله ﴿ الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ ﴾ [2] ، والآثار السلفية تدل على ذلك.

والسلف كانوا مقرين بأن القرآن أحسن الحديث وأحسن القصص ، كما أنـه المهيمن على ما بين يـديه من كتب السمـاء ، فكيف يقال : إن كـلام الله كله لا فضل لبعضه على بعض .

روى ابن أبي حـاتم عن المسعودي عن القـاسم أن أصحاب رسـول الله ﷺ ملوا ملة فقالوا حدثنا يا رسول الله ، فأنزل الله ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ ﴾ [3] .

ثم ملوا ملة فقـالوا : حـدثنا يـا رسـول الله ، فنـزلت ﴿ اللهُ نَـزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ ﴾ [4] .

ثم ملوا ملة فقالوا : حدثنا يـا رسول الله ، فـأنزل الله ﴿ أَلَمْ يَـأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ الله وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ ﴾ [5] .

وقد روى أبو عبيد [6] من « فضائـل القرآن » عن بعض التـابعين فقال : حدثنا حجاج عن المسعودي عن عون بن عبد الله بن عتبة قال : مل أصحاب رسـول الله ﷺ ملة فقالـوا : يا رسـول الله : حدثنـا ، فأنـزل الله : ﴿ الله نَزَّلَ

---

(١) سورة يوسف آية رقم ٣ .

(٢) سورة الزمر آية رقم ٢٣ وتكملة الآية ﴿ كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الـذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هادٍ ﴾ .

(٣) سورة يوسف آية رقم ٣ .

(٤) سورة الزمر آية رقم ٢٣ .

(٥) سورة الحديد آية رقم ١٦ وتكملة الآية ﴿ ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ﴾ .

(٦) سبق الترجمة له في كلمة وافية في الأجزاء السابقة .

أَحْسَنَ الحَدِيثِ ﴾ [1] .

قال: ثم نعته فقال: **﴿كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ﴾** [2] إلى آخر الآية ، قال ، ثم ملوا ملة أخرى فقالوا : يا رسول الله ، حدثنا شيئا فوق الحديث ، ودون القرآن ، يعنون القصص ، فأنزل الله : **﴿ الَر . تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ المُبِينِ -** إلى قوله - **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا القُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الغَافِلِينَ ﴾** [3] قال : فإن أرادوا الحديث دلهم على أحسن الحديث ، وإن أرادوا القصص دلهم على أحسن القصص .

ورواه ابن أبي حاتم بإسناد حسن مرفوعاً عن مصعب بن سعد عن سعد قال : نزل على رسول الله ﷺ القرآن ، فتلاه عليهم زماناً فقالوا : يا رسول الله ، لو قصصت علينا ، فأنزل الله تعالى **﴿ الر ، تلك آيات الكتاب المبين ، نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾** فتلاه عليهم زماناً ولما كان القرآن أحسن الكلام نهوا عن اتباع ما سواه ، قال تعالى **﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾** [4] وروى النسائي وغيره عن النبي ﷺ أنه رأى بيد عمر ابن الخطاب شيئاً من التوراة فقال : لو كان موسى حياً ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم [5]

وفي رواية ما وسعه إلا اتباعي .

وفي لفظ : فتغير وجه النبي ﷺ لما عرض عليه عمر ذلك ، فقال له بعض الأنصار يا بن الخطاب، ألا ترى إلى وجه رسول الله ﷺ ؟ فقال عمر : رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً ولهذا كان الصحابة ينهون عن

---

(١) سورة الزمر آية رقم ٢٣ .
(٢) سورة الزمر آية رقم ٢٣ .
(٣) سورة يوسف آية رقم ١ - ٣ .
(٤) سورة العنكبوت آية رقم ٥١ .
(٥) سبق تخريج هذا الحديث .

اتباع كتب غير القرآن .

وعمر انتفع بهذا حتى إنه لما فتحت الاسكندرية وجد فيها كتب كثيرة من كتب الروم فكتبوا فيها إلى عمر ، فأمر بها أن تحرق ، وقال : حسبنا كتاب الله .

وروى ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا اسماعيل بن خليل بن قيس عن خالد بن عرفطة قال : كنت عند عمر بن الخطاب ، إذ أتي برجل من عبد القيس مسكنه بالسوس ، فقال له عمر : أنت فلان ابن فلان العبدي ؟

قال : نعم ، قال وأنت النازل بالسوس ؟ قال : نعم ، فضربه بقناة معه ، فقال له : ما ذنبي قال : فقرأ عليه ﴿ الر ، تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ المُبِينِ - إلى قوله - نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا القُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الغَافِلِينَ ﴾ (١) فقرأها عليه ثلاث مرات وضربه ثلاث ضربات ثم قال له عمر : أنت الذي انتسخت كتاب دانيال قال : نعم ، قال : اذهب فامحه بالحميم والصوف الأبيض ، ولا تقرأه ولا تقرئه أحداً من الناس فقرأ عليه عمر هذه الآية ليبين له أن القرآن أحسن القصص فلا يحتاج معه إلى غيره ، وهذا يدل على أن القصص عام لا يختص بسورة يوسف ويدل على أنهم كانوا يعلمون أن القرآن أفضل من كتاب دانيال ونحوه من كتب الأنبياء ، وكذلك مثل هذه القصة مأثورة عن ابن مسعود لما أتى بما كتب من الكتب محاه ، وذكر فضيلة القرآن كما فعل عمر رضي الله عنهما .

وروى ابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ ﴾ (٢) قال : من الكتب الماضية وأمور الله السالفة في الأمم ﴿ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا القُرْآنَ ﴾ (٣)

---

(١) سورة يوسف آية رقم ١ - ٣ .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٣ .

(٣) سورة يوسف آية رقم ٣ .

وهذا يدل على أن أحسن القصص يعم هـذا كله بل لفظ ﴿ **القصص** ﴾ يتناول ما قصه الأنبياء من آيات الله غير أخبار الأمم كقوله تعالى :

﴿ **أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا** ﴾ (1). وقال في موضع آخر ﴿ **يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ** ﴾ (2) وقد قال تعالى ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ** ﴾ (3) .

وروى ابن أبي حاتم بالإسناد المعروف عن ابن عباس قال : مؤتمناً عليه ، قال :

وروي عن عكرمة والحسن وسعيد بن جبير(4) وعطاء الخراساني أنه الأمين .

وروي عن تفسير الوالي عن ابن عباس قال : المهيمن الأمين ، قال : على كل كتاب قبله وكذلك عن الحسن قال : مصدقاً بهذه الكتب وأميناً عليها .

ومن تفسير الوالي أيضاً عن ابن عباس ومهيمناً عليه ، على كل كتاب قبله .

---

(1) سورة الأنعام آية رقم ١٣٠ .

(2) سورة الزمر آية رقم ٧١ .

(3) سورة المائدة آية رقم ٤٨ وتكملة الآية ﴿ **فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون** ﴾ .

(4) هو سعيد بن جبير الأسدي بالولاء الكوفي أبو عبد الله تابعي ، كان أعلمهم على الاطلاق ، وهو حبشي الأصل من موالي بني والبة بن الحارث من بني أسد أخذ العلم عن عبد الله بن عباس وابن عمر ثم كان ابن عباس إذا أتاه أهل الكوفة يستفتونه قال : أتسألونني وفيكم ابن أم دهماء . . .؟ توفي عام ٩٥ هـ [راجع وفيات الأعيان ١ : ٢٠٤ وطبقات ابن سعد ٦ : ١٧٨ وتهذيب التهذيب ٤ : ١١ وحلية الأولياء ٤ : ٢٧٢] .

قال : وروي عن سعيد بن جبير وعكرمة وعطية وعطاء الخراساني ومحمد بن كعب وقتادة والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم نحو ذلك :

وابن أبي حاتم قد ذكر في أول كتابه في التفسير أنه طلب منه إخراج تفسير القرآن مختصراً بأصح الأسانيد ، وأنه تحرى إخراجه بأصح الأخبار اسناداً ، وأشبعها متنا .

وذكر إسناده عن كل من نقل عنه شيئاً .

فالسلف كلهم متفقون على أن القرآن هو المهيمن المؤتمن الشاهد على ما بين يديه من الكتب ومعلوم أن المهيمن على الشيء أعلى منه مرتبة ، ومن أسماء الله « المهيمن » ويسمى الحاكم على الناس القائم بأمورهم « المهيمن » قال المبرد (١) والجوهري (٢) وغيرهما : المهيمن في اللغة المؤتمن ، وقال الخليل (٣) : الرقيب الحافظ .

وقال الخطابي (٤) : المهيمن الشهيد .

قال : وقال بعض أهل اللغة : الهيمنة القيام على الشيء والرعاية له ، وأنشد :

ألا إن خير الناس بعد نبيهم مهيمنه التالية في العرف والنكر

يريد القائم على الناس بالرعاية لهم ، وفي مهيمن قولان : قيل : أصله مؤيمن ، والهاء مبدلة من الهمزة ، وقيل : بل الهاء أصلية .

وهكذا القرآن فإنه قرر ما في الكتب المتقدمة من الخبر عن الله وعن اليوم الآخر ، وزاد ذلك بياناً وتفصيلاً وبين الأدلة والبراهين على ذلك ، وقرر نبوة الأنبياء كلهم ، ورسالة المرسلين ، وقرر الشرائع الكلية التي بعثت بها

---

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .
(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية .
(٣) سبق الترجمة له في كلمة وافية .
(٤) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

الرسل كلهم ، وجادل المكذبين بالكتب والرسل بأنواع الحجج والبراهين ، وبين عقوبات الله لهم ونصره لأهل الكتب المتبعين لها ، وبين ما حرف منها وبدل ، وما فعله أهل الكتاب في الكتب المتقدمة . وبين أيضاً ما كتموه مما أمر الله ببيانه ، وكل ما جاءت به النبوات بأحسن الشرائع والمناهج التي نزل بها القرآن فصارت له الهيمنة على ما بين يديه من الكتب من وجوه متعددة فهو شاهد بصدقها ، وشاهد بكذب ما حرف منها ، وهو حاكم بإقرار ما أقره الله ، ونسخ ما نسخه ، فهو شاهد في الخبريات حاكم في الأمريات .

وكذلك معنى الشهادة ، والحكم ، يتضمن إثبات ما أثبته الله من صدق ومحكم ، وإبطال ما أبطله من كذب ومنسوخ وليس الإنجيل مع التوراة ولا الزبور بهذه المثابة بل هي متبعة لشريعة التوراة إلا يسيراً نسخه الله بالإنجيل ، بخلاف القرآن ، ثم إنه معجز في نفسه لا يقدر الخلائق أن يأتوا بمثله ، ففيه دعوة الرسول وهو آية الرسول وبرهانه على صدقه ونبوته .

وفيه ما جاء به الرسول وهو نفسه برهان على ما جاء به وفيه أيضاً : من ضرب الأمثال ، وبيان الآيات على تفضيل ما جاء به الرسول ما لو جمع إليه علوم جميع العلماء لم يكن ما عندهم إلا بعض ما في القرآن ، ومن تأمل ما تكلم به الأولون والآخرون في أصول الدين والعلوم الالهية ، وأمر المعاد والنبوات والأخلاق . والسياسات والعبادات وسائر ما فيه كمال النفوس وصلاحها وسعادتها ونجاتها لم يجد عند الأولين والآخرين من أهل النبوات ومن أهل الرأي كالمتفلسفة وغيرهم إلا بعض ما جاء به القرآن .

ولهذا لم تحتج الأمة مع رسولها وكتابها إلى نبي آخر وكتاب آخر فضلاً عن أن تحتاج إلى شيء لا يستقل بنفسه غيره ، سواء كان من علم المحدثين والملهمين أو من علم أرباب النظر والقياس الذين لا يعتصمون مع ذلك بكتاب منزل من السماء ، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح « إنه كان في الأمم قبلكم محدثون ، فإن يكن في أمتي أحد فعمر »[1] .

(١) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب فضائل الصحابة ٦ باب مناقب عمر بن الخطاب أبي =

فعلق ذلك تعليقاً في أمته مع جزمه به فيمن تقدم ، لأن الأمم قبلنا كانوا محتاجين إلى المحدثين ، كما كانوا محتاجين إلى نبي بعد نبي ، وأما أمة محمد ﷺ فأغناهم الله برسولهم وكتابهم عن كل ما سواه ، حتى أن المحدث منهم كعمر بن الخطاب رضي الله عنه إنما يؤخذ منه ما وافق الكتاب والسنة ، وإذا حدث شيئاً في قلبه لم يكن له أن يقبله حتى يعرضه على الكتاب والسنة ، وكذلك لا يقبله إلا إن وافق الكتاب والسنة ، وهذا باب واسع في فضائل القرآن على ما سواه .

والمقصود أن نبين أن مثل هذا هو من العلم المستقر في نفوس الأمة السابقين والتابعين ، ولم يعرف قط أحد من السلف رد مثل هذا ، ولا قال : لا يكون كلام الله بعضه أشرف من بعض ، فإنه كله من صفات الله ونحو ذلك. إنه حدث هذا الإنكار لما ظهرت بدع الجهمية الذين اختلفوا في الكتاب وجعلوه عضين .

وممن ذكر تفضيل بعض القرآن على بعض في نفس أصحاب الشافعي وأحمد وغيرهما كالشيخ أبي حامد الاسفرائيني [١] والقاضي أبي الطيب [٢] وأبي اسحاق الشيرازي [٣] وغيرهم ، ومثل القاضي أبي يعلى والحلواني الكبير وابنه عبد الرحمن وابن عقيل [٤] ، قال أبو الوفاء بن عقيل في « كتاب الواضح في أصول الفقه » في احتجاجه على أن القرآن لا ينسخ بالسنة قال :

= حفص القرشي العدوي ـ رضي الله عنه .

٣٦٨٩ ـ حدثنا يحيى بن قزعة ، حدثنا ابراهيم بن سعد عن أبيه عن أبي سلمة عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ ، قال رسول الله ـ ﷺ ـ وذكره .

زاد زكريا بن أبي زائدة عن سعد عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ ـ لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن في أمتي منهم أحد فعمر .

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٣) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٤) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

فمن ذلك قوله : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ (١) وليست السنة مثل القرآن ولا خيراً منه ، فبطل النسخ بها ، لأنه يؤدي إلى المحال ، وهو كون خبره بخلاف مخبره ، وذلك محال على الله ، فما أدى إليه فهو محال قال : فإن قيل : أصل استدلالكم مبني على أن المراد بالخير الفضل ، وليس المراد به ذلك ، وإنما المراد نأت بخير منها لكم ، وذلك يرجع إلى أحد أمرين في حقنا ، إما سهولة في التكليف فهو خير عاجل أو أكثر ثواباً لكونه أثقل وأشق ، ويكون نفعاً في الآجل ، والعاقبة ، وكلاهما قد يتحقق بطريق السنة ويحتمل : نأت بخير منها لا ناسخاً لها ، بل يكون تكليفاً مبتدأ هو خير لكم ، وإن لم يكن طريقه القرآن الناسخ ، ولا السنة الناسخة ، قالوا : يوضح هذه التأويلات أن القرآن نفسه ليس بعضه خيراً من بعض ، فلا بد أن يصرفوا اللفظ عن ظاهره من خير يعود إلى التكليف لا إلى الطريق .

وقالوا في الجواب: قولهم: الخير يرجع إلى ما يخصنا من سهولة، أو ثواب لا يصح لأنه لو أراد ذلك لقال : « لكم » فلما حذف ذلك دل على ما يقتضيه الإطلاق وهو كون الناسخ خيراً من جهة نفسه وذاته ، ومن جهة الانتفاع به في العاجل والآجل على أن ظاهره يقتضي بآيات خير منها ، فإن ذلك يعود إلى الجنس ، كما إذا قال القائل : ما آخذ منك ديناراً إلا أعطيك خيراً منه ، لا يعقل بالإطلاق إلا ديناراً خيراً منه ، فيتخير من الجنس أولاً ، ثم النفع ، فأما أن يرجع ذلك إلى ثوب أو عرض غير الدينار فلا ، وفي آخر الآية ما يشهد بأنه أراد به القرآن لأنه قال : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢) ووصفه لنفسه بالقدرة يدل على أن الذي يأتي به هو أمر يرجع إليه دون غيره وكذلك قوله ﴿ أو مثلها ﴾ يشهد لما ذكرناه ، لأن المماثلة يقتضي إطلاقها من كل وجه ، لا سيما وقد أنثها تأنيث الآية ، فكأنه قال : نأت بآية خير منها أو بآية مثلها (٣) .

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٠٦ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٠٦ وصدر الآية ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ﴾ .

(٣) هكذا جاءت في الأصل على هذا التأويل والتخريج .

« قلت » وأيضاً فلا يجوز أن يراد بالخير من جهة كونه أخف عملاً أو أشق وأكثر ثواباً ، لأن هذين الوصفين ثابتان لكل ما أمر الله به مبتدأ وناسخاً ، فإنه إما أن يكون أيسر من غيره في الدنيا ، وإما أن يكون أشق فيكون ثوابه أكثر فإذا كانت هذه الصفة لازمة لجميع الأحكام لم يحسن أن يقال : ما ننسخ من حكم نأت بخير منه أو مثله ، فإن المنسوخ أيضاً يكون خيراً ومثلاً بهذا الاعتبار ، فإنهم إن فسروا الخير بكونه أسهل فقد يكون المنسوخ أسهل فيكون خيراً ، وإن فسروه بكونه أعظم أجراً لمشقته فقد يكون المنسوخ كذلك ، والله قد أخبر أنه لا بد أن يأتي بخير مما ينسخه أو مثله ، فلا يأتي بما هو دونه .

وأيضاً فعلى ما قالوه لا يكون شيء خيراً من شيء بل إن كان خيراً من جهة السهولة فذلك خير من جهة كثرة الأجر .

قال ابن عقيل : وأما قولهم إن القرآن في نفسه لا يتخاير ولا يتفاضل فعلم أنه لم يرد به الخير الذي هو الأفضلية ، فليس كذلك ، فإن توحيد الله الذي في « سورة الإخلاص » وما ضمنها من نفي التجزي والانقسام أفضل من ﴿ تبت ﴾ المتضمنة ذم أبي لهب وذم زوجته ، إن شئت في كون المدح أفضل من القدح وإن شئت في الإعجاز ، فإن تلاوة غيرها من الآيات التي تظهر منها الفصاحة والبيان أفضل ، وليس من حيث كان المتكلم واحداً لا يكون التفاضل لمعنى يعود إلى الكلام ثانياً كما أن المرسل واحد لذي النون وابراهيم وابراهيم أفضل من ذي النون .

قال : وأما قولهم ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا ﴾ [1] لا يكون ناسخاً ، بل مبتدأ فلا يصح ؛ لأنه خرج مخرج الجزاء مجزوماً ، وهذا يعطي البدلية والمقابلة مثل قولهم : إن تكرمني أكرمك ، وإن أطعتني أطعتك ، يقتضي أن يكون الجزاء مقابلة وبدلاً لا فعلاً مبتدأ .

قلت : المقصود هنا ذكر ما نصره ـ من كون القرآن في نفسه بعضه خيراً

(١) سورة البقرة آية رقم ١٠٦ .

من بعض ـ ليس المقصود الكلام في مسألة النسخ ، وكذلك غير هؤلاء صرحوا بأن بعض القرآن قد يكون خيراً من بعض وممن ذكر ذلك أبو حامد الغزالي في كتابه « جواهر القرآن » قال : لعلك تقول : قد توجه قصدك في هذه التنبيهات إلى تفضيل بعض آيات القرآن على بعض ، والكل كلام الله ، فكيف يفارق بعضها بعضاً ، وكيف يكون بعضها أشرف من بعض ؟

فاعلم أن نور البصيرة إن كان لا يرشدك إلى الفرق بين آية الكرسي ، وآية المداينات ، وبين سورة الإخلاص ، وسورة تبت ، وترتاع من اعتقاد الفرق نفسك الخوارة المستغرقة في التقليد فقلد صاحب الشرع صلوات الله وسلامه عليه ، فهو الذي أنزل عليه القرآن ، وقال : « قلب القرآن يس » وقد دلت الأخبار على شرفه بعضه على بعض فقال : « فاتحة الكتاب أفضل سور القرآن » .

وقال : « آية الكرسي سيدة آي القرآن »

وقال « قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن والأخبار الواردة في فضائل قوارع القرآن وتخصص بعض السور والآيات بالفضل ، وكثرة الثواب في تلاوتها لا تحصى ، فاطلبه من كتب الحديث إن أردت ، وننبهك الآن على معنى هذه الأخبار الأربعة في تفضيل هذه السور .

قلت : وسنذكر إن شاء الله ما ذكره في تفضيل ﴿ قل هو الله أحد ﴾ وممن ذكر كلام الناس في ذلك ، وحكى هذا القول عمن حكاه من السلف القاضي عياض [1] في « شرح مسلم » قال في قول النبي ﷺ لأبي : أتدري أي آية من كتاب الله أعظم ؟

وذكر آية الكرسي : فيه حجة لتفضيل بعض القرآن على بعض ،

---

(1) هو عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي أبو الفضل توفي عام ٥٤٤ هـ وسبق الترجمة له . [وراجع وفيات الأعيان ١ : ٣٩٢ وقضاة الأندلس ١٠١ والفهرس التمهيدي ٣٦٨ وبغية الملتمس ٤٢٥ ومفتاح السعادة ٢ : ١٩] .

وتفضيل القرآن على سائر كتب الله عند من اختاره ، منهم اسحاق بن راهويه [1] وغيره من العلماء والمتكلمين ، قال : وذلك راجع إلى عظم أجر قارئي ذلك وجزيل ثوابه على بعضه أكثر من سائره قال: وهذا مما اختلف أهل العلم فيه ، فأبى ذلك الأشعري ، وابن [2] الباقلاني وجماعة من الفقهاء وأهل العلم لأن مقتضى الأفضل نقص المفضول عنه ، وكلام الله لا يتبعض قالوا : وما ورد من ذلك بقوله ، أفضل وأعظم لبعض الأي والسور ، فمعناه : عظيم وفاضل قال : وقيل : كانت آية الكرسي أعظم لأنها جمعت أصول الأسماء والصفات من الالهية والحياة والوحدانية والعلم والملك والقدرة والارادة ، وهذه السبعة ، قالوا : هي أصول الأسماء والصفات قلت : المقصود ما ذكره من كلام العلماء ، وأما قول القائل إن هذه السبعة هي أصول الأسماء فهذه السبعة عند كثير من المتكلمين هي المعروفة بالعقل وما سواها قالوا إنما يعلم بالسمع ، وهذا أمر يرجع إلى طريق علمنا لا إلى أمر حقيقي ثابت لها في نفس الأمر ، فكيف والجمهور على أن ما سواها قد يعلم بالعقل أيضاً كالمحبة والرضا ، والأمر والنهي ؟!

ومذهب ابن كلاب ، وأكثر قدماء الصفاتية أن العلو من الصفات العقلية ، وهو مذهب أبي العباس القلانسي [3] ، والحارث المحاسبي [4] ،

---

(١) هو اسحاق بن ابراهيم بن مخلد الحنظلي التميمي المروزي ، أبو يعقوب بن راهويه ولد عام ١٦١ هـ وتوفي عام ٢٣٨ وسبق الترجمة له . [راجع تهذيب ابن عساكر ٢ : ٤٠٩ وتهذيب التهذيب ١ : ٢١٦ وميزان الاعتدال ١ : ٨٥] .

(٢) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر ، أبو بكر : قاض من كبار علماء الكلام توفي عام ٤٠٣ هـ سبق الترجمة له .[وراجع وفيات الأعيان ١ : ٤٨١ وقضاة الأندلس ٣٧ - ٤٠ وتاريخ بغداد ٥ : ٣٧٩ ودائرة المعارف الاسلامية ٣ : ٢٩٤] .

(٣) هو محمد بن الحسين بن بندار القلانسي الواسطي : مقرىء العراق في عصره ولد عام ٤٣٥ - وتوفي عام ٥٢١ هـ بواسط من كتبه : إرشاد المبتدي ، وتذكرة المنتهي - ورسالة في القراءات ، والكفاية الكبرى في القراءات . [راجع غاية النهاية ٢ : ١٢٨ والوافي بالوفيات ٣ : ٤] .

(٤) هو الحارث بن أسد المحاسبي ، أبو عبد الله ، من أكابر الصوفية كان عالماً بالأصول والمعاملات ، واعظاً مبكياً وله تصانيف توفي عام ٣٤٣ هـ وسبق الترجمة له . [وراجع طبقات

ومذهب طوائف من أهل الكلام والحديث والفقه . وهو آخر قولي القاضي أبي يعلى ، وأبي الحسن بن الزاغوني وغيره ، ومذهب ابن كرام وأصحابه ، وهو قول عامة أئمة الحديث والفقه والتصوف.

وكذلك ما فسره القاضي عياض من قول المفضلين إن المراد كثير الثواب ، فهذا لا ينازع فيه الأشعري وابن الباقلاني ، فإن الثواب مخلوق من مخلوقات الله تعالى فلا ينازع أحد من أن بعضه أفضل من بعض، وإنما النزاع في نفس كلام الله الذي هو كلامه ، فحكايته النزاع يناقض ما فسر به قول المثبتة ، وقد بين مأخذ الممتنعين عن التفضيل :

منهم من نفى التفاضل في الصفات مطلقاً ، بناء على أن القديم لا يتفاضل ، والقرآن من الصفات ومنهم من خص القرآن بأنه واحد على أصله ، فلا يعقل فيه معنيان فضلاً أن يعقل فيه فاضل ومفضول وهذا أصل أبي الحسن(1) ، ومن وافقه كما سنبينه إن شاء الله تعالى .

وهؤلاء الذين ذكرنا أقوالهم في أن كلام الله يكون بعضه أفضل من بعض ، ليس فيهم أحد من القائلين بأن كلام الله مخلوق ـ كما يقول ذلك من يقوله من أهل البدع كالجهمية والمعتزلة ـ بل كل هؤلاء يقولون : إن كلام الله غير مخلوق ، ولو تتبع ذكر من قال ذلك لكثروا ، فإن هذا قول جماهير

= الصوفية ، وتهذيب التهذيب ٢ : ١٣٤ وابن الوردي ١ : ٢٢٧ وصفة الصفوة ٢ : ٢٠٧ وميزان الاعتدال ١ : ١٩٩ وحلية الأولياء ١٠ : ٧٣]

(1) هو علي بن اسماعيل بن إسحاق ، أبو الحسن ، من نسل الصحابي أبي موسى الأشعري ، مؤسس مذهب الأشاعرة ، كان من الأئمة المتكلمين المجتهدين ، ولد في البصرة عام ٢٦٠ هـ وتلقى مذهب المعتزلة وتقدم فيهم ، ثم رجع وجاهر بخلافهم ، وتوفي ببغداد عام ٣٢٤ هـ من مصنفاته: «مقالات الاسلاميين » و« الإبانة عن أصول الديانة ومقالات الملحدين وغير ذلك كثير» . [راجع طبقات الشافعية ٢ : ٢٤٥ وابن خلكان ١ : ٣٢٦ والبداية والنهاية ١١ : ١٨٧ ودائر المعارف الاسلامية ٢ : ٢١٨] .

المسلمين من السلف والخلف ، أهل السنة وأهل البدعة ، أما السلف ـ كالصحابة والتابعين لهم بإحسان ـ فلم يعرف لهم في هذا الأصل تنازع ، بل الآثار متواترة عنهم به واشتهر القول بإنكار تفاضله بعد المائتين لما أظهرت الجهمية القول بأن القرآن مخلوق واتفق أئمة السنة ، وجماهير الأمة على إنكار ذلك ، ورده عليهم ، وظنت طائفة كثيرة ـ مثل أبي محمد بن كلاب [١] ومن وافقه ـ أن هذا القول لا يمكن رده ، إلا إذا قيل إن الله لم يتكلم بمشيئته وقدرته ، ولا كلم موسى حين أتاه ولا قال للملائكة اسجدوا لآدم [٢] بعد أن خلقه ، ولا يغضب على أحد بعد أن يكفر به ولا يرضى عنه بعد أن يطيعه ، ولا يحبه بعد أن يتقرب إليه بالنوافل [٣] ، ولا يتكلم بكلام بعد كلام ، فتكون كلماته لا نهاية لها ، إلى غير ذلك مما ظنوا انتفاءه عن الله ، وقالوا إنما يمكن مخالفة هؤلاء إذا قيل بأن القرآن وغيره من الكلام لازم لذات الله تعالى لم يزل ولا يزال يتكلم بكل كلام له كقوله : يا آدم [٤] ، يا نوح [٥] ، وصاروا طائفتين طائفة تقول : إنه معنى واحد قائم بذاته وطائفة تقول : إنه حروف أو حروف وأصوات مقترن بعضها ببعض أزلاً وأبداً ، وإن كانت مترتبة في ترتباً ذاتياً لا ترتباً وجودياً كما قد بين مقالات الناس في كلام الله في غير هذا الموضع ، والأولون عندهم كلام الله شيء واحد لا بعض له ، فضلاً عن أن يقال : بعضه أفضل من بعض ، والآخرون يقولون هو قديم لازم لذاته ، والقديم لا يتفاضل وربما نقل عن بعض السلف في قوله تعالى : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ

---

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية فليرجع إليها في الجزء الأول .

(٢) يقصد قول الله تعالى : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴾ سورة البقرة آية رقم ٣٤ .

(٣) يقصد الحديث القدسي : ما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته . . الخ .

(٤) وهي كثيرة منها قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم اني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ .

(٥)، وهي كثيرة في القرآن منها في سورة هود :﴿يا نوح أهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن

مِنْهَا ﴾ (1) أنه قال : خير لكم منها أو أنفع لكم ، فيظن الظان أن ذلك القائل موافق لهؤلاء ، وليس كذلك ، بل مقصوده بيان وجه كونه خيراً ، وهو أن يكون أنفع للعباد ، فإن ما كان أكثر من الكلام نفعاً للعباد كان في نفسه أفضل ، كما بين في موضعه وصار من سلك مسلك الكلابية من متأخري أصحاب أحمد ومالك والشافعي وغيرهم يظنون أن القول بتفاضل كلام الله بعضه على بعض إنما يمكن على قول المعتزلة ونحوهم الذين يقولون إنه مخلوق ، فإن القائلين بأنه مخلوق يرون فضل بعضه على بعض ، فضل مخلوق على مخلوق ، وتفضيل بعض المخلوقات على بعض لا ينكره أحد ، فإذا ظن أولئك أن القول بتفضيل بعض كلام الله على بعض مستلزم لكون القرآن مخلوقاً ، فروا من ذلك وأنكروا القول به لأجل ما ظنوه من التلازم وليس الأمر كما ظنوه ، بل سلف الأمة وجمهورها يقولون : إن القرآن كلام الله غير مخلوق وكذلك سائر كلام الله غير مخلوق ، ويقولون مع ذلك : إن كلام الله بعضه أفضل من بعض كما نطق بذلك الكتاب والسنة ، وآثار الصحابة والتابعين من غير خلاف يعرف في ذلك عنهم وحدثنا أبي عن جدنا أبي البركات (2) وصاحبه أبي عبد الله بن عبد الوهاب أنهما نظرا فيما ذكره بعض المفسرين من الأقوال في قوله : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ (3) وأظنه كان نظرهم في تفسير أبي عبد الله محمد بن تيمية(4) فلما رأيا تلك الأقوال قالا :

= معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم ﴾ .

(1) سورة البقرة آية رقم ١٠٦ .

(2) سبق الترجمة له في كلمة وافية في الجزء الأول فليرجع إليها .

(3) سورة البقرة آية رقم ١٠٦ .

(4) هو محمد بن الخضر بن علي بن تيمية الحراني الحنبلي أبو عبد الله ، فخر الدين مفسر وخطيب ، واعظ كان شيخ حران وخطيبها ، مولده ووفاته فيها من كتبه « التفسير الكبير عدة مجلدات ، وتخليص المطلب في تلخيص المذهب فقه ، وترغيب القاصد فقه ، وبلغة الساغب فقه ، وشرح الهداية وغير ذلك توفي عام ٦٢٢ هـ [راجع الوافي بالوفيات ٣ : ٣٧] .

هذا إنما يجيء على قول المعتزلة ، وزار مرة أبو عبد الله بن عبد الوهاب [1] هذا لشيخنا أبي زكريا بن الصيرفي [2] وكان مريضاً ، فدعا أبو زكريا بدعاء مأثور عن الإمام أحمد يقول فيه : أسألك ـ بقدرتك التي قدرت بها أن تقول للسموات والأرض ﴿ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾[3] ـ أن تفعل بنا كذا وكذا ، فلما خرج الناس من عنده قال له : ما هذا الدعاء الذي دعوت به ؟ هذا إنما يجيء على قول المعتزلة الذين يقولون القرآن مخلوق ، فأما أهل السنة فلا يقال عندهم قدر أن يتكلم ، أو يقول ، فإن كلامه قديم ، لازم لذاته ، لا يتعلق بمشيئته وقدرته .

وكان أبو عبد الله بن عبد الوهاب رحمه الله قد تلقى هذا عن البحوث التي يذكرها أبو الحسن بن الزاغوني [4] وأمثاله ، وقبله أبو الوفاء بن عقيل [5] وأمثاله وقبلهما القاضي أبو يعلى [6] ونحوه ، فإن هؤلاء وأمثالهم من أصحاب مالك والشافعي ـ كأبي الوليد الباجي [7] وأبي المعالي الجويني [8] ، وطائفة

---

(١) سبق الترجمة له في الجزء الأول .

(٢) هو يحيى بن أبي منصور بن أبي الفتح بن رافع الحراني ، أبو زكريا ، جمال الدين الحبيشي ، ويعرف أيضاً بابن الصيرفي ، فقيه حنبلي ، إمام ، ولد بحران وسافر الى الموصل وبغداد سنة ٦٠٧ هـ ثم استقر بدمشق ، وتوفي بها قال ابن الفخر : أفتى ببغداد ، وحران ، ودمشق ، وله مناقب منها قول الحق ، وإنكار المنكر على أي كان ، وقال الذهبي ، كانت له حلقة بجامع دمشق ، وتخرج به جماعة له مصنفات منها « عقوبات الجرائم » ونوادر المذهب ، وانتهاز الفرص فيمن أفتى بالرخص » توفي عام ٦٧٨ هـ . [راجع طبقات الحنابلة ٢ : ٢٩٥ - ٢٩٧ وشذرات ٥ : ٣٦٣] .

(٣) سورة فصلت آية رقم ١١ .

(٤) هو علي بن عبيد الله بن نصر بن السري أبو الحسن بن الزاغوني ، مؤرخ فقيه توفي عام ٥٢٧ هـ . سبق الترجمة له .

(٥) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٦) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٧) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٨) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

من أصحاب أبي حنيفة يوافقون ابن كلاب على قوله : إن الله لا يتكلم بمشيئته وقدرته ، وعلى قوله : إن القرآن لازم لذات الله بل يظنون أن هذا قول السلف ـ قول أحمد بن حنبل ومالك والشافعي وسائر السلف ـ الذين يقولون القرآن غير مخلوق ، حتى إن من سلك مسلك السليمانية [1] من هؤلاء ـ كالقاضي وابن عقيل ، وابن الزاغوني يصرحون بأن مذهب أحمد أن القرآن قديم ، وأنه حروف وأصوات ، وأحمد بن حنبل وغيره من الأئمة الأربعة لم يقولوا هذا قط ، ولا تناظروا عليه ، ولكنهم وغيرهم من أتباع الأئمة الأربعة لم يعرفوا أقوالهم في بعض المسائل ولكن الذين ظنوا أن قول ابن كلاب وأتباعه هو مذهب السلف ومن أن القرآن غير مخلوق هم الذين صاروا يقولون : إن كلام الله بعضه أفضل إنما يجيء على قول أهل البدع الجهمية والمعتزلة ، كما صار يقول ذلك طوائف من أتباع الأئمة كما سنذكره من أقوال بعض أصحاب مالك والشافعي ولم يعلموا أن السلف لم يقل أحد منهم بهذا ، بل أنكروا على ابن كلاب هذا الأصل ، وأمر أحمد بن حنبل وغيره بهجر الكلابية على هذا الأصل ، حتى هجر الحارث المحاسبي [2] لأنه كان صاحب ابن كلاب ، وكان قد وافقه على هذا الأصل ، ثم روى عنه أنه رجع عن ذلك ، وكان أحمد يحذر من الكلابية ، وكان قد وقع بين أبي بكر بن خزيمة [3] الملقب بإمام الأئمة ، وبين بعض أصحابه مشاجرة على هذا

---

(١) هم أتباع سليمان بن جرير الزيدي الذي قال : إن الامامة شورى وإنها تنعقد بعقد رجلين من خيار الأمة ، وأجاز أمامة المفضول ، وأثبت إمامة أبي بكر وعمر ، وكفر سليمان بن جرير عثمان بالأحداث التي نقمها الناقمون منه ، وأهل السنة يكفرون سليمان بن جرير من أجل أنه كفر عثمان ـ رضي الله عنه . [انظر عن هذه الفرقة مقالات الاسلاميين ١ : ١٣٥ والتبصير ١٧ والملل والنحل للشهرستاني ١ : ١٥٩ والفرق بين الفرق ٣٢] .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية في هذا الجزء .

(٣) هو محمد بن اسحاق بن خزيمة السلمي ، أبو بكر ، إمام نيسابور في عصره كان فقيهاً مجتهداً عالماً بالحديث مولده عام ٢٢٣ هـ بنيسابور ، رحل الى العراق ، والشام ، والجزيرة ، ومصر ، ولقبه السبكي : بإمام الأئمة تزيد مصنفاته على ١٤٠ منها كتاب التوحيد، وإثبات صفات الرب توفي عام ٣١١ هـ [راجع طبقات السبكي ٢ : ١٣٠ وطبقات الحفاظ للسيوطي] .

الأصل ، لأنهم كانوا يقولون بقول ابن كلاب ، وقد ذكر قصتهم الحاكم أبو عبد الله النيسابوري [1] في « تاريخ نيسابور » وبسط الكلام على هذا الأصل له موضع آخر ، وإنما نبهنا على المآخذ التي تعرف بها حقائق الأقوال .

---

(١) هو محمد بن عبد الله بن حمدويه بن نعيم الضبي ، الشهير بالحاكم ويعرف بابن البيع ، أبو عبد الله من أكابر حفاظ الحديث والمصنفين ولد عام ٣٢١ هـ توفي عام ٤٠٥ هـ بنيسابور ، رحل الى العراق سنة ٣٤١ هـ وحج ، وجال في بلاد خراسان وما وراء النهر ، وأخذ من نحو ألفي شيخ ، وولي قضاء نيسابور سنة ٣٥٩ هـ ثم قلد قضاء جرجان من كتبه: المستدرك على الصحيحين ، والاكيل ، والمدخل ، والصحيح في الحديث وغير ذلك كثير . [راجع طبقات السبكي ٣ : ٦٤ والوفيات ١ : ٤٨٤ وميزان الاعتدال ٣ : ٨٥ ولسان الميزان ٥ : ٢٣٢] .

فصل

وبالجملة فدلالة النصوص النبوية والآثار السلفية والأحكام الشرعية ، والحجج العقلية على أن كلام الله بعضه أفضل من بعض هو من الدلالات الظاهرة المشهورة . وأيضاً فإن القرآن ، وإن كان كله كلام الله ، وكذلك التوراة والانجيل والأحاديث الالهية التي يحكيها الرسول عن الله تبارك وتعالى كقوله « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا » [1] الحديث .

وكقوله « من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي » [2] وأمثال ذلك ، هي وإن اشتركت في كونها كلام الله ، فمعلوم أن الكلام له نسبتان ، نسبة إلى المتكلم به ، ونسبة إلى المتكلم فيه ، فهو يتفاضل باعتبار النسبتين ، وباعتبار نفسه أيضاً ، مثل الكلام الخبري له نسبتان ، نسبة إلى المتكلم المخبر ،

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد في المسند ٥ : ١٦٠ حدثني أبي ثنا عبد الرحمن ، وعبد الصمد المعني قالا ، ثنا همام عن قتادة قال عبد الصمد ثنا قتادة عن أبي قلابة عن أبي أسماء ، وقال عبد الصمد الرجي عن أبي ذر عن النبي - ﷺ - وذكره .
وذكره الإمام مسلم في كتاب البر ٥٥ .

(٢) الحديث رواه الإمام مسلم في الذكر ٢ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢١ ورواه الإمام البخاري في كتاب التوحيد ١٥ ، ٤٣، ورواه الترمذي في كتاب الدعوات ١٣١ ، ورواه ابن ماجه في كتاب الأدب ٥٨ باب فضل العمل ٣٨٢٢ - عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - يقول الله سبحانه ، وذكره .
ورواه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٥١، ٤٠٥ ، ٤١٣ ، ٤٥٤ (حلبي)

ونسبة إلى المخبر عنه المتكلم فيه . فـ ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ [1] و ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ [2] كلاهما كلام الله ، وهما مشتركان من هذه الجهة ، لكنهما متفاضلان من جهة المتكلم فيه ، المخبر عنه ، فهذه كلام الله وخبره الذي يخبر به عن نفسه ، وصفته التي يصف بها نفسه ، وكلامه الذي يتكلم به عن نفسه ، وهذه كلام الله الذي يتكلم به عن بعض خلقه ، ويخبر به عنه ويصف به حاله ، وهما في هذه الجهة متفاضلان بحسب تفاضل المعنى المقصود بالكلامين .

ألا ترى أن المخلوق يتكلم بكلام هو كله بكلامه ، لكن كلامه الذي يذكر به ربه أعظم من كلامه الذي يذكر به بعض المخلوقات ، والجميع كلامه ؟

فاشتراك الكلامين بالنسبة إلى المتكلم لا يمنع تفاضلهما بالنسبة إلى المتكلم فيه ، سواء كانت النسبتان أو إحداهما توجب التفضيل أو لا توجبه ، فكلام الأنبياء ثم العلماء ، والخطباء ، والشعراء بعضه أفضل من بعض وإن كان المتكلم واحداً ، وكذلك كلام الملائكة والجن سواء أريد بالكلام المعاني فقط أو الألفاظ فقط أو كلاهما ، أو كل منهما، فلا ريب في تفاضل الألفاظ والمعاني من المتكلم الواحد ، فدل ذلك على أن مجرد اتفاق الكلامين في أن المتكلم بهما واحد لا يوجب تماثلهما من سائر الجهات .

فتفاضل الكلام من جهة المتكلم فيه سواء كان خبراً أو إنشاء ، أمر معلوم بالفطرة والشريعة فليس الخبر المتضمن للحمد لله ، والثناء عليه بأسمائه الحسنى كالخبر المتضمن لذكر أبي لهب وفرعون وإبليس ، وإن كان هذا كلاماً عظيماً معظماً تكلم الله به وكذلك ليس الأمر بالتوحيد والإيمان بالله ورسوله وغير ذلك من أصول الدين الذي أمرت به الشرائع كلها ، وغير ذلك

---

(١) سورة الإخلاص آية رقم ١ .

(٢) سورة المسد آية رقم ١ .

مما يتضمن الأمر بالمأمورات العظيمة ، والنهي عن الشرك ، وقتل النفس والزنا ، ونحو ذلك مما حرمته الشرائع كلها وما يحصل معه فساد عظيم كالأمر بلعق الأصابع وإماطة الأذى عن اللقمة الساقطة ، والنهي عن القران في التمر ، ولو كان الأمران واجبين فليس الأمر بالإيمان بالله ورسوله كالأمر بأخذ الزينة عند كل مسجد ، والأمر بالإنفاق على الحامل ، وايتاءها أجرها إذا أرضعت .

ولهذا ذهب جمهور الفقهاء إلى تفاضل أنواع الإيجاب والتحريم ، وقالوا : إن إيجاب أحد الفعلين قد يكون أبلغ من إيجاب الآخر ، وتحريمه أشد من تحريم الآخر ، فهذا أعظم إيجاباً ، وهذا أعظم تحريماً ولكن طائفة من أهل الكلام نازعوا في ذلك كابن عقيل وغيره فقالوا ، التفاضل ليس في نفس الإيجاب والتحريم ، لكن في متعلق ذلك وهو كثرة الثواب والعقاب ، والجمهور يقولون : بل التفاضل في الأمرين والتفاضل في المسببات دليل على التفاضل في الأسباب ، وكون أحد الفعلين ثوابه أعظم وعقابه أعظم دليل على أن الأمر به ، والنهي عنه أوكد ، وكون أحد الأمرين والنهيين مخصوصاً بالتوكيد دون الثاني مما لا يستريب فيه عاقل ، ولو تساويا من كل وجه لامتنع الاختصاص بتوكيد أو غيره من أسباب الترجيح فإن التسوية والتفضيل متضادان . وجمهور أئمة الفقهاء على التفاضل في الإيجاب والتحريم ، وإطلاق ذلك هو قول جماهير المتأخرين من أصحاب الأئمة الأربعة ، وهو قول القاضي أبي يعلى ، وأبي الخطاب (١) ، والقاضي يعقوب البرزيني (٢) ، وعبد الرحمن الحلواني (٣) ، وأبو الحسن بن الزاغوني وغيرهم ، لكن من هؤلاء من يفسر التفاضل بتفاضل الثواب والعقاب ونحو ذلك مما لا ينازع فيه

---

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٣) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

النفاة . والتحقيق أن نفس المحبة والرضا والبغض والإرادة والكرامة ، والطلب والإقتضاء ونحو ذلك من المعاني تتفاضل ، وتتفاضل الألفاظ الدالة عليها ، ونفس حب العباد لربهم يتفاضل ، كما قال تعالى ﴿ **والذين آمنوا أشد حباً لله** ﴾[1] .

ونفس حب الله لهم يتفاضل أيضاً ؛ فإن الخليلين ابراهيم ومحمداً أحب إليه ممن سواهما وبعض الأعمال أحب إلى الله من بعض .

والقول بأن هذا الفعل أحب إليَّ من هذا مشهور ومستفيض في الآثار النبوية ، وكلام خير البرية ، كقول بعض الصحابة : لو علمنا أي الأعمال أحب إلى الله لفعلناه ، فأنزل الله سورة الصفِّ وهو مشهور ثابت : رواه الترمذي وغيره وكون هذا أحب إلى الله من هذا هو داخل من تفضيل بعض الأعمال ، وبعض الأشخاص على بعض ، وبعض الأمكنة والأزمنة على بعض وقد قال النبي ﷺ لمكة : « والله إنك لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أن قومي أخرجوني منك لما خرجت »[2] .

قال الترمذي : حديث حسن صحيح ، رواه من حديث عبدالله بن عدي ابن الحمراء ، وكذلك تفضيل حبه وبغضه على حب غيره ، وبغضه كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال :

لا أحد أحب إليه المدح من الله ، من أجل ذلك مدح نفسه ، ولا أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك بعث الرسل مبشرين ومنذرين . وقال : لا أحد أغير من الله » [3] .

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٦٥ وتكملة الآية ﴿ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب ﴾ .

(٢)

(٣) سبق تخريج هذا الحديث ، وقد رواه الامام البخاري في كتاب التفسير سورة ٧٦ ـ باب ﴿ **ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن** ﴾ **٤٦٣٤** ـ بسنده عن عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ .

وهذا في الصحيحين .

وقال تعالى ﴿ لَمَقْتُ الله أَكْبَرُ مِن مَقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ (1) الآية ومن المعلوم بالاضطرار تفاضل المأمورات ، فبعضها أفضل من بعض ، وبعض المنهيات شر من بعض وحينئذ فطلب الأفضل يكون في نفسه أكمل من طلب المفضول ، والطالب إذا كان حكيماً يكون طلبه لهذا أوكد . ففي الجملة من المستقر في فطر العقلاء أن كلاًّ من الخبر والأمر يلحقهما التفاضل من جهة المخبر عنه والمأمور به ، فإذا كان المخبر به أكمل وأفضل كان الخبر به أفضل ، وإذا كان المأمور به أفضل كان الأمر به أفضل . ولهذا كان الخبر بما فيه نجاة النفوس من العذاب ، وحصول السعادة الأبدية أفضل من الخبر بما فيه نيل منزلة أو حصول دراهم والرؤ يا التي تتضمن أفضل الخبرين أعظم من الرؤ يا التي تتضمن أدناهما ، وهذا أمر مستقر في فطر العقلاء قاطبة ، وإذا قدر أميران أمر أحدهما بعدل عام عمر به البلاد ، ودفع به الفساد كان هذا الأمر أعظم من أمر أمير يعدل بين خصمين في ميراث بعض الأموات وأيضاً فالخبر يتضمن العلم بالمخبر به ، والأمر يتضمن طلباً وإرادة للمأمور به ، وإن لم يكن ذلك إرادة فعل الأمر ، والله تعالى أمر العباد بما أمرهم به ، ولكن أعان أهل الطاعة فصار مريداً لأن يخلق أفعالهم ، ولم يعن أهل المعصية فلم يرد أن يخلق أفعالهم ، فهذه الإرادة الخلقية القدرية لا تستلزم الأمر وأما الإرادة بمعنى أنه يحب فعل ما أمر به ويرضاه إذا فعل ويريد من المأمور أن يفعله من حيث هو مأمور فهذه لا بد منها في الأمر ولهذا أثبت الله هذه الإرادة في الأمر دون الأولى ، ولكن في الناس من غلط فنفى الإرادة

= ورواه أيضاً في كتاب النكاح ١٠٧ والتوحيد ١٥ ، ٢٠ ، ورواه الامام مسلم في كتاب اللعان ١٧ وفي كتاب التوبة ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ورواه الامام الترمذي في الدعوات ٩٥ ، والدارمي في النكاح ٣٧ ، ورواه الامام أحمد بن حنبل في المسند ١ : ٣٨١ ، ٤٢٦ ، ٤٣٦ (حلبي) .

(1) سورة غافر آية رقم ١٠ وتكملة الآية ﴿ إذ تدعون الى الإيمان فتكفرون ﴾ .

مطلقاً ، وكلا الفريقين لم يميز بين الإرادة الخلقية والإرادة الأمرية ، والقرآن فرق بين الارادتين فقال في الأولى : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ الله أن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ ، وَمَن يُرِدْ أن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً ﴾ (١) .

وقال نوح : ﴿ وَلاَ يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إن كَانَ الله يُرِيدُ أن يُغْوِيَكُمْ ﴾ (٢) وقال ﴿ وَلَوْ شَاءَ الله مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ الله يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ (٣) .

وقال ﴿ وَلَوْلاَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ الله لاَ قُوَّةَ إلاَّ بِالله ﴾ (٤) .

ولهذا قال المسلمون « ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن »(٥) .

وقال في الثانية ﴿ يُرِيدُ الله بِكُمُ اليُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ العُسْرَ ﴾(٦) .

وقال ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الله لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ (٧) .

وقال : ﴿ مَا يُرِيدُ الله لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ﴾ (٨) وقال ﴿ يُرِيدُ الله لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ من

---

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٢٥ .
(٢) سورة هود آية رقم ٣٤ .
(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٥٣ .
(٤) سورة الكهف آية رقم ٣٩ .
(٥) سبق تخريج هذا الحديث في الجزء الثاني من هذا الكتاب .
(٦) سورة البقرة آية رقم ١٨٥ .
(٧) سورة الأحزاب آية رقم ٣٣ .
(٨) سورة المائدة آية رقم ٦ .

قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * واللهُ يُرِيدُ أن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً * يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفاً ﴾ [1] وهذا مبسوط في موضع آخر .

والمقصود هنا : أنه لا بد في الأمر من طلب واستدعاء واقتضاء سواء قيل : إن هناك إرادة شرعية ، وأنه لا إرادة للرب متعلقة بأفعال العباد سواها ، كما تقوله المعتزلة ونحوهم من القدرية ، أو قيل : لا إرادة للرب إلا الإرادة الخلقية القدرية التي يقال فيها ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأن إرادته عين نفس محبته ورضاه وأن إرادته ومحبته ورضاه متعلقة بكل ما يوجد من إيمان وكفر ، ولا تتعلق بما لا يوجد سواء كان إيماناً أو كفراً ، وأنه ليس للعبد قدرة لها أثر في وجود مقدوره ، وليس في المخلوقات قوى وأسباب يخلق بها ، ولا لله حكمة يخلق بها ويأمر لأجلها ، كما يقول هذا وما يشبهه جهم بن صفوان [2] رأس الجبرية هو ومن وافقه على ذلك أو بعضه من طوائف أهل الكلام ، وبعض متأخري الفقهاء وغيرهم المثبتين للقدر على هذه الطريقة لا على طريقة السلف والأئمة كأبي الحسن [3] وغيره فإن هؤلاء ناقضوا القدرية المعتزلة مناقضة ألجأتهم إلى إنكار حقيقة الأمر والنهي والوعد والوعيد ، وإن كان من يقول ببعض ذلك يتناقض وقد يثبت أحدهم من ذلك ما لا حقيقة له في المعنى .

وأما السلف وأئمة الفقهاء وجمهور المسلمين فيثبتون الخلق والأمر والإرادة الخلقية القدرية الشاملة لكل حادث ، والإرادة الأمرية الشرعية المتناولة لكل ما يحبه الله ويرضاه لعباده ، وهو ما أمرت به الرسل ، وهو ما

---

(١) سورة النساء آية رقم ٢٦ ـ ٢٨ .

(٢) هو جهم بن صفوان السمرقندي قتل عام ١٢٨ هـ وسبق الترجمة له . [وراجع : ميزان الاعتدال ١ : ١٩٧ ولسان الميزان ٢ : ١٤٢ ، وخطط المقريزي ٢ : ٣٤٩ و٣٥١] .

(٣) سبق الترجمة له في هذا الجزء في كلمة وافية .

ينفع العباد ويصلحهم ، ويكون له العاقبة الحميدة النافعة في المعاد ، الدافعة للفساد ، فهذه الإرادة الأمرية الشرعية متعلقة بالهيئة المتضمنة لربوبيته، كما أن تلك الإرادة الخلقية القدرية متعلقة بربوبيته ولهذا كان من نظر إلى هذه فقط ، وراعى هذه الخلقية الكونية القدرية دون تلك يكون له بداية بلا نهاية ، فيكون من الأخسرين أعمالاً ، يحصل لهم بعض مطالبهم في الدنيا لاستعانتهم بالله إذ شهدوا ربوبيته ، ولا خلاق لهم في الآخرة ، إذ لم يعبدوا الله مخلصين له الدين ، وقد وقع في هذا طوائف من أهل التصوف والكلام .

ومن نظر إلى الحقيقة الشرعية الأمرية دون تلك فإنه قد يكون له عاقبة حميدة ، وقد يراعى الأمر ، لكنه يكون عاجزاً مخذولاً حيث لم يشهد ربوبية الله وفقره إليه ليكون متوكلاً عليه برياً من الحول والقوة إلا به فهذا قد يقصد أن يعبده ، ولا يقصد حقيقة الاستعانة به ، وهي حال القدرية من المعتزلة ونحوهم الذين يقرون أن الله ليس خالقاً أفعال العباد ، ولا مريداً للكائنات ، ولهذا قال أبو سليمان الداراني [1] إنما يعجب بفعله القدري لأنه لا يرى أنه هو الخالق لفعله .

فأما أهل السنة الذين يفسرون أن الله خالق أفعالهم ، وأن لله المنة عليهم في ذلك فكيف يعجبون بها ؟ أو كما قال .

والأول قد يقصد أن يستعينه ويسأله ويتوكل عليه ، ويبرأ من الحول والقوة إلا به ، ولكن لا يقصد أن يعبده بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه على ألسن رسله ، ولا يشهد أن الله يحب أن يعبد ويطاع ، وأنه يفرح بتوبة التائبين ويحب المتقين ، ويغضب على الكفار والمنافقين بل ينسلخ من الدين أو

---

(١) هو سليمان بن حبيب المحاربي الداراني أبو بكر : قاض من ثقات التابعين من أهل الشام ، كان ينعت بقاضي الخلفاء استمر في قضاء دمشق ثلاثين عاماً نسبته الى «داريا» من غوطة دمشق، توفي عام ١٢٠ هـ [راجع تهذيب ابن عساكر ٦ : ٢٤٦ وتهذيب التهذيب ٤ : ١٧٧ ومعجم البلدان ٤ : ٢٤] .

بعضه ، لا سيما في نهاية أمره ، وهذه الحال إن طردها صاحبها كان شراً من حال المعتزلة القدرية ، بل إن طردها طرداً حقيقياً أخرجته من الدين خروج الشعرة من العجين ، وهي حال المشركين .

وأما من هداه الله ، فإنه يحقق قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [1] ويعلم أن كل عمل لا يراد به وجه الله ، ولا يوافق أمره فهو مردود على صاحبه ، وكل قاصد لم يعنه الله فهو مصدود من مآربه ، فإنه يشهد أن لا إله إلا الله ، فيعبد الله مخلصاً له الدين ، مستعيناً بالله على ذلك مؤمناً بخلقه وأمره ، بقدره وشرعه ، فيستعين الله على طاعته ، ويشكره عليها ، ويعلم أنها منة من الله عليه ، ويستعيذ بالله من شر نفسه وسيئات عمله ، ويعلم أن ما أصابه من سيئة فمن نفسه ، مع علمه بأن كل شيء بقضاء الله وقدره ، وأن لله الحجة البالغة على خلقه ، وأن له في خلقه وأمره حكمة بالغة ، ورحمة سابغة ، وهذه الأمور أصول عظيمة ، لبسطها موضع آخر .

والمقصود هنا أن الخبر الصادق يتضمن جنس العلم والاعتقاد ، والأمر يتضمن جنس الطلب باتفاق العقلاء .

ثم هل مدلول الخبر جنس من المعاني غير جنس العلم ، ومدلول الأمر جنس من المعاني غير جنس الإرادة ، كما يقول ذلك طائفة من النظار مثل ابن كلاب ، ومن وافقه ؟ أو المدلول من جنس العلم والإرادة ؟ كما يقوله جمهور نظار أهل السنة الذين يثبتون الصفات والقدر .

فيقولون : إن القرآن كلام الله غير مخلوق ، ويقولون : إن الله خالق أفعال العباد ، والمعتزلة وغيرهم ممن يخالف أهل السنة في هذين الأصلين ، فإن هؤلاء يخالفون ابن كلاب ومن وافقه في ذينك الأصلين .

ولهذا يقال : إنه لم يوافقه أحد من الطوائف على ما أحدثه من القول

---

(١) سورة الفاتحة آية رقم ٥ .

في الكلام والصفات ، وإن كان قوله خيراً من قول المعتزلة والجهمية المحضة ، وأما جمهور المسلمين من الفقهاء وأهل الحديث والصوفية ، وطوائف النظار فلا يقولون بقول المعتزلة والجهمية المحضة .

وأمّا جمهور المسلمين من الفقهاء وأهل الحديث والصوفية وطوائف النظار فلا يقولون بقول المعتزلة ولا الكلابية كما ذكر ذلك فقهاء الطوائف من أصحاب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وغيرهم في أصول الفقه فضلاً عن غيرها من الكتب .

والمقصود هنا أن الناس متفقون على أن كلاًّ من أنواع الخبر والأمر لها معان : سواء سمي طلباً أو إرادة أو علماً ، أو حكماً ، أو كلاماً نفسانياً .

وهذه المعاني تتفاضل في نفسها، فليس علمنا بالله وأسمائه كعلمنا بحال أبي لهب (١) ، وليس الطلب القائم بنا إذا أمرنا بالإيمان بالله ورسوله كالطلب القائم بنا إذا أمرنا برفع اليدين في الصلاة ، والأكل باليمين وإخراج الدرهم من الزكاة .

فعلم بذلك أن معاني الكلام قد تتفاضل في نفسها كما قد تتماثل ، وتبين بذلك أن ما تضمنه الأمر والنهي من المعاني التي تدل عليها صيغة الأمر سواء سميت طلباً أو اقتضاء ، أو استدعاء ، أو إرادة ، أو محبة أو رضا ، أو غير ذلك . فإنها متفاضلة بحسب تفاضل المأمور به ، وما تضمنه الخبر من أنواع العلوم والاعتقادات ، والأحكام النفسانية فهي متفاضلة في نفسها بحسب تفاضل المخبر عنها .

فهذا نوع من تفاضل الكلام من جهة المتكلم فيه ، وإن كان المتكلم به

---

(١) هو عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم من قريش ، عم الرسول ﷺ - توفي عام ٢ هـ سبق الترجمة له . [وراجع : ابن الأثير ٢ : ٢٥ ودائرة المعارف الاسلامية ١ : ٣٩٣ وتاريخ الإسلام للذهبي ١ : ٨٤ و١٦٩] .

واحداً ، وهو أيضاً متفاضل من جهة المتكلم به ، وإن كان المتكلم فيه واحداً كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْيَاً أَو مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ (١) ومعلوم أن تكليمه من وراء حجاب أفضل من تكليمه بالإيحاء أو بإرسال رسول ، ولهذا كان من فضائل موسى عليه السلام أن الله كلمه تكليماً وقال : ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي ﴾ (٢) .

وقال ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ (٣) .

والذي يجد الناس من أنفسهم أن الشخص الواحد تتفاضل أحواله في أنواع الكلام ، بل وفي الكلام الواحد يتفاضل ما يقوم بقلبه من المعاني ، وما يقوم بلسانه من الألفاظ بحيث قد يكون إذا كان طالباً هو أشد رغبة ومحبة وطلباً لأحد الأمرين منه للآخر ، ويكون صوته به أقوى ولفظه به أفصح وحاله في الطلب أقوى وأشد تأثيراً ، ولهذا يكون للكلمة الواحدة من الموعظة ، بل للآية الواحدة إذا سمعت من اثنين من ظهور التفاضل ما لا يخفى على عاقل ، والأمر في ذلك أظهر وأشهر من أن يحتاج إلى تمثيل ، وكذلك في الخبر قد يقوم بقلبه من المعرفة والعلم ، وتصور المعلوم وشهود القلب إياه باللسان من حسن التعبير عنه لفظاً وصوتاً ما لا يقاربه ما يقوم بالقلب واللسان إذا أخبر عن غيره .

فهذا نوع إشارة إلى قول من يقول بتفضيل بعض كلام الله على بعض موافقاً لما دل عليه الكتاب والسنة وكلام السلف والأئمة .

---

(١) سورة الشورى آية رقم ٥١ .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ١٤٤ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٥٣ .

والطائفة الثانية تقول : إن كلام الله لا يفضل بعضه على بعض ، ثم لهؤلاء في تأويل النصوص الواردة في التفضيل قولان : أحدهما : أنه إنما يقع التفاضل في متعلقه ، مثل كون بعضه أنفع للناس من بعض لكون الثواب عليه أكثر ، أو العمل به أخف مع التماثل في الأجر ، وتأولوا قوله ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا ﴾ (١) أي نأت بخير منها لكم ، لا أنها في نفسها خير من تلك . وهذا قول طائفة من المفسرين كمحمد بن جرير الطبري (٢) قال : نأت بحكم خير لكم من حكم الآية المنسوخة ، إما في العاجل لحقه عليكم وإما في الآخرة لعظم ثوابه من أجل مشقة حمله قال : والمراد ما ننسخ من حكم آية كقوله ﴿ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ العِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ (٣) أي حبه .

قال : ودل على أن ذلك كذلك قوله ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ (٤) .

وغير جائز أن يكون من القرآن شيء خيراً من شيء لأن جميعه كلام الله ، ولا يجوز في صفات الله تعالى أن يقال : بعضها أفضل من بعض ، أو بعضها خير من بعض ، وطرد ذلك في أسماء الله ، فمنع أن يكون بعض أسمائه أعظم ، أو أفضل ، أو أكبر في بعض وقال : معنى الاسم الأعظم : العظيم ، وكلها سواء في العظمة ، وإنما يتفاضل حال الناس حين الدعاء فيكون الأعظم بحسب حال الدعاء ، لا أنه في نفسه أعظم وهذا القول الذي قاله في أسماء الله نظير القول الثاني في تفضيل بعض كلام الله على بعض ، فإن القول الثاني لمن منع تفضيله أن المراد بكون هذا أفضل أو خيراً كونه فاضلاً في نفسه لا أنه أفضل من غيره ، وهذا القول يحكى عن أبي الحسن الأشعري ،

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٠٦ .

(٢) هو محمد بن جرير بن يزيد ، الطبري ، أبو جعفر ، المؤرخ المفسر الامام توفي عام ٣١٠ هـ وسبق الترجمة له . [راجع تذكرة الحفاظ ٢ : ٣٥١ والوفيات ١ : ٤٥٦ وطبقات السبكي ٢ : ١٣٥ - ١٤٠ ومفتاح السعادة ١ : ٢٠٥ و٤١٥ ثم ٢ : ١٧٦ والبداية والنهاية ١١ : ١٤٥] .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٩٣ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ١٠٦ .

ومن وافقه .

قالوا : إن معنى ذلك أنه عظيم فاضل ، وقالوا مقتضى الأفضل تقصير المفضول عنه ، وكلام الله لا يتبعض وهذا يقولونه في الكلام لأنه واحد بالعين عندهم يمتنع فيه تماثل أو تفاضل ، وأما في الصفات بعضها على بعض فلامتناع التغاير ، ولا يقولون هذا في القرآن العربي ، فإن القرآن العربي عندهم مخلوق ، وليس هو كلام الله على قول الجمهور منهم ، قالوا : لأن الكلام يمتنع قيامه بغير المتكلم كسائر الصفات ، والقرآن العربي يمتنع عندهم قيامه بذات الله تعالى ، ولو جوزوا أن يكون كلام الله قائماً بغيره لبطل أصلهم الذي اتفقوا عليه هم وسائر أهل السنة ، وردوا به على المعتزلة قولهم إن القرآن مخلوق ، وهؤلاء يسلمون أن القرآن العربي بعضه أفضل من بعض لأنه مخلوق عندهم ، ولكن ليس هو كلام الله عند جماهيرهم .

وبعض متأخريهم يقول : إن لفظ كلام الله يقع بالاشتراك على المعنى القائم بالنفس ، وعلى الكلام العربي المخلوق الدال عليه ، وأما كلام الله الذي ليس بمخلوق عندهم فهو ذلك المعنى ، وهو الذي يمتنع تفاضله عندهم .

وأصل هؤلاء أن كلام الله هو المعاني ، بل هو المعنى الواحد فقط .

وأن معاني كتاب الله هي شيء واحد لا يتعدد ولا يتبعض ، فمعنى آية الكرسي ، وآية الدين والفاتحة ، وقل هو الله أحد ، وتبت ومعنى التوراة والإنجيل ، وكل حديث إلهي وكل ما يكلم به الرب عباده يوم القيامة ، وكل ما يكلم به الملائكة والأنبياء ، إنما هي معنى واحد بالعين ، لا بالنوع ، ولا يتعدد ولا يتبعض وأن القرآن العربي ليس هو كلام الله بل كلام غيره : جبريل أو محمد أو مخلوق من مخلوقاته عبر به عن ذلك الواحد ، وذلك الواحد هو الأمر بكل ما أمر به ، والنهي من كل ما نهى عنه ، والاخبار بكل ما أخبر به ، وأن الأمر والنهي والخبر ليست أنواعاً للكلام وأقساماً له ، فإن الواحد بالعين لا

يقبل التنويع والتقسيم ، بخلاف الواحد بالنوع فإنه يقبل التنويع والتقسيم ، وإنما هي صفات لذلك الواحد بالعين ، وهي صفات إضافية له ، فإذا تعلق بما يطلب من أفعال العباد كان أمراً ، وإذا تعلق بما ينهى عنه كان نهياً ، وإذا تعلق بما يخبر عنه كان خبراً .

وجمهور العقلاء يقولون : فساد هذا معلوم بالاضطرار فإنا نعلم أن معاني ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ [1] ليست هي معاني ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ [2] .

ولا معاني آية الدين معاني آية الكرسي ، ولا معاني الخبر عن صفات الله هي معاني الخبر عن مخلوقات الله ، وأن تعلق ذلك المعنى بالحقائق المخبر عنها والأفعال التي تعلق بها الأمر والنهي إن كان أمراً وجودياً فلا بد له من محل ، فإن قام بذات الله فقد تعددت معاني الكلام القائمة بذاته ، وإن قام بذات غيره كان صفة لذلك الخير لا لله . وإن قام لا بمحل كان ممتنعاً ، فإن المعاني لا تقوم بأنفسها ، وإن كان تعلق ذلك المعنى بالحقائق أمراً عدمياً لم يكن هناك ما يميز بين الخبر والأمر والنهي ، بل لا يميز بين خبر الله عن نفسه ، وعن قوم نوح وعاذ ، إذ كان المعنى الواحد لا تعدد فيه فضلاً عن أن يمتاز بعضه عن بعض .

والحقائق المخبر عنها والمأمور بها ، والمنهي عنها لا تكون بأنفسها مخبراً بها ومأموراً بها ومنهياً عنها ، بل المخبر عنها ، والأمر بها والنهي عنها هو غير ذواتها فإذا لم يكن هنا أمر موجود غير ذلك المعنى الذي لا امتياز فيه ولا تعدد ، وغير المخلوقات التي لا تميز بين الأمر والنهي والخبر : لم يكن هنا ما يميز بين النهي والخبر ، ولا ما يجعل معاني آية الوضوء غير معاني آية الدين ، فإن الحروف المخلوقة الدالة على ذلك المعنى إن لم تدل إلا عليه فلا تعدد فيه ولا تنويع ، وإن دلت على التعلقات التي هي عدمية ، فالعدم

---

(١) سورة الإخلاص آية رقم ١ .
(٢) سورة المسد آية رقم ١ .

ليس بشيء حتى يكـون أمراً ونهيـاً وخبراً ، وليس عنـد هؤلاء إلا ذلك المعنى وتعلقه بالحقـائق المخبر عنهـا ، والمأمـور بها ونفس القـرآن العربي المخلوق عندهم هو الدال على ذلك المعنى ، فالمدلـول إن كان هـو ذلك المعنى فـلا يتميز فيه أمر عن خبر ، ولا أمر بصلاة عن أمر بزكـاة ، .ولا نهي عن الكفر عن إخبار بتوحيد ، وإن كانت التعلقات عدميـة فالمعـدوم ليس بشيء ، ولا يكون العدم أمراً ونهياً وخبراً ، ولا يكون مدلول التوراة والإنجيل والقرآن وسائر كتب الله أموراً عدمية لا وجود لهـا . ولا تكون الأمـور العدميـة هي التي بها وجبت الصـلاة وحرم الـظلم ، ولا يكـون المعنى الـواحـد بتلك الأمـور العـدميـة إلا صفات إضافية ، وهي من معنى السلبية ، فإنها إن لم تكن سلب أمر موجود ، فهي تعلق ليس بموجود ، فحقيقة الأمر ـ على قـول هؤلاء ـ أنه ليس لله كـلام لا معان ولا حروف إلا بمعنى واحد لا حقيقة له موجودة ولا معلومة .

ومن حجـة هؤلاء أنه إذا قيـل بعضـه أفضـل من بعض كـان المفضـول ناقصاً عن الفاضل . وصفات الله كاملة لا نقص فيها ، والقرآن من صفاته .

قـال هؤلاء : صفات الله كلهـا متوافـرة في الكمال متنـاهيـة إلى غـايـة التمام ، لا يلحق شيئاً منها نقص بحال ، ثم لما اعتقد هؤلاء أن التفاضل في صفات الله ممتنع ، ظنوا أن القول بتفضيـل بعض كلامـه على بعض لا يمكن إلا على قـول الجهمية من المعتـزلة وغيـرهم القائلين بـأنه مخلوق ، فـإنه إذا قيل : إنه مخلوق أمكن القول بتفضيل بعض المخلوقـات على بعض ، فيجوز أن يكون بعضه أفضل من بعض قالـوا : وأما على قـول أهل السنـة والجماعـة الذين أجمعوا على أن القرآن كلام الله غير مخلوق فيمتنع أن يقع التفاضل في صفات الله القائمة بذاته .

ولأجل هذا الاعتقاد صار من يعتقده يذكر إجماع أهل السنة على امتنـاع التفضيل في القرآن كمـا قال أبـو عبد الله بن [1] الـدراج في مصنف صنفه في

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية في هذا الجزء .

هذه المسألة قال : أجمع أهل السنة على أن ما ورد في الشرع مما ظاهره المفاضلة بين آي القرآن وسوره ليس المراد به تفضيل ذوات بعضها على بعض : إذ هو كله كلام الله وصفة من صفاته .

بل هو كله لله فاضل كسائر صفاته الواجب لها نعت الكمال .

وهذا النقل للإجماع هو بحسب ما ظنه لازماً لأهل السنة .

فلما علم أنهم يقولون : القرآن كلام الله ليس بمخلوق ، وظن هو أن المفاضلة إنما تقع في المخلوقات لا في الصفات قال ما قال .

وإلا فلا ينقل عن أحد من السلف والأئمة أنه أنكر فضل كلام الله بعضه على بعض ، لا في نفسه ولا في لوازمه ومتعلقاته ، فضلاً عن أن يكون هذا إجماعاً وليس هو لازماً لابن كلاب ، ومن وافقه كالأشعري وأتباعه ، فإن هؤلاء يجوزون وقوع المفاضلة في القرآن العربي ، وهو مخلوق عندهم ، وهذا المخلوق يسمى كتاب الله والمعنى القديم يسمى كلام الله ، ولفظ « القرآن » يراد به عندهم ذلك المعنى القديم ، والقرآن العربي المخلوق .

وحينئذ فهم يتأولون ما ورد من تفضيل بعض القرآن على بعض على القرآن المخلوق عندهم وإنما القول المتواتر عن أئمة السلف أنهم قالوا : القرآن كلام الله غير مخلوق ، وأنهم أنكروا مقالة الجهمية الذين جعلوا القرآن مخلوقاً منفصلاً عن الله ، بل كفروا من قال ذلك والكتب الموجودة فيها ألفاظهم بأسانيدها وغير أسانيدها كثيرة : مثل : كتاب الرد على الجهمية . للإمام أبي محمد عبد الرحمن [1] بن أبي حاتم . و« الرد على الجهمية » لعبد الله [2] بن محمد الجعفي شيخ البخاري . و « الرد على الجهمية » للحكم بن معبد [3] الخزاعي و« كتاب السنة » لعبد الله بن أحمد بن [4] حنبل و« السنة »

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .
(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية .
(٣) سبق الترجمة له في كلمة وافية .
(٤) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

لحنبـل بن عم [1] الإمـام أحمـد . و« السنـة » لأبي داود [2] السجستـاني و« السنة » للأثـرم [3] . و«السنة» لأبي بكـر [4] الخلال . و« السنـة والرد على أهـل الأهـواء » لحشيش [5] بن أصـرم و« الـرد على الجهميـة » لعثمـان بن سعيـد [6] الدارمي و« نقض عثمـان بن سعيد على الجهمي الكـاذب العنيـد، فيما افترى على الله في التوحيد » و« كتاب التوحيد » لابن خزيمة [7] .

و« السنـة » للطبـراني [8] ، ولأبي الشيـخ الأصبهـاني و« شـرح أصـول السنـة » لأبي القاسم [9] الـلالكائي . و« الإبـانة » لأبي عبـد الله بن[10] بطة . وكتب عبـد الله بن منـده [11]. و« السنـة » لأبي ذر الهـروي[12] . و« الأسمـاء والصفـات » للبيهقي[13] و« الأصول » لأبي عمـر الـطلمنكي[14] و« الفـاروق » لأبي اسماعيل الأنصاري[15] و« الحجة » لأبي القاسم[16] التيمي إلى غير ذلك من المصنفات التي يطول تعدادها التي يذكر مصنفوها العلماء الثقات مـذاهب السلف بالأسانيـد الثابتـة عنهم بألفـاظهم الكثيرة ، المتـواترة التي تعـرف منها أقوالهم مع أنه من حين محنة الجهمية لأهل السنة ـ التي جرت في زمن أحمد ابن حنبل لما صبـر فيها الامـام أحمد ، وقـام بإظهـار السنة والصبـر على محنة الجهمية حتى نصر الله الإسلام والسنة ، وأطفأ نار تلك الفتنة ـ

---

(1) هو حنبل بن اسحاق بن حنبل بن هلال الشيباني ، أبو علي من حفاظ الحديث ، كـان ثقة ، لـه كتاب « التاريخ » ، وكتاب « الفتن » وكتاب « محنة الامـام أحمد بن حنبـل » وهو ابن عم الامـام أحمد ، وتلميذه ، خرج الى واسط فتوفي بها عام ٢٧٣ هـ [راجع تذكرة الحفاظ ٢ : ١٦٠].

(2) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(3) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(4) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(5) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(6) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(7) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(8) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(9) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(10) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(11) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(12) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(13) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(14) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(15) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(16) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

ظهر في ديار الإسلام ، وانتشر بين الخاص والعام أن مذهب أهل السنة والحديث المتبعين للسلف من الصحابة والتابعين أن القرآن كلام الله غير مخلوق .

وأن الذين أحدثوا في الإسلام القول بأن القرآن مخلوق هم الجعد بن درهم [1] والجهم بن صفوان ، ومن اتبعه من المعتزلة ، وغيرهم من أصناف الجهمية لم يقل هذا القول أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان ، فهذا القول هو القول المعروف عن أهل السنة والجماعة وهو القول بأن القرآن كلام الله وهو غير مخلوق .

أما كونه لا يفضل بعضه على بعض فهذا القول لم ينقل عن أحد من سلف الأمة وأئمة السنة الذين كانوا أئمة المحنة كأحمد بن حنبل وأمثاله ، ولا عن أحد قبلهم ولو قدر أنه نقل عن عدد من أئمة السنة لم يجز أن يجعل ذلك إجماعاً منهم ، فكيف إذا لم ينقل عن أحد منهم ؟!

وإنما هذا نقل لما يظنه الناقل لازماً لمذهبهم فلما كان مذهب أهل السنة أن القرآن من صفات الله لا من مخلوقات الله ، وظن هذا الناقل أن التفاضل يمتنع في صفات الخالق نقل امتناع التفاضل عنهم بناء على هذا التلازم .

ولكن يقال له : أما المقدمة الأولى فمنقولة عنهم بلا ريب .

وأما المقدمة الثانية وهي أن صفات الرب لا تتفاضل ، فهل يمكنك أن تنقل عن أحد من السلف قولاً بذلك ، فضلاً عن أن تنقل إجماعهم على ذلك ؟!

---

(١) هو الجعد بن درهم ، من الموالي : مبتدع له أخبار في الزندقة توفي عام ١١٨ هـ . سبق الترجمة له . [راجع ميزان الاعتدال ١ : ١٨٥ والكامل لابن الأثير ٥ : ١٦٠ ولسان الميزان ٢ : ١٠٥ واللباب ١ : ٢٣٠ ، والنجوم الزاهرة ١ : ٣٢٢] .

ما علمت أحداً يمكنه أن يثبت عن أحد من السلف أنه قال ما يدل على هذا المعنى لا بهذا اللفظ ولا بغيره ، فضلاً عن أن يكون هذا إجماعاً .

ولكن إن كان قال قائل ذلك ، ولم يبلغنا قوله ، فالله أعلم .

لكن الذي أقطع به ، ويقطع به كل من له خبرة بكلام السلف أن القول بهذا لم يكن مشهوراً بين السلف ، ولا قاله واحد واشتهر قوله عند الباقين فسكتوا عنه ، ولا هو معروف في الكتب التي نقل فيها ألفاظهم بأعيانها ، بل المنقول الثابت عنهم ـ أو عن كثير منهم ـ يدل على أنهم كانوا يرون تفاضل صفات الله تعالى ، وهكذا من قال من أصحاب مالك [1] أو الشافعي [2] أو أحمد [3] عن أهل السنة أن القرآن لا يفضل بعضه على بعض فإنما مستندهم أن أهل السنة متفقون على أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وأن كلامه من صفاته القائمة بنفسه ، ليس من مخلوقاته ، وهذا أيضاً صحيح عن أهل السنة .

ثم ظنوا أن التفاضل إنما يقع في المخلوق لا في الصفات وهذا الظن لم ينقلوه عن أحد من أئمة الإسلام كمالك والشافعي وأحمد وأبي حنيفة والثوري [4] والأوزاعي [5] ولا من قبل هؤلاء ، ولهذا شنع هؤلاء على من ظن فضل بعضه على بعض ، كما دلت عليه النصوص والآثار لظنهم أن ذلك مستلزم لخلاف مذهب أهل السنة ، كما قال أبو عبد الله بن المرابط في الكلام على حديث البخاري في رده لتأويل من تأول هذا الحديث ، على أن

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٣) سبق الترجمة له في كلمة وافية ويراجع ابن عساكر ٢ : ٢٨ وحلية ٩ : ١٦١ وصفة الصفوة ٢ : ١٩٠ وابن خلكان ١ : ١٧ وتاريخ بغداد ٤ : ٤١٢ .

(٤) سبق الترجمة له في كلمة وافية ويراجع : دول الاسلام ١ : ٨٤ وابن النديم ١ : ٢٢٥ وابن خلكان ١ : ٢١٠ وطبقات ابن سعد ٦ : ٢٥٧ والمعارف ٢١٧ .

(٥) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

هذه السورة إذا عدلت بثلث القرآن أنها تفضل الربع منه ، وخمسه وما دون الثلث فهو التفاضل في كتاب الله تعالى ، وهو صفة من صفات الله جل جلاله .

وقال : فهذا لولا عذر الجهالة لحكم على قائله بالكفر إذ لا يصح التفاضل الا في المخلوقات ؛ إذ صفاته كلها فاضلة في غاية الفضيلة ، ونهاية العلو والكرامة فمن تنقص شيئاً منها عن سائرها فقد ألحد فيها ألا تسمعه منع ذلك بقوله تعالى ﴿ **الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ** ﴾ (١) .

قال : وقد أجمع أهل السنة على أن القرآن صفة من صفات الله ، لا من صفة خلقه .

قال : وإنما أوقعهم في تأويل ذلك قوله تعالى : ﴿ **نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا** ﴾ (٢) ولا يخلو معنى ذلك من أحد وجهين : إما أن تكون الناسخة خيراً من المنسوخة في ذاتها . وإما أن تكون خيراً منها لمن تعبد بها ، إذ محال أن يتفاضل القرآن في ذاته على ما ذهب إليه أهل السنة والاستقامة ، إذ كل من عند الله ، لأن القرآن العزيز صفة الله ، وأسماء الله وصفاته كلها متوافرة في الكمال ، متناهية إلى غاية التمام ، لا يلحق شيئاً منها نقص بحال .

فلما استحال أن تكون آية خيراً من آية في ذاتها علمنا أن المراد بخير منها إنما هو للمتعبدين بها ، لم ينقل عباده من تخفيف إلى تثقيل ، ولكنه نقلهم بالنسخ من تحريم إلى تحليل ، ومن إيجاب إلى تخيير ، ومن تطهير إلى تطهير ، والشاهد لنا قوله : ﴿ **يُرِيدُ الله أَن يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفاً** ﴾ (٣) .

---

(١) سورة الحجر آية رقم ٩١ .
(٢) سورة البقرة آية رقم ١٠٦ .
(٣) سورة النساء آية رقم ٢٨ .

فيقال : أما قول القائل : لولا عذر الجهالة لحكم على مثبت المفاضلة بالكفر ، فهم يقابلونه بمثل ذلك ، وحجتهم أقوى .

وذلك لأن الكفر حكم شرعي ، وإنما يثبت بالأدلة الشرعية ، ومن أنكر شيئاً لم يدل عليه الشرع بل علم بمجرد العقل لم يكن كافراً ، وإنما الكافر من أنكر ما جاء به الرسول ، ومعلوم أنه ليس في الكتاب والسنة نص يمنع تفاضل بعض كلام الله على بعض بل ولا يمنع تفاضل صفاته تعالى ، بل ولا نقل هذا النفي عن أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ولا عن أئمة المسلمين الذين لهم لسان صدق في الأمة بحيث جعلوا أعلاماً للسنة وأئمة للأمة .

وأما تفضيل بعض كلام الله على بعض ، بل تفضيل بعض صفاته على بعض : فدلالة الكتاب والسنة والأحكام الشرعية ، والآثار السلفية كثيرة على ذلك . فلو قدر أن الحق في نفس الأمر أنها لا تتفاضل لم يكن نفي تفاضلها معلوماً إلا بالعقل لا بدليل شرعي ، وإذا قدر أنها تتفاضل فالدال على ذلك هو الأدلة الشرعية مع العقلية ، فإذا قدر أن الحق في نفس الأمر هو التفضيل لكان كفر جاحد ، ذلك أولى من كفر من يثبت التفضيل ، إذ لم يكن حقاً في نفس الأمر لأن ذلك جحد موجب الأدلة الشرعية بغير دليل شرعي بل لما رآه بعقله وأخطأ فيه ، إذ نحن نتكلم في هذا التقدير .

ومعلوم أن من خالف ما جاءت به الرسل عن الله بمجرد عقله فهو أولى بالكفر ممن لم يخالف ما جاءت به الرسل عن الله ، وإنما خالف ما علم بالعقل إن كان ذلك حقاً ونظير هذا قول بعض نفاة الصفات لما تأمل حال أصحابه ، وحال تثبيتها قال : لا ريب أن حال هؤلاء عند الله خير من حالنا ، فإن هؤلاء إن كانوا مصيبين فقد نالوا الدرجات العلى والرضوان الأكبر وإن كانوا مخطئين فإنهم يقولون : نحن يا رب صدقنا ما دل عليه كتابك وسنة رسولك ، إذ لم تبين لنا بالكتاب والسنة نفي الصفات ، كما دل كلامك على

اثباتها ، فنحن أثبتنا ما دل عليه كلامك وكلام رسولك فإن كان الحق في خلاف ذلك فلم يبين الرسول ما يخالف ذلك ، ولم يكن خلاف ذلك مما يعلم ببداهة العقول ، بل إن قدر أنه حق فلا يعلمه إلا الأفراد فكيف وعامة المنتهين في خلاف ذلك إلى الغاية يقرون بالحيرة والارتياب .

قال النافي : وإن كنا نحن مصيبين فإنه يقال لنا : أنتم قلتم شيئاً لم آمركم بقوله ، وطلبتم علماً لم آمركم بطلبه ، فالثواب إنما يكون لأهل الطاعة ، وأنتم لم تمتثلوا أمري ، قال : وإن كنا مخطئين فقد خسرنا خسراناً مبيناً .

وهذا حال من أثبت المفاضلة في كلام الله وصفاته ومن نفاها ، فإن المثبت معتصم بالكتاب والسنة والآثار ، ومعه من المعقولات الصريحة التي تبين صحة قوله ، وفساد قول منازعه ما لا يتوجه إليها طعن صحيح .

وأما النافي فليس معه آية من كتاب الله ولا حديث عن رسول الله ﷺ ، ولا قول أحد من سلف الأمة ، وإنما معه مجرد رأي يزعم أن عقله دل عليه ومنازعه يبين أن العقل إنما دل على نقيضه ، وأن خطأه معلوم بصريح المعقول ، كما هو معلوم بصحيح المنقول .

واحتجاج المحتج على نفي التفاضل بقوله : ﴿ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾ (1)

في غاية الفساد ، فإن الآية لا تدل على هذا بوجه من الوجوه ، سواء أريد بها من آمن ببعضه وكفر ببعضه ، أو أريد بها من عضهه فقال : هو سحر وشعر ، ونحو ذلك ، بل من نفى فضل ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ (2) على ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ (3) فهو أولى بأن يكون ممن جعله عضين ، إن دلت الآية

---

(1) سورة الحجر آية رقم ٩١ .

(2) سورة الصمد آية رقم ١ .

(3) سورة المسد آية رقم ١ .

على هذه المسألة .

وذلك أن من آمن بما وصف الله به كلامه فأقر بأنه جميعه كلام الله ، وأقر به كله فلم يكفر بحرف منه ، وعلم أن كلام الله أفضل من كل كلام ، وأن خير الكلام كلام الله ، وأنه لا أحسن من الله حديثاً ، ولا أصدق منه قيلاً، وأقر بما أخبر الله به ورسوله من فضل بعض كلامه ، كفضل « فاتحة الكتاب » وآية الكرسي و﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ ونحو ذلك ، بل وتفضيل ﴿ **يس** ﴾ و﴿ **تبارك** ﴾ والآيتين من آخر سورة البقرة ، بل وتفضيل « البقرة » و« آل عمران » وغير ذلك من السور والآيات التي نطقت النصوص بفضلها ؛ وأقر بأنه كلام الله ليس منه شيء كلاماً لغيره لا معانيه ولا حروفه ، فهو أبعد عن جعله عضين ممن لم يؤمن بما فضل الله به بعضه على بعض ، بل آمن بفضله من جهة المتكلم ، ولم يؤمن بفضله من جهة المتكلم فيه ، فإن هذا في الحقيقة آمن به من وجه دون وجه .

وكذلك من قال : إنه معنى واحد ، وإن القرآن العربي لم يتكلم الله به ، بل هو مخلوق خلقه الله في الهواء أو أحدثه جبريل أو محمد ، فهذا أولى بأن يكون داخلاً فيمن عضه القرآن ، ورماه بالإفك وجعل القرآن العربي كلام مخلوق ، إما بشر وإما ملك وإما غيرهما ، فمن جعل القرآن كله كلام الله ليس بمخلوق ، ولا هو من إحداث مخلوق لا جبريل ولا محمد ولا شيء منه ، بل جبريل رسول ملك ، ومحمد رسول بشر ، والله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس فاصطفى لكلامه الرسول الملكي ، فنزل به على الرسول البشري الذي اصطفاه ، وقد أضافه إلى كل من الرسولين لأنه بلغه وأداه ، لا لأنه أنشأه وابتداه .

قال تعالى ﴿ **إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ** ﴾ [1] .

---

(١) سورة التكوير آية رقم ١٩ ـ ٢١ .

فهذا نعت جبريل الذي قال فيه: ﴿مَن كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ﴾ (١) .

وقال ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنْذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (٢) .

وقال ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ . قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِن رَبِّكَ بِالحَقِّ﴾ (٣) وقال في الآية الأخرى ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَما هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ ، وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ ، تَنزِيلٌ مِن رَبِّ العَالَمِينَ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِاليَمِينِ ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوَتِينَ ، فَمَا مِنكُم مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ (٤) .

فهذه صفة محمد ﷺ . وأضاف القول إلى كل منهما باسم الرسول فقال ﴿لقول رسول﴾ .

الرسول يدل على المرسل ، فدل على أنه قول رسول بلغه عن مرسل ، لم يقل: إنه لقول ملك ولا بشر بل كفر من جعله قول بشر بقوله :

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً . وَبَنِينَ شُهُوداً . وَمَهَّدتُ لَهُ تَمْهِيداً ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً . إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ . فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ . ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ . إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ البَشَرِ﴾ (٥) .

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٩٧ .
(٢) سورة الشعراء آية رقم ١٩٣ - ١٩٥ .
(٣) سورة النحل آية رقم ١٠١ - ١٠٢ .
(٤) سورة الحاقة الآيات من ٤٠ - ٤٧ .
(٥) سورة المدثر الآيات من ١١ - ٢٥ .

فمن قال : إنه قول بشر ، أو قول مخلوق غير البشر فقد كفر ، ومن جعله قول رسول من البشر فقد صدق ؛ لأن الرسول ليس له فيه إلا التبليغ والأداء كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ ﴾ [1] .

وفي سنن أبي داود عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ كان يعرض نفسه على الناس في الموسم ويقول « ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي ؟ فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي » [2] والذي اتفق عليه السلف أن القرآن كلام الله غير مخلوق وقال غير واحد منهم : منه بدأ وإليه يعود .

قال أحمد بن حنبل وغيره « منه بدأ » أي هو المتكلم به ، لم يبتد من غيره كما قالت الجهمية [3] القائلون بأن القرآن مخلوق . قالوا : خلقه في غيره ، فهو مبتدأ من ذلك المحل المخلوق ويلزمهم أن يكون كلاماً لذلك المحل المخلوق لا لله تعالى لا سيما والجهمية كلهم يقولون بأن الله خالق أفعال العباد وهم غلاة في الجبر ، ولكن المعتزلة توافقهم على نفي الصفات والقول بخلق القرآن وتخالفهم في القدر والأسماء والأحكام فإذا كان الله خالق كل ما سواه لزمهم أن يكون كل كلام كلامه ، لأنه هو الذي خلقه .

ولذلك قال ابن عربي الطائي [4] ـ وكان من غلاة هؤلاء الجهمية يقول بوحدة الوجود ـ قال :

وكل كلام في الوجود كلامه ... سواء علينا نثره ونظامه

ولهذا قال سليمان بن داود الهاشمي [5] ـ نظير أحمد بن حنبل الذي قال

---

(1) سورة المائدة آية رقم ٦٧ .

(2) سبق تخريج هذا الحديث .

(3) هم أتباع جهم بن صفوان السمرقندي أبو محرز قال الذهبي : الضال المبدع ، هلك في زمان صغار التابعين وقد زرع شراً عظيماً . [راجع ميزان الاعتدال ١ : ١٩٧ ولسان الميزان ٢ : ١٤٢ وخطط المقريزي ٢ : ٣٤٩ و٣٥١] .

(4) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(5) هو سليمان بن داود الزهراني ، أبو الربيع فاضل من رجال الحديث ، مولده في البصرة ، سكن

الشـافعي : مـا رأيت أعقـل من رجلين : أحمـد بن حنبـل وسليمـان بن داود الهاشمي ـ قال : من قال : إنني أنا الله لا إله إلا أنا ، مخلوق فهو كافر ، وإن كان القرآن مخلوقاً كما زعمـوا ، فلم صار فـرعون أولى بـأن يخلد في النار إذ قـال : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ ﴾ [1] وزعمـوا أن هذا مخلوق ، ومعنى ذلـك كون قول فرعون « أنا ربكم الأعلى . كـلاماً قـائماً بـذات فرعـون ، فإن كـان قولـه ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ﴾ [2] كلامـاً خلقه في الشجـرة كانت الشجـرة هي القائلة لذلك .

كما كان فرعون هـو القائـل لذلـك ، وحينئذ فيكـون جعل الشجـرة إلهاً أعظم كفراً من جعل فرعون إلهاً .

والجهمية والمعتزلـة لم يقم عندهم بـذات الله لا طلب ولا إرادة ، ولا محبـة ولا رضـا ولا غضب ، ولا غيـر ذلـك ممـا يجعـل مـدلـول الأصـوات المخلوقة ، ولا قام بذاته عندهم إيجاب وإلـزام ولا تحريم وحـظر ، فلم يكن للكلام المخلوق في غيره معنى قائم بذاته يدل عليه ذلك المخلوق حتى يفرق بين ما خلقه في الجماد وما خلقه في الحيوان ، وكـان مقصود السلف رضـوان الله عليهم أن الله هو المتكلم بالقرآن وسائر كلامـه ، وأنه منـه نزل ، لم ينـزل من غيره كما قال تعالى ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِن رَبِّكَ بِالحَقِّ ﴾ [3] .

وقال تعالى ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِن رَبِّكَ بِالحَقِّ ﴾ [4] لم يقل أحد من السلف : إن القرآن قديم ، وإنما قالوا هو كلام الله غير مخلوق .

= بغـداد له مصنف في الحـديث مرتب عـلى الأبواب الفقهيـة توفي عـام ٢٣٤ هـ [راجع الـرسالـة المستطرفة ٣١ وتاريخ بغداد ٩ : ٣٨] .

(١) سورة النازعات آية رقم ٢٤ .

(٢) سورة طه آية رقم ١٤ .

(٣) سور الأنعام آية رقم ١١٤ .

(٤) سورة النحل آية رقم ١٠٢ .

وقالوا : لم يزل الله متكلماً إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء وكما شاء، ولا قال أحد منهم : إن الله في الأزل نادى موسى ، ولا قال : ان الله لم يزل ، ولا يزال يقول : يا آدم ، يا نوح ، يا موسى ، يا إبليس ، ونحو ذلك مما أخبر أنه قال .

ولكن طائفة ممن اتبع السلف اعتقدوا أنه إذا كان غير مخلوق فلا بد أن يكون قديماً ، إذ ليس عندهم إلا هذا وهذا ، وهؤلاء ينكرون أن يكون الله يتكلم بمشيئته وقدرته ، أو يغضب على الكفار إذا عصوه ، أو يرضى عن المؤمنين إذا أطاعوه ، أو يفرح بتوبة التائبين إذا تابوا ، أو يكون نادى موسى حين أتى الشجرة ونحو ذلك مما دل عليه الكتاب والسنة كقوله : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ الله وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ (١) .

وقوله تعالى ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ (٢) وقوله ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ﴾ (٣) وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ (٤) .

وقال تعالى ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ الله كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٥) .

وقد أخبر أن كلماته لا نفاد لها بقوله : ﴿ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ (٦) .

وقال تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ الله إِنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(٧) وأتباع السلف

---

(١) سورة محمد آية رقم ٢٨ .
(٢) سورة الزخرف آية رقم ٥٥ .
(٣) سورة طه آية رقم ١١ .
(٤) سورة الأعراف آية رقم ١١ .
(٥) سورة آل عمران آية رقم ٥٩ .
(٦) سورة الكهف آية رقم ١٠٩ .
(٧) سورة لقمان آية رقم ٢٧ .

يقولون : إن كـلام الله قديم ، أي لم يـزل متكلماً إذا شـاء ، لا يقولـون : إن نفس الكلمة المعينة قديمة ، كندائه لمـوسى ونحو ذلـك ،لكن هؤلاء اعتقدوا أن القرآن وسائر كلام الله قديم العين ، وأن الله لا يتكلم بمشيئته وقـدرته ، ثم اختلفوا : فمنهم من قال : القديم هو معنى واحـد ، هو جميـع معاني التـوراة والإنجيل والقرآن ، وأن التوراة إذا عبر عنها بالعربية صارت قرآناً ، والقرآن إذا عبر عنه بالعبرية صار توراة .

قـالوا : والقـرآن العربي لم يتكلم الله به ، بل إمـا أن يكـون خلقـه في بعض الأجسام ، وإما أن يكون أحدثه جبريل أو محمد ، فيكون كلامـاً لذلـك الرسول ترجم به عن المعنى الواحد القائم بذات الرب الذي هو جميع معـاني الكلام .

ومنهم من قال : بل القرآن القديم هـو حروف ، أو حـروف وأصوات ، وهي قديمة أزلية قائمة بذات الرب أزلاً وأبداً ، وهي متعاقبة في ذاتها وماهيتها لا في وجودها فإن القديم لا يكون بعضه متقدماً على بعض ، ففرقوا بين ذات الكلام وبين وجوده ، وجعلوا التعاقب في ذاته لا في وجـوده ، كما يفـرق بين وجود الأشياء بأعيانها وماهياتها من يقول بذلك من المعتزلـة والمتفلسفة وكـلا الطائفتين تقول : إنه إذا كلم موسى أو المـلائكة أو العبـاد يوم القيـامة فـإنه لا يكلمـه بكلام يتكلم بـه بمشيئته وقـدرته حين يكلمـه ، ولكن يخلق له إدراكـاً يدرك ذلك الكـلام القديم الـلازم لذات الله أزلاً وأبـداً ، وعندهم لم يـزل ولا يـزال يقول ﴿ يَـا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ﴾ [1] و﴿ يَـا نُوحُ اهْبِطْ بِسَـلَامٍ مِنَّـا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ ﴾ [2] و ﴿ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَـدَيَّ ﴾ [3] ونحو ذلك ، وقد بسط الكلام على هذه الأقوال وغيرها في مواضع .

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٣٥ .

(٢) سورة هود آية رقم ٤٨ .

(٣) سورة ص آية رقم ٧٥ .

والمقصود أن هذين القولين لا يقدر أحد أن ينقل واحداً منهما عن أحد من السلف أعني الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وسائر أئمة المسلمين المشهورين بالعلم والدين ، الذين لهم في الأمة لسان صدق في زمن أحمد ابن حنبل، ولا زمن الشافعي ، ولا زمن أبي حنيفة ، ولا قبلهم .

وأول من أحدث هذا الأصل هو أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب [1] ، وعرف أن الحروف متعاقبة فيمتنع أن تكون قديمة الأعيان ، فإن المتأخر قد سبقه غيره ، والقديم لا يسبقه غيره ، والصوت المعين لا يبقى زمانين فكيف يكون قديماً ؟

فقال بأن القديم هو المعنى ، ثم جعل المعنى واحداً لا يتعدد ولا يتبعض ؛ لامتناع اختصاصه بعدد معين وامتناع معان لا نهاية لها في آن واحد ، وجعل القرآن العربي ليس هو كلام الله .

فلما شاع قوله وعرف جمهور المسلمين فساده شرعاً وعقلاً ، قالت طائفة أخرى ـ ممن وافقته على مذهب السلف ـ إن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وعلى الأصل الذي أحدثه من القول بقدم القرآن ـ إن القرآن قديم ، وهو مع ذلك الحروف المتعاقبة والأصوات المؤلفة ، فصار قول هؤلاء مركباً من قول المعتزلة وقول الكلابية ، فإذا ناظروا المعتزلة على أن القرآن كلام الله غير مخلوق ناظروهم بطريقة ابن كلاب ، وإذا ناظرهم الكلابية على أن القرآن العربي كلام الله ، وأن القرآن الذي يقرأه المسلمون كلام الله ناظروهم بحجج المعتزلة .

وليس بشيء من هذه الأقوال قول أحد من السلف كما بسط في غير هذا الموضع ، ولا قال شيئاً من هذه الأقوال لا الأئمة الأربعة ، ولا أصحابهم الذين أدركوهم ، وإنما قاله ـ ممن ينتسب اليهم ـ بعض المتأخرين الذين

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

نقلوها عمن قالها من أهل الكلام ، ولم يكن لهم خبرة لا بأقوال السلف التي دل عليها الكتاب والسنة والعقل الصريح ، ولا بحقائق أقوال أهل الكلام الذي ذمه السلف ، ولم قالوا هذا ، وما الذي ألجأهم إلى هذا ؟

وقد شاع عند العامة ، والخاصة ، أن القرآن ليس بمخلوق ، والقول بأنه مخلوق قول مبتدع ، مذموم عند السلف والأئمة ، فصار من يطالع كتب الكلام التي لا يجد فيها إلا قول المعتزلة ، وقول من رد عليهم وانتسب إلى السنة ، يظن أنه ليس في المسألة إلا هذا القول .

وهذا وذاك قد عرف أنه قول مذموم عند السلف ، فيظن القول الآخر قول السلف ، كما يقع مثل ذلك في كثير من المسائل في غير هذه . لا يعرف الرجل في المسألة إلا قولين أو ثلاثة ، فيظن الصواب واحداً منها ، ويكون فيها قول لم يبلغه وهو الصواب دون تلك ، وهذا باب واسع في كثير من المسائل . والله يهدينا وسائر إخواننا المسلمين إلى ما يحبه ويرضاه ، من القول والعمل ، ومن اجتهد بقصد طاعة الله ورسوله بحسب اجتهاده ، لم يكلفه الله ما يعجز عنه ، بل يثيبه الله على ما فعله من طاعته ، ويغفر ما أخطأ فيه فعجز عن معرفته .

فصل

والنصوص ، والآثار ، في تفضيل كلام الله ـ بل وتفضيل صفاته ـ على بعض متعددة . وقول القائل : صفات الله كلها فاضلة في غاية التمام ، والكمال ، ليس فيها نقص كلام صحيح ، لكن توهمه أنه إذا كان بعضها أفضل من بعض ، كان المفضول معيباً منقوصاً خطأ منه ، فإن النصوص تدل على أن بعض أسمائه أفضل من بعض ، ولهذا يقال : دعا الله باسمه الأعظم .

وتدل على أن بعض صفاته أفضل من بعض ، وبعض أفعاله أفضل من بعض ، ففي الآثار ذكر اسمه العظيم ، واسمه الأعظم ، واسمه الكبير ، والأكبر ، كما في السنن ، ورواه أحمد وابن حبان في صحيحه عن ابن بريدة [1] عن أبيه قال : دخلت مع رسول الله ﷺ المسجد ، فإذا رجل يصلي يدعو : « اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله ، لا إله إلا أنت ، الأحد ، الصمد ، الذي لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، فقال النبي ﷺ والذي نفسي بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به

---

(١) هو عبد الله بن بريده بن الحصيب بن عبد الله الحارثي والده الذي التقى بالرسول ـ ﷺ ـ فقال له نبي الله من أنت قال : أنا بريدة فالتفت الى أبي بكر رضي الله عنه فقال : يا أبا بكر برد أمرنا وصلح ، ثم قال لي : ممن أنت . . ؟ فقلت : من أسلم قال لأبي بكر : سلمنا قال : ثم قال : من بني من . . ؟ قلت : من بني سهم قال : خرج سهمك .

أعطى ، وإذا دعي به أجاب »[1] .

وعن أنس قال : كنت جالساً مع رسول الله ﷺ في الحلقة ، ورجل قائم يصلي ، فلما ركع وسجد ، تشهد ، ودعا فقال في دعائه : اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان ، بديع السموات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا حي يا قيوم ، فقال النبي ﷺ والذي نفسي بيده لقد دعا باسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطى » [2]

وقد ثبت في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : إن الله كتب في كتاب فهو موضوع عنده فوق العرش : «إن رحمتي تغلب غضبي » [3] .

وفي رواية « سبقت رحمتي غضبي » .

فوصف رحمته بأنها تغلب وتسبق غضبه ، وهذا يدل على فضل رحمته على غضبه من جهة سبقها وغلبتها . وقد ثبت في صحيح مسلم عن عائشة عن النبي ﷺ أنه كان يقول في سجوده « اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك » [4] وروى الترمذي أنه

---

(١) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الدعاء ٩ باب اسم الله الأعظم

(٢) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الدعاء ٩ باب اسم الله الأعظم ٣٨٥٨ حدثنا علي بن محمد ثنا وكيع ثنا أبو خزيمة عن أنس بن سيرين عن أنس بن مالك قال : سمع رسول الله - ﷺ - رجلاً يقول : وذكره .

(٣) الحديث رواه البخاري في كتاب التوحيد ٧٥٥٤ حدثني محمد بن أبي غالب حدثنا محمد بن اسماعيل حدثنا معتمر سمعت أبي يقول حدثنا قتادة أن أبا رافع حدثه أنه سمع أبا هريرة - رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: وذكره ورواه أيضاً في بدء الخلق ١ ورواه الامام مسلم في كتاب التوبة ١٤ - ١٦ وابن ماجه في كتاب الزهد ٣٥ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٤٢ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٣١٣ ، ٣٥٨ ، ٣٨١ ، ٣٩٧ (حلبي) .

(٤) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الصلاة ٤٢ باب ما يقال في الركوع والسجود ٢٢٢ (٤٨٦) حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا أبو أسامة ، حدثني عبيد الله بن عمر عن محمد بن يحيى بن

كان يقول ذلك في وتره ، لكن هذا فيه نظر .

وقد ثبت في الصحيح والسنن والمسانيد من غير وجه الاستعاذة بكلماته التامة ، كقوله : « أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه ، ومن شر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون » (١) .

وفي صحيح مسلم عن خولة أنه قال ﷺ من نزل منزلاً فقال: «أعوذ بكلمات الله التامة لم يضره شيء حتى يرتحل منه » (٢) .

وفي الصحيح أنه قال لعثمان بن أبي العاص : « قل : أعوذ بعزة الله ، وقدرته ، من شر ما أجد ، وأحاذر » (٣) .

ومعلوم أن المستعاذ به أفضل من المستعاذ منه فقد استعاذ برضاه من

حبان عن الأعرج عن أبي هريرة ، عن عائشة قالت : فقدت رسول الله - ﷺ - ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد وهما منصوبتان وهو يقول : وذكره .
ورواه أبو داود في الصلاة ١٤٨ والوتر ٥ والترمذي في الدعوات ٧٥ : ١١٢ ، والنسائي في الطهارة ١١٩ وابن ماجه في الاقامة ١١٧ والدعاء ٣ وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٩٦ ، ١١٨ ، ١٥٠ (حلبي) .

(١) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الأنبياء ١٠ باب ٣٣٧١ حدثنا عثمان بن أبي شيبة ، حدثنا جرير عن منصور عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس - رضي الله عنهما قال : كان النبي - ﷺ - يعوذ الحسن والحسين وذكره .

(٢) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ١٦ باب التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره ٥٥ حدثنا هارون بن معروف وأبو الطاهر كلاهما عن ابن وهب واللفظ لهرون حدثنا عبد الله بن وهب قال : وأخبرنا عمرو وهو ابن الحارث أن يزيد بن أبي حبيب والحارث بن يعقوب حدثاه عن يعقوب بن عبد الله بن الأشج عن بسر بن سعيد عن سعد بن أبي وقاص عن خولة بنت حكيم السلمية أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : وذكره .

(٣) الحديث رواه أبو داود في الطب ١٩ والترمذي في الطب ٢٩ والدعوات ١٢٥ وابن ماجه في الطب ٣٦ باب ما عوذ به النبي ﷺ وما عوذ به ، ٣٥٢٢ حدثنا أبو بكر ، ثنا يحيى بن أبي بكير ثنا زهير بن محمد عن يزيد بن خصيفة عن عمرو بن عبد الله بن كعب عن نافع بن جبير عن عثمان بن أبي العاص الثقفي أنه قال - قدمت على النبي - ﷺ وبي وجع قد كاد يبطلني فقال لي النبي - ﷺ - وذكره .

سخطه ، وبمعافاته من عقوبته .

وأما استعاذته به منه فلا بد أن يكون باعتبار جهتين ، يستعيذ به باعتبار تلك الجهة ومنه باعتبار تلك الجهة ليتغاير المستعاذ به والمستعاذ منه ، إذ أن المستعاذ منه مخوف مرهوب منه ، والمستعاذ به مدعو مستجار به ، ملتجأ إليه ، والجهة الواحدة لا تكون مطلوبة مهروباً منها ، لكن باعتبار جهتين تصح ، كما في الحديث الذي في الصحيحين عن البراء بن عازب أن النبي ﷺ علم رجلاً أن يقول عند النوم :

« اللهم إني أسلمت نفسي إليك ، ووجهت وجهي إليك . وألجأت ظهري إليك ، وفوضت أمري إليك رغبة ورهبة إليك ، لا منجا ولا ملجأ منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت »[1] .

فبين أنه لا ينجي منه إلا هو ، ولا يلتجأ منه إلا إليه وأعمل الفعل الثاني لما تنازع الفعلان في العمل ومعلوم أن جهة كونه منجياً غير جهة كونه منجياً منه وكذلك جهة كونه ملتجأ إليه غير كونه ملتجأ منه سواء قيل إن ذلك يتعلق بمفعولاته ، أو أفعاله القائمة به ، أو صفاته ، أو بذاته باعتبارين . وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال : المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين : الذين يعدلون في حكمهم ، وأهلهم وما ولوا »[2] .

---

(١) الحديث رواه الإمام مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ١٧باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع ٥٦ (٢٧١٠) حدثنا عثمان بن أبي شيبة واسحاق بن ابراهيم واللفظ لعثمان قال اسحاق أخبرنا وقال عثمان حدثنا جرير عن منصور عن سعد بن عبيدة حدثني البراء ابن عازب أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : وذكره ورواه البخاري في الوضوء ٧٥ والدعوات ٥ ،٦ ، ٨ والتوحيد ٣٤ وأبو داود في الأدب ٩٨ والترمذي في الدعوات ١٦ ، ١١٦ وأحمد بن حنبل في المسند ٤ : ٢٨٥ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ (حلبي) .

(٢) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الامارة (٥) باب فضيلة الامام العادل ، وعقوبة الجائر ، والحث على الرفق بالرعية والنهي عن ادخال المشقة عليهم .

وقد جاء ذكر اليدين في عدة أحاديث ، ويذكر فيها أن كلتاهما يمين مع تفضيل اليمين.

قال غير واحد من العلماء : لما كانت صفات المخلوقين متضمنة للنقص فكانت يسار أحدهم ناقصة في القوة ناقصة في الفعل ، بحيث تفعل بمياسرها كل ما يذم - كما يباشر بيده اليسرى النجاسات والأقذار - بين النبي ﷺ أن كلتا يمين الرب مباركة ، ليس فيها نقص ولا عيب بوجه من الوجوه ، كما في صفات المخلوقين مع أن اليمين أفضلهما كما في حديث آدم قال : اخترت يمين ربي ، وكلتا يدي ربي يمين مباركة (١) فإنه لا نقص في صفاته ، ولا ذم في أفعاله بل أفعاله كلها إما فضل وإما عدل .

وفي الصحيحين عن أبي موسى ، عن النبي ﷺ قال : « يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ، فإنه لم يغض ما في يمينه والقسط بيده الأخرى يرفع ويخفض » (٢) فبين ﷺ أن الفضل بيده اليمنى ، والعدل بيده الأخرى .

ومعلوم أنه مع أن كلتا يديه يمين فالفضل أعلى من العدل .

وهو سبحانه كل رحمة منه فضل ، وكل نقمة منه عدل ورحمته أفضل

---

١٨ (١٨٢٧) حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وزهير بن حرب وابن نمير قالوا حدثنا سفيان بن عيينة عن عمرو (يعني ابن دينار عن عمرو بن أوس عن عبد الله بن عمرو قال ابن نمير وأبو بكر يبلغ به النبي - ﷺ وفي حديث زهير قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره . ورواه النسائي في أدب القضاة (١) وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ١٦٠ (حلبي) .

(١) سبق تخريج هذا الحديث .

(٢) الحديث رواه ابن ماجه في المقدمة ١٣ باب فيما أنكرت الجهمية ١٩٧ حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ثنا يزيد بن هارون أنبأنا محمد بن اسحاق عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي - ﷺ - قال : وذكره .

ورواه الترمذي في التفسير (٥) (٣) وأحمد بن حنبل في المقدمة ٢ : ٢٤٢ ، ٣١٣ ، ٥٠٠ (حلبي) .

من نقمته .

ولهذا كان المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن ولم يكونوا عن يده الأخرى .

وجعلهم عن يمين الرحمن تفضيل لهم كما فضل في القرآن أهل اليمين ، وأهل الميمنة على أصحاب الشمال وأصحاب المشأمة ، وإن كانوا إنما عذبهم بعدله .

وكذلك الأحاديث والآثار جاءت بأن أهل قبضة اليمين هم أهل السعادة ، وأهل القبضة الأخرى هم أهل الشقاوة .

ومما يبين هذا أن الشر لم يرد في أسمائه ، وإنما ورد في مفعولاته ، ولم يضف إليه إلا على سبيل العموم وأضافه إلى السبب المخلوق ، أو بحذف فاعله ، وذلك كقوله تعالى ﴿ **اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ (١) و﴿ **مِن شَرِّ مَا خَلَقَ** ﴾ (٢) .

وكأسمائه المقترنة مثل : المعطي ، المانع ، الضار ، النافع ، المعز ، المذل ، الخافض ، الرافع ، وكقوله ﴿ **وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ** ﴾(٣) وكقوله ﴿ **صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِينَ** ﴾ (٤) وكقول الجن ﴿ **وَأَنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً** ﴾ (٥) وقد ثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه كان يقول في دعاء الاستفتاح « والخير بيديك والشر ليس إليك » (٦) .

وسواء أريد به : أنه لا يضاف إليك ولا يتقرب به إليك ، أو قيل : إن

---

(١) سورة الزمر آية رقم ٦٢ وتكملة الآية ﴿ **وهو على كل شيء وكيل** ﴾
(٢) سورة الفلق آية رقم ٢ .
(٣) سورة الشعراء آية رقم ٨٠ .
(٤) سورة الفاتحة آية رقم ٧ .
(٥) سورة الجن آية رقم ١٠ .
(٦) سبق تخريج هذا الحديث .

الشر إما عدم وإما من لوازم العدم ، وكلاهما ليس إلى الله ، فهذا يبين أنه سبحانه إنما يضاف إليه الخير ، وأسماؤه تدل على صفاته ، وكذلك كله خير حسن جميل ليس فيه شر ، وإنما وقع الشر في المخلوقات قال تعالى : ﴿ نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُوْرُ الرَّحِيْمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذابُ الأَلِيْمُ ﴾ (١)

وقال تعالى : ﴿ اعْلَمُوْا أَنَّ الله شَدِيدُ الْعِقَابِ ، وأَنَّ الله غَفُوْرٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ إنَّ ربكَ سَرِيْعُ الْعِقَابِ ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيْمٌ ﴾ (٣) .

فجعل المغفرة والرحمة من معاني أسمائه الحسنى التي يسمي بها نفسه ، فتكون المغفرة والرحمة من صفاته .

وأما العقاب الذي يتصل بالعباد فهو مخلوق له ، وذلك هو الأليم ، فلم يقل : وإني أنا المعذب ، ولا في أسمائه الثابتة عن النبي ﷺ اسم المنتقم ، وإنما جاء المنتقم في القرآن مقيداً كقوله ﴿ إنَّا مِنَ الْمُجْرِمِيْنَ مُنتَقِمُونَ ﴾ (٤) وجاء معناه مضافاً إلى الله في قوله ﴿ إنَّ الله عزيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾ (٥) وهذه نكرة في سياق الإثبات ، والنكرة في سياق الإثبات مطلقة ليس فيها عموم على سبيل الجمع . وذلك أن الله سبحانه حكيم رحيم ، وقد أخبر أنه لم يخلق المخلوقات إلا بحكمته ، كما قال في قوله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ والأَرْضَ وَمَا بينهما بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ (٦) وقال تعالى ﴿ إنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ . الَّذِينَ يَذْكُرُونَ الله قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ

---

(١) سورة الحجر آية رقم ٤٩ ـ ٥٠ .
(٢) سورة المائدة آية رقم ٩٨ .
(٣) سورة الأنعام آية رقم ١٦٥ .
(٤) سورة السجدة آية رقم ٢٢ .
(٥) سورة ابراهيم آية رقم ٤٧ .
(٦) سورة ص آية رقم ٢٧ .

وَالأَرْضِ ، رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَاطِـلاً ﴾ (١) وقال تعـالى ﴿ وَمَا خَلَقْنَـا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ . لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لاَتَّخَذْنَاهُ مِن لَدُنَّا إن كُنَّـا فَاعِلِينَ ﴾ (٢) .

وقـال في السورة الأخـرى ﴿ مَا خَلَقْنَـاهُمَا إلاَّ بِـالحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَـرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) وهذا يبين أن معنى قوله في سـائر الآيـات ﴿ بالحق ﴾ هـو لهذا المعنى الذي يتضمن حكمته كما قال ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّـمَـوَاتِ وَالأَرْضَ بِالحَقِّ، وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (٤) وقوله ﴿ وَمَـا خَلَقْنَا السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إلاَّ بِالحَقِّ وَإنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَـاصْفَح الصَّفْـحَ الجَمِيلَ (٥) إنَّ رَبَّـكَ هُوَ الخَلاَّقُ العَلِيمُ ﴾ (٦) .

وبعض الناس يظن أن قوله ﴿ هو الخلاق ﴾ إشـارة إلى أنه خـالق أفعال العباد فلا ينبغي التشديد في الإنكار عليهم ، بل يصفح عنهم الصفح الجميـل لأجل القدر ، وهذا من أعظم الجهل ، فإنه سبحانـه قد عـاقب المخالفين لـه ولرسله ، وغضب عليهم ، وأمر بمعـاقبتهم ، وأعد لهم من العـذاب ما ينـافي قول هؤلاء المعطلين لأمره ونهيه ووعده ووعيده .

وقـوله ﴿ فـاصفح الصفـح الجميل ﴾ تعلق بمـا قبله وهـو قـولـه ﴿ وَإنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الجَمِيلَ (٧) ﴾ فإن لهم موعداً يجزون فيه ، كمـا قال تعالى في نظائر ذلك ﴿ فَإنَّمَا عَلَيْكَ البَلاَغُ وَعَلَيْنَا الحِسَابُ ﴾ (٨) .

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٩٠ ـ ١٩١ .
(٢) سورة الأنبياء آية رقم ١٦ ـ ١٧ .
(٣) سورة الدخان آية رقم ٣٩ .
(٤) سورة الأنعام آية رقم ٧٣ وقد جاءت في المطبوعة محرفة بدون (الواو)
(٥) سورة الحجر آية رقم ٨٥ .
(٦) سورة الحجر آية رقم ٨٦ .
(٧) سورة الحجر آية رقم ٨٥ .
(٨) سورة الرعد آية رقم ٤٠ .

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ إِلَّا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ (١) وقوله ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ (٢) .

وقوله ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) ولم يعذر الله أحداً قط بالقدر ، ولو عذر به لكان أنبياؤه وأولياؤه أحق بذلك ، وآدم إنما حج موسى لأنه لامه على المصيبة التي أصابت الذرية فقال له : لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟ وما أصاب العبد من المصائب فعليه أن يسلم فيها لله ، ويعلم أنها مقدرة عليه ، كما قال تعالى ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ، وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ (٤) .

قال علقمة ـ وقد روى عن ابن مسعود ـ : هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم ، فالعبد مأمور بالتقوى والصبر .

فالتقوى فعل ما أمر به ، ومن الصبر الصبر على ما أصابه وهذا هو صاحب العاقبة المحمودة كما قال يوسف عليه السلام ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٥) .

وقال تعالى ﴿ وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (٦) .

وقال ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ﴾ (٧) وقال ﴿ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ (٨) .

---

(١) سورة الغاشية آية رقم ٢١ ـ ٢٦ .
(٢) سورة الصافات آية رقم ١٧٤ .
(٣) سورة الزخرف آية رقم ٨٩ .
(٤) سورة التغابن آية رقم ١١ .
(٥) سورة يوسف آية رقم ٩٠ .
(٦) سورة آل عمران آية رقم ١٨٦ .
(٧) سورة آل عمران آية رقم ١٢٠ .
(٨) سورة آل عمران آية رقم ١٢٥ .

ولا بد لكل عبد من أن يقع منه ما يحتاج معه إلى التوبة والاستغفار ، ويبتلى بما يحتاج معه إلى الصبر فلهذا يؤمر بالصبر والاستغفار ، كما قيل لأفضل الخلق ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ ﴾ (١) .

وقد بسط الكلام في غير هذا الموضع على مناظرة آدم وموسى ، فإن كثيراً من الناس حملوها على محامل مخالفة للكتاب والسنة وإجماع الأمة ومنهم من كذب بالحديث لعدم فهمه له ، والحديث حق يوجب أن الإنسان إذا جرت عليه مصيبة بفعل غيره مثل أبيه أو غير أبيه ، لا سيما إذا كان أبوه قد تاب منها فلم يبق عليه من جهة الله تبعه ، كما جرى لآدم صلوات الله عليه قال تعالى ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ، ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ (٢) .

وقال ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ (٣) وكان آدم وموسى أعلم بالله من أن يحتج أحدهما لذنبه بالقدر ويوافقه الآخر ، ولو كان كذلك لم يحتج آدم إلى توبة ولا أهبط من الجنة ، وموسى هو القائل : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ﴾ (٤) . وهو القائل ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٥) .

وهو القائل ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (٦) ﴾ وهو القائل لقومه ﴿ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ ﴾ (٧) .

فلو كان المذنب يعذر بالقدر لم يحتج إلى هذا ، بل كان الاحتجاج

---

(١) سورة غافر آية رقم ٥٥ .
(٢) سورة طه آية رقم ١٢١ ـ ١٢٢ .
(٣) سورة البقرة آية رقم ٣٧ .
(٤) سورة القصص آية رقم ١٦ .
(٥) سورة الأعراف آية رقم ١٥١ .
(٦) سورة الأعراف آية رقم ١٥٥ .
(٧) سورة البقرة آية رقم ٥٤ .

بالقدر لما حصل من موسى ملام على ما قدر عليه من المصيبة التى كتبها الله وقدرها .

ومن الإيمان بالقدر أن يعلم العبد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، فالمؤمن يصبر على المصائب ، ويستغفر من الذنوب والمعائب والجاهل الظالم يحتج بالقدر على ذنوبه وسيئاته ، ولا يعذر بالقدر من أساء إليه ، ولا يذكر القدر عند ما ييسره الله له من الخير ، فعكس القضية . بل كان الواجب عليه إذا عمل حسنة أن يعلم أنها نعمة من الله هو يسرها ، وتفضل بها ، فلا يعجب بها ولا يضيفها إلى نفسه كأنه الخالق لها ، وإذا عمل سيئة استغفر وتاب منها ، وإذا أصابته مصيبة سماوية أو بفعل العباد يعلم أنها كانت مقدرة مقضية عليه ، وهذا مبسوط في موضعه .

والمراد هنا أنه سبحانه بين أنه إنما خلق المخلوقات لحكمته ، وهذا معنى قوله : ﴿ **بالحق** ﴾ .

وقد ذم من ظن أنه خلق ذلك باطلاً وعبثاً فقال : ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ** ﴾ [1] .

وقال ﴿ **أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدىً** ﴾ [2] وقال ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** ﴾ [3] فلا بد من جزاء العباد على أعمالهم ، فلهذا قيل : ﴿ **فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الجَمِيلَ** ﴾ [4] .

ولله سبحانه في كل ما يخلقه حكمة يحبها ويرضاها وهو سبحانه أحسن كل شيء خلقه ، واتقن كل ما صنع ، فما وقع من الشر الموجود في

---

(١) سورة المؤمنون آية رقم ١١٥ .

(٢) سورة القيامة آية رقم ٣٦ .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ١٩٠ - ١٩١

(٤) سورة الحجر آية رقم ٨٥ .

المخلوقات فقد وجد لأجل تلك الحكمة المطلوبة المحبوبة المرضية فهو من الله حسن جميل ، وهو سبحانه محمود عليه ، وله الحمد على كل حال ، وإن كان شراً بالنسبة إلى بعض الأشخاص . وهذا موضوع عظيم قد بسط في غير هذا الموضع ، فإن الناس ـ في باب خلق الرب وأمره ولم فعل ذلك ـ على طرفين ووسط :

فالقدرية من المعتزلة وغيرهم قصدوا لتعظيم الرب وتنزيهه عما ظنوه قبيحاً من الأفعال وظلماً ، فأنكروا عموم قدرته ومشيئته ، ولم يجعلوه خالقاً لكل شيء ، ولا أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، بل قالوا : يشاء ما لا يكون ويكون ما لا يشاء ، ثم إنهم وضعوا لربهم شريعة فيما يجب عليه ويحرم ـ بالقياس على أنفسهم ـ وتكلموا في التعديل والتجوير بهذا القياس الفاسد الذي شبهوا فيه الخالق بالمخلوق فضلوا وأضلوا ، وقابلهم الجهمية الغلاة في الجبر ، فأنكروا حكمة الله ورحمته .

وقالوا : لم يخلق لحكمة ، ولم يأمر بحكمة ، وليس في القرآن « لام كي » لا في خلقه ولا في أمره . وزعموا أن قوله ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ﴾ [1] .

و ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ﴾ [2] .

وقوله ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾[3] .

وقوله ﴿ وَلِتُكْمِلُوا العِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا الله عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ﴾ [4] وقوله ﴿ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَىٰ الله حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [5] وأمثال ذلك ـ إنما اللام فيه لام العاقبة . كقوله ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ [6] وقول

---

(١) سورة الجاثية آية رقم ١٣ .
(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٩ .
(٣) سورة النجم آية رقم ٣١ .
(٤) سورة البقرة آية رقم ١٨٥ .
(٥) سورة النساء آية رقم ١٦٥ .
(٦) سورة القصص آية رقم ٨ .

القائل : لدوا للموت وابنـوا للخراب . ولم يعلمـوا أن لام العاقبـة إنما تصـح ممن يكون جاهلاً بعاقبة فعله كفرعـون الذي لم يكن يـدري ما ينتهي إليـه أمر مـوسى ، أو ممن يكون عـاجزاً عن رد عـاقبة فعله ، كعجـز بني آدم عن دفـع الموت عن أنفسهم والخراب عن ديارهم .

فأما من هو بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ، وهو مريد لكـل ما خلق ، فيمتنع في حقه لام العاقبة التي تتضمن نفي العلم ، أو نفي القدرة .

وأنكر هؤلاء محبة الله ورضاه لبعض الموجودات دون بعض ، وقالـوا : المحبة والرضا هو من معنى الإرادة ، والله مريد لكل ما خلقه فهو راض بذلك محب له .

وزعموا أن ما في القرآن من نفي حبه ورضـاه بالكفـر والمعاصي كقـوله ﴿ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾ [1] ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ [2] .

محمول على عباده الذين لم يقع ذلك منهم ، أو أنه لم يـرده ديناً يثيبهم عليه .

وزعموا أن الله لا يحب ولا يرضى ما أمر به من العبادات إلا إذا وقـع ، فيريده كما يريد حينئذ ما وقع من الكفر والمعاصي . إلى غير ذلك من أقوالهم المبسوطة في غير هذا الموضع ، وكثير من المتأخرين يظن أن هـذا قول أهـل السنة .

وهذا مما لم يقله أحد من سلف الأمة وأئمتهـا . بل جميـع مثبتة القـدر المتقدمين كانوا يفرقـون بين المحبة والـرضا وبين الإرادة ، ولكن أبـو الحسن

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٠٥ وصدر الآية ﴿ وإذا تولى سعى في الأرض ليفسـد فيها ويهلك الحـرث والنسـل ﴾ .

(٢) سورة الزمر آية رقم ٧ .

الأشعري [1] اتبع حبهما في ذلك .

قال أبو المعالي الجويني [2] : ومما اختلف أهل الحق في إطلاقه وعدم إطلاقه المحبة والرضا ، فصار المتقدمون إلى أنه سبحانه لا يحب الكفر ولا يرضاه وكذلك كل معصية .

وقال شيخنا أبو الحسن : المحبة هي الارادة نفسها وكذلك الرضا والاصطفاء ، وهو سبحانه يريد الكفر ، ويرضاه كفراً قبيحاً معاقباً عليه وهو كما قال أبو المعالي ، فإن المتقدمين من جميع أهل السنة على ما دل عليه الكتاب والسنة من أنه سبحانه لا يرضى ما نهى عنه ولا يحبه . وعلى ذلك قدماء أصحاب الأئمة الأربعة أصحاب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد ، كأبي بكر عبد العزيز وغيره من قدمائهم ، ولكن من المتأخرين من سوى بين الجميع ، كما قاله أبو الحسن ، وهو في الأصل قول لجهم ، فهو الذي قال في القدر بالجبر ، وبما يخالف أهل السنة ، وأنكر رحمة الله تعالى ، وكان يخرج إلى الجذمي فيقول : أرحم الراحمين يفعل هذا ؟ فنفى أن يكون الله أرحم الراحمين ، وقد قال الصادق المصدوق « الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها »[3] .

---

(1) هو علي بن إسماعيل بن اسحاق أبو الحسن ، من نسل الصحابي أبي موسى الأشعري ، مؤسس مذهب الأشاعرة توفي عام ٣٢٤ هـ [راجع طبقات الشافعية ٢ : ٢٤٥ والمقريزي ٢ : ٣٥٩ وابن خلكان ١ : ٣٢٦ والبداية والنهاية ١١ : ١٨٧] .

(2) هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني ، أبو المعالي ركن الدين الملقب بإمام الحرمين توفي عام ٤٧٨ هـ [راجع وفيات الأعيان ١ : ٢٨٧ ، والسبكي ٣ : ٢٤٩ والفهرس التمهيدي ٢٠٩ و٥٥١] .

(3) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الزهد ٣٥ باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة ٤٢٩٧ ـ عن عبد الله بن عمر بن حفص ، عن نافع عن ابن عمر كنا مع رسول الله ـ ﷺ في بعض غزواته وذكره .
ورواه الامام البخاري في كتاب الأدب ١٨ ، ومسلم في التوبة ٢٢ ، وأبو داود في كتاب الجنائز ١ .

وهذه مسائل عظيمة ليس هذا موضع بسطها .

وإنما المقصود هنا التنبيه على الجمل ، فإن كثيراً من الناس يقرأ كتباً مصنفة في أصول الدين وأصول الفقه ، بل في تفسير القرآن والحديث ، ولا يجد فيها القول الموافق للكتاب والسنة الذي دل عليه سلف الأمة وأئمتها ، وهو الموافق لصحيح المنقول وصريح المعقول ، بل يجد أقوالاً كل منها فيه نوع من الفساد والتناقض ، فيحار ما الذي يؤمن به في هذا الباب ، وما الذي جاء به الرسول ، وما هو الحق والصدق إذ لم يجد في تلك الأقوال ما يحصل به ذلك ؟ . وإنما الهدى فيما جاء به الرسول الذي قال الله فيه ﴿ **وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ، أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ** ﴾[1] .

---

(١) سورة الشورى آي رقم ٥٢ - ٥٣ .

فصل

وإذا علم ما دل عليه الشرع مع العقل ، واتفاق السلف من أن بعض القرآن أفضل من بعض ، وكذلك بعض صفاته أفضل من بعض ، بقي الكلام في كون ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ [1] تعدل ثلث القرآن ، ما وجه ذلك ؟

وهل ثوابها بقدر ثواب ثلث القرآن ، وإذا قدر أن الأمر كذلك فما وجه قراءة سائر القرآن ؟

فيقال : أما الأول فقد قيل فيه وجوه أحسنها ـ والله أعلم ـ الجواب المنقول عن الإمام أبي العباس بن سريج ، فعن أبي الوليد القرشي أنه سأل أبا العباس بن سريج عن معنى قول النبي ﷺ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ تعدل ثلث القرآن » [2] .

فقال : معناه أنزل القرآن على ثلاثة أقسام : ثلث منها الأحكام ، وثلث منها وعد ووعيد وثلث منها الأسماء والصفات ، وهذه السورة جمعت الأسماء والصفات .

وقد ذكر أبو الفرج بن الجوزي [3] في هذا الحديث ثلاثة أوجه بدأ

---

(١) سورة الإخلاص آية رقم ١ .

(٢) سبق تخريج هذا الحديث في هذا الجزء .

(٣) هو عبد الرحمن بن علي ، بن محمد الجوزي ، القرشي ، البغدادي ، أبو الفرج علامة عصره في

بهذا الوجه .

فروي قول ابن سريج هذا بإسناده عن زاهد عن الصابوني والبيهقي عن الحاكم أبي عبد الله الحافظ قال : سمعت أبا الوليد حسان بن محمد الفقيه يقول : سألت أبا العباس بن سريج قلت : ما معنى قول النبي ﷺ ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ تعدل ثلث القرآن » ؟

قال : إن القرآن أنزل على ثلاثة أقسام ، فثلث أحكام ، وثلث وعد ووعيد ، وثلث أسماء وصفات ، وقد جمع في قل هو الله أحد أحد الأثلاث وهو الصفات ، فقيل : إنها تعدل ثلث القرآن .

الوجه الثاني ـ من الوجوه الثلاثة التي ذكرها أبو الفرج بن الجوزي ـ أن معرفة الله هي معرفة ذاته ومعرفة أسمائه وصفاته ، ومعرفة أفعاله .

فهذه السورة تشتمل على معرفة ذاته ؛ إذ لا يوجد شيء إلا وجد من شيء ما خلا الله فإنه ليس له كفء ، ولا له مثل .

قال أبو الفرج ذكره بعض فقهاء السلف .

قال : والوجه الثالث : أن المعنى من عمل ما تضمنته من الاقرار بالتوحيد والإذعان للخالق كان كمن قرأ ثلث القرآن ولم يعمل بما تضمنته .

ذكره ابن عقيل [1] ، قال ابن عقيل : ولا يجوز أن يكون المعنى : من قرأها فله أجر ثلث القرآن لقول رسول الله ﷺ : من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات » [2] .

قلت : كلا الوجهين ضعيف .

التاريخ والحديث توفي عام ٥٩٧ هـ [راجع وفيات الأعيان ١ : ٢٧٩ والبداية والنهاية ١٣ : ٢٨ ومفتاح السعادة ١ : ٢٠٧ وذيل الروضتين ٢١ ودائرة المعارف الاسلامية ١ : ١٢٥] .

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٢) الحديث رواه الدارمي في فضائل القرآن ١ .

أما الأول فيدل على ضعفه وجوه :

الأول : أن نقول : القرآن ليس كله هو المعرفة المذكورة ، بل فيه أمر بالأعمال الواجبة ، ونهي عن المحرمات ، والمطلوب من العباد المعرفة الواجبة والعمل الواجب ، والأمة كلها متفقة على وجوب الأعمال التي فرضها الله ، لم يقل أحد : بأنها ليست من الواجبات ، وإن كان طائفة من الناس نازعوا في كون الأعمال من الإيمان ، فلم ينازعوا في أن الله فرض الصلوات الخمس ، وغيرها من شرائع الإسلام وحرم الفواحش **﴿ ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والبغي بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾** .

وإذا كان كذلك وقدر أن سورة من السور تضمنت ثلث المعرفة لم يكن هذا ثلث القرآن الثاني : أن يقال : قول القائل : معرفة ذاته ومعرفة أسمائه وصفاته ، ومعرفة أفعاله إن أراد بذلك أن ذاته تعرف بدون معرفة شيء من أسمائه وصفاته الثبوتية والسلبية فهذا ممتنع ، ولو قدر إمكان ذلك أو فرض العبد في نفسه ذاتاً مجردة عن جميع القيود السلبية والثبوتية فليس ذاك معرفته بالله البتة ، ولا هو رب العالمين ذات مجردة عن كل أمر سلبي أو ثبوتي ولهذا لم يقل أحد من العقلاء هذا إلا القرامطة [1] الباطنية يقولون : يسلب عنه كل أمر ثبوتي وعدمي ، فلا يقال : موجود ولا معدوم ، ولا عالم وليس بعالم ، ولا قادر ولا ليس بقادر ، ولا نحو ذلك ، وهؤلاء مع أن قولهم معلوم الفساد

---

(١) القرامطة : دعوة اسماعيلية متطرفة جداً ، ظهرت سنة ٩٠٠ هـ في واسط بين الكوفة والبصرة ، وكان زعيمها حمدان القرميطي ، وقد اعتنق الفكرة بعض الأعراب ، والأنباط ، والزنج ، المستعبدين ، وانتهى الأمر بهؤلاء أن جعلوا كل شيء مشاعاً بين الجميع إلا السيوف .
مبادئهم : قالوا : إن الصلاة موالاة إمامهم ، وأن الحج زيارته وخدمته ، أما الصوم فهو الإمساك عن إفشاء سره ، وقالوا من عرف معنى العبادة سقط عنه فرائضها ، فهذه الأفكار تتنافى تماماً مع مبادىء الإسلام ، فهذه الفرقة لم يبق لها أثر في العالم الاسلامي .

بضرورة العقل فإنهم متناقضون أما الأول : فلأن سلب النقيضين ممتنع ، كما أن جمعهما ممتنع فيمتنع أن يكون شيء من الأشياء لا موجوداً ولا معدوماً . وأما تناقضهم لا بد أن يذكروا أنه يسلب عنه النقيضان ببعض الأمور التي يتميز بها ليخبر عنه بهذا السلب . وأي شيء قالوه فلا بد أن يتضمن نفياً أو إثباتاً ، بل لا بد أن يتضمن إثباتاً، وقد بسطنا الرد عليهم في غير هذا الموضع . ولهذا كان كثير من الملاحدة لا يصلون إلى هذا الحد ، بل يقولون كما قال أبو يعقوب السجستاني وغيره من الملاحدة نحن لا ننفي النقيضين ، بل نسكت عن إضافة واحد منهما إليه ، فلا نقول : هو موجود ولا معدوم ، ولا حي ولا ميت ، ولا عالم ولا جاهل ، فيقال لهم : إعراض قلوبكم عن العلم به ، وكف ألسنتكم عن ذكره لا يوجب أن يكون هو في نفسه مجرداً عن النقيضين ، بل يفيد هذا كفركم بالله وكراهتكم لمعرفته ، وذكره وعبادته ، وهذا حقيقة مذهبكم ومن قال من الملاحدة المنتسبين إلى التصوف والتحقيق كابن سبعين [1] والصدر القونوي [2] وغيرهما : إنه وجود مطلق بشرط الإطلاق عن كل وصف ثبوتي وسلبي فهو من جنس هؤلاء . لكن هؤلاء يقولون هو وجود مطلق فيخصونه بالوجود دون العدم ، ثم يقولون هو مطلق ، والمطلق بشرط الإطلاق عن كل قيد سلبي وثبوتي إنكا يكون في الأذهان لا في الأعيان .

وهؤلاء يقولون : الوجود الكلي المقسوم إلى واجب وممكن الذي يجعله الفلاسفة موضوع العلم الإلهي ويسمونه « الحكمة العليا » و« الفلسفة

(١) هو عبد الحق بن ابراهيم بن محمد ، بن نصر ، ابن سبعين الأشبيلي ، المرسي القرطبي . توفي عام ٦٦٩ هـ وسبق الترجمة له . [وراجع جلاء العينين ٥١ ، وفوات الفوات ١ : ٢٤٧ ونفح الطيب ١ : ٤٢١ وشذرات الذهب ٥ : ٣٢٩ والنجوم الزاهرة ٧ : ٢٣٢] .

(٢) هو محمد بن اسحاق بن محمد بن يوسف بن علي القونوي الرومي توفي عام ٦٧٣ هـ وسبق الترجمة له . [وراجع مفتاح السعادة ١ : ٤٥١ ثم ٢ : ٢١١ وطبقات السبكي ٥ : ١٩ ، وجامع كرامات الأولياء ١ : ١٣٣ وكشف الظنون ٢ : ١٩٥٦] .

الأولى » إنما يكون كلياً في الأذهان لا في الأعيان ، فليس في الخارج قط وجود هو بعينه واجب ، وهو بعينه ممكن ولا وجود هو نفسه يتصف به الواجب ، وهو بنفسه يتصف به الممكن ، بل صفة الواجب تختص به ، وصفة الممكن تختص به ، ووجود الواجب يخصه لا يشركه فيه غيره ، ووجود الممكن يخصه لا يشركه فيه غيره . ولهذا كان كل ما وصف به الرب نفسه من صفاته فهي صفات مختصة به يمتنع أن يكون له فيها مشارك أو مماثل ، فإن ذاته المقدسة لا تماثل شيئاً من الذوات ، وصفاته مختصة به فلا تماثل شيئاً من الصفات ، بل هو سبحانه أحد صمد لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

فاسمه « الأحد » دل على نفي المشاركة والمماثلة .

واسمه « الصمد » دل على أنه مستحق لجميع صفات الكمال كما بسط الكلام على ذلك في الشرح الكبير المصنف في تفسير هذه السورة ، وصفات التنزيه كلها ، بل وصفات الإثبات يجمعها هذان المعنيان .

وقد بسط الكلام في التوحيد وأنه نوعان : علمي قولي وعملي قصدي فـ ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ اشتملت على التوحيد العملي نصاً ، وهي دالة على العلمي لزوماً .

و ﴿ قل هو الله أحد ﴾ اشتملت على التوحيد العلمي القولي نصاً وهي دالة على التوحيد العملي لزوماً .

ولهذا كان النبي ﷺ يقرأ بهما في ركعتي الفجر وركعتي الطواف وغير ذلك .

وقد ثبت أنه كان يقرأ أيضاً في ركعتي الفجر بآية الإيمان التي في البقرة ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ ﴾[1] في الركعة الأولى وآية الإسلام التي في آل عمران

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٣٦ وتكملة الآية ﴿ وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم واسماعيل =

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِن دُونِ اللهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (1) .

والمقصود هنا أن صفات التنزيه يجمعها هـذان المعنيان المـذكوران في هذه السورة .

أحدهما : نفي النقائص عنه ، وذلك من لوازم إثبات صفات الكمـال ، فمن ثبت لـه الكمال التـام انتفى النقصان المضـاد له ، والكمـال من مـدلـول اسمه الصمد .

والثـاني : أنـه ليس كمثله شيء في صفـات الكمـال الثـابتـة وهـذا من مدلول اسمه الأحد ، فهذان الاسمان العظيمان ـ الأحـد ، الصمد ـ يتضمنـان تنزيهه من كل نقص وعيب وتنزيهه في صفات الكمـال أن لا يكون لـه مماثـل في شيء منهـا واسمه الصمـد يتضمن إثبات جميـع صفات الكمـال، فتضمن ذلك إثبات جميع صفات الكمال ونفي جميع صفات النقص فالسـورة تضمنت كل ما يجب نفيه عن الله ، وتضمنت أيضاً كل ما يجب إثباته من وجهين ، من اسمه الصمد ومن جهـة أن ما نفى عنـه من الأصول والفـروع والنظراء مستلزم ثبوت صفات الكمال أيضاً ، فـإن كل مـا يمدح بـه الرب من النفي فـلا بد أن يتضمن ثبوتاً ، بل وكذلك كل مـا يمدح بـه شيء من الموجـودات من النفي ، فـلا بـد أن يتضمن ثبـوتـاً ، وإلا فـالنفي المحض معنـاه عـدم محض والعـدم المحض ليس بشيء فضلاً عن أن يكون صفة كمال .

وهذا كما يذكره سبحانه في آية الكرسي مثل قوله : ﴿ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

= وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتي موسى وعيسى ، وما أوتي النبيـون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ .

(1) سورة آل عمران آية رقم ٦٤ .

الحَيُّ القَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ [١] ﴾ فنفي أخذ السنة والنوم له مستلزم لكمال حياته وقيوميته فإن النوم ينافي القيومية ، والنوم أخو الموت . ولهذا كان أهل الجنة لا ينامون .

ثم قال ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [٢] فنفي الشفاعة بدون إذنه مستلزم لكمال ملكه ، إذ كل من شفع إليه شافع بلا إذنه ، فقبل شفاعته كان منفعلاً عن ذلك الشافع ، فقد أثرت شفاعته فيه فصيرته فاعلاً بعد أن لم يكن ، وكان ذلك الشافع شريكاً للمشفوع إليه في ذلك الأمر المطلوب بالشفاعة إذ كانت بدون إذنه ، لا سيما والمخلوق إذا شفع إليه بغير إذنه ، فقبل الشفاعة فإنما يقبلها لرغبة أو لرهبة : إما من الشافع أو من غيره ، وإلا فلو كانت داعيته من تلقاء نفسه تامة مع القدرة لم يحتج إلى شفاعة ، والله تعالى منزه عن ذلك كله ، كما قال في الحديث الالهي : « يا عبادي إنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني ولن تبلغوا ضري فتضروني » [٣] .

ولهذا كان النبي ﷺ يأمر أصحابه بالشفاعة إليه ، فكان إذا أتاه طالب حاجة يقول : اشفعوا تؤجروا ، ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء [٤] » أخرجاه في الصحيحين ، وكان مقصوده أنهم يؤجرون على الشفاعة ، وهو إنما يفعل ما أمره الله به .

وكذلك قوله ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .

(٣) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب البر ٥٥ .

(٤) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الأدب ٣٦ باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضاً ٦٠٢٧ بسنده عن أبي موسى - رضي الله عنه وأيضاً في كتاب الزكاة ٢١ ، وأبو داود في الأدب ١١٧ والترمذي في كتاب العلم ١٤ ، والنسائي في كتاب الزكاة ٦٥ وأحمد بن حنبل في المسند ٤ : ٤٠٠، ٤٠٩، ٤٠٣ (حلبي) .

عِلْمِهِ إلاَّ بِمَا شَاءَ ﴾ [1] .

بين أنهم لا يعلمون من علمه إلا ما علمهم إياه كما قالت الملائكة ﴿ لاَ عِلْمَ لَنَا إلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا ﴾[2] فكان في هذا النفي إثبات أن عباده لا يعلمون إلا ما علمهم إياه فأثبت أنه الذي علمهم ، لا ينالون العلم إلا منه فإنه ﴿ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ [3] و ﴿ عَلَّمَ بِالقَلَمِ . عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [4] ثم قال ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا ﴾ [5] .

أي لا يكرثه ولا يثقله ، وهذا النفي تضمن كمال قدرته فإنه مع حفظ للسموات والأرض لا يثقل ذلك عليه كما يثقل على من في قوته ضعف .

وهذا كقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْض وَما بَيْنَهُمَا في سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُغُوبٍ ﴾ [6] فنزه نفسه عن مس اللغوب .

قال أهل اللغة : اللغوب الإعياء والتعب وكذلك قوله ﴿ لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ ﴾ [7] الإدراك عند السلف والأكثرين هو الإحاطة .

وقال طائفة : هو الرؤية ، وهو ضعيف ، لأن نفي الرؤية عنه لا مدح فيه ، فإن العدم لا يرى ، وكل وصف يشترك فيه الوجود والعدم لا يستلزم أمراً ثبوتياً فلا يكون فيه مدح ، إذ هو عدم محض ، بخلاف ما إذا قيل لا يحاط به ، فإنه يدل على عظمة الرب جل جلاله .

وإن العباد مع رؤيتهم له لا يحيطون به رؤية ، كما أنهم مع معرفته لا يحيطون به علماً ، وكما أنهم مع مدحه والثناء عليه لا يحيطون ثناء عليه ، بل

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .
(٢) سورة البقرة آية رقم ٣٢ .
(٣) سورة العلق آية رقم ١ ـ ٢ .
(٤) سورة العلق آية رقم ٤ ـ ٥ .
(٥) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .
(٦) سورة ق آية رقم ٣٨ .
(٧) سورة الأنعام آية رقم ١٠٣ .

هو كما أثنى على نفسه المقدسة .

ولهذا قال أفضل الخلق وأعلمهم « لا أحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » (1) .

وهذه الأمور مبسوطة في موضع آخر .

والمقصود هنا : الكلام على معنى كون ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ تعدل ثلث القرآن ، وبيان أن الصواب القول الأول الوجه الثالث الذي يدل على فساد القول الثاني أن يقال : قول القائل : معرفة أفعاله « إن أراد بذلك معرفة آياته الدالة عليه فهذه من تمام معرفته ، ويبقى معرفة وعده ووعيده ، وقصص الأمم المؤمنة والكافرة لم يذكره وهو القسم الثاني من أقسام معاني القرآن ، كما لم يذكر أمره ونهيه ، وإن جعل هذه من مفعولاته فمعلوم أن معرفة الوعد والوعيد والقصص المطلوب فيها الإيمان باليوم الآخر ، وجزاء الأعمال ، كما أن المطلوب بالأمر والنهي طاعته ، فإنه لا بد من الإيمان بالله واليوم الآخر ، ومن العمل الصالح لكل أمة كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ (2) .

الوجه الرابع : أن يقال : ما ذكره من نفي المثل عنه ومن نفي الولادة مذكور في غير هذه السورة فلم يختص بهذا المعنى الوجه الخامس : أن يقال : هب أنها تضمنت التنزيه كما ذكره الله ، فمعرفة الله ليست بمعرفة

---

(1) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الدعاء ٢ باب ما تعوذ منه رسول الله ﷺ ٣٨٤١ ـ عن الأعرج عن أبي هريرة ، عن عائشة قالت : وذكره ، ورواه الامام مسلم في كتاب الصلاة ٢٢٢ ، وأبو داود في كتاب الصلاة ١٤٨ ، والوتر ٥ ، والنسائي في قيام الليل ٥١ ، والترمذي في الدعوات ٧٥ ، ١١٢ وصاحب الموطأ في مس القرآن ٣١ ، وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٩٦ ، ١١٨ ، ١٥٠ ، ٦ : ٥٨ (حلبي) .

(2) سورة البقرة آية رقم ٦٢ .

صفـات السلب . بل الأصـل فيها صفـات الإثبات ، والسلب تـابع ومقصـوده تكميل الإثبات ، كما أشرنا إليه من أن كل تنزيه مدح به الرب ففيه إثبات .

ولهـذا كان قـول « سبحان الله » متضمنـاً تنزيـه الرب وتعـظيمه ، ففيهـا تنـزيهه من العيـوب والنقائص ، وفيهـا تعظيمـه سبحانـه وتعالى كمـا قـد بسط الكلام على ذلك في مواضع وأما القول الثالث وهو المراد به أن من عمـل بما تضمنته كان كمن قرأ ثلث القرآن ولم يعمل بما تضمنته ، فهذا أيضاً ضعيف ، وما نفاه من المعادلة فهو مبني على قول من اعتبر في مقدار الأجر كثرة الحروف وهـو قول بـاطل ، كمـا قد بين في مـوضعه ، وذلـك أن العمل بهـا إن أراد به العمل الواجب من التصديق بمضمونهـا ، وتوحيـد الله فهذا أجـره أعـظـم من أجر من قرأ القرآن جملة ولم يعمل بذلك . فإنه إن خلا عن الإيمان بمضمون القرآن فهو منافق ، وإن خلا عما يجب عليه من العمل فهو فاسق ، ومعلوم أن هذا لو قرأ القرآن عشر مرات لم يكن أجره مثل أجر المؤمن المتقي .

وأيضاً فإن هذا الأجر على الإيمان بمضمونها سواء قرأها أو لم يقـرأها ، والأجـر المذكـور في الحديث هـو لمن قرأهـا فلا بـد أن يكون قـد قرأهـا مع الإيمان بما تضمنته وأيضاً فالنبي ﷺ جعل قراءتها تعدل ثلث القرآن ، وقـرأها على أصحابه ، وأخبرهم أنه قرأ عليهم ثلث القرآن ، فكانت قراءتـه لها تعـدل قراءته هو للثلث وكذلك الرجل الذي جعل يرددها .

وكذلك إخباره لهم بأنها تعدل ثلث القرآن ، وإنما يراد به ثلثـه إذا قرأوه هم ، لم يرد به الثلث إذا قرأها منافق لا يؤمن بمعنى ﴿ **قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ** ﴾ .

ثم إن كـون المراد بـذلك من قـرأ الثلث بـلا إيمـان بهـا معنى ليس في اللفظ ما يدل عليه ، وإنما يدل اللفظ على نقيضه .

وهـذا التأويـل وأمثالـه هو من تحـريف الكلم عن مواضعـه الذي ذم الله عليـه من فعـل ذلـك من أهـل الكتـاب وهـو نـوع من الإلحـاد في كـلام الله ورسوله .

وقد ذكر أبو حامد الغزالي [1] وجهاً آخر غير هذه الثلاثة فقال في كتابه « جواهر القرآن ودرره » أما قوله : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ تعدل ثلث القرآن ، ما أراك تفهم وجه ذلك ، فتارة تقول : ذكر هذا للترغيب في التلاوة ، وليس المعنى به التقدير ، وحاشا منصب النبوة عن ذلك .

وتارة تقول : هذا بعيد عن الفهم والتأويل ؛ فإن آيات القرآن تزيد على ستة آلاف آية ، فهذا القدر كيف يكون ثلثها ؟ وهذا لقلة معرفتك بحقائق القرآن ، ونظرك إلى ظاهر ألفاظه ، فتظن أنها تعظم وتكثر بطول الألفاظ ، وتقصر بقصرها ، وذلك كظن من يؤثر الدراهم الكثيرة على الجوهرة الواحدة نظراً إلى كثرتها .

فاعلم أن سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن قطعاً ، وترجع إلى الأقسام الثلاثة التي ذكرناها في مهمات القرآن وهي : معرفة الله ، ومعرفة الآخرة ، ومعرفة الصراط المستقيم ، فهذه المعارف الثلاثة هي المهمة والباقي توابع ، وسورة الإخلاص تشتمل على واحدة من الثلاث ، وهي معرفة الله وتقديسه وتوحيده عن مشارك في الجنس والنوع ، وهو المراد بنفي الأصل والفرع والكفء ، والوصف بالصمد يشعر بأنه السيد الذي لا يقصد في الوجود للحوائج سواه .

نعم ليس فيها حديث الآخرة والصراط المستقيم فلذلك تعدل ثلث القرآن ، أي ثلث الأصول من القرآن ، كما قال « الحج عرفة » [2] أي هو

---

(١) هو محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي ، أبو حامد ، حجة الاسلام توفي عام ٥٠٥ هـ سبق الترجمة له . [وراجع وفيات الأعيان ١ : ٤٦٣ وطبقات الشافعية ٤ : ١٠١ وشذرات الذهب ٤ : ١٠ ومفتاح السعادة ٢ : ١٩١ ـ ٢١٠ وتبين كذب المفتري ٢٩١ ـ ٣٠٦] .

(٢) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب المناسك ٥٧ باب من أتى عرفة قبل الفجر ليلة جمع : ٣٠١٥ عن بكير بن عطاء ، سمعت عبد الرحمن بن يعمر الديلي ، قال : شهدت رسول الله ـ ﷺ ـ وهو واقف بعرفة ، وأتاه ناس من أهل نجد فقالوا : يا رسول الله كيف الحج . . ؟ قال : الحج عرفة » . =

الأصل ، والباقي تبع .

قلت : آيات القرآن نوعان : علمية وعملية وفي الآيات ما يجمع الأمرين .

وأبو حامد جمع العلميات المتعلقة بذات الله وصفاته وأفعاله ، دون ما يتعلق باليوم الآخر والقصص ، وسماها « جواهر القرآن » وجمع العمليات وسماها « درر القرآن » وجعل الشطر الأول من « الفاتحة » من الجواهر والثاني من الدر ، والآيات التي تجمع المعنيين يذكرها في أغلب النوعين عليها ، ومجموع ما ذكره من القسمين ربع آيات القرآن نحو ألف وخمسمائة آية ، وجعل معاني القرآن ستة أصناف : ثلاثة أصول ، وثلاثة توابع فذكر أن القرآن هو البحر المحيط ، ومنه يتشعب علم الأولين والآخرين .

وقال : سر القرآن ولبابه الأصفى ، ومقصده الأقصى دعوة العباد إلى الجبار الأعلى ، رب الآخرة والأولى وخالق السموات العلى والأرضين السفلى .

فالثلاثة المهمة : تعريف المدعو إليه ، وتعريف الصراط المستقيم الذي تجب ملازمته في السلوك إليه . وتعريف الحال عند الوصول إليه .

وأما الثلاثة المعنية **فأحدها** : أحوال المجيبين للدعوة ولطائف صنع الله فيهم ، وسره ومقصوده التشويق والترغيب ، وتعريف أحوال الناكبين والناكلين عن الإجابة ، وكيفية قمع الله لهم ، وتنكيله بهم . وسره ومقصوده الاعتبار والترهيب .

وثانيها : حكاية أقوال الجاحدين ، وكشف فضائحهم وجهلهم بالمجادلة والمحاجة على الحق . ومقصوده وسره في جنبة الباطل الإفصاح

= ورواه الترمذي في كتاب تفسير سورة ٢ : ٢٢ ، وأبو داود في كتاب المناسك ٦٨ ، والدارمي في المناسك ٥٤ .

والتحذير والتنفير وفي جنبة الحق الإيضاح والتثبيت والتقرير .

وثالثها : تعريف عمارة منازل الطريق ، وكيفية أخذ الزاد والراحلة ، والأهبة للاستعداد . قلت : ما ذكره من أن أصول الإيمان ثلاثة فهو حق كما ذكره ، ولا بد من الثلاثة في كل ملة ودين كما قال الله تعالى ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ [1] .

ونحو ذلك في سورة المائدة، فذكر هذه الأصول الثلاثة : الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، والعمل الصالح وأما الثلاثة الأخر التابعة فهي داخلة في هذه الثلاثة ، فإن ما في القرآن من ذكر أحوال السعداء والأشقياء في الآخرة فهو من تفضيل الإيمان باليوم الآخر ، وما فيه من عمارة الطريق فهو من العمل الصالح ، وما فيه من المجادلة والمحاجة فذاك من تمام الإخبار بالثلاثة ، فإنه إذا أخبر بالثلاثة ذكر الآيات والأدلة المثبتة لذلك وذكر شبه الجاحدين وبين فسادها .

وقد ذكر أبو حامد ذلك فقال : القسم الجائي لمحاجة الكفار ومجادلتهم وإيضاح مخازيهم بالبرهان الواضح ، وكشف أباطيلهم وتخابيلهم ، وأباطيلهم ثلاثة أنواع :

الأول : ذكر الله بما لا يليق به من أن الملائكة بناته ، وأن له ولداً شريكاً ، وأنه ثالث ثلاثة .

الثاني : ذكر رسول الله ﷺ بأنه ساحر وكاهن وشاعر ، وإنكار نبوته .

وثالثها : إنكار اليوم الآخر وجحد البعث والنشور والجنة والنار ، وإنكار

---

(١) سورة البقرة اية رقم ٦٢ .

عاقبة الطاعة والمعصية .

وأما ما فيه من الإخبار بأحوال المؤمنين والكفار في الدنيا - وهو الذي أراده أبو حامد بذكر أحوال المستجيبين والناكبين - فهذا من تمام الأدلة والآيات ، فإن هذا أمر شوهد في الدنيا ورئيت آثاره ، وتواترت أخباره ، ليس هو مما بعد الموت الذي هو غيب عن العباد .

ولهذا يذكر سبحانه هذا في معرض الاحتجاج والاستدلال ، مع ما في ذلك من الموعظة كقوله : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ (١) ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ، فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ العَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ . إنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ ﴾ (٢)

﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أن يَخْرُجُوا ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ ، فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي المُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِي الأَبْصَارِ ﴾ (٣) .

وقوله ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُكَذِّبِينَ ﴾ (٤) .

وقوله ﴿ فَكَأَيِّن مِن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ . أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ، أَوْ آذَان يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الأبصار وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِي فِي

(١) سورة يوسف آية رقم ١١١ .
(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٣ .
(٣) سورة الحشر آية رقم ٢ .
(٤) سورة الأنعام آية رقم ١١ .

الصُّدُورِ ﴾ [1] .

وقـوله ﴿ أَوَلَمْ يَسِيـرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَـانَ عَاقِبَـةُ الَّـذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَـانُوا أَشَـدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً، وَأَثَـارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَـا أَكْثَرَ مِمَّـا عَمَرُوهَـا ، وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالبَيِّنَـاتِ ﴾ [2] الآية .

وقوله تعالى لما ذكر قصة قوم لوط ﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَـا عَلَيْهِمْ حِجَـارَةً مِن سِجِّيـلٍ ، إِنَّ فِي ذَلِـكَ لآيَـاتٍ لِلْمُتَـوَسِّمِـينَ ، وَإِنَّهَا لَبِسَبِيـلٍ مُقِيمٍ ﴾[3] . والمتـوسم : المستدل بـالسمة والسيـما ، وهي العلامـة قـال تعـالى ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ، وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ القَوْلِ ﴾[4] .

فمعرفة المنافقين في لحن القول ثابتة مقسم عليها ، لكن هذا يكون إذا تكلموا ، وأما معرفتهم بالسيما فموقوف على مشيئة الله ، فإن ذلك أخفى .

وفي الحـديث الذي رواه التـرمذي وحسنـه عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله ، ثم قـرأ قولـه تعالى ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [5] قال مجاهد وابن قتيبة : للمتفرسين .

قال ابن قتيبة : يقال : توسمت في فلان الخير أي : تبينته .

وقال الزجـاج : المتوسمـون في اللغة النـظار المثبتون في نـظرهم حتى يعرفوا حقيقة سمة الشيء يقال : توسمت في فلان كذا أي عرفت .

وقوله : المثبتون في نظرهم . أي في نظر أعينهم حتى يعرفـوا السيما ، بخلاف الذين قيل فيهم ﴿ وَكَأَيِّن مِنْ آيَـةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يمـرون عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾[6] .

---

(1) سورة الحج آية رقم ٤٥ - ٤٦ .
(2) سورة الروم آية رقم ٩ .
(3) سورة الحجر آية رقم ٧٤ - ٧٦ .
(4) سورة محمد آية رقم ٣٠ .
(5) سورة الحجر آية رقم ٧٥ .
(6) سورة يوسف آية رقم ١٠٥ .

وقال الضحاك : الناظرون .

وقال ابن زيد : المنتقدون .

وقال قتادة : المعتبرون . وكل هذا صحيح ؛ فإن المتوسم يجمع هذا كله .

ثم قال تعالى ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ ﴾ [(١)] .

ثم ذكر قصة أصحاب الأيكة ، ثم قال ﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ ﴾ [(٢)] أي بطريق متبين للناس واضح وكذلك في موضع آخر لما قال : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِين وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيْمَ ﴾ [(٣)] وقال في سفينة نوح ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُدَّكِرٍ ﴾ [(٤)] .

فأخبر أنه أبقى آيات ، وهي العلامات والدلالات فدل ذلك على أن ما يخصه من أخبار المؤمنين وحسن عاقبتهم في الدنيا ، وأخبار الكفار وسوء عاقبتهم في الدنيا هو من باب الآيات والدلالات التي يستدل بها ويعتبر بها علماً ووعظاً ، فيفيد معرفة صحة ما أخبرت به الرسل ، ويفيد الترغيب والترهيب .

ويدل ذلك على أن الله يرضى عن أهل طاعته ويكرمهم ، ويغضب على أهل معصيته ويعاقبهم كما يستدل بمخلوقاته العامة على قدرته ، فإن الفعل يستلزم قدرة الفاعل ، ويستدل بأحكام الأفعال على علمه ، لأن الفعل المحكم يستلزم علم الفاعل وبالتخصيص على مشيئته ، لأن التخصيص مستلزم لإرادته ، فكذلك يستدل بالتخصيص بما هو أحمد عاقبة على

---

(١) سورة الحجر آية رقم ٧٦ .

(٢) سورة الحجر آية رقم ٧٩ .

(٣) سورة الذاريات آية رقم ٣٥ ـ ٣٧ .

(٤) سورة القمر آية رقم ١٥ .

حكمته ، لأن تخصيص الفعل بما هو محمود في العاقبة مستلزم للحكمة .

ويستدل بتخصيص الأنبياء وأتباعهم بالنصر وحسن العاقبة ، وتخصيص مكذبيهم بالخزي وسوء العاقبة على أنه يأمر ويحب ويرضى ما جاءت به الأنبياء ويكره ويسخط ما كان عليه مكذبوهم ؛ لأن تخصيص أحد النوعين بالإكرام والنجاة والذكر الحسن والدعاء وتخصيص الآخر بالعذاب والهلاك وقبح الذكر واللعنة : يستلزم محبة ما فعله الصنف الأول ، وبغض ما فعله الصنف الثاني . وأما الإرادة التي يقال فيها : إنها تخص أحد المثلين عن الآخر بلا سبب ، فتلك هل يوصف الله بها ؟ فيه نزاع .

فإن قيل : إنه لا يوصف بها فلا كلام .

وإن قيل : إنه يوصف بها فمعلوم أن تخصيص الأنبياء عليهم السلام بهذا ، وتخصيص أعدائهم بهذا لم يصدر عن تخصيص بلا مخصص ، بل يعلم أنه قصد تخصيص هؤلاء بالإكرام ، وهؤلاء بالعقاب وأن إيمان هؤلاء سبب تخصيصهم بهذا ، وكفر هؤلاء سبب تخصيصهم بهذا .

ولبسط هذه الأمور موضع آخر .

لكن المقصود هنا أن هذه الثلاثة داخلة في الثلاثة الأول ، ولكن أبو حامد يجعل الحجاج صنعة الكلام ويجعل عمارة الطريق علم الفقه ، ويجعل أخبار الأنبياء علم القصص .

ويقول : إن الكلام والجدل ليس فيه بيان حق بدليل بل إنما فيه دفع البدع ببيان تناقضها ، ويجعل أهله من جنس خضراء الحجيج ، ويجعل علم الفقه ليس غايته إلا مصلحة الدنيا ، وهذا مما نازعه فيه أكثر الناس وتكلموا فيه بكلام ليس هذا موضعه . كما تكلموا على ما ذكره في هذا الكتاب « جواهر القرآن » وغيره من كتبه من معاني الفلسفة ، وجعل ذلك هو باطن القرآن ، وكلام علماء المسلمين على رد هذا أكثر من كلامهم على رد ذلك ؛

فإن هذا فيه مما يناقض مقصود الرسول أمور عظيمة ، كما تكلموا على ما ذكره في النبوة بما يشبه كلام الفلاسفة فيها . والمقصود أن هذا الذي ذكره في ﴿ **قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ** ﴾ أحسن من قول كثير من الناس فيها ، وهو أقرب إلى القول الذي ذكرناه عن ابن سريج ونصرناه ، لكن ذلك القول هو الصواب بلا ريب ، فإن النبي ﷺ أخبر . بأن الله جزأ القرآن ثلاثة أجزاء ، فجعل ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ جزءاً من اجزاء القرآن ، وهذا يقتضي أن مجموع القرآن ثلاثة أجزاء ، ليس هو ستة : ثلاثة أصول ، وثلاثة فروع .

وكذلك أخبر أن ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ تعدل ثلث القرآن ، لم يقل ثلث المهم منه ، ولا ثلث أكثره ، ولا أصوله ، فوجب أن يكون القرآن كله ثلاثة أصناف ، وعلى ما ذكره أبو حامد هو ستة : ثلاثة مهمة ، وثلاثة توابع ، والسورة أحد الثلاثة المهمة وهذا خلاف الحديث .

وأيضاً : فإن تقسيم القرآن إلى ثلاثة أقسام تقسيم بالدليل فإن القرآن كلام ، والكلام إما إخبار وإما إنشاء والإخبار إما عن الخالق وإما عن المخلوق ، فهذا تقسيم بين ، وأما جعل علم الفقه خارجاً عن الصراط المستقيم والعمل الصالح ، وجعل علم الأدلة والحجج خارجاً عن الإيمان والمعرفة بالله واليوم الآخر . فهذا مردود عند جماهير السلف والخلف . وأبو حامد إنما ذكر هذا لأنه يقول : إنما يعرف معاني ذلك بطريق التصفية فقط ، لا بطريق الخبر النبوي ، ولا بطريق النظر الاستدلالي ، فلا يعرف ذلك بالسمع ولا بالعقل .

وهذا مما أنكره عليه الناس وصنفوا كتباً في رد ذلك كما فعل جماعات من العلماء ، ولكن عذر أبي حامد أنه لم يجد فيما علمه من طريق الفلاسفة وأهل الكلام ما يبين الحق في ذلك ، ولم يعلم طرقاً عقلية غير ذلك . فنفى أن يعلم بطريق النظر فيه .

وأما الطرق الخبرية الثبوتية فلم يكن له خبرة بما صح من ألفاظ

الرسول ، وبطريق دلالة ألفاظه على مقاصده ، وظن ـ بما شارك به بعض أهل الكلام والفلسفة ـ أن الرسول لم يبين مراده بألفاظه فتركب من هذا وهذا سد باب الطريق العقلي والسمعي ، وظن أن المطلوب يحصل له بطريق التصفية والعمل ، فسلك ذلك ، فلم يحصل له المقصود أيضاً ، فرجع في آخر عمره إلى قراءة البخاري ومسلم .

وقد ذكر القاضي عياض [1] أقوالاً في كون ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ تعدل ثلث القرآن .

وكذلك المازري قبله قال : قال الإمام ـ يعني أبا عبد الله المازري ـ قيل معنى ذلك : أن القرآن على ثلاثة أنحاء : قصص وأحكام ، وأوصاف لله جلت قدرته .

و ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ تشتمل على ذكر الصفات فكانت ثلثاً من هذه الجهة ، قال : وربما أسعد هذا التأويل ظاهر الحديث الذي ذكر أن الله جزأ القرآن .

قلت : هذا هو قول ابن سريج ـ وهو الذي نصرناه ـ ذكره المازري في كلام ابن [2] بطال كما سيأتي .

قال : وقيل : معنى ثلث القرآن لشخص بعينه قصده رسول الله ﷺ ، وذكره ابن بطال أيضاً .

---

(١) هو عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي أبو الفضل عالم المغرب ، وإمام أهل الحديث في وقته ، كان من أعلم الناس بكلام العرب ، وأنسابهم وأيامهم ، ولي قضاء سبته ، ثم قضاء غرناطة توفي بمراكش عام ٥٤٤ هـ من كتبه « الشفا بتعريف حقوق المصطفى » [راجع وفيات الأعيان ١ : ٣٩٢ وقضاة الأندلس ١٠١ وقلائد العقبان ٢٢٢ والفهرس التمهيدي ٣٦٨] .

(٢) هو علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال ، أبو الحسن ، عالم بالحديث من أهل قرطبة ، له شرح البخاري . الجزء الأول منه ، والثالث والرابع في الأزهرية ، والثاني : كتب سنه ٧٧٦ في خزانة القرويين بفاس والخامس (الأخير منه) منه قطعة مخطوطة في استنبول أولها (باب زيادة الايمان ونقصانه) توفي عام ٤٤٩ هـ [راجع شذرات الذهب ٣ : ٢٨٣ والأزهرية ١ : ٥١٤] .

قـال : وقيل معنـاه إن الله يتفضـل بتضعيف الثـواب لقـارئهـا ، ويكـون منتهى التضعيف إلى مقـدار ثلث ما يستحق من الأجـر على قـراءة القـرآن من دون تضعيف أجر . قال : وفي بعض روايات هذا الحـديث أن رسول الله ﷺ حشد الناس وقال : سأقـرأ عليكم ثلث القرآن فقـرأ ﴿ **قل هـو الله أحد** ﴾ قـال المازري : وهذه الـرواية تقـدح في تأويـل من جعل ذلـك لشخص بعينه قـال القاضي عياض : قال بعضهم قال الله تعالى ﴿ **آلر . كِتَـابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُـهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَـدُنْ حَكِيمٍ خَبِيـرٍ** ﴾ (1) ثم بين التفضيـل فقـال ﴿ **أَلَّا تَعْبُـدُوا إِلَّا اللهَ** ﴾ فهذا فصل الألوهية ، ثم قـال ﴿ **إِنَّنِي لَكُم مِنْهُ نَـذِيرٌ وَبَشِيـرٌ** ﴾ (2) وهذا فصل النبوة ، ثم قال :

﴿ **وَإِنِ اسْتَغْـفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ** ﴾ (3) .

فهذا فصل التكليف ، وما وراءه من الوعد والوعيد وعامـة أجزاء القـرآن مما فيه من القصص فمن فصل النبوة لأنها من أدلتها وفهمها أيضاً .

وهذا يدل على أن ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ جمعت الفصل الأول .

قلت : مضمون هذا القول أن معاني القرآن ثلاثة أصناف . الالهيـات ، والنبوات ، والشرائع .

وأن هـذه السورة منهـا الالهيات ، وجعـل صـاحب هـذا القـول الـوعـد والوعيد والقصص من قسم النبوة ؛ لأن ذلك مما أخبر به النبي ﷺ أو مما يدل على نبوته .

وهذا القول ضعيف أيضاً ، فإنه يقال : والأمر والنهي أيضاً ممـا جاء بـه

---

(1) سورة هود آية رقم 1 .

(2) سورة هود آية رقم 2 .

(3) سورة هود آية رقم 3 وتكملة الآية ﴿ **يمتعكم متاعاً حسناً الى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير** ﴾ .

النبي ، كما جاء بالوعد والوعيد . ويقال أيضا : القصص تدل على الأمر والنهي كما تدل على النبوة ، فإنها تدل على إكرامه لمن أطاعه ، وعقوبته لمن عصاه ، وهذا تقرير للأمر والنهي كما تقدم . وأيضاً : فإن مقصود النبوة هو الإخبار بما أمر الله به وبما أخبر به ، وما دل على إثبات النبوة من القصص يدل على إثبات ما جاء به النبي ، وما دل على إثبات ما جاء به النبي يدل على الأمر والنهي الذي جاء به النبي فهما متلازمان .

ثم الالهيات أيضاً هي مما جاء به النبي ﷺ فبين الدلائل العقلية على ما يمكن أن يعرف بالعقل . وأخبر عن الغيب المطلق الذي تعجز العقول عن معرفته فلا معنى لجعل القصص داخلة في النبوة دون الالهيات فإنه إن عنى أن القصص تدل على نبوته فهي تدل من جهة إخباره بها كإخباره بغيرها من الغيب ، وفيما أخبر به من الالهيات والأمور المستقبلات ما هو كالقصص في ذلك وأبلغ .

وإن عنى أن تعذيب المكذبين يدل على النبوة فهي تدل على جنس النبوة ، وعلى نبوة من عذب قومه لا تدل على نبوة المتأخر ، إلا أن يكون ما أخبر به من جنس ما أخبر به الأول .

وهذه الأمور كلها موجودة في الالهيات وزيادة ، فإنه قد أخبر فيها بمثل ما أخبرت به الأنبياء قبله .

قد ذكر الله ذلك في غير موضع كقوله ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾(١) .

وقوله ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة الزخرف آية رقم ٤٥ .

(٢) سورة الأنبياء آية رقم ٢٥ .

وقوله ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا الله وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ (١) .

وقد أخبر الله عن الأنبياء الذين قص أخبارهم كنوح وهود وصالح وشعيب صلوات الله عليهم أجمعين أن كلاً منهم يقول لقومه ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا الله مَالَكُم مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ (٢).

بل يفتتح دعوته بذلك .

وذكر تعالى عن الأنبياء وأممهم من نوح إلى الحواريين أنهم كانوا مسلمين ، كما قد بسط في غير موضع وأيضاً فالالهيات التي تعلم منها قدرة الرب ، وإرادته وحكمته ، وأفعاله :

منها يعلم النبي من المتنبىء ، ومنها يعلم صدق النبي فهي أدل على صدق النبي من مجرد القصص ، وما في القصص من الدلالة على صدقه إنما يدل مع الالهيات وإلا فلو تجرد لم يدل على شيء ، فالنبوة مرتبطة بالالهيات أعظم من ارتباطها بغيرها ، والأنبياء إنما بعثوا بالدعوة إلى الله وحده ، وقد يذكرون المعاد مجملاً ومفصلاً ، والقصص قد يذكر بعضهم بعضاً مجملاً. وأما الالهيات فهي الأصل ، ولا بد من تفصيل الأمر بعبادة الله وحده دون ما سواه ، فلا بد لكل نبي من الأصول الثلاثة ، الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح ، والأصول الكلية التي يشترك فيها الأنبياء يذكرها الله في السور المكية مثل : الأنعام والأعراف وذوات ﴿ الر ﴾ و﴿ طسم ﴾ و﴿ حم ﴾ وأكثر المفصل ، ونحو ذلك ، والمدنيات تتضمن خطاب من آمن بجنس الرسل من أهل الكتاب من المؤمنين بالشرائع التي بعث بها خاتم الرسل .

وأما قول من قال : إن هذا في شخص بعينه ، ففي غاية الفساد لفظاً ومعنى .

---

(١) سورة النحل آية رقم ٣٦ .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ٥٩ ، ٦٥ ، ٧٣ ، ٨٥ .

ثم إن الله إنما يخص الشيء المعين بحكم يخصه لمعنى يختص به كما قال لأبي بردة بن نيار [1] ـ وكان قد ذبح في العيد قبل الصلاة ـ قبل أن يشرع لهم النبي ﷺ أن الذبح يكون بعد الصلاة. فلما قال النبي ﷺ أن الذبح يكون بعد الصلاة ، فلما قال النبي ﷺ « أول ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلي ، ثم نذبح فمن ذبح قبل الصلاة فليعد ؛ فإنما هي شاة لحم قدمها لأهله » .

ذكر له أبو بردة أنه ذبح قبل الصلاة ولم يكن يعرف أن ذلك لا يجوز ، وذكر له أن عنده عناقاً خيراً من جذعة فقال : تجزي عنك ولا تجزي عن أحد بعدك » [2] .

فخصه بهذا الحكم لأنه كان معذوراً في ذبحه قبل الصلاة ؛ إذ فعل ذلك قبل شرع الحكم فلم يكن ذلك الذبح منهياً عنه بعد ، مع أنه لم يكن عنده إلا هذا السن ، وأما أمره لامرأة أبي حذيفة بن عتبة أن ترضع سالماً مولاه خمس رضعات [3] ليصير لها محرماً فهذا مما تنازع فيه السلف : هل هو مختص أو

---

(١) هو ابن عمرو بن عبيد بن عمرو بن كلاب ، بن دهمان ، واسم أبي بردة ، هانيء وله عقب ، وهو خال البراء بن عازب صاحب رسول الله ﷺ ، وقد شهد العقبة مع السبعين من الأنصار في رواية موسى بن عقبة ، ومحمد بن اسحاق ، وأبي معشر ، ومحمد بن عمر . وشهد أبو بردة غزوة بدر ، وأحد والخندق ، والمشاهد كلها مع رسول الله ـ ﷺ ـ مات أبو بردة في خلافة معاوية راجع طبقات ابن سعد ٣ : ٤٥١ ـ ٤٥٢ .

(٢) الحديث : رواه الامام البخاري في كتاب العيدين ٥ باب الأكل يوم النحر ٩٥٥ ـ حدثنا عثمان ، قال : حدثنا جرير عن منصور ، عن الشعبي ، عن البراء بن عازب ـ رضي الله عنهما قال : خطبنا النبي ـ ﷺ ـ يوم الأضحى بعد الصلاة فقال : من صلى صلاتنا ونسك نسكنا فقد أصاب النسك ، ومن نسك قبل الصلاة فإنه قبل الصلاة ولا نسك له : ثم ذكره .

(٣) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب النكاح ٣٦ باب رضاع الكبير ١٩٤٣ ـ حدثنا هشام بن عمار ، ثنا سفيان بن عيينة ، عن عبد الرحمن بن القاسم ، عن أبيه ، عن عائشة ـ قالت : جاءت سهلة بنت سهيل الى النبي ـ ﷺ ـ فقالت : يا رسول الله إني أرى في وجه أبي حذيفة الكراهية من دخول سالم علي . قال النبي ـ ﷺ ـ أرضعيه قالت : كيف أرضعه ، وهو رجل كبير فتبسم رسول الله ـ ﷺ وقال : قد علمت أنه رجل كبير ، ففعلت . فأتت النبي ـ ﷺ ـ فقالت : ما رأيت في وجه أبي حذيفة شيئاً أكرهه بعده ، وكان شهد بدراً .

مشترك ؟

وإذا قيل هذا لمن يحتاج إلى ذلك - كما احتاجت هي إليه كان في ذلك جمع بين الأدلة .

وبالجملة فالشارع حكيم ، لا يفرق بين متماثلين إلا لاختصاص أحدهما بما يوجب الاختصاص ولا يسوي بين مختلفين غير متساويين ، بل قد أنكر سبحانه على من نسبه إلى ذلك وقبح من يحكم بذلك .

فقال تعالى ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾[1] وقال تعالى ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[2] وقال تعالى ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾[3] .

وقال تعالى ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾[4] .

وقال تعالى ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾[5] .

وإنما يكون الاعتبار إذا سوى بين المتماثلين وأما إذا قيل : ليس الواقع كذلك فلا اعتبار . وقد تنازع الناس في هذا الأصل ، وهو أنه هل يختص بالأمر والنهي ما يخصه لا لسبب ولا لحكمة قط ، بل مجرد تخصيص أحد المتماثلين على الآخر .

---

(١) سورة ص آية رقم ٢٨ .

(٢) سورة الجاثية آية رقم ٢١ .

(٣) سورة القلم آية رقم ٣٥ - ٣٦ .

(٤) سورة القمر آية رقم ٤٣ .

(٥) سورة الحشر آية رقم ٢ .

فقال بذلك جهم بن صفوان [1] ومن وافقه من الجبرية ، ووافقهم كثير من المتكلمين المثبتين للقدر .

وأما السلف وأئمة الفقه والحديث والتصوف وأكثر طوائف الكلام المثبتين للقدر كالكرامية وغيرهم ونفاته كالمعتزلة وغيرهم فلا يقولون بهذا الأصل بل يقولون : هو سبحانه يخص ما يخص من خلقه وأمره لأسباب ولحكمة له في التخصيص . كما بسط الكلام على هذا الأصل في مواضع وكذلك قول من قال : يضعف لقارئها مقدار ما يعطاه قارىء ثلث القرآن بلا تضعيف : قول لا يدل عليه الحديث ، ولا في العقل ما يدل عليه ، وليس فيه مناسبة ولا حكمة فإن النص أخبر أن قراءتها تعدل ثلث القرآن وأن من قرأها فكأنما قرأ ثلث القرآن ، فإن كان في هذا تضعيف ففي هذا تضعيف وإن لم يكن في هذا تضعيف لم يكن في الآخر فتخصيص أحدهما بالتضعيف تحكم .

ثم جعل التضعيف بقدر ثلث القرآن إنما هو لما اختصت به السورة من الفضل ، وحينئذ ففضلها هو سبب هذا التقدير من غير حاجة إلى نقص ثواب سائر القرآن ، وأيضاً فهذا تحكم محض لا دليل عليه ولا سبب يقتضيه ، ولا حكمة فيه ، والناس كثيراً ما يغلطون من جهة نقص علمهم وإيمانهم بكلام الله ورسوله وقدر ذلك وما اشتمل عليه ذلك من العلم الذي يفوق علم الأولين والآخرين .

ومن علم أن الرسول أعلم الخلق بالحق وأفصح الخلق في البيان ، وأنصح الخلق للخلق علم أنه قد اجتمع في حقه كمال العلم بالحق ، وكمال القدرة على بيانه وكمال الإرادة له ، ومع كمال العلم والقدرة والإرادة يجب وجود المطلوب على أكمل وجه ، فيعلم أن كلامه أبلغ ما يكون وأتم ما يكون ،

---

(١) هو جهم بن صفوان السمرقندي ، أبو محرز : رأس الجهمية قتل عام ١٢٨ هـ سبق الترجمة له .
[وراجع ميزان الاعتدال ١ : ١٩٧ والكامل لابن الأثير حوادث ١٢٨ هـ ولسان الميزان ٢ : ١٤٢] .

وأعظم ما يكون بياناً لما بينه في الدين من أمور الالهية وغير ذلك .

فمن وقر هذا في قلبه لم يقدر على تحريف النصوص بمثل هذه التأويلات التي إذا تدبرت وجد من أرادها بذلك القول من أبعد الناس عما يجب اتصاف الرسول به ، وعلم أن من سلك هذا المسلك فإنما هو لنقص ما أوتيه من العلم والإيمان ، وقد قال تعالى : ﴿ يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ (١) .

فنسأل الله أن يجعلنا وإخواننا ممن رفع درجاته من أهل العلم والإيمان .

وإذ قد تبين ضعف هذه الأقوال ـ غير القول الأول الذي نصرناه وهو قول ابن سريج وغيره كالمهلب والأصيلي وغيرهما ـ فنقول : قد علم أن تفاضل القرآن وغيره من كلام الله ليس باعتبار نسبته إلى المتكلم ، فإنه سبحانه واحد ، ولكن باعتبار معانيه التي يتكلم بها ، وباعتبار ألفاظه المبينة لمعانيه .

والذي قد صح عن النبي ﷺ أنه فضل من السور سورة الفاتحة وقال « إنه لم ينزل في التوراة والانجيل ولا في القرآن مثلها » (٢) والأحكام الشرعية تدل على ذلك . وقد بسط الكلام على معانيها في غير هذا الموضع ، وفضل من الآيات آية الكرسي .

وقال في الحديث الصحيح لأبي بن كعب « أتدري أي آية في كتاب الله معك أعظم » . قال ﴿ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ القَيُّومُ ﴾ (٣) فضرب بيده في صدره وقال : ليهنك العلم أبا المنذر » (٤) .

وليس في القرآن آية واحدة تضمنت ما تضمنته آية الكرسي .

---

(١) سورة المجادلة آية رقم ١١ .

(٢) سبق تخريج هذا الحديث في هذا الجزء .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .

(٤) سبق تخريج هذا الحديث في هذا الجزء .

وإنما ذكر الله في أول سورة الحديد وآخر سورة الحشر عدة آيات لا آية واحدة .

وسنبين إن شاء الله أنه إذا كانت ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ تعدل ثلث القرآن لم يلزم من ذلك أنها أفضل من الفاتحة ، ولا أنها يكتفي بتلاوتها ثلاث مرات عن تلاوة القرآن ، بل قد كره السلف أن تقرأ إذا قرىء القرآن كله إلا مرة واحدة كما كتبت في المصحف، فإن القرآن يقرأ كما كتب في المصحف ، لا يزاد على ذلك ولا ينقص منه والتكبير المأثور عن ابن كثير[1] ليس هو مسنداً عن النبي ﷺ ، ولم يسنده أحد إلى النبي ﷺ إلا البزي وخالف بذلك سائر من نقله ، فإنهم إنما نقلوه اختياراً ممن هو دون النبي ، وانفرد هو برفعه ، وضعفه نقلة أهل العلم بالحديث والرجال من علماء القراءة وعلماء الحديث ، كما ذكر ذلك غير واحد من العلماء فالمقصود أن من السنة في القرآن أن يقرأ كما في المصاحف ، ولكن إذا قرئت ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ مفردة تقرأ ثلاث مرات وأكثر من ذلك ، ومن قرأها فله من الأجر ما يعدل ثلث أجر القرآن ، لكن عدل الشيء - بالفتح - يكون من غير جنسه ، كما سنذكره إن شاء الله والثواب أجناس مختلفة ، كما أن الأموال أجناس مختلفة من مطعوم ومشروب وملبوس ومسكون ونقد وغير ذلك وإذا ملك الرجل من أحد أجناس المال ما يعدل ألف دينار مثلاً لم يلزم من ذلك أن يستغني عن سائر أجناس المال بل إذا كان عنده مال وهو طعام فهو محتاج إلى لباس ومسكن وغير ذلك ، وكذلك إن كان من جنس غير النقد فهو محتاج إلى غيره ، وإن لم يكن معه إلا النقد فهو محتاج إلى

---

(١) هو اسماعيل بن عمر بن كثير بن ضو بن درع القرشي البصروي ثم الدمشقي أبو الفداء ، عماد الدين ، حافظ ، مؤرخ فقيه ، ولد عام ٧٠١ هـ في قرية من أعمال بصرى الشام وانتقل الى دمشق سنة ٧٠٦ هـ ورحل في طلب العلم ، وتوفي بدمشق عام ٧٧٤ هـ من تصانيفه البداية والنهاية ، وشرح صحيح البخاري لم يكمله ، وطبقات الفقهاء الشافعيين ، وتفسير القرآن الكريم . [راجع : ذيلا طبقات الحفاظ للحسين والسيوطي ، والدرر الكامنة ١ : ٣٧٣ ، والبدر الطالع ١ : ١٥٣ وشذرات الذهب ٦ : ٢٣١ وآداب اللغة ٣ : ١٩٣] .

جميع الأنواع التي يحتاج إلى أنواعها ومنافعها .

والفاتحة فيها من المنافع ثناء ودعاء مما يحتاج الناس إليه ما لا تقوم ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ مقامه في ذلك ، وإن كان أجرها عظيماً فذلك الأجر العظيم إنما ينتفع به صاحبه مع أجر فاتحة الكتاب ولهذا لو صلى بها وحدها بدون الفاتحة لم تصح صلاته ولو قدر أنه قرأ القرآن كله إلا الفاتحة لم تصح صلاته لأن معاني الفاتحة فيها الحوائج الأصلية التي لا بد للعبادة منها وقد بسط الكلام عليها في غير هذا الموضع وبين أن ما في الفاتحة من الثناء والدعاء وهو قول ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ** ﴾[1] .

هو أفضل دعاء دعا به العبد ربه ، وهو أوجب دعاء دعا به العبد ربه ، وأنفع دعاء دعا به العبد ربه ، فإنه يجمع مصالح الدين والدنيا والآخرة ، والعبد دائماً محتاج إليه لا يقوم غيره مقامه ، فلو حصل له أجر تسعة أعشار القرآن - دع ثلثه - ولم يحصل له مقصود هذا الدعاء لم يقم مقامه ولم يسد مسده وهذا كما لو قدر أن الرجل تصدق بصدقات عظيمة وجاهد جهاداً عظيماً يكون أفضل من قراءة القرآن مرات وهو لم يصل ذلك اليوم الصلوات الخمس لم يقم ثواب هذه الأعمال مقام هذه ، كما لو كان عند الرجل من الذهب والفضة والرقيق والحيوان والعقار أموال عظيمة ، وليس عنده ما يتغذى به ويتعشى من الطعام فإنه يكون جائعاً متألماً فاسد الحال ولا يقوم مقام الطعام الذي يحتاج إليه تلك الأموال العظيمة .

ولهذا قال الشيخ أبو مدين [2] رحمه الله : أشرف العلوم علم التوحيد ،

---

(١) سورة الفاتحة آية رقم ٦ - ٧ .

(٢) هو شعيب بن الحسن الأندلسي التلمساني أبو مدين : صوفي من مشاهيرهم ، أصله من الأندلس ، أقام بفاس ، وسكن بجاية ، وكثر أتباعه حتى خافه السلطان يعقوب المنصور وتوفي بتلمسان عام ٥٩٤ هـ وقد قارب الثمانين أو تجاوزها له « مفاتيح الغيب » و« ستر العيب » [راجع جذوة الاقتباس =

وأنفع العلم أحكام العبيد فليس الأفضل الأشرف هو الذي ينفع في وقت بل الأنفع في كل وقت ما يحتاج إليه العبد في ذلك الوقت ، وهو فعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه ولهذا يقال : المفضول في مكانه وزمانه أفضل من الفاضل ، إذ دل الشرع على أن الصلاة أفضل من القراءة ، والقراءة أفضل من الذكر والذكر أفضل من الدعاء ، فهذا أمر مطلق . وقد تحرم الصلاة في أوقات فتكون القراءة أفضل منها في ذلك الوقت .

والتسبيح في الركوع والسجود هو المأمور به ، والقراءة منهي عنها ، ونظائر هذا كثير .

فهكذا يعلم الأمر في فضل ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ وغيرها ، فقراءة الفاتحة في أول الصلاة أفضل من قراءتها بل هو الواجب ، والاجتزاء بها وحدها لا يمكن ، بل تبطل معه الصلاة .

ولهذا وجب التقرب بالفرائض قبل النوافل ، والتقرب بالنوافل إنما يكون تقرباً إذا فعلت الفرائض ، لا كما ظنه بعض الاتحادية كصاحب الفتوحات المكية » [1] ونحوه ، من أن قرب الفرائض تكون بعد قرب النوافل ، والنوافل تجعل الحق غطاءه وتلك تجعل الحق عينه ، فهذا بناء على أصله الفاسد من الاتحاد ، كما بين .

وبين أن الحديث يتناقض مذهبه من وجوه ، كما رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ « يقول الله ، من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به

= ٢٣٢ وشجرة النور ١٦٤ وشذرات الذهب ٤ : ٣٠٣ ودائرة المعارف الاسلامية ١ : ٣٩٩] .

(١) هو محمد بن علي بن محمد بن العربي أبو بكر الحاتمي الطائي الأندلسي المعروف بمحيي الدين بن عربي . توفي عام ٦٣٨ هـ . [راجع فوات الوفيات ٢ : ٢٤١ وجذوة الاقتباس ١٧٥ ومفتاح السعادة ١ : ١٨٧ وميزان الاعتدال ٣ : ١٠٨ وجامع كرامات الأولياء ١ : ١١٨] .

وبصـره الذي يبصـر به ويـده التي يبطش بهـا ، ورجله التي يمشي بهـا ، فبي يسمع ، وبي يبصر ، وبي يبطش ، وبي يمشي ، ولئن سألني لأعـطينه ، ولئن استعـاذني لأعيذنـه ، وما تـرددت عن شيء أنـا فـاعله تـرددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره المـوت ، وأكره مسـاءلته ولا بـد له منـه »[1] وقد بين في هذا الحديث أن المتقرب ليس هو المتقرب إليه ، بل هو غيره . وأنه ما تقرب إليه عبده بمثل أداء المفروض ، وأنـه لا يزال بعـد ذلك يتقـرب بالنـوافل حتى يصير محبوباً لله ، فيسمع به ويبصر به ويبطش به ويمشي به ، ثم قال « ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه » .

ففـرق بين السائـل والمسؤول ، والمستعيذ والمستعـاذ به وجعـل العبـد سائلاً لربه مستعيذاً به .

وهذا حديث شـريف جامـع لمقاصـد عظيمـة ليس هذا مـوضعها ، بـل المقصود هنا الكلام على ﴿ **قل هـو الله أحد** ﴾ وقـد بينا أن أحسن الـوجوه أن معاني القرآن ثلاثة أنواع : توحيـد ، وقصص ، وأحكام . وهـذه السورة صفـة الرحمن فيها التوحيد وحده وذلك لأن القرآن كلام الله . والكـلام نوعـان : إما إنشاء ، وإما إخبار .

والإخبـار إما خبـر عن الخالق وإمـا خبـر عن المخلوق . فـالإنشـاء هـو الأحكام كالأمر والنهي ، والخبر عن المخلوق هو القصص .

والخبر عن الخالق هو ذكر أسمائه وصفاته . وليس في القرآن سورة هي وصف الرحمن محضاً إلا هذه السورة .

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ بعث رجـلاً

---

(١) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب الرقاق ٣٨ باب التواضع
٦٥٠٢ - حدثني محمد بن عثمان بن كرامة ، حدثنا خالد بن مخلد ، حدثنا سليمان بن بلال ، حدثني شريك بن عبد الله بن أبي نمر عن عطاء عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره .

على سرية فكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم به ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ .

فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال : سلوه لأي شيء يصنع ذلك « فسألوه ، فقال : لأنها صفة الرحمن ، فأنا أحب أن أقرأ بها ، فقال رسول الله ﷺ : « أخبروه أنّ الله يحبه » (١) .

وقال البخاري في « باب الجمع بين السورتين في ركعة » : وقال عبيد الله عن ثابت عن أنس كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء ، فكان كلما افتتح سورة يقرأ لهم بها في الصلاة مما يقرأ به افتتح بـ ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ حتى يفرغ منها ثم يقرأ بسورة أخرى معها ، فكان يصنع ذلك في كل ركعة ، فكلمه أصحابه وقالوا : إنك تفتتح بهذه السورة ثم لا ترى أنها تجزيك حتى تقرأ بأخرى ، فإما أن تقرأ بها ، وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى . فقال : ما أنا بتاركها ، إن أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلت ، وإن كرهتم ذلك تركتكم وكانوا يرون أنه من أفضلهم ، وكرهوا أن يؤمهم غيره فلما أتاهم النبي ﷺ أخبروه الخبر ، فقال : يا فلان ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك ، وما يحملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة « قال : إني أحبها ، قال : حبك إياها أدخلك الجنة » (٢) . وقول النبي ﷺ « إنها تعدل ثلث القرآن » حق كما أخبر به ؛ فإنه ﷺ الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى لم يخرج من بين شفتيه إلا حق .

والذين أشكل عليهم هذا القول لهم مأخذان : أحدهما : منع تفاضل كلام الله بعضه على بعض وقد تبين ضعفه .

---

(١) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب التوحيد ، ١ باب ما جاء في دعاء النبي - ﷺ - أمته الى توحيد الله تبارك وتعالى .

٧٣٧٥ بسنده عن عائشة - رضي الله عنه . ورواه الامام مسلم في صلاة المسافرين ٢٦٣ ، ورواه الامام النسائي في الافتتاح ٦٩ .

(٢) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الأذان ١٠٦ باب الجمع بين السورتين في الركعة ٧٧٤ قال عبيد الله بن عمر عن ثابت عن أنس - رضي الله عنه - وذكره .

الثاني : اعتقادهم أن الأجر يتبع كثرة الحروف ، فما كثرت حروفه من الكلام يكون أجره أعظم .

قالوا : لأن النبي ﷺ قال « من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات ، أما إني لا أقول ﴿ الم ﴾ حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف وميم حرف » .

قال الترمذي : حديث صحيح [1] .

قالوا : ومعلوم أن ثلث القرآن حروفه أكثر بكثير فتكون حسناته أكثر .

فيقال لهم : هذا حق كما أخبر به النبي ﷺ ولكن الحسنات فيها كبار وصغار والنبي ﷺ مقصوده أن الله يعطي العبد بكل حسنة عشر أمثالها، كما قال تعالى ﴿ **مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا** ﴾ [2] .

فإذا قرأ حرفاً كان ذلك حسنة فيعطيه بقدر تلك الحسنة عشر مرات ، لكن لم يقل : إن الحسنات في الحروف متماثلة ، كما أن من تصدق بدينار يعطى بتلك الحسنة عشر أمثالها .

والواحد من بعد السابقين الأولين لو أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه . كما ثبت ذلك في الصحيحين [3] عن النبي ﷺ ، فهو إذا أنفق مداً كان له بهذه الحسنة عشر أمثالها .

ولكن لا تكون تلك الحسنة بقدر حسنة من أنفق مدا من الصحابة

---

(١) الحديث رواه الامام الترمذي في كتاب فضائل القرآن .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٦٠ .

(٣) الحديث رواه ابن ماجه في المقدمة ١١ فضل أهل بدر ١٦١ عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة . قال : قال رسول الله ﷺ ـ وذكره .
ورواه الامام البخاري في فضائل أصحاب النبي ٥ ، ورواه الامام مسلم في فضائل الصحابة ٢٢١ ـ ٣٢٢ ، وأبو داود في السنة ١٠ والترمذي في المناقب ٥٨ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٣ : ١١ ، ٥٤ (حلبي)

السابقين . ونظائر هذا كثيرة .

فكـذلك حـروف القرآن تتفـاضل لتفـاضل المعـاني وغير ذلـك فحروف الفاتحة له بكل حرف منها حسنة أعظم من حسنات حروف من ﴿ **تبت يدا أبي لهب** ﴾ .

وإذا كان الشيء يعدل غيـره فعدل الشيء ـ بـالفتح ـ هـو مساويـه ، وإن كان من غير جنسه ، كما قال تعالى : ﴿ **أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً** ﴾ [1] .

والصيـام ليس من جنس الطعـام ، والجزاء ، ولكنـه يعادلـه في القدر ، وكذلك قوله ﷺ : لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً » [2] .

وقـوله تعـالى ﴿ **وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَـا عَدْلٌ** ﴾ [3] أي فـدية والفـدية مـا يعـدل بالمفدي وإن كان من غير جنسه ﴿ **ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ** ﴾ [4] .

أي يجعلون له عدلاً ، أي نداً في الالهية ، وإن كانوا يعلمـون أنه ليس من جنس الرب سبحانه ولو كان لرجل أموال من أصناف متنوعة ، ولآخر ذهب بقدر ذلك لكان مال هذا يعدل مال هذا ، وإن لم يكن من جنسـه ، ولهذا قـد يكون عند الـرجل من الـذهب وغيره من الأمـوال ما يعـدل شيئاً عـظيماً ، وإذا احتاج إلى دواء أو مركب أو مسكن ، أو نحو ذلك ولم يكن قادراً على اشترائه لم تنفعه تلك الأموال العظيمة فالقرآن يحتاج الناس إلى ما فيه من الأمر والنهي والقصص وإن كان التوحيد أعظم من ذلك ، وإذا احتاج الإنسان إلى معرفة ما أمـر به ومـا نهي عنه من الأفعـال ، أو احتاج إلى مـا يؤمر بـه ، ويعتبر بـه من

---

(١) سورة المائدة آية رقم ٩٥ .

(٢) الحديث رواه ابن ماجه في المقدمة ٧ باب اجتناب البدع والجدل بسنده عن حذيفة قال : قال رسول الله ـ ﷺ وذكره ، ورواه الامام البخاري في المدينة ١ ، والجزية ١٠ ، ١٧ والامام مسلم في الحج ٤٦٣ ـ ٤٦٧ ـ ٤٧٠ والترمذي في الوصايا ٥ ، وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٦ ، ٨١ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ١٢٣ .

(٤) سورة الأنعام آيـة رقم ١ .

القصص والوعد والوعيد لم يسد غيره مسده ، فلا يسد التوحيد مسد هذا ولا تسد القصص مسد الأمر والنهي ، ولا الأمر والنهي مسد القصص ، بل كل ما أنزل الله ينتفع به الناس ويحتاجون إليه .

فإذا قرأ الإنسان ﴿ قل هو الله أحد ﴾ حصل له ثواب بقدر ثواب ثلث القرآن ، لكن لا يجب أن يكون الثواب من جنس الثواب الحاصل ببقية القرآن ، بل قد يحتاج إلى جنس الثواب الحاصل بالأمر والنهي والقصص ، فلا تسد ﴿ قل هو الله أحد ﴾ مسد ذلك ولا تقوم مقامه فلهذا لو لم يقرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ فإنه وإن حصل له أجر عظيم لكن جنس الأجر الذي يحصل بقراءة غيرها لا يحصل له بقراءتها ، بل يبقى فقيراً محتاجاً إلى ما يتم به إيمانه من معرفة الأمر والنهي والوعد والوعيد ، ولو قام بالواجب عليه .

فالمعارف التي تحصل بقراءة سائر القرآن لا تحصل بمجرد قراءة هذه السورة ، فيكون من قرأ القرآن كله أفضل ممن قرأها ثلاث مرات من هذه الجهة لتنوع الثواب وإن كان قارىء ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ثلاثاً يحصل له ثواب بقدر ذلك الثواب ، لكنه جنس واحد ليس فيه الأنواع التي يحتاج إليها العبد ، كمن معه ثلاثة آلاف دينار فإن هذا معه ما ينتفع به في جميع أموره ، وذلك محتاج إلى ما مع هذا ، وإن كان ما معه يعدل ما مع هذا . وكذلك لو كان معه طعام من أشرف الطعام يساوي ثلاثة آلاف دينار ، فإنه محتاج إلى لباس ومساكن ، وما يدفع به الضرر من السلاح والأدوية وغير ذلك مما لا يحصل بمجرد الطعام ومما ينبغي أن يعلم أن فضل القراءة والذكر والدعاء والصلاة وغير ذلك قد يختلف باختلاف حال الرجل ، فالقراءة بتدبر أفضل من القراءة بلا تدبر ، والصلاة بخشوع وحضور قلب أفضل من الصلاة بدون ذلك .

وفي الأثر : «إن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحداً وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض » .

وكان بعض الشيوخ يرقي بـ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ وكان لها بركة عظيمة

فيرقي بها غيره فلا يحصل ذلك فيقول : ليس ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ من كل أحد تنفع كل أحد وإذا عرف ذلك فقد يكون تسبيح بعض الناس أفضل من قراءة غيره ويكون قراءة بعض السور من بعض الناس أفضل من قراءة غيره لـ ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ وغيرها .

والإنسان الواحد يختلف أيضاً حاله ، فقد يفعل العمل المفضول على وجه كامل فيكون به أفضل من سائر أعماله الفاضلة وقد غفر الله لبغي لسقيها الكلب ، كما ثبت ذلك في الصحيحين وهذا لما حصل لها في ذلك العمل من الأعمال القلبية وغيرها . وقد ينفق الرجل أضعاف ذلك فلا يغفر له ؛ لعدم الأسباب المزكية للعمل ، فإن الله إنما يتقبل من المتقين .

وقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : «لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ حد أحدهم ولا نصيفه » [1] يقوله عن أصحابه من السابقين الأولين رضي الله عنهم . فإذا قيل « إن ﴿ **قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ** ﴾ يعدل ثوابها ثواب ثلث القرآن » فلا بد من اعتبار التماثل في سائر الصفات ، وإلا فإذا اعتبر قراءة غيرها مع التدبر والخشوع بقراءتها مع الغفلة والجهل لم يكن الأمر كذلك ، بل قد يكون قول العبد : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر مع حضور القلب واتصافه بمعانيها أفضل من قراءة هذه السورة مع الجهل والغفلة .

والناس متفاضلون في فهم هذه السورة ، وما اشتملت عليه ، كما أنهم متفاضلون في فهم سائر القرآن .

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث في هذا الجزء .

فصل

وأصل هذه المسألة أن يعلم أن التفاضل والتماثل إنما يقع بين شيئين فصاعداً ، إذ الواحد من كل وجه لا يعقل فيه شيء أفضل من شيء .

فالتفاضل في صفاته تعالى إنما يعقل إذا أثبت له صفات متعددة كالعلم ، والقدرة ، والإرادة ، والمحبة والبغض ، والرضا ، والغضب .

وكإثبات أسماء له متعددة تدل على معان متعددة ، وأثبت له كلمات متعددة تقوم بذاته حتى يقال : هل بعضها أفضل من بعض أم لا ؟

وكل قول سوى قول السلف والأئمة في هذا الباب فهو خطأ متناقض ، وأي شيء قاله في جواب هذه المسألة كان خطأ لا يمكنه أن يجيب فيه بجواب صحيح .

فمن قال : إنه ليس له صفة ثبوتية بل ليس له صفة إلا سلبية أو إضافية . كما يقول ذلك الجهمية المحضة من المتفلسفة والمتكلمة أتباع جهم ابن صفوان ـ فهذا إذا قيل له : أيهما أفضل : نسبته التي هي الخلق إلى السموات والأرض أم إلى بعوضة أم أيها أفضل : نفي الجهل بكل شيء عنه والعجز عن كل شيء ، أم نفي الجهل بالكليات ؟

لم يمكنه أن يجيب بجواب صحيح على أصله الفاسد. فإنه إن قال : خلق السموات مماثل خلق البعوضة كان هذا مكابرة للعقل والشرع .

قال تعالى ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ (1) وإن قال : بل ذلك أعظم وأكبر كما في القرآن . قيل له : ليس عندك أمران وجوديان يفضل أحدهما الآخر ؛ إذ الخلق على قولك لا يزيد على المخلوق ، فلم يبق إلا العدم المحض ، فكيف يعقل في المعدومين من كل وجه أن يكون أحدهما أفضل من صاحبه إذا لم يكن هناك وجود يحصل فيه التفاضل؟ وكذلك إذا قيل: نفي الجهل والعجز عن بعض الأشياء مثل نفي ذلك عن بعض الأشياء كان هذا مكابرة وإن قال : بل نفي الجهل العام أكمل من نفي الجهل الخاص .

قيل له : إذا لم يلزم من نفي الجهل ثبوت علم بشيء من الأشياء ، بل كان النفيان عدمين محضين فكيف يعقل التفاضل في الشيء الواحد من كل وجه فإنه لا يعقل في العدم المحض والنفي الصرف ، فإن ذلك ليس بشيء أصلاً ، ولا حقيقة له في الوجود ولا فيه كمال ولا مدح ، وإنما يكون التفاضل بصفات الكمال ، والكمال لا بد أن يكون وجوداً قائماً بنفسه أو صفة موجودة قائمة بغيرها ، فأما العدم المحض فلا كمال فيه أصلاً .

ولهذا إنما يصف الله نفسه بصفات التنزيه لا السلبية العدمية لتضمنها أموراً وجودية تكون كمالاً يتمدح سبحانه بها ، كما قد بسط في غير هذا الموضع كقوله تعالى ﴿ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ (2)

فنفي ذلك يتضمن كمال الحياة والقيومية .

وكذلك قوله ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ (3) يتضمن كمال الملك والربوبية وانفراده بذلك . ونفي انفراده بالملك والهداية والتعليم وسائر

---

(1) سورة غافر آية رقم ٥٧ .

(2) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .

(3) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .

صفات الكمال هو من صفات الكمال .

ولهذا كانت السورة فيها الإسمان الأحد الصمد وكل منهما يدل على الكمال .

فقوله ﴿ **أحد** ﴾ يدل على نفي النظير .

وقوله ﴿ **الصمد** ﴾ بالتعريف يدل على اختصاصه بالصمدية .

ولهذا جاء التعريف في اسمه الصمد دون الأحد لأن أحداً لا يوصف به في الإثبات غيره ، بخلاف الصمد ، فإن العرب تسمي السيد صمداً .

قال يحيى بن أبي كثير : الملائكة تسمى صمداً والآدمي أجوف ، فقوله ﴿ **الصمد** ﴾ بيان لاختصاصه بكمال الصمدية .

وقد ذكرنا تفسير الصمد ، واشتماله على جميع صفات الكمال كما رواه العلماءمن تفسير ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وقد ذكره ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي وغيرهم في قوله ﴿**الصمد**﴾ يقول : السيد الذي قد كمل في سؤدده ، والشريف الذي قد كمل في شرفه ، والعظيم الذي قد كمل في عظمته والحكيم الذي قد كمل في حكمته ، والعليم الذي قد كمل في علمه ، والحليم الذي قد كمل في حلمه وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد ، وهو سبحانه هذه صفته لا تنبغي إلا له ، ليس له كفء وليس كمثله شيء ، سبحانه الواحد القهار . وكذلك قد ثبت من حديث الأعمش عن أبي وائل وقد ذكره البخاري في صحيحه .

ورواه كثير من أهل العلم في كتبهم قال : الصمد السيد الذي انتهى سؤدده .

وقد قال غير واحد من السلف كابن مسعود وابن عباس وغيرهما : الصمد الذي لا جوف له . وكلا القولين حق موافق للغة ، كما قد بسط في موضعه .

أما كون الصمد هو السيد فهذا مشهور . وأما الآخر فهو أيضاً معروف في اللغة .

وقد ذكر الجوهري [1] وغيره أن الصمد لغة في الصمت وليس هذا من إبدال الدال بالتاء كما ظنه بعضهم بل لفظ صمد يصمد صمداً يدل على ذلك .

والمقصود هنا أن صفات الكمال إنما هي في الأمور الموجودة ، والصفات السلبية إنما تكون كمالاً إذا تضمنت أموراً وجودية ، ولهذا كان تسبيح الرب يتضمن تنزيهه وتعظيمه جميعاً : فقول العبد : سبحان الله ، يتضمن تنزيه الله وبراءته من السوء وهذا المعنى يتضمن عظمته في نفسه ، ليس هو عدماً محضاً لا يتضمن وجوداً ، فأن هذا لا مدح فيه ولا تعظيم .

وكذلك سائر ما تنزه الرب عنه من الشركاء والأولاد وغير ذلك .

كقوله تعالى ﴿ **أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالبَنِين وَاتَّخَذَ مِنَ المَلَائِكَةِ إنَاثاً إنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً** ﴾ [2] إلى قوله ﴿ **إذاً لَابْتَغَوْا إلَىٰ ذِي العَرْشِ سَبِيلاً سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإن مِن شَيْءٍ إلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً** ﴾ [3] .

وقوله تعالى ﴿ **سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى المُرْسَلِينَ** ﴾ [4] وغير ذلك .

فنفي العيوب والنقائص يستلزم ثبوت الكمال ونفي الشركاء يقتضي الوحدانية ، وهو من تمام الكمال ، فإن ماله نظير قد انقسمت صفات الكمال

---

(1) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(2) سورة الاسراء آية رقم ٤٠ .

(3) سورة الاسراء آية رقم ٤٢ ـ ٤٤ .

(4) سورة الصافات آية رقم ١٨٠ ـ ١٨١ .

وأفعـال الكمال فيـه وفي نظيـره ، فحصل لـه بعض صفات الكمـال لا كلها ، فالمنفرد بجميع صفات الكمال أكمل ممن له شريك يقاسمه إياهـا ولهذا كـان أهـل التوحيـد والإخلاص أكمـل حباً لله من المشـركين الذين يحبـون غيـره ، الذين اتخذوا من دونه أنداداً يحبـونهم كحبه . قـال تعالى ﴿ **وَمِنَ النَّـاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً للهِ** ﴾ (١)

وهذا مبسوط في غير هذ الموضع ، قد بين فيه أن هذا من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله تعالى .

وفي الصحيحين عن ابن مسعـود قـال : قلت يـا رسـول الله أي الـذنب أعظم؟ قال : أن تجعل لله نداً وهـو خلقك . قلت : ثم أي ؟ قـال : أن تقتل ولـدك خشيـة أن يطعـم معـك . قلت : ثم أي ؟ قـال : أن تـزاني بحليلة جارك » (٢) .

وأنزل الله تعالى تصـديق ذلك : ﴿ **وَالَّـذِينَ لاَ يَدْعُـونَ مَعَ اللهِ إِلَهـاً آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ** ﴾(٣) الآية .

فمـن جعل لله نداً يحبه كحب الله فهو ممن دعا مع الله الهاً آخـر وهذا من الشرك الأكبر .

والمقصود هنا أن الشيء إذا انقسم ووقعت فيه الشركة نقص ما يحصـل لكـل واحد ، فـإذا كان جميعـه لواحـد كان أكمـل فلهـذا كـان حب المؤمنين

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٦٥ .

(٢) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب التوحيد ٤٠ باب قول الله تعالى : ﴿ **فلا تجعلوا لله أنداداً** ﴾ . ٧٥٢٠ ـ عن منصور عن أبي وائل عن عمرو بن شرحبيل عن عبد الله قال : سألت النبي ـ ﷺ ـ وذكره . ورواه أيضاً في الحدود ٢٠ ورواه الامام مسلم في الإيمان ١٤١،١٤٢ ، وأبو داود في الطلاق ٥٠ ، والامام الترمذي في التفسير سورة ٢٥ ، ١ ، ٢ والنسائي في كتاب الايمان ٦ ، والتحريم ٤ ، وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٣٨٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٤ ، ٤٦٢ (حلبي)

(٣) سورة الفرقان آية رقم ٦٨ .

الموحدين المخلصين لله أكمل .

وكذلك سائر ما نهوا عنه من كبائر الإثم والفواحش يوجب كمال الأمور الوجودية في عبادتهم وطاعتهم ومعرفته ومحبتهم وذلك من زكاهم ، كما أن الزرع كلما نقى عنه الدغل كان أزكى له وأكمل لصفات الكمال الوجودية فيه ، قال تعالى ﴿ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾[1] وأصل الزكاة التوحيد والإخلاص ، كما فسرها بذلك أكابر السلف .

وقال تعالى ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ ﴾ [2].

وقال ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [3] وهذا كله مبسوط في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا : أن من نفى عن الله النقائص كالموت والجهل والعجز والصمم والعمى والبكم ، ولم يثبت له صفات وجودية كالحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والكلام ، بل زعم أن صفاته ليست إلا عدمية محضة ، وأنه لا يوصف بأمر وجودي ، فهذا لم يثبت له صفة كمال أصلاً ، فضلاً عن أن يقال : أي الصفتين أفضل ؟

فإن التفضيل بين الشيئين فرع كون كل منهما له كمال ما ، ثم ينظر أيهما أكمل ، فأما إذا قدر أن كلًّا منهما عدم محض فلا كمال ولا فضيلة هناك أصلاً .

وكذلك من أثبت له الأسماء دون الصفات فقال : إنه حي عليم قدير سميع بصير عزيز حكيم ـ ولكن هذه الأسماء لا تتضمن اتصافه بحياة ولا علم

---

(١) سورة فصلت آية رقم ٦ ، ٧ .
(٢) سورة النور آية رقم ٣٠ .
(٣) سورة التوبة آية رقم ١٠٣ .

ولا قدرة ولا سمع ولا بصر ولا عزة ولا حكمة -

فإذا قيل له : أي الإسمين أفضل ؟ لم يجب بجواب صحيح . فإنه إن قال : العليم أعظم من السميع لعموم تعلقه مثلاً . أو قال : العزيز أكمل من القدير ؛ لأنه مستلزم للقدرة من غير عكس .

قيل : إذا لم يكن للأسماء عندك معان موجودة تقوم به لم يكن هناك لا علم ولا سمع ولا بصر ولا عزة ولا قدرة ، ليس إلا ذات مجردة عن صفات ومخلوقات ، والذات المجردة ليس فيها ما يمكن أن يقع فيه تفاضل ولا تماثل ، والمخلوقات لم يكن السؤال عن تفضيل بعضها على بعض ، فإن ذلك مما يعلمه كل واحد ، ولا يشتبه على عاقل .

ولذلك من جعل بعض صفاته بعضاً ، أو جعل الصفة هي الموصوف مثل من قال : العلم هو القدرة ، والعلم والقدرة هما العالم القادر ، كما يقول ذلك من يقوله من جهمية الفلاسفة ونحوهم .

أو قال : كلامه كله هو معنى واحد قائم بذاته ، هو الأمر بكل مأمور ، والخبر عن كل مخبر به ، إن عبر عنه بالعربية كان قرآناً ، وإن عبر عنه بالعبرية كان توراة ، وإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلاً ، وأن معنى آية الكرسي ، وآية الدين واحد ، وأن الأمر والنهي صفات نسبية للكلام ليست أنواعاً ، بل ذات الكلام الذي هو أمر هو ذات الكلام الذي هو نهي ، وإنما تنوعت الإضافة .

فهذا الكلام الذي تقوله الكلابية ، وإن كان جمهور العقلاء يقولون : إن مجرد تصوره كاف في العلم بفساده . فلا يمكن على هذا القول الجواب بتفضيل كلام الله بعضه على بعض ولا مماثلة بعضه لبعض ، لأن الكلام على قولهم شيء واحد بالعين لا يتعدد ولا يتبعض فكيف يمكن أن يقال : هل بعضه أفضل من بعض أم بعضه مثل بعض ولا بعض له عندهم ؟

وإن قالوا : التماثل والتفاضل يقع في العبارة الدالة عليه ، قيل : تلك

ليست كلاماً لله على أصله ولا عند أئمتهم ، بل هي مخلوق من مخلوقاته ، والتفاضل في المخلوقات لا إشكال فيه .

ومن قال من أتباعهم : إنها تسمى كلام الله حقيقة وإن اسم الكلام يقع عليها وعلى معنى ذلك المعنى القائم بالنفس بالاشتراك اللفظي، فإنه لم يعقل حقيقة قولهم ، بل قوله هذا يفسر أصلهم . لأن أصل قولهم : أن الكلام لا يقوم إلا بالمتكلم لا يقوم بغيره ، إذ لو جاز قيام الكلام بغير المتكلم لجاز أن يكون كلام الله مخلوقاً قائماً بغيره مع كونه كلام الله .

وهذا أصل الجهمية المحضة والمعتزلة الذي خالفهم فيه الكلابية وسائر المثبتة .

وقالوا : إن المتكلم لا يكون متكلماً حتى يقوم به الكلام وكذلك في سائر الصفات قالوا : لا يكون العالم عالماً حتى يقوم به العلم ، ولا يكون المريد مريداً حتى تقوم به الإرادة ، فلو جوزوا أن يكون لله ما هو كلام له وهو مخلوق منفصل عنه بطل هذا الأصل .

وأصل النفاة المعطلة من الجهمية والمعتزلة : أنهم يصفون الله بما لم يقم به ، بل بما قام بغيره ، أو بما لم يوجد ، ويقولون : هذه إضافات لا صفات فيقولون : هو رحيم ويرحم ، والرحمة لا تقوم به بل هي مخلوقة ، وهي نعمته .

ويقولون : هو يرضى ويغضب والرضا والغضب لا يقوم به ، بل هو مخلوق ، وهو ثوابه وعقابه .

ويقولون : هو متكلم ويتكلم ، والكلام لا يقوم به بل هو مخلوق قائم بغيره ، وقد يقولون : هو مريد ويريد ، ثم قد يقولون : ليست الإرادة شيئاً موجوداً ، وقد يقولون : إنها هي المخلوقات والأمر المخلوق ، وقد يقولون : أحدث إرادة لا في محل وهذا الأصل الباطل الذي أصله نفاة الصفات

الجهمية المحضة من المعتزلة وغيرهم ، هو الذي فارقهم به جميع المثبتة للصفات من السلف والأئمة ، وأهل الفقه والحديث والتصوف والتفسير ، وأصناف نظار المثبتة كالكلابية ومن اتبعهم من الأشعرية وغيرهم ، وكالهشامية والكرامية وغيرهما من طوائف النظار المثبتة للصفات ، وعلى هذا أئمة المسلمين المشهورون بالإمامة ، وأئمة الفقهاء من أتباعهم من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وأبي حنيفة وغيرهم فقول من قال : إن الكلام يقع حقيقة على العبارة وهي مع ذلك مخلوقة ، يناقض الأصل الفارق بين المثبتة والمعطلة ، إلا أن يسمى متعلق الصفة باسم الصفة كما يسمى المأمور به أمراً ، والمرحوم به رحمة ، والمخلوق خلقاً ، والقدر قدرة ، والمعلوم علماً، لكن يقال له ، هذا كله ليس هو الحقيقة عند الإطلاق .

وأيضاً فهذه الأمور أعيان قائمة بأنفسها، فإذا أضيفت إلى الله علم إنها إضافة ملك لا إضافة وصف ؛ بخلاف العبارة فإنها لا تقوم بنفسها كما لا يقوم المعنى بنفسه وهذا هو الأصل الفارق بين إضافة الصفات ، وإضافة المخلوقات ، فإن المعطلة النفاة من الصابئة والفلاسفة والمعتزلة وغيرهم من الجهمية ومن اتبعهم كابن عقيل وابن الجوزي وغيرهما في بعض مصنفاتهما ـ وإن كانا في موضع آخر يقولان بخلاف ذلك ـ يقولون : ليس في النصوص إلا إضافة هذه الأمور إلى الله . وهذه الأمور تسمى نصوص الإضافات لا نصوص الصفات .

ويقولون : نصوص الإضافات وأحاديث الإضافات لا آيات الصفات وأحاديث الصفات .

والإضافة تكون إضافة مخلوق ، لاختصاصه ببعض الوجوه كإضافة البيت والناقة والروح في قوله ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ ﴾ [1] وقوله ﴿ نَاقَةُ اللهِ ﴾[2] وقوله

---

(1) سورة الحج آية رقم ٢٦ .

(2) سورة الأعراف آية رقم ٧٣ وسورة هود آية رقم ٦٤ والشمس آية ١٣ .

﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً ﴾ (١) وقالت الحلولية من النصارى ، وغلاة الشيعة والصوفية ومن اتبعهم ممن يقول بقدم الروح ـ أرواح العباد ـ وينتسب إلى أئمة المسلمين كالشافعي وأحمد وغيرهما مثل طائفة من أهل جيلان وغيرهم ـ بل إضافة الروح إلى الله كإضافة الكلام والقدرة ، والكلام والقدرة صفاته فكذلك الروح .

وقالوا في قوله ﴿ فإذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُوحِي ﴾ (٢) دليل على أن روح العبد صفة لله قديمة .

وقالت النصارى : عيسى كلمة الله ، وكلام الله غير مخلوق فعيسى غير مخلوق .

وقالت الصابئة والجهمية : عيسى كلمة الله وهو مخلوق والقرآن كلام الله فهو أيضاً مخلوق .

وهذه المواضع اشتبهت على كثير من الناس وقد تكلم فيها الأئمة كأحمد بن حنبل وغيره ، وتكلموا في إضافة الكلام والروح ومناظرة الجهمية والنصارى وقد سئلت عن ذلك من جهة الحلولية تارة ، ومن جهة المعطلة تارة ، والسائلون تارة من أهل القبلة وتارة من غير أهلها ، وقد بسط جواب ذلك في غير موضع لكن المقصود هنا أن الفارق بين المضافين : أن المضاف إن كان شيئاً قائماً بنفسه أو حالاً في ذلك القائم بنفسه فهذا لا يكون صفة لله ، لأن الصفة قائمة بالموصوف . فالأعيان التي خلقها الله قائمة بأنفسها ، وصفاتها القائمة بها تمتنع أن تكون صفات لله ، فإضافتها إليه تتضمن كونها مخلوقة مملوكة ، لكن أضيفت لنوع من الاختصاص المقتضى للإضافة لا لكونها صفة ، والروح الذي هو جبريل من هذا الباب ، كما أن الكعبة والناقة

(١) سورة مريم آية رقم ١٧ .

(٢) سورة الحجر آية رقم ٢٩ .

من هـذا الباب ، ومـال الله من هذا البـاب ، وروح بني آدم من هذا ، وذلـك كقوله ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوْحَنا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً ﴾ [1] .

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُوحِي ﴾ [2] ﴿ وَطَهِّـرْ بَيْتِيَ ﴾ [3] ﴿ نَاقَـةَ الله وَسُقْيَـاهَـا ﴾ [4] ﴿ مَـا أَفَـاءَ الله عَلَىٰ رَسُـولِـهِ مِنْ أَهْـلِ القُـرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ [5] وأما إن كان المضاف إليـه لا يقوم بنفسـه ، بل لا يكـون إلا صفة كالعلم والقدرة والكلام والرضا والغضب فهذا لا يكون إلا إضافة صفة إليه فتكون قائمة به سبحانه فإذا قيل : استخيرك بعلمك واستقدرك بقدرتـك فعلمه صفة قائمة به ، وقدرته صفـة قائمـة به ، وكـذلك إذا قيـل : أعوذ بـرضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك » فرضاه وسخـطه قائم بـه ، وكذلـك عفوه وعقوبته .

وأمـا أثر ذلـك وهو مـا يحصل للعبـد من النعمة وانـدفاع النقمـة فـذاك مخلوق منفصل عنه ليس صفة له ، وقد يسمى هذا باسم ذاك كما في الحديث الصحيح .

« يقــول الله للجنـة أنت رحمتي أرحم بــك من أشــاء من عبادي »[6] فـالرحمـة هنا عين قـائمة بنفسهـا ، لا يمكن أن تكون صفـة لغيرهـا فهذا هـو الفـارق بين ما يضـاف إضافـة وصف وإضافـة ملك وإذا قيل « المسيـح كلمـة

---

(١) سورة مريم آية رقم ١٧ .

(٢) سورة الحجر آية رقم ٢٩ .

(٣) سورة الحج آية رقم ٢٦ .

(٤) سورة الشمس آية رقم ١٣ .

(٥) سورة الحشر آية رقم ٧ .

(٦) الحديث رواه الامام البخاري في التفسير ٥٠ ـ ١ باب وتقول هل من مزيد ، ٤٨٥٠ عن همام عن أبي هـريرة ـ رضي الله عنـه قال : قـال النبي ـ ﷺ ـ تحاجت الجنـة والنار ، فقـالت النار : أوثـرت بالمتكبرين ، والمتجبرين . وقالت الجنة : مالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم . قال الله تبارك وتعالى للجنة . وذكره

الله »فمعناه أنه مخلوق بالكلمة ، إذ المسيح نفسه ليس كلاماً .

وهـذا بخلاف القـرآن فـإنـه نفسـه كـلام ، والكـلام لا يقـوم بنفسـه إلا بالمتكلم ، فإضافته إلى المتكلم إضافة صفة إلى مـوصوفها ، وإن كـان يتكلم بقـدرته ومشيئتـه ، وإن سمي فعـلاً بهـذا الاعتبـار فهـو صفـة بـاعتبـار قيـامـه بالمتكلم .

وإذا كـان كـذلـك فمن قـال : إن الكـلام . معنى واحـد قـائم بـذات المتكلم ، لم يمكنه أن يجيب عن هذه المسألة بجواب صحيح ، فإذا قيل له : كلام الله هل بعضه أفضل من بعض ؟ امتنـع الجواب على أصله بنعم أم لا ، لامتنـاع تبعضه عنـده . ولكون العبـارة ليست كلامـاً لله لكن إذا أريد بـالكلام العبارة أو قيل له : هل بعض القـرآن أفضل من بعض ـ وأريـد بالقـرآن الكلام العربي الذي نزل به جبريل ، فهو عنده مخلوق لم يتكلم الله به . بل هو عنده إنشاء جبريل أو غيره . أو قيل : هل بعض كتب الله أفضـل من بعض ـ وكتاب الله عنده هو القرآن العربي المخلوق عنده ـ فهذا السؤال يتوجه على قـوله في الظاهر ، وأما في نفس الأمر فكلاهما ممتنع على قوله ؛ لأن العبارة تـدل على المعاني ، فإن المعاني القائمة في النفس تدل عليهـا العبارات ، وقـد علم أن العبارات تدل على معان متنوعة، وعلى أصله ليس المعنى إلا واحداً، فيمتنـع بالضرورة العقلية أن يكون القـرآن العربي كله ، والتـوراة والانجيل وسـائر مـا يضاف إلى الله من العبارات إنما يدل على معنى واحـد لا يتعود ولا يتبعض ، وحينئذ فتبعض العبارات الدالة على المعاني بدون تبعض تلك المعـاني ممتنع ولهذا قيل لهم : موسى عليه السلام لما سمع كلام الله أسمعـه كله ، أم سمع بعضه ؟

إن قلتم : «كله» فقـد علم كل مـا أخبر الله بـه وما أمـر به وقـد ثبت في الـصحيح أن الخضـر قال له : «ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كمـا نقص هذا العصفور من هذا البحر » وقد قال تعالى ﴿ **قُلْ لَـوْ كَانَ الْبَحْـرُ مِدَاداً**

لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ [1] .

وإن قلتم : سمع بعضه ، فقد تبعض، وعندكم لا يتبعض وأيضاً فقد فرق الله بين تكليمه لموسى عليه الصلاة والسلام وبين إيحائه إلى غيره من النبيين ، وفرق بين الإيحاء وبين التكليم من وراء حجاب ، فلو كان المعنى واحداً لكان الجميع إيحاء ولم يكن هناك تكليم يتميز على ذلك .

ولا يمتنع أن يكون الرب تعالى منادياً لأحد ، إذ المعنى القائم بالنفس لا يكون نداء ، وقد أخبر الله تعالى بندائه في القرآن في عدة مواضع .

وعلى هذا فمن قال من هؤلاء : إن كلام الله لا يفضل بعضه بعضاً فحقيقة قوله : أن هذه المسألة ممتنعة ، فليس هناك أمران حتى يقال : إن أحدهما يكون مثل الآخر أو أفضل منه .

والتماثل والتفاضل إنما يعقل بين اثنين فصاعداً . وهكذا عند هؤلاء في إرادته وعلمه وسمعه وبصره فكل من جعل الصفة واحد بالعين امتنع - على قوله - أن يقال : هل بعضها أفضل من بعض أم لا ؟ إذ لا بعض لها عنده .

وكذلك من وافق هؤلاء على وحدة هذه الصفات بالعين وقال : إن كلام الله حروف قديمة الأعيان ، أو حروف وأصوات قديمة الأعيان ، سواء قال مع ذلك إنها أعيان الأصوات المسموعة من القراء ، أو قال : إنها بعض الأصوات المسموعة من القراء .

وإن كان فساد ذلك معلوماً بالاضطرار ، وقال : إن هذه الأصوات غير تلك .

فمن قال بأن الكلام حروف أو حروف وأصوات مقترن بعضها ببعض أزلًا وأبداً وهي مع ذلك شيء واحد فقوله معلوم الفساد عند جمهور العقلاء ،

---

(1) سورة الكهف آية رقم ١٠٩ .

كما أن من جعلها قولاً واحداً فقوله معلوم الفساد عن جمهور العقلاء على كل تقدير ، فيمتنع مع القول بوحدة شيء أن يقال : هل بعضه أفضل من بعض أم لا ؟

وأما من أثبت ما يتعدد من المعاني والحروف ، أو أحدهما فهذا يعقل على قوله : السؤال عند التماثل التفاضل ، ثم حينئذ يقع السؤال : هل يتفاضل كلام الله وصفاته وأسماؤه أم لا يقع التفاضل إلا في المخلوق ؟

وعلى هذا فما ذكره ابن بطال في شرح البخاري لما تكلم على هذا الحديث حيث قال :

قال المهلب ـ وحكاه عن الأصيلي ـ ومذهب الأشعري وأبي بكر بن الطيب [1] ، وابن أبي زيد والداودي وأبي الحسن القابسي وجماعة علماء السنة أن القرآن لا يفضل بعضه بعضاً ، إذ كله كلام الله تعالى وصفته ، وهو غير مخلوق ، ولا يجوز التفاضل إلا في المخلوقات ، هو نقل لأقوال هؤلاء بحسب ما ظنه لازماً لهم حيث اعتقد أن التفاضل لا يكون إلا في المخلوق والقرآن عند هؤلاء ليس بمخلوق ، لكن قدمنا أن السلف الذين قالوا : إنه غير مخلوق لم ينقل عن أحد منهم أنه قال ليس بعضه أفضل من بعض ، بل المنقول عنهم خلاف ذلك .

وأما نقل هذا القول عن الأشعري وموافقيه فغلط عليهم ؛ إذ كلام الله عندهم ليس له كل ولا بعض ، ولا يجوز أن يقال : هل يفضل بعضه بعضاً أو لا يفضل ، فامتناع التفاضل فيه عنده كامتناع التماثل ، ولا يجوز أن يقال : إنه متماثل ولا متفاضل ، إذ ذلك لا يكون إلا بين شيئين .

---

(١) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر ، أبو بكر : قاض . من كبار علماء الكلام ، انتهت إليه الرياسة في مذهب الأشاعرة ، ولد في البصرة عام ٣٣٨ هـ وتوفي ببغداد عام ٤٠٣ هـ .
[راجع وفيات الأعيان ١ : ٤٨١ وقضاة الأندلس ٣٧ ـ ٤٠ وتاريخ بغداد ٥ : ٣٧٩ ودائرة المعارف الاسلامية ٣ : ٢٩٤ والديباج المذهب ٢٦٧] .

ولكن هـذا السؤال يتصور عنـده في الصفات المتعـددة كالعلم والقـدرة فيقـال : أيها أفضـل ؟ فإن كـان قـال : إن صفـات الـرب لا تتفـاضـل ؛ لأن مقتضى الأفضـل نقص المفضـول عنـه فـإنمـا يستقيم هـذا الجـواب في هـذه الصفـات المتعددة لا في نفس الكـلام ، مع أن هـذا النقل عن الأشعـري في نفي تفـاضل الصفـات غير محـرر ، فإن الأشعـري لم يقـل : إن الصفـات لا تتفاضل ، بل هذا خطأ عليه ، ولكن هو يقول : إن الكلام لا يدخله التفـاضل كما لا يدخله التماثل لأنه واحد عنده ، لا لما ذكر .

وأما الصفات المتعددة فإنه قد صـرح بأنهـا ليست متماثلة ، ومـذهبه أن الذات ليست مثل الصفـات ، المتعددة فـإنه قـد صرح بـأنها ليست متمـاثلة ، ومذهبه أن الذات ليست مثل الصفـات ، ولا كل صفـة مثل الأخـرى ، فهو لا يثبت تمـاثـل المعـاني القـديمـة عنـده فكيف يقـال ـ على أصله ـ مـا يـوجب تماثلها ، وإذا امتنع من اطلاق التفاضل فهو كامتناعه من إطلاق لفظ التماثل ، وكامتناعه من إطلاق لفظ التغاير .

وفي الجملة : فمن نقـل عنـه أنـه نفى التفـاضـل وأثبت التمـاثـل فقـد أخـطأ ، لكن قد لا يـطلق لفظ التفاضـل كما لا يـطلق لفظ التمـاثـل ، لا لأن الصفـات متماثلة عنـده ؛ بل هـو ينفي التماثـل لعدم التعـدد ، ولعدم إطـلاق التغاير ، كما يقال هل يقال : الصفات مختلفة أم لا ؟

وهل هي متغايرة أم لا ؟

وهـل يقال في كـل صفـة : إنهـا الـذات أو غيـرهـا ، أو لا يجمـع بين نفيهما ، وإنما يفرد كل نفي منهما ، أو لا يطلق شيء من ذلك ؟ فهذه الأمـور لا اختصاص لها بهذه المسألة مسألة التفضيل ولا ريب أن التماثل أو التفـاضل لا يعقل إلا مع التعدد وتعدد أسماء الله وصفاته وكلماتـه هو القـول الذي عليـه جمهور المسلمين ، وهو الـذي كان عليـه سلف الأمة وأئمتهـا ، وهو المـوافق لفطرة الله التي فطر عليها عباده فلهـذا كان النـاس يتخاطبـون بموجب الفـطرة

والشرعة وإن كانت لبعضهم أقوال أخر تنافي الفطرة والشرعة وتستلزم بطلان ما يقوله بمقتضى الفطرة والشرعة ، فإن القرآن والسنة قد دلا على تعدد كلمات الله في غير موضع وقد قال تعالى ﴿ **قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً** ﴾ (١) .

وقال تعالى ﴿ **وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ الله** ﴾(٢) .

وقد ذكرنا في غير هذا الموضع قول السلف وأنهم كانوا يثبتون لله كلمات لا نهاية لها ، وبينا النزاع في تعدد العلوم والإرادات ، وأن كثيراً من أهل الكلام يقول ما عليه جمهور الناس من تعدد ذلك ، وأن الذين قالوا يريد جميع المرادات بإرادة واحدة إنما أخذوه عن ابن كلاب وجمهور العقلاء قالوا : هذا معلوم الفساد بالضرورة حتى إن من فضلاء النظار من ينكر أن يذهب إلى هذا عاقل من الناس ؛ لأنه رآه ظاهر الفساد في العقل ولم يعلم أنه قاله طائفة من النظار .

وكذلك من جعل نفس إرادته هي رحمته وهي غضبه يكون قوله ﷺ «أعوذ برضاك من سخطك » (٣) معناه يكون مستعيذاً عنده بنفس الإرادة من نفس الإرادة وهذا ممتنع ، فإنه ليس عنده للإرادة صفة ثبوتية يستعاذ بها من أحد

---

(١) سورة الكهف آية رقم ١٠٩ .

(٢) سورة لقمان آية رقم ٢٧ .

(٣) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ١١٧ باب ما جاء في القنوت والوتر ، ١١٧٩ عن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي عن علي بن أبي طالب : أن النبي - ﷺ - كان يقول في آخر الوتر : وذكره .
ورواه الامام مسلم في الصلاة ٢٢٢ ، وأبو داود في كتاب الصلاة ١٤٨ ، والوتر ٥ ، ورواه الترمذي في كتاب الدعوات ٧٥ ، ١١٢ والنسائي في كتاب الطهارة ١١٩ ، والتطبيق ٤٧ ، والسهو ٧١، ٨٩، وقيام الليل ٥١ ، والاستعاذة ٦٢، وصاحب الموطأ في مس القرآن ٣١ ، وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٩٦ ، ١١٨ ، ١٥٠ ، ٦ : ٥٨ ، ٢٠١ (حلبي) .

الوجهين باعتبار ذلك الوجه منها باعتبار الوجه الآخر .

بل الإرادة عنده لها مجرد تعلق بالمخلوقات ، والتعلق أمر عدمي .

وهذا بخلاف الاستعاذة به منه ، لأن له سبحانه صفات متنوعة ، فيستعاذ به باعتبار ، ومنه باعتبار .

ومن قال : إنه ذات لا صفة لها ، أو موجود مطلق لا يتصف بصفة ثبوتية فهذا يمتنع تحققه في الخارج .

وإنما يمكن تقدير هذا في الذهن كما تقدر الممتنعات فضلاً عن أن يكون ربا خالقاً للمخلوقات ، كما قد بسط في موضعه .

وهؤلاء ألجأهم إلى هذه الأمور مضايقات الجهمية والمعتزلة لهم في مسائل الصفات ، فإنهم صاروا يقولون لهم : كلام الله هو الله أو غير الله ؟ إن قلتم هو غيره فما كان غير الله فهو مخلوق وإن قلتم هو هو فهو مكابرة .

وهذا أول ما احتجوا به على الإمام أحمد في المحنة فإن المعتصم لما قال لهم : ناظروه ، قال له عبد الرحمن بن اسحاق يا أبا عبد الله ، ما تقول في القرآن ـ أو قال في كلام الله ـ يعني أهو الله أو غيره ؟ فقال له أحمد : ما تقول في علم الله أهو الله أو غيره ؟

فعارضه أحمد بالعلم ، فسكت عبد الرحمن .

وهذا من حسن معرفة أبي عبد الله بالمناظرة ـ رحمه الله فإن المبتدع الذي بنى مذهبه على أصل فاسد متى ذكرت له الحق الذي عندك ابتداء أخذ يعارضك فيه ، لما قام في نفسه من الشبهة ، فينبغي إذا كان المناظر مدعياً أن الحق معه أن يبدأ بهدم ما عنده ، فإذا انكسر وطلب الحق فأعطه إياه ، وإلا فما دام معتقداً نقيض الحق لم يدخل الحق إلى قلبه ، كاللوح الذي كتب فيه كلام باطل امحه أولاً ، ثم اكتب فيه الحق .

وهؤلاء كان قصدهم الاحتجاج لبدعتهم ، فذكر لهم الإمام أحمد رحمه الله من المعارضة والنقض ما يبطلها . وقد تكلم الإمام أحمد في رده على الجهمية في جواب هذا وبين أن لفظ « الغير » لم ينطق به الشرع لا نفياً ولا إثباتاً ، وحينئذ فلا يلزم أن يكون داخلاً لفظ « الغير » في كلام الشارع ولا غير داخل فلا يقوم دليل شرعي على أنه مخلوق .

وأيضاً فهو لفظ مجمل : يراد بالغير ما هو منفصل عن الشيء ، ويراد بالغير ما ليس هو الشيء .

فلهذا لا يطلق القول بأن كلام الله وعلم الله ونحو ذلك هو هو ، لأن هذا باطل .

ولا يطلق أنه غيره ، لئلا يفهم أنه بائن عنه منفصل عنه .

وهذا الذي ذكره الإمام أحمد عليه الحذاق من أئمة السنة، فهؤلاء لا يطلقون أنه هو ، ولا يطلقون أنه غيره ، ولا يقولون ليس هو هو ولا غيره . فإن هذا أيضاً إثبات قسم ثالث وهو خطأ ، ففرق بين ترك إطلاق اللفظين لما في ذلك من الإجمال وبين نفي مسمى اللفظين مطلقاً ، وإثبات معنى ثالث خارج عن مسمى اللفظين .

فجاء بعد هؤلاء « أبو الحسن » وكان أحذق ممن بعده فقال : ننفي مفرداً لا مجموعاً ، فنقول مفرداً : ليست الصفة هي الموصوف ، ونقول مفرداً ليست غيره ، ولا يجمع بينهما فيقال : لا هي هو ولا هي غيره ؛ لأن الجمع بين النفي فيه من الإيهام ما ليس في التفريق ، وجاء بعده أقوام فقالوا : بل ننفي مجموعاً فنقول: لا هي هو ولا هي غيره ، ثم كثير من هؤلاء إذا بحثوا يقولون هذا المعنى ، أما أن يكون غيره فيتناقضون . وسبب ذلك أن لفظ الغير مجمل : يراد بالغير المباين المنفصل ويراد بالغير : ما ليس هو عين الشيء ، وقد يعبر عن الأول بأن الغيرين ما جاز وجود أحدهما وعدمه ، أو ما

جاز مفارقة أحدهما الآخر بزمان أو مكان أو وجود ويعبر عن الثاني بأنه ما جاز العلم بأحدهما مع عدم العلم بالآخر.

وبين هذا وهذا فرق ظاهر ، فصفات الرب اللازمة له لا تفارقه البتة ، فلا تكون غيراً بالمعنى الأول . ويجوز أن تعلم بعض الصفات دون بعض ، وتعلم الذات دون الصفة فتكون غيراً باعتبار الثاني ، ولهذا أطلق كثير من مثبتة الصفات عليها اغياراً للذات . ومنهم من قال: نقول : إنها غير الذات ، ولا نقول: إنها غير الله ، فإن لفظ الذات لا يتضمن الصفات بخلاف اسم الله فإنه يتناول الصفات ؛ ولهذا كان الصواب ـ على قول أهل السنة ـ أن لا يقال في الصفات إنها زائدة على مسمى اسم الله ؛ بل من قال ذلك فقد غلط عليهم .

وإذا قيل : هل هي زائدة على الذات أم لا ؟

كان الجواب : إن الذات الموجودة في نفس الأمر مستلزمة للصفات، فلا يمكن وجود الذات مجردة عن الصفات ، بل ولا يوجد شيء من الذوات مجرداً عن جميع الصفات ، بل لفظ الذات تأنيث « ذو » ولفظ « ذو » مستلزم للإضافة. وهذا اللفظ مولد ، وأصله أن يقال : ذات علم ، ذات قدرة ، ذات سمع . كما قال تعالى ﴿ فَاتَّقُوا الله وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ [1] ويقال : فلانة ذات مال، ذات جمال . ثم لما علموا أن نفس الرب ذات علم وقدرة وسمع وبصر ـ رداً على من نفى صفاتها ـ عرفوا لفظ الذات ، وصار التعريف يقوم مقام الإضافة ، فحيث قيل لفظ الذات فهو ذات كذا فالذات لا تكون إلا ذات علم وقدرة، ونحو ذلك من الصفات لفظاً ومعنى .

وإنما يريد محققو أهل السنة بقولهم « الصفات زائدة على الذات » أنها زائدة على ما أثبته نفاة الصفات من الذات ، فإنهم أثبتوا ذاتاً مجردة لا صفات لها ، فأثبت أهل السنة الصفات زائدة على ما أثبته هؤلاء ، فهي زيادة في

(١) سورة الأنفال آية رقم ١ .

العلم والاعتقاد والخبر ، لا زيادة على نفس الله جل جلاله وتقدست أسماؤه .

بل نفسه المقدسة متصفة بهذه الصفات لا يمكن أن تفارقها ، فلا توجد الصفات بدون الذات ، ولا الذات بدون الصفات ، وهذه الأمور مبسوطة في غير هذا الموضع .

والمقصود أن الأشعري وغيره من الصفاتية ـ الذين سلكوا مسلك ابن كلاب ـ إذا قال أحدهم في الصفات : إنها متماثلة فإن هذا لا يقوله عاقل ، إذ المثلان ما سد أحدهما مسد الآخر وقام مقامه ، والعلم ليس مثلاً للقدرة ، ولا القدرة مثلاً للإرادة ، وأما الكلام فإنه عنده شيء واحد . والواحد يمتنع فيه تفاضل أو تماثل .

وفي الجملة فالذين يمنعون أن يكون كلام الله بعضه أفضل من بعض لهم مأخذان .

« أحدهما » أن صفات الرب لا يكون بعضها أفضل من بعض ، وقد يعبرون عن ذلك بأن القديم لا يتفاضل « والثاني » إنه واحد ، والواحد لا يتصور فيه تفاضل ولا تماثل ، وهذا على قول من يقول : إنه واحد بالعين ، وهؤلاء الذين يقولون : إنه واحد بالعين منهم من يجعله مع ذلك حروفاً أو حروفاً وأصواتاً قديمة الأعيان ، ويقول : هو مع ذلك شيء واحد ، كما يوجد في كلام طائفة من المتأخرين الذين أخذوا عن الكلابية أنه ليس له إلا إرادة واحدة وعلم واحد وقدرة واحدة وكلام واحد وأن القرآن قديم وأخذوا عن المعتزلة وغيرهم أنه مجرد الحروف والأصوات ، والتزموا أن الحروف والأصوات قديمة الأعيان مع أنها مترتبة في نفسها ترتباً ذاتياً في الوجود أزلية لم يزل بعضها مقارناً لبعض ، وفرقوا بين ذات الشيء وبين وجوده في الخارج موافقة لمن يقول ذلك من المعتزلة وكثير من القائلين بقدمه ، وأنه حروف وأصوات ، لا يقولون إنه شيء واحد بل يجعلونه متعدداً مع قدم القرآن ،

وقدم أعيان الحروف والأصوات .

والقول الآخر لمن يقول : إنه واحد بالعين : أن القديم هو معنى واحد لا يتعدد ولا يتبعض ، كما قد بين حقيقة قولهم . وهذا هو القول المنسوب إلى ابن كلاب والأشعري .

وهذا القول أول من عرف أنه قاله في الإسلام ابن كلاب لم يسبقه إليه أحد من الصحابة ولا التابعين ولا غيرهم من أئمة المسلمين ، مع كثرة ما تكلم الصحابة والتابعون في كلام الله تعالى ، ومع أنه من أعظم وأهم أمور الدين الذي تتوفر الهمم على معرفة ذكره ، ومع تواتر نص الكتاب والسنة وآثار الصحابة على خلاف هذا القول .

وكل من هذه الأقوال مما يدل الكتاب والسنة وآثار السلف على خلافه .

وكل منها مما اتفق جمهور العقلاء الذين يتصورونه على أن فساده معلوم بضرورة العقل ، ويجوز اتفاق طائفة من العقلاء على قول يعلم فساده بضرورة العقل إذا كان عن تواطؤ ، كما يجوز اتفاقهم على الكذب تواطؤاً ، وأما بدون ذلك فلا يجوز .

فالمذهب الذي تقلده بعض الناس عن بعض ـ كقول النصارى والرافضة والجهمية والدهرية ونحو ذلك ـ يجوز أن يكون فيه ما يعلم فساده بضرورة العقل ، وإن كان طائفة من العقلاء قالوه على هذا الوجه ، فأما أن يقولوه من غير تواطؤ فهذا لا يقع ، وأكثر المتقلدين للأقوال الفاسدة لا يتصورونها تصوراً تاماً حتى يكون تصورها التام موجباً للعلم بفسادها . ثم إذا اشتهر القول عند طائفة لم يعلموا غيره عن أهل السنة ظنوا أنه قول أهل السنة .

ولما كان المشهور عند المسلمين أن أهل السنة لا يقولون القرآن مخلوق صار كل من رأى طائفة تنكر قول من يقول القرآن مخلوق ، يظن أن كل ما قالته في هذا الباب هو قول السلف وأئمة السنة ـ والذين قالوا : إن

القرآن غير مخلوق ، بل قائم بذات الله ، ووافقوا السلف والأئمة في هذا لما ظهرت محنة الجهمية ـ وثبت فيها الإمام أحمد الذي أيد الله به السنة ونصر السنة ـ صار شعار أهل السنة أن القرآن كلام الله غير مخلوق وأن الله يرى في الآخرة ، فكل من أنكر ذلك فهو من أهل البدعة في اللسان العام ـ فكثر حينئذ من يوافق أهل السنة والحديث على ذلك وإن كان لا يعرف حقيقة قولهم ، بل معه أصول من أصول أهل البدع الجهمية ، يريد أن يجمع بينها وبين قول أهل السنة كما يريد المتفلسف أن يجمع بين أقوال المتفلسفة المخالفين للرسل وبين ما جاءت به الرسل .

فلهذا صار المنتسبون إلى السنة الذين يقولون : القرآن كلام الله غير مخلوق لهم أقوال :

« أحدها » قول من يقول : إنه قديم العين ، وإن الله لا يتكلم بمشيئته وقدرته ، ولا يتكلم بكلام بعد كلام ، ثم هؤلاء على قولين :

منهم من يقول : ذلك القديم هو معنى واحد لازم لذات الله أبداً ، أو خمسة معان .

ومنهم من يقول : بل هو حروف وأصوات قديمة الأعيان لازمة لذات الله أبداً .

الثالث : قول من يقول : بل الرب في أزله لم يكن الكلام ممكناً له كما لم يكن الفعل ممكناً له عندهم ، لأن وجود الكلام والفعل لا يكون إلا بمشيئته واختياره ، ووجود ما يكون بالمشيئة والاختيار محال عندهم دوامه .

ثم « المشهور » عن هؤلاء قول من يقول : تكلم فيما لا يزال بحروف وأصوات تقوم بذاته ، كما يقوله طوائف متعددة منهم الكرامية وبعض الناس يذكر ما يقتضي أن الكلام الذي قام به شيئاً بعد شيء إنما هو علوم وإرادات ،

وأبو عبد الله [1] الرازي يميل إلى هذا في بعض كتبه .

و« الخامس » قول من يقول : لم يزل متكلماً كيف شاء . وهذا هو المعروف عن السلف وأئمة السنة ، مثل عبد الله [2] بن المبارك وأحمد بن حنبل وسائر أهل الحديث والسنة .

ثم هؤلاء منهم من يقول : لم يزل متكلماً لا يسكت ، بل لا يزال متكلماً بمشيئته وقدرته .

وهذا هو الذي جعله ابن حامد المشهور من مذهب أحمد وأصحابه ، مع أنه حكى أنه لا يختلف قول أحمد أنه لم يزل متكلماً كيف شاء وكما شاء .

والقول الثاني : أنه يتكلم إذا شاء ، ويسكت إذا شاء وهذا القول حكاه أبو بكر عبد العزيز عن طائفة من أصحاب أحمد وكذلك خرجه ابن حامد قولاً في المذهب ، مع ذكره أنه لم يختلف مذهبه في أنه لم يزل متكلماً كيف شاء وكما شاء وأنه لا يجوز أن يكون لم يزل ساكتاً ثم صار متكلماً كما يقوله الكرامية [3] ،وهذه الأقوال وتوابعها مبسوطة في موضع آخر والمقصود هنا أن الذين قالوا : كلام الله غير مخلوق ، تنازعوا بعد ذلك على هذه الأقوال ، مع

---

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٢) هو عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي بالولاء ، التميمي ، المروزي أبو عبد الرحمن : الحافظ : شيخ الاسلام ، المجاهد ، التاجر صاحب التصانيف والرحلات ، أفنى عمره في الأسفار ، حاجاً ومجاهداً وتاجراً ، وجمع الحديث والفقه والعربية ، وأيام الناس ، والشجاعة والسخاء ، كان من سكان خراسان ومات بهيت عام ١٨١ هـ منصرفاً من غزو الروم ، له كتاب في « الجهاد » وهو أول من صنف فيه ، « والرقائق » . [راجع تذكرة الحفاظ ١ : ٢٥٣ ومفتاح السعادة ٢ : ١١٢ وحلية الأولياء ٨ : ١٦٢ وشذرات ١ : ٢٩٥] .

(٣) انظر في شأن هذه الفرقة : التبصير ص ٦٥ ـ والملل والنحل ١ : ١٠٨ والسفاريني ١ : ٩١ والفرق بين الفرق ٢١٥ وصاحبها: محمد بن كرام السجستاني ، وكان من عباد المرجئة ويختلف العلماء في ضبط كرام ، والأكثرون على أنه بفتح الكاف وتشديد الراء ، وانظر اللباب ٣ : ٣٢ ولسان الميزان ٥ : ٣٥٣ ، والقاموس المحيط .

أن أكثر الذين قالوا : بعض هذه الأقوال لا يعلمون ما قال غيرهم ، بل غاية ما عند أئمتهم المصنفين في هذا الباب معرفة قولين أو ثلاثة أو أربعة من هذه الأقوال ـ كقول المعتزلة والكلابية والسالمية والكرامية ـ ولا يعرفون أن في الإسلام من قال سوى ذلك ، ويصنف أحدهم كتاباً كبيراً في « مقالات الاسلاميين »[1] وفي « الملل والنحل »[2] ويذكر عامة الأقوال المبتدعة في هذا الباب ، والقول المأثور عن السلف والأئمة لا يعرفه ولا ينقله ، مع أن الكتاب والسنة مع المعقول الصريح لا يدل إلا عليه ، وكل ما سواه أقوال مناقضة كما بسط في موضعه .

والقصد هنا : أن من كان عنده أن قول المعتزلة مثلاً ، أو قول المعتزلة والكرامية ، أو قول هؤلاء وقول الكلابية ، أو قول هؤلاء وقول السالمية ـ هو باطل من أقوال أهل البدع ، لم يبق عنده قول أهل السنة إلا القول الآخر الذي هو أيضاً من الأقوال المبتدعة المخالفة لصريح المعقول ، وصحيح المنقول، فيفرع على ذلك القول ما يضيفه إلى السنة ، ثم إذا تدبر نصوص الكتاب والسنة وآثار السلف وجدها تخالف ذلك القول أصلاً وفرعاً ، كما وقع لمن أنكر فضل « فاتحة الكتاب » و« آية الكرسي » و﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ على غيرها من القرآن فإن عمدتهم ما قدمته من الأصل الفاسد .

أما كون الكلام واحداً فلا يتصور فيه تفاضل ولا تماثل ولا تعدد .

وأما كون صفات الرب لا تتفاضل ـ وربما قالوا : القديم لا يتفاضل ، وهو من جنس قول الجهمية والمعتزلة ونحوهم القديم لا يتعدد ـ فهذا لفظ مجمل: فإن القديم إذا أريد به رب العالمين ، فرب العالمين إله واحد لا شريك له . وإذا أريد به صفاته ، فمن قال : إن صفات الرب لا تتعدد فهو يقول : العلم هو القدرة ، والقدرة هي الإرادة ، والسمع والبصر هو العلم ،

---

(١) صاحبها الامام علي بن اسماعيل الأشعري ت ٣٢٤ هـ

(٢) صاحبها محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ت ٥٤٨ هـ .

وقد يقول بعضهم أيضاً : العلم هو الكلام ، ويقول آخرون : العلم والقدرة هو الإرادة ، ثم قد يقولون : إن الصفة هي الموصوف : فالعلم هو العالم والقدرة هي القادر وهذه الأقوال صرح بها نفاة الصفات من الفلاسفة والجهمية ونحوهم كما حكيت ألفاظهم في غير هذا الموضع ، ومعلوم أن في هذه الأقوال من مخالفة المعقول الصريح والمنقول الصحيح - بل مخالفة المعلوم بالاضطرار للعقلاء ، والمعلوم بالاضطرار من دين الإسلام ودين الرسل - ما يبين أنها في غاية الفساد شرعاً وعقلاً .

ثم إن هؤلاء تأولوا نصوص الكتاب والسنة بتأويلات باطلة : منهم من قال : المراد بكونه أعظم وأفضل وخيراً كونه عظيماً في نفسه ، وامتنع هؤلاء من إجراء التفضيل عليه ، وحكي هذا عن الأشعري وابن الباقلاني وجماعة غيرهما .

ومعلوم أن من تدبر ألفاظ الكتاب والسنة تبين له أنها لا تحتمل هذا المعنى ، بل هو من نوع القرمطة .

فإن الله تعالى يقول ﴿ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ ﴾ [1] وقال النبي ﷺ لأبي : « أتدري أي آية معك في كتاب الله أعظم » [2] .

وقال « لأعلمنك سورة لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القران مثلها » إلى غير ذلك مما تقدم ذكره .

ومنهم من قال : بل المراد بقوله « خير منها » أي خير منها لكم ، أي أكثر ثواباً أو أقل تعباً ، وقال : ما دل على أن بعضه أفضل من بعض ، فليس هو تفضيلاً لنفس الكلام بل لمتعلقه ، وهو أن تلاوة هذا والعمل به يحصل به من الأجر أكثر مما يحصل بالآخر .

---

(١) سورة الزمر آية رقم ٢٣ .
(٢) سبق تخريج هذا الحديث في هذا الجزء .

فيقال لهؤلاء : ما ذكرتموه حجة عليكم ، مع ما فيه من مخالفة النص وذلك أن كون الثواب على أحد القولين أو الفعلين أكثر منه على الثاني إنما كان لأنه في نفسه أفضل ، ولهذا إنما تنطق النصوص بفضل القول والعمل في نفسه ، كما قد سئل النبي ﷺ غير مرة : أي العمل أفضل [1] ؟ فيجيب بتفضيل عمل على عمل ، وذلك مستلزم لرجحان ثوابه .

وأما رجحان الثواب مع تماثل العملين فهذا مخالف للشرع والعقل .

وكذلك الكلام ، ففي صحيح مسلم عن سمرة عن النبي ﷺ أنه قال : « أفضل الكلام بعد القرآن أربع ـ وهي من القرآن ـ سبحان الله ، والحمد لله ولا إله إلا الله ، والله أكبر »» [1] .

فأخبر أنها أفضل الكلام بعد القرآن مع كونها من القرآن ففضل نفس هذه الأقوال بعد القرآن على سواها وكذلك في صحيح مسلم أنه سئل : أي الكلام أفضل ؟ فقال : ما اصطفى الله لملائكته سبحان الله وبحمده » وفي الموطأ وغيره عن النبي ﷺ أنه قال : « أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ﴿ لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [3] فأخبر أن هذا الكلام أفضل مما قاله هو والنبيون من قبله وفي سنن ابن ماجه عنه أنه قال « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله »[4] .

---

(١) راجع البخاري في الحج ٤ ، وتوحيد ٤٨ ، ٥٦ والامام مسلم في الايمان ١٣٥ ، ١٣٦ ، والترمذي في المواقيت ١٣ ، والبر ٢ ، والنسائي في الزكاة ٤٩ ، والمناسك ٤ ، وإيمان ١ وابن ماجه في المناسك ١٦ ، والدارمي في الجهاد ٤ ، والرقاق ٢٨ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٦٤ ، ٢٨٧ ، ٣٨٨ ، ٥٣١ ، ٥ : ١٦٣ ، ٤٥١ ، ٦ : ٣٧٢ ، ٣٧٤ (حلبي) .

(٢) ورواه أيضاً الامام أحمد في المسند ٥ : ١٤٨ (حلبي) ورواه البخاري في كتاب الايمان ١٩ .

(٣) سورة التغابن آية رقم ١ .

(٤) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الأدب ٥٥ باب فضل الحامدين ٣٨٠٠ ثنا موسى بن ابراهيم بن كثير

وقد رواه ابن أبي الدنيا .

وفي الصحيحين أنه قال « الإيمان بضع وستون ـ أو وسبعون ـ شعبة ، أعلاها قول لا إله إلا الله » [1] .

ومثل هذا كثير في النصوص بفضل العمل على العمل . والقول على القول .

ويعلم من ذلك فضل ثواب أحدهما على الآخر .

أما تفضيل الثواب بدون تفضيل نفس القول والعمل فلم يرد به نقل ، ولا يقتضيه عقل ، فإنه إذا كان القولان متماثلين من كل وجه ، أو العملان متماثلين من كل وجه ، كان جعل ثواب أحدهما أعظم من ثواب الآخر ترجيحاً لأحد المتماثلين على الآخر بلا مرجح .

وهذا أصل قول القدرية والجهمية الذين يقولون : إن القادر يرجح أحد مقدوريه بلا مرجح ، وظنوا أنهم بهذا الأصل ينصرون الإسلام ، فلا للإسلام نصروا ولا لعدوه كسروا ، بل تسلط عليهم سلف الأمة وأئمتها بالتبديع والتضليل والتكفير والتجهيل ، وتسلط عليهم خصومهم الدهرية [2] وغيرهم بإلزامهم مخالفة المعقول . وجعلوا ذلك ذريعة إلى الزيادة في مخالفة المشروع والمعقول كما جرى للملحدين مع المبتدعين .

وأيضاً فقول القائل : إنه ليس بعض ذلك خيراً من بعض ، بل

= ابن بشير بن الفاكهة قال : سمعت طلحة بن خراش بن عم جابر . قال سمعت جابر بن عبد الله يقول : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : وذكره .

(1) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الايمان ٥٨ ، ٥٧ ورواه أبو داود في السنة باب في رد الارجاء ، عن عبد الله بن دينار ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة أن رسول الله ـ ﷺ قال : وذكره .

(2) الدهرية : نسبة الى الذين جحدوا الله ، وزعموا أن العالم وجد بدون الله عز وجل ، تعالى الله عن ذلك ، وقالوا : ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » . سورة الجاثية آية رقم ٢٤ .

بعضه أكثر ثواباً : رد لخبر الله لصريح فإن الله يقول ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ [1] . فكيف يقال ليس بعضه خيراً من بعض ؟ وإذا كان الجميع متماثلاً في نفسه امتنع أن يكون فيه شيء خيراً من شيء .

وكون معنى الخير أكثر ثواباً مع كونه متماثلاً في نفسه أمر لا يدل عليه اللفظ حقيقة ولا مجازاً ، فلا يجوز حمله عليه ، فإنه لا يعرف قط أن يقال : هذا خير من هذا وأفضل من هذا مع تساوي الذاتين بصفاتهما من كل وجه ، بل لا بد ـ مع إطلاق هذه العبارة ـ من التفاضل ولو ببعض الصفات فأما إذا قدر أن مختاراً جعل لأحدهما مع التماثل ما ليس للآخر مع استوائهما بصفاتهما من كل وجه فهذا لا يعقل وجوده ، ولو عقل لم يقل إن هذا خير من هذا أو أفضل لأمر لا يتصف به أحدهما البتة .

وأيضاً ففي الحديث الصحيح أنه قال في الفاتحة : « لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآن مثلها » .

فقد صرح الرسول ﷺ بأن الله لم ينزل لها مثلاً ، فمن قال : إن كل ما نزل من كلام الله فهو مثل لها من كل وجه فقد ناقض الرسول في خبره . وأيضاً فقد تقدم قوله « أحسن الحديث » ومع تماثل كل حديث لله فليس القرآن أحسن من التوراة والإنجيل ، وكذلك تقدم ما خص الله به القرآن من الأحكام .

فإن قيل : نحن نسلم لكم أن الله خص بعض كلامه من الثواب والأحكام بما لا يشركه فيه غيره ، لكن هذا عندنا بمحض مشيئته لا لاختصاص ذلك الكلام بوصف امتاز به عن الآخر .

قيل : أولاً هذا مخالف لصريح نصوص الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة مع مخالفته لصريح المعقول ، ثم هذا مبني على أصل الجهمية والقدرية ،

(1) سورة البقرة آية رقم ١٠٦ .

وهو أن القادر المختار يرجح أحد المتماثلين على الآخر بلا مرجح ، وهؤلاء لما جوزوا هذا قالوا : إن الرب لم يزل معطلاً ، وما كان يمكن في الأزل أن يتكلم ولا أن يفعل ، ثم صار الكلام والفعل ممكناً من غير حدوث شيء اقتضى انتقالها من الامتناع إلى الإمكان وقالوا : إن القادر المرجح يرجح بلا مرجح .

ثم قالت الجهمية : والعبد ليس بقادر في الحقيقة ، فلا يرجح شيئاً ، بل الله هو الفاعل لفعله ، وفعله هو نفس فعل الرب .

وقالت القدرية : العبد قادر تام القدرة يرجح أحد مقدوريه على الآخر بلا سبب حادث ، ولا حاجة إلى أن يحدث الله ما به يختص به فعل أحدهما بل هو - مع أن نسبته إلى الضدين الإيمان والكفر سواء - يرجح أحدهما بلا مرجح لا من الله ولا من العبد ، ولا يفتقر إلى إعانة الله ولا إلى أن يجعله شائياً ، ولا يجعله يقيم الصلاة ، ولا يجعله مسلماً .

ومعلوم بالعقول خلاف هذا ، والله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . لكن المدح في هذا الكلام معناه أنه مطلق المشيئة لا معوق له إذا أراد شيئاً ، كما قال النبي ﷺ : « اللهم أغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت ولكن ليعزم المسألة ، فإن الله لا مكره له » [1] .

فبين ﷺ أنه لا يفعل إلا بمشيئته ليس له مكره حتى يقال له : افعل إن شئت ، ولا يفعل إن لم يشأ .

فهو سبحانه إذا أراد شيئاً كان قادراً عليه لا يمنعه منه مانع لا يعني بذلك

---

(١) الحديث رواه البخاري في ٨٠ - كتاب الدعوات ٢١ باب ليعزم المسألة فإنه لا مكره له ، ورواه مسلم في ٤٨ - كتاب الذكر ، والدعاء ، والتوبة ، والاستغفار ٣ باب العزم بالدعاء ولا يقل إن شئت حديث ٩ .

ورواه صاحب الموطأ في كتاب القرآن ٨ باب ما جاء في الدعاء ٢٨ عن مالك ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة أن رسول الله - ﷺ - وذكره .

أنه يفعل لمجرد مشيئة ليس معها حكمة بل يفعل عندهم ما وجود فعله وعدمه بالنسبة إليه سواء من كل وجه .

فإن هذا ليس بمدح ، بل المعقول من هذا أنه صفة ذم ، فمن فعل لمجرد إرادته الفعل من غير حكمة لفعله ، ولا تضمن غاية مجردة كان أن لا يفعل خيراً له .

وقد ذم الله سبحانه في كتابه من نسبه إلى هذا فقال تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ، ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ [1] .

وقال تعالى :

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عبثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ فَتَعَالَى اللهُ المَلِكُ الحَقُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ ﴾ [2] .

قال المفسرون : العبث أن يعمل عملاً لا لحكمة ، وهو جنس من اللعب .

وقال ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لاَتَّخَذْنَاهُ مِن لَدُنَّا إن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [3] وقال ﴿ أَيَحْسَبُ الإنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدىً ﴾ [4] قال المفسرون وأهل اللغة : السدي المهمل الذي لا يؤمر ولا ينهى ، كالذي يترك الإبل سدى مهملة وقال تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إلاَّ بِالحَقِّ وَإنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الجَمِيلَ إنَّ رَبَّكَ هُوَ الخَلاَّقُ العَلِيمُ ﴾ [5] .

---

(١) سورة ص آية رقم ٢٧ .
(٢) سورة المؤمنون آية رقم ١١٥ ـ ١١٦ .
(٣) سورة الأنبياء آية رقم ١٦ ـ ١٧ .
(٤) سورة القيامة آية رقم ٣٦ .
(٥) سورة الحجر آية رقم ٨٤ ـ ٨٦ .

وقد بين سبحانه الفرق بين ما أمر به وما نهى عنه ، وبين من يحمده ويكرمه من أوليائه ومن يذمه ويعاقبه من أعدائه ، وأنهم مختلفون لا يجوز التسوية بينهما وجعل خلاف ذلك من المنكر الذي لا مساغ له فقال تعالى ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ، مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ (١) .

وقال ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾(٢) وقال تعالى ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (٣).

فبين أن هذا الحكم سيء في نفسه ليس الحكم به مساوياً للحكم بالتفاضل .

ثم قال : ﴿ وَخَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٤) فأخبر أنه خلق الخلق ليجزي كل نفس بما كسبت وأنه لا يظلم أحداً فينقص من حسناته شيئاً بل كما قال ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ (٥) .

وقد نزه نفسه في غير موضع من القرآن أن يظلم أحداً من خلقه فلا يؤتيه أجره أو يحمل عليه ذنب غيره فقال تعالى ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً ﴾ (٦) .

وقال تعالى ﴿ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ (٧) وقال تعالى ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ

(١) سورة القلم آية رقم ٣٥ - ٣٦ .
(٢) سورة ص آية رقم ٢٨ .
(٣) سورة الجاثية آية رقم ٢١ .
(٤) سورة الجاثية آية رقم ٢٢ .
(٥) سورة الكهف آية رقم ٤٩ .
(٦) سورة طه آية رقم ١١٢ .
(٧) سورة ق آية رقم ٢٨ .

نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ، وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ مِن شَيْءٍ لَمَا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ (١) .

وفي الحديث الصحيح الإلهي : «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا » (٢) وما تزعمه القدرية من أن تفضيل بعض عباده على بعض بفضله وإحسانه من باب الظلم جهل منهم ، وكذلك جزاؤهم بأعمالهم التي جرى بها القدر ليس بظلم ، فإن الواحد من الناس إذا عاقبه غيره بسيئاته ، وانتصف للمظلوم من الظالم لم يكن ذلك ظلماً منه باتفاق العقلاء ، بل ذلك أمر محمود منه ولا يقول أحد إن الظالم معذور لأجل القدر فرب العالمين إذا أنصف بعض عباده من بعض وأخذ للمظلومين حقهم من الظالمين كيف يكون ذلك ظلماً منه لأجل القدر ؟

وكذلك الواحد من العباد إذا وضع كل شيء موضعه فجعل الطيب مع الطيب في المكان المناسب له وجعل الخبيث مع الخبيث في المكان المناسب له كان ذلك عدلاً منه وحكمة ، فرب العالمين إذا وضع كل شيء موضعه ولم يجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ، ولم يجعل المتقين كالفجار ، ولا المسلمين كالمجرمين والجنة طيبة لا يصلح أن يدخلها إلا طيب ، ولهذا لا يدخلها أحد إلا بعد القصاص الذي ينظفهم من الخبث ، كما ثبت في الصحيح عن أبي سعيد عن النبي ﷺ « إن المؤمنين إذا عبروا الجسر - وهو الصراط المنصوب على متن جهنم - فإنهم يوقفون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا ، فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة » (٣) .

---

(١) سورة هود آية رقم ١٠٠ - ١٠١ .

(٢) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب البر ٥٥ والامام أحمد بن حنبل في المسند ٥ : ١٦٠ (حلبي) .

(٣) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب المظالم ١ باب قصاص المظالم ٢٤٤٠ - عن قتادة ، عن أبي

وهذه الأمور مبسوطة في غير هذا الموضع .

والمقصود : هنا أن ما يقوله القدرية من الظلم والعدل الذي يقيسون به الرب على عباده من بدعهم التي ضلوا بها وخالفوا بها الكتاب والسنة ، إجماع سلف الأمة ، وكذلك من قابلهم فنفى حكمة الرب الثابتة في خلقه وأمره وما كتبه على نفسه من الرحمة ، وما حرمه على نفسه من الظلم ، وما جعله للمخلوقات والمشروعات من الأسباب التي شهد بها النص مع العقل والحس ، واتفق عليها سلف الأمة وأئمة الدين . كقوله تعالى ﴿ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾[1] .

وقوله تعالى ﴿ فَأَنْزَلْنَا بِهِ المَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾[2] ونحو ذلك ، فإن هذه الأقاويل أصلها مأخوذ من الجهم بن صفوان إمام غلاة المجبرة وكان ينكر رحمة الرب ويخرج إلى الجذمي فيقول : أرحم الراحمين يفعل مثل هذا ؟ يريد بذلك أنه ما ثم إلا إرادة رجح بها أحد المتماثلين بلا مرجح لا لحكمة ولا رحمة .

ولهذا كان الذين وافقوه على قوله من المنتسبين إلى مذهب أهل السنة والجماعة يتناقضون ، لأنهم إذا خاضوا في الشرع احتاجوا أن يسلكوا مسالك أئمة الدين في إثبات محاسن الشريعة وما فيها من الأمر بمصالح العباد وما ينفعهم من النهي عن مفاسدهم وما يضرهم ، وأن الرسول الذي بعث بها بعث رحمة كما قال تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾[3] .

وقد وصفه الله تعالى بقوله ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ

المتوكل الناجي ، عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه ، عن رسول الله - ﷺ - قال : وذكره ورواه الامام أحمد بن حنبل في المسند ٣ : ١٣ ، ٦٣ ، ٧٤ (حلبي) .

(١) سورة البقرة آية رقم ١٦٤ .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ٥٧ .

(٣) سورة الأنبياء آية رقم ١٠٧ .

يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَالإِنْجِيلِ ، يَأْمُرُهُم بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ المُنْكَرِ ، وَيُحِلّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ ﴾ (1) .

فأخبر أنه يأمر بما هو معروف وينهى عما هو منكر ، ويحل ما هو طيب ، ويحرم ما هو خبيث .

ولو كان المعروف لا معنى له إلا المأمور به، والمنكر لا معنى له إلا ما حرم لكان هذا كقول القائل : يأمرهم بما يأمرهم وينهاهم عما ينهاهم ، ويحل لهم ما أحل لهم ويحرم عليهم ما حرم عليهم . وهذا كلام لا فائدة فيه فضلاً عن أن يكون فيه تفضيل له على غيره .

ومعلوم أن كل من أمر بأمر يوصف بذلك ، وكل نبي بعث فهذه حاله .

وقد قال تعالى ﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ (2) .

فعلم أن الطب وصف للعين ، وأن الله قد يحرقها مع ذلك عقوبة للعباد ، كما قال تعالى لما ذكر ما حرمه على بني اسرائيل ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ (3) .

وقال تعالى ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ﴾ (4) .

فلو كان معنى الطيب هو ما أحل كان الكلام لا فائدة فيه فعلم أن الطيب والخبيث وصف قائم بالأعيان .

وليس المراد به مجرد إلتذاذ الأكل ، فإن الإنسان قد يلتذ بما يضره من السموم ، وما يحميه الطبيب منه ،ولا المراد به التذاذ طائفة من الأمم

---

(1) سورة الأعراف آية رقم ١٥٦ - ١٥٧ .

(2) سورة النساء آية رقم ١٦٠ .

(3) سورة الأنعام آية رقم ١٤٦ .

(4) سورة المائدة آية رقم ٤ .

كالعرب ، ولا كون العرب تعودته فإن مجرد كون أمة من الأمم تعودت أكله وطاب لها ، أو كرهته لكونه ليس في بلادها لا يوجب أن يحرم الله على جميع المؤمنين ما لم تعتده طباع هؤلاء ، ولا أن يحل لجميع المؤمنين ما تعودوه .

كيف وقد كانت العرب قد اعتادت أكل الدم والميتة وغير ذلك وقد حرمه الله تعالى .

وقد قيل لبعض العرب : ما تأكلون ؟

قال : ما دب ودرج ، إلا أم حبين . فقال : ليهن أم حبين العافية .

ونفس قريش كانوا يأكلون خبائث حرمها الله ، وكانوا يعافون مطاعم لم يحرمها الله .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قدم له لحم ضب ، فرفع يده ولم يأكل .

فقيل : أحرام هو يا رسول الله ؟

قال : « لا ، ولكنه لم يكن بأرض قومي فأجدني أعافه »[1] .

فعلم أن كراهة قريش وغيرها لطعام من الأطعمة لا يكون موجباً لتحريمه على المؤمنين من سائر العرب والعجم .

وأيضاً فإن النبي ﷺ وأصحابه لم يحرم أحد منهم ما كرهته العرب ، ولم يبح كل ما أكلته العرب وقوله تعالى ﴿ **وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ** ﴾[2] إخبار عنه أنه سيفعل ذلك ، فأحل النبي ﷺ الطيبات ، وحرم

---

(1) الحديث رواه الامام البخاري عن خالد بن الوليد في ٧٢ كتاب الذبائح والصيد ، ٣٣ باب الضب ، ورواه مسلم عن ابن عباس في ٣٤ ـ كتاب الصيد والذبائح ٧ ـ باب اباحة الضب حديث ٤٣ ، ورواه صاحب الموطأ في كتاب الاستئذان ٤ باب ما جاء في أكل الضب ١٠ وحدثني مالك عن ابن شهاب عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن عبد الله بن عباس عن خالد بن الوليد بن المغيرة وذكره .

(2) سورة الأعراف آية رقم ١٥٧ .

الخبائث مثل كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير ، فإنها عـادية باغية ، فإذا أكلها الناس ـ والغاذي شبيه بالمغتـذي ـ صار في أخـلاقهم شوب من أخـلاق هذه البهـائم وهو البغي والعـدوان كما حـرم الـدم المسفـوح لأنـه مجمع قوى النفس الشهوية الغضبية ، وزيادته توجب طغيـان هذه القـوى وهو مجرى الشيطان من البدن ، كما قال النبي ﷺ : « إن الشيطان يجـري من ابن آدم مجرى الدم » [1] .

ولهذا كان شهر رمضان إذا دخل صفدت الشياطين لأن الصوم جنة .

فالطيبات التي أباحها هي المطاعم النافعة للعقـول والأخلاق والخبـائث هي الضارة للمعقول والأخلاق ، كما أن الخمر أم الخبائث لأنها تفسد العقول والأخـلاق ، فأبـاح الله للمتقين الطيبـات التي يستعينون بهـا على عبـادة ربهم التي خلقوا لها ، وحرم عليهم الخبائث التي تضرهم في المقصود الذي خلقوا له ، وأمرهم مع أكلها بالشكر ، ونهاهم عن تحريمها .

فمن أكلها ولم يشكر تـرك ما أمـر الله به واستحق العقـوبة . قـال تعالى ﴿ يَـا أَيُّهَا الَّـذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَـاتِ مَا رَزَقْنَـاكُمْ وَاشْكُرُوا لله إن كُنتُمْ إِيَّـاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [2] .

وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها » [3] .

---

(1) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الصوم ٦٥ باب المعتكف يزوره أهله في المسجد ١٧٧٩ بسنده عن صفية بنت حيي زوج النبي ـ ﷺ ـ وذكره . ورواه الامام البخاري في كتاب الأحكام ٢١ وبدء الخلق ١١ ، والاعتكاف ١١ ، ١٢ وأبو داود في الصوم ٧٨ والسنة ١٧ والأدب ٨١ . وأحمد بن حنبل في المسند ٣ : ١٥٦ ، ٢٨٥ ، ٣٠٩ ، ٦ : ٣٣٧ (حلبي) .

(2) سورة البقرة آية رقم ١٧٢ .

(3) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الذكر ٨٩ ، والامام الترمذي في كتاب الأطعمة ١٨ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٣ : ١٠٠، ١١٧ (حلبي) .

وفي حديث آخر « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر»[3] وقال تعالى ﴿ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾[2] .

أي من شكره ، فإنه لا يبيح شيئاً ويعاقب من فعله . ولكن يسأله عن الواجب الذي أوجبه معه وعما حرمه عليه : هل فرط بترك مأمور أو فعل محظور كما قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾[3] .

فنهاهم عن تحريم الطيبات .

كما كان طائفة من الصحابة قد عزموا على الترهب فأنزل الله هذه الآية .

وفي الصحيحين أن رجالاً من الصحابة قال أحدهم : أما أنا فأصوم لا أفطر ، وقال آخر : أما أنا فأقوم لا أنام وقال آخر : أما أنا فلا أقرب النساء ، وقال آخر : أما أنا فلا آكل اللحم .

فقال النبي ﷺ : ما بال رجال يقول أحدهم كذا وكذا لكني أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام وأتزوج النساء ، وآكل اللحم .

« فمن رغب عن سنتي فليس مني »[4] .

---

(١) الحديث رواه البخاري في الأطعمة ٥٦ ، والترمذي في القيامة ٤٣ وابن ماجه في الصيام ٥٥ ، والدارمي في الأطعمة ٤ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٨٣ ، ٢٨٩ ، ٤ : ٣٤٣ (حلبي) .

(٢) سورة التكاثر آية رقم ٨ .

(٣) سورة المائدة آية رقم ٨٧ .

(٤) سبق تخريج هذا الحديث . وراجع صحيح البخاري كتاب النكاح ١ والامام مسلم كتاب النكاح ٥ ، والنسائي كتاب النكاح ٤ ، والدارمي كتاب النكاح ٣ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ١٥٨ ، ٣ : ٢٤١ ، ٢٥٩ ، ٢٨٥ ، ٥ : ٤٠٩ حلبي .

ولبسط هذه الأمور موضع آخر .

والمقصود هنا : أن الله بين في كتابه وعلى لسان رسوله حكمته في خلقه وأمره كقوله : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾ (١) .

فعلل التحريم بأنها فاحشة بدون النهي ، وأن ذلك علة للنهي عنها .

وقوله ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا والله أَمَرَنا بِهَا قُلْ إِنَّ الله لَا يَأْمُرُ بِالفَحْشَاءِ ﴾(٢) .

فذكر براءته من هذا على وجه المدح له بذلك وتنزيهه عن ذلك ، فدل على أن من الأمور ما لا يجوز أن يضاف إلى الله الأمر به ، ليست الأشياء كلها مستوية في أنفسها ولا عنده ، وأنه لا يخصص المأمور على المحظور لمجرد التحكم بل يخصص المأمور بالأمر والمحظور بالحظر لما اقتضته حكمته وقد تدبرت عامة ما رأيته من كلام السلف ـ مع كثرة البحث عنه ، وكثرة ما رأيته من ذلك ـ هل كان الصحابة والتابعون لهم بإحسان أو أحد منهم على ما ذكرته من هذه الأقوال التي وجدتها في كتب أهل الكلام من الجهمية والقدرية ومن تلقى ذلك عنهم ، مثل دعوى الجهمية أن الأمور المتماثلة بأمر الله بأحدها وينهى عن الآخر لا لسبب ولا لحكمة ، أو أن الأقوال المتماثلة والأعمال المتماثلة من كل وجه يجعل الله ثواب بعضها أكثر من الآخر بلا سبب ولا حكمة ، ونحو ذلك مما يقولونه : كقولهم إن كلام الله كل متماثل ، وإن كان الأجر في بعضه أعظم ، فما وجدت في كلام السلف ما يوافق ذلك . بل يصرحون بالحكم والأسباب ، وبيان ما في المأمور به من الصفات الحسنة المناسبة للأمر به ، وما في المنهى عنه من الصفات السيئة المناسبة للنهي عنه ، ومن تفضيل بعض الأقوال والأعمال في نفسها على بعض ، ولم أر عن

---

(١) سورة الاسراء آية رقم ٣٢ .

(٢) سورة الاعراف آية رقم ٢٨ .

أحد منهم قط أنه خالف النصوص الدالة على ذلك ، ولا استشكل ذلك ، ولا تأوله على مفهومه ، مع أنه يوجد عنهم في كثير من الآيات والأحاديث استشكال واشتباه وتفسيرها على أقوال مختلفة قد يكون بعضها خطأ والصواب هو القول الآخر ، وما وجدتهم في مثل قوله تعالى ﴿ **اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشابِهاً مَثَانِيَ** ﴾[1] .

وقول النبي ﷺ لأبي « أي آية في كتاب الله أعظم » [2] وقوله في الفاتحة « لم ينزل في التوراة ولا في الانجيل ولا في القرآن مثلها » [3]

ونحو ذلك إلا مقرين لذلك قائلين بموجبه .

والنبي ﷺ سأل أبياً « أي آية في كتاب الله أعظم » فأجابه أبيّ بأنها آية الكرسي ، فضرب بيده في صدره وقال : « ليهنك العلم أبا المنذر » [4] .

ولم يستشكل أبي ولا غيره السؤال عن كون بعض القرآن أعظم من بعض ، بل شهد النبي ﷺ بالعلم لمن عرف فضل بعضه على بعض وعرف أفضل الآيات ، وكذلك قوله تعالى ﴿ **مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا** ﴾ [5] .

وما رأيتهم تنازعوا في تفسير « خير منها » فإن هذه الآية فيها قراءتان مشهورتان : قراءة الأكثرين ﴿ **أو نُنسِها** ﴾ من أنساه ينسيه .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « أو ننسأها» بالهمز من نسأه ينسأه .

فالأول من النسيان ، والثاني من نسأ إذا أخر . قال أهل اللغة : نسأته نسأ إذا أخرته ، وكذلك أنسأته ، يقال نسأته البيع وأنسأته .

---

(١) سورة الزمر آية رقم ٢٣ .
(٢) سبق تخريج هذا الحديث في هذا الجزء .
(٣) سبق تخريج هذا الحديث في هذا الجزء .
(٤) سبق تخريج هذا الحديث في هذا الجزء .
(٥) سورة البقرة آية رقم ١٠٦ .

قال الأصمعي [1] : أنسأ الله في أجله ونسأ من أجله بمعنى ومن هذه المادة بيع النسيئة .

ومن كلام العرب : من أراد النساء ولا نساء فليبكر الغداء وليخفف الرداء ، وليقلل من غشيان النساء .

فأما القراءة فمعناها ظاهر عند أكثر المفسرين ، قالوا ، المراد به ما أنسأه الله من القران كما جاءت الآثار بذلك فإن ما يرفع من القرآن إما أن يكون رفعاً شرعياً بإزالته من القلوب وهو الإنساء ، فأخبر تعالى أن ما ينسخه أو ينسيه فإنه يأتي بخير منه أو مثله ، بين ذلك فضله ورحمته لعباده المؤمنين ، فإنه قال قبل ذلك ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِنْ خَيْرٍ مِن رَبِّكُمْ وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** ﴾ [2] .

فنهاهم عن التشبه بأهل الكتاب في سوء أدبهم على الرسول وعلى ما جاء به ، وأخبر أنهم لحسدهم ما يودون أن الله ينزل عليه شيئاً من الكتاب والحكمة ، ثم أخبر بنعمته على المؤمنين ، فإنه قد كان بعض القرآن ينسخ وبعضه ينسى ـ كما جاءت الآثار بذلك ـ وما أنساه سبحانه هو مما نسخ حكمه وتلاوته ، بخلاف المنسوخ الذي يتلى ، وقد نسخ ما نسخ من حكمه أو نسخ تلاوته ولم ينس ، وفي النسخ والإنساخ نقص ما أنزله على عباده فبين سبحانه أنه لا نقص في ذلك ، بل كل ما نسخ أو ينسى فإن الله يأتي بخير منه أو مثله ،

---

(١) هو عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي ، أبو سعيد الأصمعي راوية العرب ، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر مولده عام ١٢٢ هـ ووفاته بالبصرة ٢١٦ هـ تصانيفه كثيرة منها « الأضداد » و « خلق الإنسان » و « شرح ديوان ذي الرمة » . راجع السيرافي ٥٨ وجمهرة الأنساب ٢٣٤ ، وابن خلكان ١ : ٢٨٨ وتاريخ بغداد ١٠ : ٤١٠

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٠٤ ـ ١٠٥ .

فلا يزال المؤمنون في نعمة من الله لا تنقص بل تزيد ، فإنه إذا أتى بخير منها زادت النعمة ، وإن أتى بمثلها كانت النعمة باقية .

وقال تعالى ﴿ أَوْ نُنسِهَا ﴾ [1] فأضاف الإنساء إليه ، فإن هذا الإنساء ليس مذموماً ، بخلاف نسيان ما يجب حفظه فإنه مذموم ، فإن هذا إنساء لما رفعه الله ، وأما نسيان ما أمر بحفظه مذموم .

قال تعالى ﴿ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَها وَكَذَلِكَ اليَوْمَ تُنْسَىٰ ﴾ [2] .

وهذا النسيان وإن كان متضمناً لترك العمل بها مع حفظها فإذا نسيت الآيات بالكلية حتى لا يعرف ما فيها كان ذلك أبلغ في ترك العمل بها فكان هذا مذموماً .

قال النبي ﷺ في الحديث الذي في السنن « من قرأ القرآن ثم نسيه لقي الله وهو أجذم » [3] .

ولهذا كره النبي ﷺ أن يضيف الإنسان النسيان إلى نفسه ، فقال في الحديث المتفق عليه : « بئس ما لأحدهم أن يقول : نسيت آية كيت وكيت ، بل هو أنسي استذكروا القرآن فلهو أشد تفلتاً من صدور الرجال من النعم من عقلها » [4] .

ثم منهم من جعل ﴿ ما ننسخ من آية ﴾ هو ما ترك تلاوته ورسمه ونسخ

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٠٦ .

(٢) سورة طه آية رقم ١٢٦ .

(٣) الحديث رواه أبو داود في كتاب الصلاة : باب التشديد فيمن حفظ القرآن ثم نسيه ١٤٧٤ - حدثنا محمد بن العلاء ، أخبرنا ابن إدريس عن يزيد بن أبي زياد ، عن عيسى بن فائدة ، عن سعد بن عبادة قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره ورواه الدارمي في فضائل القرآن ٣ .

(٤) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب فضائل القرآن ٢٣ باب استذكار القرآن وتعاهده ، ٥٠٣٢ - حدثنا محمد بن عرعرة ، حدثنا شعبة عن منصور ، عن أبي وائل عن عبد الله قال : قال النبي - ﷺ - وذكره .

حكمه ، وما أنسى هو ما رفع فلا يتلى .

ومنهم من أدخل في الأول ما نسخت تلاوته وإن كان محفوظاً فالأول قول مجاهد وأصحاب عبد الله بن مسعود .

وروى الناس بالأسانيد الثابتة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قوله ﴿ مَا نَنْسَخ مِنْ آيَةٍ ﴾ (1) قال : نثبت خطها ونبدل حكمها. قال: وهو قول عبد الله ابن مسعود ﴿ أو نُنسها ﴾ أي نمحوها فإن ما نسي لم يترك .

وروى ابن أبي حاتم بإسناده عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان مما ينزل على النبي ﷺ الوحي بالليل وينساه بالنهار ، فأنزل الله ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ﴾ .

وكذلك روي عن سعد بن أبي وقاص ومحمد بن كعب وقتادة وعكرمة وكان سعد بن أبي وقاص يقرأها « أو تنسها » بالخطاب أي تنسها أنت يا محمد ، وتلا قوله ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ ﴾ (2) وقوله ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ (3) .

وقد جاءت الآثار بأن أحدهم كان يحفظ قرآناً ثم ينساه ، ويذكرون ذلك للنبي ﷺ فيقول: «إنه رفع»، مثل ما صح من حديث الزهري : حدثني أبو أمامة بن سهل بن حنيف في مجلس سعيد بن المسيب أن رجلاً كان معه سورة فقام يقرأها من الليل فلم يقدر عليها، وقام آخر يقرأها فلم يقدر عليها ، وقام آخر يقرأها فلم يقدر عليها ، فأصبحوا فأتوا رسول الله ﷺ فقال بعضهم : ذهبت البارحة لأقرأ سورة كذا وكذا فلم أقدر عليها ، وقال الآخر : ما جئت إلا لذلك ، وقال الآخر ما جئت إلا لذلك وقال الآخر : وأنا يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ « إنها نسخت البارحة » .

---

(1) سورة البقرة آية رقم ١٠٦ .

(2) سورة الأعلى آية رقم ٦ .

(3) سورة الكهف آية رقم ٢٤ .

وقوله «أو ننسأها » النسأ بمعنى التأخير ، وفيه قولان للسلف :

القول الأول يروى عن طائفة ، قال السدي : **﴿ ما ننسخ من آية ﴾** قال : نسها قبضها « أو ننسأها » فنتركها لا ننسها **﴿ نأت بخير ﴾** من الذي نسخناه أو مثل الذي تركناه .

وكذلك في تفسير الوالبي عن ابن عباس : « ما ننسخ من آية أو ننسأها » يقول : ما نبدل من آية أو نتركها فلا نرفعها من عندكم **﴿ نأت بخير منها أو مثلها ﴾** روى ذلك عن الربيع بن أنس .

ومن الناس من فسر بهذا المعنى القراءة الأولى فقالوا : معنى ننسها نتركها عندكم فإن النسيان هو الترك .

وقال الأزهري [1] ننسها نأمر بتركها ، يقال : أنسيت الشيء ، وأنشد :

إني علـى عـقـبـة أقـضـيـهـا لست بناسيها ولا منسيها

أي : ولا آمر بتركها ، والقول الثالث نؤخرها عن العمل بها بنسخنا إياها .

والصواب : القول الأوسط .

روى ابن أبي حاتم بإسناده عن ابن عباس قال : خطبنا عمر رضي الله عنه فقال : يقول الله « ما ننسخ من آية أو ننسأها » أي نؤخرها .

وبإسناده المعروف عن أبي الغالية **﴿ ما ننسخ من آية ﴾ فلا يعمل بها « أو ننسأها » أي نرجئها عندنا .**

ومن لفظ عن أبي العالية : نؤخرها عندنا .

وعن عطاء : نؤخرها .

وقد ذكر قول ثالث عن السلف وهو قول رابع أن المعنى **﴿ ما ننسخ من**

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

آية ﴾ وهو ما أنزلناه إليكم ولا نرفعه « أو ننسأها » أي نؤخر تنزيله فلا ننزله ونقل هذا بعضهم عن سعيد بن المسيب وعطاء أما ﴿ ما ننسخ من آية ﴾ فهو ما قد نزل من القرآن جعلاه من النسخة « أو ننسأها » أي نؤخرها فلا يكون وهو ما لم ينزل .

وهذا فيه نظر ، فإن ابن أبي حاتم ، روى بالإسناد الثابت عن عطاء ﴿ ما ننسخ من آية ﴾ أما ما نسخ فهو ما ترك من القرآن « بالكاف » وكأنه تصحف على من ظنه نزل من النزول ، فإن لفظ ترك فيه إبهام ، ولذلك قال ابن أبي حاتم : يعني ترك لم ينزل على محمد ، وليس مراد عطاء هذا ، وإنما مراده أنه ترك مكتوباً متلواً ونسخ حكمه كما تقدم عن غيره . وما أنسأه هو ما أخره لم ينزله .

وسعيد وعطاء من أعلم التابعين لا يخفى عليهما هذا وقد قرأ ابن عامر ﴿ ما نُنسخ من آية ﴾ .

وزعم أبو حاتم أنه غلط ، وليس كما قال ، بل فسرها بعضهم بهذا المعنى فقال ما ننسخ نجعلكم تنسخونها كما يقال : أكتبته هذا .

وقيل : أنسخ جعله منسوخاً ، كما يقال : قبره إذا أراد دفنه ، وأقبره أي جعل له قبراً ، وطرده إذا نفاه ، وأطرده إذا جعله طريدا .

وهذا أشبه بقراءة الجمهور .

والصواب قول من فسر « أو ننسأها » أي نؤخرها عندنا فلا ننزلها .

والمعنى : أن ما ننسخه من الآيات التي أنزلناها أو نؤخر نزوله من الآيات التي لم ننزلها بعد ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ [1] فكما أنه يعوضهم من المرفوع يعوضهم من المنتظر الذي لم ينزله بعد إلى أن ينزله فإن الحكمة اقتضت تأخير

---

(1) سورة البقرة آية رقم ١٠٦ .

نزوله فيعوضهم بمثله أو خير منه في ذلك الوقت ، إلى أن يجيء وقت نزوله فينزله أيضاً مع ما تقدم ، ويكون ما عوضه مثله أو خيراً منه قبل نزوله .

وأما ما أنزله إليهم ولم ينسخه فهذا لا يحتاج إلى بدل ، ولو كان كل ما لم ينسخه الله يأت بخير منه أو مثله لزم إنزال ما لا نهاية له .

وكذلك إن قدر أن المراد يؤخر نسخه إلى وقت ثم ينسخه ، فإنه ما دام عندهم لم يحتج إلى بدل يكون مثله أو خيراً منه ، وإنما البدل لما ليس عندهم مما أنسوه أو أخر نزوله فلم ينزله بعد ، ولهذا لم يجعل البدل لكل ما لم ينزله ، بل لما نسأه فأخر نزوله ، إذ لو كان كل ما لم ينزل يكون له بدل لزم إنزال ما لا نهاية له ، بل ما كان يعلم أنه سينزله وقد أخر نزوله يكونون فاقديه إلى حين ينزل . كما يفقدون ما نزل ثم نسخ ، فيجعل سبحانه لهذا بدلاً ولهذا بدلاً .

وأما ما أنزله وأقره عندهم وأقر نسخه إلى وقت فهذا لا يحتاج إلى بدل ، فإنه نفسه باق . ولو كان هذا مراداً لكان كل قرآن قد نسخه يجب أن ينزل قبل نسخه ما هو مثله أو خير منه ثم إذا نسخه يأتي بخير منه أو مثله ، فيكون لكل منسوخ بدلان :

بدل قبل نسخه ، وبدل بعد نسخه ، والبدل الذي قبل نسخه لا ابتداء لنزوله ، فيجب أن ينزل من أول الأمر فيلزم نزول ذلك كله في أول الوحي ، وهذا باطل قطعاً فإن قيل : فهذا يلزم فيما أخره فلم ينزله فإن له بدلاً ولا وقت لنزول ذلك البدل .

قيل : ما أخر نزوله وهو يريد إنزاله معلوم، والبدل الذي هو مثله أو خير منه يؤتى به في كل وقت ، فإن القرآن ما زال ينزل ، وقد تضمن هذا أن كل ما أخر نزوله فلا بد أن ينزل قبله ما هو مثله أو خير منه ، وهذا هو الواقع ، فإن الذي تقدم من القرآن نزوله لم ينسخ كثير منه خير مما تأخر نزوله ، كالآيات المكية فإن فيها من بيان التوحيد ، والنبوة ، والمعاد ، وأصول الشرائع ، ما هو

أفضل من تفاصيل الشرائع ، كمسائل الربا ، والنكاح ، والطلاق ، وغير ذلك .

فهذا الذي أخره الله مثل آية الربا ، فإنها من أواخر ما نزل من القرآن ، وقد روي أنها آخر ما نزل ، وكذلك آية الدين ، والعدة ، والحيض ، ونحو ذلك ، قد أنزل الله قبله ما هو خير منه من الآيات التي فيها من الشرائع ما هو أهم من هذا ، وفيها من الأصول ما هو أهم من هذا .

ولهذا كانت سورة الأنعام أفضل من غيرها ، وكذلك سورة يس ، ونحوها من السور التي فيها أصول الدين ، التي اتفق عليها الرسل كلهم صلوات الله عليهم ولهذا كانت ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ مع قلة حروفها تعدل ثلث القرآن ؛ لأن فيها التوحيد ، فعلم أن آيات التوحيد أفضل من غيرها ، وفاتحة الكتاب نزلت بمكة بلا ريب ، كما دل عليه قوله تعالى :

﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِيَ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ** ﴾ [1] وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته [2] .

وسورة الحجر مكية بلا ريب ، وفيها كلام مشركي مكة وحاله معهم .

فدل ذلك على أن ما كان الله ينسأه فيؤخر نزوله من القرآن كان ينزل قبله ما هو أفضل منه ، و﴿ **قل يا أيها الكافرون** ﴾ مكية بلا ريب . وهو قول الجمهور وقد قيل : إنها مدنية ، وهو غلط ظاهر .

وكذلك قول من قال : الفاتحة لم تنزل إلا بالمدينة غلط بلا ريب .

---

(١) سورة الحجر آية رقم ٨٧ .

(٢) الحديث رواه الإمام البخاري ٩ باب فضل فاتحة الكتاب ٥٠٠٦ ـ حدثنا علي بن عبد الواحد ، حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا شعبة ، قال : حدثني حبيب بن عبد الرحمن ، عن حفص بن عاصم ، عن أبي سعيد بن المعلى قال : وذكره .

ولو لم تكن معنا أدلة صحيحة تدلنا على ذلك لكان من قال إنها مكية معه زيادة علم .

وسورة ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ أكثرهم على أنها مكية . وقد ذكر في أسباب نزولها سؤال المشركين بمكة وسؤال الكفار من أهل الكتاب اليهود بالمدينة ولا منافاة ، فإن الله أنزلها بمكة أولاً ، ثم لما سئل نحو ذلك أنزلها مرة أخرى .

وهذا مما ذكره طائفة من العلماء وقالوا : إن الآية أو السورة قد تنزل مرتين ، وأكثر من ذلك .

فما يذكر من أسباب النزول المتعددة قد يكون جميعه حقاً .

والمراد بذلك أنه إذا حدث سبب يناسبها نزل جبريل فقرأها عليه ليعلمه أنها تتضمن جواب ذلك السبب وإن كان الرسول يحفظها قبل ذلك .

والواحد منا قد يسأل عن مسألة فيذكر له الآية أو الحديث ليبين له دلالة النص على تلك المسألة وهو حافظ لذلك ، لكن يتلى عليه ذلك النص ليتبين وجه دلالته على المطلوب .

فقد تبين أن البدل لما أخر نزوله بخلاف ما كان عندهم لم ينسخ فإن هذا لا بدل له ، ولو قدر أنه سينسخ فإنه ما دام محكماً لم يكن بدله خيراً منه .

وكذلك البدل عن المنسوخ يكون خيراً منه .

وأكثر السلف أطلقوا لفظ «خيراً منها» كما في القرآن ، ولم يستشكل ذلك أحد منهم .

وفي تفسير الوالبي : خير لكم في المنفعة وأرفق بكم وعن قتادة ﴿ **نأت بخير منها أو مثلها** ﴾ آية فيها تخفيف فيها رخصة ، فيها أمر ، فيها نهي .

وهذان لم يستشكلا كونها خيراً من الأولى ، بل بينا وجه الفضيلة، كما تقدم من أن الكلام الأمري يتفاضل بحسب المطلوب ، فإذا كان المطلوب أنفع

للمأمور كان طلبه أفضل كما أن رحمة الله التي سبقت غضبه هي أفضل من غضبه ، فما قالاه تقرير للخيرية لا نفي لها .

فإن قيل : فآية الكرسي قد ثبت أنها أعظم آية في كتاب الله وإنما نزلت في سورة البقرة - وهي مدنية بالاتفاق - فقد أخر نزولها ولم ينزل قبلها ما هو خير منها ولا مثلها . قيل عن هذا أجـوبـة :

أحدها أن الله قال ﴿ **نأت بخير منها أو مثلها** ﴾ ولم يقل بآية خير منها ، بل يأتي بقرآن خير منها أو مثلها وآية الكرسي وإن كانت أفضل الآيات فقد يكون مجموع آيات أفضل منها .

والبقرة وإن كانت مدنية بالاتفاق ، وقد قيل : إنها أول ما نزل بالمدينة فلا ريب أن هذا في بعض ما نزل ، وإلا فتحريم الربا إنما نزل متأخراً .

وقوله ﴿ **واتَّقُوا يَوْمَاً تُرْجَعُونَ فِيهِ إلى الله** ﴾[1] من آخر ما نزل .

وقوله ﴿ **وَأَتِمُّوا الحَجَّ وَالعُمْرَةَ لله** ﴾[2] نزلت عام الحديبية سنة ست باتفاق العلماء .

وقد كانت سورة الحشر قبل ذلك ، فإنها نزلت في بني النضير باتفاق .

وقصة بني النضير كانت متقدمة على الحديبية ، بل على الخندق باتفاق الناس ، وإنما تأخر عن الخندق أمر بني قريظة فهم الذين حاصرهم النبي ﷺ عقب الخندق وأما بني النضير فكان أجلاهم قبل ذلك باتفاق العلماء . وكذلك سورة الحديد مدنية عند الجمهور ، وقد قيل إنها مكية وهو ضعيف ، لأن فيها ذكر المنافقين وذكر أهل الكتاب ، وهذا إنما نزل بالمدينة ، لكن يمكن أنها نزلت قبل كثير من البقرة.

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٨١ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٩٦ .

ففي الجملة نزول أول الحديد ، وآخر الحشر ، قبل آية الكرسي ممكن ، والأنعام ، ويس ، وغيرها نزل قبل آية الكرسي بالاتفاق .

الجواب الثاني : أنه تعالى إنما وعد أنه إذا نسخ آية أو نسأها أتى بخير منها أو مثلها لما أنزل هذه الآية قوله ﴿ **مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا** ﴾ (١) .

فإن هذه الآية جملة شرطية تضمنت وعده أنه لا بد أن يأتي بذلك وهو الصادق الميعاد .

فما نسخه بعد هذه الآية أو أنسأ نزوله مما يريد إنزاله يأت بخير منه أو مثله .

وأما ما نسخه قبل هذه أو أنسأه فلم يكن قد وعد حينئذ أنه يأتي بخبر منه أو مثله ، وبهذا أيضاً يندفع الجواب عن الفاتحة ، فإنه لا ريب أنه تأخر نزولها عن سورة ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ** ﴾ (٢) وهي أفضل منها ، فعلم أنه قد يتأخر إنزال الفاضل ، وأنه ليس كل ما تأخر نزوله نزل قبله مثله أو خير منه ، لكن إذا كان الموعود به بعد الوعد لم يرد هذا السؤال يدل على ذلك قوله ﴿ **ما ننسخ** ﴾ فإن هذا الفعل المضارع المجزوم إنما يتناول المستقبل ، وجوازم الفعل إن وأخواتها ونواصبه تخلصه للإستقبال .

وقد يجاب بجواب ثالث ، وهو أن يقال : ما نزل في وقته كان خيراً لهم وإن كان غيره خيراً لهم في وقت آخر ، وحينئذ فيكون فضل بعضه على بعض على وجهين : لازم كفضل آية الكرسي ، وفاتحة الكتاب ، وقل هو الله أحد .

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٠٦ .

(٢) سورة العلق آية رقم ١ .

وفضل عارض بحيث تكون هذه أفضل في وقت ، وهذه أفضل في وقت آخر ، كما قد يقال في آية التخيير للمقيم ، بين الصوم ، والفطر ، مع الفدية ، ومع آية إيجاب الصوم عزماً ، وهذا كما أن الأفعال المأمور بها كل منها في وقته أفضل ، فالصلاة إلى القدس قبل النسخ كانت أفضل ، وبعد النسخ الصلاة إلى الكعبة أفضل . وعلى ما ذكر فيتوجه الاحتجاج بهذه الآية على أنه لا ينسخ القرآن إلا قرآن كما هو مذهب الشافعي ، وهو أشهر الروايتين عن الإمام أحمد ، بل هي المنصوصة عنه صريحاً أن لا ينسخ القرآن إلا قرآن يجيء بعده وعليها عامة أصحابه ، وذلك لأن الله قد وعد أنه لا بد للمنسوخ من بدل مماثل أو خير ، ووعد بأن ما أنساه المؤمنين فهو كذلك ، وأن ما أخره فلم يأت وقت نزوله فهو كذلك ، وهذا كله يدل على أنه لا يزال عند المؤمن القرآن الذي رفع ، أو آخر مثله ، أو خير منه ولو نسخ بالسنة فإن لم يأت قرآن مثله أو خير منه فهو خلاف ما وعد الله .

غاية ما يقال : أنه لو لم ينسخ شيء لجاز أن لا ينزل بعد ذلك شيء وإذا نسخ شيء فلا بد من بدله ولو بعد حين .

وهذا مما يعتقدونه فإنهم قد اعتادوا نزول القرآن عند الحوادث والمسائل والحاجة فما كانوا يظنونه إذا نسخت آية ـ أن لا ينزل بعدها شيء ، فإنها لو لم تنسخ لم يظنوا ذلك ، فكيف يظنون إذا نسخت ؟

الثاني : أنه إذا كان قد ضمن لهم الإتيان بالبدل عن المنسوخ علم أن مقصوده أنه لا ينقصهم شيء مما أنزله ، بل لا بد من مثل المرفوع أو خير منه ، ولو بقوا مدة بلا بدل لنقصوا .

وأيضاً فإن هذا وعد معلق بشرط ، والوعد المعلق بشرط يلزم عقبه ، فإنه من جنس المعاوضة ، وذلك مما يلزم فيه أداء العوض على الفور إذا قبض

المعوض ، كما إذا قال : ما ألقيت من متاعك في البحر فعلى بدله ، وليس هذا وعداً مطلقاً كقوله ﴿ لَتَدْخُلُنَّ المَسْجِدَ الحَرَامَ ﴾ [1] ولهذا يفرق بين قوله : والله لأعطينك مائة . وبين قوله : والله لا آخذ منك شيئاً إلا أعطيتك بدله ، فإن هذا واجب على الفور . ومما يدل على المسألة أن الصحابة والتابعين الذين أخذ عنهم علم الناسخ والمنسوخ إنما يذكرون نسخ القرآن بقرآن ، لا يذكرون نسخه بلا قرآن بل بسنة ، وهذه كتب الناسخ والمنسوخ المأخوذة عنهم إنما تتضمن هذا .

وكذلك قول علي رضي الله عنه للقاص : هل تعرف الناسخ من المنسوخ في القرآن ؟

فلو كان ناسخ القرآن غير القرآن لوجب أن يذكر ذلك أيضاً . وأيضاً الذين جوزوا نسخ القرآن بلا قرآن من أهل الكلام والرأي إنما عمدتهم أنه ليس في العقل ما يحيل ذلك وعدم المانع الذي يعلم بالعقل لا يقتضي الجواز الشرعي فإن الشرع قد يعلم بخبره ما لا علم للعقل به ، وقد يعلم من حكمة الشارع التي علمت بالشرع ما لا يعلم بمجرد العقل ولهذا كان الذين جوزوا ذلك عقلاً مختلفين في وقوعه شرعاً ، وإذا كان كذلك فهذا الخبر الذي في الآية دليل على امتناعها شرعاً .

وأيضاً فإن الناسخ مهيمن على المنسوخ ، قاض عليه مقدم عليه ، فينبغي أن يكون مثله أو خيراً منه كما أخبر بذلك القرآن ، ولهذا لما كان القرآن مهيمناً على ما بين يديه من الكتاب بتصديق ما فيه من حق ، وإقرار ما أقره ونسخ ما نسخه كان أفضل منه .

---

(١) سورة الفتح اية رقم ٢٧ .

فلو كانت السنة ناسخة للكتاب لزم أن تكون مثله أو أفضل منه .

وأيضاً فلا يعرف في شيء من آيات القرآن أنه نسخه إلا قرآن ، والوصية للوالدين والأقربين منسوخة بآية المواريث ، كما اتفق على ذلك السلف .

قال تعالى ﴿ تِلْكَ حُدُودُ الله وَمَن يُطِع الله وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ وَمَن يَعْصِ الله وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (١) والفرائض المقدرة من حدوده ، ولهذا ذكر ذلك عقب ذكر الفرائض ، فمن أعطى صاحب الفرائض أكثر من فرضه فقد تعدى حدود الله بأن نقص هذا حقه وزاد هذا على حقه .

فدل القرآن على تحريم ذلك وهو الناسخ .

---

(١) سورة النساء آية رقم ١٣ ـ ١٤ .

فصل

والناس في هذا المقام ـ وهو مقام حكمة الأمر والنهي ـ على ثلاثة أصناف :

فالمعتزلة القدرية يقولون : إن ما أمر به ونهى عنه كان حسناً وقبيحاً قبل الأمر والنهي ، والأمر والنهي كاشف عن صفته التي كان عليها لا يكسبه حسناً ولا قبحاً ، ولا يجوز عندهم أن يأمر وينهى لحكمة تنشأ من الأمر نفسه .

ولهذا أنكروا جواز النسخ قبل التمكن من فعل العبادة ، كما في قصة الذبيح ، ونسخ الخمسين صلاة التي أمر بها ليلة المعراج إلى خمس ووافقهم على منع النسخ قبل وقت العبادة طائفة من أهل السنة المثبتين للقدر لظنهم أنه لا بد من حكمة تكون في المأمور به والمنهى عنه ، فلا يجوز أن ينهى عن نفس ما أمر به .

وهذا قياس من يقول : إن النسخ تخصيص في الأزمان فإن التخصيص لا يكون برفع جميع مدلول اللفظ لكنهم تناقضوا .

والجهمية الجبرية يقولون : ليس للأمر حكمة تنشأ ، لا من نفس الأمر ، ولا من نفس المأمور به ، ولا يخلق الله شيئاً لحكمة ، ولكن نفس المشيئة أوجبت وقوع ما وقع وتخصيص أحد المتماثلين بلا مخصص ، وليست الحسنات سبباً للثواب ولا السيئات سبباً للعقاب ، ولا لواحد منها صفة صار بها حسنة

وسيئة ، بل لا معنى للحسنة إلا مجرد تعلق الأمر بها ، ولا معنى للسيئة إلا مجرد تعلق النهي بها ، فيجوز أن يأمر بكل أمر حتى الكفر والفسوق والعصيان ، ويجوز أن ينهى عن كل أمر حتى عن التوحيد والصدق والعدل ، وهو لو فعل لكان كما لو أمر بالتوحيد والصدق والعدل ، ونهى عن الشرك والكذب والظلم هكذا يقول بعضهم ، وبعضهم يقول : يجوز الأمر بكل ما لا ينافي معرفة الأمر .

بخلاف ما ينافي معرفته ، وليس في الوجود عندهم سبب ، ولكن إذا اقترن أحد الشيئين بالآخر خلقاً أو شرعاً صار علامة عليه ، فالأعمال مجرد علامات محضة لا أسباب مقتضية .

وقالوا : أمر من لم يؤمن بالإيمان معناه إني أريد أن أعذبكم ، وعدم إيمانكم علامة على العذاب .

وكذلك أمره بالإيمان من علم أنه يؤمن معناه إنني أريد أن أثيبك ، والإيمان علامة .

وهؤلاء منهم من ينفي القياس في الشرع والتعليل للأحكام .

ومن أثبت القياس منهم لم يجعل العلل إلا مجرد علامات ثم إنه مع هذا قد علم أن الحكم في الأصل ثابت بالنص والإجماع ، وذلك دليل عليه ، فأي حاجة إلى العلة ؟ وكيف يتصور أن تكون العلة علامة على الحكم في الأصل ، وإنما تطلب علته بعد أن يعلم ثبوت الحكم ، وحينئذ فلا فائدة في العلامة وأما الفرع فلا يكون علة له حتى يكون علة للأصل ، وهؤلاء منهم من ينكر العلل المناسبة ويقول : المناسبة ليست طريقاً لمعرفة العلل وهم أكثر أصحاب هذا القول .

ومن قال بالمناسبة من متأخريهم يقول : إنه قد اعتبر في الشرع اعتبار المناسب ، فيستدل بمجرد الاقتران ، لا لأن الشارع حكم بما حكم به لتحصيل

المصلحة المطلوبة بالحكم ، ولا لدفع مفسدة أصلاً ، فإن عندهم أنه ليس في خلقه ، ولا أمره لام كي .

فجهم - رأس الجبرية - وأتباعه في طرف .

والقدرية في الطرف الآخر .

وأما الصحابة والتابعون لهم بإحسان وأئمة الإسلام كالفقهاء المشهورين وغيرهم ، ومن سلك سبيلهم من أهل الفقه والحديث ، والمتكلمين في أصول الدين وأصول الفقه فيقرون بالقدر ، ويقرون بالشرع ، ويقرون بالحكمة لله في خلقه وأمره - لكن قد يعرف أحدهم الحكمة وقد لا يعرفها - ويقرون بما جعله من الأسباب ، وما في خلقه وأمره من المصالح التي جعلها رحمة بعباده ، مع أنه خالق كل شيء وربه ومليكه : أفعال العباد ، وغير أفعال العباد . وأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن . وأن كل ما وقع من خلقه وأمره فعدل وحكمة . سواء عرف العبد وجه ذلك أو لم يعرفه .

والحكمة الناشئة من الأمر ثلاثة أنواع :

أحدها : أن تكون في نفس الفعل - وإن لم يؤمر به - كما في الصدق والعدل ونحوهما من المصالح الحاصلة لمن فعل ذلك وإن لم يؤمر به ، والله يأمر بالصلاح وينهى عن الفساد .

والنوع الثاني : أن ما أمر به ونهى عنه صار متصفاً بحسن اكتسبه من الأمر ، وقبح اكتسبه من النهي كالخمر التي كانت لم تحرم ثم حرمت فصارت خبيثة ، والصلاة إلى الصخرة التي كانت حسنة فلما نهى عنها صارت قبيحة . فإن ما أمر به يحبه ويرضاه .

وما نهى عنه يبغضه ويسخطه .

وهو إذا أحب عبداً ووالاه أعطاه من الصفات الحسنة ما يمتاز بها على من أبغضه وعاداه .

وكذلك المكان والزمان الذي يحبه ويعظمه ـ كالكعبة وشهر رمضان ـ يخصه بصفات يميزه بها على ما سواه بحيث يحصل في ذلك الزمان والمكان من رحمته وإحسانه ونعمته ما لا يحصل في غيره .

فإن قيل : الخمر قبل التحريم وبعده سواء ، فتخصيصها بالخبث بعد التحريم ترجيح بلا مرجح .

قيل : ليس كذلك ، بل إنما حرمها في الوقت الذي كانت الحكمة تقتضي تحريمها ، وليس معنى كون الشيء حسناً وسيئاً مثل كونه أسود وأبيض ، بل هو من جنس كونه نافعاً وضاراً ، وملائماً ومنافراً وصديقاً وعدواً، ونحو هذا من الصفات القائمة بالموصوف التي تتغير بتغير الأحوال : فقد يكون الشيء نافعاً في وقت ضاراً في وقت ، والشيء الضار قد يترك تحريمه إذا كانت مفسدة التحريم أرجح ، كما لو حرمت الخمر في أول الإسلام ، فإن النفوس كانت قد اعتادتها عادة شديدة ، ولم يكن حصل عندهم من قوة الإيمان ما يقبلون ذلك التحريم ، ولا كان إيمانهم ودينهم تاماً حتى لم يبق فيه نقص إلا ما يحصل بشرب الخمر من صدها عن ذكر الله وعن الصلاة . فلهذا وقع التدريج في تحريمها .

فأنزل الله أولاً فيها : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَفْعِهِمَا ﴾ (1) .

ثم أنزل الله فيها ـ لما شربها طائفة وصلوا فغلط الإمام في القراءة ـ آية النهي عن الصلاة سكارى : ثم أنزل الله آية التحريم :

والنوع الثالث : أن تكون الحكمة ناشئة من نفس الأمر ، وليس في الفعل البتة مصلحة ، لكن المقصود ابتلاء العبد ، هل يطيع أو يعصى ، فإذا اعتقد الوجوب وعزم على الفعل حصل المقصود بالأمر فينسخ حينئذ ، كما جرى للخليل في قصة الذبح فإنه لم يكن الذبح مصلحة ، ولا كان هو مطلوب الرب

---

(1) سورة البقرة آية رقم ٢١٩ .

في نفس الأمر ، بل كان مراد الرب ابتلاء ابراهيم ليقدم طاعة ربه ومحبته على محبة الولد ، ولا يبقى في قلبه التفات إلى غير الله ، فإنه كان يحب الولد محبة شديدة وكان قد سأل الله أن يهبه إياه ـ وهو خليل الله ـ فأراد تعالى تكميل خلته لله بأن لا يبقى في قلبه ما يزاحم به محبة ربه :

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ . وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴾ [1] .

ومثل هذا الحديث الذي في صحيح البخاري حديث أبرص وأقرع وأعمى . كان المقصود ابتلاءهم لا نفس الفعل .

وهذا الوجه والذي قبله مما خفي على المعتزلة ، فلم يعرفوا إلا الأول .

والذين أنكروا الحكمة عندهم الجميع سواء ، لا يعتبرون حكمة ولا تخصيص فعل بأمر ، ولا غير ذلك ، كما قد عرف من أصلهم .

ثم إن كثيراً من هؤلاء وهؤلاء يتكلمون في تفسير القرآن والحديث والفقه فيبنون على تلك الأصول التي لهم ولا يعرف حقائق أقوالهم إلا من عرف مأخذهم . فقول القائل : إن ﴿ قل هو الله أحد ﴾ وفاتحة الكتاب ، قد تكون كل واحدة منها في نفسها مماثلة لسائر الآيات ، وإنما خصت بكثرة ثواب قارئها ، أو لم تتعين الفاتحة في الصلاة ، ونحو ذلك إلا لمحض المشيئة من غير أن يكون فيها صفة تقتضي التخصيص ، هو مبني على أصول جهم ، في الخلق والأمر ، وإن كان وافقه عليه أبو الحسن وغيره ، وكتب السنة المعروفة التي فيها آثار السلف يذكر فيها هذا وهذا ، ويجعل هذا القول قول الجبرية ، المتبعين لجهم في أقوال القدرية الجبرية المبتدعة ، والسلف كانوا ينكرون قول الجبرية الجهمية كما ينكرون قول المعتزلة القدرية ، وهذا معروف عن سفيان

(١) سورة الصافات آية رقم ١٠٣ ـ ١٠٦ .

الثوري [(١)] ، والأوزاعي [(٢)] ، والزبيدي ، وعبد الرحمن بن مهدي [(٣)] ، وأحمد ابن حنبل، وغيرهم . وقد ذكر ذلك غير واحد من أتباع الأئمة من الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية وسائر أهل السنة في كتبهم كما قد بسط في مواضعه ، وذكرت أقوال السلف والأئمة في ذلك .

وإنما نبهنا هنا على الأصل لأن كثيراً من الناس لا يعرف ذلك ، ولا يظن قول أهل السنة في القدر إلا القول الذي هو عند أهل السنة قول جهم وأتباعه المجبرة ، أو ما يشبه ذلك .

كما أن منهم من يظن أن قول أهل السنة في مسائل الأسماء والأحكام ، والوعد والوعيد هو أيضاً القول المعروف عند أهل السنة بقول جهم .

وهذا يعرفه من يعرف أقوال الصحابة والتابعين وأئمة الإسلام المشهورين في هذه الأصول .

وذلك موجود في الكتب المصنفة التي فيها أقوال جمهور الأئمة التي يذكر فيها أقوالهم في الفقه كثيراً ، والعلماء الأكابر من أتباع الأئمة الأربعة على مذهب السلف في ذلك ، وكثير من الكتب المصنفة التي يذكر فيها أقوال السلف على وجه الاتباع من تصنيف أصحاب مالك والشافعي وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل وغيرهم يذكرون ذلك فيها . وينبغي للعاقل أن يعرف أن مثل هذه المسائل العظيمة التي هي من أعظم مسائل الدين لم يكن السلف جاهلين بها ، ولا معرضين عنها ، بل من لم يعرف ما قالوه فهو الجاهل بالحق فيها ، وبأقوال

---

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٣) هو عبد الرحمن بن مهدي بن حسان الغبري البصري ، اللؤلؤي أبو سعيد ، من كبار حفاظ الحديث ، وله فيه « تصانيف » حدث ببغداد ولد عام ١٣٥ في البصرة، وتوفي فيها عام ١٩٨ هـ قال الشافعي : لا أعرف له نظيراً في الدنيا . [راجع تهذيب التهذيب ٦ : ٢٧٩ وحلية الأولياء ٩ : ٣ ، وتاريخ بغداد ١٠ : ٢٤٠ واللباب ٣ : ٧٢]

السلف ، وبما دل عليه الكتاب والسنة ، والصواب في جميع مسائل النزاع ما كان عليه السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وقولهم هو الذي يدل عليه الكتاب والسنة والعقل الصريح .

وقد بسط هذا في مواضع كثيرة . والله سبحانه أعلم .

وسئل شيخ الإسلام

ومفتي الأنام : تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية ـ رضي الله عنه ـ عن فتيا صورتها : ما تقول السادة العلماء في تفسير قول النبي ﷺ في سورة الإخلاص « إنها تعدل ثلث القرآن » (١) .

فكيف ذلك مع قلة حروفها ، وكثرة حروف القرآن ؟ بينوا لنا ذلك بياناً مبسوطاً شافياً ، وأفتونا مأجورين ـ إن شاء الله تعالى ـ

فأجاب رضي الله عنه ـ بما صورته :

الحمد لله : الأحاديث المأثورة عن النبي ﷺ في فضل ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ وأنها تعدل ثلث القرآن من أصح الأحاديث وأشهرها حتى قال طائفة من الحفاظ كالدارقطني (٢) : لم يصح عن النبي ﷺ في فضل سورة من القرآن أكثر مما صح عنه في فضل ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ .

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث في هذا الجزء .

(٢) هو علي بن عمر بن أحمد بن مهدي ، أبو الحسن ، الدارقطني الشافعي إمام عصره في الحديث ، وأول من صنف القراءات، وعقد لها أبواباً ولد بدار القطن (من أحياء بغداد) عام ٣٠٦ هـ ورحل إلى مصر فساعد بن خزابه وزير كافور الأخشيدي على تأليف مسنده وعاد الى بغداد فتوفي بها من تصانيفه كتاب « السنن » ، والعلل الواردة في الأحاديث النبوية ، وغير ذلك كثير توفي عام ٣٨٥ هـ . [راجع : وفيات الأعيان ١ : ٣٣١ وغاية النهاية ١ : ٥٥٨ ، وتاريخ بغداد ١٢ : ٣٤ ودائرة المعارف الاسلامية ٩ : ٨٨ ـ ٩٠] .

وجاءت الأحاديث بالألفاظ كقوله ﴿ قل هو الله أحد ﴾ تعدل ثلث القرآن .

وقوله « من قرأ قل هو الله أحد مرة فكأنما قرأ ثلث القرآن ، ومن قرأها مرتين فكأنما قرأ ثلثي القرآن ومن قرأها ثلاثاً فكأنما قرأ القرآن كله » .

وقوله للناس : « احتشدوا حتى أقرأ عليكم ثلث القرآن فحشدوا حتى قرأ عليهم ﴿ قل هو الله أحد ﴾ قال : والذي نفسي بيده إنها تعدل ثلث القرآن » .

وأما توجيه ذلك : فقد قالت طائفة من أهل العلم : إن القرآن باعتبار معانيه ثلاثة أثلاث : ثـلث توحيد، وثلث قصص ، وثلث أمر ونهي ، و﴿ قل هو الله أحد ﴾ هي صفة الرحمن ونسبه وهي متضمنة ثلث القرآن ، وذلك لأن القرآن كلام الله تعالى ، والكلام إما إنشاء وإما إخبار ، فالإنشاء هو الأمر والنهي ، وما يتبع ذلك كالإباحة ونحوها وهو الأحكام . والإخبار : إما إخبار عن الخالق ، وإما إخبار عن المخلوق ، فالإخبار عن الخالق هو التوحيد ، وما يتضمنه من أسماء الله وصفاته ، والإخبار عن المخلوق هو القصص وهو الخبر عما كان وعما يكون ، ويدخل فيه الخبر عن الأنبياء وأممهم ، ومن كذبهم ، والإخبار عن الجنة والنار ، والثواب والعقاب .

قالوا : فبهذا الاعتبار تكون ﴿ قل هو الله أحد ﴾ تعدل ثلث القرآن لما فيها من التوحيد الذي هو ثلث معاني القرآن .

بقي أن يقال : فإذا كانتْ تعدل ثلث القرآن مع قلة حروفها كان للرجل أن يكتفي بها عن سائر القرآن .

فيقال في جواب ذلك : إن النبي ﷺ قال : « إنها تعدل ثلث القرآن » وعدل الشيء - بالفتح - يقال على ما ليس من جنسه كما قال تعالى ﴿ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً ﴾ [1] فجعل الصيام عدل كفارة ، وهما جنسان ، ولا ريب أن

(١) سورة المائدة آية رقم ٩٥ .

الثواب أنواع مختلفة في الجنة ، فإن كل ما ينتفع به العبد ويلتذ به من مأكول ومشروب ومنكوح ومشموم هو من الثواب ، وأعلاه النظر إلى وجه الله تعالى ، وإذا كانت أحوال الدنيا لاختلاف منافعها يحتاج إليها كلها ، وإن كان بعضها يعدل ما هو أكبر منه في الصورة ، كما أن ألف دينار من ذلك ، وإن كان لا يستغني بذلك عن سائر أنواع المال التي ينتفع بها ، لأن المساواة وقعت في القدر لا في النوع والصفة فكذلك ثواب : ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ وإن كان يعدل ثواب ثلث القرآن في القدر فلا يجب أن يكون مثله في النوع والصفة ، وأما سائر القرآن ففيه من الأمر والنهي والوعد والوعيد ما يحتاج إليه العباد .

فلهذا كان الناس محتاجين لسائر القرآن ، ومنتفعين به منفعة لا تغني عنها هذه السورة ، وإن كانت تعدل ثلث القرآن .

فهذه المسألة مبنية على أصل : وهو أن القرآن هل يتفاضل في نفسه ، فيكون بعضه أفضل من بعض ؟ وهذا فيه للمتأخرين قولان مشهوران منهم من قال : لا يتفاضل في نفسه ، لأنه كله كلام الله تعالى ، وكلام الله صفة له قالوا : وصفة الله لا تتفاضل ، لا سيما مع القول بأنه قديم ، فإن القديم لا يتفاضل ، كذلك قال هؤلاء في قوله تعالى . ﴿ **ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها** ﴾ قالوا : فخير إنما يعود إلى غير الآية ، مثل نفع العباد . وثوابهم .

والقول الثاني : أن بعض القرآن أفضل من بعض وهذا قول الأكثرين من الخلف والسلف ؛ فإن النبي ﷺ قال في الحديث الصحيح في الفاتحة إنه لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا الزبور ولا القرآن مثلها » [١] .

فنفى أن يكون لها مثل فكيف يجوز أن يقال : إنه متماثل ؟ وقد ثبت عنه

(١) سبق تخريج هذا الحديث في هذا الجزء .

في الصحيح أنه قال لأبي كعب : يا أبا المنذر أتدري أي آية في كتاب الله أعظم ؟

قال : ﴿ **اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ** ﴾ [1] .

فضرب بيده في صدره وقال له : ليهنك العلم أبا المنذر [2] » فقد بين أن هذه الآية أعظم آية في القرآن، وهذا يبين أن بعض الآيات أعظم من بعض .

وأيضاً فإن القرآن كلام الله ، والكلام يشرف بالمتكلم به سواء كان خبراً أو أمراً ، فالخبر يشرف بشرف المخبر ، ويشرف المخبر عنه والأمر يشرف بشرف الآمر ، ويشرف المأمور به فالقرآن وإن كان كله مشتركاً ، فإن الله تكلم به ، لكن منه ما أخبر الله به عن نفسه ، ومنه ما أخبر به عن خلقه ، ومنه ما أمرهم به ،فمنه ما أمرهم فيه بالإيمان ونهاهم فيه عن الشرك ، ومنه ما أمرهم به بكتابة الدين ونهاهم فيه عن الربا .

ومعلوم أن ما أخبر به عن نفسه : كـ ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ أعظم مما أخبر به عن خلقه كـ ﴿ **تبت يدا أبي لهب** ﴾ وما أمر فيه بالإيمان ، وما نهى فيه عن الشرك أعظم مما أمر فيه بكتابة الدين ونهى فيه عن الربا .

ولهذا كان كلام العبد مشتركاً بالنسبة إلى العبد ، وهو كلام لمتكلم واحد ، ثم إنه يتفاضل بحسب المتكلم فيه ، فكلام العبد الذي يذكر به ربه ، ويأمر فيه بالمعروف وينهى فيه عن المنكر أفضل من كلامه الذي يذكر فيه خلقه ، ويأمر فيه بمباح أو محظور ، وإنما غلط من قال بالأول ؛ لأنه نظر إلى احدى جهتي الكلام ، وهي جهة المتكلم به ، وأعرض عن الجهة الأخرى وهي جهة المتكلم فيه ، وكلاهما للكلام به تعلق يحصل به التفاضل والتماثل .

قالوا : ومن أعاد التفاضل إلى مجرد كثرة الثواب أو قلته من غير أن يكون

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .

(٢) سبق تخريج هذا الحديث في هذ الجزء .

الكلام في نفسه أفضل ، كان بمنزلة من جعل عملين متساويين وثواب أحدهما أضعاف ثواب الآخر ، مع أن العملين في أنفسهما لم يختص أحدهما بمزية ، بل كدرهم ودرهم تصدق بهما رجل واحد في وقت واحد ومكان واحد على اثنين متساويين في الاستحقاق ونيته بهما واحدة ، ولم يتميز أحدهما على الآخر بفضيلة ، فكيف يكون ثواب أحدهما أضعاف ثواب الآخر ، بل تفاضل الثواب والعقاب دليل على تفاضل الأعمال في الخير والشر ، وهذا الكلام متصل بالكلام في اشتمال الأعمال على صفات بها كانت صالحة حسنة ، وبها كانت فاسدة قبيحة .

وقد بسط هذا في غير هذا الموضع .

وقول من قال : صفات الله لا تتفاضل ونحو ذلك قول لا دليل عليه ، بل هو مورد النزاع ، ومن الذي جعل صفته التي هي الرحمة لا تفضل على صفته التي هي الغضب ، وقد ثبت عن النبي ﷺ : « إن الله كتب في كتاب موضوع عنده فوق العرش : « إن رحمتي تغلب غضبي - وفي رواية - تسبق غضبي »[1] وصفة الموصوف من العلم والإرادة والقدرة والكلام والرضا والغضب وغير ذلك من الصفات تتفاضل من وجهين أحدهما : أن بعض الصفات أفضل من بعض ، وأدخل في كل الموصوف بها ، فإنا نعلم أن اتصاف العبد بالعلم والقدرة والرحمة أفضل من اتصافه بضد ذلك ، ولا يوصف إلا بصفات الكمال ، وله الأسماء الحسنى يدعى بها ، فلا يدعى إلا بأسمائه

(١) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب التوحيد ٥٥ باب قول الله تعالى ﴿ بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ ﴾ .
٧٥٥٤ - حدثني محمد بن غالب ، حدثنا محمد بن اسماعيل ، حدثنا معتمر سمعت أبي يقول : حدثنا قتادة أن أبا رافع حدثه، أنه سمع أبا هريرة - رضي الله عنه يقول : سمعت رسول الله - ﷺ - وذكره .
ورواه في بدء الخلق ١، ورواه الامام مسلم في كتاب التوبة ١٤ - ١٦ وابن ماجه في الزهد ٣٥ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٤٢ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٣١٣ ، ٣٥٨ (حلبي)

الحسنى ، وأسماؤه متضمنة لصفاته ، وبعض أسمائه أفضل من بعض .

وأدخل في كمال الموصوف بها ، ولهذا في الدعاء المأثور أسألك باسمك العظيم الأعظم ، الكبير الأكبر »[1] .
و« لقد دعا الله باسمه العظيم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى » .

وأمثال ذلك ، فتفاضل الأسماء والصفات من الأمور البينات .

والثاني : أن الصفة الواحدة قد تتفاضل ، فالأمر بمأمور يكون أكمل من الأمر بمأمور آخر ، والرضا عن النبيين أعظم من الرضا عمن دونهم ، والرحمة لهم أكمل من الرحمة لغيرهم ، وتكليم الله لبعض عباده أكمل من تكليمه لبعض وكذلك سائر هذا الباب ، وكما أن أسمائه وصفاته متنوعة ، فهي أيضاً متفاضلة ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة والإجماع مع العقل ، وإنما شبهة من منع تفاضلها من جنس شبهة من منع تعددها ، وذلك يرجع إلى نفي الصفات ، كما يقوله الجهمية لما ادعوه من التركيب ، وقد بينا فساد هذا مبسوطاً في موضعه .

وسئل :

عمن يقرأ القرآن ـ هل يقرأ « سورة الإخلاص » مرة أو ثلاثاً ؟

وما السنة في ذلك ؟

فأجاب :

إذا قرأ القرآن كله ينبغي أن يقرأها كما في المصحف مرة واحدة ، هكذا قال العلماء ؛ لئلا يزاد على ما في المصحف .

وأما إذا قرأها وحدها ، أو مع بعض القرآن فإنه إذا قرأها ثلاث مرات عدلت القرآن . والله أعلم .

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث .

وقال شيخ الإسلام
قدس الله روحه :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وسلم تسليما . .

فصل

في تفسير ﴿ قل هُوَ الله أَحَدٌ . الله الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوْلَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ .

والاسم « الصمد » فيه للسلف أقوال متعددة قد يظن أنها مختلفة ، وليست كذلك ، بل كلها صواب والمشهور منها قولان :

أحدهما : أن الصمد هو الذي لا جوف له .

والثاني : أنه السيد الذي يصمد إليه في الحوائج .

والأول هو قول أكثر السلف من الصحابة والتابعين وطائفة من أهل اللغة .

والثاني : قول طائفة من السلف والخلف وجمهور اللغويين ، والآثار المنقولة عن السلف بأسانيدها في كتب التفسير المسندة ، وفي كتب السنة وغير ذلك ، وقد كتبنا من الآثار في ذلك شيئاً كثيراً بإسناده فيما تقدم .

وتفسير ﴿ الصمد ﴾ بأنه الذي لا جوف له معروف عن ابن مسعود موقوفاً ومرفوعاً .

وعن ابن عباس ، والحسن البصري ، ومجاهد وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، والضحاك ، والسدي وقتادة .

وبمعنى ذلك قال سعيد بن المسيب قال : هو الذي لا حشو له .

وكذلك قال ابن مسعود : هو الذي ليست له أحشاء وكذلك قال الشعبي [1] : هو الذي لا يأكل ولا يشرب وعن محمد بن كعب [2] القرظي ، وعكرمة : هو الذي لا يخرج منه شيء .

وعن ميسرة [3] قال : هو المصمت.

قال ابن قتيبة : كأن الدال في هذا التفسير مبدلة من تاء ، والصمت من هذا .

قلت : لا إبدال في هذا ولكن هذا من جهة الاشتقاق الأكبر .

وسنبين إن شاء الله وجه القول من جهة الاشتقاق واللغة .

ومن الحديث المأثور في سبب نزول هذه الآية رواه الإمام أحمد في المسند وغيره من حديث أبي سعد الصغاني : حدثنا أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية عن أبي بن كعب : أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ : إنسب لنا ربك ، فأنزل الله **﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصَّمَدُ ﴾** إلى آخر السورة [4] .

قال الصمد الذي لم يلد ولم يولد ؛ لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت ، وليس شيء يموت إلا سيورث وأن الله لا يموت ولا يورث .

وأما تفسيره بأنه السيد الذي يصمد إليه في الحوائج فهو أيضاً مروي عن ابن عباس موقوفاً ومرفوعاً فهو من تفسير الوالبي عن ابن عباس ، قال : **﴿ الصمد ﴾** السيد الذي كمل في سؤدده ، وهذا مشهور عن أبي وائل شقيق

---

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٣) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٤) الحديث عند الإمام أحمد في المسند ٥ : ١٣٤ ورواه الامام الترمذي في التفسير سورة ١١٢ آية رقم ١ .

ابن سلمة قال : هو السيد الذي انتهى سؤدده .

وعن أبي اسحاق الكوفي عن عكرمة الصمد الذي ليس فوقه أحد .

ويروى هذا عن علي ، وعن كعب الأحبار : الذي لا يكافئه من خلقه أحد .

وعن السدي أيضاً : هو المقصود إليه في الرغائب والمستغاث به عن المصائب .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه هو المستغني عن كل أحد المحتاج إليه كل أحد ،

وعن سعيد بن جبير أيضاً : الكامل في جميع صفاته وأفعاله .

وعن الربيع : الذي لا تعتريه الآفات .

وعن مقاتل[1] بن حيان : الذي لا عيب فيه. وعن ابن كيسان[2] هو الذي لا يوصف بصفته أحد . قال أبو بكر الأنباري : لا خلاف بين أهل اللغة أن الصمد السيد الذي ليس فوقه أحد ، الذي يصمد إليه الناس في حوائجهم وأمورهم .

وقال الزجاج هو الذي ينتهي إليه السؤدد ، فقد صمد له كل شيء أي قصد قصده .

وقد أنشدوا في هذا بيتين مشهورين أحدهما :

---

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٢) هو محمد بن أحمد بن ابراهيم ، أبو الحسن ، المعروف بابن كيسان عالم بالعربية نحواً ولغة ، من أهل بغداد ، أخذ عن المبرد وثعلب من كتبه تلقيب القوافي وتلقيب حركاتها ، المهذب في النحو ، غريب الحديث ، معاني القرآن ، توفي عام ٢٩٩ هـ [راجع طبقات النحويين واللغويين ١٧٠ وشذرات الذهب ٢ : ٢٣٢] .

ألا بكر الناعي بخيري بني أسد   بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد

وقال الآخر :

علوته بحسامي ثم قلت له   خذها حذيف فأنت السيد الصمد

وقال بعض أهل اللغة : الصمد هو السيد المقصود في الحوائج .

تقول العرب : صمدت فلاناً أصمده - بكسر الميم - وأصمده - بضم الميم - صمداً - بسكون الميم - إذا قصدته ، والمصمود صمد كالقبض بمعنى المقبوض والنقض بمعنى المنقوض ، ويقال : بيت مصمود ومصمد إذا قصده الناس في حوائجهم .

قال طرفة :

وأن يلتق الحي الجميع تلاقني   إلى ذروة البيت الرفيع المصمد

وقال الجوهري : صمده يصمده صمداً إذا قصده والصمد بالتحريك السيد لأنه يصمد إليه في الحوائج ويقال : بيت مصمد بالتشديد أي مقصود

وقال الخطابي [1] أصح الوجوه أنه السيد الذي يصمد إليه في الحوائج لأن الاشتقاق يشهد له ، فإن أصل الصمد القصد ، يقال : أصمد صمد فلان أي أقصد قصده ، فالصمد السيد الذي يصمد إليه في الأمور ، ويقصد في الحوائج وقال قتادة : الصمد الباقي بعد خلقه وقال مجاهد ، ومعمر : هو الدائم .

وقد جعل الخطابي وأبو الفرج بن الجوزي [2] : الأقوال فيه أربعة هذين ، واللذين تقدما .

وسنبين إن شاء الله أن بقاءه ودوامه من تمام الصمدية .

وعن مرة الهمداني : هو الذي لا يبلى ولا يفنى .

---

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

وعنه أيضاً قال : هو الذي يحكم ما يريد ، ويفعل ما يشاء لا معقب لحكمه ، ولا راد لقضائه . وقال ابن عطاء : هو المتعالي عن الكون والفساد وعنه أيضاً قال : الصمد الذي لم يتبين عليه أثر فيما أظهر ، يريد قوله : ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُغُوبٍ ﴾ [1] وقال الحسين بن الفضل : هو الأزلي بلا ابتداء وقال محمد بن علي الحكيم الترمذي [2] : هو الأول بلا عدد والباقي بلا أمد ، والقائم بلا عمد .

وقال أيضاً : الصمد الذي لا تدركه الأبصار ولا تحويه الأفكار ، ولا تبلغه الأقطار ، وكل شيء عنده بمقدار .

وقيل : هو الذي جل عن شبه المصورين .

وقيل : هو الذي أيست العقول من الاطلاع على كيفيته .

وكذلك قيل : هو الذي لا تدرك حقيقة نعوته وصفاته ، فلا يتسع له اللسان ، ولا يشير إليه البنان .

وقيل : هو الذي لم يعط خلقه من معرفته إلا الاسم والصفة .

وعن الجنيد [3] قال : الذي لم يجعل لأعدائه سبيلاً إلى معرفته .

ونحن نذكر ما حضرنا من ألفاظ السلف بأسانيدها .

فروى ابن أبي حاتم في تفسيره قال : ثنا أبي ، ثنا محمد بن موسى بن نفيع الجرشي ، ثنا عبد الله بن عيسى يعني أبا خلف الخزاز ، ثنا داود بن أبي

---

(١) سورة ق آية رقم ٣٨ .

(٢) هو محمد بن علي بن الحسن بن بشر أبو عبد الله ، الحكيم الترمذي ، باحث صوفي ، عالم بالحديث وأصول الدين من أهل ترمذ ، نفي منها بسبب تصنيفه كتاباً خالف فيه ما عليه أهلها توفي نحو ٣٢٠ هـ [راجع لسان الميزان ٥ : ٣٠٨ ومفتاح السعادة ٢ : ١٧٠ وطبقات السبكي ٢ : ٢٠ ودائرة المعارف الاسلامية ٥ : ٢٢٧] .

(٣) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

هند ، عن عكرمة ، عن ابن عباس في قوله ﴿ **الصمد** ﴾ قال : الصمد الذي تصمد إليه الأشياء إذا نزل بهم كربة أو بلاء .

حدثنا أبو زرعة ، ثنا محمد بن ثعلبة بن سواء السدوسي ثنا محمد بن سواء ، ثنا سعيد بن أبي عروبة ، عن أبي معشر عن ابراهيم قال : الصمد الذي يصمد العباد إليه ،في حوائجهم .

حدثنا أبي ، ثنا عبد الرحمن بن الضحاك ، ثنا سويد بن عبد العزيز ثنا سفيان بن حسين ، عن الحسن قال : الصمد الحي القيوم الذي لا زوال له .

حدثنا أبي ، ثنا نصر بن علي ، ثنا يزيد بن زريع عن سعيد عن قتادة ، عن الحسن ، قال : الصمد الباقي بعد خلقه . وهو قول قتادة حدثنا أبو سعيد الأشج ، ثنا ابن نمير ، عن الأعمش عن شقيق في قوله : ﴿ **الصمد** ﴾ قال : السيد الذي قد انتهى سؤدده .

حدثنا أبي ، ثنا أبو صالح ، ثنا معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله ﴿ **الصمد** ﴾ قال : السيد الذي قد كمل في سؤدده ، والشريف الذي قد كمل في شرفه ، والعظيم الذي قد كمل في عظمته والحليم الذي قد كمل في حلمه ، والعليم الذي قد كمل في علمه والحكيم الذي قد كمل في حكمته ، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد ، هو الله سبحانه وتعالى ، هذه صفته لا تنبغي لأحد إلا له ، ليس له كفء ، وليس كمثله شيء سبحان الله الواحد القهار .

حدثنا كثير بن شهاب المذحجي القزويني ، ثنا محمد بن سعيد بن سابق ، ثنا أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس في قوله ﴿ **الصمد** ﴾ قال : الذي لم يلد ، ولم يولد ، حدثنا أبو سعيد الأشج ، ثنا ابن علية عن أبي رجاء عن عكرمة في قوله ﴿ **الصمد** ﴾ قال : الذي لم يخرج منه شيء .

حدثنا أبو سعيد الأشج ، ثنا أبو أحمد ، ثنا مندل بن علي عن أبي روق

عطية بن الحارث ، عن أبي عبد الرحمن السلمي [1] ، عن عبد الله بن مسعود قال : ﴿ **الصمد** ﴾ الذي ليس له أحشاء .

وروي عن سعيد بن المسيب مثله .

حدثنا أبي ، ثنا محمد بن عمر بن عبد الله الرومي ، ثنا عبيد الله بن سعيد قائد الأعمش ، عن صالح بن حيان عن عبد الله بن بريدة عن أبيه ، قال : لا أعلمه إلا قد رفعه قال : « الصمد » الذي لا جوف له .

وروي عن عبدالله بن عباس وعبد الله بن مسعود في إحدى الروايات ، والحسن وعكرمة وعطية وسعيد بن جبير ، ومجاهد في إحدى الروايات ، والضحاك مثل ذلك .

حدثنا أبي ثنا قبيصة ، ثنا سفيان عن منصور عن مجاهد قال : الصمد الصمت الذي لا جوف له .

حدثنا أبو عبد الله الطهراني ، ثنا حفص بن عمر العدني ، ثنا الحكم بن إبان ، عن عكرمة في قوله : ﴿ **الصمد** ﴾ قال : « الصمد » الذي لا يطعم .

حدثنا أبي ، ثنا علي بن هاشم بن مرزوق ، ثنا هشيم عن اسماعيل بن أبي خالد ، عن الشعبي [2] أنه قال : « الصمد » الذي لا يأكل الطعام ، ولا يشرب الشراب

حدثنا أبي وأبو زرعة قالا ثنا أحمد بن منيع ثنا محمد بن ميسر - يعني أبا سعد الصغاني - ثنا أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن

---

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية - وهو محمد بن الحسين بن محمد بن موسى الأزدي السلمي النيسابوري أبو عبد الرحمن من علماء الصوفية توفي عام ٤١٢ هـ [راجع طبقات الصوفية مقدمة كتبها نور الدين شريبة ١٦ - ٤٩ ومفتاح السعادة ١ : ٤٥١ وميزان الاعتدال ٣ : ٤٦ وتاريخ بغداد ٢ : ٢٤٨] .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

أبي بن كعب[1] في قوله : ﴿ الصمد ﴾ قال : «الصمد» الذي لم يلد ولم يولد ، لأنه ليس شيء يلد إلا يموت ، وليس شيء يموت إلا يورث ، وإن الله لا يموت ، ولا يورث .

﴿ ولم يكن له كفوا أحد ﴾ لم يكن له شبه ولا عدل وليس كمثله شيء .

حدثنا علي بن الحسين ، ثنا محمود بن خراش ، ثنا أبو سعد الصغاني ، ثنا أبو جعفر الرازي ، عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية ، عن أبي بن كعب : إن المشركين قالوا : أنسب لنا ربك ، فأنزل الله هذه السورة [2] .

حدثنا أبو زرعة ثنا العباس بن الوليد ، ثنا يزيد بن زريع عن سعيد عن قتادة : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ [3] قال : إن الله لا يكافئه من خلقه أحد .

حدثنا علي بن الحسين ثنا أبو عبد الله الجرشي ثنا أبو خلف عبد الله بن عيسى ثنا داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس قال : إن اليهود جاءت إلى النبي ﷺ منهم كعب بن الأشرف [4]، وحيي بن أخطب ، وجدي بن أخطب فقالوا : يا محمد ! صف لنا ربك الذي بعثك ، فأنزل الله ﴿ قل هو الله أحد ، الله الصمد لم يلد ﴾ .

فيخرج منه الولد ﴿ ولم يولد ﴾ فيخرج منه شيء . وقال ابن جرير الطبري في تفسيره : حدثنا أحمد بن منيع المروزي ، ومحمود بن خداش

---

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٢) سبق تخريج هذا الحديث .

(٣) سورة الاخلاص آية رقم ٤ .

(٤) هو كعب بن الأشرف الطائي من بني نبهان : شاعر جاهلي كانت أمه من بني النضير فدان باليهودية ، وكان سيداً في أخواله يقيم في حصن له قريب من المدينة ، ما زالت بقاياه إلى اليوم ، أدرك الإسلام ولم يسلم ، وأكثر من هجو النبي - ﷺ وأصحابه ، وتحريض القبائل عليهم - أمر النبي بقتله في ظاهر حسنه عام ٣ هـ . [راجع الروض الأنف ٢ : ١٢٣ وامتاع الأسماع ١ : ١٠٧] .

الطالقاني فذكر مثل إسناد ابن أبي حاتم عن أبي بن كعب سؤال المشركين للنبي ﷺ : انسب لنا ربك ، فأنزل الله : ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ حدثنا ابن حميد ، ثنا يحيى بن واضح ، ثنا الحسين عن يزيد ، عن عكرمة أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ أخبرنا عن صفة ربك ما هو ؟ ومن أي شيء هو ؟ فأنزل الله هذه السورة . ورواه أيضاً عن أبي العالية وعن جابر بن عبد الله حدثنا شريح ، ثنا اسماعيل بن مجاهد ، عن الشعبي عن جابر فذكره قال : وقيل : هو من سؤال اليهود حدثنا ابن حميد ، ثنا سلمة ، ثنا ابن اسحاق عن محمد بن سعيد قال : أتى رهط من اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا : يا محمد هذا الله خلق الخلق ، فمن خلقه ؟

فغضب النبي ﷺ حتى انتقع لونه ثم ساورهم غضباً لربه فجاءه جبريل فسكنه وقال : اخفض عليك جناحك يا محمد ، وجاءه من الله جواب ما سألوه عنه قال : يقول الله ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ إلى آخرها فلما تلاها عليهم النبي ﷺ قالوا له : صف لنا ربك كيف خلقه ، كيف عضده كيف ساعده ؟ وكيف ذراعه ، فغضب النبي ﷺ أشد من غضبه الأول وساورهم فأتاه جبريل فقال له مثل مقالته الأولى وأتاه بجواب ما سألوه فأنزل الله ﴿ **وَمَا قَدَرُوا الله حَقَّ قَدْرِهِ** ﴾ [1] .

وروى الحكم بن معبد في كتاب « الرد على الجهمية » قال : ثنا عبد الله ابن محمد بن النعمان، ثنا سلمة بن شبيب ، ثنا يحيى بن عبد الله ثنا ضرار ، عن أبان ، عن أنس ، قال : أتت يهود خيبر إلى النبي ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم خلق الله الملائكة من نور الحجاب وآدم من حمأ مسنون ، وإبليس من لهب النار ، والسماء من دخان والأرض من زبد الماء ، فأخبرنا عن ربك ؟ قال : فلم يجبهم النبي ﷺ فأتاه جبريل فقال : يا محمد ﴿ **قل هو الله أحد الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد** ﴾ .

---

(١) سورة الأنعام آية رقم ٩١ .

ليس له عروق شعب إليها .

« الصمد » ليس بأجوف ولا يأكل ولا يشرب ﴿ **لم يلد ولم يولد** ﴾ .

ليس له ولد ولا والد ينسب إليه .

﴿ **ولم يكن له كفواً أحد** ﴾ ليس شيء من خلقه يعدل مكانه يمسك السموات والأرض أن تزولا » الحديث .

وقال ابن جرير : ثنا عبد الرحمن بن الأسود ، ثنا محمد بن ربيعة عن سلمة بن سابور ، عن عطية ، عن ابن عباس قال : « الصمد » الذي ليس بأجوف ، حدثنا ابن بشار ثنا عبد الرحمن ، ثنا سفيان عن منصور ، عن مجاهد « الصمد » المصمت الذي لا جوف له .

حدثنا أبو كريب ، ثنا وكيع ، عن سفيان ، عن منصور مثله سواء .

حدثنا الحارث ، ثنا الحسن ، ثنا ورقاء ، عن ابن أبي نجيح عن مجاهد مثله .

حدثنا ابن بشار ، ثنا عبد الرحمن ، ثنا الربيع بن مسلم عن الحسن ، قال : « الصمد » الذي لا جوف له .

وبهذا الإسناد عن ابراهيم بن ميسرة قال : أرسلني مجاهد إلى سعيد بن جبير أسأله عن « الصمد » فقال : الذي لا جوف له حدثنا ابن بشار ، ثنا يحيى ، ثنا اسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي قال : « الصمد » الذي لا يطعم الطعام .

ورواه يعقوب عن هشيم عن اسماعيل عنه قال : لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب .

حدثنا ابن بشار وزيد بن أخزم قالا : ثنا ابن داود عن المستقيم بن عبد

الملك ، عن سعيد بن المسيب [1] قال : « الصمد » الذي لا حشو له .

حدثنا الحسين ، ثنا أبو معاذ ، ثنا عبيد قال : سمعت الضحاك يقول : « الصمد » الذي لا جوف له .

وروي عن ابن بريدة فيه حديثاً مرفوعاً لكنه ضعيف قال : وقال آخرون : هو الذي لا يخرج منه شيء .

حدثنا يعقوب بن أبي علية عن أبي رجاء ، سمعت عكرمة قال : في قوله ﴿ **الصمد** ﴾ لم يخرج منه شيء : لم يلد ولم يولد .

حدثنا ابن بشار ، ثنا محمد بن جعفر ، ثنا شعبة ، عن أبي رجاء محمد بن يوسف ، عن عكرمة [2] قال : ﴿ **الصمد** ﴾ الذي لا يخرج منه شيء .

وقال آخرون : لم يلد ولم يولد ، وذكر حديث أبي بن كعب الذي رواه ابن أبي حاتم ، والذي فيه : أنه سبحانه لا يموت ولا يورث .

قال : وقال آخرون : هو السيد الذي انتهى في سؤدده قال : وثنا أبو السائب ، ثنا أبو معاوية ، عن الأعمش عن شقيق ، قال :« الصمد » هو السيد الذي انتهى في سؤدد .

حدثنا أبو كريب وابن بشار وابن عبد الأعلى قالوا : ثنا وكيع عن الأعمش عن أبي وائل قال : « الصمد » السيد الذي انتهى في سؤدده .

حدثنا ابن حميد ، ثنا مهران ، عن سفيان ، عن الأعمش عن أبي وائلة مثله .

---

(1) هو سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب المخزومي القرش ، أبو محمد سيد التابعين ، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة توفي عام ٩٤ هـ [راجع طبقات ابن سعد ٥ : ٨٨ والوفيات ١ : ٢٠٦ وصفة الصفوة ٢ : ٤٤ ، وحلية الأولياء ٢ : ١٦١] .

(2) هو عكرمة بن عبد الله البربري المدني أبو عبد الله ، مولى عبد الله بن عباس تابعي ، كان من أعلم الناس بالتفسير والمغازي توفي عام ١٠٥ هـ [راجع تهذيب التهذيب ٧ : ٢٦٣ - ٢٧٣ وحلية الأولياء ٣ : ٣٢٦ وميزان الاعتدال ٢ : ٢٠٨] .

حدثنا أبو صالح ، ثنا معاوية ، عن علي ، عن ابن عباس في قوله ﴿ **الصمد** ﴾ قال : السيد الذي قد كمل في سؤدده وذكر مثل الحديث الذي رواه ابن أبي حاتم ، كما تقدم . قلت : الاشتقاق يشهد للقولين جميعاً قول من قال : إن الصمد الذي لا جوف له .

وقول من قال : إنه السيد ، وهو على الأول أدل ، فإن الأول أصل للثاني ، ولفظ ﴿ **الصمد** ﴾ يقال : على ما لا جوف له في اللغة .

قال يحيى بن أبي كثير الملائكة صمد ، والآدميون جوف وفي حديث آدم : أن ابليس قال عنه : إنه أجوف ليس بصمد [1] .

وقال الجوهري : الصمد لغة في المصمت ، وهو الذي لا جوف له .

قال : والصماد عفاص القارورة .

وقال : الصمد المكان المرتفع الغليظ .

قال أبو النجم : يغادر الصمد كظهر الأجزل .

وأصل هذه المادة الجمع والقوة .

ومنه يقال : يصمد المال : أي يجمعه .

وكذلك السيد أصله سيود اجتمعت ياء وواو ، وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت ، كما قيل ميت ، وأصله ميوت .

والمادة في السواد والسؤدد تدل على الجمع ، واللون الأسود هو الجامع للبصر .

وقد قال تعالى ﴿ وَسَيِّداً وَحَصُوراً ﴾ [2] قال أكثر السلف ﴿ سيداً ﴾

---

(١) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب البر ١١١

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٣٩ .

حليماً وكذلك يروى عن الحسن .

وسعيد بن جبير . وعكرمة ، وعطاء ، وأبي الشعثاء[1] والربيع بن أنس ، ومقاتل .

وقال أبو روق عن الضحاك أنه الحسن الخلق .

وروى سالم عن سعيد بن جبير أنه التقى ، ولا يسود الرجل الناس حتى يكون في نفسه مجتمع الخلق ثابتاً . وقال عبد الله بن عمر : ما رأيت بعد رسول الله ﷺ أسود من معاوية فقيل له: ولا أبو بكر ، ولا عمر ، قال : كان أبو بكر وعمر خيراً منه ، وما رأيت بعد رسول الله ﷺ أسود من معاوية .

قال أحمد بن حنبل : يعني به الحليم ، أو قال : الكريم . ولهذا قيل :

إذا شئت يوماً أن تسود قبيلة : فبالحلم سد لا بالتسرع والشتم ولهذا فسر طائفة من السلف السيد بأنه سيد قومه في الدين وقال ابن زيد : هو الشريف .

وقال الزجاج [2] : الذي يفوق قومه في الخير .

وقال ابن الأنباري : السيد هنا الرئيس ، والإمام في الخير .
وعن ابن عباس ومجاهد : هو الكريم على ربه .

وعن سعيد بن المسيب هو الفقيه العالم .

وقد تقدم أنهم يقولون لعفاص القارورة : صماد .

قال الجوهري : العفاص : جلد يلبسه رأس القارورة . وأما الذي يدخل في فمه فهو الصماد ، وقد عفصت القارورة شددت عليها العفاص .

---

(١) هو جابر بن زيد الأزدي البصري أبو الشعثاء ، تابعي فقيه من الائمة من أهل البصرة ، أصله من عمان صحب ابن عباس وكان من بحور العلم توفي عام ٩٣ هـ . [راجع تذكرة الحفاظ ١ : ٦٧ وتهذيب التهذيب ٢ : ٣٨ وحلية الأولياء ٣ : ٨٥] .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

قلت : وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ في اللقطة : « ثم أعرف عفاصها ووكاءها » (1) .

والمراد بالعفاص : ما يكون فيه الدراهم كالخرقة التي تربط فيها الدراهم ، والوكاء : مثل الخيط الذي يربط به ، وهذا من جنس عفاص القارورة .

ولفظ العفص والسد والصمد ، والجمع والسؤدد معانيها متشابهة ، فيها الجمع والقوة ، ويقال : طعام عفص وفيه عفوصة ، أي تقبض ، ومنه العفص الذي يتخذ منه الحبر .

وقد قال الجوهري : هو مولد ليس من كلام أهل البادية وهذا لا يضر ، لأنه لم يكن عندهم عفص يسمونه بهذا الاسم ، لكن التسمية به جارية على أصول كلام العرب وكذلك تسميتهم لما يدخل في فمها صمام ، فإن هذه المادة فيها معنى الجمع والسد .

قال الجوهري : صمام القارورة سدادها ، والحجر الأصم الصلب المصمت ، والرجل الأصم هو الذي لا يسمع لانسداد سمعه ، والرجل الصمة الشجاع ، والصمة الذكر من الحيات ، وصميم الشيء خالصه ، حيث لم

---

(1) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب اللقطة ١ باب ضالة الابل والغنم والبقر .

٢٥٠٤ ـ ثنا سفيان بن عيينة ، عن يحيى بن سعيد ، عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن ، عن يزيد مولى المنبعث عن زيد بن خالد الجهني ، فلقيت ربيعة فسألته فقال : حدثني يزيد عن زيد بن خالد الجهني عن النبي ـ ﷺ ـ قال : سئل عن ضالة الابل فغضب واحمرت وجنتاه فقال : مالك ولها . . ؟ معها الحذاء والسقاء . ترد الماء وتأكل الشجر حتى يلقاها ربها ، وسئل عن ضالة الغنم فقال : خذها ، فإنما هي لك أو لأخيك أو للذئب » وسئل عن اللقطة فقال : وذكره .

ورواه البخاري في كتاب اللقطة ٢ ، ٤ ، ٩ والامام مسلم في اللقطة ١ ، ٢ ، ٧٥ ، ٧ وأبو داود في اللقطة ١ ، والترمذي في الأحكام ٣٥ ، وصاحب الموطأ في الأقضية ٤٦ وأحمد بن حنبل في المسند ٤ : ١١٦ حلبي .

يدخل اليه ما يفرقه ويضعفه .

يقـال : صميم الحـر ، وصميم البـرد ، وفـلان مـن صميـم قـومـه والصمصام : الصارم القاطع ، الذي لا ينثني .

وصميم في السـير وغيـره أي مضى ، ورجـل صم أي غليظ ومنـه في الاشتقاق الأكبر الصوم ، فإن الصوم هو الإمساك .

قال أبو عبيدة [1] : كل ممسك عن طعام أو كلام أو سير فهو صائم ، لأن الإمساك في اجتماع والصائم لا يدخل جوفه شيء .

ويقال : صام الفرس إذا قام في غير اعتلاف قال النابغة [2] :

خيـل صيـام وخيـل غـير صـائمـة تحت العجـاج وأخـرى تعلك اللجـما

وكذلك السد ، والسداد ، والسؤدد ، والسواد . وكذلك لفظ الصمد فيه الجمع ، والجمع فيه القوة ، فإن الشيء كلما اجتمع بعضـه إلى بعض ، ولم يكن فيه خلل ، كان أقوى مما إذا كان فيه خلو .

ولهذا يقال للمكان الغليظ المرتفـع : صمد ، لقـوته وتمـاسكه ، واجتماع أجزائه ، والرجل الصمـد : هو السيـد المصمود ؛ أي المقصـود ، يقال قصـدته وقصدت له ، وقصدت إليه ، وكذلك هـو مصمود ومصمود له وإليـه ، والناس إنما يقصدون في حوائجهم من يقوم بها ، وإنما يقوم بها من يكون في نفسه مجتمعاً قوياً ثابتاً ، وهو السيد الكريم ، بخلاف من يكون هلوعاً جزوعاً يتفـرق ويقلق ويتمزق من كثرة حوائجهم وثقلها ، فإن هذا ليس بسيد صمد يصمـدون إليه في حوائجهم .

فهم إنمـا سموا السيـد من الناس صمـدا ؛ لما فيـه من المعنى الذي لأجله يقصـده الناس في حـوائجهم ، فليس معنى السيد في لغتهم معنى إضـافي فقط ـ

---

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

كلفظ القرب والبعد ـ بل هو معنى قائم بالسيد ؛ لأجله يقصده الناس ، والسيد من السؤدد ، والسواد ، وهذا من جنس السداد في الاشتقاق الأكبر ، فإن العرب تعاقب بين حرف العلة ، والحرف المضاعف كما يقولون : تقضى البازي ، وتقضض ، والساد هو الذي يسد غيره ، فلا يبقى فيه خلو ، ومنه سداد القارورة ، وسداد الثغر بالكسر فيهما . وهو ما يسد ذلك ، ومنه السداد بالفتح وهو الصواب ، ومنه القول السديد .

قال الله تعالى ﴿ اتَّقُوا الله وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴾ [1] قالوا : قصداً حقاً .

وعن ابن عباس : صواباً .

وعن قتادة ومقاتل : عدلاً .

وعن السدي : مستقيماً .

وكل هذه الأقوال صحيح ، فإن القول السديد هو المطابق الموافق ، فإن كان خبراً كان صدقاً مطابقاً لمخبره ، لا يزيد ولا ينقص .

وإن كان أمراً كان أمراً بالعدل الذي لا يزيد ولا ينقص ، ولهذا يفسرون السداد بالقصد والقصد بالعدل .

قال الجوهري : التسديد التوفيق للسداد ، وهو الصواب ، والقصد في القول والعمل . ورجل مسدد إذا كان يعمل بالسداد ، والقصد . والمسدد المقوم ، وسدد رمحه ، وأمر سديد ، وأسد ، أي قاصد ، وقد استد الشيء استقام قال الشاعر :

أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رماني

وقال الأصمعي [2] : اشتد بالشين المعجمة ليس بشيء وتعبيرهم عن

(١) سورة الأحزاب آية رقم ٧٠ .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

السد بالقصد يدلك على أن لفظ القصد فيه معنى الجمع والقوة .

والقصد : العدل كما أنه السداد ، والصواب وهو المطابق الموافق الذي لا يزيد ولا ينقص وهذا هو الجامع المطابق .

ومنه قوله تعالى ﴿ وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾ [1] أي السبيل القصد ، وهو السبيل العدل : أي إليه تنتهي السبيل العادلة ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴾[2] أي الهدى إلينا .

هذا أصح الأقوال في الآيتين .

وكذلك قوله تعالى ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾[3]ومنه في الاشتقاق الأوسط : الصدق فإن حروفه حروف القصد ، فمنه الصدق في الحديث لمطابقته مخبره ، كما قيل في السداد ، والصدق بالفتح الصلب من الرماح ، ويقال : المستوى فهو معتدل صلب ليس فيه خلل ولا عوج .

والصندوق واحد الصناديق، فإنه يجمع ما يوضع فيه ومما ينبغي أن يعرف في باب الاشتقاق أنه إذا قيل : هذا مشتق من هذا فله معنيان :

أحدهما : أن بين القولين تناسباً في اللفظ والمعنى سواء كان أهل اللغة تكلموا بهذا بعد هذا أو بهذا بعد هذا ، وعلى هذا فكل من القولين مشتق من الآخر ، فإن المقصود أنه مناسب له لفظاً ومعنى ، كما يقال : هذا الماء من هذا الماء ، وهذا الكلام من هذا الكلام ، وعلى هذا فإذا قيل : إن الفعل مشتق من المصدر أو المصدر مشتق من الفعل ، كان كلا القولين صحيحاً ، وهذا هو الاشتقاق الذي يقوم عليه دليل التصريف .

---

(١) سورة النحل اية رقم ٩ .
(٢) سورة الليل آية رقم ١٢ .
(٣) سورة الحجر آية رقم ٤١ .

وأما المعنى الثاني في الاشتقاق وهو أن يكون أحدهما أصل للآخر .

فهذا إذا عنى به أن أحدهما تكلم به قبل الآخر لم يقم على هذا دليل في أكثر المواضع ، وإن عنى به أن أحدهما متقدم على الآخر في العقل لكون هذا مفرداً وهذا مركباً فالفعل مشتق من المصدر ، والاشتقاق الأصغر اتفاق القولين في الحروف وترتيبها والأوسط اتفاقهما في الحروف لا في الترتيب والأكبر اتفاقهما في أعيان بعض الحروف . وفي الجنس لا في الباقي ، كاتفاقهما في كونهما من حروف الحلق ، إذا قيل : حزر وعزر وأزر ، فإن الجميع فيه معنى القوة والشدة وقد اشتركت مع الراء والزاي والحاء ، في أن الثلاثة حروف حلقية ، وعلى هذا فإذا قيل : الصمد بمعنى المصمت وأنه مشتق منه بهذا الاعتبار فهو صحيح ، فإن الدال أخت التاء ؛ فإن الصمت : السكوت وهو إمساك ، وإطباق للفم عن الكلام .

قال أبو عبيد : المصمت الذي لا جوف له ، وقد أصمته أنا ، وباب مصمت قد أبهم إغلاقه . والمصمت من الخيل : البهيم أي لا يخالط لونه لون آخر ومنه قول ابن عباس : إنما حرم من الحرير المصمت فالمصمد والمصمت متفقان في الاشتقاق الأكبر وليست الدال منقلبة عن التاء ، بل الدال أقوى والمصمد أكمل في معناه من المصمت،وكلما قوي الحرف كان معناه أقوى،فإن لغة العرب في غاية الإحكام والتناسب ، ولهذا كان الصمت إمساك عن الكلام مع إمكانه والإنسان أجوف يخرج الكلام من فيه ، لكنه قد يصمت بخلاف الصمد ، فإنه إنما استعمل فيما لا تفرق فيه ، كالصمد والسيد ، والصمد من الأرض ، وصماد القارورة ، ونحو ذلك ، فليس في هذه الألفاظ المتناسبة أكمل من ألفاظ الصمد ، فإن فيه الصاد والميم والدال ، وكل من هذه الحروف الثلاثة لها مزية على ما يناسبها من الحروف والمعاني المدلول عليها بمثل هذه الحروف أكمل .

ومما يناسب هذه المعاني من « الصبر » فإن الصبر فيه جمع وإمساك ، ولهذا

قيل : الصبر حبس النفس عن الجزع ، يقال : صبر ، وصبرته أنا . ومنه قوله تعالى ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ ﴾ [1] .

وكذلك معنى السيد الصمد خلاف معنى الجزوع المنوع ومنه الصبرة من الطعام ، فإنها مجتمعة مكومة والصبارة الحجارة ، وصبر الشيء غلظه ، وضده الجزع ، وفيه معنى التقطع والتفرق ، يقال :جزع له جزعة من المال ، أي قطع له قطعة . والجزوعة : القطعة من الغنم .

واجتزعت من الشجر عوداً أي اقتطعته ، واكتسرته وجزعت الوادي إذا قطعته عرضاً ، والجزع منعطف الوادي ، ومنه الجزع وهو الخرز اليماني الذي فيه بياض وسواد ، وكذلك جزع البسر تجزيعاً إذا أرطب نصفه ، أو ثلثاه ، وهو خلاف قولهم مصمت للون الواحد لما في ذلك من الاجتماع وفي هذا من التفرق .

وقد قال تعالى ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوْعاً ، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً ، وَإِذَا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعاً ﴾ [2] .

قال الجوهري : الهلع أفحش الجزع .

وقال غيره : هو في اللغة أشد الحرص ، وأسوأ الجزع .

ومنه قول النبي ﷺ :

« شر ما في المرء شح هالع ، وجبن خالع »[3] .

---

(١) سورة الكهف آية رقم ٢٨ .

(٢) سورة المعارج آية رقم ١٩ - ٢١ .

(٣) الحديث رواه أبو داود في كتاب الجهاد باب في الجرأة والجبن ٢٥١١ - حدثنا عبد الله بن الجراح ، عن عبد الله بن يزيد ، عن موسى بن علي بن رباح عن أبيه ، عن عبد العزيز بن مروان ، قال : سمعت أبا هريرة - يقول : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : وذكره .
ورواه الامام أحمد بن حنبل في المسند ٢ ، ٣٠٢ ، ٣٢٠ (حلبي)

وناقة هلوع إذا كانت سريعة السير خفيفة وذئب هلع بلع ، والهلع من الحرص ، والبلع : من الإبتلاع ، ولهذا كان كلام السلف في تفسيره يتضمن هذه المعاني .

فروي عن ابن عباس قال : هو الذي إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً . وروي عنه أنه قال : هو الحريص على ما لا يحل له .

وعن سعيد بن جبير : شحيحاً .

وعن عكرمة : ضجوراً .

وعن جعفر : حريصاً .

وعن الحسن والضحاك : بخيلاً .

وعن مجاهد : شرهاً .

وعن الضحاك أيضاً : الهلوع : الذي لا يشبع .

وعن مقاتل : ضيق القلب .

وعن عطاء : عجولاً .

وهذه المعاني كلها تنافي الثبات والقوة والاجتماع والإمساك والصبر .

وقد قال تعالى **﴿ لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم﴾** وهذا وإن كان قد قيل: إن المراد به أنها تنصدع فيموتون، فإنه كما قيل : في مثل ذلك قد انصدع قلبه ، وقد تفرق قلبي ، وقد تشتت قلبي ، وقد تقسم قلبي ، ومنه يقال للخوف : قد فرق قلبه ، ويقال : بإزاء ذلك هو ثابت القلب ، مجتمع القلب ، مجموع القلب .

فصل

قال الله تعالى ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾[1] فأدخل اللام في الصمد ، ولم يدخلها في أحد ، لأنه ليس في الموجودات ما يسمى أحداً في الإثبات مفرداً غير مضاف إلا الله تعالى ، بخلاف النفي وما في معناه : كالشرط والاستفهام فإنه يقال : هل عندك أحد ؟ وإن جاءني أحد من عندك أكرمته وإنما استعمل في العدد المطلق ، يقال : أحد اثنان ، ويقال : أحد عشر ، وفي أول الأيام يقال يوم الأحد فإن فيه - على أصح القولين ابتدأ الله خلق السموات والأرض وما بينهما كما دل عليه القرآن والأحاديث الصحيحة ، فإن القرآن أخبر في غير موضع : أنه ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾[2] .

وقد ثبت في الحديث الصحيح المتفق على صحته : أن آخر المخلوقات كان آدم ، خلق يوم الجمعة وإذا كان آخر الخلق كان يوم الجمعة دل على أن أوله كان يوم الأحد لأنها ستة .

وأما الحديث الذي رواه مسلم في قوله « خلق الله التربة يوم السبت » [3]

---

(1) سورة الاخلاص آية رقم ١ - ٢ .

(2) سورة الفرقان آية رقم ٥٩ وسورة السجدة آية رقم ٤ .

(3) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب المنافقين ٢٧ ورواه الامام أحمد في المسند ٢ : ٣٢٧ وتكملة الحديث : وخلق الجبال فيها يوم الأحد ، وخلق الشجر فيها يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم عليه السلام بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر الى الليل » .

فهو حديث معلول قدح فيه أئمة الحديث كالبخاري وغيره .

قال البخاري : الصحيح أنه موقوف على كعب . وقد ذكر تعليله البيهقي أيضاً ، وبينوا أنه غلط ليس مما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ وهو مما أنكر الحذاق على مسلم إخراجه إياه ، كما أنكروا عليه إخراج أشياء يسيرة ، وقد بسط هذا في مواضع أخر .

وقد ذكر أبو الفرج بن الجوزي [1] في قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ [2] .

قال ابن عباس : خلق الأرض في يوم الأحد والاثنين وبه قال عبد الله بن سلام [3] ، والضحاك ، ومجاهد وابن جريج ، والسدي ، والأكثرون .

وقال مقاتل : في يوم الثلاثاء والأربعاء .

قال : وقد أخرج مسلم حديث أبي هريرة « خلق الله التربة يوم السبت » .

قال : وهذا الحديث مخالف لما تقدم ، وهو أصح فصحح هذا لظنه صحة الحديث ، إذ رواه مسلم ولكن هذا له نظائر :

روى مسلم أحاديث قد عرف أنها غلط ، مثل قول أبي سفيان لما أسلم : أريد أن أزوجك أم حبيبة ولا خلاف بين الناس أنه تزوجها قبل إسلام أبي سفيان ولكن هذا قليل جداً .

---

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٢) سورة فصلت آية رقم ٩ .

(٣) سبق الترجمة له في كلمة وافية ، وهو ابن الحارث الاسرائيلي أبو يوسف ، صحابي ، قيل أنه من نسل يوسف بن يعقوب أسلم عند قدوم النبي - ﷺ - وكان أسمه « الحصن » فسماه رسول الله - ﷺ - عبد الله ، وفيه الآية ﴿ **وشهد شاهد من بني اسرائيل** ﴾ الآية ، والآية ﴿ **ومن عنده علم الكتاب** ﴾ وشهد مع عمر فتح بيت المقدس والجابية . توفي عام ٤٣ هـ . [راجع خلاصة تهذيب الكمال ٢٠٠ والاصابة رقم ٤٧٢٥ والاستيعاب في معرفة الأصحاب ٢ ؛٣٨٣] .

ومثل ما روي في بعض طرق حديث صلاة الكسوف أنه صلاها بثلاث ركوعات ، وأربع .

والصواب أنه لم يصلها إلا مرة واحدة بركوعين ولهذا لم يخرج البخاري إلا هذا ، وكذلك الشافعي وأحمد بن حنبل في احدى الروايتين عنه وغيرهما . والبخاري سلم من مثل هذا .

فإنه إذا وقع في بعض الروايات غلط ذكر الروايات المحفوظة التي تبين غلط الغالط ، فإنه كان أعرف بالحديث وعلله ، وأفقه في معانيه من مسلم ونحوه وذكر ابن الجوزي في موضع آخر أن هذا قول ابن اسحاق [1] قال : وقال ابن الأنباري : وهذا إجماع أهل العلم .

وذكر قولاً ثالثاً في ابتداء الخلق : أنه يوم الاثنين وقاله ابن اسحاق ، وهذا تناقض .

وذكر أن هذا قول أهل الإنجيل ، والابتداء بيوم الأحد قول أهل التوراة ، وهذا النقل غلط على أهل الإنجيل كما غلط من جعل الأول إجماع أهل العلم من المسلمين ، وكأن هؤلاء ظنوا أن كل أمة تجعل اجتماعها في اليوم السابع من الأيام السبعة التي خلق الله فيها العالم ، وهذا غلط ؛ فإن المسلمين إنما اجتماعهم في آخر يوم خلق الله فيه العالم وهو يوم الجمعة كما ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة . والمقصود هنا : أن لفظ الأحد لم يوصف به شيء من الأعيان إلا الله وحده ، وإنما يستعمل في غير الله في النفي .

قال أهل اللغة يقول : لا أحد في الدار ، ولا تقل فيها أحد ، ولهذا لم

---

(١) هو محمد بن اسحاق بن يسار المطلبي بالولاء المدني ، من أقدم مؤرخي العرب ، من أهل المدينة ، له : السيرة النبوية ، هذبها ابن هشام زار الاسكندرية سنة ١١٩ هـ وسكن بغداد وتوفي بها عام ١٥١ هـ [راجع تهذيب التهذيب ٩ : ٣٨ وتذكرة الحفاظ ١ : ١٦٣ وميزان الاعتدال ٣ : ٢١ وتاريخ بغداد ١ : ٢١٤] .

يجيء في القرآن إلا في غير الموجب كقوله تعالى ﴿ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [1] وكقوله ﴿ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ [2] وقوله ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ ﴾ [3] وفي الإضافة كقوله ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم ﴾ [4] ﴿ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ ﴾ [5] .

وأما اسم ﴿ الصمد ﴾ فقد استعمله أهل اللغة في حق المخلوقين كما تقدم ، فلم يقل الله صمد ، بل قال ﴿ الله الصمد ﴾ فبين أنه المستحق لأن يكون هو الصمد دون ما سواه ، فإنه المستوجب لغايته على الكمال ، والمخلوق وإن كان صمداً من بعض الوجوه فإن حقيقة الصمدية منتفية عنه ؛ فإنه يقبل التفرق والتجزئة ، وهو أيضاً محتاج إلى غيره ، فإن كل ما سوى الله محتاج إليه من كل وجه ، فليس أحد يصمد إليه كل شيء ، ولا يصمد هو إلى شيء إلا الله تبارك وتعالى ، وليس في المخلوقات إلا ما يقبل أن يتجزأ ويتفرق ويتقسم ، وينفصل بعضه من بعض ، والله سبحانه هو الصمد الذي لا يجوز عليه شيء من ذلك بل حقيقة الصمدية وكمالها له وحده واجبة لازمة لا يمكن عدم صمديته بوجه من الوجوه ، كما لا يمكن تثنية أحديته بوجه من الوجوه ، كما قال في آخر السورة : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدْ ﴾ [6] .

استعملها هنا في النفي ، أي ليس شيء من الأشياء كفواً له في شيء من الأشياء ؛ لأنه أحد .

---

(١) سورة الحاقة آية رقم ٤٧ .

(٢) سورة الأحزاب آية رقم ٣٢ .

(٣) سورة التوبة آية رقم ٦ .

(٤) سورة الكهف آية رقم ١٩ .

(٥) سورة الكهف آية رقم ٣٢ وقد جاءت الآية محرفة في المطبوعة حيث ذكرت (وجعلنا) بزيادة (الواو) .

(٦) سورة الاخلاص آية رقم ٤ .

وقال رجل للنبي ﷺ : أنت سيدنا فقال « السيد الله » [١] .

ودل قوله ﴿ **الأحد** ﴾ ﴿ **الصمد** ﴾ على أنه لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ؛ فإن الصمد هو الذي لا جوف له ولا أحشاء ، فلا يدخل فيه شيء ، فلا يأكل ولا يشرب سبحانه وتعالى كما قال ﴿ **قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ** ﴾ [٢] .

وفي قراءة الأعمش وغيره « ولا يطعم » بالفتح .

وقال تعالى ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِن رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِينُ** ﴾ [٣] .

ومن مخلوقاته الملائكة وهم صمد لا يأكلون ولا يشربون فالخالق لهم جل جلاله أحق بكل غنى وكمال جعله لبعض مخلوقاته ، فلهذا فسر بعض السلف الصمد بأنه الذي لا يأكل ولا يشرب ، والصمد : المصمد الذي لا جوف له ، فلا يخرج منه عين من الأعيان ، فلا يلد .

ولذلك قال من قال من السلف : هو الذي لا يخرج منه شيء ليس مرادهم أنه لا يتكلم ، وإن كان يقال في الكلام : إنه خرج منه كما قال في الحديث : ما تقرب العباد إلى الله بشيء أفضل مما خرج منه » [٤] .

---

(١) الحديث رواه أبو داود في كتاب الأدب باب في كراهية التمادح ٤٨٠٦ ـ حدثنا مسدد ، ثنا بشر ـ يعني ابن المفضل ـ ثنا أبو مسلمة سعيد بن يزيد ، عن أبي نضرة ، عن مطرف . قال : قال أبي : انطلقت في وفد بني عامر الى رسول الله ـ ﷺ ـ فقلنا وذكره . ورواه الامام أحمد في المسند ٤ : ٢٤ ، ٢٥ ، ٦ : ١٤٢ (حلبي) .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٤ وقد جاءت الآية محرفة في الأصل حيث قال (أفغير) بدلاً من (قل أغير)

(٣) سورة الذاريات الآيات ٥٦ ـ ٥٨ .

(٤) الحديث رواه الامام الترمذي في ثواب القرآن ١٧ ، ورواه الامام أحمد بن حنبل في المسند ٥ : ٢٦٨ ، ٦ : ٢٥٦ (حلبي)

يعني : القرآن .

وقال أبو بكر الصديق لما سمع قرآن مسيلمة : إن هذا لم يخرج من إل .

فخروج الكلام من المتكلم هو بمعنى أنه يتكلم به فيسمع منه ، ويبلغ إلى غيره ، ليس بمخلوق في غيره ، كما يقول الجهمية ، ليس بمعنى أن شيئاً من الأشياء القائمة به يفارقه ، وينتقل عنه إلى غيره ، فإن هذا ممتنع في صفات المخلوقين . أن تفارق الصفة محلها ، وتنتقل إلى غير محلها ، فكيف بصفات الخالق جل جلاله .

وقد قال تعالى في كلام المخلوقين ﴿ **كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً** ﴾ (١) .

وتلك الكلمة هي قائمة بالمتكلم ، وسمعت منه ليس خروجها من فيه، أن ما قام بذاته من الكلام فارق ذاته ، وانتقل إلى غيره ، فخروج كل شيء بحسبه ، ومن شأن العلم والكلام إذا استفيد من العالم والمتكلم أن لا ينقص من محله . ولهذا شبه بالنور الذي يقتبس منه كل أحد الضوء وهو باق على حاله لم ينقص ، فقول من قال من السلف الصمد هو الذي لم يخرج منه شيء كلام صحيح بمعنى أنه لا يفارقه شيء منه .

ولهذا امتنع عليه أن يلد وأن يولد ، وذلك أن الولادة والتولد وكل ما يكون من هذه الألفاظ لا يكون إلا من أصلين ، وما كان من المتولد عينا قائمة بنفسها فلا بد لها من مادة تخرج منها ، وما كان عرضاً قائماً بغيره فلا بد له من محل يقوم به ، فالأول نفاه بقوله ﴿ **أحد** ﴾ فإن الأحد هو الذي لا كفء له ولا نظير ، فيمتنع أن تكون له صاحبة ، والتولد إنما يكون بين شيئين قال تعالى ﴿ **أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ (٢) .

---

(١) سورة الكهف آية رقم ٥ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٠١ .

فنفى سبحانه الولد بامتناع لازمه عليه ، فإن انتفاء اللازم يدل على انتفاء الملزوم . وبأنه خالق كل شيء ، وكل ما سواه مخلوق له ، ليس فيه شيء مولود له .

الثاني : نفاه بكونه سبحانه الصمد ، وهذا المتولد من أصلين يكون بجزئين ينفصلان من الأصلين كتولد الحيوان من أبيه وأمه بالمني الذي ينفصل من أبيه وأمه ، فهذا المتولد يفتقر إلى أصل آخر وإلى أن يخرج منهما شيء ، وكل ذلك ممتنع في حق الله تعالى ، فإنه أحد فليس له كفء يكون صاحبة ونظيراً ، وهو صمد لا يخرج منه شيء ، فكل واحد من كونه أحداً ، ومن كونه صمداً يمنع أن يكون والداً ، ويمنع أن يكون مولوداً ، بطريق الأولى والأخرى .

وكما أن التوالد في الحيوان لا يكون إلا من أصلين - سواء كان الأصلان من جنس الولد ، وهو الحيوان المتوالد ، أو من غير جنسه وهو المتولد -

فكذلك في غير الحيوان كالنار المتولدة من الزندين سواء كانا خشبتين ، أو كانا حجراً وحديداً ، أو غير ذلك ، قال الله تعالى : ﴿ **فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً** ﴾ (1) .

وقال تعالى ﴿ **أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ . نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ** ﴾ (2) .

وقال تعالى ﴿ **وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وهي رَمِيْمٌ قُلْ يُحْيِيْهَا الَّذِي أَنشأَها أَوَّل مَرَّةٍ وهو بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيْمٌ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذا أَنْتُم مِنْهُ تُوْقِدُوْنَ** ﴾ (3) قال غير واحد من المفسرين : هما شجرتان ، يقال لإحداهما : المرخ ، والأخرى : العفار فمن أراد

---

(1) سورة العاديات آية رقم ٢ .

(2) سورة الواقعة آية رقم ٧١ - ٧٣ .

(3) سورة يس آية رقم ٧٨ - ٨٠ .

منها النار قطع منها غصنين مثل السواكين ، وهما خضراوان يقطر منهما الماء فيسحق المرخ - وهو ذكر - على العفار - وهو أنثى - فتخرج منهما النار بإذن الله تعالى وتقول العرب في كل شجر نار ، واستمجد المرخ والعفار .

وقال بعض الناس : في كل شجرة نار الا العناب ﴿ **فإذا أنتم منه توقدون** ﴾ فذلك زنادهم .

وقد قال أهل اللغة، الجوهري وغيره: الزند العود الذي يقدح به النار ، وهو الأعلى ، والزندة السفلى فيها ثقب ، وهي الأنثى ، فإذا اجتمعا قيل : زندان .

وقال أهل الخبرة بهذا : إنهم يسحقون الثقب الذي في الأنثى بالأعلى ، كما يفعل ذكر الحيوان في أنثاه فبذلك السحق والحك يخرج منهما أجزاء ناعمة تنقدح منها النار ، فتتولد النار من مادة الذكر والأنثى كما يتولد الولد من مادة الرجل والمرأة ، وسحق الأنثى بالذكر وقدحها به يقتضي حرارة كل منهما ويتحلل من كل منهما مادة تنقدح منها النار ، كما أن إيلاج ذكر الحيوان في أنثاه بقدح وحك فرجها بفرجه ، فتقوى حرارة كل منها ، ويتحلل من كل منهما مادة تمتزج بالأخرى ، ويتولد منهما الولد ، ويقال : علقت النار في المحل الذي يقدح عليه، الذي هو كالرحم للولد ، وهو الحراق والصوفان ، ونحو ذلك مما يكون أسرع قبولاً للنار من غيره ، كما علقت المرأة من الرجل ، وقد لا تعلق النار كما قد لا تعلق المرأة ، وقد لا تنقدح نار كما لا ينزل مني ، والنار ليست من جنس الزنادين ، بل تولد النار منهما كتولد حيوان من الماء والطين ، فإن الحيوان نوعان متوالد كالإنسان وبهيمة الأنعام ، وغير ذلك مما يخلق من أبوين ، ومتولد كالذي يتولد من الفاكهة والخل ، وكالقمل الذي يتولد من وسخ جلد الإنسان ، وكالفأر والبراغيث وغير ذلك مما يخلق من الماء والتراب .

وقد تنازع الناس فيما يخلقه الله من الحيوان والنبات والمعدن والمطر والنار التي تورى بالزناد وغير ذلك ، هل تحدث أعيان هذه الأجسام فيقلب هذا الجنس إلى جنس آخر ، كما يقلب المني علقة ، ثم مضغة أو لا تحدث إلا أعراض ، وأما الأعيان التي هي الجواهر فهي باقية بغير صفاتها بما يحدثه فيها من الأكوان الأربعة : الاجتماع والافتراق والحركة والسكون ؟ على قولين :

فالقائلون بأن الأجسام مركبة من الجواهر المنفردة التي لا تقبل التجزي ، كما يقوله كثير من أهل الكلام وإما من جواهر لا نهاية لها كما يحكى عن النظام . فالقائلون بأن الأجسام مركبة من الجواهر يقولون : إن الله لا يحدث شيئاً قائماً بنفسه ، وإنما يحدث الأعراض التي هي الاجتماع والافتراق ، والحركة والسكون ، وغير ذلك من الأعراض .

ثم من قال منهم بأن الجواهر محدثة قال : إن الله أحدثها ابتداء ، ثم جميع ما يحدثه إنما هو إحداث إعراض فيها لا يحدث الله بعد ذلك جواهر . وهذا قول أكثر المعتزلة والجهمية والأشعرية ونحوهم ، ومن أكابر هؤلاء من يظن أن هذا مذهب المسلمين ، ويذكر إجماع المسلمين عليه . وهو قول لم يقل به أحد من سلف الأمة ، ولا جمهور الأمة ، بل جمهور الأمة حتى من طوائف أهل الكلام ينكرون الجوهر الفرد ، وتركب الأجسام من الجواهر وابن كلاب إمام أتباعه هو ممن ينكر الجوهر الفرد وقد ذكر ذلك أبو بكر بن فورك [1] في مصنفه الذي صنفه في مقالات ابن كلاب ، وما بينه وبين الأشعري من الخلاف ، وهكذا نفى الجوهر الفرد قول الهشامية [2] والضرارية [3] ، وكثير من

---

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية . وراجع طبقات السبكي الكبرى ٣ : ٥٢ - ٥٦ ، والنجوم الزاهرة ٤ : ٢٤٠ وفيات الأعيان ١ : ٤٨٢ .

(٢) راجع في شأن هذه الفرقة التبصير ص ٥٣ وقد أدمجها الشهرستاني في الملل والنحل : ١ / ٧٨ مع الجبائية لكون أبي هاشم صاحب هذه الفرقة ابن أبي علي صاحب الجبائية . =

الكرامية (١) والبخارية (٢) أيضاً .

وهؤلاء القائلون بأن الأجسام مركبة من الجواهر المفردة : المشهور عنهم ؛ بأن الجواهر متماثلة ، بل ويقولون أو أكثرهم : أن الأجسام متماثلة ؛ لأنها مركبة من الجواهر المتماثلة ، وإنما اختلفت باختلاف الأعراض وتلك صفات عارضة لها ليست لازمة ، فلا تنفي التماثل ، فإن حد المثلين أن يجوز على أحدهما ما يجوز على الآخر ، ويجب له ما يجب له ، ويمتنع عليه ما يمتنع عليه .

وهم يقولون : إن الجواهر متماثلة ، فيجوز على كل واحد ما جاز على الآخر ، ويجب له ما يجب له ويمتنع عليه ما يمتنع عليه .

وكذلك الأجسام المؤلفة من الجواهر ، ولهذا إذا أثبتوا حكماً لجسم قالوا : هذا ثابت لجميع الأجسام بناء على التماثل ، وأكثر العقلاء ينكرون هذا وحذاقهم قد أبطلوا الحجج التي احتجوا بها على التماثل ، كما ذكر ذلك الرازي(٣) والآمدي (٤) وغيرهما وقد بسط الكلام على هذا في مواضع .

والأشعري في « كتاب الإبانة » جعل القول بتماثل الأجسام من أقوال المعتزلة التي أنكرها .

وهؤلاء يقولون : إن الله يخص أحد الجسمين المتماثلين بأعراض دون

هم أتباع ضرار بن عمر وانظر في شأنها التبصير ص ٦٢ ـ والتنبيه ص ٤٣ ، واعتقادات فرق المسلمين ص ٦٩ ، والملل والنحل ١ : ٩٠ والمقالات ١ : ٣١٣ .

(١) رئيسهم أبو عبد الله محمد بن كرام السجستاني ، وراجع في شأن هذه الفرقة : التبصير ص ٦٥ ، والملل والنحل ١ : ١٠٨ والسفاريني ١ : ٩١ .

(٢) رئيسهم الحسين بن محمد النجار وراجع في شأن هذه الفرقة مقالات الاسلاميين ١ : ٣١٥ ، والملل والنحل ١ : ٨٨ والتبصير ٦١ .

(٣) سبق الترجمة له في كلمة وافية.

(٤) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

الآخر بمجرد المشيئة ، على أصل الجهمية ، أو لمعنى آخر كما تقوله القدرية ، ويقولون يمتنع انقلاب الأجناس ، فلا ينقلب الجسم عرضاً ولا جنس من الأعراض إلى جنس آخر .

فلو قالوا : إن الأجسام مخلوقة ، وإن المخلوق ينقلب من جنس إلى جنس آخر ، لزم انقلاب الأجناس فهؤلاء يقولون : إن التولد الحاصل من الرحم ، والثمر الحاصل من الشجر ، والنار الحاصلة من الزناد هي جواهر كانت في المادة التي خلق ذلك منها .

وهي باقية ؛ لكن غيرت صفتها بالاجتماع والافتراق والحركة والسكون .

ولهذا لما ذكر أبو عبد الله [1] الرازي أدلة « إثبات الصانع » ذكر أربعة طرق :

إمكان الذوات وحدوثها ، وإمكان الصفات وحدوثها والطرق الثلاثة الأولى ضعيفة ، بل باطلة ، فإن الذوات التي ادعوا حدوثها ، أو إمكانها ، أو إمكان صفاتها ، ذكروها بألفاظ مجملة لا يتميز فيها الخالق عن المخلوق ، ولم يقيموا على ما ادعوه دليلاً صحيحاً وأما الطريق الرابع وهو الحدوث لما يعلم حدوثه فهو طريق صحيح ، وهو طريق القرآن لكن قصروا فيه غاية التقصير ؛ فإنهم على أصلهم لم يشهدوا حدوث شيء من الذوات ، بل حدوث الصفات ، وطريقة القرآن تبين أن كل ما سوى الله مخلوق ، وأنه آية لله وقد بسط الكلام على ما في القرآن من البراهين والآيات التي لم يصل إليها هؤلاء المتكلمة

(١) هو محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين البكري ، أبو عبد الله ، فخر الدين الرازي توفي عام ٦٠٦ هـ [راجع طبقات الأطباء ٢ : ٢٣ والوفيات ١ : ٤٧٤ ومفتاح السعادة ١ : ٤٤٥ ـ ٤٥١ ولسان الميزان ٤ : ٤٢٦ والبداية والنهاية ١٣ : ٥٥] .

والمتفلسفة وإن كل ما عندهم من حق فهو جزء مما دل عليه القرآن في غير موضع .

والمقصود هنا أن هؤلاء لما كان هذا أصلهم في ابتداء الخلق وهو القول بإثبات الجوهر [1] الفرد ـ كان أصلهم في المعاد مبنياً عليه فصاروا على قولين :

منهم من يقول : تعدم الجواهر ثم تعاد .

ومنهم من قال : تتفرق الأجزاء ثم تجتمع فأورد عليهم الإنسان الذي يأكله حيوان ، وذلك الحيوان أكله إنسان آخر ، فإن أعيدت تلك الأجزاء من هذا لم تعد من هذا .

وأورد عليهم أن الإنسان يتحلل دائماً فما الذي يعاد ؟ أهو الذي كان وقت الموت؟

فإن قيل بذلك ، لزم أن يعاد على صورة ضعيفة وهو خلاف ما جاءت به النصوص ، وإن كان غير ذلك ، فليس بعض الأبدان بأولى من بعض فادعى بعضهم أن في الإنسان أجزاء أصلية لا تتحلل ، ولا يكون فيها شيء من ذلك الحيوان الذي أكله الثاني ، والعقلاء يعلمون أن بدن الإنسان نفسه كله يتحلل ، ليس فيه شيء باق فصار ما ذكروه في المعاد مما قوى شبهة المتفلسفة في إنكار معاد الأبدان ، وأوجب أن صار طائفة من النظار إلى أن الله يخلق بدناً آخر تعود الروح إليه . والمقصود تنعيم الروح وتعذيبها سواء كان هذا في البدن أو في غيره ، وهذا أيضاً مخالف للنصوص الصريحة بإعادة هذا البدن .

وهذا المذكور في كتب الرازي .

---

(١) سبق الحديث عنه في كلمة وافية في الأجزاء السابقة فليرجع إليها .

فليس في كتبه ، وكتب أمثاله في مسائل أصول الدين الكبار القول الصحيح الذي يوافق المنقول والمعقول ، الذي بعث الله به الرسول ، وكان عليه سلف الأمة وأئمتها ، بل يذكر بحوث المتفلسفة والملاحدة ، وبحوث المتكلمين المبتدعة الذين بنوا على أصول الجهمية والقدرية في مسائل الخلق ، والبعث ، والمبدأ ، والمعاد ، وكلا الطريقين فاسد ، إذ بنوه على مقدمات فاسدة ، والقول الذي عليه السلف وجمهور العقلاء من أن الأجسام تنقلب من حال إلى حال إنما يذكره عن الفلاسفة والأطباء ، وهذا القول ـ وهو القول في خلق الله للأجسام التي يشاهد حدوثها أنه يقلبها ويحيلها من جسم إلى جسم ـ هو الذي عليه السلف والفقهاء قاطبة والجمهور ولهذا يقول الفقهاء في النجاسة ؛ هل تطهر بالاستحالة أم لا ؟

كما تستحيل العذرة رماداً، والخنزير وغيره ملحاً ونحو ذلك ، والمني الذي في الرحم يقلبه الله علقة ثم مضغة ، وكذلك الثمر يخلق بقلب المادة التي يخرجها من الشجرة من الرطوبة مع الهواء والماء الذي نزل عليها وغير ذلك من المواد التي يقلبها ثمرة بمشيئته وقدرته ، وكذلك الحبة يفلقها ، وتنقلب المواد التي يخلقها منها سنبلة وشجرة وغير ذلك ، وهكذا خلقه لما يخلقه سبحانه وتعالى . كما خلق آدم من الطين ، فقلب حقيقة الطين فجعلها عظماً ولحماً وغير ذلك من أجزاء البدن ، وكذلك المضغة يقلبها عظاماً ، وغير عظام .

قال الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً ، فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَاماً ، فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الخَالِقِينَ ، ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ، ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ (١) .

---

(١) سورة المؤمنون آية رقم ١٢ ـ ١٦ .

وكذلك النار يخلقها بقلب بعض أجزاء الزناد ناراً كما قال تعالى ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً ﴾ (1) .

فنفس تلك الأجزاء التي خرجت من الشجر الأخضر جعلها الله ناراً من غير أن يكون كان في الشجر الأخضر نار أصلاً ، كما لم يكن في الشجرة ثمرة أصلاً ، ولا كان في بطن المرأة جنين أصلاً ، بل خلق هذا الموجود من مادة غيره بقلبه تلك المادة إلى هذا ، وبما ضمه إلى هذا من مواد أخر ، وكذلك الإعادة بعيدة بعد أن يبلى كله إلا عجب الذنب ، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: « كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب، منه خلق ابن آدم ، ومنه يركب » (2) .

وهو إذا أعاد الإنسان في النشأة الثانية لم تكن تلك النشأة مماثلة لهذه ، فإن هذه كائنة فاسدة وتلك كائنة لا فاسدة ، بل باقية دائمة ، وليس لأهل الجنة فضلات فاسدة تخرج منهم ، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال « أهل الجنة لا يبولون ولا يتغوطون ولا يبصقون ولا يتمخطون ، وإنما هو رشح كرشح المسك » (3) .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « يحشر الناس حفاة عراة غرلاً ثم قرأ ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ (4) فهم يعودون غلفا لا مختونين » .

وقال الحسن البصري (5) ومجاهد : كما بدأكم، فخلقكم في الدنيا ولم

---

(1) سورة يس آية رقم ٨٠ .

(2) الحديث رواه صاحب الموطأ في كتاب الجنائز ١٦ باب جامع الجنائز ٤٨ - وحدثني عن مالك ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج عن أبي هريرة - أن رسول الله - ﷺ - قال : وذكره . [وأخرجه الامام مسلم في ٥٢ - كتاب الفتن ٢٧ باب ما بين النفختين حديث ١٤٢] .

(3) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الجنة ١٨ ، ١٩ ، والدارمي في الرقاق ١٠٤ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٣١٦ ، ٣٤٩ ، ٣٥٤ ، ٣٦٤ ، ٣٨٤ (حلبي) .

(4) سورة الأنبياء آية رقم ١٠٤ .

(5) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

تكونوا شيئاً ، كذلك تعودون يوم القيامة أحياء . وقال قتادة : بدأهم من التراب ، وإلى التراب يعودون .

كما قال تعالى ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ (١) .

وقال ﴿ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ (٢) وهو قد شبه سبحانه إعادة الناس في النشأة الأخرى بإحياء الأرض بعد موتها في غير موضع .

كقوله ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٣) .

وقال : ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ إلى قوله ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ (٤) وقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُطْفَةٍ ثُمَّ مِن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ، لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ، وَمِنْكُم مَن يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُم مَن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً ، وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ ، وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ ، وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٥) .

وقال تعالى ﴿ واللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ﴾ (٦) .

---

(١) سورة طه آية رقم ٥٥ .
(٢) سورة الأعراف آية رقم ٢٥ .
(٣) سورة الأعراف آية رقم ٥٧ .
(٤) سورة ق الآيات من ٧ - ١١ .
(٥) سورة الحج آية رقم ٥ - ٦ .
(٦) سورة فاطر آية رقم ٩ .

وهو سبحانه مع إخباره أنه يعيد الخلق ، وأنه يحيي العظام وهي رميم ، وأنه يخرج الناس من الأرض تارة أخرى ، هو يخبر أن المعاد هو المبدأ كقوله تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ (١) ويخبر أن الثاني مثل الأول كقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ، أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ (٢) .

وقال تعالى ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ، قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيباً ، يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً (٣) ﴾ وقال تعالى ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ المَوْتَىٰ ، بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٤) .

وقال ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَا تُمْنُونَ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخَالِقُونَ . نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ المَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ . عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ . وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَىٰ فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٥) .

والمراد بقدرته على خلق مثلهم هو قدرته على إعادتهم ، كما أخبر بذلك في قوله ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ المَوْتَىٰ ﴾ (٦) .

---

(١) سورة الروم اية رقم ٢٧ وقد جاءت في الأصل بدون (الواو)
(٢) سورة الاسراء آية رقم ٩٨ - ٩٩ .
(٣) سورة الاسراء آية رقم ٤٩ - ٥٢ .
(٤) سورة الأحقاف آية رقم ٣٣ .
(٥) سورة الواقعة آية رقم ٥٨ - ٦٢ .
(٦) سورة الأحقاف آية رقم ٣٣ .

فإن القوم ما كانوا ينازعون في أنّ الله يخلق في هذه الدار ناساً أمثالهم ، فإن هذا هو الواقع المشاهد يخلق قرناً بعد قرن ، يخلق الولد من الوالدين ، وهذه هي النشأة الأولى وقد علموها ، وبها احتج عليهم على قدرته على النشأة الآخرة كما قال ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (١) .

وقال ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (٢) .

وقال ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ البَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ، ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ (٣) .

ولهذا قال ﴿ عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ . وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَىٰ ﴾ (٤) أي : أخلقكم للبعث بعد الموت من حيث لا تعلمون كيف شئت، وذلك أنكم علمتم النشأة الأولى كيف كانت في بطون الأمهات ، وليست الأخرى كذلك ، ومعلوم أن النشأة الأولى كان الإنسان نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة مخلقة ، ثم ينفخ فيه الروح ، وتلك النطفة من مني الرجل والمرأة ، وهو يغذيه بدم الطمث الذي يربي الله به الجنين في ظلمات ثلاث : ظلمة المشيمة ، وظلمة الرحم ، وظلمة البطن .

والنشأة الثانية لا يكونون في بطن امرأة ولا يغذون بدم ، ولا يكون أحدهم نطفة رجل وامرأة ، ثم يصير علقة ، بل ينشأون نشأة أخرى ، وتكون المادة من التراب ، كما قال : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ (٥) وقال تعالى ﴿ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ (٦) .

---

(١) سورة الواقعة آية رقم ٦٢ .
(٢) سورة يس آية رقم ٧٨ - ٧٩ .
(٣) سورة الحج آية رقم ٥ .
(٤) سورة الواقعة آية رقم ٦١ - ٦٢ .
(٥) سورة طه آية رقم ٥٥ .
(٦) سورة الأعراف آية رقم ٢٥ .

وقال ﴿ وَاللهُ أَنْبَتَكُم مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً ، ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً ﴾ [1] .

وفي الحديث: «إن الأرض تمطر مطراً كمَني الرجال ينبتون في القبور ، كما ينبت النبات » [2] .

كما قال تعالى ﴿ كَذَلِكَ الخُرُوجُ ﴾ [3] ﴿ كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ [4] ﴿ كَذَلِكَ نُخْرِجُ المَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [5] .

فعلم أن النشأتين نوعان تحت جنس يتفقان ويتماثلان ويتشابهان من وجه ، ويفترقان ويتنوعان من وجه آخر ، ولهذا جعل المعاد هو المبدأ ، وجعل مثله أيضاً .

فباعتبار اتفاق المبدأ والمعاد فهو هو ، وباعتبار ما بين النشأتين من الفرق فهو مثله .

وهكذا كل ما أعيد .

فلفظ الإعادة يقتضي المبدأ والمعاد ، سواء في ذلك إعادة الأجسام والأعراض كإعادة الصلاة وغيرها فإن النبي ﷺ مرَّ برجل يصلي خلف الصف وحده فأمره أن يعيد الصلاة ، ويقال للرجل : أعد كلامك ، وفلان قد أعاد كلام فلان بعينه ، ويعيد الدرس .

فالكلام هو الكلام ، وإن كان صوت الثاني غير صوت الأول وحركته ، ولا يطلق القول عليه أنه مثله ، بل قد قال تعالى ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ [6] .

---

(1) سورة نوح آية رقم ١٧ ـ ١٨ .
(2) سبق تخريج هذا الحديث .
(3) سورة ق آية رقم ١١ .
(4) سورة فاطر آية رقم ٩ .
(5) سورة الأعراف آية رقم ٥٧ .
(6) سورة الإسراء آية رقم ٨٨ .

وكان رسول الله ﷺ إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً وإن كان يسمي مثلاً مقيداً حتى يقال لمن حكى كلام غيره هكذا قال فلان ، أي مثل هذا قال ، ويقال : فعل هذا عوداً على بدء ، إذا فعله مرة ثانية بعد أولى ومنه البئر البري ، والبئر العادي ، فالبري التي ابتدئت والعادي التي أعيدت ، وليست بنسبة إلى عاد كما قيل .

ويقال : استعدته الشيء فأعاده ، إذا سألته أن يفعله مرة ثانية ، ومنه سميت العادة ، يقال : عاده واعتاده ، وتعوده أي صار عادة له : وعود كلبه الصيد فتعوده ، وهو من المعاودة والمعاودة الرجوع إلى الأمر الأول ، ويقال : الشجاع معاود ؛ لأنه لا يمل المراس .

وعاودته الحمى ، وعاوده بالمسألة أي سأله مرة بعد مرة وتعاود القوم في الحرب وغيرها إذا عاد كل فريق إلى صاحبه ، والعواد بالضم ما أعيد من الطعام بعدما أكل منه مرة أخرى ، وعواد بمعنى عد مثل نزال بمعنى أنزل ففي جميع هذه المواضع يستعمل لفظ الإعادة باعتبار الحقيقة ، فإن الحقيقة الموجودة في المرة الثانية هي الأولى ، وإن تعدد الشخص .

ولهذا يقال : هو مثله ، ويقال : هذا هو هذا وكلاهما صحيح ، وأعني بالحقيقة الأمر الذي يختص بذلك الشخص ، ليس المراد القدر المشترك بين الفاعلين ، فإن من فعل مثل فعل غيره لا يقال أعاده ، وإنما يقال حاكاه وشابهه ، بخلاف ما إذا أعاد فعلاً ثانياً مثل ما فعل أولاً ، فإنه يقال : أعاد فعله ، وكذلك يقال لمن أعاد كلام غيره : قد أعاده ، ولا يقال لمن أنشأ مثله : قد أعاده . ويقال : قرىء على هذا ، وأعاد على هذا . وهذا يقرأ أي يدرس ، وهذا يعيد ، ولو كان كلاماً آخر مما يماثله لم يقل فيه يعيد ، وكذلك من كسر خاتماً أو غيره من المصوغ يقال : أعده كما كان ، ويقال لمن هدم داراً أعدها كما

كانت بخلاف من أنشأ أخرى مثلها ، فإن هذا لا يسمى معيداً ، والمعاد يقال فيه : هذا هو الأول بعينه ويقال : هذا مثل الأول من كل وجه ، ونحو ذلك من العبارات الدالة على أنه هو هو من وجه وهو مثله من وجه وبهذا تزول الشبهات الواردة على هذا الموضع كقول من قال: الإعادة لا تكون إلا مع إعادة ذلك الزمان ، ونحو ذلك مما يمنع إعادته في صريح العقل وإنما يعاد بالإتيان بمثله ، وإن قال بعض المتكلمين أنه لا مغايرة أصلاً بوجه من الوجوه .

والإعادة التي أخبر الله بها هي الاعادة المعقولة في هذا الخطاب وهي الإعادة التي فهمها المشركون والمسلمون عن رسول الله ﷺ ، وهي التي يدل عليها لفظ الإعادة ، والمعاد هو الأول بعينه ، وإن كان بين لوازم الإعادة ، ولوازم البدأة فرق ، فذلك الفرق لا يمنع أن يكون قد أعيد الأول ليس الجسد الثاني مبايناً للأول من كل وجه ، كما زعم بعضهم ، ولا أن النشأة الثانية كالأولى من كل وجه ، كما ظن بعضهم ، وكما أنه سبحانه خلق الإنسان ، ولم يكن شيئاً ، كذلك يعيده بعد أن لم يكن شيئاً ، وعلى هذا فالإنسان الذي صار تراباً ونبت من ذلك التراب نبات آخر أكله إنسان آخر ، وهلم جرا ، والإنسان الذي أكله إنسان أو حيوان ، وأكل ذلك الحيوان إنساناً آخر ، ففي هذا كله قد عدم هذا الإنسان وهذا الإنسان وصار كل منهما تراباً ، كما كان قبل أن يخلق ، ثم يعاد هذا ويعاد هذا من التراب ، وإنما يبقى عجب الذنب منه خلق ، ومنه يركب .

وأما سائره فعدم ، فيعاد من المادة التي استحال إليها ، فإذا استحال في القبر الواحد ألف ميت ، وصاروا كلهم تراباً ، فإنهم يعادون ويقومون من ذلك القبر ، وينشئهم الله تعالى بعد أن كانوا عدماً محضاً كما أنشأهم أولاً بعد أن كانوا عدماً محضاً ، وإذا صار ألف إنسان تراباً في قبر أنشأ هؤلاء من ذلك القبر

من غير أن يحتاج أن يخلقهم كما خلقهم في النشأة الأولى التي خلقهم منها من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة وجعل نشأتهم بما يستحيل إلى أبدانهم من الطعام والشراب ، كما يستحيل إلى بدن أحدهم ما يأكله من نبات وحيوان ، وكذلك لو أكل إنساناً ، أو أكل حيواناً قد أكل إنساناً : فالنشأة الثانية لا يخلقهم فيها بمثل هذه الاستحالة ، بل يعيد الأجساد من غير أن ينقلهم من نطفة إلى علقة إلى مضغة ، ومن غير أن يغذوها بدم الطمث ، ومن غير أن يغذوها بلبن الأم وبسائر ما يأكله من الطعام والشراب ، فمن ظن أن الإعادة تحتاج إلى إعادة الأغذية التي استحالت إلى أبدانهم فقد غلط .

وحينئذ فإذا أكل إنسان إنساناً فإنما صار غذاء له كسائر الأغذية وهو لا يحتاج إلى إعادة الأغذية ومعلوم أن الغذاء ينزل إلى المعدة طعاماً وشراباً ثم يصير كلوساً كالثردة ثم كيموساً كالحريرة ، ثم ينطبخ دماً فيقسمه الله تعالى في البدن كله ، ويأخذ كل جزء من البدن نصيبه ، فيستحيل الدم إلى شبيه ذلك الجزء العظم عظماً ، واللحم لحماً ، والعرق عرقاً ، وهذا في الرزق كاستحالتهم في مبدأ الخلق نطفة ثم علقة ثم مضغة ، وكما أنه سبحانه لا يحتاج في الإعادة إلى أن يحيل أحدهم نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة فكذلك أغذيتهم لا يحتاج أن يجعلها خبزاً وفاكهة ولحماً ثم يجعلها كلوساً وكيموساً ، ثم دماً ، ثم عظماً ولحماً وعروقاً ، بل يعيد هذا البدن على صفة أخرى لنشأة ثانية ليست مثل هذه النشأة ، كما قال ﴿ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [1] .

ولا يحتاج مع ذلك إلى شيء من هذه الاستحالات التي كانت في النشأة الأولى .

---

(١) سورة الواقعة آية رقم ٦١ .

وبهذا يظهر الجواب عن قوله البدن دائماً في التحلل فإن تحلل البدن ليس بأعجب من انقلاب النطفة علقة والعلقة مضغة ، وحقيقة كل منهما خلاف حقيقة الأخرى .

وأما البدن المتحلل فالأجزاء الثانية تشابه الأولى وتماثلها ، وإذا كان في الإعادة لا يحتاج إلى انقلابه من حقيقة إلى حقيقة فكيف بانقلابه بسبب التحلل ؟!

ومعلوم أن من رأى شخصاً وهو شاب ثم رآه وهو شيخ علم أن هذا هو ذاك مع هذه الاستحالة وكذلك سائر الحيوان والنبات ، كمن غاب عن شجرة مدة ثم جاء فوجدها علم أن هذه هي الأولى مع أن التحلل والاستحالة ثابت في سائر الحيوان والنبات ، كما هو في بدن الإنسان ، ولا يحتاج عاقل في اعتقاده أن هذه الشجرة هي الأولى ، وأن هذه الفرس هي التي كانت عنده من سنين ، ولا أن هذا الإنسان هو الذي رآه من عشرين سنة إلى أن يقدر بقاء أجزاء أصلية لم تتحلل ، ولا يخطر هذا ببال أحد ، ولا يقتصر العقلاء في قولهم هذا هو ذاك على تلك الأجزاء التي لا تعرف ولا تتميز عن غيرها ، بل إنما يشيرون إلى جملة الشجرة والفرس والإنسان ، مع أنه قد يكون كان صغيراً فكبر ، ولا يقال : إنما كان هو ذاك باعتبار أن النفس الناطقة واحدة ، كما زعمه من ادعى أن البدن الثاني ليس هو ذاك الأول ، ولكن المقصود جزاء النفس بنعيم أو عذاب ، ففي أي بدن كانت حصل المقصود ، فإن هذا أيضاً باطل مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف ، مخالف للمعقول من الإعادة .

فإنا قد ذكرنا أن العقلاء كلهم يقولون: هذا الفرس هو ذاك وهذه الشجرة هي تلك التي كانت من سنين ، مع علم العقلاء أن النبات ليس له نفس ناطقة تفارقه وتقوم بذاتها ، وكذلك يقولون مثل هذا في الحيوان ، وفي

الإنسان ، مع أنه لم يخطر بقلوبهم أن المشار إليه بهذا وذاك نفس مفارقة بل قد لا يخطر هذا بقلوبهم ، فدل على أن العقلاء كانوا يعلمون أن هذا البدن هو ذاك ، مع وجود الاستحالة ، وعلم بذلك أن ما ذكر من الاستحالة لا ينافي أن يكون البدن الذي يعاد في النشأة الثانية هو هذا البدن ، ولهذا يشهد البدن المعاد بما عمل في الدنيا ، كما قال تعالى﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (١)

وقال تعالى ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (٢) ومعلوم أن الإنسان لو قال قولاً ، أو فعل فعلاً أو رأى غيره بفعل ، أو سمعه يقول ، ثم بعد ثلاثين سنة شهد على نفسه بما قال أو فعل ، وهو الإقرار الذي يؤاخذ بموجبه ، أو شهد على غيره بما قبضه من الأموال ، وأقر به من الحقوق ، لكانت الشهادة على عين ذلك المشهود عليه مقبولة ، مع استحالة بدمه في هذه المدة الطويلة ، ولا يقول عاقل من العقلاء : إن هذه الشهادة على مثله أو على غيره ، ولو قدر أن المعين حيوان أو نبات ، وشهد أن هذا الحيوان قبضه هذا من هذا ، وأن هذا الشجر سلمه هذا إلى هذا كان كلاماً معقولاً مع الاستحالة ، وإذا كانت الاستحالة غير مؤثرة ، فقول القائل يعيده على صفة ما كان وقت موته أو سمنه أو هزاله أو غير ذلك جهل منه ، فإن صفة تلك النشأة الثانية ليست مماثلة لصفة هذه النشأة حتى يقال : إن الصفات هي المغيرة ؛ اذ ليس هناك استحالة ، ولا استفراغ ، ولا امتلاء ولا سمن ، ولا هزال ، ولا سيما أهل الجنة إذا دخلوها فإنهم يدخلونها على صورة أبيهم آدم ، طول أحدهم ستون ذراعاً ، كما ثبت في الصحيحين (٣) وغيرهما . وروى أن

---

(١) سورة يس آية رقم ٦٥ .

(٢) سورة فصلت آية رقم ٢٠ - ٢١ .

(٣) سبق تخريج هذا الحديث .

عرضه سبعة أذرع ، وهم لا يبولون ولا يتغوطون ، ولا يبصقون ، ولا يتمخطون . وليست تلك النشأة من أخلاط متضادة حتى يستلزم مفارقة بعضها بعضاً ، كما في هذه النشأة ، ولا طعامهم مستحيلاً ، ولا شرابهم مستحيلاً من التراب والماء والهواء ، كما هي أطعماتهم في هذه النشأة ، ولهذا أبقى الله طعام الذي مر على قرية وشرابه مائة عام لم يتغير[1] ، ودلنا سبحانه بهذا على قدرته .

فإذا كان في دار الكون والفساد يبقى الطعام الذي هو رطب وعنب أو نحو ذلك ، والشراب الذي هو ماء أو ما فيه ماء مائة عام لم يتغير ، فقدرته سبحانه وتعالى على أن يجعل الطعام والشراب في النشأة الأخرى لا يتغير بطريق الأولى والأخرى .

وهذه الأمور لبسطها موضع آخر .

---

(١) قال تعالى : ﴿ فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر الى حمارك ولنجعلك آية للناس ، وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾ سورة البقرة آية رقم ٢٥٩ .

فصل

والمقصود هنا : أن التولد لا بد له من أصلين ، وإن ظن ظان أن نفس الهواء الذي بين الزنادين يستحيل ناراً بسخونته من غير مادة تخرج منهما تنقلب ناراً فقد غلط ، وذلك لأنه لا تخرج نار إن لم يخرج منهما مادة بالحك ، ولا تخرج النار بمجرد الحك .

وأيضاً : فإنهم يقدحون على شيء أسفل من الزنادين كالصوفان والحراق فتنزل النار عليه ، وإنما ينزل الثقيل ، فلولا أن هناك جزءاً ثقيلاً من الزناد الحديد والحجر لما نزلت النار ، ولو كان الهواء وحده انقلب ناراً لم ينزل ؛ لأن الهواء طبعه الصعود لا الهبوط ، لكن بعد أن تنقلب المادة الخارجة ناراً قد ينقلب الهواء القريب منها ناراً ، إما دخاناً وإما لهيباً .

والمقصود أن المتولدات خلقت من أصلين ، كما خلق آدم من التراب والماء ، وإلا فالتراب المحض الذي لم يختلط به ماء لا يخلق منه شيء لا حيوان ولا نبات والنبات جميعه إنما يتولد من أصلين أيضاً ، والمسيح خلق من مريم ونفخة جبريل ،كما قال تعالى ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾[1]وقال ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾[2]

---

(١) سورة التحريم آية رقم ١٢ .

(٢) سورة الأنبياء آية رقم ٩١.

وقال ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنْتَ تَقِيّاً قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً ﴾ [1]

وقد ذكر المفسرون أن جبريل نفخ في جيب درعها والجيب هو الطوق الذي في العنق ، ليس هو ما يسميه بعض العامة جيبا ، وهو ما يكون في مقدم الثوب لوضع الدراهم ونحوها ، وموسى لما أمره الله أن يدخل يده في جيبه : هو ذلك الجيب المعروف في اللغة وذكر أبو الفرج [2] وغيره قولين : هل كانت النفخة في جيب الدرع ؟ أو في الفرج ؟ .

فإن من قال بالأول قال في فرج درعها .

وإن من قال : هو مخرج الولد ، قال : الهاء كناية عن غير مذكور ؛ لأنه إنما نفخ في درعها ، لا في فرجها وهذا ليس بشيء ، بل هو عدول عن صريح القرآن . وهذا النقل إن كان ثابتاً لم يناقض القرآن ، وإن لم يكن ثابتاً لم يلتفت إليه ، فإن من نقل أن جبريل نفخ في جيب الدرع ، فمراده أنه ﷺ لم يكشف بدنها ، وكذلك جبريل كان إذا أتى النبي ﷺ وعائشة متجردة لم ينظر إليها متجردة فنفخ في جيب الدرع فوصلت النفخة إلى فرجها . والمقصود إنما هو النفخ في الفرج ، كما أخبر الله به في آيتين وإلا فالنفخ في الثوب فقط من غير وصول النفخ إلى الفرج مخالف للقرآن ، مع أنه لا تأثير له في حصول الولد ، ولم يقل ذلك أحد من أئمة المسلمين ، ولا نقله أحد عن عالم معروف من السلف والمقصود هنا أن المسيح خلق من أصلين :

من نفخ جبريل ، وأمه مريم .

وهذا النفخ ليس هو النفخ الذي يكون بعد مضي أربعة أشهر والجنين مضغة ، فإن ذلك نفخ في بدن قد خلق ، وجبريل حين نفخ لم يكن المسيح

---

(١) سورة مريم آية رقم ١٧ - ١٩ .

(٢) سبق الترجمة له في هذا الجزء .

خلق بعد ولا كانت مريم حملت ، وإنما حملت به بعد النفخ بدليل قوله ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً ﴾ (١) .

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً ﴾ (٢) .

فلما نفخ فيها جبريل حملت به ، ولهذا قيل في المسيح : ﴿ روح منه ﴾ باعتبار هذا النفخ .

وقد بين الله سبحانه أن الرسول الذي هو روحه وهو جبريل ، هو الروح الذي خاطبها ، وقال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً .

فقوله ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا ﴾ (٣) أو ﴿ فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ﴾ (٤) أي من هذا الروح الذي هو جبريل ، وعيسى روح من هذا الروح ، فهو روح من الله، بهذا الاعتبار ومن لابتداء الغاية .

والمقصود هنا : أنه قد يكون الشيء من أصلين بانقلاب المادة التي بينهما إذا التقيا ، كان بينهما مادة فتنقلب وذلك لقوة حك أحدهما بالآخر فلا بد من نقص أجزائها ، وهذا مثل تولد النار بين الزنادين إذا قدح الحجر بالحديد ، أو الشجر بالشجر ، كالمرخ والعفار، فإنه بقوة الحركة الحاصلة من قدح أحدهما بالآخر يستحيل بعض أجزائهما ، ويسخن الهواء الذي بينهما فيصير ناراً ، والزندان كلما قدح أحدهما بالآخر نقصت أجزاؤهما بقوة الحك ، فهذه النار استحالت عن الهواء وتلك الأجزاء بسبب قدح أحد الزندين بالآخر .

وكذلك النور الذي يحصل بسبب انعكاس الشعاع على ما يقابل المضيء كالشمس والنار ، فإن لفظ النور والضوء يقال تارة على الجسم القائم بنفسه كالنار التي في رأس المصباح ، وهذه لا تحصل إلا بمادة تنقلب ناراً كالحطب والدهن ، ويستحيل الهواء أيضاً ناراً ، ولا ينقلب الهواء أيضاً ناراً إلا بنقص

---

(١) سورة مريم آية رقم ١٩ .
(٢) سورة مريم آية رقم ٢٢ .
(٣) سورة الأنبياء آية رقم ٩١ .
(٤) سورة التحريم آية رقم ١٢ .

المادة التي اشتعلت ، أو نقص الزندين وتارة يراد بلفظ النور والضوء والشعاع : الشعاع الذي يكون على الأرض والحيطان من الشمس أو من النار ، فهذا عرض ليس بجسم قائم بنفسه لا بد له من محل يقوم به يكون قابلاً له فلا بد في الشعاع من جسم مضيء ، ولا بد من شيء يقابله حتى ينعكس عليه الشعاع .

وكذلك النار الحاصلة في ذبالة المصباح إذا وضعت في النار ، أو وضع فيها حطب ، فإن النار تحيل أولاً المادة التي هي الدهن أو الحطب فيسخن.الهواء المحيط بها فينقلب ناراً ، وإنما ينقلب بعد نقص المادة .

وكذلك الريح التي تحرك النار مثل ما تهب الريح فتشتعل النار في الحطب ، ومثل ما ينفخ في الكير وغيره تبقى الريح المنفوضة تضرم النار لما في محل النار كالخشب والفحم من الاستعداد لانقلابه ناراً وما في حركة الريح القوية من تحريك النار إلى المحل القابل له وقد ينقلب أيضاً الهواء القريب من النار ، فإن اللهب هو الهواء انقلب ناراً مثل ما في ذبالة المصباح ، ولهذا إذا أطفئت صار دخاناً ، وهو هواء مختلط بنار كالبخار وهو هواء مختلط بماء ، والغبار هواء مختلط بتراب . وقد يسمى البخار دخاناً ، ومنه قوله تعالى ﴿ **ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ** ﴾ [1] .

قال المفسرون : بخار الماء ، كما جاءت الآثار : « إن الله خلق السموات من بخار الماء » وهو الدخان ، فإن الدخان الهواء المختلط بشيء حار ثم قد لا يكون فيه ماء ، وهو الدخان الصرف ، وقد يكون فيه ماء ، فهو دخان ، وهو بخار كبخار القدر وقد يسمى الدخان بخاراً فيقال لمن استجمر بالطيب تبخر وإن كان لا رطوبة هنا ، بل دخان الطيب سمي بخاراً . قال الجوهري [2] :

---

(١) سورة فصلت آية رقم ١١ وتكملة الآية ﴿ **فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين** ﴾ .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

بخار الماء ما يرتفع منه كالدخان ، والبخور بالفتح ما يتبخر به ، لكن إنما يصير الهواء ناراً بعد أن تذهب المادة التي انقلبت ناراً ، كالحطب والدهن فلم تتولد النار إلا من مادة ، كما لم يتولد الحيوان إلا من مادة .

فصل

والمقصود أن كل ما يستعمل فيه لفظ التولد من الأعيان القائمة فلا بد أن يكون من أصلين ، ومن انفصال جزء من الأصل ، وإذا قيل في الشبع والري إنه متولد ، أو في زهوق الروح ونحو ذلك من الأعراض إنه متولد ، فلا بد في جميع ما يستعمل فيه هذا اللفظ من أصلين ، لكن العرض يحتاج إلى محل ،لا يحتاج إلى مادة تنقلب عرضاً ، بخلاف الأجسام فإنها إنما تخلق من مواد تنقلب أجساماً ، كما تنقلب إلى نوع آخر . كانقلاب المني علقة ، ثم مضغة ، وغير ذلك من خلق الحيوان والنبات .

وأما ما كان من أصل واحد ، كخلق حواء من الضلع القصري لآدم ، وهو وإن كان مخلوقاً من مادة أخذت من آدم فلا يسمى هذا تولداً ؛ ولهذا لا يقال : إن آدم ولد حواء ، ولا يقال : إنه أبو حواء ، بل خلق الله حواء من آدم كما خلق آدم من الطين .

وأما المسيح فيقال : إنه ولدته مريم ، ويقال : المسيح ابن مريم ، فكان المسيح جزءاً من مريم ، وخلق بعد نفخ الروح في فرج مريم ، كما قال تعالى ﴿ **وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ** ﴾ (١) وفي الأخرى ﴿ **فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ**

---

(١) سورة التحريم آية رقم ١٢ .

رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ (١) .

وأما حواء فخلقها الله من مادة أخذت من آدم ، كما خلق آدم من المادة الأرضية ، وهي الماء والتراب والريح الذي أيبسته حتى صار صلصالاً ، فلهذا لا يقال : إن آدم ولد حواء ، ولا آدم ولده التراب ، ويقال في المسيح : ولدته مريم فإنه كان من أصلين : من مريم ومن النفخ الذي نفخ فيها جبريل .

قال الله تعالى ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً . قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمٰنِ مِنْكَ إِن كُنْتَ تَقِيّاً . قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً . قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّا . قَالَ كَذٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً ﴾(٢) .

إلى آخر القصة .

فهي إنما حملت به بعد النفخ ، لم تحمل به مدة بلا نفخ ثم نفخت فيه روح الحياة كسائر الآدميين ، ففرق بين النفخ للحمل ، وبين النفخ لروح الحياة .

فتبين أن ما يقال إنه متولد من غيره من الأعيان القائمة بنفسها فلا يكون إلا من مادة تخرج من ذلك الوالد ، ولا يكون إلا من أصلين ، والرب تعالى صمد ، فيمتنع أن يخرج منه شيء ، وهو سبحانه لم يكن له صاحبة فيمتنع أن يكون له ولد .

وأما ما يستعمل من تولد الأعراض كما يقال : تولد الشعاع وتولد العلم

---

(١) سورة الأنبياء آية رقم ٩١ .
(٢) سورة مريم آية رقم ١٧ - ٢٢ .

عن الفكر، وتولد الشبع عن الأكل وتولدت الحرارة عن الحركة ، ونحو ذلك ، فهذا ليس من تولد الأعيان ، مع أن هذا لا بد له من محل ، ولا بد له من أصلين ، ولهذا كان قول النصارى : إن المسيح ابن الله - تعالى الله عن ذلك - مستلزماً لأن يقولوا : إن مريم صاحبة الله ، فيجعلون له زوجة وصاحبة ، كما جعلوا له ولداً .

وبأي معنى فسروا كونه ابنه ، فإنه يفسر الزوجة بذلك المعنى ، والأدلة الموجبة تنزيهه عن الصاحبة توجب تنزيهه عن الولد . فإذا كانوا يصفونه بما هو أبعد عن اتصافه به كان اتصافه بما هو أقل بعداً لازماً لهم ، وقد بسط هذا في الرد على النصارى

فصل

وهذا مما يبين أن ما نـزه الله نفسه ونفاه عنه يقوله : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ [1] .

وبقوله : ﴿ أَلَا إِنَّهُم مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [2] .

وقوله ﴿ وَجَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ الجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ . بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَهُ صَاحِبَةٌ . وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [3] .

يعم جميع الأنواع التي تذكر في هذا الباب عن بعض الأمم ، كما أن ما نفاه من اتخاذ الولد يعم أيضاً جميع أنواع الاتخاذات الاصطفائية كما قال تعالى ﴿ وَقَالَتِ اليَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنْتُم بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَللهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ المَصِيرُ ﴾ [4] قال السدي [5] : قالوا : إن الله أوحى إلى اسرائيل إن ولدك بكري من الولد فأدخلهم النار فيكونون فيها أربعين يوماً

---

(1) سورة الإخلاص آية رقم ٣ .
(2) سورة الصافات آية رقم ١٥٢ .
(3) سورة الأنعام آية رقم ١٠٠ ـ ١٠١ .
(4) سورة المائدة آية رقم ١٨ .
(5) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

حتى تطهرهم وتأكل خطاياهم ، ثم ينادي مناد أخرجوا كل مختون من بني اسرائيل .

وقد قال تعالى ﴿ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ﴾ (١) .

وقال ﴿ وَقُلِ الحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ ، وَلَمْ يَكُن لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ ﴾ (٢) وقال ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ (٣) .

وقال ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ . لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ . وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ (٤) .

وقال ﴿ وَقَالَ اللهُ لاَ تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ ، إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ . وَلَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً ﴾ إلى قوله ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيباً ﴾ إلى قوله : ﴿ وَيَجْعَلُونَ للهِ البَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَا يَشْتَهُونَ ﴾ (٥) وقال ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُورَا . أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ المَلاَئِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا القُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُوراً . قُل لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَبْتَغَوْا إِلَى ذِي العَرْشِ سَبِيلاً ﴾ (٦) .

وقال ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ البَنَاتُ وَلَهُمُ البَنُونَ أَمْ خَلَقْنَا المَلاَئِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ

(١) سورة المؤمنون آية رقم ٩١ .
(٢) سورة الاسراء آية رقم ١١١ .
(٣) سورة الفرقان آية رقم ١ - ٢ .
(٤) سورة الأنبياء آية رقم ٢٦ - ٢٩ .
(٥) سورة النحل آية رقم ٥١ - ٥٧ .
(٦) سورة الاسراء آية رقم ٣٩ - ٤٢ .

شاهِدُونَ أَلَا إِنَّهُم مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ الله وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ أَصْطَفَى البَنَاتِ عَلَى البَنِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ سُبْحَانَ الله عَمَّا يَصِفُونَ . إِلَّا عِبَادَ الله المُخْلَصِينَ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ . إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الجَحِيمِ ﴾ (١) .

وقال ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ اللَّاتَ وَالعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى أَلَكُمْ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى . إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ الله بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِن رَبِّهِمُ الهُدَى ﴾ إلى قوله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ المَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثَى ﴾ (٢) .

وقال تعالى ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً ﴾ (٣) قال بعض المفسرين : ﴿ جزءاً ﴾ أي نصيباً وبعضا وقال بعضهم : جعلوا لله نصيباً من الولد ، وعن قتادة ومقاتل عدلا .

وكلا القولين صحيح ، فإنهم يجعلون له ولداً والولد يشبه أباه .

ولهذا قال : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً ﴾ (٤) .

أي البنات .

كما قال في الآية الأخرى ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنْثَى ﴾(٥) فقد

---

(١) سورة الصافات آية رقم ١٤٩ - ١٦٣ .

(٢) سورة النجم آية رقم ١٩ - ٢٧ .

(٣) سورة الزخرف آية رقم ١٥ وتكملة الآية ﴿ إن الإنسان لكفور مبين ﴾ .

(٤) سورة الزخرف آية رقم ١٧ .

(٥) سورة النحل آية رقم ٥٨ .

جعلوها للرحمن مثلاً ، وجعلوا له من عباده جزءاً ، فإن الولد جزء من الوالد كما تقدم . قال ﷺ « إنما فاطمة بضعة مني [1] » وقوله ﴿ وَجَعَلُوا لله شُرَكَاءَ الجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [2] .

قال الكلبي : نزلت في الزنادقة قالوا : إن الله وإبليس شريكان ، فالله خالق النور والناس والدواب والأنعام ، وإبليس خالق الظلمة والسباع والحيات والعقارب .

وأما قوله ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجِنَّةِ نَسَباً ﴾ [4]

فقيل : هو قولهم : الملائكة بنات الله وسمى الملائكة جنًّا لاجتنانهم عن الأبصار وهو قول مجاهد وقتادة .

وقيل : قالوا لحي من الملائكة يقال لهم الجن ومنهم إبليس وهم بنات الله .

وقال الكلبي قالوا ـ لعنهم الله ـ بل تزوج من الجن فخرج بينهما الملائكة .

وقوله ﴿ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [4] قال بعض المفسرين كالثعلبي وهم كفار العرب قالوا الملائكة والأصنام بنات الله ، واليهود قالوا : عزير ابن الله ، والنصارى قالوا : المسيح ابن الله .

---

(١) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب فضائل الصحابة ١٢ باب مناقب قرابة رسول الله ـ ﷺ .
٣٧١٤ ـ حدثنا الوليد ، حدثنا ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن ابن أبي مليكة عن المسور بن مخرمة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : وذكره ، ورواه أيضاً في كتاب النكاح ١٠٩ ورواه الامام مسلم في كتاب فضائل الصحابة ٩٣ ، ٩٤ ، وأبو داود في النكاح ١٢ ، والترمذي في المناقب ٦٠ وابن ماجه في كتاب النكاح ٥٦ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٤ : ٥ ، ٣٢٦ (حلبي)

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٠٠ .

(٣) سورة الصافات آية رقم ١٥٨ .

(٤) سورة الأنعام آية رقم ١٠٠ .

فصل

وأما الذين كانوا يقولون من العرب: إن الملائكة بنات الله وما نقل عنهم من أنه صاهر الجن ، فولدت له الملائكة فقد نفاه الله عنه بامتناع الصاحبة ، وبامتناع أن يكون منه جزء فإنه صمد ، وقوله ﴿ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ ﴾ [1] وهذا كما تقدم من أن الولادة لا تكون إلا من أصلين سواء في ذلك تولد الأعيان التي تسمى الجواهر وتولد الأعراض والصفات ، بل ولا يكون تولد الأعيان إلا بانفصال جزء من الوالد ، فإذا امتنع أن يكون له صاحبة امتنع أن يكون له ولد ، وقد علموا كلهم أن لا صاحبة له لا من الملائكة، ولا من الجن ، ولا من الإنس ، فلم يقل أحد منهم أن له صاحبة ، فلهذا احتج بذلك عليهم،وما حكي عن بعض كفار العرب أنه صاهر الجن ، فهذا فيه نظر ، وذلك أن كان قد قيل ، فهو مما يعلم انتفاؤه من وجوه كثيرة وكذلك ما قالته النصارى من أن المسيح ابن الله . وما قاله طائفة من اليهود أن العزير ابن الله فإنه قد نفاه سبحانه بهذا وبهذا .

فإن قيل : أما عوام النصارى فلا تنضبط أقوالهم وأما الموجود في كلام علمائهم وكتبهم فإنهم يقولون : إن أقنوم الكلمة ، ويسمونها الابن تدرع المسيح أي اتخذه درعاً ، كما يتدرع الإنسان قميصه ، فاللاهوت تدرع الناسوت ، ويقولون : باسم الأب والابن وروح القدس إله واحد .

---

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٠١ .

قيل : قصدهم أن الرب موجود حي عليم ، فالموجود هو الأب ، والعلم هو الابن ، والحياة هو روح القدس هذا قول كثير منهم .

ومنهم من يقول : بل موجود عالم قادر ، ويقول : العلم هو الكلمة ، وهو المتدرع ، والقدرة هي روح القدس ، فهم مشتركون في أن المتدرع هو أقنوم الكلمة وهي الابن .

ثم اختلفوا في التدرع ، واختلفوا : هل هما جوهر أو جوهران ؟

وهل لهما مشيئة أو مشيئتان ، ولهم في الحلول والاتحاد كلام مضطرب ليس هذا موضع بسطه فإن مقالة النصارى فيها من الاختلاف بينها ما يتعذر ضبطه ، فإن قولهم ليس مأخوذاً عن كتاب منزل ولا نبي مرسل ، ولا هو موافق لعقول العقلاء فقالت اليعقوبية [1] : صار جوهراً واحداً ، وطبيعة واحدة ، وأقنوماً واحداً كالماء في اللبن .

وقالت النسطورية [2] : بل هما جوهران وطبيعتان ومشيئتان ، لكن حل اللاهوت في الناسوت حلول الماء في الظرف .

وقالت الملكية [3] : بل هما جوهر واحد له مشيئتان وطبيعتان، أو فعلان كالنار في الحديد . وقد ذهب بعض الناس إلى أن قوله تعالى ﴿ **لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ** ﴾ [4] هم اليعقوبية .

وفي قوله ﴿ **وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ** ﴾ [5] هم الملكية .

وقوله ﴿ **لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ** ﴾ [6] هم النسطورية .

وليس بشيء ، بل الفرق الثلاث تقول المقالات التي حكاها الله عز وجل

---

(١) سبق التعريف بها في كلمة وافية .
(٢) سبق التعريف بها في كلمة وافية .
(٣) سبق التعريف بها في كلمة وافية .
(٤) سورة المائدة آية رقم ٧٢ .
(٥) سورة التوبة آية رقم ٣٠ .
(٦) سورة المائدة آية رقم ٧٣ .

عن النصارى فكلهم يقولون : إنه الله ، ويقولون : إنه ابن الله ، وكذلك في أمانتهم التي هم متفقون عليها ، يقولون إله حق من إله حق وأما قوله ﴿ **ثالث ثلاثة** ﴾ فإنه قال تعالى : ﴿ **وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ** ﴾ [1] قال أبو الفرج بن الجوزي في قوله ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة** ﴾ .

قال المفسـرون : معنى الآية أن النصارى قالوا بأن الالهية مشتركة بين الله وعيسى ومريم ، كل واحد منهم إله ، وذكر عن الزجاج : الغلو مجاوزة القدر في الظلم ، وغلو النصارى في عيسى قول بعضهم هو الله ، وقول بعضهم هو ابن الله ، وقول بعضهم هو ثالث ثلاثة فعلماء النصارى الذين فسروا قولهم هو ابن الله بما ذكروه من أن الكلمة هي الابن ، والفرق الثلاثة متفقة على ذلك ، وفساد قولهم معلوم بصريح العقل من وجوه :

أحدها : إنه ليس في شيء من كلام الأنبياء تسمية صفة الله ابناً لا كلامه ولا غيره ، فتسميتهم صفة الله ابناً تحريف لكلام الأنبياء عن مواضعه وما نقلوه عن المسيح من قوله « عمدوا الناس باسم الأب والابن وروح القدس » .

لم يرد بالابن صفة الله التي هي كلمته ، ولا بروح القدس حياته ، فإنه لا يوجد في كلام الأنبياء ارادة هذا المعنى ، كما قد بسط هذا في الرد على النصارى الوجه الثاني : أن هذه الكلمة التي هي الابن أهي صفة الله قائمة به ، أم هي جوهر قائم بنفسه ؟ فإن كانت صفته بطل مذهبهم من وجوه :

أحدها : أن الصفة لا تكون الهاً يخلق ويرزق ويحيي ويميت ، والمسيح عندهم إله يخلق ويرزق ،ويحيي ويميت . فإذا كان الذي تدرعه ليس باله فهو أولى أن لا يكون إلهاً .

---

(١) سورة المائدة آية رقم ١١٦ .

الثاني :

أن الصفة لا تقوم بغير الموصوف فلا تفارقه وإن قالوا : نزل عليه كلام الله أو قالوا : إنه الكلمة أو غير ذلك ، فهذا قدر مشترك بينه وبين سائر الأنبياء .

الثالث :

أن الصفة لا تتحد وتتدرع شيئاً إلا مع الموصوف فيكون الأب نفسه هو المسيح ، والنصارى متفقون على أنه ليس هو الأب ، فإن قولهم متناقض ، ينقض بعضه بعضاً ، يجعلونه إلهاً يخلق ويرزق ، ولا يجعلونه الأب الذي هو الإله ويقولون : إله واحد ، وقد شبهه بعض متكلميهم كيحيى بن عدي بالرجل الموصوف بأنه طيب وحاسب وكاتب وله بكل صفة حكم ، فيقال : هذا حق ، لكن قولهم ليس نظير هذا ، فإذا قلتم إن الرب موجود حي عالم ، وله بكل صفة حكم ، فمعلوم أن المتحد إن كان هو الذات المتصفة ، فالصفات كلها تابعة لها فإنه إذا تدرع زيد الطيب الحاسب الكاتب درعاً كانت الصفات كلها قائمة به ، وإن كان المتدرع صفة دون صفة عاد المحذور .

وإن قالوا : المتدرع الذات بصفة دون صفة لزم افتراق الصفتين ، وهذا ممتنع ، فإن الصفات القائمة بموصوف واحد وهي لازمة له لا تفترق وصفات المخلوقين قد يمكن عدم بعضها مع بقاء الباقي بخلاف صفات الرب تبارك وتعالى .

الرابع :

أن المسيح نفسه ليس هو كلمات الله ولا شيئاً من صفاته ، بل هو مخلوق بكلمة الله وسمي كلمة لأنه خلق بكن من غير الحبل المعتاد كما قال تعالى ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (١) .

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ٥٩ .

وقال تعالى ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ . مَا كَانَ لله أَنْ يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ ، إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (١) .

ولو قدر أنه نفسه كلام الله كالتوراة والإنجيل وسائر كلام الله لم يكن كلام الله ولا شيء من صفاته خالقاً ولا ربا ولا إلهاً .

فالنصارى إذا قالوا : إن المسيح هو الخالق كانوا ضالين من جهة جعل الصفة خالقة ومن جهة جعله هو نفس الصفة ، وإنما هو مخلوق بالكلمة ، ثم قولهم بالتثليث ، وأن الصفات ثلاث باطل .

وقولهم أيضاً : بالحلول والاتحاد باطل فقولهم يظهر بطلانه من هذه الوجوه وغيرها .

فلو قالوا : إن الرب له صفات قائمة به ، ولم يذكروا اتحاداً ولا حلولاً ، كان هذا قول جماهير المسلمين المثبتين للصفات .

وإن قالوا : إن الصفات أعيان قائمة بنفسها فهذا مكابرة ، فهم يجمعون بين المتناقضين .

وأيضاً : فجعلهم عدد الصفات ثلاثة باطل ، فإن صفات الرب أكثر من ذلك فهو سبحانه موجود حي عليم قدير

والأقانيم عندهم التي جعلوها الصفات ليست إلا ثلاثة ولهذا تارة يفسرونها بالوجود والحياة والعلم وتارة يفسرونها بالوجود والقدرة والعلم واضطرابهم كثير .

فإن قولهم في نفسه باطل ، ولا يضبطه عقل عاقل ، ولهذا يقال : لو اجتمع عشرة من النصارى لافترقوا على أحد عشر قولا .

وأيضاً : فكلمات الله كثيرة لا نهاية لها ، كما قال سبحانه وتعالى ﴿ قُلْ لَوْ

(١) سورة مريم آية رقم ٣٤ ـ ٣٥ .

كَانَ البَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أن تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ، وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾[1] . وهذا قول جماهير الناس من المسلمين وغير المسلمين وهذا مذهب سلف الأمة الذين يقولون لم يزل سبحانه متكلماً بمشيئته .

وقول من قال : إنه لم يزل قادراً على الكلام لكن تكلم بمشيئته كلاماً قائماً بذاته حادثاً ، وقول من قال كلامه مخلوق في غيره .

وأما من قال : كلامه شيء واحد قديم العين. فهؤلاء منهم من يقول : إنه أمور لا نهاية لها مع ذلك .

ومنهم من يقول : بل هو معنى واحد ، ولكن العبارات عنه متعددة ، وهؤلاء يمتنع عندهم أن يكون ذلك المعنى قائماً بغير الله ، وإنما يقوم بغيره عندهم العبارات المخلوقة ، ويمتنع أن يكون المسيح شيئاً من تلك العبارات ، فإذا امتنع أن يكون المسيح غير كلام الله على قول هؤلاء فعلى قول الجمهور أشد امتناعاً ؛ لأن كلمات الله كثيرة ، والمسيح ليس هو جميعها ، بل ولا مخلوقاً بجميعها ، وإنما خلق بكلمة منها ، وليس هو عين تلك الكلمة فإن الكلمة صفة من الصفات ، والمسيح عين قائم بنفسه .

ثم يقال لهم : تسميتكم العلم والكلمة ولداً وابناً تسمية باطلة باتفاق العلماء والعقلاء ، ولم ينقل ذلك عن أحد من الأنبياء ، قالوا : لأن الذات يتولد عنها العلم والكلام كما يتولد ذلك عن نفس الرجل العالم منها ، فيتولد من ذاته العلم والحكمة والكلام فلهذا سميت الكلمة ابنا ، قيل : هذا باطل من وجوه :

أحدها : أن صفاتنا حادثة تحدث بسبب تعلمنا ونظرنا وفكرنا واستدلالنا .

وأما كلمة الرب وعلمه فهو قديم لازم لذاته فيمتنع أن يوصف بالتولد ، إلا أن يدعي المدعي أن كل صفة لازمة لموصوفها متولدة عنه ، وهي ابن له ،

(١) سورة الكهف آية رقم ١٠٩ .

ومعلوم أن هذا من أبطل الأمور في العقول واللغات ، فإن حياة الإنسان ونطقه وغير ذلك من صفاته اللازمة له ، لا يقال : إنها متولدة عنه ، وإنها ابن له ، وأيضاً فيلزم أن تكون حياة الرب أيضاً ابنه ومتولدة ، وكذلك قدرته ، وإلا فما الفرق بين تولد العلم وتولد الحياة والقدرة وغير ذلك من الصفات .

وثانيها : إن هذا إن كان من باب تولد الجواهر والأعيان القائمة بنفسها فلا بد له من أصلين ولا بد أن يخرج من الأصل جزء، وأما علمنا وقولنا فليس عينا قائماً بنفسه ، وإن كان صفة قائمة بموصوف وعرضاً قائماً في محل كعلمنا وكلامنا فذاك أيضاً لا يتولد إلا عن أصلين ولا بد له من محل يتولد فيه ، والواحد منا لا يحدث له العلم والكلام إلا بمقدمات تتقدم على ذلك وتكون أصولاً للفروع ، ويحصل العلم والكلام في محل لم يكن حاصلاً فيه قبل ذلك .

فإن قلتم : إن علم الرب كذلك لزم أن يصير عالماً بالأشياء بعد أن لم يكن عالماً بها ، وأن تصير ذاته متكلمة بعد أن لم يكن متكلماً .

وهذا مع أنه كفر عند جماهير الأمم من المسلمين والنصارى وغيرهم فهو باطل في صريح العقل ، فإن الذات التي لا تكون عالمة يمتنع أن تجعل نفسها عالمة بلا أحد يعلمها ، والله تعالى يمتنع عليه أن يكون متعلماً من خلقه ، وكذلك الذات التي تكون عاجزة عن الكلام يمتنع أن تصير قادرة عليه بلا أحد يجعلها قادرة ، والواحد منها لا يولد جميع علومه ، بل ثم علوم خلقت فيه لا يستطيع دفعها ، فإذا نظر فيها حصلت له علوم أخرى ، فلا يقول أحد من بني آدم : إن الإنسان يولد علومه كلها ، ولا يقول أحد : إنه يجعل نفسه متكلمة بعد أن لم تكن متكلمة ، بل الذي يقدره على النطق هو الذي أنطق كل شيء .

فإن قالوا : إن الرب يولد بعض علمه ، وبعض كلامه دون بعض ، بطل تسمية العلم - الذي هو الكلمة مطلقاً - الابن ، وصار لفظ الابن إنما يسمى به بعض علمه أو بعض كلامه ، وهم يدعون أن المسيح هو الكلمة، وهو أقنوم العلم مطلقاً ، وذلك ليس متولداً عنه كله ولا يسمى كله ابنا باتفاق

العقلاء .

وثالثها : أن يقال : تسمية علم العالم وكلامه ولداً له لا يعرف في شيء من اللغات المشهورة ، وهو باطل بالعقل فإن علمه وكلامه كقدرته وعلمه ، فإن جاز هذا جاز تسمية صفات الإنسان كلها الحادثة متولدات عنه له وتسميتها أبناءه ، ومن قال من أهل الكلام القدرية إن العلم الحاصل بالنظر متولد عنه ، فهو كقوله : إن الشبع والري متولد عن الأكل والشرب ، لا يقول إن العلم ابنه وولده ، كما لا يقول : إن الشبع والري ابنه ولا ولده ؛ لأن هذا من باب تولد الأعراض والمعاني القائمة بالإنسان ، وتلك لا يقال : إنها أولاده وأبناؤه .

ومن استعار فقال بنيات فكره ، فهو كما يقال بنيات الطريق ، ويقال : ابن السبيل ، ويقال لطير الماء ابن ماء ، وهذه تسمية مفيدة ، قد عرف أنها ليس المراد بها ما هو المعقول من الأب والابن والوالد والولد ، وأيضاً : فكلام الأنبياء ليس في شيء منه تسمية شيء من صفات الله ابناً فمن حمل شيئاً من كلام الأنبياء على ذلك فقد كذب عليهم ، وهذا مما يقربه علماء النصارى وما وجد عندهم من لفظ الابن في حق المسيح واسرائيل وغيرهما ، فهو اسم للمخلوق لا لشيء من صفات الخالق ، والمراد به أنه مكرم معظم .

ورابعها : أن يقال فإذا قدر أن الأمر كذلك فالذي حصل للمسيح إن كان هو ما علمه الله إياه من علمه وكلامه ، فهذا موجود لسائر النبيين فلا معنى لتخصيصه بكونه ابن الله ، وإن كان هو أن العلم والكلام إله اتحد به ، فيكون العلم والكلام جوهراً قائماً بنفسه ، فإن كان هو الأب فيكون المسيح هو الأب ، وإن كان العلم والكلام جوهراً آخر ، فيكون إلهان قائمان بأنفسهما فتبين فساد ما قالوه بكل وجه .

وخامسها : أن يقال : من المعلوم عند الخاصة والعامة أن المعنى الذي خص به المسيح إنما هو أن خلق من غير أب ، فلما لم يكن له أب من البشر جعل النصارى الرب أباه ، وبهذا ناظر نصارى نجران النبي ﷺ وقالوا : إن لم

يكن هو ابن الله فقل لنا من أبوه ؟

فعلم أن النصارى إنما ادعوا فيه البنوة الحقيقية وأن ما ذكر من كلام علمائهم هو تأويل منهم للمذهب ليزيلوا به الشناعة التي لا يبلغها عاقل ، وإلا فليس في جعله ابن الله وجه يختص به معقول ، فعلم أن النصارى جعلوه ابن الله ، وأن الله أحبل مريم والله هو أبوه ، وذلك لا يكون إلا بإنزال جزء منه فيها ، وهو سبحانه الصمد ، ويلزمه أن تكون مريم صاحبة وزوجة له ، ولهذا يتألهونها كما أخبر الله عنهم .

وأي معنى ذكروه في بنوة عيسى غير هذا لم يكن فيه فرق بين عيسى وبين غيره ، ولا صار فيه معنى البنوة ، بل قالوا كما قال بعض مشركي العرب إنه صاهر الجن فولدت له الملائكة .

وإذا قالوا : اتخذه ابناً على سبيل الاصطفاء فهذا هو المعنى الفعلي ، وسيأتي إن شاء الله تعالى إبطاله .

وقوله تعالى ﴿ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ (١) ليس فيه أن بعض الله صار في عيسى ، بل من لابتداء الغاية كما قال : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ﴾ (٢) وقال ﴿ وَمَا بِكُم مِن نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ﴾ (٣) وما أضيف إلى الله أو قيل هو منه فعلى وجهين : إن كان عينا قائمة بنفسها فهو مملوك له ، ومن لابتداء الغاية كما قال تعالى ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ (٤) وقال في المسيح ﴿ وروح منه ﴾ .

وما كان صفة لا يقوم بنفسه كالعلم والكلام فهو صفة له ، كما يقال كلام الله وعلم الله ، وكما قال تعالى ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِن رَبِّكَ بِالحَقِّ ﴾ (٥) وقال ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِن رَبِّكَ بِالحَقِّ ﴾ (٦) .

---

(١) سورة النساء آية رقم ١٧١ .
(٢) سورة الجاثية آية رقم ١٣ .
(٣) سورة النحل آية رقم ٥٣ .
(٤) سورة مريم آية رقم ١٧ .
(٥) سورة النحل آية رقم ١٠٢ .
(٦) سورة الأنعام آية رقم ١١٤ .

وألفاظ المصادر يعبر بها عن المفعول فيسمى المأمور به أمراً والمقدور قدرة ، والمرحوم به رحمة ، والمخلوق بالكلمة كلمة .

فإذا قيل في المسيح : إنه كلمة الله ، فالمراد به أنه خلق بكلمة قوله ﴿ كن ﴾ ولم يخلق على الوجه المعتاد من البشر وإلا فعيسى بشر قائم بنفسه ليس هو كلاماً صفة للمتكلم يقوم به ، وكذلك إذا قيل عن المخلوق : إنه أمر الله فالمراد أن الله كونه بأمره ، كقوله ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ (١) .

وقوله ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴾ (٢).

فالرب تعالى أحد صمد ، لا يجوز أن يتبعض ويتجزأ فيصير بعضه في غيره .

سواء سمي ذلك روحاً أو غيره ، فبطل ما يتوهمه النصارى من كونه ابناً له ، وتبين أنه عبد من عباد الله وقد قيل : منشأ ضلال القوم أنه كان في لغة من قبلنا يعبر عن الرب بالأب ، وبالابن عن العبد المربى الذي يربه الله ويربيه ، فقال المسيح : عمدوا الناس باسم الأب والابن وروح القدس ، فأمرهم أن يؤمنوا بالله ويؤمنوا بعبده ورسوله المسيح ، ويؤمنوا بروح القدس جبريل ، فكانت هذه الأسماء لله ، ولرسوله الملكي ورسوله البشري .

قال الله تعالى ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ﴾ (٣) وقد أخبر تعالى في غير آية أنه أيد المسيح بروح القدس وهو جبريل عند جمهور المفسرين ، كقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ (٤) فعند جمهور المفسرين أن روح القدس هو جبريل بل هذا قول ابن عباس ، وقتادة ،

---

(١) سورة النحل آية رقم ١ .

(٢) سورة هود آية رقم ٨٢ .

(٣) سورة الحج آية رقم ٧٥ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ٨٧ .

والضحاك والسدي وغيرهم .

ودليل هذا قوله تعالى ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (١) .

وروى الضحاك عن ابن عباس أنه الاسم الذي كان يحيي به الموتى .

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنه الإنجيل .

وقال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَن نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ (٢) .

وقال تعالى ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ (٣) .

فما ينزله الله في قلوب أنبيائه مما تحيا به قلوبهم من الإيمان الخالص يسميه روحاً ، وهو ما يؤيد الله به المؤمنين من عباده فكيف بالمرسلين منهم ؟!

والمسيح عليه السلام من أولي العزم ، فهو أحق بهذا من جمهور الرسل والأنبياء .

وقال تعالى ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِنْهُم مَن كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ، وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ (٤) .

وقد ذكر الزجاج في تأييده بروح القدس ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه أيده به لإظهار أمره ودينه .

---

(١) سورة النحل آية رقم ١٠١ ـ ١٠٢ .
(٢) سورة الشورى آية رقم ٥٢ .
(٣) سورة النحل آية رقم ٢ .
(٤) سورة البقرة آية رقم ٢٥٣ .

الثاني : لدفع بني اسرائيل عنه إذ أرادوا قتله .
الثالث : أنه أيده به في جميع أحواله .

ومما يبين ذلك أن لفظ الابن في لغتهم ليس مختصاً بالمسيح ، بل عندهم أن الله تعالى قال في التوراة لاسرائيل أنت ابني بكري .

والمسيح كان يقول : أبي وأبوكم فيجعله أباً للجميع ويسمي غيره ابناً له ، فعلم أنه لا اختصاص للمسيح بذلك .

ولكن النصارى يقولون :

هو ابنه بالطبع ، وغيره ابنه بالوضع . فيفرقون فرقاً لا دليل عليه .

ثم قولهم : هو ابنه بالطبع يلزم عليه من المحالات عقلاً وسمعاً ما يبين بطلانه .

فصل

وأما ما يقـوله الفـلاسفة القـائلون بأن العـالم قديم صـدر عن علة موجبـة بذاته ، وأنه صدر عنه عقل ، ثم عقل إلى تمام عشـرة عقول ، وتسعـة أنفس ، وقد يجعلون العقل بمنزلة الذكر ، والنفس بمنـزلة الأنثى فهؤلاء قـولهم أفسد من قول مشركي العرب ، وأهل الكتـاب عقلاً وشـرعاً ، ودلالـة القرآن عـلى فساده أبلغ ، وذلك من وجوه :

أحدها : أن هؤلاء يقولون بقدم الأفلاك ، وقـدم هذه الـروحانيـات التي يثبتونها ، ويسمونها المجـردات والمفارقـات والجواهـر العقلية ، وأن ذلـك لم يزل قديماً أزلياً ، وما كان قديماً أزلياً امتنع أن يكون مفعـولاً بوجـه من الوجـوه ، ولا يكون مفعولاً إلا ما كان حادثاً ، وهذه قضية بديهية عند جماهير العقلاء ، وعليها الأولون والآخرون من الفلاسفة وسائر الأمم ، ولهذا كان جماهير الأمم يقولون : كل ممكن أن يوجد وأن لا يوجد ، فلا يكـون إلا حادثـاً وإنما ادعى وجـود ممكن قديم معلول طائفة من المتأخرين كابن سينا [1] ، ومن وافقه : زعموا أن الفلك قديم معلول لعلة قديمة .

---

(١) هو الحسين بن عبد الله بن سينا أبو علي شرف الملك الفيلسوف الرئيس ، صاحب التصـانيف في الطب ، والمنطق ، والطبيعيات والالهيات توفي عام ٤٢٨ هـ . [راجع وفيات الأعيان ١ : ١٥٢ وتاريخ حكماء الاسلام ٢٧ ـ ٧٢ وخزانة البغدادي ٤ : ٤٦٦] .

وأما الفلاسفة القدماء فمن كان منهم يقول بحدوث الفلك وهم جمهورهم ، ومن كان قبل أرسطو[1] ، فهؤلاء موافقون لأهل الملل ، ومن قال بقدم الفلك كأرسطو وشيعته فإنما يثبتون له علة غائية يتشبه الفلك بها ، لا يثبتون له علة فاعلة ، وما يثبتونه من العقول والنفوس فهو من جنس الفلك ، كل ذلك قديم واجب بنفسه وإن كان له علة غائية يتشبه الفلك بها لا يثبتون له علة فاعلة، وما يثبتونه من العقول والنفوس فهو من جنس الفلك ، كل ذلك قديم واجب بنفسه ، وإن كان له علة غائية ، وهؤلاء أكفر من هؤلاء المتأخرين ، لكن الغرض أن يعرفوا أن قول هؤلاء ليس قول أولئك .

الثاني : أن هؤلاء يقولون : إن الرب واحد ، والواحد لا يصدر عنه إلا واحد ، ويعنون بكونه واحداً أنه ليس له صفة ثبوتية أصلاً ، ولا يعقل فيه معان متعددة لأن ذلك عندهم تركيب ، ولهذا يقولون : لا يكون فاعلاً وقابلاً لأن جهة الفعل غير جهة القبول ، وذلك يستلزم تعدد الصفة المستلزم للتركيب .

ومع هذا يقولون : إنه عاقل ومعقول وعقل ، وعاشق ومعشوق وعشق ، ولذيذ وملتذ ولذة ، إلى غير ذلك من المعاني المتعددة ، ويقولون : إن كل واحدة من هذه الصفات هي الصفة الأخرى ، والصفة هي الموصوف ، والعلم هو القدرة ، وهو الإرادة والعلم هو العالم وهو القادر .

ومن المتأخرين منهم من قال : العلم هو المعلوم فإذا تصور العاقل أقوالهم حق التصور تبين له أن هذا الواحد الذي أثبتوه لا يتصور وجوده إلا في الأذهان ، لا في الأعيان .

وقد بسط الكلام عليه ، وبين فساد ما يقولونه في التوحيد والصفات ، وبين فساد شبه التركيب من وجوه كثيرة في مواضع غير هذا .

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

وإذا كان كذلك فالأصل الذي بنوا عليه قولهم ، « إن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد » أصل فاسد .

الثالث : أن يقال : قولهم بصدور الأشياء مع ما فيها من الكثرة والحدوث عن واحد بسيط في غاية الفساد.

الرابع : أنه لا يعلم في العالم واحد بسيط صدر عنه شيء لا واحد ولا اثنان ، فهذه الدعوى الكلية لا يعلم ثبوتها في شيء أصلاً .

الخامس : أنهم يقولون : صدر عنه واحد ، وعن ذلك الواحد عقل ونفس وفلك ، فيقال : إن كان الصادر عنه واحداً من كل وجه فلا يصدر عن هذا الواحد إلا واحد أيضاً ، فيلزم أن يكون كل ما في العالم إنما هو واحد عن واحد وهو مكابرة. وإن كان في الصادر الأول كثرة ما بوجه من الوجوه فقد صدر عن الأول ما فيه كثرة ليس واحداً من كل وجه ، فقد صدر عن الواحد ما ليس بواحد .

ولهذا اضطرب متأخروهم ، فأبو البركات (١) صاحب « المعتبر » أبطل هذا القول ورده غاية الرد وابن رشد (٢) الحفيد زعم أن الفلك بما فيه صادر عن الأول ، والطوسي (٣) وزير الملاحدة يقرب من هذا ، فجعل الأول شرطاً في الثاني ، والثاني شرطاً في الثالث وهم مشتركون في الضلال ، وهو إثبات جواهر قائمة بنفسها أزلية مع الرب لم تزل ولا تزال معه ، لم تكن مسبوقة بعدم ،

---

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٢) هو محمد بن أحمد بن محمد بن رشد الأندلسي ، أبو الوليد : الفيلسوف من أهل قرطبة ، عني بكلام أرسطو ، وترجمه الى العربية ، وزاد عليه زيادات كثيرة ، وصنف نحو خمسين كتاباً منها فلسفة ابن رشد وفصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ، ومنهاج الأدلة وغير ذلك كثير . توفي عام ٥٩٥ هـ [راجع : قضاة الأندلس ١١١ والتكملة ١ : ٢٦٩ ، والمعجب ٢٤٢ وطبقات الأطباء ٢ : ٧٥ وشذرات الذهب ٤ : ٣٢٠ وآداب اللغة ٣ : ١٠٤] .

(٣) سبق الترجمة له في كلمة وافية.

وجعل الفلك أيضاً أزلياً ، وهذا وحده فيه من مخالفة صريح المعقول ، والكفر بما جاءت به الرسل ما فيه كفاية .

الوجه السادس : أن الصوادر المعلومة في العالم إنما تصدر عن اثنين ، وأما واحد وحده فلا يصدر عنه شيء ، كما تقدم التبيين عليه في المتولدات من الأعيان والأعراض ،

وكل ما يذكرونه من صدور الحرارة عن الحار ، والبرودة عن البارد والشعاع عن الشمس وغير ذلك فإنما هو صدور أعراض ، ومع هذا فلا بد لها من أصلين .

وأما صدور الأعيان عن غيرها فهذا لا يعلم إلا بالولادة المعروفة وذلك لا تكون إلا بانفصال جزء من الأصل ، وهذا الصدور والتولد والمعلولية التي يدعونها في المعقول والنفوس والأفلاك يقولون : إنها جواهر قائمة بأنفسها صدرت عن جوهر واحد بسيط ، فهذا من أبطل قول قيل في الصدور والتولد لأن فيه صدور جواهر عن جوهر واحد وهذا لا يعقل وفيه صدوره عنه من غير جزء منفصل من الأصل وهذا لا يعقل ، وهم غاية ما عندهم أن يشبهوا هذا بحدوث بعض الأعراض كالشعاع عن الشمس وحركة الخاتم عن حركة اليد ، وهذا تمثيل باطل ، لأن تلك ليست علة فاعلة ، وإنما هي شرط فقط ، والصادر هناك لم يكن عن أصل واحد ، بل عن أصلين . والصادر عرض لا جوهر قائم بنفسه .

فتبين أن ما ذكره هؤلاء من التولد العقلي الذي يدعونه من أبعد الأمور عن التولد والصدور وهو أبعد من قول النصارى ومشركي العرب ، وهم جعلوا مفعولاته بمنزلة صفة أزلية لازمة لذاته .

وقد ذكرنا أن هذا مما يمتنع أن يقال فيه إنه متولد عنه . وحينئذ فهم في دعواهم إلهية العقول والنفوس والكواكب أكفر من هؤلاء وهؤلاء ، ومن جعل من المنتسبين إلى الملل منهم هؤلاء هم الملكية .

فقوله في جعل الملائكة متولدين عن الله شر من قول العرب وعوام النصارى ، فإن أولئك أثبتوا ولادة حسية ، وكونه صمداً يبطلها ، لكن ما أثبتوه معقول وهؤلاء ادعوا تولداً عقلياً باطلاً من كل وجه ، أبطل مما ادعته النصارى من تولد الكلمة عن الذات ، فكان نفي ما ادعوه أولى من نفي ما ادعاه أولئك ؛ لأن المحال الذي يعلم امتناعه في الخارج لا يمكن تصوره موجوداً في الخارج ، فإنه يمتنع وجوده في الخارج بل هو يفرض في الذهن وجوده في الخارج ، وذلك إنما يمكن إذا كان له نظير من بعض الوجوه فيقدر له في الوجود الخارجي ما يشبهه ، كما إذا قدر مع الله الهاً آخر ، وقدر أن له ولداً فإنه يشبه من له ولد من العباد ، ومن له شريك من العباد ثم بين امتناع ذلك عليه ، فكلما كان المحال أبعد عن مشابهة الموجود كان أعظم استحالة . والولادة التي ادعتها النصارى ثم هؤلاء الفلاسفة أبعد عن مشابهة الولادة المعلومة من الولادة التي ادعاها بعض مشركي العرب وعوام النصارى واليهود فكانت هذه الولادة العقلية أشد استحالة من تلك الولادة الحسية ، إذ الولادة الحسية تعقل في الأعيان القائمة بنفسها ، وأما الولادة العقلية فلا تعقل في الأعيان أصلاً ، وأيضاً فأولئك أثبتوا ولادة من أصلين ، وهذا هو الولادة المعقولة ، وهؤلاء أثبتوا ولادة من أصل واحد ، وأولئك أثبتوا ولادة بانفصال جزء ، وهذا معقول .

وهؤلاء أثبتوا ولادة بدون ذلك وهو لا يعقل وأولئك أثبتوا ولادة قاسوها على ولادة الأعيان للأعيان ، وهؤلاء أثبتوا ولادة قاسوها على تولد الأعراض عن الأعيان فعلم أن قول أولئك أقرب إلى المعقول وهو باطل ، كما بين الله فساده وأنكره فقول هؤلاء أولى بالبطلان ، وهذا كما أن الله إذا كفر من أثبت مخلوقاً يتخذ شفيعاً معبوداً من دون الله ، فمن أثبت قديماً دون الله يعبد ، ويتخذ شفيعاً كان أولى بالكفر .

ومن أنكر المعاد مع قوله بحدوث هذا العالم فقد كفره الله ، فمن أنكره مع قوله بقدم العالم فهو أعظم كفراً عند الله تعالى .

وهذا كما أن النبي ﷺ لما نهى أمته عن مشابهة فارس المجوس والروم النصارى فنهيه عن مشابهة الروم اليونان المشركين والهند المشركين أعظم وأعظم .

وإذا كان ما دخل في بعض المسلمين من مشابهة اليهود والنصارى وفارس والروم مذموماً عند الله ورسوله فما دخل من مشابهة اليونان والهند والترك المشركين وغيرهم من الأمم الذين هم أبعد عن الإسلام من أهل الكتاب، ومن فارس والروم أولى أن يكون مذموماً عند الله تعالى ، وأن يكون ذمه أعظم من ذلك فهؤلاء الأمم الذين هم أبعد عن الإسلام الذين ابتلى بهم أواخر المسلمين شر من الأمم الذين ابتلى بهم أوائل المسلمين ، وذلك لأن الإسلام كان أهله أكمل وأعظم علماً وديناً فإذا ابتلى بمن هو أرجح من هؤلاء غلبهم المسلمون لفضل علمهم ودينهم ، وأما هؤلاء المتأخرون فالمسلمون وإن كان أنقص من سلفهم فإنه يظهر رجحانهم على هؤلاء لعظم بعدهم عن الإسلام ، ولكن لما كثرت البدع من متأخري المسلمين استطال عليهم من استطال من هؤلاء ، ولبسوا عليهم دينهم وصارت شبه الفلاسفة أعظم عند هؤلاء من غيرهم كما صار قتال الترك الكفار أعظم من قتال من كان قبلهم عند أهل الزمان ؛ لأنهم إنما ابتلوا بسيوف هؤلاء وألسنة هؤلاء ، وكان فيهم من نقص الإيمان ما أورث ضعفاً في العلم والجهاد ، وكما كان كثير من العرب في زمن النبي ﷺ فهذا هذا .

ومما يبين هذا أن مشركي العرب واليهود والنصارى يقولون : إن الله خلق السموات والأرض بمشيئته وقدرته ، بل يقولون : إنه خلق ذلك في ستة أيام ، وهؤلاء المتفلسفة عندهم لم يحدثها بعد أن لم تكن فضلاً عن أن يكون ذلك في ستة أيام ثم يلبسون على المسلمين فيقولون : العالم محدث يعنون بحدوثه أنه معلول علة قديمة ، فهو بمنزلة قولهم : متولد عن الله تعالى ، لكن هو أمر لا حقيقة له ولا يعقل .

وأيضاً فمشركوا العرب وأهل الكتاب يقرون بالملائكة وإن كـان كثير منهم يجعلون الملائكة والشياطين نوعاً واحداً ، فمن خرج منهم عن طاعة الله أسقـطه وصـار شيطانـاً ، وينكـرون أن يكـون إبليس كان أب الجن ، وأن يكـون الجن ينكحون ويولدون ويأكلون ويشربون ، فهؤلاء النصارى الذين ينكرون هذا مع كفرهم هم خير من هؤلاء المتفلسفة فإن هؤلاء لا حقيقة للملائكة عندهم إلا ما يثبتونه من العقول والنفوس ، أو من أعراض تقدم بالأجسام كالقوى الصالحة ، وكذلك الجن جمهور أولئك يثبتونها ، فإن العرب كانت تثبت الجن وكذلك أكـثر أهل الكتاب ، وهؤلاء لا يثبتونها ، ويجعلون الشياطين القوى الفاسدة .

وأيضاً فمشركوا العرب مع أهل الكتاب يدعون الله ويقولون : إنه يسمع دعاءهم ويجيبهم .

وهؤلاء عندهم لا يعلم شيء من جزئيات العالم ، ولا يسمع دعاء أحد ، ولا يجيب أحـداً ، ولا يحدث في العـالم شيئـاً ، ولا سبب للحـدوث عنـدهم إلا حركات الفلك ، والدعاء عندهم يؤثر ، لأنه تصرف النفس النـاطقة في هيـولى العالم ، وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يقول الله عز وجل : شتمني ابن آدم ، وما ينبغي له ذلك وكذبني ابن آدم وما ينبغي له ذلك ، فأما شتمه إياي فقوله : إني اتخذت ولداً وأنا الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد وأما تكذيبه إيـاي فقولـه : لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته » [1] .

وهذا وإن كان متناولاً قطعاً لكفار العرب الذين قالوا هذا وهذا ، كما قال تعالى : ﴿ **وَيَقُولُ الإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً** ﴾ [2] .

---

(١) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب التفسير ٢ ـ باب قوله : الله الصمد . .

٤٩٧٥ ـ حدثنا اسحاق بن منصور ، حدثنا عبد الرزاق، أخبـرنا معمـر عن همام عن أبي هـريرة قال : قال رسول الله ـ ﷺ قال الله تعالى : وذكره .

ورواه النسائي في الجنائز ١١٧ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٣١٧ ، ٣٥٠ ، ٣٩٤ .

(٢) سورة مريم آية رقم ٦٦ .

إلى قوله ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَداً لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِداً تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ﴾ (1) .

فذكر الله هذا وهذا فتناول النصوص لهؤلاء بطريق الأولى ، فإن هؤلاء ينكرون الإعادة والابتداء أيضاً ، فلا يقولون : إن الله ابتدأ خلق السموات والأرض ، ولا كان للبشر ابتداء أولهم آدم .

وأما شتمهم إياه بقولهم : اتخذ ولداً، فهؤلاء عندهم الفلك كله لازم له ، معلول له ، أعظم من لزوم الولد والده ، والوالد له اختيار وقدرة في حدوث الولد منه ، وهؤلاء عندهم ليس لله مشيئة وقدرة في لزوم الفلك له ، بل ولا يمكنه أن يدفع لزومه عنه ، فالتولد الذي يثبتونه أبلغ من التولد الموجود في الخلق ، ولا يقولون : إنه اتخذ ولداً بقدرته ، إنه لا يقدر عندهم على تغيير شيء من العالم ، بل ذلك لازم له لزوماً حقيقته أنه لم يفعل شيئاً ، بل ولا هو موجود ، وإن سموه علة ومعلولاً فعند التحقيق لا يرجعون إلى شيء محصل ، فإن في قولهم من التناقض والفساد أعظم مما في قول النصارى .

وقد ذكر طائفة من أهل الكلام أن قولهم بالعلة والمعلول من جنس قول غيرهم بالوالد والولد ، وأرادوا بذلك أن يجعلوهم من جنسهم في الذم ، وهذا تقصير عظيم ، بل أولئك خير من هؤلاء ، وهؤلاء إذا حققت ما يقوله من هو أقربهم إلى الإسلام ، كابن رشد الحفيد وجدت غايته أن يكون الرب شرطاً في وجود العالم لا فاعلاً له وكذلك من سلك مسلكهم من المدعين للتحقيق من ملاحدة الصوفية ، كابن عربي (2) وابن سبعين (3) ، حقيقة قولهم أن هذا العالم

---

(1) سورة مريم آية رقم ٨٨ - ٩٠ .

(2) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(3) هو عبد الحق بن ابراهيم بن محمد بن نصير ، ابن سبعين الأشبيلي المرسي ، أبو محمد ، فيلسوف

موجود واجب أزلي ، ليس له صانع غير نفسه ، وهم يقولون : الوجود واحد ، وحقيقة قولهم أنه ليس في الوجود خالق خلق موجوداً آخر .

وكلامهم في المعاد والنبوات والتوحيد شر من كلام اليهود والنصارى ، وعباد الأصنام ، فإن هؤلاء يجوزون عبادة كل صنم في العالم ، لا يخصون بعض الأصنام بالعبادة .

= ومن القائلين بوحدة الوجود درس العربية والآداب بالأندلس وانتقل الى سبتـه ، وصنف كتاب ، الحروف الوضعية في الصور الفلكية توفي عام ٦٦٩ هـ [راجع جلاء العينين ٥١ وفوات الوفيات ١ : ٢٤٧ وشذرات الذهب ٥ : ٣٢٩ والنجوم الزاهرة ٧ : ٢٣٢] .

فصل

وقد احتج بسورة الإخلاص من أهل الكلام المحدث من يقول : الرب تعالى جسم كبعض الذين وافقوا هشام [1] بن الحكم ، ومحمد بن كرام [2] ، وغيرهما ومن ينفي ذلك ويقول ليس بجسم ممن وافق جهم بن صفوان ، وأبا الهذيل [3] العلاف ، ونحوهما فأولئك قالوا : هو صمد ، والصمد لا جوف له وهذا إنما يكون في الأجسام المصمتة ، فإنها لا جوف لها ، كما في الجبال والصخور ، وما يصنع من عواميد الحجارة .

وكما قيل : إن الملائكة صمد ، ولهذا قيل : إنه لا يخرج منه شيء ، ولا يدخل فيه شيء . ولا يأكل ولا يشرب ، ونحو ذلك ، ونفي هذا لا يعقل إلا عمن هو جسم ، وقالوا : أصل « الصمد » الاجتماع ، ومنه تصميد المال ، وهذا إنما يعقل في الجسم المجتمع ، وأما النفاة فقالوا « الصمد » الذي لا يجوز عليه التفرق والانقسام وكل جسم في العالم يجوز عليه التفرق والانقسام وقالوا أيضاً : « الأحد » الذي لا يقبل التجزيء والانقسام، وكل جسم في العالم يجوز عليه التفرق والتجزيء والانقسام .

وقالوا : إذا قلتم : هو جسم كان مركباً ومؤلفاً من الجواهر الفردة ، أو

---

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٣) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

من المادة والصورة وما كان مركباً مؤلفاً من غيره كان مفتقراً إليه وهو سبحانه صمد ، والصمد الغني عما سواه فالمركب لا يكون صمداً .

فيقال : أما القول بأنه سبحانه مركب مؤلف من أجزاء ، وأنه يقبل التجزيء والانقسام والانفصال فهذا باطل شرعاً وعقلاً ، فإن هذا ينافي كونه صمداً كما تقدم ، وسواء أريد بذلك أنه كانت الأجزاء متفرقة ثم اجتمعت ، أو قيل : إنها لم تزل مجتمعة لكن يمكن انفصال بعضها عن بعض ، كما في بدن الإنسان وغيره من الأجسام ، فإن الإنسان وإن كان لم يزل مجتمع الأعضاء ، لكن يمكن أن يفرق بين بعضه من بعض والله سبحانه منزه عن ذلك ، ولهذا قدمنا أن كمال الصمدية له ، فإن هذا إنما يجوز على ما يجوز أن يفني بعضه أو يعدم ، وما قبل العدم والفناء لم يكن واجب الوجود بذاته ، ولا قديماً أزلياً ، فإن ما وجب قدمه امتنع عدمه ، وكذلك صفاته التي لم يزل موصوفاً بها وهي من لوازم ذاته ، فيمتنع أن يعدم اللازم إلا مع عدم الملزوم .

ولهذا قال من قال من السلف « الصمد » هو الدائم، وهو الباقي بعد فناء خلقه ، فإن هذا من لوازم الصمدية ، إذ لو قبل العدم لم تكن صمديته لازمة له ، بل جاز عدم صمديته فلا يبقى صمداً ، ولا تنتفي عنه الصمدية إلا بجواز العدم عليه ، وذلك محال فلا يكون مستوجباً للصمدية إلا إذا كانت لازمة له ، وذلك ينافي عدمه .

وهو مستوجب للصمدية ، لم يصر صمداً بعد أن لم يكن تعالى وتقدس ، فإن ذلك يقتضي أنه كان متفرقاً فجمع ، وأنه مفعول محدث مصنوع وهذه صفة مخلوقاته ، وأما الخالق القديم الذي يمتنع عليه أن يكون معدوماً أو مفعولاً أو محتاجاً إلى غيره بوجه من الوجوه فلا يجوز عليه شيء من ذلك ، فعلم أنه لم يزل صمداً ، ولا يزال صمداً ، فلا يجوز أن يقال : كان متفرقاً فاجتمع ، ولا أنه يجوز أن يتفرق بل ولا أن يخرج منه شيء ولا يدخل فيه شيء .

وهذا مما هو متفق عليه بين طوائف المسلمين ، سنيهم وبدعيهم وإن كان

أحد من الجهال أو من لا يعرف قد يقول خلاف ذلك .

فمثل هؤلاء لا تنضبط خيالاتهم الفاسدة ، كما أنه ليس في طوائف المسلمين من يقول : إنه مولود ووالد ، وإن كان هذا قد قاله بعض الكفار وقد قال المتفلسفة المنتسبون إلى الإسلام من التولد والتعليل ما هو شر من قول أولئك وأما إثبات الصفات له ، وأنه يرى في الآخرة وأنه يتكلم بالقرآن وغيره ، وكلامه غير مخلوق ، فهذا مذهب الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وأئمة المسلمين وأهل السنة والجماعة ، من جميع الطوائف .

والخلاف في ذلك مشهور مع الجهمية والمعتزلة وكثير من الفلاسفة والباطنية .

وهؤلاء يقولون إن اثبات الصفات يوجب أن يكون جسماً وليس بجسم ، فلا تثبت له الصفات .

قالوا : لأن المعقول من الصفات أعراض قائمة بجسم ، لا تعقل صفته إلا كذلك .

قالوا : والرؤية لا تعقل إلا مع المعاينة ، فالمعاينة لا تكون إلا إذا كان المرئي بجهة ، ولا يكون بجهة إلا ما كان جسماً .

قالوا : ولأنه لو قام به كلام أو غيره للزم أن يكون جسماً، فلا يكون الكلام المضاف إليه إلا مخلوقاً منفصلاً عنه .

وهذه المعاني مما ناظروا بها الإمام أحمد [1] في « المحنة » وكان ممن احتج على أن القرآن مخلوق بنفي التجسيم أبو عيسى محمد بن عيسى برغوث [2] ،

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٢) كان على مذهب النجار في أكثر مذاهبه ، وخالفه في تسمية المكتسب فاعلاً فامتنع منه . راجع في شأن فرقته : التبصير ص ٦٢ وأدمجهم الشهرستاني مع االنجارية ١ : ٨٨ وشرح عقيدة السفاريني ١ : ٩٠ .

تلميذ حسين [1] النجار وهو من أكابر المتكلمين ، فإن أبي دؤاد [2] كان قد جمع لـلإمام أحمـد من أمكنـه من متكلمي البصـرة وبغـداد وغيـرهم ممن يقـول : إن القرآن مخلوق وهذا القول لم يكن مختصاً بـالمعتزلـة كما يـظنه بعض النـاس ، فإن كثيـراً من أولئك المتكلمـين أو أكثرهم لم يكـونوا معتـزلة ، وبشـر [3] المريسي لم يكن من المعتـزلـة ، بـل فيهم نجـاريـة، ومنهم بـرغـوث ، وفيهم ضـراريـة ، وحفص [4] الفـرد الذي نـاظر الشـافعي كان من الضـرارية أتبـاع ضرار بن [5] عمرو .

وفيهم مرجئة ومنهم بشر المريسي .

وفيهم جهمية محضة ، ومنهم معتزلة ، وابن أبي دؤاد لم يكن معتزلياً ، بل كان جهمياً ينفي الصفات ، والمعتزلة تنفي الصفات فنفاة الصفات الجهمية أعم من المعتزلة .

---

(١) يسمى الحسـين بن محمد النجـار رئيس الفرقـة النجارية كان حـائكاً في طـراز العباس بن محمـد الهاشمي ، له مع النظام مجالس ومناظرات راجع الفهرست ص ٢٦٨ .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٣) هو بشر بن غياث بن أبي كريمة عبد الرحمن المريسي ، العـدوي بالـولاء أبو عبـد الرحمن ، فقيـه معتزلي عارف بالفلسفة يرمي بالزندقة ، وهو رأس الطائفة المريسية ، القائلة بالإرجـاء توفي عـام ٢١٨ هـ . [راجع وفيات الأعيان ١ : ٩١ والنجوم الزاهرة ٢ : ٢٢٨ وتـاريخ بغـداد ٧ : ٥٦ وميزان الاعتدال ١ : ١٥٠] .

(٤) هو حفص الفرد . قال عنه ابن النديم « من المجبرة ، ومن أكابرهم يكنى أبـا عمرو ، وكـان من أهل مصر ، قدم البصرة فسمع بأبي الهذيل واجتمع معه وناظره ، فقطعه أبو الهذيل ، وكان أولاً معتـزلياً ثم قـال بخلق الأفعال ، وكـان يكنى أبا يحيى ، ثم ذكـر له عـدة كتب (الفهرست ص ٢٦٩) وقـال الذهبي : حفص الفـرد : مبتدع . قـال النسائي : صـاحب كلام لكنـه لا يكتب حديثه ، وكفره الشافعي في مناظرته (ميزان الاعتدال ١ : ٥٦٤ ت ٢١٤٣) .

(٥) هو ضرار بن عمرو ، ظهر في أيام واصل بن عـطاء ، وقد وضـع بشر بن المـعتمـر كتابـاً في الرد على ضرار سماه « كتاب الرد على ضرار » وذكر صاحب الانتصار نقلاً عن الراوندي أن له كتـاباً سماه « التحريش » ذكر فيه مستند كل فرقة فيها هي عليه من كلام الرسـول ﷺ ـ ولا بد أنـه قد اختلق فيه ووضع وخب في الباطل ووضـع (الانتصار ١٣٦) ميـزان الاعتدال ٢ :٣٢٨ ت رقم ٣٩٥٣ .

فلما احتج عليه برغوث بأنه لـو كان يتكلم ويقـوم به الكـلام لكان جسـماً وهذا منفي عنه .

وأحمـد وأمثالـه من السلف كانـوا يعلمون أن هـذه الألفاظ التي ابتـدعهـا المتكلمون كلفظ الجسم وغيره ينفيهـا قوم ليتـوصلوا بنفيها إلى مـا أثبته الله تعـالى ورسوله ، ويثبتها قوم ليتوصلوا بإثباتها إلى إثبات ما نفاه الله ورسوله .

فالأولى طريقـة الجهمية من المعتـزلة وغيـرهم ، ينفون الجسم حتى يتـوهم المسلمون أن قصدهم التنزيه ، ومقصـودهم بذلـك أن الله لا يرى في الآخـرة ، وأنه لم يتكلم بالقرآن ولا غيره بل خلق كلاماً في غيره ، وأنـه ليس له علم يقـوم به ، ولا قدرة ولا حياة ، ولا غير ذلك من الصفات .

قال الإمام أحمـد في خطبتـه في « الرد عـلى الجهمية والـزنادقـة » الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى ، ويصبرون منهم عـلى الأذى يحيون بكتـاب الله الموتى ، ويبصـرون بنوره أهل العمى فكم من قتيل لإبليس قـد أحيوه ، وكم ضـال تائـه قد هـدوه ، فما أحسن أثـرهم على النـاس ، وأقبح أثـر النـاس عليهم ، ينفـون عن كتـاب الله تحـريف القالـين وانتحال المبـطلين ، وتأويـل الجـاهلين ، الـذين عقـدوا ألـويـة البـدعة ، وأطلقـوا عنان الفتنـة فيهم مختلفون في الكتـاب مخـالفـون للكتـاب ، مجتمعـون على مخـالفة الكتـاب ، يقولـون على الله وفي الله ، وفي كتـاب الله بغير علم ، يتكلمون بالمتشابه من الكلام ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم . فنعوذ بالله من فتن المضلين .

والثانية طريقة هشـام [1] وأتباعـه يحكى عنهم : أنهم أثبتوا مـا قد نـزه الله

---

(١) هو هشام بن الحكم الذي زعم أن معبوده ذو حـد ونهاية وأنـه طويـل ، عريض ، عميق ، وأن طوله مثل عرضه ، وعرضه مثل عمقه ، ولم يثبت طولاً غير الطويـل ، ولا عرضـاً غير العـريض الى غير ذلك من الكفر البواح .
انظر مقالات الاسلاميين ١ : ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٠ وما بعدها والفرق بـين الفرق ٦٥ .

نفسه عنه من اتصافه بالنقائص ، وبمماثلته للمخلوقات ، فأجابهم الإمام أحمد بطريقة الأنبياء وأتباعهم وهو الاعتصام بحبل الله الذي قال الله فيه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إلاَّ وَأَنْتُم مُسْلِمُونَ . وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا ﴾(١) وقال ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ الله النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الكِتَابَ بِالحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى الله الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِهِ وَالله يَهْدِي مَن يَشَاءُ إلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾(٢) .

وقال تعالى ﴿ آلمص . كِتَابٌ أُنزِلَ إلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إلَيْكُم مِن رَبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ ﴾(٣) .

وقال تعالى ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَىٰ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَىٰ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ اليَوْمَ تُنسَىٰ ﴾(٤) .

وقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا الله وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلَى الله وَالرَّسُولِ إن كُنتُم تُؤْمِنُونَ بِالله وَاليَوْمِ الآخر ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ (٥) تَأْوِيلاً ﴾ وقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ الله وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا الله إنَّ الله سَمِيعٌ عَلِيمٌ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٠٢ ـ ١٠٣ .
(٢) سورة البقرة آية رقم ٢١٣ .
(٣) سورة الأعراف آية رقم ١ ـ ٣ .
(٤) سورة طه آية رقم ١٢٣ ـ ١٢٦ .
(٥) سورة النساء آية رقم ٥٩ .

تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ (١)

وقال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالاً بَعِيداً . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً . أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً . وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً. فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً (٢) ﴾ وقوله تعالى ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾(٣) وقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (٤) .

وقوله تعالى ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (٥) .

---

(١) سورة الحجرات آية رقم ١ - ٢ .

(٢) سورة النساء آية رقم ٦٠ - ٦٥ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ١٥٣ .

(٤) سورة الأنعام آية رقم ١٥٩ .

(٥) سورة الروم آية رقم ٣٠ - ٣٢ .

وقوله ﴿ شَرَعَ لَكُم مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (١) .

فهذه النصوص وغيرها تبين أن الله أرسل الرسل وأنزل الكتب لبيان الحق من الباطل ، وبيان ما اختلف فيه الناس ، وأن الواجب على الناس اتباع ما أنزل إليهم من ربهم ، ورد ما تنازعوا فيه إلى الكتاب والسنة ، وأن من لم يتبع ذلك كان منافقاً وأن من اتبع الهدى الذي جاءت به الرسل فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذلك حشر أعمى ضالاً شقياً معذباً ، وأن الذين فرقوا دينهم قد برىء الله ورسوله منهم .

فاتبع الإمام أحمد طريقة سلفه من أئمة السنة والجماعة المعتصمين بالكتاب والسنة ، المتبعين ما أنزل الله إليهم من ربهم ، وذلك أن ننظر فما وجدنا الرب قد أثبته لنفسه في كتابه أثبتناه ، وما وجدناه قد نفاه عن نفسه نفيناه ، وكل لفظ وجد في الكتاب والسنة بالإثبات أثبت ذلك اللفظ ، وكل لفظ وجد منفياً نفي ذلك اللفظ .

وأما الألفاظ التي لا توجد في الكتاب والسنة ، بل ولا في كلام الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وسائر أئمة المسلمين لا إثباتها ولا نفيها .

وقد تنازع فيها الناس ، فهذه الألفاظ لا تثبت ولا تنفى إلا بعد الاستفسار عن معانيها .

فإن وجدت معانيها مما أثبته الرب لنفسه أثبتت وإن وجدت مما نفاه الرب عن نفسه نفيت ، وإن وجدنا اللفظ أثبت به حق وباطل ، أو نفى به حق وباطل ، أو كان مجملاً يراد به حق وباطل ، وصاحبه أراد به

---

(١) سورة الشورى آية رقم ١٣ .

بعضها ، لكنه عند الإطلاق يوهم الناس أو يفهمهم ما أراد وغير ما أراد .

فهذه الألفاظ لا يطلق إثباتها ولا نفيها ، كلفظ الجوهر والجسم والتحيز والجهة ونحو ذلك من الألفاظ التي تدخل في هذا المعنى ، فقل من تكلم بها نفياً أو إثباتا إلا وأدخل فيها باطلاً ، وأن أراد بها حقاً .

والسلف والأئمة كرهوا هذا الكلام المحدث ، لاشتماله على باطل وكذب ، وقول على الله بلا علم ، وكذلك ذكر أحمد في رده على الجهمية أنهم يفترون على الله فيما ينفونه عنه ، ويقولون عليه بغير علم ، وكل ذلك مما حرمه الله ورسوله ، ولم يكره السلف هذه لمجرد كونها اصطلاحية ، ولا كرهوا الاستدلال بدليل صحيح جاء به الرسول بل كرهوا الأقوال الباطلة المخالفة للكتاب والسنة ولا يخالف الكتاب والسنة إلا ما هو باطل ، لا يصح بعقل ولا سمع ولهذا لما سئل أبو العباس بن سريج عن التوحيد فذكر توحيد المسلمين وقال : وأما توحيد أهل الباطل فهو الخوض في الجواهر والأعراض ، وإنما بعث الله النبي ﷺ بإنكار ذلك ، ولم يرد بذلك أنه أنكر هذين اللفظين ، فإنهما لم يكونا قد أحدثا في زمنه ، وإنما أراد إنكار ما يعني بهما من المعاني الباطلة ، فإن أول من أحدثهما الجهمية والمعتزلة وقصدهم بذلك إنكار صفات الله تعالى أو أن يرى ، أو أن يكون له كلام يتصف به ، وأنكرت الجهمية أسماءه أيضاً .

وأول من عرف عنه إنكار ذلك الجعد بن درهم ، فضحى به خالد بن عبد الله [1] القسري بواسط وقال : يا أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم ،

---

(١) هو خالد بن عبد الله بن يزيد بن اسد القسري من بجيله أبو الهيثم، أمير العراقيين ، وأحد خطباء العرب وأجوادهم من أهل دمشق ، رمي في آخر آيامه بالزندقة توفي عام ١٢٦ هـ [راجع الأغاني ١٩ - ٥٣ وتهذيب ابن عساكر ٥ : ٦٧ - ٨٠ والوفيات ١ : ١٦٩ وتهذيب التهذيب وابن خلدون ٣ : ١٠٥] .

فإني مضحٍ بالجعد بن درهم [1] ، إنه زعم أن الله لم يتخذ ابراهيم خليلاً ، ولم يكلم موسى تكليماً ، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً ، ثم نزل فذبحه وكلام السلف والأئمة في ذم هذا الكلام وأهله مبسوط في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا : أن أئمة السنة كأحمد بن حنبل وغيره كانوا إذا ذكرت لهم أهل البدع الألفاظ المجملة كلفظ الجسم والجوهر والحيز ونحوها لم يوافقوهم لا على إطلاق الإثبات ، ولا على إطلاق النفي ، وأهل البدع بالعكس ، ابتدعوا ألفاظاً ومعانى ، إما في النفي ، وإما في الاثبات ، وجعلوها هي الأصل المعقول المحكم ، الذي يجب اعتقاده والبناء عليه ثم نظروا في الكتاب والسنة فما أمكنهم أن يتأولوه على قولهم تأولوه ، وإلا قالوا هذا من الألفاظ المتشابهة المشكلة التي لا ندري ما أريد بها ، فجعلوا بدعهم أصلاً محكماً ، وما جاء به الرسول فرعاً له ومشكلاً : إذا لم يوافقه وهذا أصل الجهمية والقدرية وأمثالهم ، وأصل الملاحدة من الفلاسفة الباطنية ، جميع كتبهم توجد على هذا الطريق ومعرفة الفرق بين هذا وهذا من أعظم ما يعلم به الفرق بين الصراط المستقيم الذي بعث الله به رسوله ، وبين السبل المخالفة له ، وكذلك الحكم في المسائل العلمية الفقهية ، ومسائل أعمال القلوب وحقائقها وغير ذلك كل هذه الأمور قد دخل فيها ألفاظ ومعان محدثة وألفاظ ومعان مشتركة .

فالواجب أن يجعل ما أنزله الله من الكتاب والحكمة أصلاً في جميع هذه الأمور، ثم يرد ما تكلم فيه الناس إلى ذلك ويبين ما في الألفاظ المجملة من المعاني الموافقة للكتاب والسنة فتقبل ، وما فيها من المعاني المخالفة للكتاب

---

(١) هو الجعد بن درهم المبتدع ، له أخبار في الزندقة ، أخذ عنه مروان بن محمد لما ولي الجزيرة، في أيام هشام بن عبد الملك توفي نحو ١١٨ هـ . [راجع ميزان الاعتدال ١ : ١٨٥ والكامل لابن الأثير ٥ : ١٦٠ ولسان الميزان ٢ : ١٠٥ والنجوم الزاهرة ١ : ٣٢٢] .

والسنة فترد ولهذا كل طائفة أنكر عليها ما ابتدعت احتجت بما ابتدعته الأخرى كما يوجد في ألفاظ أهل الرأي والكلام والتصوف ، وإنما يجوز أن يقال في بعض الآيات إنه مشكل ومتشابه إذا ظن أنه يخالف غيره من الآيات المحكمة البينة ، فإذا جاءت نصوص بينة محكمة بأمر ، وجاء نص آخر يظن أن ظاهره يخالف ذلك يقال في هذا إنه يرد المتشابه إلى المحكم أما إذا نطق الكتاب أو السنة بمعنى واحد لم يجز أن يجعل ما يضاد ذلك المعنى هو الأصل ، ويجعل ما في القرآن والسنة مشكلاً متشابهاً فلا يقبل ما دل عليه .

نعم قد يشكل على كثير من الناس نصوص لا يفهمونها ، فتكون مشكلة بالنسبة إليهم لعجز فهمهم عن معانيها ، ولا يجوز أن يكون في القرآن ما يخالف صريح العقل والحس ، وفي القرآن بيان معناه ، فإن القرآن جعله الله شفاءاً لما في الصدور ، وبياناً للناس ، فلا يجوز أن يكون بخلاف ذلك ، لكن قد تخفى آثار الرسالة في بعض الأمكنة والأزمنة حتى لا يعرفون ما جاء به الرسول ﷺ .

إما أن لا يعرفوا اللفظ ، وإما أن يعرفوا اللفظ ولا يعرفوا المعنى ، فحينئذ يصيرون في جاهلية بسبب عدم نور النبوة ، ومن ها هنا يقع الشرك ، وتفريق الدين شيعاً ، كالفتن التي تحدث السيف .

فالفتن القولية والعملية هي من الجاهلية بسبب خفاء نور النبوة عنهم ، كما قال مالك بن أنس (١) : إذا قل العلم ظهر الجفاء ، وإذا قلت الآثار ظهرت الأهواء .

ولهذا شبهت الفتن بقطع الليل المظلم ، ولهذا قال أحمد في خطبته :

« الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة بقايا من أهل العلم » .

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

فالهدى الحاصل لأهل الأرض إنما هو من نور النبوة كما قال تعالى ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾[1] .

فأهل الهدى والفلاح : هم المتبعون للأنبياء وهم المسلمون المؤمنون في كل زمان ومكان ، وأهل العذاب والضلال هم المكذبون للأنبياء ، يبقى أهل الجاهلية الذين لم يصل إليهم ما جاءت به الأنبياء .

فهؤلاء في ضلال وجهل وشرك وشر ، لكن الله يقول : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾[2] .

وقال ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾[3] .

وقال ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ القُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي القُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾[4] .

فهؤلاء لا يهلكهم الله ويعذبهم حتى يرسل إليهم رسولاً رسولاً .

وقد رويت آثار متعددة في أن من لم تبلغه الرسالة في الدنيا فإنه يبعث إليه رسول يوم القيامة في عرصات القيامة .

وقد زعم بعضهم أن هذا يخالف دين المسلمين ؛ فإن الآخرة لا تكليف فيها ، وليس كما قال ، إنما ينقطع التكليف إذا دخلوا دار الجزاء الجنة أو النار ، وإلا فهم في قبورهم ممتحنون ومفتونون يقال لأحدهم : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ وكذلك في عرصات القيامة يقال : ليتبع كل قوم ما كانوا يعبدون فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ، ومن كان يعبد القمر القمر ، ومن كان

---

(٢) سورة طه آية رقم ١٢٣ .
(٢) سورة الاسراء آية رقم ١٥ .
(٣) سورة النساء آية رقم ١٦٥ .
(٤) سورة القصص آية رقم ٥٩ .

يعبد الطواغيت الطواغيت ، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها ، فيأتيهم الله في صورة غير الصورة التي رأوه فيها أول مرة، ويقول : أنا ربكم ، فيقولون ، نعوذ بالله منك ، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا .

وفي رواية فيسألهم ويثبتهم، وذلك امتحان لهم، هل يتبعون غير الرب الذي عرفوا أنه الله الذي تجلى لهم أول مرة ، فيثبتهم الله تعالى عند هذه المحنة ، كما يثبتهم في فتنة القبر ، فإذا لم يتبعوه لكونه أتى في غير الصورة التي يعرفون أتاهم حينئذ في الصورة التي يعرفون فيكشف عن ساق فإذا رأوه خروا له سجدا ، إلا من كان منافقاً ، فإنه يريد السجود فلا يستطيعه ، يبقى ظهره مثل الطبق وهذا المعنى مستفيض عن النبي ﷺ في عدة أحاديث ثابتة من حديث أبي هريرة ، وأبي سعيد ، وقد أخرجاهما في الصحيحين ، ومن حديث جابر ، وقد رواه مسلم من حديث ابن مسعود ، وأبي موسى ، وهو معروف من رواية أحمد وغيره ، فدل ذلك على أن المحنة إنما تنقطع إذا دخلوا دار الجزاء ، وأما قبل دار الجزاء امتحان وابتلاء .

فإذا انقطع عن الناس نور النبوة وقعوا في ظلمة الفتن وحدثت البدع والفجور ، ووقع الشر بينهم، كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال « سألت ربي ثلاثاً فأعطاني اثنين ، ومنعني الثالثة ، سألته أن لا يهلك أمتي بسنة عامة فأعطانيها ، وسألته أن لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فيجتاحهم فأعطانيها وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها »[1] .

والبأس مشتق من البؤس ، قال الله تعالى :

﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يُلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾[2] .

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ٦٥ .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه لما نزل قوله تعالى ﴿ **قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم** ﴾ قال : أعوذ بوجهك ﴿ **أو من تحت أرجلكم** ﴾ قال : أعوذ بوجهك ﴿ **أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض** ﴾ قال : هاتان أهون » (١) فدل على أنه لا بد أن يلبسهم شيعاً ، ويذيق بعضهم بأس بعض مع براءة الرسول في هذه الحال ، وهم فيها في جاهلية .

ولهذا قال الزهري : وقعت الفتنة وأصحاب رسول الله ﷺ متوافرون ، فأجمعوا على أن كل دم أو مال أو فرج ، أصيب بتأويل القرآن فهو هدر ، أنزلوهم منزلة الجاهلية .

وقد روى مالك بإسناده الثابت عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول : ترك الناس العمل بهذه الآية تعني قوله تعالى ﴿ **وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا** ﴾ (٢) .

فإن المسلمين لما اقتتلوا كان الواجب الإصلاح بينهم كما أمر الله تعالى ، فلما لم يعمل بذلك صارت فتنة وجاهلية . وهكذا مسائل النزاع التي تنازع فيها الأمة في الأصول والفروع إذا لم ترد إلى الله والرسول لم يتبين فيها الحق ، بل يصير فيها المتنازعون على غير بينة من أمرهم ، فإن رحمهم الله أقر بعضهم بعضاً ، ولم يبغ بعضهم على بعض ، كما كان الصحابة في خلافة عمر وعثمان يتنازعون في بعض مسائل الاجتهاد فيقر بعضهم بعضاً ، ولا يعتدي عليه ، وإن لم يرحموا وقع بينهم الاختلاف المذموم ، فبغى بعضهم على بعض إما بالقول مثل تكفيره وتفسيقه ، وإما بالفعل مثل حبسه وضربه وقتله ، وهذه حال أهل البدع والظلم كالخوارج وأمثالهم، يظلمون الأمة ويعتدون عليهم إذا نازعوهم في بعض مسائل الدين ، وكذلك سائر أهل الأهواء ، فإنهم يبتدعون بدعة،

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث .

(٢) سورة الحجرات آية رقم ٩ .

ويكفرون من خالفهم فيها كما تفعل الرافضة والمعتزلة والجهمية وغيرهم والذين امتحنوا الناس بخلق القرآن كانوا من هؤلاء ابتدعوا بدعة وكفروا من خالفهم فيها ،واستحلوا منع حقه وعقوبته .

فالناس إذا خفي عليهم بعض ما بعث الله به الرسول ﷺ ، إما عادلون وإما ظالمون فالعادل فيهم الذي يعمل بما وصل إليه من آثار الأنبياء ولا يظلم غيره ، والظالم الذي يعتدي على غيره ، وهؤلاء ظالمون مع علمهم بأنهم يظلمون ، كما قال تعالى ﴿ **وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَةُ** ﴾[1] . وإلا فلو سلكوا ما علموه من العدل أقر بعضهم بعضاً كالمقلدين لأئمة الفقه الذين يعرفون من أنفسهم أنهم عاجزون عن معرفة حكم الله ورسوله في تلك المسائل فجعلوا أئمتهم نواباً عن الرسول ، وقالوا : هذه غاية ما قدرنا عليه ، فالعادل منهم لا يظلم الآخر ولا يعتدي عليه بقول ولا فعل ، مثل أن يدعي أن قول متبوعه هو الصحيح بلا حجة يبديها ، ويذم من يخالفه مع أنه معذور وكان الذين امتحنوا أحمد وغيره من هؤلاء الجاهلين فابتدعوا كلاماً متشابهاً نفوا به الحق ، فأجابهم أحمد لما ناظروه في المحنة ، وذكروا الجسم ونحو ذلك ، وأجابهم بأني أقول كما قال الله تعالى ﴿ **قل هو الله أحد الله الصمد** ﴾ وأما لفظ الجسم فلفظ مبتدع محدث ، ليس على أحد أن يتكلم به البتة ، والمعنى الذي يراد به مجمل ، ولم تبينوا مرادكم حتى نوافقكم على المعنى الصحيح ، فقال : ما أدري ما تقولون ؟ لكن أقول « الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » .

يقول : ما أدري ما تعنون بلفظ الجسم ، فأنا لا أوافقكم على إثبات لفظ ونفيه ، إذ لم يرد الكتاب والسنة بإثباته ولا نفيه ، إن لم ندر معناه الذي عناه

---

(١) سورة البينة آية رقم ٤ وقد جاءت الآية محرفة حيث ذكر ﴿ **ما جاءهم العلم بغياً بينهم** ﴾ وهذه آية أخرى في سورة الشورى آية ١٤ ﴿ **وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم** ﴾ والله أعلم .

المتكلم فإن عنى في النفي والإثبات ما يوافق الكتاب والسنة وافقناه وإن عنى ما يخالف الكتاب والسنة في النفي والإثبات لم نوافقه . ولفظ « الجسم » و« الجوهر » ونحوهما لم يأت في كتاب الله ولا سنة رسوله ، ولا كلام أحد ـ من الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ، وسائر أئمة المسلمين ـ التكلم بها من حق الله تعالى لا بنفي ولا إثبات ولهذا قال أحمد في رسالته إلى المتوكل : لا أحب الكلام في شيء من ذلك إلا ما كان في كتاب الله ، أو في حديث عن رسول الله ﷺ أو عن الصحابة أو التابعين لهم بإحسان ، وأما غير ذلك فإن الكلام فيه غير محمود وذكر أيضاً فيما حكاه عن الجهمية أنهم يقولون : ليس فيه كذا ولا كذا ولا كذا ، وهو كما قال ، فإن لفظ الجسم له في اللغة التي نزل بها القرآن معنى ، كما قال تعالى :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ (١) .

وقال تعالى ﴿ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ (٢) قال ابن عباس: كان طالوت أعلم بني اسرائيل بالحرب وكان يفوق الناس بمنكبيه وعنقه ورأسه ، و« البسطة » السعة .

قال ابن قتيبة : هو من قولك بسطت الشيء إذا كان مجموعاً ففتحته ووسعته .

قال بعضهم : والمراد بتعظيم الجسم فضل القوة إذ العادة أن من كان أعظم جسماً كان أكثر قوة فهذا لفظ الجسم في لغة العرب التي نزل بها القرآن

قال الجوهري : قال أبو زيد الأنصاري : الجسم : الجسد وكذلك الجسمان والجثمان .

وقال الأصمعي : الجسم والجسد والجثمان الشخص .

---

(١) سورة المنافقون آية رقم ٤ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٤٧ .

وقال جماعة : جسم الإنسان يقال له الجثمان ، وقد جسم الشيء أي عظم ، فهو جسيم وجسام ، والجسام بالكسر جمع جسيم .

قال أبو عبيدة : تجسمت فلاناً من بين القوم أي اخترته كأنك قصدت جسمه ، كما تقول : تأتيته أي قصدت أتيه وشخصه ، وأنشد أبو عبيدة :

تجسمته من بينهن بمرهف

وتجسمت الأرض إذا أخذت نحوها تريدها ، وتجسم من الجسم وقال ابن السكيت : تجسمت الأمر أي ركبت أجسمه وجسيمه ، أي معظمه .

قال : وكذلك تجسمت الرمل والجبل ، أي ركبت أعظمه والأجسم الأضخم .

قال عامر بن طفيل [1] :

لقد علم الحي من عامر بأن لنا الذروة الأجسما

فهذا الجسم في لغة العرب ، وعلى هذا فلا يقال للهواء جسم ولا للنفس الخارج من الإنسان جسم ، ولا لروحه المنفوخة فيه جسم .

ومعلوم أن الله سبحانه لا يماثل شيئاً من ذلك ، لا بدن الإنسان ولا غيره ، فلا يوصف الله تعالى بشيء من خصائص المخلوقين ، ولا يطلق عليه من الأسماء ما يختص بصفات المخلوقين ، فلا يجوز أن يقال : هو جسم ولا جسد « وأما أهل الكلام » فالجسم عندهم أعم من هذا ، وهم مختلفون في معناه اختلافاً كثيراً عقلياً ، واختلافاً لفظياً اصطلاحياً ، فهم يقولون : كل ما يشار

---

(١) هو عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر العامري ، من بني عامر بن صعصعة ، فارس قومه ، وأحد فتاك العرب وشعرائهم وسادتهم في الجاهلية ، ولد ونشأ بنجد ، وكان يأمر منادياً في سوق عكاظ ينادي ، هل من راجل فنحمله ، أو جائع فنطعمه ، أو خائف فنؤمنه . .؟ وخاض المعارك الكبيرة ، وأدرك الإسلام شيخاً كان من أعداء الاسلام والمسلمين توفي عام ١١ هـ . [راجع خزانة الأدب للبغدادي ١ : ٤٧١ ، ٤٧٤ والبيان والتبيين ١ : ٣٢] .

إليه إشارة حسية فهو جسم ، ثم اختلفوا بعد هـذا ، فقال كثـير منهم : كل مـا كان كذلك فهو مركب من الجواهر الفردة .

ثم منهم من قال : الجسم أقل ما يكون جوهراً بشرط أن ينضم إلى غيره ،وقيل : بل الجوهران ، والجواهر فصاعداً ، وقيل بل أربعة فصاعداً ، وقيل : بل ستة ، وقيل : بل ثمانية وقيل : بل ستة عشر ، وقيل : بل اثنان وثلاثون ، وهذا قول من يقول : إن الأجسام كلها مركبة من الجواهر التي لا تنقسم .

وقال آخرون من أهل الفلسفة : كل الأجسام مركبة من الهيولى والصورة لا من الجواهر الفردة .

وقال كثير من أهل الكلام وغير أهل الكلام : ليست مركبة لا من هذا ولا من هذا ، ولا من هذا ولا من هذا ، وهذا قول الهشامية [1] والكلابية والضرارية [2] ، وغيرهم من الطوائف الكبار لا يقولون بالجوهر الفرد ولا بالمادة والصورة، وآخرون يدعون إجماع المسلمين على إثبات الجوهر الفرد ، كما قال أبو المعالي[3] وغيره : اتفق المسلمون على أن الأجسام تتناهى في تجزئها وانقسامها حتى تصير أفراداً ، ومع هذا فقد شك هو فيه ، وكذلك شك فيه أبو الحسين البصري ، وأبو عبد الله الرازي .

---

(١) هما فرقتان ؛ فرقة تنسب الى هشام بن الحكم الرافضي ، والفرقة الثانية تنسب الى هشام بن سالم الجواليفي ، وكلتا الفرقتين قد ضمت الى حيرتها في الإمامة ضلالتها في التجسيم ، وبدعتها في التشبيه .
انظر مقالات الاسلاميين ١ : ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، والتبصير ٢٣ .

(٢) سبق الحديث عنها في كلمة وافية .

(٣) هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني أبو المعالي ركن الدين الملقب بامام الحرمين ، أعلم المتأخرين من أصحاب الشافعي ولد عام ٤١٩ ـ وتوفي عام ٤٧٨ هـ. [راجع وفيات الأعيان ١ : ٢٨٧ والسبكي ٣:٢٤٩ ومفتاح السعادة ١ : ٤٤٠ ثم ٢ : ١٨٨ وتبيين كذب المفتري ٢٧٨ ـ ٢٨٥] .

ومعلوم أن هذا القول لم يقله أحد من أئمة المسلمين لا من الصحابة ، ولا من التابعين لهم بإحسان ولا أحد من أئمة العلم المشهورين بين المسلمين .

وأول من قال ذلك في الإسلام طائفة من الجهمية والمعتزلة وهذا من الكلام الذي ذمه السلف وعابوه ، ولكن حاكي هذا الإجماع لما لم يعرف أصول الدين إلا ما في كتب الكلام ولم يجد إلا من يقول بذلك اعتقد هذا إجماع المسلمين والقول بالجوهر الفرد باطل ، والقول بالهيولى والصورة باطل وقد بسط الكلام على هذه المقالات في مواضع أخر . وقال آخرون : الجسم هو القائم بنفسه ، وكل قائم بنفسه جسم ، وكل جسم فهو قائم بنفسه ، وهو مشار إليه واختلفوا في الأجسام هل هي متماثلة أم لا ؟ على قولين مشهورين وإذا عرف ذلك فمن قال : إنه جسم ، وأراد أنه مركب من الأجزاء فهذا قوله باطل ، وكذلك إن أراد أنه يماثل غيره من المخلوقات فقد علم بالشرع والعقل أن الله ليس كمثله شيء في شي من صفاته .

فمن أثبت لله مثلاً في شيء من صفاته فهو مبطل . ومن قال : إنه جسم بهذا المعنى فهو مبطل . ومن قال : إنه ليس بجسم بمعنى أنه لا يرى في الآخرة ولا يتكلم بالقرآن وغيره من الكلام ولا يقوم به العلم والقدرة وغيرهما من الصفات ، ولا ترفع الأيدي إليه في الدعاء ولا عرج بالرسول ﷺ إليه ، ولا يصعد إليه بالكلم الطيب ، ولا تعرج الملائكة والروح إليه فهذا قوله باطل .

وكذلك كل من نفى ما أثبته الله ورسوله ، وقال : إن هذا تجسيم فنفيه باطل ، وتسمية ذلك تجسيماً تلبيس منه ، فإنه إن أراد أن هذا في اللغة يسمى جسماً فقد أبطل وإن أراد أن هذا يقتضي أن يكون جسماً مركباً من الجواهر الفردة ، أو من المادة والصورة ، أو أن هذا يقتضي أن يكون جسماً ، والأجسام متماثلة ، قيل له : أكثر العقلاء يخالفونك في تماثل الأجسام المخلوقة ، وفي أنها مركبة ، فلا يقولون : إن الهواء مثل الماء ، ولا أبدان الحيوان مثل الحديد والجبال ، فكيف يوافقونك على أن الرب تعالى يكون مماثلاً لخلقه، إذا أثبتوا له

ما أثبت له الكتاب والسنة ؟! والله تعالى قد نفى المماثلات في بعض المخلوقات وكلاهما جسم كقوله ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ (1) مع أن كلاهما بشر ، فكيف يجوز أن يقال : إذا كان لرب السموات علم وقدرة أنه يكون مماثلاً لخلقه ؟! والله تعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله .

ونكتة الأمر أن الجسم في اعتقاد هذا النافي يستلزم مماثلة سائر الأجسام ، ويستلزم أن يكون مركباً من الجواهر الفردة أو من المادة والصورة ، وأكثر العقلاء يخالفونه في هذا التلازم وهذا التلازم منتف باتفاق الفريقين . وهو المطلوب فإذا اتفقوا على انتفاء النقص المنفي عن الله شرعاً وعقلاً بقي بحثهم في الجسم الاصطلاحي ، هل هو مستلزم لهذا المحذور ؟ وهو بحث عقلي كبحث الناس في الأعراض هل تبقى أو لا تبقى ؟

وهذا البحث العقلي لم يرتبط به دين المسلمين ، بل لم ينطق كتاب ولا سنة ، ولا أثر من السلف بلفظ الجسم في حق الله تعالى لا نفياً ولا اثباتاً ، فليس لأحد أن يبتدع اسماً مجملاً يحتمل معاني مختلفة ، لم ينطق به الشرع ويعلق به دين المسلمين ، ولو كان قد نطق باللغة العربية فكيف إذا أحدث للفظ معنى آخر .

والمعنى الذي يقصده إذا كان حقاً عبر عنه بالعبارة التي لا لبس فيها ، فإذا كان معتقده أن الأجسام متماثلة وأن الله ليس كمثله شيء ، وهو سبحانه لا سمي له ولا كفو له ، ولا ند له ، فهذه عبارات القرآن تؤدي هذا المعنى بلا تلبيس إن نزاع ، وإن كان معتقده أن الأجسام غير متماثلة ، وأن كل ما يرى وتقوم به الصفات فهو جسم ، فإن عليه أن يثبت ما أثبته الله ورسوله من علمه وقدرته وسائر صفاته . كقوله ﴿ولا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ (2)

(1) سورة محمد آية رقم ٣٨ .

(2) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .

وقوله ﴿ إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِينُ ﴾ [1] وقوله عليه السلام في حديث الاستخارة « اللهم إني استخيرك بعلمك ، واستقدرك بقدرتك » [2] .

وقوله في الحديث الآخر « اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق » [3] .

ويقول كما قال رسول الله ﷺ « إنكم ترون ربكم يوم القيامة عياناً كما ترون الشمس والقمر لا تضامون في رؤ يته » [4] .

فشبه الرؤ ية بالرؤ ية ، وإن لم يكن المرئي كالمرائي فهذه عبارات الكتاب والسنة عن هذا المعنى الصحيح بلا تلبيس ولا نزاع بين أهل السنة المتبعين للكتاب والسنة أقوال الصحابة ، ثم بعد هذا من كان قد تبين له معنى من جهة العقل إنه لازم للحق لم يدفعه عن عقله فلازم الحق حق ، لكن ذلك المعنى لا بد أن يدل الشرع عليه فيبينه بالالفاظ الشرعية ، وإن قدّر أن الشرع لم يدل عليه لم يكن مما يجب على الناس اعتقاده ، وحينئذ فليس لأحد أن يدعو الناس إليه ، وإن قدر أنه في نفسه حق .

« ومسألة » تماثل الأجسام وتركيبها من الجواهر الفردة قد اضطرب فيها جماهير أهل الكلام ، وكثير منهم يقول بهذا تارة ، وبهذا تارة .

وأكثر ذلك لأجل الألفاظ المجملة والمعاني المتشابهة وقد بسط الكلام عليه في غير هذا الموضع .

لكن المقصود هنا : أنه لو قدر أن الإنسان تبين له أن الأجسام ليست متماثلة ، ولا مركبة لا من هذا ، ولا من هذا لم يكن له أن يبتدع في دين الإسلام قوله : إن الله جسم ، ويناظر على المعنى الصحيح الذي دل عليه الكتاب والسنة ، بل يكفيه إثبات ذلك المعنى بالعبارات الشرعية ، ولو قدر أنه

---

(1) سورة الذاريات آية رقم ٥٨ .
(2) سبق تخريج هذا الحديث .
(3) سبق تخريج هذا الحديث .
(4) سبق تخريج هذا الحديث .

تبين له أن الأجسام متماثلة ، وأن الجسم مركب ، لم يكن له أن يبتدع النفي بهذا الاسم ، ويناظر على معناه الذي اعتقده بعقله ، بل ذلك المعنى المعلوم بالشرع والعقل يمكن إظهاره بعبارة لا إجمال فيها ولا تلبيس والذين يقولون : إن الجسم مركب من الجواهر يدعي كثير منهم أنه كذلك في لغة العرب ؛ لأن العرب يقولون هذا أجسم من هذا ، يريدون به أنه أكثر أجزاء منه ، ويقولون : هذا جسيم أي كثير الأجزاء .

قال : والتفضيل بصيغة أفعل إنما يكون لما يدل عليه الاسم فإذا قيل : هذا أعلم وأحلم ، كان ذلك دالاً على الفضيلة فيما دل عليه لفظ العلم والحلم ، فلما قالوا أجسم ، لما كان أكثر أجزاء دل على أن لفظ الجسم عندهم المراد به المركب، فمن قال : جسم وليس بمركب فقد خرج عن لغة العرب .

قالوا : وهذه تخليطة في اللفظ ، وإن كنا لا نكفره إذا لم يثبت خصائص الجسم من التركيب والتأليف وقد نازعهم بعضهم في قولهم : هذا أجسم من هذا وقالوا : ليس هذا اللفظ من لغة العرب كما يحكى عن أبي زيد فيقال له : لا ريب أن العرب تقول : هذا جسيم ، أي عظيم الجثة ، وهذا أجسم من هذا أي : أعظم جثة ، لكن كون العرب تعتقد أن ذلك لكثرة الأجزاء التي هي الجواهر الفردة ، إنما يكون إذا كان أهل اللغة قاطبة يعتقدون أن الجسم مركب من الجواهر الفردة والجوهر الفرد هو شيء قد بلغ من الصغر والحقارة إلى أنه لا يتميز يمينه من يساره .

ومعلوم أن أكثر العقلاء من بني آدم لا يتصور الجوهر الفرد ، والذين يتصورونه أكثرهم لا يثبتونه والذين أثبتوه إنما يثبتونه بطرق خفية طويلة بعيدة ، فيمتنع أن يكون اللفظ الشائع في اللغة التي ينطق بها خواصها وعوامها أرادوا به هذا وقد علم بالاضطرار أن أحداً من الصحابة والتابعين لهم بإحسان لم ينطق بإثبات الجوهر الفرد ولا بما يدل على ثبوته عنده ، بل ولا العرب قبلهم ولا سائر الأمم الباقين على الفطرة ، ولا اتباع الرسل ، فكيف يدعى عليهم أنهم لم يقولوا

لفظ جسم إلا لما كان مركباً مؤلفاً؟!

ولو قلت لمن شئت من العرب : الشمس والقمر والسماء مركب عندك من أجزاء صغار كل منها لا يقبل التجزي ، أو الجبال أو الهواء أو الحيوان أو النبات لم يتصور هذا المعنى إلا بعد كلفة ثم إذا تصوره قد يكذبه بفطرته ، ويقول : كيف يمكن أن يكون الشيء لا يتميز منه جانب عن جانب ؟!

وأكثر العقلاء من طوائف المسلمين وغيرهم ينكرون الجوهر الـفرد ، فالفقهاء قاطبة تنكره وكذلك أهل الحديث والتصوف .

ولهذا كان الفقهاء متفقين على استحالة بعض الأجسام الى بعض كاستحالة العذرة رماداً ، والخنزير ملحاً ثم تكلموا في هذه الاستحالة هل تطهر أم لا تطهر والقائلون بالجوهر الفرد لا تستحيل الذوات عندهم بل تلك الجواهر التي كانت في الأول هي بعينها في الثاني ، وإنما اختلف التركيب ، ولهذا يتكلم بلفظ التركيب في الماء ونحوه من الفقهاء المتأخرين من كان قد أخذ هذا التركيب عن المتكلمين ، ويقول : إن الماء يفارق غيره في التركيب فقط .

وكذلك القائلون بالجوهر الفرد عندهم أنا لم نشاهد قط إحداث الله تعالى لشيء من الجواهر والأعيان القائمة بنفسها .

وأن جميع ما يخلقه من الحيوان والنبات والمعدن والثمار والمطر والسحاب ، وغير ذلك إنما هو جمع الجواهر وتفريقها ، وتغيير صفاتها من حال إلى حال ، لا أنه يبدع شيئاً من الجواهر والأجسام القائمة بأنفسها ، وهذا القول أكثر العقلاء ينكره ويقول : هو مخالف للحس والعقل والشرع فضلاً عن أن يكون الجسم في لغة العرب مستلزماً لهذا المعنى .

ثم الجسم قد يراد به الغلظ نفسه ، وهو عرض قائم بغيره ، وقد يراد به الشيء الغليظ ، وهو القائم بنفسه.

فنقول : هذا الثوب له جسم ، أي غلظ ، وقوله : ﴿ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي

الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ [1] قد يحتج به على هذا ، فإنه قرن الجسم بالعلم الذي هو مصدر .

فنقول : المعنى ﴿ زاده بسطة ﴾ في قدره ، فجعل قدر بدنه أكبر من بدن غيره ، فيكون الجسم هو القدر نفسه لا نفس المقدر .

وكذلك قوله تعالى ﴿ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾ [2] أي : صورهم القائمة بأبدانهم كما تقول: أعجبني حسنه وجماله ولونه وبهاؤه ، فقد يراد صفة الأبدان ، وقد يراد نفس الأبدان وهم إذا قالوا : هذا أجسم من هذا أرادوا أنه أغلظ وأعظم منه ، أما كونهم يريدون بذلك أن ذلك العظم والغلظ كان لزيادة الأجزاء فهذا مما يعلم قطعاً أنه لم يخطر ببال أهل اللغة إلا من أخذ ذلك عمن اعتقده من أهل الكلام المحدث الذي أحدث في الإسلام بعد انقراض عصر الصحابة ، وأكثر التابعين ، فإن هذا لم يعرف في الإسلام من تكلم له ، أو بمعناه إلا في أواخر الدولة الأموية ، لما ظهر جهم بن صفوان [3] والجعد بن درهم [4] ، ثم ظهر في المعتزلة .

فقد تبين أن من قال : الجسم هو المؤلف المركب واعتقد أن الأجسام مركبة من الجواهر الفردة فقد ادعى معنى عقلياً ينازعه فيه أكثر العقلاء من بني آدم .

ولم ينقل عن أحد من السلف أنه وافقه عليه ، وأنه جعل لفظ الجسم في اصطلاحه يدل على معنى لا يدل عليه اللفظ في اللغة ، فقد غير معنى اللفظ في اللغة ، وادعى معنى عقلياً فيه نزاع طويل ، وليس معه من الشرع ما يوافق ما ادعاه من معنى اللفظ ، ولا ما ادعاه من المعنى العقلي ، فاللغة لا تدل على ما قال والشرع لا يدل على ما قال ، والعقل لم يدل على مسميات الألفاظ وإنما يدل

---

(1) سورة البقرة آية رقم ٢٤٧ .
(2) سورة المنافقون آية رقم ٤ .
(3) سبق الترجمة له في كلمة وافية .
(4) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

على المعنى المجرد ، وذلك فيه نزاع طويل ، ونحن نعلم بالاضطرار أن ذلك المعنى الذي وجب نفيه عن الله لا يحتاج نفيه إلى ما أحدثه هذا من دلالة اللفظ، ولا ما ادعاه من المعنى العقلي بل الذين جعلوا هذا عمدتهم في تنزيه الرب على نفي مسمى الجسم لا يمكن أن ينزهوه عن شيء من النقائص البتة .

فإنهم إذا قالوا : هذا من صفات الأجسام فكل ما أثبتوه هو أيضاً من صفات الأجسام ، مثل كونه حياً عليماً قديراً بل كونه موجوداً قائماً بنفسه، فإنهم لا يعرفون هذا في الشاهد إلا جسماً .

فإذا قال المنازع : أنا أقول فيما نفيتموه نظير قولكم فيما أثبتموه انقطعوا .

ثم هؤلاء لهم في استحقاق الرب لصفات الكمال عندهم ، هل علم بالإجماع فقط ، أو علم بالعقل أيضاً ؟

فيه قولان :

فمن قال : إن ذلك لم يعلم بالعقل كأبي المعالي والرازي وغيرهما لم يبق معهم دليل عقلي ينزهون به الرب عن كثير من النقائص هذا إذا لم ينف إلا ما يجب نفيه عن الله ، مثل نفيه للنقائص ، فإنه يجب تنزيه الرب عنها ، وينفي عنه مماثلة المخلوقات ، فإنه كما يجب تنزيه الرب عن كل نقص وعيب يجب تنزيهه عن أن يماثله شيء من المخلوقات في شيء من صفات الكمال الثابتة له .

وهذان النوعان يجمعان التنزيه الواجب لله ، و**﴿ قل هو الله أحد ﴾** دلت على النوعين .

فقوله **﴿ أحد ﴾** مع قوله **﴿ لم يكن له كفوا أحد ﴾** ينفي المماثلة والمشاركة .

وقوله **﴿ الصمد ﴾** يتضمن جميع صفات الكمال ، فالنقائص جنسها منفي عن الله تعالى .

وكل ما اختص به المخلوق فهو من النقائص التي يجب تنزيه الرب عنها ، بخلاف ما يوصف به الرب .

ويوصف العبد بما يليق به : مثل العلم والقدرة والرحمة ونحو ذلك ، فإن هذه ليست نقائص ، بل ما ثبت لله من هذه المعاني فإنه يثبت لله على وجه لا يقاربه فيه أحد من المخلوقات ، فضلاً عن أن يماثله فيه ، بل ما خلقه الله في الجنة من المآكل والمشارب والملابس لا يماثل ما خلقه في الدنيا وإن اتفقا في الاسم وكلاهما مخلوق .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء .

فقد أخبر الله أن في الجنة لبناً وخمراً وعسلاً وماء وحريراً وذهباً وفضة ، وتلك الحقائق ليست مثل هذه وكلاهما مخلوق ، فالخالق تعالى أبعد عن مماثلة المخلوقات من المخلوق إلى المخلوق .

وقد سمى الله نفسه علياً ، حليماً ، رؤوفاً، رحيماً ، سميعاً ، بصيراً ، عزيزاً ، ملكاً ، جباراً ، متكبراً ، مؤمناً ، عظيماً ، كريماً ، غنياً ، شكوراً ، كبيراً حفيظاً ، شهيداً ، حقاً ، وكيلاً ، ولياً .

وسمى أيضاً بعض مخلوقاته بهذه الأسماء ، فسمى الإنسان سميعاً بصيراً ، وسمى نبيه رؤوفاً رحيماً وسمى بعض عباده ملكاً ، وبعضهم شكوراً ، وبعضهم عظيماً ، وبعضهم حليماً وعليماً .

وسائر ما ذكر من الأسماء ، مع العلم بأنه ليس المسمى بهذه الأسماء من المخلوقين مماثلاً للخالق جل جلاله في شيء من الأشياء . وكذلك النزاع في لفظ التحيز والجهة ونحو ذلك ، فمن الناس من يقول : هو متحيز ، وهو في جهة ، ومنهم من يقول : ليس بمتحيز ، وليس في جهة ، ومنهم من يقول : هو في جهة وليس بمتحيز . ولفظ المتحيز يتناول الجسم ، والجوهر الفرد .

ولفظ الجوهر قد يراد به المتحيز، وقد يراد به الجوهر الفرد .

ومن الفلاسفة من يدعي إثبات جواهر قائمة بأنفسها غير متحيزة ومتأخروا أهل الكلام كالشهرستاني[1] والرازي والآمدي[2] ونحوهم يقولون : ليس في العقل ما يحيل ذلك .

ولهذا كان من سلك سبيل هؤلاء ـ وهو إنما يثبت حدوث العالم بحدوث الأجسام ـ يقول بتقدير وجود جواهر عقلية ، فليس في هذا الدليل ما يدل على حدوثها ، ولهذا صار طائفة ممن خلط الكلام بالفلسفة إلى قدم الجواهر العقلية ، وحدوث الأجسام ، وأن السبب الموجب لحدوثها هو حدوث تصور من تصورات النفس ، وبعض أعيان المصنفين كان يقول بهذا . وكذلك الأرموي صاحب « اللباب » الذي أجاب عن شبهة الفلاسفة على دوام الفاعلية المتضمنة أنه لا بد للحدوث من سبب ، فأجاب بالجواب الباهر الذي أخذه من كلام الرازي في « المطالب العالية » فإنه أجاب به، وهو في «المثالب العالية» يخلط كلام الفلاسفة بكلام المتكلمين ، وهو في مسألة الحدوث والقدم حائر ، وهذا الجواب من أفسد الأجوبة فإنه يقال : ما الموجب لحدوث تلك التصورات دائماً ثم إن النفس عندهم لا بد أن تكون متصلة بالجسم فيمتنع وجود نفس بدون جسم .

وأيضاً فالذي علم بالاضطرار من دين الرسل أن كل ما سوى الله مخلوق محدث كائن بعد أن لم يكن . وأيضاً : فما تثبته الفلاسفة من الجواهر العقلية إنما يوجد في الذهن لا في الخارج ، وأما أكثر المتكلمين فقالوا : انتفاء هذه معلوم

---

(١) هو محمد بن عبد الكريم بن أحمد أبو الفتح الشهرستاني من فلاسفة الاسلام ، كان إماماً في علم الكلام وأديان الأمم ومذاهب الفلاسفة ولد في شهرستان عام ٤٧٩ هـ من كتبه الملل والنحل ، ونهاية الأقدام في علم الكلام توفي عام ٥٤٨ هـ [راجع وفيات الأعيان ١ : ٤٨٢ وتاريخ حكماء الاسلام ١٤١ وآداب اللغة ٣ : ٩٩ ولسان الميزان ٥ : ٢٦٣] .

(٢) هو علي بن محمد بن سالم التغلبي أبو الحسن ، سيف الدين الآمدي ، أصولي باحث ، أصله من آمد « ديار بكر » ولد بها عام ٥٥١ ، حسده بعض الفقهاء فتعصبوا عليه ونسبوه الى فساد العقيدة ، والتعطيل ومذهب الفلاسفة ، توفي عام ٦٣١ هـ [راجع ابن خلكان ١ : ٣٢٩ والسبكي ٥ : ١٢٩ وميزان الاعتدال ١ : ٤٣٩ وفيه كان يترك الصلاة ، ونفي من دمشق لسوء اعتقاده] .

بضرورة العقل وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع وبين أن ما تدعي الفلاسفة إثباته من الجواهر العقلية التي هي العقل والنفس والمادة والصورة فلا حقيقة لها في الخارج ، وإنما هي أمور معقولة في الذهن يجردها العقل من الأمور المعينة ، كما يجرد العقل الكليات المشتركة بين الأصناف : كالحيوانية الكلية والإنسانية الكلية ، والكليات إنما تكون كليات في الأذهان لا في الأعيان .

ومن هؤلاء من يظن أنها تكون في الخارج كليات وأن في الخارج ماهيات كلية مقارنة للأعيان غير الموجودات المعينة ، وكذلك منهم من يثبت كليات مجردة عن الأعيان يسمونها « المثل الأفلاطونية » ومنهم من يثبت دهراً مجرداً عن المتحرك والحركة ، ويثبت خلاءاً مجرداً ليس هو متحيزاً ولا قائماً بمتحيز . ويثبت هيولى مجردة عن جميع الصور، والهيولى في لغتهم بمعنى المحل .

يقال : الفضة هيولى الخاتم ، والدرهم والخشب هيولى الكرسي .

أي هذا المحل الذي تصنع فيه هذه الصورة ، وهذه الصورة الصناعية عرض من الأعراض ، ويدعون أن للجسم هيولى محل الصورة الجسمية غير نفس الجسم القائم بنفسه ، وهذا غلط ، وإنما هذا يقدر في النفس كما يقدر امتداد مجرد عن كل ممتد ، وعدد مجرد عن كل معدود ، ومقدار مجرد عن كل مقدر وهذه كلها أمور مقدرة في الأذهان ، لا وجود لها في الأعيان ، وقد اعترف بذلك من عادته نصر الفلاسفة من أهل النظر .

كما قد بسط هذا في غير هذا الموضع .

فالجواهر العقلية التي يثبتها هؤلاء الفلاسفة يعلم بصريح العقل بعد التصور التام انتفاؤها في الخارج وأما الملائكة الذين أخبر الله عنهم فهذه لا يعرفها هؤلاء الفلاسفة أتباع أرسطو[1] ، ولا يذكرونها بنفي ولا إثبات ، كما لا يعرفون النبوات ، ولا يتكلمون عليها بنفي ولا إثبات ، إنما تكلم في ذلك

---

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

متأخروهم كابن سينا [1] وأمثاله ، الذين أرادوا أن يجمعوا بين النبوات وبين الفلسفة ، فلبسوا ودلسوا .

وكذلك « العلة الأولى » التي يثبتونها لهذا العالم إنما أثبتوا علة غائية يتحرك الفلك للتشبه بها وتحريكها للفلك من جنس تحريك الإمام المقتدى به للمؤتم المقتدي ، إذا كان يحب أن يتشبه بإمامه ويقتدي بإمامه ، ولفظ « الإله» في لغتهم يراد به المتبوع الإمام الذي يتشبه به ، فالفلك عندهم يتحرك للتشبه بالإله ، ولهذا جعلوا « الفلسفة العليا » و« الحكمة الأولى » انما هي التشبه بالإله على قدر الطاقة ، وكلام أرسطو [2] في علم ما بعد الطبيعة في « مقالة اللام » التي هي منتهى فلسفته وفي غيرها كله يدور على هذا ، وتارة يشبه تحريكه للفلك بتحريك المعشوق للعاشق لكن التحريك هنا قد يكون لمحبة العاشق ذات المعشوق ، أو لغرض يناله منه ، وحركة الفلك عندهم ليست كذلك ، بل يتحرك ليتشبه بالعلة الأولى ، فهو يحبها أي يحب التشبه بها ، لا يحب أن يعبدها ، ولا يحب شيئاً يحصل منها ، ويشبه ذلك أرسطو بحركة النواميس لاتباعها ، أي اتباع الناموس قائمون بما في الناموس ، ويقتدون به . والناموس عندهم هي السياسة الكلية للمدائن التي وضعها لهم ذوو الرأي والعقل ، لمصلحة دنياهم لئلا يتظالموا ، ولا تفسد دنياهم .

---

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٢) هو أرسطو بن نيقوماخس الفيثاغوري ، تتلمذ على أفلاطون وتصدر بعده ، وكان أفلاطون يقدمه على جميع تلاميذه ويؤثره بالرعاية ، والى أرسطو انتهت فلسفة اليونانيين ، فكان هو خاتمة حكامهم ، وسيد علمائهم ، وهو الذي خلص صناعة البرهان من سائر صناعات المنطق وصورها بالأشكال وجعلها آلة العلوم النظرية ، وله في جميع فروع الفلسفة كتب قيمة ، وكان هو معلم الاسكندر بن فيلبس المقدوني ، وله رسائل بعثها إليه ، ولم يعن فلاسفة الاسلام بشيء من الفلسفة اليونانية بقدر عنايتهم بفلسفة أرسطو ، وله كتاب في الحيوان تسع عشرة مقالة ، وقد نقله ابن البطريق إلى العربية ، ونقل من قبل الى السريانية . (انظر تاريخ الحكماء ٢٧ ـ ٥٣ ، وفهرس ابن النديم ٣٥٩) .

ومن عرف النبوات منهم يظن أن شرائع الأنبياء من جنس نواميسهم ، وأن المقصود بها مصلحة الدنيا بوضع قانون عدلي .

ولهذا أوجب ابن سينا وأمثاله النبوة ، وجعلوا النبوة لا بد منها لأجل وضع هذا الناموس .

ولما كانت الحكمة العملية عندهم هي الخلقية والمنزلية والمدنية ، جعلوا ما جاءت به الرسل من العبادات والشرائع والأحكام هي من جنس الحكمة الخلقية والمنزلية والمدنية ، فإن القوم لا يعرفون الله ، بل هم أبعد عن معرفته من كفار اليهود والنصارى بكثير وأرسطو المعلم الأول من أجهل الناس برب العالمين إلى الغاية ، لكن لهم معرفة جيدة بالأمور الطبيعية وهذا بحر علمهم ، وله تفرغوا ، وفيه ضيعوا زمانهم ، وأما معرفة الله تعالى فحظهم منها منجوس جدا وأما ملائكته وأنبياؤه وكتبه ورسله والمعاد فلا يعرفون ذلك البتة ، ولم يتكلموا فيه لا بنفي ولا إثبات ، وإنما تكلم في ذلك متأخروهم الداخلون في الملل .

وأما قدماء اليونان فكانوا مشركين من أعظم الناس شركاً وسحراً ، يعبدون الكواكب والأصنام ، ولهذا عظمت عناياتهم بعلم الهيئة والكواكب لأجل عبادتها .

وكانوا يبنون لها الهياكل ، وكان آخر ملوكهم « بطليموس » صاحب المجسطي .

ولما دخلت الروم في النصرانية فجاء دين المسيح صلوات الله عليه وسلامه أبطل ما كانوا عليه من الشرك . ولهذا بدل من بدل دين المسيح فوضع ديناً مركباً من دين الموحدين ودين المشركين ، فإن أولئك كانوا يعبدون الشمس والقمر والكواكب ، ويصلون لها ويسجدون ، فجاء قسطنطين ملك النصارى ومن اتبعه فابتدعوا الصلاة إلى المشرق ، وجعلوا السجود إلى الشمس بدلاً عن السجود لها ، وكان أولئك يعبدون الأصنام المجسدة التي لها ظل ، فجاءت

النصارى وصورت تماثيل القداديس في الكنائس ، وجعلوا الصور المرقومة في الحيطان والسقوف بدل الصور المجسدة القائمة بأنفسها التي لها ظل .

وأرسطو كان وزير الاسكندر بن فيلبس المقدوني - نسبة إلى مقدونية - وهي جزيرة هؤلاء الفلاسفة اليونانيين الذين يسمون المشائين ، وهي اليوم خراب ، أو غمرها الماء ، وهو الذي يؤرخ له النصارى واليهود التاريخ الرومي وكان قبل المسيح بنحو ثلاثمائة سنة ، فيظن من يعظم هؤلاء الفلاسفة أنه كان وزيراً لذي القرنين المذكور في القرآن ، ليعظم بذلك قدره ، وهذا جهل . فإن ذا القرنين كان قبل هذا بمدة طويلة جداً . وذو القرنين بنى سد يأجوج ومأجوج ، وهذا المقدوني ذهب إلى بلاد فارس ، ولم يصل إلى بلاد الصين فضلاً عن السد .

والملائكة التي أخبر الله ورسوله بها لا يعلم عددهم إلا الله تعالى ، ليسوا عشرة ولا تسعة ، وهم عباد الله أحياء ناطقون ، ينزلون إلى الأرض ، ويصعدون إلى السماء ، ولا يفعلون إلا بإذن ربهم كما أخبر الله عنهم بقوله ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ . لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ. يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ، وَلاَ يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ [1] وقال تعالى ﴿ وَكَم مِن مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إلاَّ مِن بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ [2] .

وأمثال هذه النصوص .

وهـؤلاء يدعون أن العقول قديمة أزلية ، وأن العقل الفعال هو رب كل

---

(١) سورة الأنبياء آية رقم ٢٨ .

(٢) سورة النجم آية رقم ٢٦ .

ما تحت هذا الفلك . والعقل الأول هو رب السموات والأرض وما بينهما والملاحدة الذين دخلوا معهم من أتباع بني عبيد كأصحاب رسائل إخوان الصفا ، وغيرهم ، وكملاحدة الصوفية مثل ابن عربي [1] ، وابن سبعين[2] ، وغيرهما يحتجون لمثل ذلك بالحديث الموضوع « أول ما خلق الله العقل » وفي كلام أبي حامد الغزالي [3] في « الكتب المضنون بها على غير أهلها » وغير ذلك من معاني هؤلاء قطعة كبيرة .

ويعبر عن مذاهبهم بلفظ الملك والملكوت والجبروت ، ومراده بذلك الجسم والنفس والعقل فيأخذ هؤلاء العبارات الاسلامية ويودعونها معاني هؤلاء ، وتلك العبارات مقبولة عند المسلمين فإذا سمعوها قبلوها ، ثم إذا عرفوا المعاني التي قصدها هؤلاء ضل بها من لم يعرف حقيقة دين الإسلام .

وأن هذه معاني هؤلاء الملاحدة ليست هي المعاني التي عناها محمد ﷺ - وإخوانه المرسلون مثل موسى وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ولهذا ضل كثير من المتأخرين بسبب هذا الالتباس وعدم المعرفة بحقيقة ما جاء به الرسول ، وما يقوله هؤلاء حتى يضل بهم خلق من أهل العلم ، والعبادة ، والتصوف ، ومن ليس له غرض في مخالفة محمد ﷺ ، بل يجب اتباعه مطلقاً ، ولو عرف أن هذا مخالف لما جاء به لم يقبله ، لكن لعدم كمال علمه بمعاني ما أخبر به الرسول ومقاصد هؤلاء ، يقبل هذا ، لا سيما إذا كان المتكلم به ممن له نصيب وافر في العلم والكلام والتصوف والزهد والفقه والعبادة .

ورأى الطالب أن هذا مرتبته فوق مرتبة الفقهاء الذين إنما يعرفون الشرع الظاهر ، وفوق مرتبة المحدث الذي غايته أن ينقل ألفاظاً لا يعلم معانيها ، وكذلك المقرىء والمفسر ، ورأى من يعظمه من أهل الكلام إما موافق لهم ، وإما

---

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٣) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

خائف منهم ، ورأى بحوث المتكلمين معهم في مواضع كثيرة لم يأتوا بتحقيق يبين فساد قولهم ، بل تارة يوافقونهم على أصول لهم تكون فاسدة ، وتارة يخالفونهم في أمر قالته الفلاسفة ويكون حقاً ، مثل من يرى كثيراً من المتكلمين يخالفهم في أمور طبيعية ورياضية ظاناً أنه ينصر الشرع، ويكون الشرع موافقاً لما علم بالعقل مثل استدارة الأفلاك ، فإنه لم يعلم بين السلف خلاف في أنها مستديرة والآثار بذلك معروفة . والكتاب والسنة قد دلا على ذلك ، وكذلك استحالة الأجسام بعضها إلى بعض ، هو مما اتفق عليه الفقهاء، كما قال هؤلاء ، إلى أمور أخر .

لكن كثيراً من المتكلمين أو أكثرهم لا خبرة لهم بما دل عليه الكتاب والسنة وآثار الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، بل ينصر مقالات يظنها دين المسلمين ، بل إجماع المسلمين ، ولا يكون قد قالها أحد من السلف ، بل الثابت عن السلف مخالف لها .

فلما وقع بين المتكلمين تقصير وجهل كثير بحقائق العلوم الشرعية ، وهم في العقليات تارة يوافقون الفلاسفة على باطلهم ، وتارة يخالفونهم في حقهم ، صارت المناظرات بينهم دولاً . وإن كان المتكلمون أصح مطلقاً في العقليات الالهية والكلية ، كما أنهم أقرب إلى الشرعيات من الفلاسفة ، فإن الفلاسفة كلامهم في الالهيات والكليات العقلية كلام قاصر جداً وفيه تخليط كثير ، وإنما يتكلمون جيداً في الأمور الحسية الطبيعية ، وفي كلياتها ، فكلامهم فيها في الغالب جيد .

وأما الغيب الذي تخبر به الأنبياء والكليات العقلية التي تعم الموجودات كلها ، وتقسيم الموجودات كلها قسمة صحيحة فلا يعرفونها البتة ، فإن هذا لا يكون إلا ممن أحاط بأنواع الموجودات وهم لا يعرفون إلا الحسيات ، وبعض لوازمها وهذا معرفة بقليل من الموجودات جدا ، فإن ما لا يشهده الآدميون من الموجودات أعظم قدراً وصفة مما يشهدونه بكثير .

ولهذا كان هؤلاء الذين عرفوا ما عرفته الفلاسفة إذا سمعوا أخبار الأنبياء بالملائكة والعرش والكرسي والجنة والنار ، وهم يظنون أن لا موجود إلا ما علموه هم والفلاسفة : يصيرون حائرين متأولين لكلام الأنبياء على ما عرفوه ، وإن كان هذا لا دليل عليه ، وليس لهم بهذا النفي علم ، فإن عدم العلم ليس علماً بالعدم لكن نفيهم هذا كنفي الطبيب للجن ، لأنه ليس في صناعة الطب ما يدل على ثبوت الجن ، وإلا فليس في علم الطب ما ينفي وجود الجن ، وهكذا تجد من عرف نوعاً من العلم وامتاز به على العامة الذين لا يعرفونه فيبقى بجهله نافياً لما لم يعلمه ، وبنو آدم ضلالهم فيما جحدوه ونفوه بغير علم أكثر من ضلالهم فيما أثبتوه وصدقوا به .

قال تعالى ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ [1].

وهذا لأن الغالب على الآدميين صحة الحسن والعقل، فإذا أثبتوا شيئاً وصدقوا به كان حقاً ولهذا كان التواتر مقبولاً من جميع أجناس بني آدم ، لأنهم يخبرون عما شاهدوه وسمعوه وهذا أمر لا يشترك الخلق العظيم في الغلط فيه ولا من تعمد الكذب فيه ، فإذا علم أنهم لم يتواطؤا عليه ، ولم يأخذه بعضهم عن بعض ، كما تؤخذ المذاهب والآراء التي يتلقاها المتأخر عن المتقدم، وقد علم أن هذا مما لا يغلط فيه عادة علم قطعاً صدقهم فإن المخبر إما أن يتعمد الكذب ، وإما أن يغلط وكلاهما مأمون في المتواترات ، بخلاف ما نفوه وكذبوا به ، فإن غالبهم أو كثيراً منهم ينفون ما لا يعلمون ويكذبون بما لم يحيطوا بعلمه .

فصار هؤلاء الذين ظنوا الموجودات ما عرفه هؤلاء المتفلسفة ، إذا سمعوا ما أخبرت به الأنبياء من العرش والكرسي قالوا : العرش هو الفلك التاسع ، والكرسي هو الثامن ، وقد تكلمنا على ذلك في مسألة الإحاطة ، وبينا جهل من قال هذا عقلاً وشرعاً ، وإذا سمعهم يذكرون الملائكة ظن أنهم العقول والنفوس التي يثبتها المتفلسفة ، والقوى التي في الأجسام ، وكذلك الجن والشياطين يظن

---

(١) سورة يونس آية رقم ٣٩ .

أنها أعراض قائمة بالنفوس ، حيث كان هذا مبلغه من العلم وكذلك يظن ما ذكره ابن سينا وأمثاله من أن الغرائب في هذا العالم سببها قوة فلكية ، أو طبيعية أو نفسانية ويجعل معجزات الأنبياء من باب القوى النفسانية ، وهي من جنس السحر ، لكن الساحر قصده الشر ، والنبي قصده الخير ، وهذا كله من الجهل بالأمور الكلية المحيطة بالموجودات وأنواعها ، ومن الجهل بما جاء به الرسول ، فلا يعرفون من العلوم الكلية ولا العلوم الالهية إلا ما يعرفه الفلاسفة المتقدمون ، وزيادات تلقوها عن بعض أهل الكلام، أو عن أهل الملة فلهذا صار كلام المتأخرين كابن سينا وأمثاله في الالهيات والكليات أجود من كلام سلفه ، ولهذا قربت فلسفة اليونان إلى أهل الإلحاد المبتدعة من أهل الملل ، لما فيها من شوب الملة ، ولهذا دخل فيها بنو عبيد الملاحدة ، فأخذوا عن هؤلاء الفلاسفة الصابئة المشركين العقل والنفس ، وعن المجوس النور والظلمة ، وسموهم السابق والتالي وكذلك الملاحدة المنتسبون إلى التصوف والتأله كابن سبعين وأمثاله سلكوا مسلكاً جمعوا فيه بزعمهم بين الشرع والفلسفة ، وهم ملاحدة ليسوا من الثنتين والسبعين فرقة .

وقد بسط الكلام على هؤلاء وهؤلاء في غير هذا الموضع .

وإنما ذكروا هنا لأن أهل الكلام المحدث صاروا ـ لعدم علمهم بما علمه السلف وأئمة السنة من الكتاب والسنة وآثار الصحابة ، ولما وقعوا فيه من الكلاميات الباطلة ـ يدخل بسببهم هؤلاء الفلاسفة في الإسلام أموراً باطلة ، ويحصل بهم من الضلال والغي ما لا يتسع هذا الموضع لذكره .

ولما أحدثت الجهمية محنتهم ، ودعوا الناس إليها وضرب أحمد بن حنبل في سنة عشرين ومائتين ، كان مبدأ حدوث القرامطة [1] الملاحدة الباطنية من

---

(١) القرامطة : دعوة اسماعيلية متطرفة جداً ، ظهرت سنة ٩٠٠ م في واسط بين الكوفة والبصرة ، وكان زعيمها حمدان قرمط ، وقد اعتنق الفكرة بعض الأعراب ، والأنباط والزنج المستعبدين وانتهى الأمر بهؤلاء أن جعلوا كل شيء مشاعاً بين الجميع إلا السيوف .

ذلك الزمان فصارت البدع باب الإلحاد ، كما أن المعاصي بريد الكفر ولبسط هذا موضع آخر .

والمقصود هنا : الكلام على لفظ التحيز والجهة ، وهؤلاء المتكلمون المتفلسفة صار بينهم نزاع من الملائكة ، هل هي متحيزة أم لا ؟

فمن مال إلى الفلسفة ورأى أن الملائكة هي العقول والنفوس التي يثبتها الفلاسفة ، وأن تلك ليست متحيزة ، لا سيما وطائفة من الفلاسفة لم تجعل عددها عشرة عقول وتسعة نفوس ، كما هو المشهور عن المشائين ، بل قال : لا دليل على نفي الزيادة ، ورأى النبوات قد أخبرت بكثرة الملائكة ، فأراد أن يثبت كثرتهم بطريقة فلسفية ، كما فعل ذلك أبو البركات صاحب « المعتبر » والرازي في « المطالب العالية » وغيرهما .

وأما المتكلمون فإنهم يقولون : إن كل ممكن أو كل محدث أو كل مخلوق فهو : إما متحيز ، وإما قائم بمتحيز وكثير منهم يقول : كل موجود إما متحيز ، وإما قائم بمتحيز ، ويقولون : لا يعقل موجود إلا كذلك كما قاله طوائف من أهل الكلام والنظر .

ثم المتفلسفة كابن سينا وأتباعه والشهرستاني والرازي وغيرهم لما أرادوا إثبات موجود ليس كذلك كان أكبر عمدتهم إثبات الكليات كالإنسانية المشتركة والحيوانية المشتركة ، وإذا كانت هذه لا تكون كليات إلا في الذهن ، فلم ينازعهم الناس في ذلك ، وإنما نازعوهم في إثبات موجود خارج الذهن قائم بنفسه لا يمكن الإحساس به بحال بل لا يكون معقولاً .

وقالوا لهم : المعقول ما كان في العقل ، وأما ما كان موجوداً قائماً بنفسه فلا بد أن يمكن الإحساس به وإن لم نحس نحن به في الدنيا ، كما لا نحس بالجن والملائكة وغير ذلك ، فلا بد أن يحس به غيرنا كالملائكة والجن ، وأن يحس به بعد الموت ، أو في الدار الآخرة ، أو يحس به بعض الناس دون بعض

في الدنيا كالأنبياء الذين رأوا الملائكة وسمعوا كلامهم .

وهذه الطريقة ـ وهو أن كل قائم بنفسه يمكن رؤيته ـ هي التي سلكها أئمة النظار ، كابن كلاب وغيره ، وسلكها ابن الزاغوني [1] وغيره .

وأما من قال : إن كل موجود يجوز رؤيته أو يجوز أن يحس بسائر الحواس الخمس ، كما يقوله الأشعري وموافقوه كالقاضي أبي يعلى ، وأبي المعالي وغيرهما فهذه الطريقة مردودة عند جماهير العقلاء ، بل يقولون : فسادها معلوم بالضرورة ، بعد التصور التام ، كما بسط في موضعه .

وكذلك نزاعهم في روح الإنسان التي تفارقه بالموت على قول الجمهور الذين يقولون : هي عين قائمة بنفسها ليست عرضاً من أعراض البدن كالحياة وغيرها ، ولا جزءاً من أجزاء البدن كالهواء الخارج منه ، فإن كثيراً من المتكلمين زعموا أنها عرض قائم بالبدن ، أو جزء من أجزاء البدن ، لكن هذا مخالف للكتاب والسنة ، وإجماع السلف والخلف ، ولقول جماهير العقلاء من جميع الأمم ، ومخالف للأدلة العقلية .

وهذا مما استطال به الفلاسفة على كثير من أهل الكلام قال القاضي أبو بكر : أكثر المتكلمين على أن الروح عرض من الأعراض ، وبهذا نقول : إذا لم يعن بالروح النفس ، فإنه قال : الروح الكائن في الجسد ضربان أحدهما : الحياة القائمة به ، والآخر النفس والنفس ريح ينبث به .

والمراد بالنفس ما يخرج بنفس التنفس من أجزاء الهواء المتحلل من المسام ، وهذا قول الاسفراييني وغيره .

---

(١) هو علي بن عبيد الله بن نصر بن السري أبو الحسن بن الزاغوني مؤرخ فقيه من أعيان الحنابلة ، من أهل بغداد ، قال ابن رجب كان متفنناً في علوم شتى من الأصول والفروع ، والحديث والوعظ وصنف في ذلك كله « من كتبه تاريخ على السنين » والخلاف الكبير ، والمفردات كلها في الفقه ، وغير ذلك توفي عام ٥٢٧ هـ . [راجع الذيل على طبقات الحنابلة ١ : ٢١٦ واللباب ١ : ٤٨٩ وشذرات الذهب ٤ : ٨] .

وقال ابن فورك [1] : هو ما يجري في تجاويف الأعضاء وأبو المعالي خالف هؤلاء وأحسن في مخالفتهم فقال : إن الروح أجسام لطيفة مشابكة للأجسام المحسوسة ، أجرى الله العادة بحياة الأجساد ما استمرت مشابكتها لها ، فإذا فارقتها تعقب الموت الحياة في استمرار العادة .

ومذهب الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر سلف الأمة وأئمة السنة : أن الروح عين قائمة بنفسها تفارق البدن ، وتنعم وتعذب ، ليست هي البدن ولا جزءاً من أجزائه ، كالنفس المذكور .

ولما كان الإمام أحمد ممن نص على ذلك ، كما نص عليه غيره من الأئمة لم يختلف أصحابه في ذلك لكن طائفة منهم كالقاضي أبي يعلى زعموا أنها جسم وأنها الهواء المتردد في مخاريق البدن ، موافقة لأحد المعنيين الذين ذكرهما ابن الباقلاني [2] .

وهذه الأقوال لما كانت من أضعف الأقوال تسلط بها عليهم خلق كثير .

والمقصود هنا أن الذين قالوا : إنها عين قائمة بنفسها غير البدن وأجزائه وأعراضه تنازعوا : هل هي جسم متحيز ؟

على قولين كتنازعهم في الملائكة .

فالمتكلمون منهم يقولون : جسم ، والمتفلسفة يقولون : جوهر عقلي ليس بجسم ، وقد أشرنا فيما تقدم إلى أن ما تسميه المتفلسفة جواهر عقلية لا توجد إلا في الذهن ، وأصل تسميتهم المجردات والمفارقات هو مأخوذ من نفس الإنسان فإنها لما كانت تفارق بدنه بالموت ، وتتجرد عنه سموها مفارقة مجردة ثم

---

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٢) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر أبو بكر ، قاض من كبار علماء الكلام ولد عام ٣٣٨ ـ وتوفي عام ٤٠٣ هـ سبق الترجمة له ، وراجع : [وفيات الأعيان ١ : ٤٨١ وقضاة الأندلس ٣٧ ـ ٤٠ وتاريخ بغداد ٥ : ٣٧٩] .

أثبتـوا ما أثبتـوه من العقول والنفـوس وسموهـا مفارقـات ومجردات ، بنـاء عـلى ذلك ، وهم يريدون بالمفارق للمادة مـا لا يكون جسـماً ولا قائـماً بجسم ، لكن النفس متعلقـة بالجسم تعلق التـدبير والعقـل ، ولا تعلق له بالأجسام أصلاً ولا ريب أن جماهير العقـلاء على إثبـات الفـرق بـين البـدن والـروح التي تفـارق ، والجمهور يسمون ذلك روحاً ، وهذا جسماً ، لكن لفظ الجسم في اللغة ليس هو الجسم في اصـطلاح المتكلمين بـل الجسم هـو الجسـد كـما تقـدم ، وهـو الجسم الغليظ أو غلظه ، والروح ليست مثل البدن في الغلظ والكثافة ولذلك لا تسمى جسماً ، فمن جعل الملائكة والأرواح ونحـو ذلك ليست أجسـاماً بـالمعنى اللغوي فقد أصاب في ذلك ، ورب العالمين أولى أن لا يكون جسـماً ، فإنـه من المشهور في اللغـة الفـرق بـين الأرواح والأجسـام وأمـا أهـل الاصطـلاح من المتكلمـين والمتفلسفـة فيجعلون مسمى الجسم أعم من ذلـك ، وهـو مـا أمكنت الإشـارة الحسية إليه ، وما قيل إنه هنا وهناك ، وما قبل الأبعاد الثلاثة ، ونحو ذلك .

وكذلك المتحيز في الاصطلاح عند هؤلاء هو الجسم ، ويدخل فيه الجوهر الفرد عند من أثبته ، وقد تقدم معنى الجسم في اللغة ، وأما المتحيز فقد قال تعالى ﴿ **وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ** ﴾ (1) .

وقال الجوهري : الحوز الجمع ، وكل من ضم إلى نفسه شيئاً فقد حازه حوزاً ، وحيازة ، واحتازه أيضاً والحوز والحيز السوق اللين .

وقد حاز الإبل يحوزها ويحيزها ، وحوز الإبل ساقها إلى الماء .

وقال الأصمعي : إذا كانت الإبل بعيدة المرعى عن الماء فأول ليلة توجهها إلى الماء ليلة الحوز ، وتحوزت الحية وتحيزت تلوت .

---

(1) سورة الأنفال آية رقم ١٦ .

يقال : مالك تتحوز تحوز الحية ، وتتحيز تحيز الحية قال سيبويه [1] : هو تفعل من حزت الشيء . قال القطامي [2] :

تحيز مني خشية أن أضيفها كما انحازت الأفعى مخافة ضارب

يقول : تتنحى عني هذه العجوز ، وتتأخر خشية أن أنزل عليها ضيفاً .

والحيز ما انضم إلى الدار من مرافقها ، وكل ناحية حيز وأصله من الواو ، والحيز تخفيف الحيز مثل هين وهين ولين ولين ، والجمع أحياز ، والحوزة الناحية وانحاز عنه انعدل ، وانحاز القوم تركوا مركزهم إلى آخر ، يقال للأولياء : انحازوا عن العدو ، وحاصوا والأعداء انهزموا وولوا مدبرين ، وتحاوز الفريقان في الحرب ، انحاز كل فريق عن الآخر .

فهذا المذكور عن أهل اللغة في هذا اللفظ ومادته يقتضي أن التحيز والانحياز والتحوز ونحو ذلك يتضمن عدولاً من محل إلى محل . وهذا أخص من كونه يحوزه أمر موجود ، فهم يراعون في معنى الحوز ذهابه من جهة إلى جهة ، ولهذا يقولون : حزت المال وحزت الإبل ، وذلك يتضمن نقله من جهة إلى جهة فالشيء المستقر في موضعه كالجبل والشمس والقمر لا يسمونه متحيزاً .

وأعم من هذا أن يراد بالمتحيز ما يحيط به حيز موجود فيسمى كل ما أحاط به غيره أنه متحيز ، وعلى هذا فما بين السماء والأرض متحيز ، بل ما في العالم متحيز إلا سطح العالم الذي لا يحيط به شيء ، فإن ذلك ليس بمتحيز ،

---

(١) هو عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء أبو بشر الملقب سيبويه ولد عام ١٤٨ وتوفي عام ١٨٠ هـ [راجع ابن خلكان ١ : ٣٨٥ والبداية والنهاية ١٠ : ١٧٦ وطبقات النحويين ٦٦ - ٧٤] .

(٢) هو عمير بن شييم بن عمرو بن عباد من بني جشم بن بكر أبو سعيد التغلبي ، الملقب بالقطامي : شاعر غزل فحل كان من نصارى تغلب في العراق وأسلم - وجعله ابن سلام في الطبقة الثانية من الاسلاميين . وقال الأخطل أبعد منه ذكراً ، وأمتن شعراً توفي عام ١٣٠هـ [راجع الشعر والشعراء ٢٧٧ ومعاهد التنصيص١ : ١٨٠ وطبقات الشعراء ١٢١] .

وكذلك العالم جملة ليس بمتحيز بهذا الاعتبار فإنه ليس في عالم آخر أحاط به ، والمتكلمون يريدون بالمتحيز ما هو أعم من هذا .

والحيز عندهم أعم من المكان ، فالعالم كله في حيز وليس هو في مكان ، والمتحيز عندهم لا يعتبر فيه أنه يحوزه غيره ، ولا يكون له حيز وجودي ، بل كل ما أشير إليه وامتاز منه شيء عن شيء ، فهو متحيز عندهم . ثم هم مختلفون بعد هذا في المتحيز ، هل هو مركب من الجواهر المنفردة ؟؟ أو من المادة والصورة ؟ أو هو غير مركب لا من هذا ، ولا من هذا ؟ كما تقدم نزاعهم في الجسم .

فالجسم عندهم متحيز ، ولا يخرج عنه شيء إلا الجوهر الفرد عند من أثبته ، وهؤلاء يعتقد كثير منهم أو أكثرهم أن كل متحيز فهو مركب أي يقبل الانقسام إلى جزء لا يتجزأ بل يظن بعضهم أن هذا إجماع المسلمين ، وأكثرهم يقولون : المتحيزات متماثلة في الحد والحقيقة ، ومن كان معنى المتحيز عنده هذا فعليه أن ينزه الله تعالى أن يكون متحيزاً بهذا الاعتبار ، أو الروح متحيزة بهذا الاعتبار نازعه في ذلك جمهور العقلاء من المسلمين وغيرهم بل لا يعرف أحد من سلف الأمة وأئمتها يقول : إن الملائكة متحيزة بهذا الاعتبار ، ولا قالوا لفظاً يدل على هذا المعنى ، فإذا كان إثبات هذا التحيز للملائكة والروح بدعة في الشرع وباطلاً في العقل فلأن يكون ذلك بدعة وباطلاً في رب العالمين بطريق الأولى والأحرى .

ومن هنا يتبين أن عامة ما يقوله المتفلسفة وهؤلاء المتكلمة في نفوس بني آدم وفي الملائكة باطل ، فكيف بما يقولونه في رب العالمين ولهذا توجد الكتب المصنفة التي يذكر فيها مقالات هؤلاء وهؤلاء في هذه المسائل الكبار في رب العالمين ، وفي ملائكته ، وفي أرواح بني آدم ، وفي المعاد وفي النبوات ، ليس فيها قول يطابق العقل والشرع ولا يعرفون ما قاله السلف والأئمة في هذا الباب ولا ما دل عليه الكتاب والسنة .

فلهذا يغلب على فضلائهم الحيرة ، فإنهم إذا أمعنوا النظر لم يصلوا إلى علم ، لأن ما نظروا فيه من كلام الطائفتين مشتمل على باطل من الجانبين . ولهذا قال أبو عبد الله الرازي في آخر عمره : لقد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلاً ، ولا تروي غليلاً ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ، اقرأ في الإثبات : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ والعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ (١) ﴿ الرَّحْمٰنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ (٢) . واقرأ في النفي ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ (٣) ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾ (٤)

ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي .

وأما من اعتقد أن المتحيز هو ما باين غيره فانحاز عنه ، وليس من شرطه أن يكون مركباً من الأجزاء المنفردة ، ولا أنه يقبل التفريق والتقسيم فإذا قال : إن الرب متحيز بهذا المعنى ، أي أنه بائن عن مخلوقاته فقد أراد معنى صحيحاً ، لكن إطلاق هذه العبارة بدعة ، وفيها تلبيس ، فإن هذا الذي أراده ليس معنى المتحيز في اللغة، وهو اصطلاح له ولطائفته ، وفي المعنى المصطلح نزاع بين العقلاء فصار يحتمل معنى فاسداً يجب تنزيه الرب عنه وليس للإنسان أن يطلق لفظاً يدل عند غيره على معنى فاسد ، ويفهم ذلك الغير ذلك المعنى الفاسد من غير بيان مراده ، بل هؤلاء المتكلمون الذين أرادوا بالمتحيز ما كان مؤلفاً من أجزاء لا تقبل القسمة ، وهو ما كان قابلاً للقسمة إذا قالوا إن كل ممكن أو كل محدث ، أو كل مخلوق فهو : إما متحيز ، وإما قائم بمتحيز كان جماهير العقلاء يخالفونهم في هذا التقسيم ولم يكن أحد من أئمة المسلمين ، لا من الصحابة ولا من التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ، ولا سائر أئمة المسلمين ، موافقاً لهم على هذا التقسيم ، فكيف إذا قال من قال منهم : كل موجود فهو إما متحيز وإما قائم بمتحيز ، وأراد بالمتحيز ما أراده هؤلاء فإن قوله حينئذ يكون أبعد عن

---

(١) سورة فاطر اية رقم ١٠ .
(٢) سورة طه آية رقم ٥ .
(٣) سورة الشورى آية رقم ١١ .
(٤) سورة طه آية رقم ١١٠ .

الشرع والعقل من قول أولئك ، ولهذا طالبهم متأخروهم بالدليل على هذا الحصر وليس خطأ هؤلاء من جهة ما أثبته المتفلسفة من الجواهر العقلية ، فإن تلك قد علم بطلانها بصريح العقل أيضاً . وما يقوله هؤلاء المتفلسفة في النفس الناطقة من أنها لا يشار إليها ، ولا توصف بحركة ولا سكون ، ولا صعود ولا نزول ، وليست داخل العالم ولا خارجه ، هو أيضاً كلام أبطل من كلام أولئك المتكلمين عند جماهير العقلاء ولا سيما من يقول منهم ـ كابن سينا وأمثاله ـ أنها لا تعرف شيئاً من الأمور الجزئية ، وإنما تعرف الأمور الكلية ، فإن هذا مكابرة ظاهرة ، فإنها تعرف بدنها وتعرف كل ما تراه بالبدن وتشمه وتسمعه وتذوقه وتقصده ، وتأمر به وتحبه وتكرهه ، إلى غير ذلك مما تتصرف فيه بعلمها وعملها ، فكيف يقال : إنها لا تعرف الأمور المعينة ، وإنما تعرف أموراً كلية . وكذلك قولهم إن تعلقها بالبدن ليس إلا مجرد تعلق التدبير والتصريف ، كتدبير الملك لمملكته من أفسد الكلام ، فإن الملك يدبر أمر مملكته فيأمر وينهي ولكن لا يصرفهم هو بمشيئته وقدرته ان لم يتحركوا هم بإرادتهم وقدرتهم ، والملك لا يلتذ بلذة أحدهم ولا يتألم بألمه ، وليس كذلك الروح والبدن ، بل قد جعل الله بينهما من الاتحاد والائتلاف ما لا يعرف له نظير يقاس به ، ولكن دخول الروح فيه ليس هو مماثلاً لدخول شيء من الأجسام المشهودة ، فليس دخولها فيه كدخول الماء ونحوه من المائعات في الأوعية فإن هذه إنما تلاقي السطح الداخل من الأوعية لا بطونها ولا ظهورها ، وإنما يلاقي الأوعية منها أطرافها دون أوساطها ، وليس كذلك الروح والبدن ، بل الروح متعلقة بجميع أجزاء البدن باطنه وظاهره ، وكذلك دخولها فيها ليس كدخول الطعام والشراب في بدن الآكل فإن ذلك له مجار معروفة ، وهو مستحيل ـ إلى غير ذلك من صفاته ـ ولا جريانها في البدن كجريان الدم فإن الدم يكون في بعض البدن دون بعض .

ففي الجملة كل ما يذكر من النظائر لا يكون كل شيء منه متعلقاً بالآخر ، بخلاف الروح والبدن ، لكن هي مع هذا في البدن قد ولجت فيه ، وتخرج منه وقت الموت وتسل منه شيئاً فشيئاً فتخرج من البدن شيئاً فشيئاً ، لا

تفارقه كما يفارق الملك مدينته التي يدبرها والناس لما لم يشهدوا لها نظيراً عسر عليهم التعبير عن حقيقتها وهذا تنبيه لهم على أن رب العالمين لم يعرفوا حقيقته ، ولا تصوروا كيفيته سبحانه وتعالى ، وأن ما يضاف إليه من صفاته هو على ما يليق به جل جلاله .

فإن الروح التي هي بعض عبيده توصف بأنها تعرج إذا نام الإنسان ، وتسجد تحت العرش ، وهي مع هذا في بدن صاحبها لم تفارقه بالكلية ، والإنسان في نومه يحس بتصرفات روحه تصرفات تؤثر في بدنه ، فهذا الصعود الذي توصف به الروح لا يماثل صعود المشهودات فإنها إذا صعدت إلى مكان فارقت الأول بالكلية وحركتها إلى العلو حركة انتقال من مكان إلى مكان ، وحركة الروح بعروجها وسجودها ليس كذلك .

فالرب سبحانه إذا وصفه رسوله ﷺ بأنه ينزل إلى سماء الدنيا كل ليلة ، وأنه يدنو عشية عرفة إلى الحجاج ، وأنه كلم موسى في الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة ، وأنه استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين لم يلزم من ذلك أن تكون هذه الأفعال من جنس ما نشاهده من نزول هذه الأعيان المشهودة ، حتى يقال ذلك يستلزم تفريغ مكان وشغل آخر ، فإن نزول الروح وصعودها لا يستلزم ذلك فكيف برب العالمين ؟!

وكذلك الملائكة لهم صعود ونزول من هذا الجنس فلا يجوز نفي ما أثبته الله ورسوله من الأسماء والصفات ، ولا يجوز تمثيل ذلك بصفات المخلوقات لا سيما ما لا نشاهده من المخلوقات فإن ما ثبت لما لا نشاهده من المخلوقات من الأسماء والصفات ليس مماثلاً لما نشاهده منها ، فكيف برب العالمين الذي هو أبعد عن مماثلة كل مخلوق من مماثلة مخلوق لمخلوق ؟!

وكل مخلوق فهو أشبه بالمخلوق الذي لا يماثله من الخالق بالمخلوق ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

وهذا الذي نبهنا عليه مما يظهر به أن ما يذكره صاحب « المحصل »

وأمثاله من تقسيم الموجودات على رأي المتفلسفة والمتكلمة كله تقسيم غير حاصر وكل من الفريقين مقصر عن سلفه .

أما المتكلمون فلم يسلكوا من التقسيم المسلك الذي دل عليه الكتاب والسنة ، وكان عليه سلف الأمة . وكذلك هؤلاء المتفلسفة أتباع أرسطو لم يسلكوا مسلك الفلاسفة الأساطين المتقدمين ، فإن أولئك كانوا يقولون بحدوث هذا العالم ، وكانوا يقولون : إن فوق هذا العالم عالماً آخر يصفونه ببعض ما وصف النبي ﷺ به الجنة ، وكانوا يثبتون معاد الأبدان ، كما يوجد هذا في كلام سقراط وطاليس وغيرهما من أساطين الفلاسفة ، وقد ذكروا أن أول من قال منهم بقدم العالم أرسطو [1] .

---

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية في هذا الجزء .

فصل

وهذه الألفاظ المحدثة المجملة النافية مثل لفظ « المركب » و« المؤلف » و« المنقسم » ونحو ذلك ، قد صار كل من أراد نفي شيء مما أثبته الله لنفسه من الأسماء والصفات عبر بها عن مقصوده فيتوهم من لا يعرف مراده أن المراد تنزيه الرب الذي ورد به القرآن ، وهو إثبات أحديته وصمديته ويكون قد أدخل في تلك الألفاظ ما رآه هو منفياً وعبر عنه بتلك العبارة وضعاً له واصطلاحاً اصطلح عليه هو ومن وافقه على ذلك المذهب ، وليس ذلك من لغة العرب التي نزل بها القرآن ، ولا من لغة أحد من الأمم ، ثم يجعل ذلك المعنى هو مسمى الأحد والصمد والواحد ونحو ذلك من الأسماء الموجودة في الكتاب والسنة ويجعل ما نفاه من المعاني التي أثبتها الله ورسوله من تمام التوحيد .

واسم « التوحيد » اسم معظم جاءت به الرسل ونزلت به الكتب ، فإذا جعل تلك المعاني التي نفاها من التوحيد ، ظن من لم يعرف مخالفة مراده لمراد الرسول ﷺ أنه يقول بالتوحيد الذي جاءت به الرسل ، ويسمي طائفته الموحدين ، كما يفعل ذلك الجهمية والمعتزلة . ومن وافقهم على نفي شيء من الصفات ، ويسمون ذلك توحيداً .

وطائفتهم الموحدين ، ويسمون علمهم علم التوحيد كما تسمي المعتزلة ومن وافقهم نفي القدر عدلاً . ويسمون أنفسهم العدلية ، وأهل العدل ، ومثل هذه البدع كثير جداً يعبر بألفاظ الكتاب والسنة عن معان مخالفة لما أراده الله

ورسوله بتلك الألفاظ ، ولا يكون أصحاب تلك الأقوال تلقوها ابتداء عن الله عز وجل ورسوله ﷺ ، بل عن شبه حصلت لهم ، وأئمة لهم ، وجعلوا التعبير عنها بألفاظ الكتاب والسنة حجة لهم ، وعمدة لهم ، ليظهر بذلك أنهم متابعون للرسول ﷺ لا مخالفون له وكثير منهم لا يعرفون أن ما ذكروه مخالف للرسول ﷺ بل يظن أن هذا المعنى الذي أراده هو المعنى الذي أراده الرسول ﷺ وأصحابه فلهذا يحتاج المسلمون إلى شيئين : أحدهما : معرفة ما أراد الله ورسوله ﷺ بألفاظ الكتاب والسنة ، بأن يعرفوا لغة القرآن التي بها نزل ، وما قاله الصحابة والتابعون لهم بإحسان ، وسائر علماء المسلمين في معاني تلك الألفاظ ، فإن الرسول لما خاطبهم بالكتاب والسنة عرفهم ما أراد بتلك الألفاظ ، وكانت معرفة الصحابة لمعاني القرآن أكمل من حفظهم لحروفه ، وقد بلغوا تلك المعاني إلى التابعين أعظم مما بلغوا حروفه ، فإن المعاني العامة التي يحتاج إليها عموم المسلمين مثل معنى التوحيد ، ومعنى الواحد ، والأحد ، والإيمان والإسلام ، ونحو ذلك . كان جميع الصحابة يعرفون ما أحب الله ورسوله ﷺ من معرفته ولا يحفظ القرآن كله إلا القليل منهم ، وإن كان كل شيء من القرآن يحفظه منهم أهل التواتر ، والقرآن مملوء من ذكر وصف الله بأنه أحد وواحد ، ومن ذكر أن الهكم واحد ، ومن ذكر أنه لا إله إلا الله ونحو ذلك .

فلا بد أن يكون الصحابة يعرفون ذلك ، فإن معرفته أصل الدين وهو أول ما دعا الرسول ﷺ إليه الخلق وهو أول ما يقاتلهم عليه ، وهو أول ما أمر رسله أن يأمروا الناس به ، وقد تواتر عنه أنه أول ما دعا الخلق إلى أن يقولوا لا إله إلا الله ، ولما أمر بالجهاد بعد الهجرة قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله » [1] وفي الصحيحين أنه لما بعث معاذاً

---

(١) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب الإيمان ١٧، ٢٨ ، وفي الصلاة ٢٨ ، والزكاة ١ ، والاعتصام ٢ ، ٢٨ ورواه الامام مسلم في كتاب الايمان ٣٢ - ٣٦ وأبو داود في الجهاد ٩٥ ، والترمذي في التفسير سورة ٨٨ والامام النسائي في الزكاة ٣ ، وابن ماجه في الفتن ١ - ٣ والدارمي في السير ١٠ وأحمد بن حنبل في المسند ٤ : ٨ (حلبي)

إلى اليمن قال له « إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأعلمهم أن الله تعالى قد فرض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة ، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأعلمهم أن الله تعالى افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب »[(1)] فقال لمعاذ : ليكن أول ما تدعوهم إليه التوحيد ، ومع هذا كانوا من أهل الكتاب كانوا يهوداً ، فإن اليهود كانوا كثيرين بأرض اليمن ، وهذا الذي أمر به معاذاً موافق لقوله تعالى ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الحُرُمُ فَاقْتُلُوا المُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾[(2)] .

وفي الآية الأخرى ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾[(3)] .

وهذا مطابق لقوله تعالى ﴿ وَمَا أُمِرُوا إلاَّ لِيَعْبُدُوا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ القَيِّمَةِ ﴾[(2)] .

وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال : « الإيمان بضع وستون ، أو بضع

---

(1) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الزكاة ١ باب فرض الزكاة ١٧٨٣ ـ حدثنا علي بن محمد ، ثنا وكيع بن الجراح ، ثنا زكريا بن اسحاق المكي عن يحيى بن عبد الله بن صيفي عن أبي معبد ، مولى ابن عباس عن ابن عباس أن النبي ـ ﷺ ـ بعث معاذاً إلى اليمن فقال : وذكره ورواه البخاري في كتاب الزكاة ٤١ ـ ٦٣ والمغازي ٦٠ والتوحيد ١ ، ورواه الامام مسلم في الايمان ٢٩ ، ٣١ وأبو داود في الزكاة ٥ ، والترمذي في الزكاة ٦ والنسائي في الزكاة ٤٦ وابن ماجه في الزكاة (١) والدارمي في الزكاة ١ ، ٩ وأحمد بن حنبل ١ : ٢٣٢ .

(2) سورة التوبة آية رقم ٥ .

(3) سورة التوبة آية رقم ١١ .

(2) سورة البينة آية رقم ٥ .

وسبعون شعبة أفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان»[1] فالمقصود أن معرفة ما جاء به الرسول وما أراده بألفاظ القرآن والحديث هو أصل العلم والإيمان والسعادة والنجاة ، ثم معرفة ما قال الناس في هذا الباب لينظر المعاني الموافقة للرسول والمعاني المخالفة لها . والألفاظ نوعان : نوع يوجد في كلام الله ورسوله ، ونوع لا يوجد في كلام الله ورسوله ، فيعرف معنى الأول ويجعل ذلك المعنى هو الأصل ، ويعرف ما يعنيه الناس بالثاني ، ويرد إلى الأول .

هذا طريق أهل الهدى والسنة ، وطريق أهل الضلال والبدع بالعكس ، يجعلون الألفاظ التي أحدثوها ومعانيها هي الأصل ، ويجعلون ما قاله الله ورسوله تبعاً لهم فيردونها بالتأويل والتحريف إلى معانيهم ، ويقولون : نحن نفسر القرآن بالعقل واللغة ، يعنون أنهم يعتقدون معنى بعقلهم ورأيهم ، ثم يتأولون القرآن عليه مما يمكنهم من التأويلات والتفسيرات المتضمنة لتحريف الكلم عن مواضعه ، ولهذا قال الإمام أحمد : أكثر ما يخطىء الناس من جهة التأويل والقياس .

وقال : يجتنب المتكلم في الفقه هذين الأصلين المجمل والقياس . وهذه الطريق يشترك فيها جميع أهل البدع الكبار والصغار فهي طريق الجهمية والمعتزلة ومن دخل في التأويل من الفلاسفة والباطنية الملاحدة .

وأما حذاق الفلاسفة فيقولون : إن المراد بخطاب الرسول ﷺ إنما هو أن يخيل إلى الجمهور ما ينتفعون به في مصالح دنياهم ، وإن لم يكن ذلك مطابقاً للحق . قالوا : وليس مقصود الرسول ﷺ بيان الحق وتعريفه ، بل مقصوده أن يخيل إليهم ما يعتقدونه ويجعلون خاصة النبوة قوة التخييل .

---

(١) الحديث رواه الإمام البخاري في الإيمان ١٦ ، ٣ ومسلم في الإيمان ٥٧ ، ٥٩ ، وأبو داود في السنة ١٤ ، والترمذي في البر ٥٦ ، ٨٠ وابن ماجه في المقدمة ٩ والموطأ في حسن الخلق ١٠ .

فهم يقولون : إن الرسول ﷺ لم يبين ولم يفهم ، بل ولم يقصد ذلك .

وهم متنازعون هل كان يعلم الأمور على ما هي عليه ؟ على قولين :

منهم من قال : كان يعلمها ، لكن ما كان يمكنه بيانها وهؤلاء قد يجعلون الرسول أفضل من الفيلسوف . ومنهم من يقول : بل ما كان يعرفها ، أو ما كان حاذقاً في معرفتها ، وإنما كان يعرف الأمور العملية .

وهؤلاء يجعلون الفيلسوف أكمل من النبي ﷺ لأن الأمور العملية أكمل من العلمية ، فهؤلاء يجعلون خبر الله وخبر الرسول ﷺ إنما فيه التخييل ، وأولئك يقولون : لم يقصد به التخييل ، ولكن قصد معنى يعرف بالتأويل . وكثير من أهل الكلام الجهمية يوافق أولئك على أنه ما كان يمكنه أن يبوح بالحق في باب التوحيد ، فخاطب الجمهور بما يخيل لهم ، كما يقولون : إنه لو قال : إن ربكم ليس بداخل العالم ولا خارجه ، ولا يشار إليه ولا هو فوق العالم ، ولا كذا ولا كذا لنفرت قلوبهم عنه ، وقالوا : هذا لا يعرف ، قالوا فخاطبهم بالتجسيم حتى يثبت لهم رباً يعبدونه وإن كان يعرف أن التجسيم باطل ، وهذا يقوله طوائف من أعيان الفقهاء المتأخرين المشهورين الذين ظنوا أن مذهب النفاة هو الصحيح ، واحتاجوا أن يعتذروا عما جاء به الرسول ﷺ من الاثبات كما يوجد في كلام غير واحد .

وتارة يقولون : إنما عدل الرسول ﷺ عن بيان الحق ليجتهدوا في معرفة الحق من غير تعريفه ويجتهدوا في تأويل ألفاظه فتعظم أجورهم على ذلك وهو اجتهادهم في عقلياتهم ، وتأويلاتهم .

ولا يقولون إنه قصد به إفهام العامة الباطل ، كما يقول أولئك المتفلسفة .

وهذا قول أكثر المتكلمين النفاة من الجهمية والمعتزلة ومن سلك مسلكهم حتى ابن عقيل [١] وأمثاله ، وأبو حامد وابن رشد الحفيد وأمثالهما يوجد في

---

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

كلامهم المعنى الأول .

وأبو حامد إنما ذم التأويل في آخر عمره ، وصنف « الجام العوام عن علم الكلام » محافظة على هذا الأصل لأنه رأى مصلحة الجمهور لا تقوم إلا بإبقاء الظواهر على ما هي عليه ، وإن كان هو يرى ما ذكره في كتبه « المضنون بها » أن النفي هو الثابت في نفس الأمر فلم يجعلوا مقصوده بالخطاب البيان والهدى ، كما وصف الله به كتابه ونبيه حيث قال : ﴿ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [1] وقال ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ ﴾ [2]

وقال ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [3]

وقال ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ البَلاَغُ المُبِينُ ﴾ [4]

وقال ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [5] .

وأمثال ذلك .

وقال النبي ﷺ « تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك » [6] .

وقال تعالى ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ [7] .

وقال ﴿قَدْ جَاءَكُم مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [8] .

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢ .
(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٣٨ .
(٣) سورة يوسف آية رقم ٢ .
(٤) سورة النور آية رقم ٥٤ ، وسورة العنكبوت آية رقم ١٨ .
(٥) سورة ابراهيم آية رقم ١ .
(٦) سبق تخريج هذا الحديث .
(٧) سورة الأنعام آية رقم ١٥٣ .
(٨) سورة المائدة آية رقم ١٥ ـ ١٦

وقال ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَن نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (1) .

وقال ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ ﴾ (2) .

وثم طائفة ثالثة كثرت في المتأخرين المنتسبين إلى السنة يقولون ما يتضمن أن الرسول ﷺ لم يكن يعرف معاني ما أنزل عليه من القرآن كآيات الصفات، بل لازم قولهم أيضاً أنه كان يتكلم بأحاديث الصفات ولا يعرف معانيها .

وهؤلاء مساكين لما رأوا المشهور عن جمهور السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان أن الوقف التام عند قوله ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ ﴾ (3) وافقوا السلف وأحسنوا في هذه الموافقة ، لكن ظنوا أن المراد بالتأويل هو معنى اللفظ وتفسيره أو هو التأويل الاصطلاحي الذي يجري في كلام كثير من متأخري أهل الفقه والأصول ، وهو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن به فهم قد سمعوا كلام هؤلاء وهؤلاء ، فصار لفظ التأويل عندهم هذا معناه .

ولما سمعوا قول الله تعالى ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ ﴾ (4) ظنوا أن لفظ التأويل في القرآن معناه هو معنى لفظ التأويل في كلام هؤلاء ، فلزم من ذلك أنه لايعلم أحد معنى هذه النصوص إلا الله ، لا جبريل ولا محمد ولا غيرهما بل كل من الرسولين على قولهم يتلو أشرف ما في القرآن من الأخبار عن الله بأسمائه وصفاته، وهو لا يعرف معنى ذلك أصلاً ، ثم كثير منهم يذمون ويبطلون تأويلات أهل البدع من الجهمية والمعتزلة وغيرهما ، وهذا جيد ، لكن قد يقولون : تجري على ظواهرها وما يعلم تأويلها إلا الله ، فإن عنوا بظواهرها ما

(1) سورة الشورى آية رقم ٥٢ .
(2) سورة الأعراف آية رقم ١٥٧ .
(3) سورة آل عمران آية رقم ٧ .
(4) سورة آل عمران آية رقم ٧ .

يظهر منها من المعاني كان هذا مناقضاً لقولهم إن لها تأويلاً يخالف ظاهرها لا يعلمه إلا الله ، وإن عنوا بظواهرها مجرد الألفاظ كان معنى كلامهم أنه يتكلم بهذه الألفاظ ولها باطن يخالف ما ظهر منها ، وهو التأويل ، وذلك لا يعلمه إلا الله وفيهم من يريد بإجرائها على ظواهرها هذا المعنى ، وفيهم من يريد الأول ، وعامتهم يريدون بالتأويل المعنى الثالث وقد يريدون به الثاني ، فإنه أحياناً قد يفسر النص بما يوافق ظاهره ، وتبين من هذا أنه ليس من التأويل الثالث ، فيأبون ذلك ويكرهون تدبر النصوص والنظر في معانيها ـ أعني النصوص التي يقولون : إنه لم يعلم تأويلها إلا الله .

ثم هم في هذه النصوص بحسب عقائدهم ، فإن كانوا من القدرية قالوا : النصوص المثبتة لكون العبد فاعلاً محكمة ، والنصوص المثبتة لكون الله تعالى خالق أفعال العباد أو مريداً لكل ما وقع نصوص متشابهة لا يعلم تأويلها إلا الله ، إذا كانوا ممن لا يتأولها ، فإن عامة الطوائف منهم من يتأول ما يخالف قوله ، ومنهم من لا يتأوله ، وإن كانوا من الصفاتية المثبتين للصفات التي زعموا أنهم يعلمونها بالعقل دون الصفات الخبرية مثل كثير من متأخري الكلابية كأبي المعالي في آخر عمره ، وابن عقيل في كثير من كلامه .

قالوا : من النصوص المتضمنة للصفات التي لا نعلم عندهم بالعقل هذه نصوص متشابهة لا يعلم تأويلها إلا الله ، وكثير منهم يكون له قولان وحالان :

تارة يتأول ويوجب التأويل ، أو يجوزه .

وتارة يحرمه ، كما يوجد لأبي المعالي ولابن عقيل ولأمثالهما من اختلاف الأقوال .

ومن أثبت العلو بالعقل ، وجعله من الصفات العقلية كأبي محمد بن كلاب ، وأبي الحسن بن الزاغوني ومن وافقه ، وكالقاضي أبي يعلى في آخر قوليه وأبي محمد ، أثبتوا العلو ، وجعلوا الاستواء من الصفات الخبرية التي يقولون لا يعلم معناها إلا الله ، وإن كانوا ممن يرى أن الفوقية والعلو أيضاً من الصفات الخبرية كقول القاضي أبي بكر وأكثر الأشعرية وقول القاضي أبي يعلى في أول

قوليه ، وابن عقيل في كثير من كلامه ، وأبي بكر البيهقي [1] ، وأبي المعالي وغيرهم ، ومن سلك مسلك أولئك ، وهذه الأمور مبسوطة في موضعها .
« والمقصود هنا » أن كل طائفة تعتقد من الآراء ما يناقض ما دل عليه القرآن ، يجعلون تلك النصوص من المتشابه ثم إن كانوا ممن يرى الوقف عند قوله ﴿ **وما يعلم تأويله إلا الله** ﴾ قالوا : لا يعلم معناها إلا الله ، فيلزم أن لا يكون محمد وجبريل ، ولا أحد علم معاني تلك الآيات والأخبار ، وأن رأوا أن الوقف على قوله ﴿ **وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ** ﴾[2] .

جعلوا الراسخين يعلمون ما يسمونه هم تأويلاً ويقولون : إن الرسول ﷺ إنما لم يبين الحق بخطابه ليجتهد الناس في معرفة الحق من غير جهته بعقولهم وأذهانهم ، ويجتهدون في تخريج ألفاظه على اللغات العربية ، فيجتهدون في معرفة غرائب اللغات التي يتمكنون بها من التأويل ، وهذا إن قالوا : إنه قصد بالقرآن والحديث معنى حقاً في نفس الأمر ، وإن قالوا بقول الفلاسفة والباطنية الذين لا يرون التأويل .

قالوا : لم يقصد بهذه الألفاظ إلا ما يفهمه العامة والجمهور ، وهو باطل في نفس الأمر ، لكن أراد أن يخيل لهم ما ينتفعون به ولم يمكنه أن يعرفهم الحق فإنهم كانوا ينفرون عنه ولا يقبلونه .

وأما من قال من الباطنية الملاحدة وفلاسفتهم بالتأويل فإنه يتأول كل شيء مما أخبرت به الرسل من أمر الإيمان بالله واليوم الآخر ، ثم يؤولون العبارات كما هو معروف من تأويلات القرامطة الباطنية .

وأبو حامد في « الإحياء » ذكر قول هؤلاء المتأولين من الفلاسفة وقال : إنهم أسرفوا في التأويل ، وأسرفت الحنابلة في الجمود وذكر عن أحمد بن حنبل

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .
(٢) سورة آل عمران آية رقم ٧ .

كلاماً لم يقله أحمد ، فإنه لم يكن يعرف ما قاله أحمد ، ولا ما قاله غيره من السلف في هذا الباب ، ولا ما جاء به القرآن والحديث .

وقد سمع مضافاً إلى الحنابلة ما يقوله طائفة منهم ومن غيرهم من المالكية والشافعية ، وغيرهم في الحرف والصوت .

وبعض الصفات مثل قولهم : إن الأصوات المسموعة من القراء قديمة أزلية ، وإن الحروف المتعاقبة قديمة الأعيان وأنه ينزل إلى سماء الدنيا ، ويخلو منه العرش ، حتى يبقى بعض المخلوقات فوقه ، وبعضها تحته ، إلى غير ذلك من المنكرات ، فإنه ما من طائفة إلا وفي بعضهم من يقول أقوالاً ظاهرها الفساد ، وهي التي يحفظها من ينفر عنهم ، ويشنع بها عليهم ، وإن كان أكثرهم ينكرها ويدفعها ، كما في هذه المسائل المنكرة التي يقولها بعض أصحاب أحمد ومالك والشافعي فإن جماهير هذه الطوائف ينكرها ، وأحمد وجمهور أصحابه منكرون لها .

وكلامهم في إنكارها وردها كثير جداً ، لكن يوجد في أهل الحديث مطلقاً من الحنبلية وغيرهم من الغلط في الإثبات أكثر مما يوجد في أهل الكلام ، ويوجد في أهل الكلام من الغلط في النفي أكثر مما يوجد في أهل الحديث ، لأن الحديث إنما جاء بإثبات الصفات ليس فيه شيء من النفي الذي انفرد به أهل الكلام .

والكلام المأخوذ عن الجهمية والمعتزلة مبني على النفي المناقض لصرائح القرآن والحديث بل والعقل الصريح أيضاً ، لكنهم يدعون أن العقل دل على النفي ، وقد ناقضهم طوائف من أهل الكلام ، وزادوا في الإثبات كالهشامية [١] والكرامية [٢] وغيرهم ، لكن النفي في جنس الكلام المبتدع الذي ذمه السلف أكثر .

---

(١) سبق الحديث عنها في كلمة وافية .

(٢) سبق الحديث عنها في كلمة وافية .

والمنتسبون إلى السنة منَ الحنابلة وغيرهم ، الذين جعلوا لفظ التأويل يعم القسمين ، يتمسكون بما يجدونه في كلام الأئمة المتشابه مثل قول أحمد في رواية حنبل ولا كيف ولا معنى ظنوا أن مراده : أنا لا نعرف معناها .

وكلام أحمد صريح بخلاف هذا في غير موضع ، وقد بين أنه إنما ينكر تأويلات الجهمية ونحوهم الذين يتأولون القرآن على غير تأويله ، وصنف كتابه في «الرد على الزنادقة والجهمية»(١) فيما أنكرته من متشابه القرآن وتأولته على غير تأويله فأنكر عليهم تأويل القرآن على غير مراد الله ورسوله،وهم إذا تأولوه يقولون : معنى هذه الآية كذا ، والمكيفون يثبتون كيفية يقولون : إنهم علموا كيفية ما أخبر به من صفات الرب ، فنفى أحمد قول هؤلاء ، وقول هؤلاء ، قول المكيفة الذين يدعون أنهم علموا الكيفية ، وقول المحرفة الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون : معناه كذا وكذا .

وقد كتبت كلام أحمد بألفاظه ـ كما ذكره الخلال (٢) في كتاب السنة وكما ذكره من نقل كلام أحمد بإسناده في الكتب المصنفة في ذلك ـ في غير هذا الموضع ، وبين أن لفظ التأويل في الآية إنما أريد به التأويل في لغة القرآن ، كقوله تعالى ﴿ **هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ** ﴾ (٣) .

وعن ابن عباس في قوله ﴿ **هل ينظرون إلا تأويله** ﴾ تصديق ما وعد في القرآن .

وعن قتادة : تأويله ثوابه .

---

(١) قمنا بتحقيق هذا الكتاب وقامت بطبعه ونشره دار اللواء بالرياض .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٣) سورة الأعراف آية رقم ٥٣ .

وعن مجاهد : جزاؤه .

وعن السدي : عاقبته .

وعن ابن زيد : حقيقته .

قال بعضهم : تأويله ما يؤول إليه أمرهم من العذاب وورود النار .

وقوله تعالى ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ (١) قال بعضهم : تصديق ما وعدوا به من الوعيد ، والتأويل ما يؤول إليه الأمر ، وعن الضحاك يعني عاقبة ما وعد الله في القرآن أنه كائن من الوعيد .

والتأويل : ما يؤول إليه الأمر .

وقال الثعلبي : تفسيره ، وليس بشيء .

وقال الزجاج : لم يكن معهم علم تأويله .

وقال يوسف الصديق عليه السلام ﴿ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ ﴾ (٢) .

فجعل نفس سجود أبويه له تأويل رؤياه .

وقال قبل هذا : ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ﴾ (٣) .

أي قبل أن يأتيكما التأويل .

والمعنى : لا يأتيكما طعام ترزقانه في المنام لما قال أحدهما : ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً ﴾ (٤) .

---

(١) سورة يونس آية رقم ٣٩ .
(٢) سورة يوسف آية رقم ١٠٠ .
(٣) سورة يوسف آية رقم ٣٧ .
(٤) سورة يوسف آية رقم ٣٦ .

﴿ **إلا نبأتكما بتأويله** ﴾ في اليقظة ﴿ **قبل أن يأتيكما** ﴾ الطعام . هذا قول أكثر المفسرين ، وهو الصواب وقال بعضهم : لا يأتيكما طعام ترزقانه تطعمانه ، وتأكلانه ﴿ **إلا نبأتكما بتأويله** ﴾ بتفسيره وألوانه ، أي طعام أكلتم وكم أكلتم ، ومتى أكلتم ؟

فقالوا : هذا فعل العرافين والكهنة ، فقال : ما أنا بكاهن ، وإنما ذلك العلم مما يعلمني ربي ، وهذا القول ليس بشيء فإنه قال ﴿ **إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ** ﴾ [1] وقد قال أحدهما ﴿ **إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً ، وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ** ﴾ [2] .

فطلبا منه تأويل ما رأياه ، وأخبرهما بتأويل ذلك ، ولم يكن تأويل الطعام في اليقظة ، ولا في القرآن أنه أخبرهما بما يرزقانه في اليقظة فكيف يقول قولاً عاماً .

﴿ **لا يأتيكما طعام ترزقانه** ﴾ وهذا الإخبار العام لا يقدر عليه إلا الله ، والأنبياء يخبرون ببعض ذلك ، لا يخبرون بكل هذا .

وأيضاً فصفة الطعام وقدره ليس تأويلاً له .

وأيضاً . فالله إنما أخبر أنه علمه تأويل الرؤيا ، قال يعقوب عليه السلام : ﴿ **وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ** ﴾ [3] .

وقال يوسف عليه السلام ﴿ **رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ المُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ** ﴾ [4] .

وقال ﴿ **هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ** ﴾ [5]

---

(١) سورة يوسف آية رقم ٣٧ .
(٢) سورة يوسف آية رقم ٣٦ .
(٣) سورة يوسف آية رقم ٦ .
(٤) سورة يوسف آية رقم ١٠١ .
(٥) سورة يوسف آية رقم ١٠٠ .

ولما رأى الملك الرؤيا قال له : ﴿ الذي ﴾ ادكر بعد أمة ﴿ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾ [1] .

والملك قال : ﴿ يَا أَيُّهَا المَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُم لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴾ [2] .

فهذا لفظ التأويل في مواضع متعددة كلها بمعنى واحد وقال تعالى ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [3] .

قال مجاهد وقتادة : جزاء وثوابا .

وقال السدي وابن زيد وابن قتيبة والزجاج : عاقبة .

وعن ابن زيد أيضاً : تصديقاً .

كقوله ﴿ هذا تأويل رؤياي من قبل ﴾

وكل هذه الأقوال صحيحة ، والمعنى واحد ، وهذا تفسير السلف أجمعين .

ومنه قوله ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَلَيْهِ صَبْراً ﴾ [4] فلما ذكر لـه ما ذكر قال ﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَلَيْهِ صَبْراً ﴾ [5] .

وهذا تأويل فعله ليس هو تأويل قوله والمراد به عاقبة هذه الأقوال بما يؤول إليه ما فعلته : من مصلحة أهل السفينة ، ومصلحة أبوي الغلام ، ومصلحة أهل الجدار .

---

(1) سورة يوسف آية رقم ٤٥ .
(2) سورة يوسف آية رقم ٤٣ - ٤٤ .
(3) سورة النساء آية رقم ٥٩ .
(4) سورة الكهف آية رقم ٧٨ .
(5) سورة الكهف آية رقم ٨٢ .

وأما قول بعضهم : ردكم إلى الله والرسول أحسن من تأويلكم ، فهذا قد ذكره الزجاج عن بعضهم .

وهذا من جنس ما ذكر في تلك الآية في لفظ التأويل ، وهو تفسير له بالاصطلاح الحادث ، لا بلغة القرآن ، فأما قدماء المفسرين فلفظ التأويل والتفسير عندهم سواء ، كما يقول ابن جرير[1] : القول في تأويل هذه الآية . أي في تفسيرها .

ولما كان هذا معنى التأويل عند مجاهد ، وهو إمام التفسير جعل الوقف على قوله : ﴿ **والراسخون في العلم** ﴾ فإن الراسخين في العلم يعلمون تفسيره ، وهذا القول اختيار ابن قتيبة وغيره من أهل السنة ، وكان ابن قتيبة يميل إلى مذهب أحمد واسحاق .

وقد بسط الكلام على ذلك في كتابه في « المشكل » وغيره وأما متأخروا المفسرين كالثعلبي فيفرقون بين التفسير والتأويل .

قال : فمعنى التفسير هو التنوير ، وكشف المغلق من المراد بلفظه .

والتأويل : صرف الآية إلى معنى تحتمله يوافقه ما قبلها وما بعدها ، وتكلم في الفرق بينهما بكلام ليس هذا موضعه ، إلا أن التأويل الذي ذكره هو المعنى الثالث المتأخر .

وأبو الفرج بن الجوزي يقول : اختلف العلماء هل التفسير والتأويل بمعنى واحد ؟

أم يختلفان ؟ .

---

(١) هو محمد بن جرير بن يزيد الطبري أبو جعفر: المؤرخ المفسر الامام ، ولد عام ٢٢٤ هـ واستوطن بغداد وتوفي بها عام ٣١٠ هـ وعرض عليه القضاء فامتنع . [راجع ارشاد الأريب ٦ : ٤٢٣ وتذكرة الحفاظ ٢ : ٣٥١ والوفيات ١ : ٤٥٦ وطبقات السبكي ٢ : ١٣٥ - ١٤٠] .

فذهب قوم يميلون إلى العربية إلى أنهما بمعنى . وهذا قول جمهور المفسرين المتقدمين .

وذهب قوم يميلون إلى الفقه إلى اختلافهما ، فقالوا التفسير إخراج الشيء عن مقام الخفاء إلى مقام التجلي ، والتأويل نقل الكلام عن وضعه إلى ما يحتاج في إثباته إلى دليل لولاه ما ترك ظاهر اللفظ فهو مأخوذ من قولك آل الشيء إلى كذا . أي صار إليه . فهؤلاء لا يذكرون للتأويل إلا المعنى الأول . والثاني ، وأما التأويل في لغة القرآن فلا يذكرونه وقد عرف أن التأويل في القرآن هو الموجود الذي يؤول إليه الكلام ، وإن كان ذلك موافقاً للمعنى الذي يظهر من اللفظ ، بل لا يعرف في القرآن لفظ التأويل مخالفاً لما يدل عليه اللفظ خلاف اصطلاح المتأخرين . والكلام نوعان : إنشاء وإخبار ، فالإنشاء الأمر والنهي والإباحة ، وتأويل الأمر والنهي نفس فعل المأمور ، ونفس ترك المحظور كما في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت :

كان رسول الله ﷺ يقول في ركوعه وسجوده : «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لي بتأول القرآن » [1] .

فكان هذا الكلام تأويل قوله ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾ [2] .

قال ابن عيينة [3]: السنة تأويل الأمر والنهي وقال أبو عبيد لما ذكر اختلاف الفقهاء وأهل اللغة في نهي النبي ﷺ عن اشتمال الصماء قال : والفقهاء أعلم بالتأويل .

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث .

(٢) سورة النصر آية رقم ٣ .

(٣) هو سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي ، أبو محمد ، محدث الحرم المكي من الموالي ، ولد بالكوفة ، وسكن مكة ، وتوفي بها عام ١٩٨ هـ . [راجع تذكرة الحفاظ ١ : ٢٤٢ والرسالة المستطرفة ٣١ وصفة الصفوة ٢ : ١٣٠ وابن خلكان ١ : ٢١٠ وميزان الاعتدال ١ : ٣٩٧ وحلية الأولياء ٧ : ٣٧٠ والشعراني ١ : ٤٠ وتاريخ بغداد ٩ : ١٤٧] .

يقول : هو أعلم بتأويل ما أمر الله به ، وما نهى عنه فيعرفون أعيان الأفعال الموجودة التي أمر بها ، وأعيان الأفعال المحظورة التي نهى عنها .

وتفسير كلامه ليس هو نفس ما يوجد في الخارج بل هو بيانه وشرحه وكشف معناه .

فالتفسير من جنس الكلام ، يفسر الكلام بكلام يوضحه .

وأما التأويل فهو فعل المأمور به ، وترك المنهى عنه ليس هو من جنس الكلام .

والنوع الثاني : الخبر ، كإخبار الرب عن نفسه تعالى بأسمائه وصفاته وإخباره عما ذكره لعباده من الوعد والوعيد ، وهذا هو التأويل المذكور في قوله : ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالحَقِّ ﴾ (1) .

وهذا كقولهم ﴿ يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ المُرْسَلُونَ ﴾ (2)

ومثله قوله ﴿ انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تَكْذِبُونَ ﴾ (3) وقوله ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ إِنَّمَا العِلْمُ عِندَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ : هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ ﴾ (4) .

ونظائره متعددة في القرآن .

وكذلك قوله ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ

---

(1) سورة الأعراف آية رقم ٥٢ ـ ٥٣ .
(2) سورة يس آية رقم ٥٢ .
(3) سورة المرسلات آية رقم ٢٩ .
(4) سورة الملك آية رقم ٢٥ ـ ٢٧ .

اسْتَطَعْتُم مِن دُونِ الله إن كُنتُم صَادِقِينَ * بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ (١) .

فإن ما وعدوا به في القرآن لما يأتهم بعد ، وسوف يأتيهم . فالتفسير هو الإحاطة بعلمه ، والتأويل هو نفس ما وعدوا به إذا أتاهم ، فهم كذبوا بالقرآن الذي لم يحيطوا بعلمه ، ولما يأتهم تأويله . وقد يحيط الناس بعلمه ، ولما يأتهم تأويله ، فالرسول ﷺ يحيط بعلم ما أنزل الله عليه ، وإن كان تأويله لم يأت بعد .

وفي الحديث عن النبي ﷺ لما نزل قوله : ﴿ قُلْ هُوَ القَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِن فَوْقِكُمْ ﴾ (٢) الآية ، قال : إنها كائنة ، ولم يأت تأويلها بعد ، قال تعالى : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ * لِكُلِ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ ﴾ (٣) .

قال بعضهم : موضع قرار وحقيقة ومنتهى ينتهي إليه فيبين حقه من باطله وصدقه من كذبه .

وقال مقاتل : لكل خبر يخبر به الله وقت ومكان يقع فيه من غير حلف ولا تأخير .

وقال ابن السائب (٤) : لكل قول وفعل حقيقة ما كان منه في الدنيا فستعرفونه ، وما كان منه في الآخرة فسوف يبدو لكم ، وسوف تعملون .

---

(١) سورة يونس آية رقم ٣٨ - ٣٩ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ٦٥ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ٦٦ .

(٤) هو هشام بن محمد أبي النضر بن السائب بن بشر الكلبي أبو المنذر مؤرخ عالم بالأنساب وأخبار العرب وأيامها . كثير التصانيف من أهل الكوفة توفي عام ٢٠٤ هـ له نيف ومئة وخمسون كتاباً منها جمهرة الأنساب ، والأصنام ، وبيوتات قريش وغير ذلك [راجع ابن النديم ١ : ٩٥ وابن خلدون ٢ : ٢٦٢ ووفيات الأعيان ٢ : ١٩٥ - ١٩٦ وتاريخ بغداد ١٤ - ٤٥] .

وقال الحسن : لكل عمل جزاء ، فمن عمل عملاً من الخير جوزي به في الجنة ، ومن عمل عمل سوء جوزي به في النار ، وسوف تعلمون .

ومعنى قول الحسن : أن الأعمال قد وقع عليها الوعد والوعيد فالوعد والوعيد عليها هو النبأ الذي له المستقر ، فبين المعنى ، ولم يرد أن نفس الجزاء هو نفس النبأ وعن السدي قال : ﴿ **لكل نبأ مستقر** ﴾ أي ميعاد وعدتكموه ، فسيأتيكم حتى تعرفونه .

وعن عطاء : ﴿ **لكل نبأ مستقر** ﴾ تؤخر عقوبته ليعمل ذنبه ، فإذا عمل ذنبه عاقبه ، أي لا يعاقب بالوعيد حتى يفعل الذنب الذي توعده عليه .

ومنه قول كثير من السلف في آيات : هذه ذهب تأويلها وهذه لم يأت تأويلها .

مثل ما روى أبو الأشهب عن الحسن ، والربيع عن أبي العالية أن هذه الآية قرئت على ابن مسعود ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ** ﴾ [1] الآية فقال ابن مسعود : ليس هذا بزمانها ، قولوها ما قبلت منكم ، فإذا ردت عليكم فعليكم أنفسكم ثم قال : إن القرآن نزل حيث نزل ، فمنه آي قد مضى تأويلهن قبل أن ينزلن .

ومنه آي وقع تأويلهن على عهد النبي ﷺ ومنه آي وقع تأويلهن بعد النبي ﷺ بيسير .

ومنه آي يقع تأويلهن بعد اليوم .

ومنه آي يقع تأويلهن في آخر الزمان .

ومنه آي يقع تأويلهن يوم القيامة ، ما ذكر من الحساب والجنة والنار .

فما دامت قلوبكم وأهواؤكم واحدة ، ولم تلبسوا شيعاً ، ولم يذق بعضكم

---

(١) سورة المائدة آية رقم ١٠٥ .

بأس بعض ، فأمروا وانهوا فإذا اختلفت القلوب والأهواء ، وألبستم شيعاً وذاق بعضكم بأس بعض ، فامرؤ ونفسه ، فعند ذلك جاء تأويل هذه الآية .

فابن مسعود رضي الله عنه قد ذكر في هذا الكلام تأويل الأمر ، وتأويل الخبر ، فهذه الآية عليكم أنفسكم من باب الأمر ، وما ذكر من الحساب والقيامة من باب الخبر ، وقد تبين أن تأويل الخبر هو وجود المخبر به ، وتأويل الأمر هو فعل المأمور به ، فالآية التي مضى تأويلها قبل نزولها هي من باب الخبر : يقع الشيء فيذكره الله ، كما ذكر ما ذكره من قول المشركين للرسول وتكذيبهم له ، وهي وإن مضى تأويلها فهي عبرة ، ومعناها ثابت في نظيرها .

ومن هذا قول ابن مسعود : خمس قد مضين . ومنه قوله تعالى ﴿ **اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ** ﴾ (١) وإذا تبين ذلك ، فالمتشابه من الأمر لا بد من معرفة تأويله ؛ لأنه لا بد من فعل المأمور ، وترك المحظور وذلك لا يمكن إلا بعد العلم ، لكن ليس في القرآن ما يقتضي أن في الأمر متشابهاً ، فإن قوله : ﴿ **وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ** ﴾(٢) قد يراد به من الخبر فالمتشابه من الخبر مثل ما أخبر به في الجنة من اللحم واللبن والعسل والماء والحرير والذهب ، فإن بين هذا وبين ما في الدنيا تشابه في اللفظ والمعنى ومع هذا فحقيقة ذلك مخالفة لحقيقة هذا ، وتلك الحقيقة لا نعلمها نحن في الدنيا ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ (٣) .

وفي الحديث الصحيح يقول الله تعالى « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر » (٤) فهذا الذي وعد الله

---

(١) سورة القمر آية رقم ١ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٧ .

(٣) سورة السجدة آية رقم ١٧ .

(٤) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب التوحيد ٣٥ باب قول الله تعالى ﴿ يريدون أن يبدلوا كلام الله ﴾ ٨٤٩٨ حدثنا معاذ بن أسد أخبرنا عبد الله ، أخبرنا معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ وذكره . ورواه أيضاً في بدء الخلق ٨ ، والتفسير سورة

به عباده المؤمنين لا تعلمه نفس هو من التأويل الذي لا يعلمه إلا الله ، وكذلك وقت الساعة لا يعلمه إلا الله ، وأشراطها .

وكذلك كيفيات ما يكون فيها من الحساب والصراط والميزان والحوض والثواب والعقاب ، لا يعلم كيفيته إلا الله ، فإنه لم يخلق بعد حتى تعلمه الملائكة ولا له نظير مطابق من كل وجه حتى يعلم به ، فهو من تأويل المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله .

وكذلك ما أخبر به الرب عن نفسه مثل استوائه على عرشه وسمعه وبصره وكلامه وغير ذلك ، فإن كيفيات ذلك لا يعلمها إلا الله ، كما قال ربيعة بن أبي عبد الرحمن ، ومالك بن أنس .

وسائر أهل العلم تلقوا هذا الكلام عنهما بالقبول لما قيل ﴿ **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ** ﴾ (1)

كيف استوى ؟

فقال : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

هذا لفظ مالك ، فأخبر أن الاستواء معلوم ، وهذا تفسير اللفظ ، وأخبر أن الكيف مجهول ، وهذا هو الكيفية التي استأثر الله بعلمها .

وكذلك سائر السلف كابن الماجشون (2) ، وأحمد بن حنبل وغيرهما يبينون

٢،٣٢، ٥٦ - ١ وابن ماجه في الزهد ٣٩ ، والدارمي في الرقاق ٩٨ - ١٠٥ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٣١٣ ، ٣٧٠ ، ٤٠٧ ، ٤١٦ ، ٤٣٨ ، ٤٦٢ ، ٤٦٦ (حلبي) ٧

(١) سورة طه آية رقم ٥ .

(٢) هو عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الله التيمي بالولاء ، أبو مروان بن الماجشون : فقيه مالكي فصيح ، دارت عليه الفتيا في زمانه وعلى أبيه قبله ، كان مولعاً بسماع الغناء في اقامته وارتحاله توفي عام ٢١٢ هـ . [راجع ميزان الاعتدال ٢ : ١٥٠ والانتقاء ٥٧ وابن خلكان ١ : ٢٨٧] .

أن العباد لا يعلمون كيفية ما أخبر الله به عن نفسه ، فالكيف هو التأويل الذي لا يعلمه إلا الله . وأما نفس المعنى الذي بينه الله فيعلمه الناس كل على قدر فهمه فإنهم يفهمون معنى السمع ، ومعنى البصر ، وأن مفهوم هذا ليس هو مفهوم هذا ، ويعرفون الفرق بينهما ، وبين العليم والقدير ، وإن كانوا لا يعرفون كيفية سمعه وبصره ، بل الروح التي فيهم يعرفونها من حيث الجملة ، ولا يعرفون كيفيتها ، كذلك يعلمون معنى الاستواء على العرش وأنه يتضمن علو الرب على عرشه وارتفاعه عليه ، كما فسره بذلك السلف قبلهم ، وهذا معنى معروف من اللفظ لا يحتمل في اللغة غيره . كما قد بسط في موضعه . ولهذا قال مالك : الاستواء معلوم . ومن قال : الاستواء له معان متعددة فقد أجمل كلامه فإنهم يقولون : استوى فقط ، ولا يصلونه بحرف وهذا له معنى .

ويقولون : استوى على كذا وله معنى .

واستوى إلى كذا ، وله معنى .

واستوى مع كذا وله معنى .

فتتنوع معانيه بحسب صلاته .

وأما استوى على كذا فليس في القرآن ولغة العرب المعروفة إلا بمعنى واحد .

قال تعالى ﴿ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ ﴾ [1] وقال ﴿ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾ [2]

وقال ﴿ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ، ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُم عَلَيْهِ ﴾ [3] .

---

(١) سورة الفتح آية رقم ٢٩ .

(٢) سورة هود آية رقم ٤٤ وقد جاءت الآية محرفة في الأصل حيث قال (استوى) بدلاً من (استوت)

(٣) سورة الزخرف آية رقم ١٣ .

وقال ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَعَكَ عَلَى الفُلْكِ ﴾[1] وقد أتى النبي ﷺ بدابة ليركبها فلما وضع رجله في الغرز قال « بسم الله » فلما استوى على ظهرها قال « الحمد لله » .

وقال ابن عمر : أهل رسول الله ﷺ بالحج لما استوى على بعيره .

وهذا المعنى يتضمن شيئين :

علوه على ما استوى عليه ، واعتداله أيضاً .

فلا يسمون المائل على الشيء مستوياً عليه .

ومنه حديث الخليل بن أحمد لما قال : استووا . وقوله :

ثم استوى بشر على العراق   من غير سيف ودم مهراق

هو من هذا الباب ، فإن المراد به بشر بن مروان[2] . واستواؤه عليها ، أي على كرسي ملكها ، لم يرد بذلك مجرد الاستيلاء ، بل استواء منه عليها . إذ لو كان كذلك لكان عبد الملك الذي هو الخليفة قد استوى أيضاً على العراق ، وعلى سائر مملكة الإسلام . ولكان عمر بن الخطاب قد استوى على العراق وخراسان والشام ومصر ، وسائر ما فتحه .

ولكان رسول الله ﷺ قد استوى على اليمن وغيرها مما فتحه .

ومعلوم أنه لم يوجد في كلامهم استعمال الاستواء في شيء من هذا ، وإنما قيل فيمن استوى بنفسه على بلد ، فإنه مستو على سرير ملكه ، كما يقال : جلس فلان على السرير ، وقعد على التخت .

---

(١) سورة المؤمنون آية رقم ٢٨ .

(٢) هو بشر بن مروان بن الحكم بن أبي العاص القرشي الأموي أمير ، كان سمحاً جواداً ولي إمرة العراقين (البصرة والكوفة) لأخيه عبد الملك سنة ٧٤ هـ وهو أول أمير مات بالبصرة عام ٧٥ هـ . [راجع خزانة البغدادي ٤ : ١١٧ وتهذيب ابن عساكر ٣ : ٢٤٨ والمعارف لابن قتيبة ١٢١] .

ومنه قوله : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى العَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً ﴾ [1] وقوله ﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ [2] .

وقول الزمخشري وغيره : استوى على كذا بمعنى ملك. دعوى مجردة ، فليس لها شاهد في كلام العرب ، ولو قدر ذلك لكان هذا المعنى باطلاً في استواء الله على العرش لأنه أخبر أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش ، وقد أخبر أن العرش كان موجوداً قبل خلق السموات والأرض ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة ، وحينئذ فهو من حين خلق العرش مالك له مستول عليه ، فكيف يكون الاستواء عليه مؤخراً عن خلق السموات والأرض .؟!

وأيضاً فهو مالك لكل شيء مستول عليه ، فلا يخص العرش بالاستواء ، وليس هذا كتخصيصه بالربوبية في قوله ﴿ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ ﴾ [3] فإنه قد يخص لعظمته ، ولكن يجوز ذلك في سائر المخلوقات فيقال : رب العرش ، ورب كل شيء ، وأما الاستواء فمختص بالعرش ، فلا يقال استوى على العرش وعلى كل شيء ، ولا استعمل ذلك أحد من المسلمين في كل شيء ، ولا يوجد في كتاب ولا سنة كما استعمل لفظ الربوبية في العرش خاصة ، وفي كل شيء عامة ، وكذلك لفظ الخلق ونحوه من الألفاظ التي تخص ، وتعم .

كقوله تعالى ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ [4] .

فالاستواء من الألفاظ المختصة بالعرش ، لا تضاف إلى غيره ، لا خصوصاً ولا عموماً .

---

(1) سورة يوسف آية رقم ١٠٠ .
(2) سورة النمل آية رقم ٢٣ .
(3) سورة التوبة آية رقم ١٢٩ .
(4) سورة العلق آية رقم ١ ـ ٢ .

وهذا مبسوط في موضع آخر .

وإنما الغرض بيان صواب كلام السلف في قولهم : الاستواء معلوم ، بخلاف من جعل هذا اللفظ له بضعة عشر معنى ، كما ذكر ذلك ابن عربي المعافري يبين هذا أن سبب نزول هذه الآية كان قدوم نصارى نجران ، ومناظرتهم للنبي ﷺ في أمر المسيح كما ذكر ذلك أهل التفسير ، وأهل السيرة ، وهو من المشهور ، بل من المتواتر أن نصارى نجران قدموا على النبي ﷺ ودعاهم إلى المباهلة المذكورة في سورة آل عمران ، فأقروا بالجزية ولم يباهلوه وصدر آل عمران نزل بسبب ما جرى ، ولهذا عامتها في أمر المسيح وذكروا أنهم احتجوا بما في القرآن من لفظ « أنا » و« نحن » ونحو ذلك على أن الآلهة ثلاثة فاتبعوا المتشابه ، وتركوا المحكم الذي في القرآن من أن الاله واحد .

﴿ ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ ، وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ [1] .

فإنهم قصدوا بذلك الفتنة ، وهي فتنة القلوب بالكفر ، وابتغاء تأويل لفظ « أنا » و« نحن » « وما يعلم تأويل » هذه الأسماء « إلا الله » لأن هذه الأسماء إنما تقال للواحد الذي له أعوان إما أن يكونوا شركاء له ، وإما أن يكونوا مماليك له . ولهذا صارت متشابهة ، فإن الذي معه شركاء يقول : فعلنا نحن كذا ، وإنا نفعل نحن كذا ، وهذا ممتنع في حق الله تعالى، والذي له مماليك ومطيعون يطيعونه ـ كالملك ـ يقول : فعلنا كذا ، أي أنا فعلت بأهل ملكي وملكي ، وكل ما سوى الله مخلوق له مملوك له ، وهو سبحانه يدبر أمر العالم بنفسه وملائكته التي هي رسله في خلقه وأمره ، وهو سبحانه أحق من قال : إنا ونحن بهذا الاعتبار ، فإن ما سواه ليس له ملك تام .

ولا أمر مطاع طاعة تامة ، فهو المستحق أن يقول : أنا و« نحن » والملوك

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ٧ .

لهم شبه بهذا ، فصار فيه أيضاً من المتشابه معنى آخر ، ولكن الذي ينسب لله من هذا الاختصاص لا يماثله فيه شيء ، وتأويل ذلك معرفة ملائكته وصفاتهم وأقدارهم ، وكيف يدبر بهم أمر السماء والأرض .

وقد قال تعالى ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ (١) فهذا التأويل لهذا المتشابه لا يعلمه إلا هو ، وإن علمنا تفسيره ومعناه ، لكن لم نعلم تأويله الواقع في الخارج ، بخلاف قوله ﴿ الله الَّذِي خَلَقَ ﴾ (٢) فإنها آية محكمة ليس فيها تشابه ، فإن هذا الاسم مختص بالله ، ليس مثل « إنّا ، ونحن » التي تقال لمن له شركاء ، ولمن له أعوان يحتاج اليهم والله تعالى منزه عن هذا وهذا ، كما قال : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِن دُونِ الله لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمٰوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ، وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِن ظَهِيرٍ ﴾ (٣) وقال ﴿ وَقُلِ الحَمْدُ لله الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً ﴾ (٤) .

فالمعنى الذي يراد به هذا في حق المخلوقين لا يجوز أن يكون نظيره ثابتاً لله ، فلهذا صار متشابهاً وكذلك قوله ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ (٥) فإنه قد قال ﴿ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾ (٦)

وقال : ﴿ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ ﴾ (٧) .

---

(١) سور المدثر آية رقم ٣١ .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ٥٤ وتكملة الآية ﴿ السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾ .

(٣) سورة سبأ آية رقم ٢٢ .

(٤) سورة الإسراء آية رقم ١١١ .

(٥) سورة يونس آية رقم ٣ وسورة الأعراف آية رقم ٥٤ .

(٦) سورة هود آية رقم ٤٤ .

(٧) سورة الفتح آية رقم ٢٩ .

وقال : ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ ﴾ [1] وقال : ﴿ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ﴾ [2]

فهذا الاستواء كله يتضمن حاجة المستوي إلى المستوى عليه ، وأنه لو عدم من تحته لخر ، والله تعالى غني عن العرش ، وعن كل شيء ، بل هو سبحانه بقدرته يحمل العرش ، وحملة العرش ، وقد روي : أنهم إنما أطاقوا حمل العرش لما أمرهم أن يقولوا : لا حول ولا قوة إلا بالله .

فصار لفظ الاستواء متشابهاً يلزمه في حق المخلوقين معاني ينزه الله عنها ، فنحن نعلم معناه ، وأنه العلو والاعتدال ، لكن لا نعلم الكيفية التي اختص بها الرب التي يكون بها مستوياً من غير افتقار منه إلى العرش بل مع حاجة العرش ، وكل شيء محتاج إليه من كل وجه ، وأنا لم نعهد في الموجودات ما يستوي على غيره مع غناه عنه ، وحاجة ذلك المستوى عليه إلى المستوي ، فصار متشابهاً من هذا الوجه ، فإن بين اللفظين والمعنيين قدراً مشتركاً ، وبينهما قدراً فارقاً هو مراد في كل منهما ، ونحن لا نعرف الفارق الذي امتاز الرب به ، فصرنا نعرفه من وجه ونجهله من وجه . وذلك هو تأويله ، والأول هو تفسيره .

وكذلك ما أخبر الله به في الجنة من المطاعم والمشارب والملابس كاللبن والعسل والخمر والماء ، فإنا لا نعرف لبناً إلا مخلوقاً من ماشية يخرج من بين فرث ودم ، وإذا بقي أياماً يتغير طعمه .

ولا نعرف عسلاً إلا من نحل نصنعه في بيوت الشمع المسدسة ، فليس هو عسلاً مصفى ، ولا نعرف حريراً إلا من دود القز ، وهو يبلى .

وقد علمنا أن ما وعد الله به عباده ليس مماثلاً لهذه ، لا في المادة ، ولا في الصورة والحقيقة ، بل له حقيقة تخالف حقيقة هذه ، وذلك هو من التأويل

---

(1) سورة المؤمنون آية رقم ٢٨ .

(2) سورة الزخرف آية رقم ١٣ .

الذي لا نعلمه نحن .

قال ابن عباس : ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء .

لكن يقال : فالملائكة قد تعلم هذا ؟ فيقال : هي لا تعلم ما لم يخلق بعد ، ولا تعلم كل ما في الجنة . وأيضاً فمن النعم ما لا تعرفه الملائكة .

والتأويل يتناول هذا كله ، وإذا قدرنا أنها تعرف ما لا نعرفه فذاك لا يكون من المتشابه عندها ، ويكون من المتشابه عندنا فإن المتشابه قد يراد به ما هو صفة لازمة للآية ، وقد يراد به ما هو من الأمور النسبية ، فقد يكون متشابهاً عند هذا ما لا يكون متشابهاً عند هذا .

وكلام الإمام أحمد وغيره من السلف يحتمل أن يراد به هذا فإن أحمد ذكر في رده على الجهمية : أنها احتجت بثلاث آيات من المتشابه قوله تعالى ﴿ **وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ** ﴾ [1] وقوله ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** ﴾ [2] وقوله ﴿ **لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ** ﴾ [3]

وقد فسر أحمد قوله ﴿ **وهو الله في السموات وفي الأرض**﴾ فإذا كانت هذه الآيات مما علمنا معناها لم تكن متشابهةً عندنا ، وهي متشابهة عند من احتج بها ، وكان عليه أن يردها هو إلى ما يعرفه من المحكم .

وكذلك قال أحمد في ترجمة كتابه الذي صنفه في الحبس وهو « الرد على الزنادقة والجهمية » فيما شكت فيه من متشابه القرآن ، وتأولته على غير تأويله ، ثم فسر أحمد تلك الآيات آية آية ، فبين أنها ليست متشابهة عنده ، بل قد عرف معناها .

---

(١) سورة الأنعام آية رقم ٣ .

(٢) سورة الشورى آية رقم ١١ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ١٠٣ .

وعلى هذا فالراسخون في العلم يعلمون تأويل هذا المتشابه الذي هو تفسيره ، وأما التأويل الذي هو الحقيقة الموجودة في الخارج ، فتلك لا يعلمها إلا الله ، ولكن قد يقال : هذا المتشابه الإضافي ليس هو المتشابه المذكور في القرآن ، فإن ذلك قد أخبر الله أنه لا يعلم تأويله إلا الله وإنما هذا كما يشكل على كثير من الناس آيات لا يفهمون معناها وغيرهم من الناس يعرف معناها ، وعلى هذا فقد يجاب بجوابين : أحدهما : أن يكون في الآية قراءتان قراءة من يقف على قوله : ﴿ **إلا الله** ﴾ وقراءة من يقف عند قوله ﴿ **والراسخون في العلم** ﴾ وكلتا القراءتين حق ، ويراد بالأولى المتشابه في نفسه الذي استأثر الله بعلم تأويله ، ويراد بالثانية المتشابه الإضافي الذي يعرف الراسخون تفسيره ، وهو تأويله ، ومثل هذا يقع في القرآن كقوله ﴿ **وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ**[1] **مِنْهُ الجِبَالُ** ﴾ و ﴿ **لتزول** ﴾ فيه قراءتان مشهورتان بالنفي والإثبات وكل قراءة لها معنى صحيح .

وكذلك القراءة المشهورة ﴿ **وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً** ﴾[2] .

وقرأ طائفة من السلف «لتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة» وكلا القراءتين حق ، فإن الذي يتعدى حدود الله هو الظالم وتارك الإنكار عليه قد يجعل غير ظالم لكونه لم يشاركه ، وقد يجعل ظالماً باعتبار ما ترك من الإنكار الواجب ، وعلى هذا قوله ﴿ **فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ** ﴾[3] فأنجى الله الناهين عن السوء ، وأما أولئك الكارهون للذنب الذين قالوا : ﴿ **لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً** ﴾[4] فالأكثرون على أنهم نجوا لأنهم كانوا كارهين ، فأنكروا بحسب قدرتهم .

---

(١) سورة ابراهيم آية رقم ٤٦ .

(٢) سورة الأنفال آية رقم ٢٥ .

(٣) سورة الأعراف آية رقم ١٦٥ .

(٤) سورة الأعراف آية رقم ١٦٤ .

وأما من ترك الإنكار مطلقاً فهو ظالم يعذب « كما قال النبي ﷺ : إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه »[1] .

وهذا الحديث موافق للآية .

والمقصود هنا أن يصح النفي والإثبات باعتبارين ، كما أن قوله ﴿ لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ [2]

أي لا تختص بالمعتدين ، بل يتناول من رأى المنكر فلم يغيره ومن قرأ « لتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » أدخل في ذلك من ترك الإنكار مع قدرته عليه ، وقد يراد بذلك أنهم يعذبون في الدنيا ، ويبعثون على نياتهم ، كالجيش الذين يغزون البيت فيخسف بهم كلهم ، ويحشر المكره على نيته .

والجواب الثاني : القطع بأن المتشابه المذكور في القرآن هو تشابهها في نفسها اللازم لها ، وذاك الذي لا يعلم تأويله إلا الله .

وأما الإضافي الموجود في كلام من أراد به التشابه الإضافي فمرادهم أنهم تكلموا فيما اشتبه معناه ، وأشكل معناه على بعض الناس ، وأن الجهمية استدلوا بما اشتبه عليهم ، وأشكل . وإن لم يكن هو من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله وكثيراً ما يشتبه على الرجل ما لا يشتبه على غيره .

ويحتمل كلام الإمام أحمد أنه لم يرد إلا المتشابه في نفسه الذي يلزمه التشـابه، لم يرد بشيء منه التشابه الإضافي وقال : تأولته على غير تأويله أي غير

---

(١) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الفتن ٢٠ باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٤٠٠٥ ـ بسنده عن قيس بن أبي حازم قال : قـام أبو بكـر فحمد الله وأثنى عليـه ثم قال : يـا أيها النـاس إنكم تقرأون هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضـل إذا اهتديتم ﴾ وإنـا سمعنا رسول الله ـ ﷺ يقول : وذكره ورواه الامام أحمد في المسند ١ : ٢ (حلبي) .

(٢) سورة الأنفال آية رقم ٢٥ .

تأويله الذي هو تأويله في نفس الأمر ، وإن كان ذلك التأويل لا يعلمه إلا الله ، وأهل العلم يعلمون أن المراد به ذلك التأويل فلا يبقى مشكلاً عندهم محتملاً لغيره ، ولهذا كان المتشابه في الخبريات إما عن الله ، وإما عن الآخرة ، وتأويل هذا كله لا يعلمه إلا الله ، بل المحكم من القرآن قد يقال له تأويل ، كما للمتشابه تأويل ، كما قال ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إلاَّ تَأْوِيلَهُ ﴾ (١) .

ومع هذا فذلك التأويل لا يعلم وقته وكيفيته إلا الله وقد يقال : بل التأويل للمتشابه ، لأنه في الوعد والوعيد وكله متشابه ، وأيضاً فلا يلزم في كل آية ظنها بعض الناس متشابهاً أن تكون من المتشابه .

فقول أحمد : احتجوا بثلاث آيات من المتشابه ، وقوله ما شكت فيه من متشابه القرآن ، قد يقال : إن هؤلاء ، أو أن أحمد جعل بعض ذلك من المتشابه وليس منه ، فإن قول الله تعالى ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ (٢) .

لم يرد به هنا الإحكام العام ، والتشابه العام الذي يشترك فيه جميع آيات القرآن ، وهو المذكور في قوله : ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ (٣) .

وفي قوله ﴿ الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ (٤) .

فوصفه هنا كله بأنه متشابه ، أي متفق غير مختلف يصدق بعضه بعضاً ، وهو عكس المتضاد المختلف المذكور في قوله ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ الله لَوَجَدُوا فِيهِ آخْتِلَافاً كَثِيراً ﴾ (٥) .

---

(١) سورة الأعراف آية رقم ٥٣ .
(٢) سورة آل عمران آية رقم ٧ .
(٣) سورة هود آية رقم ١ .
(٤) سورة الزمر آية رقم ٢٣ .
(٥) سورة النساء آية رقم ٨٢ .

وقوله ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ (١) .

فإن هذا التشابه يعم القرآن ، كما أن إحكام آياته تعمه كله .

وهنا قد قال : ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ (٢) .

فجعل بعضه محكماً وبعضه متشابهاً ، فصار التشابه له معنيان ، وله معنى ثالث وهو الإضافي ، يقال : قد اشتبه علينا هذا ، كقول بني اسرائيل : ﴿ إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا ﴾ (٣) .

وإن كان في نفسه متميزاً منفصلاً بعضه عن بعض وهذا من باب اشتباه الحق بالباطل ، كقوله ﷺ في الحديث « الحلال بين والحرام بين وبين ذلك أمور متشابهات لا يعلمهن كثير من الناس » (٤) فدل ذلك على أن من الناس من يعرفها ، فليست مشتبهة على جميع الناس ، بل على بعضهم ، بخلاف ما لا يعلم تأويله إلا الله ، فإن الناس كلهم مشتركون في عدم العلم بتأويله ومن هذا ما يروى عن المسيح ـ عليه السلام ـ أنه قال : الأمور ثلاثة : أمر تبين رشده فاتبعوه ، وأمر تبين غيه فاجتنبوه ، وأمر اشتبه عليكم فكلوه إلى عالمه .

فهذا المشتبه على بعض الناس يمكن الآخرين أن يعرفوا الحق فيه ، ويبينوا الفرق بين المشتبهين ، وهذا هو الذي أراده من جعل الراسخين يعلمون التأويل فإنه جعل المشتبهات في القرآن من هذا الباب الذي يشتبه على بعض الناس دون بعض ويكون بينهما من الفروق المانعة للتشابه ما يعرفه بعض الناس ، وهذا المعنى صحيح في نفسه لا ينكر ، ولا ريب أن الراسخين في العلم يعلمون ما اشتبه على غيرهم .

وقد يكون هذا قراءة في الآية كما تقدم ، من أنه يكون فيها قراءتان ؛

---

(١) سورة الذاريات آية رقم ٨ ـ ٩ .
(٢) سورة آل عمران آية رقم ٧
(٣) سورة البقرة آية رقم ٧٠ .
(٤) سبق تخريج هذا الحديث .

لكن لفظ التأويل على هذا يراد به التفسير ووجه ذلك أنهم يعلمون تأويله من حيث الجملة ، كما يعلمون تأويل المحكم ، فيعرفون الحساب والميزان والصراط والثواب والعقاب وغير ذلك مما أخبر الله به ورسوله معرفة مجملة ، فيكونون عالمين بالتأويل ، وهو ما يقع في الخارج على هذا الوجه ، ولا يعلمونه مفصلاً ، إذ هم لا يعرفون كيفيته وحقيقته ، إذ ذلك ليس مثل الذي علموه في الدنيا وشاهدوه . وعلى هذا يصح أن يقال : علموا تأويله ، وهو معرفة تفسيره ، ويصح أن يقال : لم يعلموا تأويله ، وكلا القراءتين حق . وعلى قراءة النفي هل يقال أيضاً : إن المحكم له تأويل لا يعلمون تفصيله ، فإن قوله « وما يعلم تأويل ما تشابه منه ﴿ إلا الله ﴾ لا يدل على أن غيره يعلم تأويل المحكم ، بل قد يقال : إن من المحكم أيضاً ما لا يعلم تأويله إلا الله ، وإنما خص التشابه بالذكر ، لأن أولئك طلبوا علم تأويله ، أو يقال : بل المحكم يعلمون تأويله لكن لا يعلمون وقت تأويله ومكانه وصفته .

وقد قال كثير من السلف : إن المحكم ما يعمل به ، والمتشابه ما يؤمن به ، ولا يعمل به ، كما يجيء في كثير من الآثار ، ونعمل بحكمه ، ونؤمن بمتشابهه ، وكما جاء عن ابن مسعود ، وغيره في قوله تعالى ﴿ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ** ﴾[1] قال : يحلون حلاله ، ويحرمون حرامه ، ويعملون بمحكمه ، ويؤمنون بمتشابهه ، وكلام السلف في ذلك يدل على أن التشابه أمر إضافي ، فقد يشتبه على هذا ما لا يشتبه على هذا .

فعلى كل أحد أن يعمل بما استبان له ، وبكل ما اشتبه عليه إلى الله ، كقول أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ في الحديث الذي رواه الثوري عن مغيرة ـ وليس بشيء ـ عن أبي العالية قال : قيل لأبي بن كعب : أوصني فقال : اتخذ كتاب الله إماماً أرضى به قاضياً وحاكماً ، هو الذي استخلف فيكم رسوله شفيع مطاع ، وشاهد لا يتهم ، فيه خبر ما قبلكم وخبر ما بينكم ، وذكر ما قبلكم ،

(١) سورة البقرة آية رقم ١٢١ .

وذكر ما فيكم .

وقال سفيان عن رجل سماه عن ابن أبزى عن أبي قال : فما استبان لك فاعمل به ، وما شبه عليك فآمن به ، وكله إلى عالمه .

فمنهم من قال : المتشابه هو المنسوخ ، ومنهم من جعله الخبريات مطلقاً .

فعن قتادة والربيع والضحاك والسدي : المحكم الناسخ الذي يعمل به ، والمتشابه المنسوخ يؤمن به ، ولا يعمل به وكذلك في تفسير العوفي عن ابن عباس .

وأما تفسير الوالبي عن ابن عباس فقال : محكمات القرآن ناسخه وحلاله وحرامه وحدوده وفرائضه ، وما يؤمن به ، ويعمل به .

والمتشابهات منسوخة ومقدمة ومؤخرة ، وأمثاله وأقسامه ، وما يؤمن به ولا يعمل به .

أما القول الأول فهو ـ والله أعلم ـ مأخوذ من قوله : ﴿ **فَيَنسَخُ الله مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ الله آيَاتِهِ** ﴾[1] فقابل بين المنسوخ والمحكم ، وهو سبحانه إنما أراد نسخ ما ألقاه الشيطان ، لم يرد نسخ ما أنزله ، لكن هم جعلوا جنس المنسوخ متشابهاً لأنه يشبه غيره في التلاوة والنظم وأنه كلام الله وقرآن ومعجز ، وغير ذلك من المعاني مع أن معناه قد نسخ .

ومن جعل المتشابه كل ما لا يعمل به من المنسوخ ، والأقسام والأمثال ، فلان ذلك متشابه ، ولم يؤمر الناس بتفصيله بل يكفيهم الإيمان المجمل به ، بخلاف المعمول به فإنه لا بد فيه من العلم المفصل ، وهذا بيان لما يلزم كل الأمة ، فإنهم يلزمهم معرفة ما يعمل به تفصيلاً ليعملوا به .

---

(١) سورة الحج آية رقم ٥٢ .

وما أخبروا به فليس عليهم معرفته ، بل عليهم الإيمان به ،وإن كان العلم به حسناً أو فرضاً على الكفاية فليس فرضاً على الأعيان ، بخلاف ما يعمل به ، ففرض على كل إنسان معرفة ما يلزمه من العمل مفصلاً ، وليس عليه معرفة العلميات مفصلاً وقد روي عن مجاهد وعكرمة : المحكم ما فيه من الحلال والحرام وما سوى ذلك متشابه يصدق بعضه بعضاً فعلى هذا القول يكون المتشابه هو المذكور في قوله﴿ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ ﴾ [1] .

والحلال مخالف للحرام ، وهذا على قول مجاهد إن العلماء يعلمون تأويله ، لكن تفسير المتشابه بهذا مع أن كل القرآن متشابه ، وهنا خص البعض به ، فيستدل به على ضعف هذا القول .

وكذلك قوله : ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾[2] لو أريد بالمتشابه تصديق بعضه بعضاً لكان اتباع ذلك غير محذور ، وليس في كونه يصدق بعضه بعضاً ما يمنع ابتغاء تأويله .

وقد يحتج لهذا القول بقوله ﴿ متشابهات ﴾ فجعلوا أنفسها متشابهات ، وهذا يقتضي أن بعضها يشبه بعضاً ليست مشابهة لغيرها .

ويجاب عن هذا بأن اللفظ إذا ذكر في موضعين بمعنيين صار من المتشابه ، كقوله ﴿ إنا ﴾ و﴿ نحن ﴾ المذكور في سبب نزول الآية .

وقد ذكر محمد بن اسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير لما ذكر قصة أهل نجران ونزول الآية قال : المحكم ما لا يحتمل من التأويل إلا وجهاً واحداً ، والمتشابه ما احتمل في التأويل أوجهاً ، ومعنى هذا أن ذلك اللفظ المحكم لا يكون تأويله في الخارج إلا شيئاً واحداً وأما المتشابه فيكون له تأويلات متعددة ، لكن لم يرد الله إلا واحداً منها ، وسياق الآية يدل على المراد .

---

(١) سورة الزمر آية رقم ٢٣ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٧ .

وحينئذ فالراسخون في العلم يعلمون المراد من هذا ، كما يعلمون المراد من المحكم ، لكن نفس التأويل الذي هو الحقيقة ووقت الحوادث ونحو ذلك لا يعلمونه لا من هذا ولا من هذا .

وقد قيل : إن نصارى نجران احتجوا بقوله ﴿ **كلمة الله** ﴾ ﴿ **وَرُوحٌ مِنْهُ** ﴾[1] ولفظ كلمة الله : يراد به الكلام ، ويراد به المخلوق بالكلام وروح منه : يراد به ابتغاء الغاية ، ويراد به التبعيض .

فعلى هذا إذا قيل : تأويله لا يعمله إلا الله ، المراد به الحقيقة أي لا يعلمون كيف خلق عيسى بالكلمة ، ولا كيف أرسل إليها روحه فتمثل لها بشراً سوياً ، ونفخ فيها من روحه .

وفي صحيح البخاري عن عائشة عن النبي ﷺ قال : « إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم »[2] .

والمقصود هنا : أنه لا يجوز أن يكون الله أنزل كلاماً لا معنى له ولا يجوز أن يكون الرسول ﷺ وجميع الأمة لا يعلمون معناه، كما يقول ذلك من يقوله من المتأخرين ، وهذا القول يجب القطع بأنه خطأ ، سواء كان مع هذا تأويل القرآن لا يعلمه الراسخون ، أو كان للتأويل معنيان يعلمون أحدهما ولا يعلمون الآخر .

وإذا دار الأمر بين القول بأن الرسول كان لا يعلم معنى المتشابه من القرآن ، وبين أن يقال : الراسخون في العلم يعلمون كان هذا الإثبات خيراً من ذلك النفي ، فإن معنى الدلائل الكثيرة من الكتاب والسنة وأقوال السلف على أن جميع القرآن مما يمكن علمه وفهمه وتدبره ، وهذا مما يجب القطع به ،

---

(١) سورة النساء آية رقم ١٧١ .

(٢) الحديث سبق تخريجه ، وراجع صحيح الامام البخاري كتاب التفسير سورة ٣ آية ١ ، وأبو داود في السنة ٢ والدارمي في المقدمة ١٩ .

وليس معناه قاطع على أن الراسخين في العلم لا يعلمون تفسير المتشابه ، فإن السلف قد قال كثير منهم إنهم يعلمون تأويله ، منهم مجاهد ـ مع جلالة قدره ـ والربيع بن أنس ومحمد بن جعفر بن الزبير ، ونقلوا ذلك عن ابن عباس وأنه قال : أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله . وقول أحمد فيما كتبه في الرد على الزنادقة والجهمية فيما شكت فيه من متشابه القرآن ، وتأولته على غير تأويله وقوله عن الجهمية أنها تأولت ثلاث آيات من المتشابه ثم تكلم على معناها ، دليل على أن المتشابه عنده تعرف العلماء معناه ، وأن المذموم تأويله على غير تأويله فأما تفسيره المطابق لمعناه فهذا محمود ليس بمذموم وهذا يقتضي أن الراسخين في العلم يعلمون التأويل الصحيح للمتشابه عنده ، وهو التفسير في لغة السلف ولهذا لم يقل أحمد ولا غيره من السلف : إن في القرآن آيات لا يعرف الرسول ولا غيره معناها ، بل يتلون لفظاً لا يعرفون معناه ، وهذا القول اختيار كثير من أهل السنة ، منهم ابن قتيبة ، وأبو سليمان الدمشقي ، وغيرهما .

وابن قتيبة من المنتسبين إلى أحمد واسحاق والمنتصرين لمذاهب السنة المشهورة، وله في ذلك مصنفات متعددة قال فيه صاحب كتاب «التحديث بمناقب أهل الحديث» وهو أحد أعلام الأئمة والعلماء والفضلاء ، أجودهم تصنيفاً ، وأحسنهم ترصيفاً ، له زهاء ثلاثمائة مصنف ، وكان يميل إلى مذهب أحمد واسحاق وكان معاصراً لابراهيم الحربي ، ومحمد بن نصر المروزي وكان أهل المغرب يعظمونه ، ويقولون : من استجاز الوقيعة في ابن قتيبة يتهم بالزندقة ، ويقولون : كل بيت ليس فيه شيء من تصنيفه فلا خير فيه .

قلت : ويقال هو لأهل السنة مثل الجاحظ [1] للمعتزلة ، فإنه خطيب السنة ، كما أن الجاحظ خطيب المعتزلة .

وقد نقل عن ابن عباس أيضاً القول الآخر ، ونقل ذلك عن غيره من الصحابة ، وطائفة من التابعين ، ولم يذكر هؤلاء على قولهم نصاً عن رسول الله

---

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

ﷺ ، فصارت مسألة نزاع فترد إلى الله والرسول ، وأولئك احتجوا بأنه قرن ابتغاء الفتنة بابتغاء تأويله ، وبأن النبي ﷺ ذم مبتغى المتشابه وقال : إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فاحذروهم .

ولهذا ضرب عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - صبيغ بن عسل لما سأله عن المتشابه ولأنه قال : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ ﴾ (١) ولو كانت الواو واو عطف مفرد على مفرد لا واو الاستئناف التي تعطف جملة على جملة لقال : ويقولون .

فأجاب الآخرون عن هذا بأن الله قال: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ المُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ الله وَرِضْوَاناً ﴾ (٢) .

ثم قال ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ ﴾ (٣) .

ثم قال ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ ﴾ (٤) .

قالوا فهذا عطف مفرد على مفرد ، والفعل حال من المعطوف فقط ، وهو نظير قوله ﴿ والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ﴾ .

بل قال : والمؤمنون يقولون آمنا به ، فإن كل مؤمن يجب عليه أن يؤمن به ، فلما خص الراسخين في العلم بالذكر علم أنهم امتازوا بعلم تأويله .

فعلموه لأنهم عالمون ، وآمنوا به لأنهم يؤمنون ، وكان إيمانهم به مع العلم أكمل في الوصف ، وقد قال عقيب ذلك ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ (٥) .

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ٧ .
(٢) سورة الحشر آية رقم ٨ .
(٣) سورة الحشر آية رقم ٩ .
(٤) سورة الحشر آية رقم ١٠ .
(٥) سورة آل عمران آية رقم ٧ .

وهذا يدل على أن هنا تذكراً يختص به أولو الألباب فإن كان ما ثم إلا الإيمان بألفاظ فلا يذكر لما بدلهم على ما أريد بالمتشابه .

ونظير هذا قوله في الآية الأخرى : ﴿ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ (١) فلما وصفهم بالرسوخ في العلم ، وأنهم يؤمنون ، قرن بهم المؤمنين فلو أريد هنا مجرد الإيمان لقال : والراسخون في العلم والمؤمنون يقولون آمنا به ، كما قال في تلك الآية لما كان مراده مجرد الإخبار بالإيمان جمع بين الطائفتين .

قالوا : وأما الذم فإنما وقع على من يتبع المتشابه لابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وهو حال أهل القصد الفاسد الذين يريدون القدح في القرآن فلا يطلبون إلا المتشابه لإفساد القلوب ، وهو فتنتها به ، ويطلبون تأويله ، وليس طلبهم لتأويله لأجل العلم والاهتداء ، بل هذا لأجل الفتنة ، وكذلك صبيغ بن عسل ضربه عمر ؛ لأن قصده بالسؤال عن المتشابه كان لابتغاء الفتنة ، وهذا كمن يورد أسئلة وإشكالات على كلام الغير ، ويقول : ماذا أريد بكذا وغرضه التشكيك والطعن فيه ، ليس غرضه معرفة الحق ، وهؤلاء هم الذين عناهم النبي ﷺ بقوله « إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه » (٢) .

ولهذا يتبعون أي يطلبون المتشابه ويقصدونه دون المحكم مثل المتبع للشيء الذي يتحراه ويقصده ، وهذا فعل من قصده الفتنة .

وأما من سأل عن معنى المتشابه ليعرفه ويزيل ما عرض له من الشبه وهو عالم بالمحكم متبع له ، مؤمن بالمتشابه ، لا يقصد فتنة فهذا لم يذمه الله ، وهكذا كان الصحابة يقولون - رضي الله عنهم - مثل الأثر المعروف الذي رواه ابراهيم بن يعقوب الجوزجاني ، وقد ذكره الطلمنكي - حدثنا يزيد بن عبد

---

(١) سورة النساء آية رقم ١٦٢ .

(٢) سبق تخريج هذا الحديث .

ربه ، ثنا بقية ، ثنا عتبة بن أبي حكيم ، ثنى عمارة بن راشد الكناني عن زياد عن معاذ بن جبل قال : يقرأ القرآن رجلان فرجل له فيه هوى ونية يفليه فلى الرأس ، يلتمس أن يجد فيه أمراً يخرج به على الناس أولئك شرار أمتهم ، أولئك يعمي الله عليهم سبل الهدى ورجل يقرؤه ليس فيه هوى ولا نية يفليه فلى الرأس . فما تبين له منه عمل به ، وما اشتبه عليه وكله إلى الله ، ليتفقهن فيه فقهاً ما فقهه قوم قط ، حتى لو أن أحدهم مكث عشرين سنة ، فليبعثن الله له من يبين له الآية التي أشكلت عليه ، أو يفهمه إياها من قبل نفسه .

قال بقية أشهدني ابن عيينة حديث عتبة هذا .

فهذا معاذ يذم من اتبع المتشابه لقصد الفتنة ، وأما من قصده الفقه فقد أخبر أن الله لا بد أن يفقهه بفهمه المتشابه فقهاً ما فقهه قوم قط .

قالوا : والدليل على هذا أن الصحابة كانوا إذا عرض لأحدهم شبهة في آية أو حديث سأل عن ذلك ، كما سأله عمر فقال : ألم تكن تحدثنا أنا نأتي البيت ونطوف به ؟ وسأله أيضاً عمر : ما بالنا نقصر الصلاة . وقد آمنا ؟ ولما نزلنا قوله ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ ﴾ (١) .

شق عليهم وقالوا : أينا لم يظلم نفسه حتى بين لهم . ولما نزل قوله ﴿ وإنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ الله ﴾ (٢) شق عليهم حتى بين لهم الحكمة في ذلك .

ولما قال النبي ﷺ : « من نوقش الحساب عذب » قالت عائشة : ألم يقل الله ؟ ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً ﴾ (٣) قال : إنما ذلك العرض .

قالوا : والدليل على ما قلناه إجماع السلف ، فإنهم فسروا جميع القرآن .

---

(١) سورة الأنعام آية رقم ٨٢ .
(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٨٤ .
(٣) سورة الانشقاق آية رقم ٨ .

وقال مجاهد : عرضت المصحف على ابن عباس من فاتحته إلى خاتمته أقفه عند كل آية وأسأله عنها ، وتلقوا ذلك عن النبي ﷺ ، كما قال أبو عبد الرحمن السلمي حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً .

وكلام أهل التفسير من الصحابة والتابعين شامل لجميع القرآن إلا ما قد يشكل على بعضهم فيقف فيه ، لا لأن أحداً من الناس لا يعلمه ، لكن لأنه هو لم يعلمه .

وأيضاً فإن الله قد أمر بتدبر القرآن مطلقاً ولم يستثن منه شيئاً لا يتدبر ، ولا قال : لا تدبروا المتشابه .

والتدبر بدون الفهم ممتنع ، ولو كان من القرآن ما لا يتدبر لم يعرف فإن الله لم يميز المتشابه بحد ظاهر حتى يجتنب تدبره .

وهذا أيضاً مما يحتجون به ، ويقولون : المتشابه أمر نسبي إضافي فقد يشتبه على هذا ما لا يشتبه على غيره .

قالوا : ولأن الله أخبر أن القرآن بيان وهدى وشفاء ونور ولم يستثن منه شيئاً من هذا الوصف ، وهذا ممتنع بدون فهم المعنى .

قالوا : ولأن من العظيم أن يقال : إن الله أنزل على نبيه كلاماً لم يكن يفهم معناه ، لا هو ولا جبريل ، بل وعلى قول هؤلاء كان النبي ﷺ يحدث بأحاديث الصفات والقدر والمعاد ونحو ذلك مما هو نظير متشابه القرآن عندهم ، ولم يكن يعرف معنى ما يقوله ، وهذا لا يظن بأقل الناس .

وأيضاً فالكلام إنما المقصود به الإفهام ، فإذا لم يقصد به ذلك كان عبثاً وباطلاً ، والله تعالى قد نزه نفسه عن فعل الباطل والعبث ، فكيف يقول الباطل

والعبث ويتكلم بكلام ينزله على خلقه ، لا يريد به إفهامهم ، وهذا من أقوى حجج الملحدين . وأيضاً : فما في القرآن آية إلا وقد تكلم الصحابة والتابعون لهم بإحسان في معناها ، وبينوا ذلك .

وإذا قيل : فقد يختلفون في بعض ذلك .

قيل : كما قد يختلفون في آيات الأمر والنهي ، وآيات الأمر والنهي مما اتفق المسلمون على أن الراسخين في العلم يعلمون معناها وهذا أيضاً مما يدل على أن الراسخين في العلم يعلمون تفسير المتشابه ، فإن المتشابه قد يكون في آيات الأمر والنهي كما يكون في آيات الخبر ، وتلك مما اتفق العلماء على معرفة الراسخين لمعناها ، فكذلك الأخرى ، فإنه على قول النفاة لم يعلم معنى المتشابه إلا الله ، لا ملك ولا رسول ولا عالم وهذا خلاف إجماع المسلمين في متشابه الأمر والنهي .

وأيضاً : فلفظ التأويل يكون للمحكم ، كما يكون للمتشابه ، كما دل القرآن والسنة وأقوال الصحابة على ذلك ، وهم يعلمون معنى المحكم ، فكذلك معنى المتشابه .

وأي فضيلة في المتشابه حتى ينفرد الله بعلم معناه ، والمحكم أفضل منه ، وقد بين معناه لعباده ، فأي فضيلة في المتشابه حتى يستأثر الله بعلم معناه ، وما استأثر الله بعلمه كوقت الساعة لم ينزل به خطاباً ، ولم يذكر في القرآن آية تدل على وقت الساعة ونحن نعلم أن الله استأثر بأشياء لم يطلع عباده عليها ، وإنما النزاع في كلام أنزله وأخبر أنه هدى وبيان وشفاء ، وأمر بتدبره ثم يقال : إن منه ما لا يعرف معناه إلا الله ، ولم يبين الله ولا رسوله ذلك القدر الذي لا يعرف أحد معناه ، ولهذا صار كل من أعرض عن آيات لا يؤمن بمعناها يجعلها من المتشابه بمجرد دعواه ثم سبب نزول الآية قصة أهل نجران ، وقد احتجوا بقوله : ﴿ إنا ﴾ و﴿نحن ﴾ وبقوله ﴿ كلمة منه ﴾ و﴿ روح منه ﴾ وهذا قد اتفق المسلمون على معرفة معناه ، فكيف يقال : إن المتشابه لا يعرف معناه لا الملائكة ، ولا الأنبياء ، ولا أحد من السلف ، وهو من كلام الله الذي أنزله

إلينا ، وأمرنا أن نتدبره ونعقله ، وأخبر أنه بيان وهدى وشفاء ونور، وليس المراد من الكلام إلا معانيه ، ولولا المعنى لم يجز التكلم بلفظ لا معنى له .

وقد قال الحسن : ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم فيماذا أنزلت ، وماذا عنى بها .

ومن قال : إن سبب نزول الآية سؤال اليهود عن حروف المعجم في ﴿ الم ﴾ بحساب الجمل ، فهذا نقل باطل .

أما أولاً : فلأنه من رواية الكلبي [1] .

وأما ثانياً : فهذا قد قيل إنهم قالوه في أول مقدم النبي ﷺ إلى المدينة ، وسورة آل عمران إنما نزل صدرها متأخراً لما قدم وفد نجران بالنقل المستفيض المتواتر وفيها فرض الحج، وإنما فرض سنة تسع أو عشر ، لم يفرض في أول الهجرة باتفاق المسلمين .

وأما ثالثاً : فلأن حروف المعجم ، ودلالة الحرف على بقاء هذه الأمة ليس هو من تأويل القرآن الذي استأثر الله بعلمه ، بل إما أن يقال : إنه ليس مما أراده الله بكلامه ، فلا يقال : إنه انفرد بعلمه ، بل دعوى دلالة الحروف على ذلك باطل . وإما أن يقال : بل يدل عليه فقد علم بعض الناس ما يدل عليه .

وحينئذ فقد علم الناس ذلك ، أما دعوى دلالة القرآن على ذلك ، وأن أحداً لا يعلمه فهذا هو الباطل .

وأيضاً فإذا كانت الأمور العلمية التي أخبر الله بها في القرآن لا يعرفها الرسول ، كان هذا من أعظم قدح الملاحدة فيه وكان حجة لما يقولونه من أنه

---

(١) هو محمد بن السائب بن بشر بن عمرو بن الحارث الكلبي أبو النضر نسابة راوية ، عالم بالتفسير ، والأخبار ، وأيام العرب من أهل الكوفة ، مولده ووفاته فيها وهو من « كلب » بن وبرة توفي عام ١٤٦ هـ [راجع تهذيب التهذيب ٩ : ١٧٨ ووفيات الأعيان ١ : ٤٩٣ وميزان الاعتدال ٣ : ٦١ والمعارف لابن قتيبة ٢٣٣] .

كان لا يعرف الأمور العلمية ، أو أنه كان يعرفها ولم يبينها ، بل هذا القول يقتضي أنه لم يكن يعلمها فإن ما لا يعلمه إلا الله لا يعلمه النبي ولا غيره .

وبالجملة : فالدلائل الكثيرة توجب القطع ببطلان قول من يقول : إنَّ في القرآن آيات لا يعلم معناها الرسول ولا غيره .

نعم قد يكون في القرآن آيات لا يعلم معناها كثير من العلماء فضلاً عن غيرهم ، وليس ذلك في آية معينة ، بل قد يشكل على هذا ما يعرفه هذا ، وذلك تارة يكون لغرابة اللفظ ، وتارة لاشتباه المعنى بغيره ، وتارة لشبهة في نفس الإنسان تمنعه من معرفة الحق ، وتارة لعدم التدبر التام ، وتارة لغير ذلك من الأسباب ، فيجب القطع بأن قوله ﴿ **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ** ﴾ [1] .

إن الصواب قول من يجعله معطوفاً ، ويجعل الواو لعطف مفرد على مفرد ، أو يكون كلا القولين حقاً ، وهي قراءتان والتأويل المنفي غير التأويل المثبت ، وإن كان الصواب هو قول من يجعلها واو استئناف ، فيكون التأويل المنفى علمه عن غير الله هو الكيفيات التي لا يعلمها غيره ، وهذا فيه نظر وابن عباس جاء عنه أنه قال : أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله ، وجاء عنه أن الراسخين لا يعلمون تأويله .

وجاء عنه أنه قال : التفسير على أربعة أوجه :

تفسير تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته وتفسير يعلمه العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا الله ، من ادعى علمه فهو كاذب .

وهذا القول يجمع القولين ، ويبين أن العلماء يعلمون من تفسيره ما لا يعلمه غيرهم ، وأن فيه ما لا يعلمه إلا الله ، فأما من جعل الصواب قول من جعل الوقف عن قوله ﴿ **إلا الله** ﴾ وجعل التأويل بمعنى التفسير ، فهذا خطأ قطعاً .

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ٧ .

وأما التأويل بالمعنى الثالث ، وهو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح ، فهذا الاصطلاح لم يكن بعد عرف في عهد الصحابة ، بل ولا التابعين ، بل ولا الأئمة الأربعة ، ولا كان التكلم بهذا الاصطلاح معروفاً في القرون الثلاثة ، بل ولا علمت أحداً منهم خص لفظ التأويل بهذا ، ولكن لما صار تخصيص لفظ التأويل بهذا شائعاً في عرف كثير من المتأخرين ، فظنوا أن التأويل في الآية هذا معناه ، صاروا يعتقدون أن لمتشابه القرآن معاني تخالف ما يفهم منه ، وفرقوا دينهم بعد ذلك وصاروا شيعاً ، والمتشابه المذكور الذي كان سببه نزول الآية لا يدل ظاهره على معنى فاسد ، وإنما الخطأ في فهم السامع . نعم قد يقال : إن مجرد هذا الخطاب لا يبين كمال المطلوب ، ولكن فرق بين عدم دلالته على المطلوب ، وبين دلالته على نقيض المطلوب فهذا الثاني هو المنفى ، بل وليس في القرآن ما يدل على الباطل البتة ، كما قد بسط في موضعه .

ولكن كثير من الناس يزعم أن لظاهر الآية معنى ، إما معنى يعتقده ، وإما معنى باطلاً فيحتاج إلى تأويله ، ويكون ما قاله باطلاً لا تدل الآية على معتقده ، ولا على المعنى الباطل ، وهذا كثير جداً ، وهؤلاء هم الذين يجعلون القرآن كثيراً ما يحتاج إلى التأويل المحدث ، وهو صرف اللفظ عن مدلوله إلى خلاف مدلوله .

ومما يحتج به من قال : الراسخون في العلم يعلمون التأويل : ما ثبت في صحيح البخاري وغيره ـ عن ابن عباس : أن النبي ﷺ دعا له وقال : «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » (١) .

---

(١) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الوضوء ١٠ باب وضع الماء عند الخلاء ١٤٣ ـ حدثنا عبد الله بن محمد ، قال : حدثنا هشام بن القاسم قال : حدثنا ورقاء عن عبيد الله بن أبي يزيد عن ابن عباس ـ أن النبي ـ ﷺ ـ دخل الخلاء فوضعت له وضوءاً قال : من وضع هذا . . . ؟ فأخبر فقال : وذكره . ورواه الامام مسلم في فضائل الصحابة ١٣٨ وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٢٦٦ ـ ٣١٤ ـ ٣٢٨ ، ٣٣٥ (حلبي) .

فقد دعا له بعلم التأويل مطلقاً ، وابن عباس فسر القرآن كله قال مجاهد : عرضت المصحف على ابن عباس من أوله إلى آخره أقفه عند كل آية ، وأسأله عنها ، وكان يقول : أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله .

وأيضاً : فالنقول متواترة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه تكلم في جميع معاني القرآن من الأمر والخبر ، فله من الكلام في الأسماء والصفات والوعد والوعيد والقصص ، ومن الكلام في الأمر والنهي والأحكام ما يبين أنه كان يتكلم في جميع معاني القرآن .

وأيضاً قد قال ابن مسعود : ما من آية في كتاب الله إلا وأنا أعلم فيما ذا نزلت .

وأيضاً : فإنهم متفقون على أن آيات الأحكام يعلم تأويلها وهي نحو خمسمائة آية ، وسائر القرآن خبر عن الله وأسمائه وصفاته أو عن اليوم الآخر والجنة والنار ، أو عن القصص ، وعاقبة أهل الإيمان ، وعاقبة أهل الكفر ، فإن كان هذا هو المتشابه الذي لا يعلم معناه إلا الله .

فجمهور القرآن لا يعرف أحد معناه ، لا الرسول ولا أحد من الأمة ومعلوم أن هذا مكابرة ظاهرة .

وأيضاً : فمعلوم أن العلم بتأويل الرؤ يا أصعب من العلم بتأويل الكلام الذي يخبر به ، فإن دلالة الرؤ يا على تأويلها دلالة خفية غامضة لا يهتدي لها جمهور الناس ، بخلاف دلالة الكلام على معناه ، فإذا كان الله قد علم عباده تأويل الأحاديث التي يرونها في المنام ، فلأن يعلمهم تأويل الكلام العربي المبين الذي ينزله على أنبيائه بطريق الأولى والأحرى .

قال يعقوب ليوسف ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ [1] .

---

(١) سورة يوسف آية رقم ٦ .

وقال يوسف ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ (١) .

وقال ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ﴾ (٢) .

وأيضاً : فقد ذم الله الكفار بقوله ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِن دُونِ اللهِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ، بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ (٣) وقال ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ . حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٤) .

وهذا ذم لمن كذب بما لم يحط بعلمه .

فما قاله الناس من الأقوال المختلفة في تفسير القرآن وتأويله ليس لأحد أن يصدق بقول دون قول بلا علم ، ولا يكذب بشيء منها ، إلا أن يحيط بعلمه ، وهذا لا يمكن الا إذا عرف الحق الذي أريد بالآية ، فيعلم أن ما سواه باطل ، فيكذب بالباطل الذي أحاط بعلمه ، وأما إذا لم يعرف معناها ، ولم يحط بشيء منها علماً ، فلا يجوز له التكذيب بشيء منها .

مع أن الأقوال المتناقضة بعضها باطل قطعاً ، ويكون حينئذ المكذب بالقرآن كالمكذب بالأقوال المتناقضة ، والمكذب بالحق كالمكذب بالباطل ، وفساد اللازم يدل على فساد الملزوم وأيضاً : فإنه إن بنى على ما يعتقده من أنه لا يعلم معاني الآيات الخبرية إلا الله لزمه أن يكذب كل من احتج بآية من القرآن خبرية على شيء من أمور الإيمان بالله واليوم الآخر ومن تكلم في تفسير ذلك ، وكذلك يلزم مثل ذلك في أحاديث الرسول ﷺ .

---

(١) سورة يوسف آية رقم ١٠١ .
(٢) سورة يوسف آية رقم ٣٧ .
(٣) سورة يونس آية رقم ٣٨ - ٣٩ .
(٤) سورة النمل آية رقم ٨٣ - ٨٤ .

وإن قال : المتشابه هو بعض الخبريات ، لزمه أن يبين فصلاً يتبين به ما يجوز أن يعلم معناه من آيات القرآن وما لا يجوز أن يعلم معناه ، بحيث لا يجوز أن يعلم معناه لا ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، ولا أحد من الصحابة ولا غيرهم ، ومعلوم أنه لا يمكن أحداً ذكر حد فاصل بين ما يجوز أن يعلم معناه بعض الناس ، وبين ما لا يجوز أن يعلم معناه أحد ، ولو ذكر ما ذكر انتقض عليه ، فعلم أن المتشابه ليس هو الذي لا يمكن أحداً معرفة معناه .

وهذا دليل مستقل في المسألة .

وأيضاً فقوله ﴿ **لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ** ﴾ [1] ﴿ **أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً** ﴾ [2] ذم لهم على عدم الإحاطة مع التكذيب ، ولو كان الناس كلهم مشتركين في عدم الإحاطة بعلم المتشابه لم يكن في ذمهم بهذا الوصف فائدة ، ولكان الذم على مجرد التكذيب ، فإن هذا بمنزلة أن يقال: أكذبتم بما لم تحيطوا به علماً ، ولا يحيط به علماً ولا يحيط به علماً إلا الله كان أقرب إلى العذر من أن يكذب بما يعلمه الناس فلو لم يحط بها علماً الراسخون كان ترك هذا الوصف أقوى من ذمهم من ذكره .

ويتبين هذا بوجه آخر هو دليل في المسألة ، وهو أن الله ذم الزائفين بالجهل وسوء القصد ، فإنهم يقصدون المتشابه يبتغون تأويله ، ولا يعلم تأويله إلا الراسخون في العلم وليسوا منهم ، وهم يقصدون الفتنة لا يقصدون العلم والحق . وهذا كقوله تعالى ﴿ **وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُم مُعْرِضُونَ** ﴾ [3] .

فإن المعنى بقوله ﴿ **لأسمعهم** ﴾ فهم القرآن .

يقول : لو علم الله فيهم حسن قصد وقبولاً للحق لأفهمهم القرآن ،

---

(١) سورة يونس آية رقم ٣٩ .

(٢) سورة النمل آية رقم ٨٤ .

٣) سورة الأنفال آية رقم ٢٣ .

لكن لو أفهمهم لتولوا عن الإيمان وقبول الحق لسوء قصدهم ، فهم جاهلون ظالمون ، كذلك الذين في قلوبهم زيغ هم مذمومون بسوء القصد ، مع طلب علم ما ليسوا من أهله وليس إذا عيب هؤلاء على العلم ومنعوه يعاب من حسن قصده وجعله الله من الراسخين في العلم .

فإن قيل : فأكثر السلف على أن الراسخين في العلم لا يعلمون التأويل ، وكذلك أكثر أهل اللغة ، يروى هذا عن ابن مسعود وأبي بن كعب ، وابن عباس ، وعروة ، وقتادة ، وعمر بن عبد العزيز، والفراء ، وأبي عبيد ، وثعلب ، وابن الأنباري قال ابن الأنباري : في قراءة عبد الله : إن تأويله إلا عند الله والراسخون في العلم .

وفي قراءة أبي وابن عباس : ويقول الراسخون في العلم قال : وقد أنزل الله في كتابه أشياء استأثر بعلمها كقوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللهِ ﴾ (١)

وقوله ﴿ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً ﴾ (٢)

فأنزل المحكم ليؤمن به المؤمن فيسعد ، ويكفر به الكافر فيشقى .

قال ابن الأنباري : والذي روى القول الآخر عن مجاهد هو ابن أبي نجيح ولا تصح روايته التفسير عن مجاهد .

فيقال : قول القائل : إن أكثر السلف على هذا قول بلا علم ، فإنه لم يثبت عن أحد من الصحابة أنه قال : إن الراسخين في العلم لا يعلمون تأويل المتشابه .

وعن ابن أبي مليكة عن عائشة أنها قالت « كان رسوخهم في العلم أن آمنوا بمحكمه وبمتشابهه ولا يعلمونه » (٣) .

---

(١) سورة الأعراف آية رقم ١٨٧ .

(٢) سورة الفرقان آية رقم ٣٨ .

(٣) لم نعثر على هذا الأثر فلعل الله يهدينا إليه عن طريق أحد الذين فقههم الله وأرشدهم .

فقد روى البخاري عن ابن أبي مليكة عن القاسم عن عائشة رضي الله عنها الحديث المرفوع في هذا ، وليس فيه هذه الزيادة ولم يذكر أنه سمعها من القاسم ، بل الثابت عن الصحابة أن المتشابه يعلمه الراسخون كما تقدم حديث معاذ بن جبل في ذلك .

وكذلك نحوه عن ابن مسعود وابن عباس وأبي بن كعب وغيرهم .

وما ذكر من قراءة ابن مسعود وأبي بن كعب ليس لها إسناد يعرف حتى يحتج بها .

والمعروف عن ابن مسعود أنه كان يقول : ما في كتاب الله آية إلا وأنا أعلم فيماذا أنزلت ، وماذا عنى بها .

وقال أبو عبد الرحمن [1] السلمي : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن مسعود ، وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل .

وهذا أمر مشهور رواه الناس عن عامة أهل الحديث والتفسير وله إسناد معروف ، بخلاف ما ذكر من قراءتهما .

وكذلك ابن عباس قد عرف عنه أنه كان يقول : أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله .

وقد صح عن النبي ﷺ أنه دعا له بعلم تأويل الكتاب فكيف لا يعلم التأويل مع أن قراءة عبد الله : إن تأويله إلا عند الله لا تناقض هذا القول ، فإن نفس التأويل لا يأتي به إلا الله كما قال تعالى ﴿ **هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ** ﴾ [2] .

---

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ٥٣ .

وقال ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ [1] وقد اشتهر عن عامة السلف أن الوعد والوعيد من المتشابه . وتأويل ذلك هو مجيء الموعود به ، وذلك عند الله لا يأتي به إلا هو وليس في القرآن إن علم تأويله إلا عند الله ، كما قال في الساعة ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِها إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ، يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّك حَفِيٌّ عَنْهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُها عِندَ الله وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ قُل لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعَاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ الله وَلَوْ كُنت أَعْلَمُ الغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾[2] .

وكذلك لما قال فرعون لموسى ﴿ فَمَا بالُ القُرُونِ الأُوْلَى قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾[3] .

فلو كانت قراءة ابن مسعود تقتضي نفي العلم عن الراسخين لكانت إن علم تأويله إلا عند الله لم يقرأ إن تأويلهُ إلا عند الله فإن هذا حق بلا نزاع .

وأما القراءة الأخرى المروية عن أبي وابن عباس ، فقد نقل عن ابن عباس ما يناقضه ، وأخص أصحابه بالتفسير مجاهد ، وعلى تفسير مجاهد يعتمد أكثر الأئمة كالثوري والشافعي واحمد بن حنبل والبخاري[3] .

وقال الثوري : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به .

والشافعي في كتبه أكثر الذي ينقله عن ابن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد ، وكذلك البخاري في صحيحه يعتمد على هذا التفسير . وقول القائل :

---

(١) سورة يونس آية رقم ٣٩ .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ١٨٧ - ١٨٨ .

(٣) سورة طه آية رقم ٥١ - ٥٢ .

(٤) هو محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة البخاري أبو عبد الله حبر الاسلام ، والحافظ لحديث رسول الله - ﷺ صاحب الجامع الصحيح ، والتاريخ ، وخلق أفعال العباد والضعفاء في رجال الحديث ، والأدب المفرد وغير ذلك كثير توفي عام ٢٥٦ هـ .

لا تصح رواية ابن أبي نجيح عن مجاهد .

جوابه : أن تفسير ابن أبي نجيح عن مجاهد من أصح التفاسير بل ليس بأيدي أهل التفسير كتاب في التفسير أصح من تفسير ابن أبي نجيح عن مجاهد إلا أن يكون نظيره في الصحة ، ثم معه ما يصدقه وهو قوله عرضت المصحف على ابن عباس أقفه عند كل آية وأسأله عنها .

وأيضاً فأبي بن كعب رضي الله عنه قد عرف عنه أنه كان يفسر ما تشابه من القرآن ، كما فسر قوله ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ [1] وفسر قوله ﴿ الله نُورُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [2] .

وقوله ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ ﴾ [3] وغير ذلك .

ونقل ذلك معروف عنه بالإسناد أثبت من نقل هذه القراءة التي لا يعرف لها إسناد .

وقد كان يسأل عن المتشابه من معنى القرآن فيجيب عنه كما سأله عمر ، وسئل عن ليلة القدر .

وأما قوله : إن الله أنزل المجمل ليؤمن به المؤمن .

فيقال : هذا حق ، لكن هل في الكتاب والسنة أو قول أحد من السلف أن الأنبياء والملائكة والصحابة لا يفهمون ذلك الكلام المجمل ؟

أم العلماء متفقون على أن المجمل في القرآن يفهم معناه ويعرف ما فيه من الإجمال ، كما مثل به من وقت الساعة فقد علم المسلمون كلهم معنى الكلام الذي أخبر الله به عن الساعة ، وأنها آية لا محالة ، وأن الله انفرد بعلم

---

(١) سورة مريم آية رقم ١٧ .

(٢) سورة النور آية رقم ٣٥ .

(٣) سورة الأعراف آية رقم ١٧٢ .

وقتها ، فلم يطلع على ذلك أحداً ، ولهذا قال النبي ﷺ لما سأله السائل عن الساعة ، وهو في الظاهر أعرابي لا يعرف ، قال له : متى الساعة ؟ قال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل »[1] .

ولم يقل : إن الكلام الذي نزل في ذكرها لا يفهمه أحد ، بل هذا خلاف إجماع المسلمين ، بل والعقلاء فإن إخبار الله عن الساعة وأشراطها كلام بين واضح يفهم معناه .

وكذلك قوله ﴿ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً ﴾[2] .

قد علم المراد بهذا الخطاب ، وأن الله خلق قروناً كثيرة لا يعلم عددهم إلا الله ، كما قال « وما يعلم جنود ربك إلا هو » فأي شيء في هذا مما يدل على أن ما أخبر الله به من أمر الإيمان بالله واليوم الآخر لا يفهم معناه أحد لا من الملائكة ولا من الأنبياء ولا الصحابة ولا غيرهم .

وأما ما ذكر عن عروة فعروة قد عرف من طريقه أنه كان لا يفسر عامة آي القرآن إلا آيات قليلة رواها عن عائشة ، ومعلوم أنه إذا لم يعرف عروة التفسير لم يلزم أنه لا يعرفه غيره من الخلفاء الراشدين ، وعلماء الصحابة ، كابن مسعود ، وأبي بن كعب ، وابن عباس وغيرهم .

وأما اللغويون الذين يقولون : إن الراسخين لا يعلمون معنى المتشابه فهم متناقضون في ذلك ، فإن هؤلاء كلهم يتكلمون في تفسير كل شيء في القرآن ، ويتوسعون في القول في ذلك ، حتى ما منهم أحد إلا وقد قال في ذلك أقوالاً لم يسبق إليها ، وهي خطأ . وابن الأنباري الذي بالغ في نصر

---

(١) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الايمان ٣٧ باب سؤال جبريل النبي - ﷺ عن الايمان والاسلام والاحسان وعلم الساعة ٥٠ بسنده عن أبي هريرة - رضي الله عنه قال : كان النبي - ﷺ بارزاً يوماً للناس فأتاه رجل فقال : وذكره ، ورواه ابن ماجه في المقدمة ٩

(٢) سورة الفرقان آية رقم ٣٨ .

ذلك القول هو من أكثر الناس كلاماً في معاني الآي المتشابهات ، يذكر فيها من الأقوال ما لم ينقل عن أحد من السلف ، ويحتج لما يقوله في القرآن بالشاذ من اللغة ، وقصده بذلك الإنكار على ابن قتيبة ، وليس هو أعلم بمعاني القرآن والحديث وأتبع للسنة من ابن قتيبة ولا أفقه في ذلك ، وإن كان ابن الأنباري من أحفظ الناس للغة ، لكن باب فقه النصوص غير باب حفظ ألفاظ اللغة . وقد نقم هو وغيره على ابن قتيبة كونه رد على أبي عبيد أشياء من تفسيره غريب الحديث ، وابن قتيبة قد اعتذر عن ذلك وسلك في ذلك مسلك أمثاله من أهل العلم ، وهو وأمثاله يصيبون تارة ، ويخطئون أخرى ، فإن كان المتشابه لا يعلم معناه إلا الله ، فهم كلهم يجترئون على الله ، يتكلمون في شيء لا سبيل إلى معرفته ، وإن كان ما بينوه من معاني المتشابه قد أصابوا فيه - ولو في كلمة واحدة - ظهر خطأهم في قولهم : إن المتشابه لا يعلم معناه إلا الله ، ولا يعلمه أحد من المخلوقين ، فليختر من ينصر قولهم هذا أو هذا ومعلوم أنهم أصابوا في شيء كثير مما يفسرون به المتشابه وأخطأوا في بعض ذلك ، فيكون تفسيرهم هذه الآية مما أخطأوا فيه العلم اليقيني ، فإنهم أصابوا في كثير من تفسير المتشابه وكذلك ما نقل عن قتادة من أن الراسخين في العلم لا يعلمون تأويل المتشابه ، فكتابه في التفسير من أشهر الكتب ، ونقله ثابت عنه من رواية معمر عنه ، ورواية سعيد بن أبي عروبة عنه ، ولهذا كان المصنفون في التفسير عامتهم يذكرون قوله لصحة النقل عنه ، ومع هذا يفسر القرآن كله محكمه ومتشابهه والذي اقتضى شهرة القول عن أهل السنة بأن المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله ، ظهور التأويلات الباطلة من أهل البدع كالجهمية والقدرية من المعتزلة وغيرهم ، فصار أولئك يتكلمون في تأويل القرآن برأيهم الفاسد ، وهذا أصل معروف لأهل البدع ، أنهم يفسرون القرآن برأيهم العقلي ، وتأويلهم اللغوي فتفاسير المعتزلة مملوءة بتأويل النصوص المثبتة للصفات والقدر على غير ما أراده الله ورسوله ، فإنكار السلف والأئمة هو لهذه التأويلات الفاسدة ، كما قال الإمام

أحمد في ما كتبه في الرد على الزنادقة والجهمية فيما شكت فيه من متشابه القرآن وتأولته على غير تأويله ، فهذا الذي أنكره السلف والأئمة من التأويل . فجاء بعدهم قوم انتسبوا إلى السنة بغير خبرة تامة بها ، وبما يخالفها ظنوا أن المتشابه لا يعلم معناه إلا الله ، فظنوا أن معنى التأويل هو معناه في اصطلاح المتأخرين : وهوصرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى المرجوح ، فصاروا في موضع يقولون وينصرون أن المتشابه لا يعلم معناه إلا الله ، ثم يتناقضون في ذلك من وجوه . أحدها : أنهم يقولون النصوص تجري على ظواهرها ، ولا يزيدون على المعنى الظاهر منها ، ولهذا يبطلون كل تأويل يخالف الظاهر ويقرون المعنى الظاهر ، ويقولون مع هذا : إن له تأويلاً لا يعلمه إلا الله والتأويل عندهم ما يناقض الظاهر ، فكيف يكون له تأويل يخالف الظاهر ، وقد قرر معناه الظاهر، وهذا مما أنكره عليهم مناظروهم حتى أنكر ذلك ابن عقيل على شيخه القاضي أبي يعلى .

ومنها : أنا وجدنا هؤلاء كلهم لا يحتج عليهم بنص يخالف قولهم ، لا في مسألة أصلية ، ولا فرعية ، إلا تأولوا ذلك النص بتأويلات متكلفة مستخرجة من جنس تحريف الكلم عن مواضعه من جنس تأويلات الجهمية والقدرية للنصوص التي تخالفهم . فأين هذا من قولهم : لا يعلم معاني النصوص المتشابهة إلا الله تعالى ؟!

واعتبر هذا بما تجده في كتبهم من مناظرتهم للمعتزلة في مسائل الصفات والقرآن والقدر ، إذا احتجت المعتزلة على قولهم بالآيات التي تناقض قول هؤلاء ، مثل أن يحتجوا بقوله ﴿ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الفَسَادَ ﴾ [1] ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الكُفْرَ ﴾ [2] .

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [3]

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٠٥ .

(٢) سورة الزمر آية رقم ٧ .

(٣) سورة الذاريات آية رقم ٥٦ .

﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾[1]
﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [2]
﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ [3] .

ونحو ذلك ، كيف تجدهم يتأولون هذه النصوص بتأويلات غالبها فاسد ، وإن كان في بعضها حق فإن كان ما تأولوه حقاً ، دل على أن الراسخين في العلم يعلمون تأويل المتشابه ، فظهر تناقضهم وإن كان باطلاً فذلك أبعد لهم .

وهذا أحمد بن حنبل إمام أهل السنة الصابر في المحنة الذي قد صار للمسلمين معياراً يفرقون به بين أهل السنة والبدعة لما صنف كتابه في « الرد على الزنادقة والجهمية » فيما شكت فيه من متشابه القرآن ، وتأولته على غير تأويله تكلم على معاني المتشابه الذي اتبعه الزائفون ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله آية آية ، وبين معناها وفسرها ليبين فساد تأويل الزائفين، واحتج على أن الله يرى وأن القرآن غير مخلوق ، وأن الله فوق العرش بالحجج العقلية والسمعية ، وبين معاني الآيات التي سماها هو متشابهة وفسرها آية آية ، وكذلك لما ناظروه واحتجوا عليه بالنصوص جعل يفسرها آية آية وحديثاً حديثاً ، وبين فساد ما تأولها عليه الزائغون وبين هو معناها ، ولم يقل أحمد إن هذه الآيات والأحاديث لا يفهم معناها إلا الله ، ولا قال أحد له ذلك ، بل الطوائف كلها مجتمعة على إمكان معرفة معناها ، لكن يتنازعون في المراد كما يتنازعون في آيات الأمر والنهي وكذلك كان أحمد يفسر المتشابه من الآيات والأحاديث التي يحتج بها الزائغون من الخوارج وغيرهم كقوله : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ،

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٠٣ .
(٢) سورة يس آية رقم ٨٢ .
(٣) سورة البقرة آية رقم ٣٠ .

ولا يشرب الشارب الخمر حين يشرب وهو مؤمن » [1] وأمثال ذلك .

ويبطل قول المرجئة والجهمية، وقول الخوارج والمعتزلة، وكل هذه الطوائف تحتج بنصوص المتشابه على قولها ، ولم يقل أحد لا من أهل السنة ، ولا من هؤلاء ، لما يستدل به هو ، أو يستدل به عليه منازعه : هذه آيات وأحاديث لا يعلم معناها أحد من البشر ، فأمسكوا عن الاستدلال بها ، وكان الإمام أحمد ينكر طريقة أهل البدع الذين يفسرون القرآن برأيهم وتأويلهم من غير استدلال بسنة رسول الله ﷺ وأقوال الصحابة والتابعين ، الذين بلغهم الصحابة معاني القرآن ، كما بلغوهم ألفاظه ، ونقلوا هذا كما نقلوا هذا لكن أهل البدع يتأولون النصوص بتأويلات تخالف مراد الله ورسوله ، ويدعون أن هذا هو التأويل الذي يعلمه الراسخون ، وهم مبطلون في ذلك ، لا سيما تأويلات القرامطة والباطنية الملاحدة ، وكذلك أهل الكلام المحدث من الجهمية والقدرية وغيرهم .

ولكن هؤلاء يعترفون بأنهم لا يعلمون التأويل ، وإنما غايتهم أن يقولوا : ظاهره هذه الآية غير مراد ، ولكن يحتمل أن يراد كذا ، وأن يراد كذا ، ولو تأولها الواحد منهم بتأويل معين فهو لا يعلم أنه مراد الله ورسوله ، بل يجوز أن يكون مراد الله ورسوله عندهم غير ذلك ، كالتأويلات التي يذكرونها في نصوص الكتاب ، كما يذكرونه في قوله ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً ﴾ [2] .

و﴿ ينزل ربنا ﴾
و﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [3]

---

(1) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الفتن ٣ باب النهي عن النهبة ٣٩٣٦ عن عقيل عن ابن شهاب عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحرث بن هشام عن أبي هريرة - أن رسول الله - ﷺ قال : وذكره .

(2) سورة الفجر آية رقم ٢٢ .

(3) سورة طه آية رقم٥ .

و﴿ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً ﴾ (1)

﴿ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ ﴾ (2)

و﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (3)

وأمثال ذلك من النصوص ، فإن غاية ما عندهم يحتمل أن يراد به كذا ، ويجوز كذا ، ونحو ذلك ، وليس هذا علماً بالتأويل، وكذلك كل من ذكر في نص أقوالاً واحتمالات ، ولم يعرف المراد ، فإنه لم يعرف تفسير ذلك وتأويله وإنما يعرف ذلك من عرف المراد .

ومن زعم من الملاحدة أن الأدلة السمعية لا تفيد العلم فمضمون مدلولاته لا يعلم أحد تفسير المحكم ، ولا تفسير المتشابه ، ولا تأويل ذلك .

وهذا إقرار منه على نفسه بأنه ليس من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويل المتشابه ، فضلاً عن تأويل المحكم ، فإذا انضم إلى ذلك أن يكون كلامهم في العقليات فيه من السفسطة والتلبيس ما لا يكون معه دليل على الحق لم يكن عند هؤلاء لا معرفة بالسمعيات ولا بالعقليات وقد أخبر الله عن أهل النار أنهم قالوا : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (4)

ومدح الذين ﴿ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً ﴾ (5) والذين يفقهون ويعقلون .

وذم الذين لا يفقهون ولا يعقلون في غير موضع من كتابه وأهل البدع المخالفون للكتاب والسنة يدعون العلم والعرفان والتحقيق ، وهم من أجهل الناس بالسمعيات والعقليات ، وهم يجعلون ألفاظاً لهم مجملة متشابهة تتضمن حقاً وباطلاً ، يجعلونها هي الأصول المحكمة ، ويجعلون ما عارضها من نصوص

---

(1) سورة النساء آية رقم ١٦٤ .

(2) سورة الفتح آية رقم ٦ .

(3) سورة يس آية رقم ٨٢ .

(4) سورة الملك آية رقم ١٠ .

(5) سورة الفرقان آية رقم ٧٣ .

الكتاب والسنة من المتشابه الذي لا يعلم معناه عندهم إلا الله وما يتأولونه بالاحتمالات لا يفيد ، فيجعلون البراهين شبهات ، والشبهات براهين .

كما قد بسط ذلك في موضع آخر .

وقد نقل القاضي أبو يعلى عن الإمام أحمد أنه قال : المحكم ما استقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان، والمتشابه ما احتاج إلى بيان .

وكذلك قال الإمام أحمد في رواية ، والشافعي قال : المحكم ما لا يحتمل من التأويل إلا وجهاً واحداً والمتشابه ما احتمل من التأويل وجوهاً ، وكذلك قال الامام أحمد ، وكذلك قال ابن الأنباري المحكم ما لم يحتمل من التأويل إلا وجهاً واحداً ، والمتشابه الذي تعتوره التأويلات ، فيقال حينئذ فجميع الأمة سلفها وخلفها يتكلمون في معاني القرآن التي تحتمل التأويلات .

وهؤلاء الذين ينصرون أن الراسخين في العلم لا يعلمون معنى المتشابه هم من أكثر الناس كلاماً فيه .

والأئمة كالشافعي وأحمد ومن قبلهم كلهم يتكلمون فيما يحتمل معاني ، ويرجحون بعضها على بعض بالأدلة في جميع مسائل العلم الأصولية والفروعية ، لا يعرف عن عالم من علماء المسلمين أنه قال عن نص احتج به محتج في مسألة : أن هذا لا يعرف أحد معناه فلا يحتج به ، ولو قال أحد ذلك لقيل له مثل ذلك وإذا ادعى في مسائل النزاع المشهورة بين الأئمة أن نصه محكم يعلم معناه ، وأن النص الآخر متشابه لا يعلم أحد معناه قوبل بمثل هذه الدعوى .

وهذا بخلاف قولنا : إن من النصوص ما معناه جلي واضح ظاهر لا يحتمل إلا وجهاً واحداً لا يقع فيه اشتباه ، ومنها ما فيه خفاء واشتباه يعرف معناه الراسخون في العلم ، فإن هذا تفسير صحيح ، وحينئذ فالخلف في المتشابه يدل على أنه كله يعرف معناه ، فمن قال : إنه يعرف معناه يبين حجته على ذلك .

وأيضاً فما ذكره السلف والخلف في المتشابه يدل على أنه كله يعرف معناه .

فمن قال : إن المتشابه هو المنسوخ فمعنى المنسوخ معروف . وهذا القول مأثور عن ابن مسعود ، وابن عباس وقتادة ، والسدي ، وغيرهم .

وابن مسعود وابن عباس وقتادة هم الذين نقلوا عنهم أن الراسخين في العلم لا يعلمون تأويله ، ومعلوم قطعاً باتفاق المسلمين أن الراسخين يعلمون معنى المنسوخ وأنه منسوخ ، فكان هذا النقل عنهم يناقض ذلك النقل ، ويدل على أنه كُذب إن كان هذا صدقاً ، وإلا تعارض النقلان عنهم ، والمنقول عنهم أن الراسخين يعلمون معنى المتشابه .

والقول الثاني مأثور عن جابر بن عبد الله أنه قال : المحكم ما علم العلماء تأويله ، والمتشابه ما لم يكن للعلماء إلى معرفته سبيل ، كقيام الساعة ، ومعلوم أن وقت قيام الساعة مما اتفق المسلمون على أنه لا يعلمه إلا الله ، فإذا أريد بلفظ التأويل هذا كان المراد به ، لا يعلم وقت تأويله إلا الله ، وهذا حق ، ولا يدل ذلك على أنه لا يعرف معنى الخطاب بذلك ، وكذلك إن أريد بالتأويل حقائق ما يوجد ، وقيل : لا يعلم كيفية ذلك إلا الله . فهذا قد قدمناه ، وذكر أنه على قول هؤلاء من وقف عند قوله ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلَّا اللهُ ﴾ [(1)] هو الذي يجب أن يراد بالتأويل . وأما أن يراد بالتأويل التفسير ، ومعرفة المعنى ويوقف على قوله إلا الله ، فهذا خطأ قطعاً مخالف للكتاب والسنة وإجماع المسلمين .

ومن قال ذلك من المتأخرين فإنه متناقض يقول ذلك ويقول ما يناقضه ، وهذا القول يناقض الإيمان بالله ورسوله من وجوه كثيرة ، ويوجب القدح في الرسالة ، ولا ريب أن الذي قالوه لم يتدبروا لوازمه وحقيقته ، بل أطلقوه وكان أكبر قصدهم رفع تأويلات أهل البدع للمتشابه ، وهذا الذي قصدوه حق وكل

---

(1) سورة آل عمران آية رقم ٧ .

مسلم يوافقهم عليه، لكن لا ندفع باطلاً بباطل آخر ، ولا نرد بدعة ببدعة ، ولا يرد تفسير أهل الباطل للقرآن بأن يقال : الرسول ﷺ والصحابة كانوا لا يعرفون تفسير ما تشابه من القرآن ، ففي هذا من الطعن في الرسول وسلف الأمة ، ما قد يكون أعظم من خطأ طائفة في تفسير بعض الآيات ، والعاقل لا يبني قصراً ويهدم قصراً . والقول الثالث : أن المتشابه الحروف المقطعة في أوائل السور يروى عن ابن عباس ، وعلى هذا القول فالحروف المقطعة ليست كلاماً تاماً من الجمل الأسمية والفعلية ، وإنما هي أسماء موقوفة ، ولهذا لم تعرب ، فإن الإعراب إنما يكون بعد العقد والتركيب ، وإنما نطق بها موقوفة كما يقال : أ ب ت ث ولهذا تكتب بصورة الحرف ، لا بصورة الاسم الذي ينطق به ، فإنها في النطق أسماء ، ولهذا لما سأل الخليل أصحابه عن النطق بالزاي من زيد ، قالوا : زا ، قال : نطقتم بالاسم ، وإنما النطق بالحرف زه ، فهي في اللفظ أسماء وفي الخط حروف مقطعة ، ﴿ الم ﴾ لا تكتب ألف لام ميم كما يكتب قول النبي ﷺ « من قرأ القرآن فأعربه فله بكل حرف عشر حسنات ، أما إني لا أقول ﴿ الم ﴾ حرف ولكن « ألف » حرف ، و« لام » حرف ، و«ميم» حرف »[1] .

والحرف في لغة الرسول ﷺ وأصحابه يتناول الذي يسميه النحاة اسماً وفعلاً وحرفاً .

ولهذا قال سيبويه في تقسيم الكلام اسم ، وفعل وحرف ، جاء لمعنى ، ليس باسم ولا فعل ، فإنه لما كان معروفاً من اللغة أن الاسم حرف ، والفعل حرف خص هذا القسم الثالث الذي يطلق النحاة عليه الحرف إنه جاء لمعنى ، ليس باسم ولا فعل ، وهذه حروف المعاني التي يتألف منها الكلام .

وأما حروف الهجاء فتلك إنما تكتب على صورة الحرف المجرد وينطق بها

---

(١) الحديث رواه الدارمي في فضائل القرآن ١ ورواه الامام مسلم في المسافرين ٢٧٤ والترمذي في ثواب القرآن ١٦ .

غير معربة ، ولا يقال فيها معرب ولا مبني ، لأن ذلك إنما يقال في المؤلف ، فإذا كان على هذا القول كل ما سوى هذه محكم حصل المقصود ، فإنه ليس المقصود إلا معرفة كلام الله ، وكلام رسوله ﷺ ثم يقال : هذه الحروف قد تكلم في معناها أكثر الناس فإن كان معناها معروفاً فقد عرف معنى المتشابه ، وإن لم يكن معروفاً وهي المتشابه كان ما سواها معلوم المعنى وهذا المطلوب .

وأيضاً فإن الله تعالى قال ﴿ **مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ** ﴾ (١) .

وهذه الحروف ليست آيات عند جمهور العلماء ، وإنما يعدها آيات الكوفيون .

وسبب نزول هذه الآية الصحيح يدل على أن غيرها أيضاً متشابه ، ولكن هذا القول يوافق ما نقل عن اليهود من طلب علم المفرد من حروف الهجاء .

والرابع : أن المتشابه ما اشتبهت معانيه .

قال مجاهد : وهذا يوافق قول أكثر العلماء ، وكلهم يتكلم في تفسير هذا المتشابه ، ويبين معناه .

والخامس : أن المتشابه ما تكررت ألفاظه ، قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، قال : المحكم ما ذكر الله تعالى في كتابه من قصص الأنبياء ففصله وبينه ، والمتشابه هو ما اختلفت ألفاظه في قصصهم عن التكرير كما قال في موضع من قصة نوح ﴿ **احْمِلْ فِيهَا** ﴾ (٢) وقال في موضع آخر ﴿ **فَاسْلُكْ فِيهَا** ﴾ (٣) وقال في عصى موسى ﴿ **فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ** ﴾ (٤) .

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ٧ .

(٢) سورة هود آية رقم ٤٠ وتكملة الآية ﴿ **من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل** ﴾ .

(٣) سورة المؤمنون آية رقم ٢٧ وتكملة الآية ﴿ **من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون** ﴾ .

(٤) سورة طه آية رقم ٢٠ .

وفي موضع آخر ﴿ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴾ (١)

وصاحب هذا القول جعل المتشابه اختلاف اللفظ مع اتفاق المعنى كما يشتبه على حافظ القرآن هذا اللفظ بذاك اللفظ ، وقد صنف بعضهم في هذا المتشابه ، لأن القصة الواحدة يتشابه معناها في الموضعين ، فاشتبه على القارىء أحد اللفظين بالآخر وهذا التشابه لا ينفي معرفة المعاني بلا ريب ، ولا يقال في مثل هذا : إن الراسخين يختصون بعلم تأويله ، فهذا القول إن كان صحيحاً كان حجة لنا ، وإن كان ضعيفاً لم يضرنا .

والسادس : أنه ما احتاج إلى بيان كما نقل عن أحمد .

والسابع : أنه ما احتمل وجوهاً ، كما نقل عن الشافعي وأحمد وقد روي عن أبي الدرداء (٢) رضي الله عنه أنه قال : إنك لا تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوهاً .

وقد صنف الناس « كتب الوجوه والنظائر » فالنظائر اللفظ الذي اتفق معناه في الموضعين وأكثر .

والوجوه : الذي اختلف معناه ، كما يقال : الأسماء المتواطئة والمشتركة ، وإن كان بينهما فرق ، ولبسطه موضع آخر .

وقد قيل : هي نظائر في اللفظ ومعانيها مختلفة ، فتكون كالمشتركة وليس كذلك ، بل الصواب أن المراد بالوجوه والنظائر هو الأول وقد تكلم المسلمون

---

(١) سورة الشعراء آية رقم ٣٢ .

(٢) هو عويمر بن مالك بن قيس بن أمية الأنصاري الخزرجي أبو الدرداء ، صحابي من الحكماء الفرسان القضاة ، كان قبل البعثة تاجراً في المدينة ثم انقطع للعبادة ، ولما ظهر الاسلام اشتهر بالعبادة والنسك ، وفي الحديث : عويمر حكيم أمتي » ونعم الفارس عويمر » . توفي عام ٣٢ هـ . [راجع الاصابة ت ٦١١٩ وحلية الأولياء ١ : ٢٠٨ وتاريخ الاسلام للذهبي ٢ : ١٠٧] .

سلفهم وخلفهم في معاني الوجوه ، وفيما يحتاج إلى بيان ، وما يحتمل وجوهاً فعلم يقيناً أن المسلمين متفقون على أن جميع القرآن مما يمكن العلماء معرفة معانيه ، وعلم أن من قال : إن من القرآن ما لا يفهم أحد معناه ، ولا يعرف معناه إلا الله ، فإنه مخالف لإجماع الأمة مع مخالفته للكتاب والسنة .

والثامن : أن المتشابه هو القصص والأمثال ، وهذا أيضاً يعرف معناه . والتاسع : أنه مما يؤمن به ولا يعمل به ، وهذا أيضاً مما يعرف معناه والعاشر : قول بعض المتأخرين : إن المتشابه آيات الصفات وأحاديث الصفات ، وهذا أيضاً مما يعلم معناه ، فإن أكثر آيات الصفات ، اتفق السلف على أنه يعرف معناها والبعض الذي تنازع الناس في معناه إنما ذم السلف منه تأويلات الجهمية ، ونفوا علم الناس بكيفيته : كقول مالك : الاستواء معلوم والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة وكذلك قال سائر أئمة السنة ، وحينئذ ففرق بين المعنى المعلوم ، وبين الكيف المجهول ، فإن سمى الكيف تأويلاً ساغ أن يقال : هذا التأويل لا يعلمه إلا الله ، كما قدمناه أولاً وأما إذا جعل معرفة المعنى وتفسيره تأويلاً كما يجعل معرفة سائر آيات القرآن تأويلاً .

وقيل : إن النبي ﷺ وجبريل والصحابة والتابعين ما كانوا يعرفون معنى قوله ﴿ **الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ** ﴾ [1] ولا يعرفون معنى قوله ﴿ **مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ** ﴾ [2] ولا معنى قوله ﴿ **وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ** ﴾ [3] بل هذا عندهم بمنزلة الكلام العجمي الذي لا يفهمه العربي .

وكذلك إذا قيل كان عندهم قوله تعالى ﴿ **وَما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ** ﴾ [4]

---

(١) سورة طه آية رقم ٥ .

(٢) سورة ص آية رقم ٧٥ .

(٣) سورة الفتح آية رقم ٦ وتكملة الآية ﴿ ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً ﴾ .

(٤) سورة الزمر آية رقم٦٧ .

وقوله ﴿ لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ ﴾[1] وقوله ﴿ وَكَانَ اللهُ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾[2]

وقوله ﴿ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾[3] .

وقوله ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُوا رِضْوانَهُ ﴾[4]

وقوله ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ ﴾[5]

وقوله ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالمُؤْمِنُونَ ﴾[6]

وقوله ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً ﴾[7] .

وقوله ﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ ﴾[8]

وقوله ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾[9] .

وقوله ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الغَمَامِ وَالمَلاَئِكَةُ ﴾[10] .

وقوله ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالمَلَكُ صَفّاً صَفّاً ﴾[11].

وقوله ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ المَلاَئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾[12]

وقوله ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾[13].

وقوله ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾[14].

إلى أمثال هذه الآيات .

فمن قال عن جبريل ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما ، وعن الصحابة

---

(1) سورة الأنعام آية رقم ١٠٣ .
(2) سورة النساء آية رقم ١٣٤ .
(3) سورة المائدة آية رقم ١١٩ .
(4) سورة محمد آية رقم ٢٨ .
(5) سورة البقرة آية رقم ١٩٥ .
(6) سورة التوبة آية رقم ١٠٥ .
(7) سورة الزخرف آية رقم ٣ .
(8) سورة التوبة آية رقم ٦ .
(9) سورة النمل آية رقم ٨ .
(10) سورة البقرة آية رقم ٢١٠ .
(11) سورة الفجر آية رقم ٢٢ .
(12) سورة الأنعام آية رقم ١٥٨ .
(13) سورة فصلت آية رقم ١١ .
(14) سورة يس آية رقم ٨٢ .

والتابعين لهم بإحسان ، وأئمة المسلمين والجماعة ، أنهم كانوا لا يعرفون شيئاً من معاني هذه الآيات ، بل استأثر الله بعلم معناها كما استأثر بعلم وقت الساعة ، وإنما كانوا يقرأون ألفاظاً لا يفهمون لها معنى ، كما يقرأ الإنسان كلاماً لا يفهم منه شيئاً فقد كذب على القوم والنقول المتواترة عنه تدل على نقيض هذا وأنهم كانوا يفهمون هذا كما يفهمون غيره من القرآن ، وإن كان كنه الرب عز وجل لا يحيط به العباد ، ولا يحصون ثناء عليه فذاك لا يمنع أن يعلموا من أسمائه وصفاته ما علمهم سبحانه وتعالى ، كما أنهم إذا علموا أنه بكل شيء عليم ، وأنه على كل شيء قدير ، لم يلزم أن يعرفوا كيفية علمه وقدرته ، وإذا عرفوا أنه حق موجود لم يلزم أن يعرفوا كيفية ذاته .

وهذا مما يستدل به على أن الراسخين في العلم يعلمون التأويل فإن الناس متفقون على أنهم يعرفون تأويل المحكم ، ومعلوم انهم لا يعرفون كيفية ما أخبر الله به عن نفسه في الآيات المحكمات فدل ذلك على ان عدم العلم بالكيفية لا ينفي العلم بالتأويل الذي هو تفسير الكلام وبيان معناه ، بل يعلمون تأويل المحكم والمتشابه ، ولا يعرفون كيفية الرب لا من هذا ولا من هذا . فإن قيل : هذا يقدح فيما ذكرتم من الفرق بين التأويل الذي يراد به التفسير ، وبين التأويل الذي من كتاب الله تعالى .

قيل : لا يقدح في ذلك ، فإن معرفة تفسير اللفظ ومعناه وتصور ذلك في القلب غير معرفة الحقيقة الموجودة في الخارج المراد بذلك الكلام، فإن الشيء له وجود في الأعيان ووجود في الأذهان ، ووجود في اللسان ، ووجود في البنان .

فالكلام لفظ له معنى في القلب ، ويكتب ذلك اللفظ بالخط فإذا عرف الكلام وتصور معناه في القلب ، وعبر عنه باللسان فهذا غير الحقيقة الموجودة في الخارج ، وليس كل من عرف الأول عرف عين الثاني .

مثال ذلك : أن أهل الكتاب يعلمون ما في كتبهم من صفة محمد ﷺ وخبره ونعته ، وهذا معرفة الكلام ومعناه وتفسيره ، وتأويل ذلك هو نفس محمد المبعوث، فالمعرفة بعينه معرفة تأويل ذلك الكلام ، وكذلك الإنسان

قد يعرف الحج والمشاعر كالبيت والمسجد ومنى وعرفة ومزدلفة ، ويفهم معنى ذلك ، ولا يعرف أعيان الأمكنة حتى يشاهدها ، فيعرف أن الكعبة المشاهدة المذكورة في قوله ﴿ وَللهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ ﴾ (1) .

وكذلك أرض عرفات هي المذكورة في قوله ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُم مِن عَرَفَاتٍ فَاذكُرُوا الله ﴾ (2) .

وكذلك المشعر الحرام هي المزدلفة التي بين مأزمي عرفة ووادي محسر ، يعرف أنها المذكورة في قوله ﴿ فَاذْكُرُوا الله عِنْدَ المَشْعَرِ الحَرَامِ ﴾ (3) .

وكذلك الرؤيا قد يراها الرجل ، ويذكر له العابر تأويلها فيفهمه ويتصوره : مثل أن يقول : هذا يدل على أنه كان كذا ويكون كذا وكذا ، ثم إذا كان ذلك فهو تأويل الرؤيا ليس تأويلها نفس علمه وتصوره وكلامه ، ولهذا قال يوسف الصديق ﴿ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ ﴾ (4)

وقال ﴿ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ﴾ (5) .

فقد أنبأهما بالتأويل قبل أن يأتي التأويل ، والإنباء ليس هو التأويل ، فالنبي ﷺ عالم بالتأويل وإن كان التأويل لم يقع بعد ، وإن كان لا يعرف متى يقع ، فنحن نعلم تأويل ما ذكر الله في القرآن من الوعد والوعيد ، وإن كنا لا نعرف متى يقع هذا التأويل المذكور في قوله سبحانه وتعالى ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ ﴾ (6) الآية .

وقال تعالى ﴿ لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ ﴾ (7) .

فنحن نعلم مستقر نبأ الله ، وهو الحقيقة التي أخبر الله بها ولا نعلم متى يكون ، وقد لا نعلم كيفيتها وقدرها ، وسواء في هذا تأويل المحكم والمتشابه ، كما قال الله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ القَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِن

---

(1) سورة آل عمران آية رقم ٩٧ .
(2) سورة البقرة آية رقم ١٩٨ .
(3) سورة البقرة آية رقم ١٩٨ .
(4) سورة يوسف آية رقم ١٠٠ .
(5) سورة يوسف آية رقم ٣٧ .
(6) سورة الأعراف آية رقم ٥٣ .
(7) سورة الأنعام آية رقم ٦٧ .

فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾[1] .

قال النبي ﷺ : إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد ، فقد عرف تأويلها ، وهو وقوع الاختلاف والفتن ، وإن لم يعرف متى يقع ، وقد لا يعرف صفته ولا حقيقته ، فإذا وقع عرف العارف أن هذا هو التأويل الذي دلت عليه الآية .

وغيره قد لا يعرف ذلك ، أو ينساه بعدما كان عرفه ، فلا يعرف أن هذا تأويل القرآن ، فإنه لما نزل قوله تعالى ﴿ **وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً** ﴾[2] .

قال الزبير : لقد قرأنا هذه الآية زماناً ، وما أرانا من أهلها وإذا نحن المعنيون بها : ﴿ **واتقوا فتنةً لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة** ﴾ .

وأيضاً فإن الله قد ذم في كتابه من يسمع القرآن ولا يفقه معناه وذم من لم يتدبره ، ومدح من يسمعه ويفقهه ، فقال تعالى : ﴿ **وَمِنْهُم مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ** ﴾[3] الآية فأخبر أنهم كانوا يقولون لأهل العلم : ماذا قال الرسول في هذا الوقت المتقدم ، فدل على أن أهل العلم من الصحابة كانوا يعرفون من معاني كلام رسول الله ﷺ ما لا يعرفه غيرهم ، وهؤلاء هم الراسخون في العلم الذين يعلمون معاني القرآن محكمة ومتشابهة ، وهذا كقوله تعالى ﴿ **وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ** ﴾[4] فدل على أن العالمين يعقلونها ، وإن كان غيرهم لا يعقلها . والأمثال هي المتشابه عند كثير من السلف ، وهي إلى المتشابه أقرب من غيرها لما بين الممثل والممثل به من التشابه وعقل معناها هو معرفة تأويلها الذي يعرفه الراسخون في العلم دون غيرهم ، ويشبه هذا قوله تعالى : ﴿ **وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** ﴾[5] .

فلولا أنهم عرفوا معنى ما أنزل كيف عرفوا أنه حق أو باطل وهل يحكم

---

(1) سورة الأنعام آية رقم ٦٥ .
(2) سورة الأنفال آية رقم ٢٥ .
(3) سورة محمد آية رقم ١٦ .
(4) سورة العنكبوت آية رقم ٤٣ .
(5) سورة سبأ آية رقم ٦ .

على كلام لم يتصور معناه أنه حق أو باطل ؟!

وقال تعالى ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾[1] وقال ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً ﴾[2] .

وقال تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾[3]

وقال تعالى ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾[4] .

وقال تعالى ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً ﴾[5] .

وقال تعالى ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[6] .

وقال تعالى ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[7] .

وقال تعالى ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ إلى قوله ﴿ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾[8] فإذا كان كثير من القرآن أو أكثره مما لا يفهم أحد معناه لم يكن المتدبر المعقول إلا بعضه ، وهذا خلاف ما دل عليه القرآن، لا سيما عامة ما كان المشركون ينكرونه كالآيات الخبرية ، والإخبار عن اليوم الآخر أو الجنة والنار ، وعن نفي الشركاء والأولاد عن الله وتسميته بالرحمن فكان عامة إنكارهم لما يخبرهم به من صفات الله نفياً وإثباتاً ، وما يخبرهم به عن اليوم الآخر وقد ذم الله من لا يعقل ذلك ولا يفقهه ولا يتدبره . فعلم أن الله يأمر بعقل ذلك وتدبره ، وقد قال تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ، أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴾[9] .

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴾[10]:

---

(1) سورة محمد آية رقم ٢٤ .
(2) سورة النساء آية رقم ٨٢ .
(3) سورة المؤمنون آية رقم ٦٨ .
(4) سورة الزمر آية رقم ١٧ ـ ١٨
(5) سورة الفرقان آية رقم ٧٣ .
(6) سورة يوسف آية رقم ٢ .
(7) سورة هود آية رقم ١ .
(8) سورة فصلت آية رقم ٣ ـ ٥ .
(9) سورة يونس آية رقم ٤٢ .
(10) سورة يونس آية رقم ٤٣ .

وقال تعالى ﴿ وَمِنْهُمْ مَن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً ﴾ [1] الآية .

وقال تعالى ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ القُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً ، وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً ﴾ [2] الآية وقد استدل بعضهم بأن الله لم ينف عن غيره علم شيء إلا كان منفرداً به ، كقوله ﴿ قُل لاَ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الغَيْبَ إِلاَّ اللهُ ﴾ [3] .

وقوله تعالى ﴿ لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ [4] .

وقوله تعالى ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾ [5] .

فيقال : ليس الأمر كذلك ، بل هذا بحسب العلم المنفي فإن كان مما استأثر الله به قيل فيه ذلك ، وإن كان مما علمه عباده ذكر ذلك ، كقوله ﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ ﴾ [6] .

وقوله تعالى ﴿ عَالِمُ الغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَداً ﴾ إلى قوله ﴿ رَصَداً ﴾ [7] .

وقوله تعالى ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الكِتَابِ ﴾ [8] .

وقوله تعالى ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالمَلاَئِكَةُ وَأُولُوا العِلْمِ قَائِماً بِالقِسْطِ ﴾ [9] .

وقوله تعالى ﴿ لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ إلى قوله

---

(١) سورة الأنعام آية رقم ٢٥ .

(٢) سورة الاسراء آية رقم ٤٥ - ٤٦ .

(٣) سورة النمل آية رقم ٦٥ .

(٤) سورة الأعراف آية رقم ١٨٧ .

(٥) سورة المدثر آية رقم ٣١ .

(٦) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .

(٧) سورة الجن آية رقم ٢٦ - ٢٧ .

(٨) سورة الرعد آية رقم ٤٣ .

(٩) سورة آل عمران آية رقم ١٨ .

﴿ شهيداً ﴾[1] .

وقوله ﴿ قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل ﴾ [2] وقال للملائكة ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [3] وقالت الملائكة ﴿ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ [4] وفي كثير من كلام الصحابة الله ورسوله أعلم .

وفي الحديث المشهور : «أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك » وقد قال تعالى ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [5] .

وأول النزاع النزاع في معاني القرآن ، فإن لم يكن الرسول عالماً بمعانيه امتنع الرد إليه .

وقد اتفق الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر أئمة الدين أن السنة تفسر القرآن وتبينه ، وتدل عليه ، وتعبر عن مجمله ، وأنها تفسر مجمل القرآن من الأمر والخبر .

وقال تعالى ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾ [6] إلى قوله : ﴿ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ [7] .

ومن أعظم الاختلاف الاختلاف في المسائل العلمية الخبرية ، المتعلقة بالإيمان بالله واليوم الآخر فلا بد أن يكون الكتاب حاكماً بين الناس فيما اختلفوا فيه من ذلك ، ويمتنع أن يكون حاكماً إن لم يكن معرفة معناه ممكناً ، وقد نصب الله عليه دليلاً وإلا فالحاكم الذي يبين ما في نفسه لا يحكم بشيء

---

(1) سورة النساء آية رقم ١٦٦ .
(2) سورة الكهف آية رقم ٢٢ .
(3) سورة البقرة آية رقم ٣٠ .
(4) سورة البقرة آية رقم ٣٢ .
(5) سورة النساء آية رقم ٥٩ .
(6) سورة البقرة آية رقم ٢١٣ .
(7) سورة البقرة آية رقم ٢١٣ .

وكذلك إذا قيل : هو الحاكم بالكتاب ، فإن حكمه فصل يفصل به بين الحق والباطل ، وهذا إنما يكون بالبيان وقد قال تعالى في القرآن ﴿ **إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ** ﴾ (١) أي فاصل يفصل بين الحق والباطل ، فكيف يكون فصلاً إذا لم يكن إلى معرفة معناه سبيل ؟!

وأيضاً فإن الله قال ﴿ **وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ** ﴾ (٢) .

فذم هؤلاء الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني كما ذم الذين يحرفون معناه ، ويكذبون، فقال تعالى ﴿ **أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ (٣)

إلى قوله ﴿ **أَفَلَا تَعْقِلُونَ** ﴾ فهذا أحد الصنفين ، ثم قال تعالى ﴿ **وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ** ﴾ (٤) أي تلاوة ﴿ **وإن هم إلا يظنون** ﴾ .

ثم ذم الذين يفترون كتباً يقولون هي من عند الله ، وما هي من عند الله ، فقال : ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ** ﴾ إلى قوله ﴿ **يَكْسِبُونَ** ﴾ (٥) .

وهذه الأصناف الثلاثة تستوعب أهل الضلال والبدع فإن أهل البدع الذين ذمهم الله ورسوله نوعان :

أحدهما : عالم بالحق يتعمد خلافه ، والثاني جاهل متبع لغيره فالأولون : يبتدعون ما يخالف كتاب الله ، ويقولون هو من عند الله أما أحاديث مفتريات ، وإما تفسير وتأويل للنصوص باطل ، ويعضدون ذلك بما يدعونه من

---

(١) سورة الطارق آية رقم ١٣ .
(٢) سورة البقرة آية رقم ٧٨ .
(٣) سورة البقرة آية رقم ٧٥ .
(٤) سورة البقرة آية رقم ٧٨ .
(٥) سورة البقرة آية رقم ٧٩ .

الرأي والعقل ، وقصدهم بذلك الرياسة والمأكل ، فهؤلاء يكتبون الكتاب بأيديهم ليشتروا به ثمناً قليلاً ، فويل لهم مما كتبت أيديهم من الباطل ، وويل لهم مما يكسبون من المال على ذلك ، وهؤلاء إذا عورضوا بنصوص الكتب الالهية ، وقيل لهم هذه تخالفكم ، حرفوا الكلم عن مواضعه بالتأويلات الفاسدة ، قال الله تعالى : ﴿ **أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ (١) وأمّا النوع الثاني : الجهال ، فهؤلاء الأميون الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني ، وإن هم إلا يظنون . فعن ابن عباس وقتادة في قوله ﴿ **ومنهم أميون** ﴾ أي غير عارفين بمعاني الكتاب ، يعلمونها حفظاً وقراءة بلا فهم ولا يدرون ما فيه .

وقوله ﴿ **إلا أماني** ﴾ أي تلاوة ، فهم لا يعلمون فقه الكتاب إنما يقتصرون على ما يسمعونه يتلى عليهم ، قاله الكسائي والزجاج وكذلك قال ابن السائب لا يحسنون قراءة الكتاب ، ولا كتابته إلا أماني ، إلا ما يحدثهم به علماؤهم .

وقال أبو روق وأبو عبيدة أي تلاوة وقراءة عن ظهر القلب ولا يقرأونها في الكتب ، ففي هذا القول جعل الأماني التي هي التلاوة تلاوة الأميين أنفسهم ، وفي ذلك جعله ما يسمعونه من تلاوة علمائهم ، وكلا القولين حق . والآية تعمهما فإنه سبحانه وتعالى قال : ﴿ **لا يعلمون الكتاب** ﴾ لم يقل : لا يقرأون ولا يسمعون .

ثم قال ﴿ **إلا أماني** ﴾ وهذا استثناء منقطع » .

لكن يعلمون أماني إما بقراءتهم لها ، وإما بسماعهم قراءة غيرهم ، وإن جعل الاستثناء متصلاً كان التقدير لا يعلمون الكتاب إلا علم أماني ، لا علم تلاوة فقط بلا فهم .

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٧٥ .

والأماني جمع أمنية وهي التلاوة .

ومنه قوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إلاَّ إذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ الله مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ الله آيَاتِهِ وَالله عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (1) .

قال الشاعر :

تمنى كتاب الله أول ليلة وآخرها لاقى حمام المقادر

والأميون نسبة إلى الأمة .

قال بعضهم : إلى الأمة وما عليه العامة ، فمعنى الأمي العامي الذي لا تمييز له ، وقد قال الزجاج : هو على خلق الأمة التي لم تتعلم فهو على جبلته .

وقال غيره : هو نسبة إلى الأمة ، لأن الكتابة كانت في الرجال دون النساء ، ولأنه على ما ولدته أمه .

والصواب : أنه نسبة إلى الأمة كما يقال عامي نسبة إلى العامة التي لم تتميز عن العامة بما تمتاز به الخاصة ، وكذلك هذا لم يتميز عن الأمة بما يمتاز به الخاصة من الكتابة والقراءة .

ويقال الأمي لمن لا يقرأ ولا يكتب كتاباً . ثم يقال لمن ليس لهم كتاب منزل من الله يقرأونه ، وإن كان قد يكتب ويقرأ ما لم ينزل وبهذا المعنى كان العرب كلهم أميين ، فإنه لم يكن عندهم كتاب منزل من الله .

قال الله تعالى ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ﴾ (2)

---

(1) سورة الحج آية رقم ٥٢ .

(2) سورة آل عمران آية رقم ٢٠ .

وقال ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ ﴾ [١]

وقد كان في العرب كثير ممن يكتب ويقرأ المكتوب ، وكلهم أميون فلما نزل القرآن عليهم لم يبقوا أميين باعتبار أنهم لا يقرأون كتاباً من حفظهم ، بل هُمْ يقرأون القرآن من حفظهم وأناجيلهم في صدورهم ، لكن بقوا أميين باعتبار أنهم لا يحتاجون إلى كتابة دينهم ، بل قرآنهم محفوظ في قلوبهم ، كما في الصحيح عن عياض بن حمار المجاشعي عن النبي ﷺ أنه قال : خلقت عبادي يوم خلقتهم حنفاء - وقال فيه - إني مبتليك ومبتل بك ، وأنزل عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرأه نائماً ويقظاناً [٢] » .

فأمتنا ليست مثل أهل الكتاب الذين لا يحفظون كتبهم في قلوبهم ، بل لو عدمت المصاحف كلها كان القرآن محفوظاً في قلوب الأمة ، وبهذا الاعتبار فالمسلمون أمة أمية بعد نزول القرآن وحفظه ، كما في الصحيح عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ أنه قال : « إنا أمة أمية لا نحسب ولا نكتب الشهر هكذا وهكذا » [٣] .

فلم يقل : إنا لا نقرأ كتاباً ولا نحفظ ، بل قال : لا نكتب ولا نحسب ، فديننا لا يحتاج أن يكتب ويحسب ، كما عليه أهل الكتاب من أنهم يعلمون مواقيت صومهم وفطرهم بكتاب وحساب ، ودينهم معلق بالكتب لو عدمت لم يعرفوا دينهم ، ولهذا يوجد أكثر أهل السنة يحفظون القرآن والحديث أكثر من أهل البدع ، وأهل البدع فيهم شبه بأهل الكتاب من بعض الوجوه .

---

(١) سورة الجمعة آية رقم ٢ .

(٢) الحديث رواه الامام مسلم في الجنة ٦٣ .

(٣) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الصوم ١٣ باب قول النبي ﷺ - لا نكتب ولا نحسب .
١٩١٣ حدثنا الأسود بن قيس ، حدثنا سعيد بن عمرو أنه سمع ابن عمر - رضي الله عنهما عن النبي - ﷺ - أنه قال : وذكره .

وقوله ﴿ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ ﴾ [1] هو أمي بهذا الاعتبار لأنه لا يكتب ولا يقرأ ما في الكتب ، لا باعتبار أنه لا يقرأ من حفظه بل كان يحفظ القرآن أحسن حفظ ، والأمي في اصطلاح الفقهاء خلاف القارىء : وليس هو خلاف الكاتب بالمعنى الأول ، ويعنون به في الغالب من لا يحسن الفاتحة ، فقوله تعالى ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ ﴾ [2].

أي لا يعلمون الكتاب إلا تلاوة لا يفهمون معناها ، وهذا يتناول من لا يحسن الكتابة ولا القراءة من قبل ، وإنما يسمع أماني علماً ، كما قال ابن السائب [3]، ويتناول من يقرأه عن ظهر قلبه ولا يقرأه من الكتاب ، كما قال أبو روق وأبو عبيدة وقد يقال : إن قوله ﴿ لا يعلمون الكتاب ﴾ أي الخط ، أي لا يحسنون الخط ، وإنما يحسنون التلاوة ، ويتناول أيضاً من يحسن الخط والتلاوة ولا يفهم ما يقرأه ويكتبه .

كما قال ابن عباس وقتادة غير عارفين معاني الكتاب ، يعلمونها حفظاً وقراءة بلا فهم ، ولا يدرون ما فيه ، والكتاب هنا المراد به الكتاب المنزل ، وهو التوراة ليس المراد به الخط فإنه قال : ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يظنون ﴾ [4] .

فهذا يدل على أنه نفى عنهم العلم بمعاني الكتاب ، وإلا فكون الرجل لا يكتب بيده لا يستلزم أن يكون لا علم عنده ، بل يظن ظناً ، بل كثير ممن يكتب بيده لا يفهم ما يكتب وكثير ممن لا يكتب يكون عالماً بمعاني ما يكتبه غيره .

وأيضاً فإن الله ذكر هذا في سياق الذم لهم ، وليس في كون الرجل لا يخط ذم إذا قام بالواجب ، وإنما الذم على كونه لا يعقل الكتاب الذي أنزل إليه ، سواء كتبه وقرأه ، أو لم يكتبه ولم يقرأه ، كما قال النبي ﷺ هذا أوان

---

(١) سورة الأعراف آية رقم ١٥٨ .
(٢) سورة البقرة آية رقم ٧٨ .
(٣) سبق الترجمة له في كلمة وافية في هذا الجزء .
(٤) سورة البقرة آية رقم ٧٨ .

يرفع العلم ـ فقال له زياد بن لبيد : كيف يرفع العلم وقد قرأنا القرآن ، فوالله لنقرأنه ولنقرئنه نساءنا فقال له : «إن كنت لأحسبك من أفقه أهل المدينة، أوليست التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى فماذا تغني عنهم »[1] وهو حديث معروف رواه الترمذي وغيره .

ولأنه قال تعالى قبل هذا : ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [2] .

فأولئك عقلوه ثم حرفوه ، وهم مذمومون سواء كانوا يحفظونه بقلوبهم ويكتبونه ويقرأونه حفظاً وكتابة ، أو لم يكونوا كذلك ، فكان من المناسب أن يذكر الذين لا يعقلونه وهم الذين لا يعلمونه إلا أماني ، فإن القرآن أنزله الله كتاباً متشابهاً مثاني ويذكر فيه الأقسام والأمثال فيستوعب الأقسام فيكون مثاني ويذكر الأمثال فيكون متشابهاً ، وهؤلاء وإن كانوا يكتبون ويقرأون فهم أميون من أهل الكتاب ، كما نقول نحن لمن كان كذلك هو أمي وساذج وعامي ، وإن كان يحفظ القرآن ويقرأ المكتوب إذا كان لا يعرف معناه .

وإذا كان الله قد ذم هؤلاء الذين لا يعرفون الكتاب إلا تلاوة دون فهم معانيه ، كما ذم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ، دل على أن كلا النوعين مذموم : الجاهل الذي لا يفهم معاني النصوص ، والكاذب الذي يحرف الكلم عن مواضعه ، وهذا حال أهل البدع ، فإنهم أحد رجلين : إما رجل يحرف الكلم عن مواضعه ، ويتكلم برأيه ويؤوله بما يضيفه إلى الله فهؤلاء يكتبون الكتاب بأيديهم ويقولون هو من عند الله ويجعلون تلك المقالات التي ابتدعوها هي مقالة الحق . وهي التي جاء بها الرسول ، والتي كان عليها السلف ، ونحو ذلك ، ثم يحرفون النصوص التي تعارضها ، فهؤلاء إذا تعمدوا ذلك ، وعلموا أن الذي يفعلونه

(١) الحديث رواه الترمذي كما قال المؤلف .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٧٥ .

مخالف للرسول ، فهم من جنس هؤلاء اليهود ، وهذا يوجد في كثير من الملاحدة ، ويوجد في بعض الأشياء في غيرهم .

وأما الذين قصدهم اتباع الرسول باطناً وظاهراً ، وغلطوا فيما كتبوه وتأولوه فهؤلاء ليسوا من جنسهم ، لكن قد وقع بسبب غلطهم ما هو من جنس ذلك الباطل ، كما قيل : إذا زل العالم زل بزلته عالم ، وهذا حال المتأولين من هذه الأمة .

وإما رجل مقلد أمي لا يعرف من الكتاب إلا ما يسمعه منهم أو ما يتلوه هو ، ولا يعرف إلا أماني ، وقد ذمه الله على ذلك فعلم أن الله ذم الذين لا يعرفون معاني القرآن ولا يتدبرونه ولا يعقلونه ، كما صرح القرآن بذمهم في غير موضع فيمتنع مع هذا أن يقال : إن أكثر القرآن أو كثيراً منه لا يعلمه أحد من الخلق إلا أماني ، لا جبريل ولا محمد ولا الصحابة ولا أحد من المسلمين فإن هذا تشبيه لهم بهؤلاء فيما ذمهم الله به .

فإن قيل : أفلا يجب على كل مسلم معرفة معنى كل آية ؟ قيل : نعم لكن معرفة معاني الجميع فرض على الكفاية ، وعلى كل مسلم معرفة ما لا بد منه ، وهؤلاء ذمهم الله لأنهم لا يعلمون معاني الكتاب إلا تلاوة ، وليس عندهم إلا الظن ، وهذا يشبه قوله : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾ [1] .

فإن قيل : فقد قال بعض المفسرين : ﴿ إلا أماني ﴾ إلا ما يقولونه بأفواههم كذباً وباطلاً .

وروي هذا عن بعض السلف ، واختاره الفراء . وقال : « الأماني » الأكاذيب المفتعلة .

قال بعض العرب لابن دأب ـ وهو يحدث ـ أهذا شيء رويته أم تمنيته ، أي افتعلته ، فأراد بالأماني الأشياء التي كتبها علماؤهم من قبل أنفسهم ، ثم

(١) سورة هود آية رقم ١١٠ .

أضافوها إلى الله من تغيير صفة محمد ﷺ .

وقال بعضهم : « الأماني » يتمنون على الله الباطل والكذب ، كقولهم : ﴿ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَاماً مَعْدُودَاتٍ ﴾ [1] .

وقولهم : ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ الله وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ [2] وهذا أيضاً يروى عن بعض السلف .

قيل : كلا القولين ضعيف ، والصواب الأول لأنه سبحانه قال . ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ ﴾ [3] وهذا الاستثناء إما أن يكون متصلاً أو منقطعاً ، فإن كان متصلاً لم يجز استثناء الكذب ولا أماني القلب من الكتاب ، وإن كان منقطعاً ، فالاستثناء المنقطع إنما يكون فيما كان نظير المذكور وشبيهاً له من بعض الوجوه ، فهو من جنسه الذي لم يذكر في اللفظ ، ليس من جنس المذكور ولهذا لا يصلح المنقطع حيث يصلح الاستثناء المفرغ وذلك كقوله ﴿ لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا المَوْتَ ﴾

ثم قال ﴿ إِلاَّ المَوْتَةَ الأُوْلَىٰ ﴾ [4] فهذا منقطع ؛ لأنه يحسن أن يقال ﴿ لا يذوقون إلا الموتة الأولى ﴾ وكذلك قوله تعالى ﴿ لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالبَاطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِنكُمْ ﴾ [5] .

وقوله ﴿ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ ﴾ [6]

يصلح أن يقال: ومالهم إلا اتباع الظن، فهنا لما قال: ﴿لا يعلمون الكتاب إلا أماني ﴾ فإنهم يعلمونه تلاوة يقرأونها ويسمعونها ، ولا يحسن أن يقال : لا يعلمون إلا ما تتمناه قلوبهم ، أو لا يعلمون إلا الكذب ، فإنهم قد كانوا يعلمون ما هو صدق أيضاً ، فليس كل ما علموه من علمائهم كان كذباً ،

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ٢٤ .
(٢) سورة المائدة آية رقم ١٨ .
(٣) سورة البقرة آية رقم ٧٨ .
(٤) سورة الدخان آية رقم ٥٦ .
(٥) سورة النساء آية رقم ٢٩ .
(٦) سورة النساء آية رقم ١٥٧ .

بخلاف الذي لا يعقل معنى الكتاب ، فإنه لا يعلم إلا تلاوة .

وأيضاً فهذه الأماني الباطلة التي تمنوها بقلوبهم وقالوها بألسنتهم كقوله تعالى ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ (١) قد اشتركوا فيها كلهم فلا يخص بالذم الأميون منهم وليس لكونهم أميين مدخل في الذم بهذه ، ولا لنفي العلم بالكتاب مدخل في الذم بهذه ، بل الذم بهذه مما يعلم أنها باطل أعظم من ذم من لا يعلم أنها باطل ولهذا لما ذم الله بها عموم ولم يخص فقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ (٢) الآية .

وأيضاً فإنه قال : ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ (٣) فدل على أنه ذمهم على نفي العلم ، وعلى أنه ليس معهم إلا الظن وهذا حال الجاهل بمعاني الكتاب لا حال من يعلم أنه يكذب ، فظهر أن هذا الصنف ليس هم الذين يقولون بأفواههم الكذب والباطل ، ولو أريد ذلك لقيل لا يقولون إلا أماني ، لم يقل لا يعلمون الكتاب إلا أماني ، بل ذلك الصنف هم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ، ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ، ويكتبون الكتاب بأيديهم ليشتروا به ثمناً قليلاً فهم يحرفون معاني الكتاب وهم يحرفون لفظه لمن لم يعرفه ويكذبون في لفظهم وخطهم وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه ، قالوا : يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ (٤) .

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١١١ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١١١ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٧٨ .

(٤) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء ٥٠ باب ما ذكر عن بني اسرائيل .
٣٤٥٦ ـ حدثنا سعيد بن أبي مريم حدثنا غسان قال حدثني زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد ـ رضي الله عنه أن النبي ـ ﷺ ـ قال : وذكره .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال « لتأخذن أمتي مآخذ الأمم قبلها شبراً بشبر وذراعاً بذراع قالوا : يا رسول الله فارس والروم ، قال : ومن الناس إلا أولئك ؟ »[1] .

فهذا دليل على أن ما ذم الله به أهل الكتاب في هذه الآية يكون في هذه الأمة من يشبههم فيه ، وهذا حق قد شوهد .

قال تعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[2] .

فمن تدبر ما أخبر الله به ورسوله رأى أنه قد وقع في ذلك أمور كثيرة ، بل أكثر الأمور ، ودله ذلك على وقوع الباقي .

---

(1) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ١٤ باب قول النبي - ﷺ - لتتبعن سنن من كان قبلكم » .
٧٣١٩ - حدثنا أحمد بن يونس ، حدثنا ابن أبي ذئب عن المقبري عن أبي هريرة - رضي الله عنه عن النبي - ﷺ وذكره . ورواه الامام مسلم في كتاب العلم ٦

(2) سورة فصلت آية رقم ٥٣ .

فصل

فقد تبين أن الواجب طلب علم ما أنزل الله على رسوله ﷺ من الكتاب والحكمة ، ومعرفة ما أراد بذلك كما كان على ذلك الصحابة والتابعون لهم بإحسان ومن سلك سبيلهم ، فكل ما يحتاج الناس إليه في دينهم ، فقد بينه الله ورسوله بياناً شافياً فكيف بأصول التوحيد والإيمان .

ثم إذا عرف ما بينه الرسول نظر في أقوال الناس وما أرادوه بها ، فعرضت على الكتاب والسنة والعقل الصريح دائماً موافق للرسول ﷺ لا يخالفه قط ، فإن الميزان مع الكتاب ، والله أنزل الكتاب بالحق والميزان ، لكن قد تقصر عقول الناس عن معرفة تفصيل ما جاء به ، فيأتيهم الرسول بما عجزوا عن معرفته وحاروا فيه ، لا بما يعلمون بعقولهم بطلانه ، فالرسل صلوات الله وسلامه عليهم تخبر بمحارات العقول ، لا تخبر بمحالات العقول ، فهذا سبيل الهدى والسنة والعلم ، وأما سبيل الضلال والبدعة والجهل فعكس ذلك : أن يبتدع بدعة برأي رجال وتأويلاتهم ، ثم يجعل ما جاء به الرسول تبعاً لها ، ويحرف ألفاظه ، ويتأول على وفق ما أصلوه .

وهؤلاء تجدهم في نفس الأمر لا يعتمدون على ما جاء به الرسول ولا يتلقون الهدى منه ، ولكن ما وافقهم منه قبلوه ، وجعلوه حجة لا عمدة ، وما خالفهم تأولوه ، كالذين يحرفون الكلم عن مواضعه ، أو فوضوه ، كالذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني وهؤلاء قد لا يعرفون ما جاء به الرسول ، إما

عجزاً ، وإما تفريطاً ، فإنه يحتاج إلى مقدمتين :

أن الرسول قال كذا ، وأنه أراد به كذا .

أما الأولى فعامتهم لا يرتابون في أنه جاء بالقرآن وإن كان من غلاة أهل البدع من يرتاب في بعضه لكن الأحاديث عامة أهل البدع جهال بها ، وهم يظنون أن هذه رواها آحاد يجوزون عليهم الكذب والخطأ ، ولا يعرفون من كثرة طرقها وصفات رجالها ، والأسباب الموجبة للتصديق بها ما يعلمه أهل العلم بالحديث ، فإن هؤلاء يقطعون قطعاً يقيناً بعامة المتون الصحيحة التي في الصحيحين كما قد بسطناه في غير هذا الموضع .

وأما المقدمة الثانية : فإنهم قد لا يعرفون معاني القرآن والحديث ومنهم من يقول : الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين بمراد المتكلم وقد بسطنا الكلام على فساد ذلك في غير هذا الموضع . وكثير منهم إنما ينظر من تفسير القرآن والحديث فيما يقوله موافقوه على المذهب فيتأول تأويلاتهم، فالنصوص التي توافقهم يحتجون بها ، والتي تخالفهم يتأولونها ، وكثير منهم لم يكن عمدتهم في نفس الأمر اتباع نص أصلاً ، وهذا في البدع الكبار مثل الرافضة والجهمية ، فإن الذي وضع الرفض كان زنديقاً ابتدأ تعمد الكذب الصريح الذي يعلم أنه كذب ، كالذين ذكرهم الله من اليهود الذين يفترون على الله الكذب وهم يعلمون ثم جاء من بعدهم من ظن صدق ما افتراه أولئك وهم في شك منه ، كما قال تعالى ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾ [1] .

وكذلك الجهمية ليس معهم على نفي الصفات وعلو الله على العرش ونحو ذلك نص أصلاً ، لا آية ولا حديث ، ولا أثر عن الصحابة ، بل الذي ابتدأ ذلك لم يكن قصده اتباع الأنبياء بل وضع ذلك كما وضعت عبادة

(١) سورة الشورى آية رقم ١٤ .

الأوثان ، وغير ذلك من أديان الكفار ، مع علمهم بأن ذلك مخالف للرسل كما ذكر عن مبدلة اليهود، ثم فشا ذلك فيمن لم يعرفوا أصل ذلك .

وهذا بخلاف بدعة الخوارج ، فإن أصلها ما فهموه من القرآن فغلطوا في فهمه ، ومقصودهم اتباع القرآن باطناً وظاهراً ليسوا زنادقة .

وكذلك القدرية أصل مقصودهم تعظيم الأمر والنهي والوعد والوعيد الذي جاءت به الرسل ، ويتبعون من القرآن ما دل على ذلك .

فعمرو بن عبيد [1] وأمثاله لم يكن أصل مقصودهم معاندة الرسول ﷺ كالذي ابتدع الرفض .

وكذلك الأرجاء إنما أحدثه قوم قصدهم جعل أهل القبلة كلهم مؤمنين ، ليسوا كفاراً ، قابلوا الخوارج والمعتزلة فصاروا في طرف آخر .

وكذلك التشيع المتوسط ـ الذي مضمونه تفضيل علي وتقديمه على غيره ، ونحو ذلك لم يكن من إحداث الزنادقة بخلاف دعوى النص فيه والعصمة ، فإن الذي ابتدع ذلك كان منافقاً زنديقاً ، ولهذا قال عبد الله [2] بن المبارك ويوسف بن أسباط [3] وغيرهما : أصول البدع أربعة :

الشيعة ، والخوارج ، والقدرية ، والمرجئة .

---

(١) هو عمرو بن عبيد بن باب التيمي بالولاء أبو عثمان البصري شيخ المعتزلة في عصره ، ومفتيها ، وأحد الزهاد المشهورين كان جده من سبي فارس ، وأبوه نساجاً ثم شرطياً للحجاج في البصرة ، واشتهر عمرو بعلمه وزهده ، وأخباره مع المنصور العباسي وغيره، وفيه قال المنصور : كلكم طالب صيد غير عمرو بن عبيد له رسائل وكتب منها « التفسير » والرد على القدرية » توفي عام ١٤٤ هـ [راجع وفيات الأعيان ١ : ٣٨٤ والبداية والنهاية ١٠ : ٧٨] .

(٢) هو عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي بالولاء المروزي أبو عبد الرحمن ، الحافظ ، شيخ الاسلام المجاهد التاجر صاحب التصانيف والرحلات له كتاب في الجهاد توفي عام ١٨١ هـ . [راجع تذكرة الحفاظ ١ : ٢٥٣ ومفتاح السعادة ٢ : ١١٢ وشذرات ١ : ٢٩٥] .

(٣) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

قالوا : والجهمية ليسوا من الثنتين وسبعين فرقة وكذلك ذكر أبو عبد الله ابن حامد عن أصحاب أحمد في ذلك قولين :

هـذا أحدهما ، وهذا أرادوا بـه التجهم المحض الذي كـان عليه جهم نفسه ومتبعوه عليه ، وهو نفي الأسماء مع نفي الصفات بحيث لا يسمي الله بشيء من أسمائه الحسنى ولا يسميه شيئاً ولا موجوداً ، ولا غير ذلك ، وإنما نقل عنه إنه كان يسميه قادراً ـ لأن جميع الأسماء يسمى بها الخلق فزعم أنه يلزم منها التشبيه ، بخلاف القادر ـ فإنه كان رأس الجبرية ، وعنده ليس للعبد قدرة ولا فعل ، ولا يسمى غير الله قادراً ، فلهذا نقل عنه أنه سمى الله قادراً . وشر منه نفاة الأسماء والصفات ، وهم الملاحدة من الفلاسفة والقرامطة ، ولهذا كان هؤلاء عند الأئمة قاطبة ملاحدة منافقين ، بل فيهم من الكفر الباطن ما هو أعظم من كفر اليهود والنصارى ، وهؤلاء لا ريب أنهم ليسوا من الثنتين وسبعين فرقة ، وإذا أظهروا الإسلام فغايتهم أن يكونوا منافقين ، كالمنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ ، وأولئك كانوا أقرب إلى الإسلام من هؤلاء ، فإنهم كانوا يلتزمون شرائع الإسلام الظاهرة ، وهؤلاء قد يقولون برفعها ، فلا صوم ولا صلاة ولا حج ولا زكاة، لكن قد يقال إن أولئك كانوا قد قامت عليهم الحجة بالرسالة أكثر من هؤلاء وأما من يقول ببعض التجهم كالمعتزلة ونحوهم الذين يتدينون بدين الإسلام باطناً وظاهراً ، فهؤلاء من أمة محمد ﷺ بلا ريب .

وكذلك من هو خير منهم كالكلابية والكرامية .

وكذلك الشيعة المفضلين لعلي ، ومن كان منهم يقول بالنص والعصمة مع اعتقاده نبوة محمد ﷺ باطناً وظاهراً وظنه أن ما هو عليه هو دين الإسلام ، فهؤلاء أهل ضلال وجهل ليسوا خارجين عن أمة محمد ﷺ ، بل هم من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً .

وعامة هؤلاء ممن يتبع ما تشابه من القرآن ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ،

كما أن من المنافقين والكفـار من يفعل ذلـك ولهذا قـال طائفـة من المفسرين كالربيع بن أنس ، هم النصارى كنصارى نجران .

وقـالت طائفـة كالكلبي : هم اليهـود : وقالت طـائفة كـابن جـريـج هم المنافقون .

وقالت طائفة كالحسن هم الخوارج .

وقالت طائفة كقتادة : هم الخوارج والشيعة .

وكان قتادة إذا قرأ هذه الآية ﴿ **فأما الذين في قلوبهم زيغ** ﴾ .

يقول : إن لم يكونوا الحرورية ، والسبائية ، فلا أدري من هم .

والسبائية نسبة إلى عبد الله بن سبأ رأس الرافضة

فصل

والمعنى الصحيح الذي هو نفي المثل والشريك ، والند قد دل عليه قوله سبحانه ﴿ أَحَدٌ ﴾ (١) .

وقوله ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ (٢)

وقوله ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ﴾ (٣) .

وأمثال ذلك فالمعاني الصحيحة ثابتة بالكتاب والسنة والعقل يدل على ذلك .

وقول القائل : الأحد أو الصمد أو غير ذلك هو الذي لا ينقسم ولا يتفرق ، أو ليس بمركب ، ونحو ذلك هذه العبارات إذا عنى بها أنه لا يقبل التفرق والانقسام فهذا حق ، وإما إن عنى به أنه لا يشار إليه بحال، أو من جنس ما يعنون بالجوهر الفرد أنه لا يشار إليه بحال ، أو من جنس ما يعنون بالجوهر الفرد أنه لا يشار إلى شيء منه دون شيء ، فهذا عند أكثر العقلاء يمتنع وجوده ، وإنما يقدر في الذهن تقديراً ، وقد علمنا أن العرب حيث أطلقت لفظ الواحد والأحد نفياً واثباتاً لم ترد هذا المعنى فقوله تعالى ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ

---

(١) سورة الاخلاص آية رقم ١ .

(٢) سورة الاخلاص آية رقم ٤ .

(٣) سورة مريم آية رقم ٦٥ .

﴿ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ ﴾ (١) لم يرد به هذا المعنى الذي فسروا به الواحد والأحد .

وكذلك قوله ﴿ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ﴾ (٢)

وكذلك قوله ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ (٣)

فإن المعنى لم يكن له أحد من الآحاد كفواً له ، فإن كان الأحد عبارة عما لا يتميز منه شيء عن شيء ، ولا يشار إلى شيء منه دون شيء ، فليس في الموجودات ما هو أحد إلا ما يدعونه من الجوهر الفرد ، ومن رب العالمين ، وحينئذ لا يكون قد نفى عن شيء من الموجودات أن يكون كفواً للرب ، لأنه لم يدخل في مسمى واحد وقد بسطنا الكلام على هذا بسطاً كثيراً في المباحث العقلية والسمعية التي يذكرها نفاة الصفات من الجهمية وأتباعهم في كتابنا المسمى «بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية» ولهذا لما احتجت الجهمية على السلف ـ كالإمام أحمد وغيره ـ على نفي الصفات باسم الواحد .

قال أحمد : قالوا لا تكونون موحدين أبداً حتى تقولوا قد كان الله ولا شيء ، قلنا : نحن نقول : كان الله ولا شيء . ولكن إذا قلنا : إن الله لم يزل بصفاته كلها أليس إنما نصف إلهاً واحداً ، وضربنا لهم في ذلك مثلاً . فقلنا : أخبرونا عن هذه النخلة ، أليس لها جذع وكرب وليف وسعف وخوص وجمار واسمها شيء واحد وسميت نخلة بجميع صفاتها ؟ فكذلك الله ـ وله المثل الأعلى بجميع صفاته إله واحد ، لا نقول : إنه قد كان في وقت من الأوقات ولا قدرة له حتى خلق لنفسه قدرة ، ولا نقول : قد كان في وقت من الأوقات لا يعلم حتى خلق له علماً ولكن نقول : لم يزل عالماً قادراً مالكاً ،

---

(١) سورة التوبة آية رقم ٦ .

(٢) سورة النساء آية رقم ١١ .

(٣) سورة الاخلاص آية رقم ٤ .

لا متى ولا كيف ومما يبين هذا أن سبب نزول هذه السورة الذي ذكره المفسرون يدل على ذلك فإنهم ذكروا أسباباً .

أحدها : ما تقدم عن أبي بن كعب أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ : انسب لنا ربك فنزلت هذه السورة .

والثاني : أن عامر بن الطفيل قال للنبي ﷺ : إلام تدعونا إليه يا محمد ؟ قال : إلى الله .

قال : فصفه لي .

أمن ذهب هو ، أم من فضة ، أم من حديد ؟ فنزلت هذه السورة » .

وروي ذلك عن ابن عباس من طريق أبي ظبيان وأبي صالح عنه .

والثالث : أن بعض اليهود قال ذلك ، قالوا : من أي جنس هو ، وممن ورث الدنيا ، ولمن يورثها ؟ فنزلت هذه السورة ، قاله قتادة والضحاك قال الضحاك وقتادة ومقاتل : جاء ناس من أحبار اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا : يا محمد صف لنا ربك ، لعلنا نؤمن بك ، فإن الله أنزل نعته في التوراة ، فأخبرنا به من أي شيء هو ؟

ومن أي جنس هو : أمن ذهب ؟ أم من نحاس هو أم من صفر ، أم من حديد ، أم من فضة ؟ وهل يأكل ويشرب ؟ وممن ورث الدنيا ؟ ولمن يورثها ؟ فأنزل الله هذه السورة ، وهي نسبة الله خاصة .

والرابع : ما روي عن الضحاك عن ابن عباس أن وفد نجران قدموا على النبي ﷺ بسبعة أساقفة من بني الحارث بن كعب منهم السيد والعاقب ، فقالوا للنبي ﷺ : صف لنا ربك من أي شيء هو ؟ قال النبي ﷺ : إن ربي ليس من شيء وهو بائن من الأشياء ، فأنزل الله تعالى ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ فهؤلاء سألوا هل هو من جنس من أجناس المخلوقات وهل هو من مادة ، فبين الله تعالى أنه أحد ، ليس من جنس شيء من المخلوقات ، وأنه صمد

ليس من مادة ، بل هو صمد لم يلد ولم يولد ، وإذا نفى عنه أن يكون مولوداً من مادة الوالد ، فلأن ينفي عنه أن يكون من سائر المواد أولى وأحرى ، فإن المولود من نظير مادته أكمل من مادة ما خلق من مادة أخرى ، كما خلق آدم من الطين ، فالمادة التي خلق منها أولاده أفضل من المادة التي خلق منها هو . ولهذا كان خلقه أعجب ، فإذا نزه الرب عن المادة العليا فهو عن المادة السفلى أعظم تنزيهاً ، وهذا كما أنه إذا كان منزهاً عن أن يكون أحد كفواً له ، فلأن يكون منزهاً عن أن يكون أحد أفضل منه أولى وأحرى وهذا مما يبين أن هذه السورة اشتملت على جميع أنواع التنزيه والتحميد ، على النفي والإثبات ، ولهذا كانت تعدل ثلث القرآن فالصمدية تثبت الكمال المنافي للنقائص ، والأحدية تثبت الانفراد بذلك .

وكذلك إذا نزه نفسه عن أن يلد فيخرج منه مادة الولد التي هي أشرف المواد ، فلأن ينزه نفسه عن أن يخرج منه مادة غير الولد بطريق الأولى والأحرى .

وإذا نزه نفسه عن أن يخرج منه مواد للمخلوقات فلأن ينزه عن أن يخرج منه فضلات لا تصلح أن تكون مادة بطريق الأولى والأحرى .

والإنسان يخرج منه مادة الولد ، ويخرج منه مادة غير الولد ، كما يخلق من عرقه ورطوبته القمل والدود وغير ذلك ، ويخرج منه المخاط والبصاق وغير ذلك .

وقد نزه الله أهل الجنة عن أن يخرج منهم شيء من ذلك . وأخبر الرسول ﷺ أنهم لا يبولون ، ولا يتغوطون ولا يبصقون ، ولا يتمخطون ، وأنه يخرج منهم مثل رشح المسك وأنهم يجامعون بذكر لا يخفى ، وشهوة لا تنقطع ، ولا مني ولا منية ، وإذا اشتهى أحدهم الولد كان حمله ووضعه في زمن يسير [1] .

---

(١) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الزهد ٣٩ باب صفة الجنة ٤٣٣٣ ـ ثنا محمد بن فضيل عن =

فقد تضمن تنزيه نفسه عن أن يكـون له ولـد ، وأن يخرج منـه شيء من الأشيـاء ، كمـا يخـرج من غيـره من المخلوقـات وهـذا أيضـاً من تمـام معنى الصمد ، كما سبق في تفسيره أنه الـذي لا يخرج منـه شيء ، وكذلـك تنزيـه نفسـه عن أن يولـد ـ فلا يكـون من مثله ـ تنزيـه له أن يكـون من سائـر المواد بطريق الأولى والأحرى .

وقد تقدم في حديث أبي بن كعب أنه ليس شيء يولد إلا سيموت وليس شيء يموت إلا يورث ، والله تعالى لا يموت ولا يورث وهذا رد لقول اليهود : ممن ورث الدنيا ، ولمن يورثها ؟ وكذلك ما نقل من سؤال النصـارى : صف لنا ربك : من أي شيء هو ؟

فقال النبي ﷺ : « إنَّ ربي ليس من شيء ، وهو بائن من الأشياء » (1) .

وكذلك سؤال المشركين واليهود : أمن فضة هو ؟ أم من ذهب هـو ؟ أم من حديد ؟

وذلك لأن هؤلاء عهدوا الآلهة التي يعبدونها من دون الله يكون لها مواد صارت منها ، فعباد الأوثان تكون أصنامهم من ذهب وفضـة ، وحديـد ، وغير ذلك . وعباد البشر سواء كان البشر لم يأمروهم بعبادتهم ، أو أمروهم بعبادتهم كالذين يعبـدون المسيح وعـزيرا ، وكقـوم فرعـون الذين قـال لهم ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ

عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ وذكـره ورواه الامام البخاري في الأنبياء ١ ، وبدء الخلق ٨ ، ورواه الامام مسلم في الجنة ١٥ ـ ١٧ ـ ١٩ والترمـذي في الجنة ٧ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٣٢ ، ٣٥٣ ، ٣١٦ ، ٣٥٧ (حلبي)

(1) الحديث رواه الامام أحمد حدثنا أبو سعيد محمد بن ميسر الصاغاني حـدثنا أبـو جعفر الـرازي ، حدثنا الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب . وكذا رواه الترمذي ، وابن جرير ، عن أحمد بن منيع زاد ابن جرير ، ومحمود بن خداش عن أبي سعيد محمد بن ميسـرة به ، ورواه ابن أبي حاتم من حديث أبي سعيد محمد بن ميسرة به ، ثم رواه الترمذي عن عبد بن حميد عن عبيد الله بن موسى عن أبي جعفر عن أبي الربيع عن أبي العالية فذكره مرسلاً .

الأَعْلَىٰ ﴾ [1] و﴿ **مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَـهٍ غَيْـرِي** ﴾ [2] وقال لموسى ﴿ **لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المَسْجُونِينَ** ﴾[3] وكالذي أتاه الله نصيباً من الملك الذي حاج ابراهيم في ربه ﴿ **إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ** ﴾ [4] وكالدجال الذي يدعي الالهية ، وما من خلق آدم إلى قيام الساعة فتنة أعظم من فتنة الدجال ، وكالذين قالوا : ﴿ **لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يغوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً** ﴾ [5] وقد قال غير واحد من السلف : إن هذه أسماء قوم صالحين كانوا فيهم ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم ، ثم بعد ذلك عبدوهم ، وذلك أول ما عبدت الأصنام وأن هذه الأصنام صارت إلى العرب ، وقد ذكر ذلك البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال : صارت الأوثان التي في قوم نوح في العرب بعد .

أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل .

وأما سواع فكانت لهذيل .

وأما يغوث فكانت لمراد ، ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ .

وأما يعوق فكانت لهمدان .

وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع .

أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا ، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت .

ونوح عليه السلام أقام في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى

---

(١) سورة النازعات آية رقم ٢٤ .

(٢) سورة القصص آية رقم ٣٨ .

(٣) سورة الشعراء آية رقم ٢٩ .

(٤) سورة البقرة اية رقم ٢٥٨ .

(٥) سورة نوح آية رقم ٢٣ .

التوحيد ، وهو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض ، كما ثبت ذلك في الصحيح .

ومحمد ﷺ خاتم الرسل ، وكلا المرسلين بعث إلى مشركين يعبدون هذه الأصنام التي صورت على صور الصالحين من البشر والمقصود بعبادتها عبادة أولئك الصالحين .

وكذلك المشركون من أهل الكتاب ، ومن مبتدعة هذه الأمة وضلالها هذا غاية شركهم ، فإن النصارى يصورون في الكنائس صور من يعظمونه من الإنس غير عيسى وأمه ، مثل : مار جرجس وغيره من القداديس ، ويعبدون تلك الصور ، ويسألونها ويدعونها ويقربون لها القرابين ، وينذرون لها النذور ، ويقولون هذه تذكرنا بأولئك الصالحين .

والشياطين تضلهم كما كانت تضل المشركين ، تارة بأن يتمثل الشيطان في صورة ذلك الشخص الذي يدعي ويعبد فيظن داعيه أنه قد أتى ، أو يظن أن الله صور ملكاً على صورته ، فإن النصراني مثلاً يدعو في الأسر وغيره مار جرجس أو غيره فيراه قد أتاه في الهواء وكذلك آخر غيره ، وقد سألوا بعض بطارقتهم عن هذا كيف يوجد في هذه الأماكن ، فقال : هذه ملائكة يخلقهم الله على صورته تغيث من يدعوه ، وإنما تلك شياطين أضلت المشركين .

وهكذا كثير من أهل البدع والضلال والشرك المنتسبين إلى هذه الأمة ، فإن أحدهم يدعو ويستغيث بشيخه الذي يعظمه وهو ميت ، أو يستغيث به عند قبره ويسأله ، وقد ينذر له نذراً ونحو ذلك ، ويرى ذلك الشخص قد أتاه في الهواء ودفع عنه بعض ما يكره ، أو كلمه ببعض ما سأله عنه ونحو ذلك فيظنه الشيخ نفسه أتى إن كان حيا ، حتى إني أعرف من هؤلاء جماعات يأتون إلى الشيخ نفسه الذي استغاثوا به ، وقد رأوه أتاهم في الهواء فيذكرون ذلك له .

هؤلاء يأتون إلى هذا الشيخ ، وهؤلاء يأتون إلى هذا الشيخ . فتارة يكون الشيخ نفسه لم يكن يعلم بتلك القضية ، فإن كان يحب الرياسة

سكت ، وأوهم أنه نفسه أتاهم وأغاثهم ، وإن كان فيه صدق مع جهل وضلال قال : هذا ملك صوره الله على صورتي وجعل هذا من كرامات الصالحين ، وجعله عمدة لمن يستغيث بالصالحين ، ويتخذهم أرباباً ، وأنهم إذا استغاثوا بهم بعث الله ملائكة على صورهم تغيث المستغيث بهم .

ولهذا أعرف غير واحد من الشيوخ الأكابر الذين فيهم صدق وزهد وعبادة لما ظنوا هذا من كرامات الصالحين صار أحدهم يوصي مريديه يقول : إذا كانت لأحدكم حاجة فليستغث بي ، وليستنجدني وليستوصني ، ويقول : أنا أفعل بعد موتي ما كنت أفعل في حياتي وهو لا يعرف أن تلك شياطين تصورت على صورته لتضله ، وتضل أتباعه ، فتحسن لهم الإشراك بالله ، ودعاء غير الله ، والاستغاثة بغير الله ، وأنها قد تلقي في قلبه أنا نفعل بعد موتك بأصحابك ما كنا نفعل بهم في حياتك ، فيظن هذا من خطاب الهي ألقي في قلبه ، فيأمر أصحابه بذلك ، وأعرف من هؤلاء من كان له شياطين تخدمه في حياته بأنواع الخدم مثل خطاب أصحابه المستغيثين به ، وإعانتهم ، وغير ذلك ، فلما مات صاروا يأتون أحدهم في صورة الشيخ ويشعرونه أنه لم يمت ، ويرسلون إلى أصحابه رسائل بخطاب ، وقد كان يجتمع بي بعض أتباع هذا الشيخ ، وكان فيه زهد وعبادة ، وكان يحبني ويحب هذا الشيخ ، ويظن أن هذا من الكرامات ، وأن الشيخ لم يمت ، وذكر لي الكلام الذي أرسله إليه بعد موته فقرأه فإذا هو كلام الشياطين بعينه .

وقد ذكر لي غير واحد ممن أعرفهم أنهم استغاثوا بي فرأوني في الهواء ، وقد أتيتهم وخلصتهم من تلك الشدائد ، مثل من أحاط به النصارى الأرمن ليأخذوه وآخر قد أحاط به العدو ومعه كتب ملطفات من مناصحين لو اطلعوا على ما معه لقتلوه ، ونحو ذلك ، فذكرت لهم أني ما دريت بما جرى أصلاً ، وحلفت لهم على ذلك حتى لا يظنوا أني كتمت ذلك كما تكتم الكرامات ، وأنا قد علمت أن الذي فعلوه ليس بمشروع ، بل هو شرك

وبدعة ، ثم تبين لي فيما بعد ، وبينت لهم أن هذه شياطين تتصور على صورة المستغاث به .

وحكى لي غير واحد من أصحاب الشيوخ أنه جرى لمن استغاث بهم مثل ذلك .

وحكى خلق كثير أنهم استغاثوا بأحياء وأموات فرأوا مثل ذلك واستفاض هذا حتى عرف أن هذا من الشياطين .

والشياطين تغوي الإنسان بحسب الإمكان ، فإن كان ممن لا يعرف دين الإسلام أوقعته في الشرك الظاهر، والكفر المحض ، فأمرته أن لا يذكر الله ، وأن يسجد للشيطان ، ويذبح له وأمرته أن يأكل الميتة والدم ويفعل الفواحش ، وهذا يجري كثيراً في بلاد الكفر المحض ، وبلاد فيها كفر وإسلام ضعيف ، ويجري في بعض مدائن الإسلام في المواضع التي يضعف إيمان أصحابها ، حتى قد جرى ذلك في مصر والشام على أنواع يطول وصفها ، وهو في أرض الشرق قبل ظهور الإسلام في التتار كثير جداً ، وكلما ظهر فيهم الإسلام وعرفوا حقيقته قلت آثار الشياطين فيهم وإن كان مسلماً يختار الفواحش والظلم أعانته على الظلم والفواحش ، وهذا كثير جداً ، أكثر من الذي قبله في البلاد التي في أهلها إسلام وجاهلية، وبر وفجور وإن كان الشيخ فيه إسلام وديانة ولكن عنده قلة معرفة بحقيقة ما بعث الله به رسوله ﷺ وقد عرف من حيث الجملة أن لأولياء الله كرامات وهو لا يعرف كمال الولاية ، وأنها الإيمان والتقوى واتباع الرسل باطناً وظاهراً ، أو يعرف ذلك مجملاً ولا يعرف من حقائق الإيمان الباطن وشرائع الاسلام الظاهرة ما يفرق به بين الأحوال الرحمانية ، وبين النفسانية والشيطانية كما أن الرؤ يا ثلاثة أقسام :

رؤ يا من الله ، ورؤ يا مما يحدث المرء به نفسه في اليقظة فيراه في المنام ، ورؤ يا من الشيطان .

فكذلك الأحوال ، فإذا كان عنده قلة معرفة بحقيقة دين محمد ﷺ أمرته الشياطين بأمر لا ينكره ، فتارة يحملون أحدهم في الهواء ويقفون بـه بعرفـات ثم يعيـدونه إلى بلده ، وهـو لابس ثيابـه لم يحرم حين حـاذى المواقيت ، ولا كشف رأسه ولا تجرد عما يتجرد عنه المحرم ، ولا يدعونه بعد الوقوف يـطوف طواف الإفاضة ، ويرمي الجمار ويكمل حجـه ، بل يـظن أن مجرد الـوقوف ـ كما فعل ـ عبادة .

وهذا من قلة علمه بدين الإسلام ، ولـو علم دين الإسلام لعلم أن هـذا الـذي فعله ليس عبادة لله ، وأنـه من استحل هـذا فهو مـرتد يجب قتله ، بـل اتفق المسلمـون على أنه يجب الإحـرام عند الميقـات ، ولا يجـوز لـلإنسـان المحرم اللبس في الإحرام إلا من عذر ، وأنه لا يكتفي بـالوقـوف ، بل لا بـد من طـواف الإفـاضـة بـاتفـاق المسلمين ، بـل وعليـه أن يفيض إلى المشعـر الحرام ، ويرمي جمرة العقبة ، وهذا مما تنوزع فيه ، هل هو ركن ، أو واجب يجبره دم ؟

وعليه أيضاً رمي الجمار أيام منى باتفاق المسلمين ، وقد تحمل أحدهم الجن فتـزوره بيت المقـدس وغيـره ، وتـطيـر بـه في الهـواء ، وتمشي بـه في الماء ، وقد تريه أنه قد ذهب به إلى مدينة الأولياء ، وربمـا أرته أنـه يأكـل من ثمار الجنة ويشرب من أنهارها .

وهذا كله وأمثاله مما أعرفه قد وقع لمن أعـرفه ، لكن هـذا باب طـويل ليس هذا موضع بسطه .

وإنمـا المقصـود أن أصـل الشـرك في العـالم كـان من عبـادة البشـر الصالحين ، وعبادة تماثيلهم ، وهم المقصودون .

ومن الشرك ما كان أصله عبادة الكواكب ، إما الشمس وإما القمر ، وإما غيرهما ، وصورت الأصنام طـلاسم لتلك الكواكب وشـرك قوم ابـراهيم ـ والله أعلم ـ كان من هذا ، أو كان بعضه من هذا .

ومن الشرك ما كان أصله عبادة الملائكة أو الجن ، وضعت الأصنام لأجلهم ، وإلا فنفس الأصنام الجمادية لم تعبد لذاتها ، بل لأسباب اقتضت ذلك .

وشرك العرب كان أعظمه الأول ، وكان فيه من الجميع .

فإن عمرو بن لحي[1] هو أول من غير دين ابراهيم - عليه السلام - وكان قد أتى الشام ورآهم بالبلقاء لهم أصنام يستجلبون بها المنافع ويدفعون بها المضار ، فصنع مثل ذلك في مكة لما كانت خزاعة ولاة البيت قبل قريش ، وكان هو سيد خزاعة . وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال « رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندق يجر قصبه في النار - أي أمعاءه - وهو أول من غير دين ابراهيم وسيب السوائب ، وبحر البحيرة[2] » وكذلك - والله أعلم - شرك قوم نوح ، وإن كان مبدأه من عبادة الصالحين ، فالشيطان يجر الناس من هذا إلى غيره لكن هذا أقرب إلى الناس ، لأنهم يعرفون الرجل الصالح وبركته ودعاءه ، فيعكفون على قبره ، ويقصدون ذلك منه فتارة يسألونه ، وتارة يسألون الله به ، وتارة يصلون ويدعون عند قبره ظانين أن الصلاة والدعاء عند قبره أفضل منه في المساجد والبيوت .

ولما كان هذا مبدأ الشرك سد النبي ﷺ هذا الباب ، كما سد باب الشرك بالكواكب .

ففي صحيح مسلم عنه أنه قال قبل أن يموت بخمس « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإني

---

(١) هو عمر بن لحي بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدي من قحطان أول من غير دين اسماعيل ، ودعا العرب الى عبادة الأوثان ، كنيته أبو ثمامة زار بلاد الشام ودخل أرض مواب في وادي الأردن بالبلقاء فوجد أهلها يعبدون الأصنام فنقلها الى الكعبة [راجع الأصنام لابن الكلبي ٨ واليعقوبي ١ : ٢١١ والبداية والنهاية ٢ : ١٨٧] .

(٢) الحديث رواه أحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٣٦٦ (حلبي)

أنهاكم عن ذلك » [1] .

وفي الصحيحين عنه ﷺ ذكر له كنيسة بأرض الحبشة ، وذكر من حسنها وتصاوير فيها ، فقال : « إن أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك هم شرار الخلق عند الله يوم القيامة » [2] .

وفي الصحيحين عنه أنه قال ﷺ في مرض موته : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما فعلوا »[3] .

قالت عائشة : ولولا ذلك لأبرز قبره ، ولكن كره أن يتخذ مسجداً .

وفي مسند أحمد وصحيح أبي حاتم عنه أنه قال ﷺ « إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد»[4] .

وفي سنن أبي داود وغيره عنه أنه قال ﷺ « لا تتخذوا قبري عيداً، وصلوا علي حيث ما كنتم، فإن صلاتكم تبلغني»[5] .

وفي موطأ مالك عنه أنه قال ﷺ : «اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » [6] .

وفي صحيح مسلم عن أبي الهياج الأسدي قال : قال لي علي بن أبي

---

(١) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب المساجد ١٩ ، ٢٠

(٢) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الصلاة ٤٨ ، ٥٢ والجنائز ٩٦ ، والأنبياء ٥٠ ، ورواه الامام مسلم في المساجد ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ .

(٣) الحديث رواه البخاري في الصلاة ٤٨ والجنائز ٦٢ ، ٩٦ والأنبياء ٥٠ والمغازي ٨٣ ، ورواه الامام مسلم في المساجد ١٩ ، ٢٣ ورواه صاحب الموطأ في المدينة ١٧ .

(٤) الحديث عند الامام أحمد في المسند ١ : ٢١٨ ، ٢ : ٢٦٠ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ (حلبي) .

(٥) الحديث رواه أبو داود في المناسك ٩٦ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٦٧ (حلبي) .

(٦) الحديث رواه صاحب الموطأ في كتاب قصر الصلاة في السفر ٢٤ باب جامع الصلاة ٨٥ وحدثني عن مالك ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار أن رسول الله ـ ﷺ قال وذكره .

طالب ـ رضي الله عنه ـ ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ ، أمرني أن لا أدع قبراً مشرفاً إلا سويته ، ولا تمثالاً إلا طمسته » (١) فأمره بمحو التمثالين الصورة الممثلة على صورة الميت ، والتمثال الشاخص المشرف فوق قبره ، فإن الشرك يحصل بهذا وبهذا .

وقد ثبت عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه كان في سفر فرأى قوماً ينتابون مكاناً للصلاة فقال : ما هذا ؟ فقالوا : هذا مكان صلى فيه رسول الله ﷺ فقال : إنما هلك من كان قبلكم بهذا ، أنهم اتخذوا آثار أنبيائهم مساجد ، من أدركته الصلاة فليصل ، وإلا فليمض (٢) . وبلغه أن قوماً يذهبون إلى الشجرة التي بايع النبي ﷺ أصحابه تحتها فأمر بقطعها .

وأرسل إليه أبو موسى يذكر له أنه ظهر بتستر قبر دانيال ، وعنده مصحف فيه أخبار ما سيكون ، قد ذكر فيه أخبار المسلمين ، وأنهم إذا أجدبوا كشفوا عن القبر فمطروا ، فأرسل إليه عمر يأمره أن يحفر بالنهار ثلاثة عشر قبراً ، ويدفنه بالليل في واحد منها لئلا يعرفه الناس لئلا يفتنوا به ، فاتخاذ القبور مساجد مما حرمه الله ورسوله ، وإن لم يبن عليها مسجداً كان بناء المساجد عليها أعظم كذلك قال العلماء : يحرم بناء المساجد على القبور ويجب هدم كل مسجد بني على قبر ، وإن كان الميت قد قبر في مسجد ، وقد طال مكثه سوي القبر حتى لا تظهر صورته ، فإن الشرك إنما يحصل إذا ظهرت صورته ، ولهذا كان مسجد النبي ﷺ أولاً مقبرة للمشركين ، وفيها نخل وخرب ، فأمر بالقبور فنبشت ، وبالنخل فقطع ، وبالخرب فسويت ، فخرج عن أن يكون مقبرة ، فصار مسجداً .

ولما كان اتخاذ القبور مساجد ، وبناء المساجد عليها محرماً ، ولم يكن

---

(١) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الجنائز ٩٣ ، ورواه أبو داود في الجنائز ٦٨ ، والترمذي في الجنائز ٥٦ ، والنسائي في الجنائز ٩٩ وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٩٦ ، ١٢٩ (حلبي) .

(٢) لم نعثر على هذا الأثر ولعله في مصنف عبد الرزاق .

شيء من ذلك على عهد الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولم يكن يعرف قط مسجد على قبر وكان الخليل عليه السلام في المغارة التي دفن فيها وهي مسدودة لا أحد يدخل إليها ، ولا تشد الصحابة الرحال لا إليه ولا إلى غيره من المقابر ؛ لأن في الصحيحين من حديث أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال : لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام والمسجد الأقصى ، ومسجدي هذا ، فكان يأتي من يأتي منهم إلى لمسجد الأقصى يصلون فيه ، ثم يرجعون ، لا يأتون مغارة الخليل ولا غيرها ، وكانت مغارة الخليل مسدودة ، حتى استولى النصارى على الشام في أواخر المائة الرابعة ، ففتحوا الباب وجعلوا ذلك المكان كنيسة ، ثم لما فتح المسلمون البلاد اتخذه بعض الناس مسجداً .

وأهل العلم ينكرون ذلك ، والذي يرويه بعضهم في حديث الإسراء أنه قيل للنبي ﷺ : هذه طيبة أنزل فصل ، فنزل فصلى ، هذا مكان أبيك ، أنزل فصل ، كذب موضوع ، لم يصل النبي ﷺ تلك الليلة إلا في المسجد الأقصى خاصة ، كما ثبت في الصحيح ، ولا نزل إلا فيه .

ولهذا لما قدم الشام من الصحابة من لا يحصي عددهم إلا الله .

وقدمها عمر بن الخطاب لما فتح بيت المقدس ، وبعد فتح الشام لما صالح النصارى على الجزية وشرط عليهم الشروط المعروفة وقدمها مرة ثالثة حتى وصل إلى سرغ ، ومعه أكابر السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، فلم يذهب أحد منهم إلى مغارة الخليل ولا غيرها من آثار الأنبياء التي بالشام لا ببيت المقدس ، ولا بدمشق ولا غير ذلك ، مثل الآثار الثلاثة التي بجبل قاسيون في غربيه الربوة المضافة إلى عيسى عليه السلام ، وفي شرقيه المقام المضاف إلى الخليل عليه السلام ، وفي وسطه وأعلاه مغارة الدم المضافة إلى هابيل لما قتله قابيل ، فهذه البقاع وأمثالها لم يكن السابقون الأولون يقصدونها ولا يزورونها ، ولا يرجون منها بركة ، فإنها محل الشرك .

ولهـذا توجـد فيها الشيـاطين كثيراً ، وقـد رآهم غيـر واحـد على صـورة الإنس ، ويقولون لهم رجال الغيب ، يظنون أنهم رجال من الإنس غائبين عن الأبصـار ، وإنمـا هم جن ، والجن يسمـون رجـالاً ، كمـا قـال الله تعـالى :

﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً ﴾[1] .

والإنس سموا إنساً لأنهم يؤنسون كما قال تعالى : ﴿ إِنِي آنَسْتُ نَاراً ﴾[2] أي رأيتها .

والجن سموا جنًّا لاجتنـانهم ، يجتنون عن الأبصـار أي يستترون . كمـا قال تعالى ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ ﴾ [3] أي استولى عليه فغطاه وستـره ، وليس أحد من الإنس يستتر دائمـاً عن أبصار الإنس ، وإنمـا يقع هـذا لبعض الإنس في بعض الأحـوال ، تارة على وجـه الكرامـة له وتـارة يكون من بـاب السحـر وعمل الشياطين .

ولبسط الكلام على الفرق بين هذا وبين هذا موضع آخر . والمقصود ها هنـا أن الصحابـة والتابعين لهم بـإحسان لم يبنـوا قط على قبـر نبي ولا رجـل صالح مسجداً ، ولا جعلوه مشهداً ومزاراً ، ولا على شيء من آثار الأنبياء مثل مكان نزل فيه أو صلى فيه ، أو فعل فيه شيئـاً من ذلك ، لم يكـونوا يقصـدون بنـاء مسجد لأجـل آثـار الأنبيـاء والصـالحين ، ولم يكن جمهـورهم يقصـدون الصـلاة في مكان لم يقصـد الرسـول الصلاة فيـه ، بل نـزل فيه أو صلى فيـه اتفاقاً ، بـل كان أئمتهم كعمـر بن الخطاب وغيـره ينهى عن قصد الصـلاة في مكان صلى فيه رسول الله ﷺ اتفاقاً لا قصداً .

وإنما نقل عن ابن عمر خاصة أنه كان يتحرى أن يسير حيث سار رسول

---

(١) سورة الجن آية رقم ٦ .

(٢) سورة طه آية رقم ١٠ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ٧٦ .

الله ﷺ ، وينـزل حيث نـزل . ويصلي حيث صلى ، وإن كـان النبي ﷺ لم يقصد تلك البقعة لذلك الفعل ، بل حصل اتفاقاً .

وكان ابن عمر رضي الله عنهما رجلاً صالحاً شديد الاتبـاع ، فرأى هـذا من الاتبـاع ، وأما أبـوه وسائـر الصحابـة من الخلفاء الـراشدين عثمـان وعلي وسـائر العشـرة وغيرهم ، مثـل ابن مسعود ومعـاذ بن جبـل وأبي بن كعب فلم يكونوا يفعلون ما فعل ابن عمر وقول الجمهور أصح .

وذلك أن المتابعة أن يفعل مثل ما فعل ، على الوجـه الذي فعـل لأجل أنه فعل .

فإذا قصد الصلاة والعبادة في مكان معين كان قصد الصلاة والعبـادة في ذلك المكان متـابعة لـه ، وأما إذا لم يقصـد تلك البقعة ، فـإن قصدهـا يكون مخالفة لا متابعة له .

مثـال الأول لما قصـد الوقـوف والذكـر والـدعـاء بعـرفـة ومـزدلفـة وبين الجمرتين كان قصـد تلك البقاع متـابعة لـه ، وكذلـك لما طـاف وصلى خلف المقام ركعتين كان فعل ذلك متابعة له .

وكذلك لمـا صعد على الصفـا والمروة للذكـر والدعـاء كان قصـد ذلك متابعة له .

وقد كان سلمة بن الأكوع[1] يتحرى الصلاة عند الأسطوانـة قال : لأني رأيت رسول الله ﷺ يتحرى الصـلاة عندهـا فلما رآه يقصـد تلك البقعة لأجـل الصلاة كان ذلك القصد للصلاة متابعة .

وكذلك لما أراد عتبان بن مـالك أن يبني مسجـداً لما عمي فـأرسل إلى رسول الله ﷺ قال له : إني أحب أن تأتيني تصلي في منزلي فأتخذه مصلى .

---

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

وفي رواية فقال : تعال فخط لي مسجداً ، فـأتى النبي ﷺ ومن شاء من أصحابه .

وفي رواية النهار : فاستأذن رسول الله ﷺ فأذنت لـه ، فلم يجلس حتى دخل البيت ، فقال : أين تحب أن أصلي من بيتك ؟ فأشرْت له إلى ناحية من البيت ، فقام رسول الله ﷺ فقمنا وراءه فصلى ركعتين ثم سلم . الحديث .

فـإنه قصـد أن يبنى مسجداً ، وأحب أن يكـون أول من يصلي فيه النبي ﷺ ، وأن يبنيه في الموضع الذي صلى فيه ، فالمقصـود كان بنـاء المسجد ، وأراد أن يصلي النبي ﷺ فـي المكـان الذي يبنيـه ، فكانت الصـلاة مقصـودة لأجل المسجد ، لم يكن بناء المسجد مقصوداً لأجل كونه صلى فيه اتفاقاً .

وهذا المكان مكان قصد النبي ﷺ الصـلاة فيه ليكـون مسجداً ، فصـار قصد الصلاة فيه متابعة له ، بخلاف ما اتفق أنه صلى فيه بغير قصد .

وكذلك قصد يوم الاثنين والخميس بالصوم متابعة لأنه قصد صـوم هذين اليومين .

وقـال في الحديث الصحيـح « إنه تفتـح أبـواب الجنـة في كـل خميس واثنين ، فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً إلا رجلاً كان بينه وبين أخيه شحناء فيقال : انظروا هذين حتى يصطلحا »[1] .

وكـذلك قصـد إتيان مسجـد قبـاء متـابعـة لـه ، فـإنـه قـد ثبت عنـه في الصحيحين أنـه كان يـأتي قباء كـل سبت راكبـاً ومـاشيـاً . وذلـك أن الله أنـزل عليه : ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ [2] .

---

(١) الحديث رواه صاحب الموطأ في كتاب حسن الخلق ٤ باب ما جاء في المهاجرة ١٧ وحـدثني عن مالك، عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه ، عن أبي هريرة أن رسول الله ـ ﷺ قال وذكره .
[وأخـرجـه الامـام مسلم في ٤٥ ـ كتـاب البـر والصلة والآداب ١١ بـاب النهي عن الشحنـاء والتهاجر حديث ٣٤] .

(٢) سورة التوبة آية رقم ١٠٨ .

وكان مسجده هو الأحق بهذا الوصف ، وقد ثبت في الصحيح أنه سئل عن المسجد المؤسس على التقوى فقال : هو مسجدي هذا » يريد أنه أكمل في هذا الوصف من مسجد قباء ، ومسجد قباء أيضاً أسس على التقوى ، وبسببه نزلت الآية : ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِرِينَ ﴾[1] وكان أهل قباء مع الوضوء والغسل يستنجون بالماء ، تعلموا ذلك من جيرانهم اليهود ، ولم تكن العرب تفعل ذلك فأراد النبي ﷺ أن لا يظن ظان أن ذاك هو الذي أسس على التقوى دون مسجده ، فذكر أن مسجده أحق بأن يكون هو المؤسس على التقوى فقوله ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ﴾ [2] يتناول مسجده ومسجد قباء ، ويتناول كل مسجد أسس على التقوى بخلاف مساجد الضرار .

ولهذا كان السلف يكرهون الصلاة فيما يشبه ذلك ويرون العتيق أفضل من الجديد ، لأن العتيق أبعد أن يكون بني ضراراً من الجديد الذي يخاف ذلك فيه ، وعتق المسجد مما يحمد به ، ولهذا قال ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ [3] .

وقال ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾ [4] فإن قدمه يقتضي كثرة العبادة فيه أيضاً ، وذلك يقتضي زيادة فضله ، ولهذا لم يستحب علماء السلف من أهل المدينة وغيرها قصد شيء من المساجد والمزارات التي بالمدينة وما حولها بعد مسجد النبي ﷺ إلا مسجد قباء ، لأن النبي ﷺ لم يقصد مسجداً بعينه يذهب إليه إلا هو .

وقد كان بالمدينة مساجد كثيرة لكل قبيلة من الأنصار مسجد لكن ليس في قصده دون أمثاله فضيلة ، بخلاف مسجد قباء فإنه أول مسجد بني في المدينة على الإطلاق، وقد قصده الرسول ﷺ بالذهاب إليه، وصح عنه ﷺ أنه

(١) سورة التوبة آية رقم ١٠٨ .
(٢) سورة التوبة آيةرقم ١٠٨ .
(٣) سورة الحج آية رقم ٣٣ .
(٤) سورة آل عمران آية رقم ٩٦ .

قال: « من توضأ في بيته ثم أتى مسجد قباء لا يريد إلا الصلاة فيه كان كعمرة » [1] .

ومع هذا فلا يسافر إليه ، لكن إذا كان الإنسان بالمدينة أتاه ولا يقصد إنشاء السفر إليه ، بل يقصد إنشاء السفر إلى المساجد الثلاثة لقوله ﷺ « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، ومسجدي هذا » [2] .

ولهذا لو نذر السفر إلى مسجد قباء لم يوف بنذره عند الأئمة الأربعة وغيرهم ، بخلاف المسجد الحرام فإنه يجب الوفاء بالنذر إليه باتفاقهم ، وكذلك مسجد المدينة ، وبيت المقدس في أصح قوليهم ، وهو مذهب مالك وأحمد والشافعي في أحد قوليه وفي الآخر وهو قول أبي حنيفة ليس عليه ذلك ، لكنه جائز ومستحب ، لأن من أصله أنه لا يجب بالنذر إلا ما كان واجباً بالشرع ، والأكثرون يقولون : يجب بالنذر كل ما كان طاعة لله ، كما ثبت في صحيح البخاري عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال « من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه » [3] .

---

(١) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ١٩٧ باب ما جاء في الصلاة في مسجد قباء .

١٤١١ - عن عبد الحميد بن جعفر ثنا أبو الأبرد ، مولى بني خطمة أنه سمع أسيد بن ظهير الأنصاري ، وكان من أصحاب النبي - ﷺ - يحدث عن النبي - ﷺ - أنه قال وذكره . ورواه الترمذي في المواقيت ١٢٥ .

(٢) الحديث رواه الامام البخاري في مسجد مكة ١ ، ٦ والصوم ٦٧ ، والصيد ٢٦ ، ورواه الامام مسلم في الحج ٤١٥ ،٥١١، ٥١٢ وأبو داود في المناسك ٩٤ ، والترمذي في الصلاة ١٢٦ والنسائي في المساجد ١٠ والدارمي في الصلاة ١٣٢ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٣٤ ، ٢٣٨ ، ٢٧٨ ، ٥٠١ ، ٣ : ٧ ، ٣٤ ، ٤٥ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٦٤ ، ٧١ (حلبي) .

(٣) الحديث رواه الامام البخاري في الايمان ٢٨ ، ٣١ ورواه أبو داود في الايمان ١٩ ، والترمذي في النذور ٢ والنسائي في الايمان ٢٧ ، ٢٨ وابن ماجه في الكفارات ١٦ ، وصاحب الموطأ نذور ٨ وأحمد بن حنبل في المسند ٦ : ٣٦ (حلبي)

ويستحب أيضاً زيارة قبور أهل البقيع ، وشهداء أحد للدعاء لهم والاستغفار ؛ لأن النبي ﷺ كان يقصد ذلك مع أن هذا مشروع لجميع موتى المسلمين ، كما يستحب السلام عليهم والدعاء لهم والاستغفار ، وزيارة القبور بهذا القصد مستحبة ، وسواء في ذلك قبور الأنبياء والصالحين وغيرهم وكان عبدالله بن عمر إذا دخل المسجد يقول : السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليك يا أبا بكر ، السلام عليك يا أبت ثم ينصرف .

وأما زيارة قبور الأنبياء والصالحين لأجل طلب الحاجات منهم أو دعائهم والإقسام بهم على الله ، أو ظن أن الدعاء أو الصلاة عند قبورهم أفضل منه في المساجد والبيوت فهذا ضلال وشرك وبدعة باتفاق أئمة المسلمين .

ولم يكن أحد من الصحابة يفعل ذلك ، ولا كانوا إذا سلموا على النبي ﷺ يقفون يدعون لأنفسهم ، ولهذا كره ذلك مالك وغيره من العلماء ، وقالوا : إنه من البدع التي لم يفعلها السلف .

واتفق العلماء الأربعة وغيرهم من السلف على أنه إذا أراد أن يدعو يستقبل القبلة ، ولا يستقبل قبر النبي ﷺ ، وأما إذا سلم عليه فأكثرهم قالوا : يستقبل القبر ، قاله مالك والشافعي وأحمد .

وقال أبو حنيفة : بل يستقبل القبلة أيضاً ، ويكون القبر عن يساره ، وقيل : بل يستدبر القبلة .

ومما يبين هذا الأصل أن رسول الله ﷺ لما هاجر هو وأبو بكر ذهبا إلى الغار الذي بجبل ثور [1] ولم يكن على طريقهما بالمدينة ، فإنه من ناحية اليمن ، والمدينة من ناحية الشام ولكن اختبأ فيه ثلاثاً لينقطع خبرهما عن

---

(١) ثور جبل بمكة وفيه الغار المذكور في القرآن ، وفي الحديث « حرَّم ما بين عير الى ثور » . قال أبو عبيدة : أصل الحديث حرم ما بين عير الى أحد ، لأنه ليس بالمدينة جبل يقال له ثور ، وقال غيره الى بمعنى مع كأنه جعل المدينة مضافة الى مكة في التحريم . والثور : برج في السماء

المشركين ، فلا يعرفون أين ذهبا، فإن المشركين كانوا طالبين لهما ، وقد بذلوا في كل واحد منهما ديته لمن يأتي به وكانوا يقصدون منع النبي ﷺ أن يصل إلى أصحابه بالمدينة ، وأن لا يخرج من مكة ، بل لما عجزوا عن قتله أرادوا حبسه بمكة ، فلو سلك الطريق ابتداء لأدركوه ، فأقام بالغار ثلاثاً لأجل ذلك فلو أراد المسافر من مكة إلى المدينة أن يذهب إلى الغار ثم يرجع لم يكن ذلك مستحباً بل مكروهاً ، والنبي ﷺ في الهجرة سلك طريق الساحل وهي طويلة ، وفيها دورة ، وأما في عمرته وحجته فكان يسلك الوسط ، وهو أقرب إلى مكة ، فسلك في الهجرة طريق الساحل، لأنها كانت أبعد عن قصد المشركين ، فإن الطريق الوسطى كانت أقرب إلى المدينة ، فيظنون أنه سلكها ، كما كان إذا أراد غزوة يرى بغيرها .

وهو ﷺ لما قسم غنائم حنين بالجعرانة اعتمر منها ، ولما صده المشركون عن مكة حل بالحديبية ، وكان قد أنشأ الإحرام بالعمرة من ميقات المدينة ذي الحليفة ، ولم يدخل الكعبة في عمره ولا حجته ، وإنما دخلها عام الفتح ، وكان بها صور مصورة فلم يدخلها حتى محيت تلك الصور ، وصلى بها ركعتين ، وصلى يوم الفتح ثمان ركعات وقت الضحى كما روت ذلك أم هانيء .

ولم يكن يقصد الصلاة وقت الضحى إلا لسبب مثل أن يقدم من سفر ، فيدخل المسجد فيصلي فيه ركعتين ، ومثل أن يشغله نوم أو مرض عن قيام الليل فيصلي بالنهار ثنتي عشرة ركعة شفعاً لفوات وقت الوتر ، فإنه ﷺ قال : « المغرب وتر صلاة النهار، فأوتروا صلاة الليل وقال : اجعلوا آخر صلاتكم بالليل وترا » [١] .

وقال « صلاة الليل مثنى مثنى ، فإذا خفت الصبح فأوتر بركعة » [٢]

---

(١) الحديث رواه الامام أحمد في المسند ٢ : ٣٠ ، ٤١ ، ٨٣ ، ١٥٤ (حلبي) .
(٢) الحديث رواه الإمام النسائي في قيام الليل ٣٥ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٧٥ (حلبي) .

والمأثور عن السلف أنهم إذا ناموا عن الوتر كانوا يوترون قبل صلاة الفجر ، ولا يؤخرونه إلى ما بعد الصلاة .

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنهما أنها قالت : ما صلى رسول الله ﷺ سبحة الضحى قط ، وإني لأسبحها وإن كان ليدع العمل وهو يحب أن يعمل به خشية أن يعمل به الناس فيفرض عليهم ، وقد ثبت عنه في الصحيح أنه أوصى بركعتي الضحى لأبي هريرة ، ولأبي الدرداء ، وفيها أحاديث ، لكن صلاته ثمان ركعات يوم الفتح جعلها بعض العلماء صلاة الضحى .

وقال آخرون : لم يصلّها إلا يوم الفتح، فعلم أنه صلاها لأجل الفتح ، وكانوا يستحبون عند فتح مدينة أن يصلي الإمام ثماني ركعات شكرا لله ، ويسمونها صلاة الفتح ، قالوا : لأن الاتباع يعتبر فيه القصد ، والنبي ﷺ لم يقصد الصلاة لأجل الوقت ، ولو قصد ذلك لصلى كل يوم ، أو غالب الأيام كما كان يصلي ركعتي الفجر كل يوم ، وكذلك كان يصلي بعد الظهر ركعتين ، وقبلها ركعتين أو أربعاً ، ولما فاتته الركعتان بعد الظهر قضاهما بعد العصر ، وهو ﷺ لما نام هو وأصحابه عن صلاة الفجر في غزوة خيبر فصلوا بعد طلوع الشمس ركعتين ، ثم ركعتين ، لم يقل أحد : إن هذه الصلاة في هذا الوقت سنة دائماً ، لأنهم إنما صلوها قضاء لكونهم ناموا عن الصلاة ، ولما فاتته العصر في بعض أيام الخندق فصلاها بعدما غربت الشمس .

وروي أن الظهر فاتته أيضاً فصلى الظهر ، ثم العصر ، ثم المغرب ، ولم يقل أحد : إنه يستحب أن يصلي بين العشاءين إحدى عشرة ركعة ، لأن ذلك كان قضاء ، بل ولا نقل عنه أحد أنه خص ما بين العشاءين بصلاة .

وقوله تعالى ﴿ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ ﴾[1] عند أكثر العلماء هو إذا قام الرجل بعد

---

(1) سورة المزمل آية رقم ٦ .

نـوم ليس هـو أول الليـل ، وهـذا هـو الصـواب ؛ لأن النبي ﷺ هكـذا كـان يصلي ، والأحاديث بذلك متواترة عنه ، كان يقوم بعد النوم لم يكن يقوم بـين العشاءين .

وكذلك أكله ما كان يجد من الطعام ، ولبسه الـذي يوجـد بمدينتـه طيبة مخلوقاً فيها ، ومجلوباً إليها من اليمن وغيرها ، لأنـه هو الـذي يسره الله لـه ، فأكله التمر ، وخبزه الشعير ، وفاكهته الرطب والبطيخ الأخضر والقثـاء ، ولبس ثيـاب اليمن ، لأن ذلـك هـو كـان أيسـر في بلده من الـطعـام والثيـاب ، لا لخصـوص ذلك فمن كـان ببلد آخر وقـوتهم البـر والـذرة ، وفاكهتهـم العنب والرمان ونحو ذلك ، وثيـابهم مما ينسـج بغير اليمن القـز لم يكن إذا قصد أن يتكلف من القوت والفاكهة واللباس ما ليس في بلده - بل يتعسـر عليهم - متبعاً للرسول ﷺ ، وإن كان ذلك الذي يتكلفه تمراً أو رطباً أو خبز شعير .

فعلم أنه لا بد في المتـابعة للنبي ﷺ من اعتبـار القصد والنيـة ، فإنمـا الأعمـال بالنيـات وإنما لكـل امرىء مـا نـوى فعلم أن الـذي عليـه جـمهـور الصحابة وأكابرهم هو الصحيح ومع هذا فابن عمر رضي الله عنهما لم يكن يقصد أن يصلي إلا في موضع نزوله ومقامه،ولا كان أحد من الصحابة يذهب إلى الغار المذكور في القرآن للزيارة والصلاة فيه - وإن كـان النبي ﷺ وصاحبـه أقامـا به ثـلاثاً يصلون فيـه الصلوات الخمس - ولا كانـوا أيضاً يـذهبون إلى حـراء وهو المكان الذي كان يتعبد فيه قبل النبوة وفيه نـزل عليه الـوحي أولاً . وكان هـذا مكان يتعبدون فيـه قبل الإسـلام فإن حـراء أعلى جبل كـان هناك ، فلمـا جاء الإسـلام ذهب النبي ﷺ إلى مكة مـرات بعد أن أقـام بها قبـل الهجـرة بضـع عشرة سنة ، ومع هذا فلم يكن هو ولا أصحابه يذهبون إلى حراء .

ولمـا حـج النبي ﷺ استلم الـركنين اليمـانيين ولم يستلم الشـاميين ؛ لأنهما لم يبنيا على قواعد ابراهيم فإن أكثر الحجر من البيت ، والحجر الأسود استلمـه وقبله واليماني استلمـه ولم يقبله ، وصلى بمقام ابـراهيم ولم يستلمـه

ولم يقبله ، فدل ذلك على أن التمسح بحيطان الكعبة غير الركنين اليمانيين وتقبيل شيء منها غير الحجر الأسود ليس بسنة ، ودل على أن استلام مقام ابراهيم وتقبيله ليس بسنة ، وإذا كان هذا نفس الكعبة ، ونفس مقام ابراهيم بها ، فمعلوم أن جميع المساجد حرمتها دون الكعبة ، وإن مقام ابراهيم بالشام وغيرها ، وسائر مقامات الأنبياء دون المقام الذي قال الله فيه ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ [1] .

فعلم أن سائر المقامات لا تقصد للصلاة فيها ، كما لا يحج إلى سائر المشاهد ، ولا يتمسح بها ، ولا يقبل شيء من مقامات الأنبياء ولا المساجد ولا الصخرة ولا غيرها ، ولا يقبل ما على وجه الأرض إلا الحجر الأسود .

وأيضاً فالنبي ﷺ لم يصل بمسجد بمكة إلا المسجد الحرام ، ولم يأت للعبادات إلا المشاعر : منى ، ومزدلفة وعرفة ، فلهذا كان أئمة العلماء على أنه لا يستحب أن يقصد مسجداً بمكة للصلاة غير المسجد الحرام ، ولا تقصد بقعة للزيارة غير المشاعر التي قصدها رسول الله ﷺ وإذا كان هذا في آثارهم ، فكيف بالمقابر التي لعن رسول الله ﷺ من اتخذها مساجد ، وأخبر أنهم شرار الخلق عند الله يوم القيامة .

ودين الإسلام أنه لا تقصد بقعة للصلاة إلا أن تكون مسجداً فقط ، ولهذا مشاعر الحج غير المسجد الحرام تقصد للنسك لا للصلاة ، فلا صلاة بعرفة ، وإنما صلى النبي ﷺ الظهر والعصر يوم عرفة بعرفة خطب بها ثم صلى ، ثم بعد الصلاة ذهب إلى عرفات فوقف بها ، وكذلك يذكر الله ويدعي بعرفات وبمزدلفة على قزح ، وبالصفا والمروة ، وبين الجمرات ، وعند الرمي ، ولا تقصد هذه البقاع للصلاة وأما غير المساجد ، ومشاعر الحج فلا تقصد بقعة لا للصلاة ولا للذكر ولا للدعاء ، بل يصلي المسلم حيث أدركته

---

(1) سورة البقرة آية رقم ١٢٥ وتكملة الآية ﴿ وعهدنا إلى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود ﴾ .

الصلاة إلّا حيث نهى، ويذكر الله ويدعوه حيث تيسر من غير قصد تخصيص بقعة بذلك ، وإذا اتخذ بقعة لذلك كالمشاهد نهى عن ذلك ، كما نهى عن الصلاة في المقبرة ، إلا ما يفعله الرجل عند السلام على الميت من الدعاء له وللمسلمين ، كما يفعل مثل ذلك في الصلاة على الجنازة ، فإن زيارة قبر المؤمن من جنس الصلاة على جنازته ، يفعل في هذا من جنس ما يفعل في هذا ، ويقصد بالدعاء هنا ما يقصد بالدعاء هنا ومما يشبه هذا أن الأنصار بايعوا النبي ﷺ ليلة العقبة بالوادي الذي وراء جمرة العقبة ؛ لأنه مكان منخفض قريب من منى ، يستتر من فيه ، فإن السبعين الأنصار كانوا قد حجوا مع قومهم المشركين ، وما زال الناس يحجون إلى مكة قبل الإسلام وبعده فجاؤوا مع قومهم إلى منى ؛ لأجل الحج ، ثم ذهبوا بالليل إلى ذلك المكان لقربه وستره لا لفضيلة فيه ولم يقصدوه لفضيلة تخصه بعينه ـ

ولهذا لما حج النبي ﷺ هو وأصحابه لم يذهبوا إليه ، ولا زاروه ، وقد بني هناك مسجد ، وهو محدث وكل مسجد بمكة وما حولها غير المسجد الحرام فهو محدث ، ومنى نفسها لم يكن بها على عهد النبي ﷺ مسجد مبني ولكن قال : منى مناخ لمن سبق، فنزل بها المسلمون وكان يصلي بالمسلمين بمنى ، وغير منى ، وكذلك خلفاؤه من بعده ، واجتماع الحجاج بمنى أكثر من اجتماعهم بغيرها فإنهم يقيمون بها أربعاً ، وكان النبي ﷺ وأبو بكر وعمر يصلون بالناس بمنى وغير منى ، وكانوا يقصرون الصلاة بمنى وعرفة ومزدلفة ، ويجمعون بين الظهر والعصر بعرفة ، والمغرب والعشاء بمزدلفة ويصلي بصلاتهم جميع الحجاج من أهل مكة وغير أهل مكة وكلهم يقصرون الصلاة بالمشاعر ، وكلهم يجمعون بعرفة ومزدلفة .

وقد تنازع العلماء في أهل مكة ونحوهم ، هل يقصرون ، أو يجمعون ؟

فقيل : لا يقصرون ، ولا يجمعون ، كما يقول ذلك من يقوله من أصحاب الشافعي وأحمد ، وقيل : يجمعون ولا يقصرون ، كما يقول ذلك أبو

حنيفة وأحمد ومن وافقه من أصحابه وأصحاب الشافعي .

وقيل : يجمعون ويقصرون كما قال ذلك مالك وابن عيينة واسحاق بن راهويه (1) وبعض أصحاب أحمد وغيرهم ، وهذا هو الصواب بلا ريب فإنه الذي فعله أهل مكة خلف النبي ﷺ بلا ريب .

ولم يقل النبي ﷺ قط ولا أبو بكر ولا عمر بمنى ولا عرفة ولا مزدلفة : يا أهل مكة أتموا صلاتكم فإنا قوم سفر ، ولكن ثبت أن عمر قال ذلك في جوف مكة ، وكذلك في السنن عن النبي ﷺ أنه قال ذلك في جوف مكة في غزوة الفتح ، وهذا من أقوى الأدلة على أن القصر مشروع لكل مسافر ، ولو كان سفره بريدا ، فإن عرفة من مكة بريد أربع فراسخ ، ولم يصل النبي ﷺ ولا خلفاؤه بمكة صلاة عيد ، بل ولا صلى في أسفاره قط صلاة العيد ، ولا صلى بهم في أسفاره صلاة جمعة يخطب ، ثم يصلي ركعتين بل كان يصلي يوم الجمعة في السفر ركعتين ، كما يصلي في سائر الأيام . وكذلك لما صلى بهم الظهر والعصر بعرفة صلى ركعتين كصلاته في سائر الأيام ، ولم ينقل أحد أنه جهر بالقراءة يوم الجمعة في السفر ، لا بعرفة ولا بغيرها ، ولا أنه خطب بغير عرفة يوم الجمعة في السفر .

فعلم أن الصواب ما عليه سلف الأمة وجماهيرها من الأئمة الأربعة وغيرهم ، من أن المسافر لا يصلي جمعة ولا غيرها وجمهورهم أيضاً على أنه لا يصلي عيداً ، وهو قول مالك وأبي حنيفة وأحمد في إحدى الروايتين ، وهذا هو الصواب أيضاً ، فإن النبي ﷺ وخلفاءه لم يكونوا يصلون العيد الا

(1) هو إسحاق بن ابراهيم بن مخلد الحنظلي المروزي أبو يعقوب بن راهويه ، عالم خراسان في عصره من سكان مرو ، وهو أحد كبار الحفاظ ، طاف البلاد لجمع الحديث ، وأخذ عنه الامام أحمد بن حنبل ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي وغيرهم ، رحل الى العراق ، والحجاز ، والشام ، واليمن ، وله تصانيف منها « المسند » توفي عام ٢٣٨ هـ [راجع تهذيب ابن عساكر ٢ : ٤٠٩ ـ ٤١٤ وتهذيب التهذيب١ : ٢١٦ وميزان الاعتدال ١ : ٨٥ وابن خلكان ١ : ٦٤ وحلية الأولياء ٩ : ٢٣٤ وطبقات الحنابلة ٦٨] .

في المقام ، لا في السفر .

ولم يكن يصلي صلاة العيد إلا في مكان واحد مع الإمام يخرج بهم إلى الصحراء فيصلي هناك ، فيصلي المسلمون كلهم خلفه صلاة العيد ، كما يصلون الجمعة ، ولم يكن أحد من المسلمين يصلي صلاة عيد في مسجد قبيلته ولا بيته كما لم يكونوا يصلون جمعة في مساجد القبائل ، ولا كان أحد منهم بمكة يوم النحر يصلي صلاة عيد على عهد النبي ﷺ وخلفائه بل عيدهم بمنى بعد إفاضتهم من المشعر الحرام ، ورمي جمرة العقبة لهم كصلاة العيد لسائر أهل الأمصار يرمون ثم ينحرون وسائر أهل الأمصار يصلون ثم ينحرون ، والنبي ﷺ لما أفاض من منى نزل بالمحصب ، فاختلف أصحابه أهل التحصيب سنة لاختلافهم في قصده ، هل قصد النزول به أو نزل به لأنه كان أسمح لخروجه .

وهذا مما يبين أن المقاصد كانت معتبرة عندهم في المتابعة . ولما اعتمر عمرة القضية وكانت مكة مع المشركين لم تفتح بعد وكان المشركون قد قالوا : يقدم عليكم قوم قد وهنتهم حمى يثرب وقعد المشركون خلف قعيقان ، وهو جبل المروة ينظرون إليهم فأمر النبي ﷺ أصحابه أن يرملوا ثلاثة أشواط من الطواف ليرى المشركون جلدهم وقوتهم .

وروي أنه دعا لمن فعل ذلك ، ولم يرملوا بين الركنين ؛ لأن المشركين لم يكونوا يرونهم من ذلك الجانب فكان المقصود بالرمل إذ ذاك من جنس المقصود بالجهاد ، فظن بعض المتقدمين أنه ليس من النسك ، لأنه فعل لقصد وزال ، لكن ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ وأصحابه لما حجوا رملوا من الحجر الأسود إلى الحجر الأسود فكملوا الرمل بين الركنين وهذا قدر زائد على ما فعلوه في عمرة القضية ، وفعل ذلك في حجة الوداع مع الأمن العام ، فإنه لم يحج معه إلا مؤمن ، فدل ذلك على أن الرمل صار من سنة الحج فإنه فعل أولاً لمقصود الجهاد ، ثم شرع نسكا ، كما روي في سعي هاجر ، وفي

رمي الجمار ، وفي ذبح الكبش : أنه فعل أولاً لمقصود ، ثم شرعه الله نسكاً وعبادة ، لكن هذا يكون إذا شرع الله ذلك ، وأمر به ، وليس لأحد أن يشرع ما لم يشرعه الله ، كما لو قال قائل : أنا أستحب الطواف بالصخرة سبعاً ، كما يطاف بالكعبة ، أو أستحب أن اتخذ من مقام موسى وعيسى مصلى ، كما أمر الله أن يتخذ من مقام ابراهيم مصلى ، ونحو ذلك ، لم يكن له ذلك لأن الله تعالى يختص ما يختصه من الأعيان والأفعال بأحكام تخصه يمتنع معها قياس غيره عليه ، إما لمعنى يختص به لا يوجد بغيره على قول أكثر أهل العلم ، وإما لمحض تخصيص المشيئة على قول بعضهم ، كما خص الكعبة بأن يحج إليها ويطاف بها . وكما خص عرفات بالوقوف بها ، وكما خص منى برمي الجمار بها وكما خص الأشهر الحرم بتحريمها، وكما خص شهر رمضان بصيامه وقيامه إلى أمثال ذلك .

وإبراهيم ومحمد كل منهما خليل الله ، فإنه قد ثبت في الصحاح من غير وجه عن النبي ﷺ أنه قال: « إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ ابراهيم خليلاً » (١) .

وقد ثبت في الصحيح : أن رجلاً قال للنبي ﷺ يا خير البرية . قال : « ذاك إبراهيم » (٢) .

فإبراهيم أفضل الخلق بعد محمد ﷺ .

وقوله « ذاك ابراهيم » تواضع منه، فإنه قد ثبت عنه ﷺ في الصحيح أنه قال : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر ، آدم فمن دونه تحت لوائي يوم القيامة ولا

---

(١) الحديث رواه ابن ماجه في المقدمة ١١ باب فضائل أصحاب رسول الله - ﷺ - ٩٣ ثنا الأعمش عن عبد الله بن مرة عن أبي الأحوص عن عبد الله قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره .

(٢) الحديث رواه أبو داود في السنة ١٨ وأحمد بن حنبل في المسند ٣ : ١٧٨ ، ١٨٤ (حلبي) .

فخر » [1] إلى غير ذلك من النصوص المبينة أنه أفضل الخلق وأكرمهم على ربه ، وابراهيم هو الإمام الذي قال الله فيه ﴿ **إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً** ﴾ [2] .

وهو الأمة أي القدوة الذي قال الله فيه ﴿ **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لله حَنِيفاً** ﴾ [3] .

وهو الذي بوأه الله مكان البيت ، وأمره أن يؤذن في الناس بالحج إليه ، وقد حرم الله الحرم على لسانه واسماعيل نبأه معه ، وهو الذبيح الذي بذل نفسه لله وصبر على المحنة كما بينا ذلك بالدلائل الكثيرة في غير هذا الموضع ، وأمه هاجر هي التي أطاعت الله ورسوله ابراهيم في مقامها مع ابنها في ذلك الوادي الذي لم يكن به أنيس ، كما قال الخليل ﴿ **رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ** ﴾ [4] .

وكان لابراهيم ولآل ابراهيم من محبة الله وعبادته والإيمان به وطاعته ما لم يكن لغيرهم ، فخصهم الله بأن جعل لبيته الذي بنوه له خصائص لا توجد لغيره، وجعل ما جعله من أفعالهم قدوة للناس وعبادة يتبعونهم فيها ، ولا ريب أن الله شرع لابراهيم السعي ورمي الجمار والوقوف بعرفات بعد ما كان من أمر هاجر واسماعيل وقصة الذبح وغير ذلك ما كان ، كما شرع لمحمد الرمل في الطواف حيث أمره أن ينادي في الناس بحج البيت ، والحج مبناه على الذل والخضوع لله ، ولهذا خص باسم النسك و« النسك» في اللغة العبادة .

---

(١) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الزهد ٣٧ باب ذكر الشفاعة ٤٣٠٨ أنبأنا علي بن زيد بن جدعان عن أبي نضرة عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ وذكره ، ورواه أبو داود في السنة ١٣ وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٥ (حلبي)

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٢٤ .

(٣) سورة النحل آية رقم ١٢٠ .

(٤) سورة ابراهيم آية رقم ٣٧ وتكملة الآية ﴿ **ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون** ﴾ .

قال الجوهري : النسك العبادة ، والناسك العابد ، وقد نسك وتنسك أي تعبد ، ونسك بالضم أي صار ناسكاً ، ثم خص الحج باسم النسك لأنه أدخل في العبادة والذل لله من غيره ولهذا كان فيه من الأفعال ما لا يقصد فيه إلا مجرد الذل لله ، والعبادة له ، كالسعي ورمي الجمار ، قال النبي ﷺ « إنما جعل رمي الجمار والسعي بين الصفا والمروة لإقامة ذكر الله » [1] رواه الترمذي وخص بذلك الذبح الفداء أيضاً دون مطلق الذبح ؛ لأن إراقة الدم لله أبلغ في الخضوع والعبادة له ، ولهذا كان من قبلنا لا يأكلون القربان ، بل تأتي نار من السماء فتأكله ، ولهذا قال تعالى ﴿ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ . فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [2] .

وكذلك كانوا إذا غنموا غنيمة جمعوها ثم جاءت النار فأكلتها ليكون قتالهم محضاً لله لا للمغنم ، ويكون ذبحهم عبادة محضة لله لا لأجل أكلهم .

وأمة محمد ﷺ وسع الله عليهم لكمال يقينهم وإخلاصهم ، وأنهم يقاتلون لله ، ولو أكلوا المغنم ويذبحون لله ولو أكلوا القربان .

ولهذا كان عباد الشياطين والأصنام يذبحون لها الذبائح أيضاً ، فالذبح للمعبود غاية الذل والخضوع له .

ولهذا لم يجز الذبح لغير الله ، ولا أن يسمى غير الله على الذبائح وحرم سبحانه ما ذبح على النصب ، وهو ما ذبح لغير الله وما سمي عليه غير اسم الله ، وإن قصد به اللحم لا القربان ولعن النبي ﷺ من ذبح لغير الله ، ونهى عن ذبائح الجن ، وكانوا يذبحون للجن ، بل حرم الله ما لم يذكر اسم الله عليه مطلقاً كما دل على ذلك الكتاب والسنة في غير موضع ؛

---

(١) الحديث رواه الامام الترمذي في الحج ٦٤ والدارمي في المناسك ٣٦ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٨٣ .

وقـد قال تعـالى ﴿ فَصَلِّ لِـرَبِّكَ وَانْحَـرْ ﴾ (١) أي انحر لـربك كمـا قال الخليـل : ﴿ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَـايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ العَـالَمِينَ ﴾ (٢) وقد قال هو واسمـاعيل إذ يـرفعان القـواعد من البيت : ﴿ رَبَّنَـا تَقَبَّلْ مِنَّـا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيـعُ العَلِيمُ ، رَبَّنَا وَاجْعَلْنَـا مُسْلِمِينِ لَكَ ، وَمِن ذُرِّيَّتِنَـا أُمَّةً مُسْلِمَـةً لَـكَ ، وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾ (٣) فالمناسك هنا مشاعر الحج كلها ، كما قال تعالى ﴿ لِكُـلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ (٤) .

وقال تعالى ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً لِيَـذْكُرُوا اسْمَ الله عَلَىٰ مَـا رَزَقَهُم مِن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ ﴾ (٥) .

وقال ﴿ لَن يَنَالَ الله لُحُومُهَا وَلاَ دِمَـاؤُهَا وَلَكِن يَنَـالُهُ التَّقْـوَىٰ مِنْكُمْ ﴾ (٦) كما قال تعالى ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ الله فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى القُلُوبِ ﴾ (٧) فالمقصود تقـوى القلوب لله وهو عبـادتها لـه وحده دون مـا سـواه بغـايـة العبـوديـة لـه ، والعبـودية فيهـا غايـة المحبـة وغـايـة الـذل والإخـلاص ، وهـذه ملة ابـراهيم الخليل .

وهـذا كله مما يبين أن عبـادة القلوب هي الأصل ، كمـا قـال النبي ﷺ « إن في الجسـد مضغـة إذا صلحت صلح الجسـد كله وإذا فسـدت فسـد الجسد كله ألا وهي القلب » (٨) .

---

(١) سورة الكوثر آية رقم ٢ .
(٢) سورة الانعام آية رقم ١٦٢ .
(٣) سورة البقرة آية رقم ١٢٧ ـ ١٢٨ .
(٤) سورة الحج آية رقم ٦٧ .
(٥) سورة الحج آية رقم ٣٤ .
(٦) سورة الحج آية رقم ٣٧ .
(٧) سورة الحج آية رقم ٣٢ .
(٨) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الايمان ٣٩ ورواه الامام مسلم في المساقاة ١٠٧ وابن ماجه في الفتن ١٤ ، والدارمي في البيوع ١ .

والنية والقصد هما عمل القلب ، فلا بد للمتابعة للرسول ﷺ من اعتبار النية والقصد .

ومن هذا الباب أن النبي ﷺ لما احتجم وأمر بالحجامة وقال في الحديث الصحيح « شفاء أمتي في شرطة محجم ، أو شربة عسل ، أو كية بنار ، وما أحب أن أكتوي » [1] .

كان معلوماً أن المقصود بالحجامة إخراج الدم الزائد الذي يضر البدن ، فهذا هو المقصود ، وخص بالحجامة لأن البلاد الحارة يخرج الدم فيها إلى سطح البدن فيخرج بالحجامة فلهذا كانت الحجامة في الحجاز ونحوه من البلاد الحارة يحصل بها مقصود استفراغ الدم ، وأما البلاد الباردة فالدم يفور فيها إلى العروق فيحتاجون إلى قطع العروق بالفصاد وهذا أمر معروف بالحس والتجربة ، فإنه في زمان البرد تسخن الأجواف وتبرد الظواهر ، لأن شبيه الشيء منجذب إليه ، فإذا برد الهواء برد ما يلاقيه من الأبدان والأرض ، فيهرب الحر الذي فيها من البرد المضاد له إلى الأجواف فيسخن باطن الأرض ، وأجواف الحيوان ، ويأوي الحيوان إلى الأكنان الدافئة ، ولقوة الحرارة في باطن الإنسان يأكل في الشتاء وفي البلاد الباردة أكثر مما يأكل في الصيف وفي البلاد الحارة ؛ لأن الحرارة تطبخ الطعام وتصرفه ، ويكون الماء النابع في الشتاء سخناً لسخونة جوف الأرض ، والدم سخن فيكون في جوف العروق لا في سطح الجلد ، فلو احتجم لم ينفعه ذلك بل قد يضره .

وفي الصيف والبلاد الحارة تسخن الظواهر فتكون البواطن باردة فلا ينهضم الطعام فيها كما ينهضم في الشتاء ، ويكون الماء النابع بارداً لبرودة باطن الأرض ، وتظهر الحيوانات إلى البراري لسخونة الهواء ، فهؤلاء قد لا

(١)الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الطب ٢٣ باب الكي ٣٤٩١ حدثنا أحمد بن منيع عن ابن عباس . قال وذكره ، ورواه الامام البخاري في الطب ٤ ، ١٥ والامام مسلم في السلام ٧١ وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٢٤٦ ، ٣ : ٣٤٣ ، ٤ : ١٤٦ حلبي .

ينفعهم الفصاد بل قد يضرهم والحجامة أنفع لهم .

وقوله « شفاء أمتي » إشارة إلى من كان حينئذ من أمته وهم كانوا بالحجاز ، كما قال ما بين المشرق والمغرب قبلة ، لأن هذا كان قبلة أمتي حينئذ ، لأنهم كانوا بالمدينة وما حولها ، وهذا كما أنه في آخر الأمر بعد أن فرض الحج سنة تسع أو سنة عشر وقت ثلاث مواقيت للمدينة ولنجد وللشام ، ولما فتح اليمن وقت لهم يلملم ثم وقت ذات عرق لأهل العراق ، وهذا كما أنه فرض صدقة الفطر صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير عن كل صغير وكبير ذكراً وأنثى من المسلمين ، وكان هذا هو الفرض على أهل المدينة ، لأن الشعير والتمر كان قوتهم ، ولهذا كان جماهير العلماء على أنه من اقتات الأرز والذرة ونحو ذلك يخرج من قوته ، وهو احدى الروايتين عن أحمد ، رهل يجزيه أن يخرج التمر والشعير إذا لم يكن يقتاته . فيه قولان للعلماء وكان الصحابة يرمون بالقوس العربية الطويلة التي تشبه قوس الندف وفتح الله لهم بها البلاد ، وقد رويت آثار في كراهة الرمي بالقوس الفارسية عن بعض السلف لكونها كانت شعار الكفار ، فأما بعد أن اعتادها المسلمون وكثرت فيهم وهي في أنفسها أنفع في الجهاد من تلك القوس ، فلا تكره في أظهر قولي العلماء ، أو قول أكثرهم لأن الله تعالى قال : ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُم مِن قُوَّةٍ وَمِن رِبَاطِ الخَيْلِ** ﴾ [1] .

والقوة في هذا أبلغ بلا ريب ، والصحابة لم تكن هذه عندهم فعدلوا عنها إلى تلك ، بل لم يكن لهم غيرها ، فينظر من قصدهم بالرمي ، أكان لحاجة إليها إذ ليس لهم غيرها ؟

أم كان لمعنى فيها ؟

ومن كره الرمي بها كرهه لمعنى لازم ، كما يكره الكفر وما يستلزم الكفر ، أم كرهها لكونها كانت من شعائر الكفار فكره التشبه بهم وهذا كما أن

---

(١) سورة الانفال آية رقم ٦٠ .

الكفـار من اليهود والنصـارى إذا لبسوا ثـوب الغيـار من أصفـر وأزرق نهى عن لباسه لما فيه من التشبه بهم ، وإن كان لو خلا عن ذلـك لم يكره ، ومن بـلاد لا يلبس هـذه الملابس عنـدهم إلا الكفار فنهى عن لبسهـا ، والـذين اعتـادوا ذلك من المسلمين لا مفسدة عندهم في لبسها .

ولهذا كره أحمد وغيره لباس السواد لما كان في لباسه تشبه بمن يظلم ، أو يعين على الظلم ، وكره بيعـه لمن يستعين بلبسه على الـظلم ، فأمـا إذا لـم يكن فيه مفسدة لم ينه عنه .

وكره من كره من الصحـابة والتـابعين بيع الأرض الخـراجية لأن المسلم المشتري لها إذا أدى الخراج عنها أشبـه أهل الـذمة في التـزام الجزيـة ، فإن الخـراج جـزيــة الأرض، وإن لم يؤدهـا ظلم المسلمين بــإسقـاط حقهم من الأرض .

لم يكرهوا بيعها لكونهـا وقفاً ، فـإن الوقف إنمـا منع من بيعـه لأن ذلك يبطل الوقف ، ولهذا لا يباع ولا يوهب ولا يورث ، والأرض الخـراجية تنتقـل الى الوارث باتفاق العلماء ، وتجوز هبتها ، والمتهب المشتري يقوم فيهـا مقام البـائع فيؤدي مـا كـان عليـه من الخـراج ، وليس في بيعهـا مضـرة لمستحقي الخراج كما في بيع الوقف .

وقد غلط كثير من الفقهاء فظنوا أنهم كرهوا بيعها لكـونها وقفـاً ، واشتبه عليهم الأمر ؛ لأنهم رأوا الآثار مـروية في كـراهة بيعهـا ، وقد عـرفوا أن عمـر جعلها فيئاً لم يقسمها قط ، وذلك في معنى الوقف فظنوا أن بيعها مكـروه لهذا المعنى ، ولم يتأملوا حق التأمل فيرون أن هـذا البيع ليس هـو من جنس البيع المنهى عنه في الوقف فإن هذه يصرف فعلها إلى مستحقها قبل البيـع وبعده ، وعلى حـد واحد ، ليست كـالدار التي إذا بيعت تعـطل نفعها عن أهـل الوقف وصارت للمشتري .

وأعجب من ذلك أن طائفة من هؤلاء قالوا : مكة . إنما كره بيع رباعها

لكـونها فتحت عنـوة ، ولم تقسم أيضاً وهم قـد قالـوا مع جميـع النـاس : إن الأرض العنوة التي جعلت أرضها فيئاً يجوز بيع مساكنها ، والخراج إنمـا جعل على المزارع لا على المساكن ، فلو كانت مكة قد جعلت أرضها للمسلمين ، وجعل عليها خراج لم يمتنع بيع مساكنها لذلك ، فكيف ومكة أقـرها النبي ﷺ بيد أهلها على ما كانت عليه مساكنها ومزارعهـا ولم يقسمها ولم يضـرب عليها خراجاً ، ولهذا قال من قال : إنها فتحت صلحاً ، ولا ريب أنها فتحت عنوة ، كمـا تدل عليـه الأحاديث الصحيحـة المتـواتـرة ، لكن النبي ﷺ أطلق أهلهـا جميعهم فلم يقتـل إلا من قاتله ، ولم يسب لهم ذريـة ، ولا غنم لهم مـالاً ، ولهذا سموا الطلقاء .

وأحمد وغيره من السلف إنما عللوا ذلك بكـونها فتحت عنـوة مع كـونها مشتـركة بين المسلمين ، كمـا قال تعـالى ﴿ **وَالمَسْجِدِ الحَـرَامِ الَّذِي جَعَلْنَـاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً العَاكِفُ فِيهِ وَالبَادِ** ﴾ (١) .

وهذه هي العلة التي اختصت بها مكة دون سائر الأمصار فإن الله أوجب حجها على جميع الناس ، وشرع اعتمارها دائمـاً فجعلها مشتـركة بين جميـع عباده ، كما قال ﴿ **سَوَاءً العَاكِفُ فِيهِ وَالبَادِ** ﴾ (٢) .

ولهذا كانت منى وغيرها من المشاعر ، من سبق إلى مكان فهو أحق بـه حتى ينتقل عنه ، كالمساجد .

ومكة نفسها من سبق إلى مكان فهو أحق به ، والإنسان أحق بمسكنه ما دام محتاجاً إليه ، وما استغنى عنه من المنافع فعليه بذله بـلا عوض لغيـره من الحجيج وغيرهم ، ولهذا كانت الأقوال في إجارة دورهـا وبيع ربـاعها ثـلاثة : قيل : لا يجوز لا هذا ، ولا هذا .

---

(١) سورة الحج آية رقم **٢٥** .

(٢) سورة الحج آية رقم **٢٥** وتكملة الآية ﴿ **ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم** ﴾ .

وقيل : يجوز الأمران .

والصحيح أنه يجوز بيع رباعها ، ولا يجوز إجارتها .

وعلى هـذا تدل الآثـار المنقولـة في ذلك عن النبي ﷺ وعن الصحابـة رضي الله عنهم ، فإن الصحابة كانوا يتبايعون دورها ، والدور تورث وتوهب .

وإذا كانت تورث وتـوهب جاز أن تبـاع بخلاف الـوقف فإنـه لا يباع ولا يورث ولا يوهب .

وكذلك أم الـولد من لم يجـوز بيعها لم يجـوز هبتها ولا أن تـورث وأما إجـارتها فقـد كانت تـدعى السوائب ـ على عهـد النبي ﷺ ، وأبي بكر وعمـر رضي الله عنهما من احتاج سكن ، ومن استغنى أسكن ؛ لأن المسلمين كلهم محتـاجون إلى المنـافع فصـارت كمنافـع الأسواق والمسـاجد والـطرقات التي يحتاج إليها المسلمون فمن سبق إلى شيء منها فهو أحق به ، وما استغنى عنه أخذه غيّره بلا عوض ، وكـذلك المبـاحات التي يشتـرك فيها النـاس ، ويكون المشتـري لها استفـاد بذلـك أنه أحق من غيـره ما دام محتـاجـاً ، وإذا بـاعهـا الإنسان قطع اختصاصه بها وتوريثه إياها ، وغير ذلك من تصرفاته ولهـذا له أن لا يبذله إلا بعـوض ، والنبي ﷺ منَّ على أهل مكـة ، فإن الأسيـر يجوز المن عليه للمصلحة ، وأعطاهم مع ذلـك ذراريهم وأموالهم ، كمـا منّ على هوازن لما جـاؤوا مسلمين بـإحـدى الـطائفتين : السبي أو المـال ، فـاختـاروا السبي فـأعطاهم السبي وكـان ذلك بعـد القسمة ، فعوض عن نصيبـه من لم يـرض بـأخذه منهم ، وكـان قد قسم المـال فلم يرده عليهم وقـريش لم تحاربـه كمـا حاربته هوازن ، وهو إنما منَّ عـلى من لم يقاتله منهم كما قال : من أغلق بـابه فهو آمن ، ومن ألقى سلاحه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن » .

فلمـا كف جمهورهم عن قتـاله ، وعـرف أنهم مسلمـون أطلقهم ، ولم يغنم أموالهم ولا حريمهم ، ولم يضـرب الرق لا عليهم ولا على أولادهم بـل

سماهم الطلقاء من قريش ، بخلاف ثقيف فإنهم سموا العتقاء ، فإنه اعتق أولادهم بعد الاسترقاق والقسمة وكان في هذا ما دل على أن الإمام يفعل بالأموال والرجال والعقار والمنقول ما هو أصلح ، فإن النبي ﷺ فتح خيبر فقسمها بين المسلمين ، وسبى بعض نسائها وأقر سائرهم مع ذراريهم حتى أجلوا بعد ذلك ، فلم يسترقهم ومكة فتحها عنوة ولم يقسمها لأجل المصلحة . وقد تنازع العلماء في الأرض إذا فتحت عنوة هل يجب قسمها كخيبر لأنها مغنم ، أو تصير فيئاً كما دلت عليه سورة الحشر ، وليست الأرض من المغنم ، أو يخير الإمام فيما بين هذا وهذا على ثلاثة أقوال ، وأكثر العلماء على التخيير، وهو الصحيح ، وهو مذهب أبي حنيفة وأحمد في المشهور عنه وغيرهما .

ولو فتح الإمام بلداً وغلب على ظنه أن أهله يسلمون ويجاهدون جاز أن يمن عليهم بأنفسهم وأموالهم وأولادهم، كما فعل النبي ﷺ بأهل مكة فإنهم أسلموا كلهم بلا خلاف ، بخلاف أهل خيبر فإنه لم يسلم منهم أحد ، فأولئك قسم أرضهم لأنهم كانوا كفاراً مصرين على الكفر ، وهؤلاء تركها لهم ؛ لأنهم كلهم صاروا مسلمين .

والمقصود بالجهاد أن تكون كلمة الله هي العليا ، وأن يكون الدين كله لله .

وقد كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم ليتألفهم على الإسلام ، فكيف لا يتألفهم بإبقاء ديارهم وأموالهم .

وهم لما حضروا معه حنيناً أعطاهم من غنائم حنين ما تألفهم به ، حتى عتب بعض الأنصار ، كما في الصحيحين عن أنس بن مالك « أن ناساً من الأنصار قالوا يوم حنين حين أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء ، فطفق رسول الله ﷺ يعطي رجالاً من قريش المائة من الإبل ، فقالوا : يغفر الله لرسول الله يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم ـ قال أنس :

فحدث ذلك النبي ﷺ من قولهم ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى الأنصار فجمعهم في قبة من أدم فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله ﷺ فقال : ما حديث بلغني عنكم ؟! فقال له فقهاء الأنصار أما ذوو رأينا يا رسول الله فلم يقولوا شيئاً ، وأما أناس منا حديثة أسنانهم فقالوا : يغفر الله لرسول الله يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم .

فقال رسول الله ﷺ : فإني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر أتألفهم ، أفلا ترضون أن يذهب الناس بالأموال وترجعون إلى رحالكم برسول الله فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به، فقالوا: بلى يا رسول الله قد رضينا، قال : فإنكم ستجدون بعدي أثرة شديدة فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله فإني على الحوض ، قالوا : سنصبر - وفي رواية لو سلك الناس وادياً أو شعباً ، وسلكت الأنصار وادياً أو شعباً لسلكت وادي الأنصار وشعبهم ، الناس دثار والأنصار شعار ، ولولا الهجرة لكنت أمرءاً من الأنصار ، وحدثهم حتى بكوا رضي الله تعالى عنهم »[1] .

فهذا كله بذل وعطاء لأجل إسلام الناس ، وهو المقصود بالجهاد .

ومن قال إن الإمام يجب عليه قسمة العقار والمنقول مطلقاً ، فقوله في غاية الضعف ، مخالف لكتاب الله وسنة رسوله المنقولة بالتواتر، وليس معه حجة واحدة توجب ذلك ، فإن قسمة النبي ﷺ خير تدل على جواز ما فعل ، لا تدل على وجوبه ، إذ الفعل لا يدل بنفسه على الوجوب وهو لم يقسم مكة ولا شك أنها فتحت عنوة ، وهذا يعلمه ضرورة من تدبر الأحاديث ، وكذلك المنقول من قال : إنه يجب قسمه كله بالسوية بين الغانمين في كل غزاة .

---

(١) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب مناقب الأنصار (١) باب مناقب الأنصار ٣٧٧٨ حدثنا أبو الوليد ، حدثنا شعبة عن أبي التياح قال : سمعت أنساً رضي الله عنه يقول : وذكره ، ورواه الامام مسلم في الزكاة ١٣٣ - ١٣٥ ، ١٣٩ ، والترمذي في المناقب ٦٥ ، وابن ماجه في المقدمة ١١ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٤١٠ ، ٤١٩ ، ٤٦٩ ، ٣ : ٦٧ ، ٧٧ ، ١٥٦ ، ١٥٨ (حلبي)

فقـوله ضعيف ، بـل يجوز فيـه التفضيل للمصلحـة كما كـان النبي ﷺ يفضـل في كثير من المغـازي والمؤلفـة قلوبهم الـذين أعـطاهم النبي ﷺ من غنائم خيبر فيما أعطاهم قولان :

أحـدهمـا : أنـه من الخمس ، والثـاني أنـه من أصـل الغنيمـة . وهـذا أظهر .

فإن الذي أعـطاهم إياه هـو شيء كثير لا يحتمله الخمس . ومن قـال : العطاء كان من خمس الخمس فلم يدر كيف وقع الأمـر ولم يقل هـذا أحد من المتقـدمين ، هـذا مـع قـولـه « ليس لي ممـا أفـاء الله عليكم إلا الخمس ، والخمس مـردود عليكم »[1] وهذا لأن المؤلفـة قلوبهم كـانـوا من العسكـر ، ففضلهم في العـطاء للمصلحـة كمـا كـان يفضلهم فيمـا يقسمـه من الفيء للمصلحة .

وهذا دليل على أن الغنيمة للإمام أن يقسمها بـاجتهاده كمـا يقسم الفيء باجتهاده ، إذا كان إمام عدل قسمها بعلم وعـدل ، ليس قسمتها بين الغـانمين كقسمة الميراث بين الورثة ، وقسمة الصدقات في الأصناف الثمـانية ، ولهـذا قـال في الصدقـات ، إن الله لم يرض فيهـا بقسمة نبي ولا غيـره ولكن جعلها ثمانية أصناف ، فإن كنت من تلك الأصناف أعطيتك » فعلم أن ما أفاء الله من الكفار بخلاف ذلك .

---

(١) الحديث رواه صاحب الموطأ في كتاب الجهاد ١٣ بـاب ما جـاء في الغلول ٢٢ حدثني يحيى عن مالك ، عن عبد الرحمن بن سعيـد عن عمرو بن شعيب أن رسـول الله ـ ﷺ ـ حين صدر من حنين ـ وهو يريد الجعرانة ، سأله الناس حتى دنت نـاقته من شجـرة فتشبكت بردائـه حتى نزعه عن ظهـره ، فقال رسـول الله ـ ﷺ : ردوا علي ردائي ، وذكره . قـال ابن عبد البـر : لا خلاف عن مالك في إرسالـه ، ووصله النسائي في ٣٨ كتـاب قسم الفيء حديث ٧ ورواه أبـو داود في الجهـاد ١٢١ ـ ١٤٩ وأحمد بن حنبـل في المسنـد ٤ : ١٢٨ ، ٥ : ٣١٦ ، ٣١٩ ، ٣٢٦ (حلبي)

وقد قسم النبي ﷺ من خيبر لأهل السفينة الذين قدموا مع جعفر ، ولم يقسم لأحد غاب عنها غيرهم وقسم من غنائم بدر لطلحة والزبير ولعثمان .

وكان قد أقام بالمدينة ، وهؤلاء الذين كانوا يريدون القتال وكانوا مشغولين ببعض مصالح المسلمين الذين هم فيها في جهاد . وأيضاً أهل السفينة وطلحة والزبير وعثمان لم يكونوا كغيرهم والقتال لم يكن لأجل الغنيمة ، فليست الغنيمة كمباح اشترك فيه ناس مثل الاحتشاش والاحتطاب والاصطياد ، فإن ذلك الفعل مقصوده هو اكتساب المال ، بخلاف الغنيمة ، بل من قاتل فيها لأجل المال لم يكن مجاهداً في سبيل الله ، ولهذا لم تبح الغنائم لمن قبلنا وأبيحت لنا معونة على مصلحة الدين .

فالغنائم أبيحت لمصلحة الدين وأهله ، فمن كان قد نفع المجاهدين بنفع استعانوا به على تمام جهادهم جعل منهم وإن لم يحضر . ولهذا قال النبي ﷺ « المسلمون يد واحدة يسعى بذمتهم أدناهم ، ويرد متسريهم على قاعدهم » [1] فإن المتسري إنما تسرى بقوة القاعد ، فالمعاونون للمجاهدين من المجاهدين ولبسط هذه الأمور موضع آخر .

والمقصود هنا : ذكر متابعة النبي ﷺ وهو أنه يعتبر فيه متابعته في قصده ، فإذا قصد مكاناً للعبادة فيه كان قصده لتلك العبادة سنة ، وأما إذا صلى فيه اتفاقاً من غير قصد لم يكن قصده للعبادة سنة ، ولهذا لم يكن جمهور الصحابة يقصدون متشابهته في ذلك .

---

(١) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الفرائض ٢١ باب إثم من تبرأ من مواليه ٦٧٥٥ بسنده عن ابراهيم التيمي عن أبيه قال : علي - رضي الله عنه وذكره وفيه زيادة . ورواه في المدينة (١) ، والجزية ١٠ والاعتصام ٥ ورواه الامام مسلم في الحج ٤٦٧ ، ٤٧٠ وفي العتق ٢٠ ، وأبو داود في المناسك ٩٥ والجهاد ١٤٧ والديات ١١ والترمذي في السير ٢٥ والنسائي في القسامة ١٠ - ١٤ وابن ماجه في الديات ٣١ وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٨١ ، ١١٩ ، ١٢٢ ، ١٢٦ ، ١٥١ ، ٢ : ١٩٢ ، ٢١١ ، ٣٩٨ (حلبي) .

وابن عمر رضي الله عنهما مع أنه كان يحب مشابهته في ظاهر الفعل لم يكن يقصد الصلاة إلا في الموضع الذي صلى فيه لا في كل موضع نزل بـه ، ولهذا رخص أحمد بن حنبل في ذلك إذا كان شيئاً يسيراً كما فعله ابن عمـر ، ونهى عنـه رضي الله عنه إذا كثـر لإنه يفضي إلى المفسـدة ، وهي اتخاذ آثـار الأنبيـاء مساجـد وهي التي تسمى المشـاهـد ، وأمـا أحـدث في الإسـلام من المساجد والمشاهد على القبور والآثار فهو من البدع المحـدثة في الإسـلام ، من فعل من لم يعرف شريعة الإسلام ، وما بعث الله به محمداً ﷺ من كمـال التوحيد وإخـلاص الدين لله ، وسـد أبواب الشـرك التي يفتحها الشيـطان لبني آدم .

ولهذا يوجد من كان أبعد عن التوحيـد وإخلاص الـدين لله ومعرفـة دين الإسـلام هم أكثر تعـظيماً لمـواضع الشـرك .

فالعارفـون بسنة رسـول الله ﷺ وحديثـه أولى بالتـوحيد وإخـلاص الدين لله ، وأهل الجهل بذلك أقرب إلى الشرك والبدع .

ولهذا يوجـد ذلك في الـرافضة [1] أكثـر مما يـوجد في غيـرهم ، لأنهم أجهل من غيرهم ، وأكثر شركاً وبدعـاً ، ولهذا يعـظمون المشـاهد أعـظم من غيرهم ، ويخربون المساجد أكثر من غيرهم ، فالمساجد لا يصلون فيها جمعة ولا جماعة ، ولا يصلون فيها إن صلوا إلا أفرادا وأما المشاهد فيعظمونها أكثـر من المسـاجـد حتى قـد يـرون أن زيـارتهـا أولى من حــج بيت الله الحـرام ، ويسمونها الحج الأكبر . وصنف ابن المفيـد منهم كتابـاً سماه « منـاسك حـج المشاهد » وذكر فيه من الأكاذيب والأقوال ما لا يوجد في سائر الطوائف ، وإن كان في غيرهم أيضاً نوع من الشرك والكذب والبدع ، لكن هو فيهم أكثر .

وكلما كان الرجل أتبع لمحمد ﷺ كان أعظم توحيداً لله وإخلاصاً له في

---

(١) سبق الحديث عن الرافضة في كلمة وافية .

الدين ، وإذا بعد عن متابعته نقص من دينه بحسب ذلك ، فإذا كثر بعده عنه ظهر فيه من الشرك والبدع ما لا يظهر فيمن هو أقرب منه إلى اتباع الرسول والله إنما أمر في كتابه وسنة رسوله بالعبادة في المساجد ، والعبادة فيها هي عمارتها .

قال تعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ (١) ولم يقل مشاهد الله .

وقال تعالى ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ (٢) .

ولم يقل عند كل مشهد ، فإن أهل المشاهد ليس فيهم إخلاص الدين لله ، بل فيهم نوع من الشرك .

وقال تعالى ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ، إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ ﴾ (٣) الآيات وفي الترمذي عن النبي ﷺ أنه قال « إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان ، ثم قرأ هذه الآية » (٤) .

فإن المراد بعمارتها ع(ه)نها بالعبادة فيها كالصلاة والاعتكاف يقال : مدينة عامرة إذا كانت مسكونة ، ومدينة خراب إذا لم يكن فيها ساكن .

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١١٤ .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ٢٩ .

(٣) سورة التوبة آية رقم ١٧ ـ ١٨ .

(٤) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب المساجد ١٩ باب لزوم المساجد وانتظار الصلاة ٨٠٢ عن عمرو بن الحارث عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد ، عن رسول الله ـ ﷺ قال : وذكره ورواه الدارمي في الصلاة ٢٣ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٦٨، ٧٦ (حلبي) .

ومنه قوله تعالى ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحَاجِّ وَعِمَارَةَ المَسْجِدِ الحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللهِ ﴾ (١) .

وأما نفس بناء المساجد فيجوز أن يبنيها البر والفاجر ، والمسلم والكافر ، وذلك يسمى بناء ، كما قال النبي ﷺ : « من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنة » (٢) .

فبين الله تعالى أن المشركين ما كان لهم عمارة مساجد الله مع شهادتهم على أنفسهم بالكفر .

وبين أنما يعمرها من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله ، وهذه صفة أهل التوحيد وإخلاص الدين لله ، الذين لا يخشون إلا الله ، ولا يرجون سواه ، ولا يستعينون إلا به ، ولا يدعون إلا إياه ، وعمار المشاهد يخافون غير الله ، ويرجون غيره ، ويدعون غيره وهو سبحانه لم يقل : إنما يعمر مشاهد الله ، فإن المشاهد ليست بيوت الله ، إنما هي بيوت الشرك ، ولهذا ليس في القرآن آية فيها مدح المشاهد ، ولا عن النبي ﷺ في ذلك حديث ، وإنما ذكره الله عمن كان قبلنا أنهم بنوا مسجداً على قبر أهل الكهف ، وهؤلاء من الذين نهانا الله أن نتشبه بهم حيث قال ﷺ في الحديث الصحيح :

---

(١) سورة التوبة آية رقم ١٩ .

(٢) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب المساجد ١ باب من بنى لله مسجداً ٧٣٥ عن الوليد بن أبي الوليد عن عثمان بن عبد الله بن سراقة العدوي ،و عن عمر بن الخطاب ، قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : وذكره .

في الزوائد : حديث عمر مرسل . فإن عثمان بن عبد الله بن سراقة روى عن عمر بن الخطاب وهو جده لأمه ، ولم يسمع منه قاله المزي في التهذيب ، ورواه ابن حبان في صحيحه بهذا الإسناد .

ورواه الامام مسلم في المساجد ٢٤،٢٥ وفي الزهد ٤٣ - ٤٤ والترمذي في المواقيت ١٢٠ والنسائي في المساجد ١ .

« إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك »[1] . ففي هذا الحديث ذم أهل المشاهد ، وكذلك سائر الأحاديث الصحيحة ، كما قال « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما فعلوا »[2] .

وقال : « أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة » .

ثم أهل المشاهد كثير من مشاهدهم أو أكثرها كذب فإن الشرك مقرون بالكذب في كتاب الله كثيراً ، قال تعالى : ﴿ **وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ حُنَفَاءَ لله غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ** ﴾[3] وقال النبي ﷺ « عدلت شهادة الزور الإشراك بالله » قالها ثلاثاً[4] .

وكذلك كالمشهد الذي بني بالقاهرة على رأس الحسين وهو كذب باتفاق أهل العلم ، ورأس الحسين لم يحمل إلى هناك أصلاً وأصله من عسقلان .

---

(١) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الأنبياء ٥٠ ، ٣٤٥٣ - ٣٤٥٤ بسنده عن ابن عباس - رضي الله عنهما ، ورواه الامام مسلم في المساجد ١٩ : ٢٠ .

(٢) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الأنبياء ٥٠ باب ما ذكر عن بني اسرائيل عن الزهري قال أخبرني عبيد الله بن عبد الله أن عائشة وابن عباس - رضي الله عنهم قالا : لما نزل برسول الله - ﷺ - طفق يطرح خميصة على وجهه فإذا اغتم كشفها عن وجهه فقال - وهو كذلك - وذكره .

(٣) سورة الحج آية رقم ٣٠ - ٣١ .

(٤) الحديث رواه ابن ماجه في الأحكام ٣٢ باب شهادة الزور ٢٣٧٢ - ثنا سفيان العصفري ، عن أبيه ، عن حبيب بن النعمان الأسدي ، عن خريم بن فاتك الأسدي قال : صلى النبي ﷺ الصبح فلما انصرف قام قائماً فقال : وذكره .
ورواه الترمذي في الشهادات ٣ ، وأبو داود في الأقضية ١٥ وأحمد بن حنبل في المسند ٤ : ١٧٨ - ٢٣٣ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ (حلبي) .

وقد قيل : إنه كان رأس راهب ، ورأس الحسين لم يكن بعسقلان ، وإنما أحدث هذا في أواخر دولة الملاحدة بني عبيد .

وكذلك مشهد علي ـ رضي الله عنه ـ إنما أحدث في دولة بني بويه .

وقال محمد بن عبد الله مطين الحافظ وغيره: إنما هو قبر المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، وعلي رضي الله عنه إنما دفن بقصر الإمارة بالكوفة ، ودفن معاوية بقصر الإمارة بمصر ، خوفاً عليهم إذا دفنوا في المقابر البارزة أن ينبشهم الخوارج المارقون ، فإن الخوارج المارقون كانوا تعاهدوا على قتل الثلاثة ، فقتل ابن ملجم عليا وجرح صاحبه معاوية ، وعمرو كان استخلف رجلاً اسمه خارجة فقتله الخارجي ، وقال : أردت عمراً وأراد الله خارجة ، فصارت مثلاً .

فالمقصود أن هذا المشهد إنما أحدث في دولة الملاحدة دولة بني عبيد ، وكان فيهم من الجهل والضلال ومعاضدة الملاحدة وأهل البدع من المعتزلة والرافضة أمور كثيرة ، ولهذا كان في زمنهم قد تضعضع الإسلام تضعضعاً كثيراً ، ودخلت النصارى إلى الشام فإن بني عبيد ملاحدة منافقون ليس لهم غرض في الإيمان بالله ورسوله، ولا في الجهاد في سبيل الله ، بل في الكفر والشرك ، ومعاداة الإسلام بحسب الإمكان وأتباعهم كلهم أهل بدع وضلال ، فاستولت النصارى في دولتهم على أكثر الشام ، ثم قيض الله من ملوك السنة مثل : نور الدين ، وصلاح الدين وإخوته وأتباعهم ، ففتحوا بلاد الإسلام ، وجاهدوا الكفار والمنافقين .

ونهى النبي ﷺ عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها ، لأن المشركين يسجدون للشمس حينئذ والشيطان يقارنها ، وإن كان المسلم المصلي لا يقصد السجود لها ، لكن سد الذريعة لئلا يتشبه بالمشركين في بعض الأمور التي يختصون بها فيفضي إلى ما هو شرك ولهذا نهى عن تحري الصلاة في هذين الوقتين هذا لفظ ابن عمر الذي في الصحيحين ، فقصد

الصلاة فيها منهي عنه .

وأما إذا حدث سبب تشرع الصلاة لأجله : مثل تحية المسجد وصلاة الكسوف ، وسجود التلاوة ، وركعتي الطواف ، وإعادة الصلاة مع إمام الحي ونحو ذلك ، فهذه فيها نزاع مشهور بين العلماء والأظهر جواز ذلك واستحبابه ، فإنه خير لا شر فيه ، وهو يفوت إذا ترك ، وإنما نهى عن قصد الصلاة وتحريها في ذلك الوقت لما فيه من مشابهة الكفار بقصد السجود ذلك الوقت ، فما لا سبب له قد قصد فعله في ذلك الوقت وإن لم يقصد الوقت ، بخلاف ذي السبب فإنه فعل لأجل السبب ، فلا تأثير فيه للوقت بحال ، ونهى النبي ﷺ عن الصلاة في المقبرة عموماً فقال : الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام [1] رواه أهل السنن .

وقد روي مسنداً ومرسلاً ، وقد صحح الحفاظ أنه مسند فإن الحمام مأوى الشياطين ، والمقابر نهى عنها لما فيه من التشبه بالمتخذين القبور مساجد ، وإن كان المصلي قد لا يقصد الصلاة لأجل فضيلة تلك البقعة ، بل اتفق له ذلك . لكن فيه تشبه بمن قصد ذلك ، فنهى عنه كما ينهي عن الصلاة المطلقة وقت الطلوع والغروب ، وإن لم يقصد فضيلة ذلك الوقت لما فيه من التشبه بمن يقصد فضيلة ذلك الوقت وهم المشركون ، فنهيه عن الصلاة في هذا الزمان كنهيه عن الصلاة في ذلك المكان ، فلما كان الشرك الذي أضل أكثر بني آدم أصله وأعظمه من عبادة البشر والتماثيل المصورة على صورهم ، فإن المشركين قد اعتادوا آلهة يلدون ويولدون ، ويرثون ويورثون ، ويكونون من شيء من الأشياء ، فسألوا النبي ﷺ عن إلهه الذي يعبده : من

---

(١) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب المساجد ٤ باب المواضع التي تكره فيها الصلاة ٧٤٥ - عن عمرو بن يحيى ، عن أبيه ، وحماد بن سلمة ، عن عمرو بن يحيى ، عن أبيه ، عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره .
ورواه أبو داود في كتاب الصلاة ٢٤ ، والترمذي في الصلاة ١١٩ والدارمي في الصلاة ١١١ وأحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٨٣ (حلبي)

أي شيء هو ؟

أمن كذا ، أم من كذا ؟ وممن ورث الدنيا ؟ ولمن يورثها ؟ فقال تعالى ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ . اللهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ (1)

وفي حديث أبي بن كعب ، لأنه ليس أحد يولد إلا يموت ولا أحد يرث إلا يورث .

يقول : كل من عبد من دون الله قد ولد مثل المسيح والعزير وغيرهما من الصالحين وتماثيلهم ، ومثل الفراعنة المدعين الالهية ، فهذا مولود يموت ، وهو وإن كان ورث من غيره ما هو فيه ، فإذا مات ورثه غيره والله سبحانه حي لا يموت ، ولا يورث ، سبحانه وتعالى ، والله أعلم وصلى الله على محمد .

---

(1) سورة الاخلاص كامله .

سورة الفلق

وقال شيخ الإسلام ، ناصر السنة ، قامع البدعة تقي الدين أحمد بن تيمية ، نفعنا المولى بعلومه ـ وهو مما كتبه في القلعة .

فصل

في ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ (١)

قال تعالى ﴿ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ﴾ (٢)

وقال تعالى ﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً ﴾ (٣)

والفلق : فعل بمعنى مفعول ، كالقبض بمعنى المقبوض فكل ما فلقه الرب فهو فلق .

قال الحسن : الفلق كل ما انفلق من شيء ، كالصبح والحب والنوى قال الزجاج : وإذا تأملت الخلق بان لك أن أكثره عن انفلاق كالأرض بالنبات والسحاب بالمطر .

وقد قال كثير من المفسرين : انفلق الصبح ، فإنه يقال : هذا أبين من فلق الصبح ، وفرق الصبح .

---

(١) سورة الفلق آية رقم ١ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ٩٥ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ٩٦ .

وقال بعضهم : الفلق الخلق كله ، وأما من قال : إنه واد في جهنم أو شجرة في جهنم ، أو أنه اسم من أسماء جهنم ، فهذا أمر لا تعرف صحته ، لا بدلالة الاسم عليه ، ولا بنقل عن النبي ﷺ ولا في تخصيص ربوبيته بذلك حكمة ، بخلاف ما إذا قال رب الخلق أو رب كل ما انفلق ، أو رب النور الذي يظهره على العباد بالنهار ، فإن في تخصيص هذا بالذكر ما يظهر به عظمة الرب المستعاذ به .

وإذا قيل : الفلق يعم ويخص ، فبعمومه للخلق أستعيذ من شر ما خلق .

وبخصوصه للنور النهاري أستعيذ من شر غاسق إذا وقب . فإن الغاسق قد فسر بالليل ، كقوله ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾ [١] .

وهذا قول أكثر المفسرين ، وأهل اللغة قالوا : ومعنى ﴿ وقب ﴾ دخل في كل شيء .

قال الزجاج « الغاسق » البارد ، وقيل : الليل غاسق لأنه أبرد من النهار .

وقد روى الترمذي والنسائي عن عائشة « أن النبي ﷺ نظر إلى القمر فقال : يا عائشة تعوذي بالله من شره ، فإنه الغاسق الذي وقب » [٢] .

وروي من حديث أبي هريرة مرفوعاً « أن الغاسق النجم » وقال ابن زيد : هو الثريا ، وكانت الأسقام والطواعين تكثر عند وقوعها ، وترتفع عند طلوعها ، وهذا المرفوع قد ظن بعض الناس منافاته لمن فسره بالليل فجعلوه

---

(١) سورة الإسراء آية رقم ٧٨ .

(٢) الحديث رواه الامام الترمذي في التفسير سورة ١١٣ ـ ١١٤ آية رقم ١ ، ورواه الامام أحمد بن حنبل في المسند ٦ : ٦١ ، ٢٠٦ ، ٢١٥ ، ٢٣٧ ، ٢٥٢ (حلبي) .

قولاً آخر ، ثم فسروا وقوبه بسكونه .

قال ابن قتيبة : ويقال : الغاسق القمر إذا كسف واسود ومعنى وقب دخل في الكسوف ، وهذا ضعيف ، فإن ما قال رسول الله ﷺ لا يعارض بقول غيره ، وهو لا يقول إلا الحق ، وهو لم يأمر عائشة بالاستعاذة منه عند كسوفه ، بل مع ظهوره ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ والنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً** ﴾ [1] .

فالقمر آية الليل ، وكذلك النجوم إنما تطلع فترى بالليل فأمره بالاستعاذة من ذلك أمر بالاستعاذة من آية الليل ودليله وعلامته ، والدليل مستلزم للمدلول ، فإذا كان شر القمر موجوداً فشر الليل موجود ، وللقمر من التأثير ما ليس لغيره ، فتكون الاستعاذة من الشر الحاصل عنه أقوى ، ويكون هذا كقوله عن المسجد المؤسس على التقوى « هو مسجدي هذا » مع أن الآية تتناول مسجد قباء قطعاً .

وكذلك قوله عن أهل الكساء « هؤلاء أهل بيتي ، مع أن القرآن يتناول نساءه ، فالتخصيص لكون المخصوص أولى بالوصف ، فالقمر أحق ما يكون بالليل بالاستعاذة ، والليل مظلم ، تنتشر فيه شياطين الإنس والجن ما لا تنتشر بالنهار ويجري فيه من أنواع الشر ما لا يجري بالنهار من أنواع الكفر والفسوق والعصيان والسحر والسرقة والخيانة والفواحش وغير ذلك ، فالشر دائماً مقرون بالظلمة ، ولهذا إنما جعله الله لسكون الآدميين وراحتهم ، لكن شياطين الإنس والجن تفعل فيه من الشر ما لا يمكنها فعله بالنهار ، ويتوسلون بالقمر ويدعونه والقمر وعبادته ، وأبو معشر البلخي له « مصحف القمر » يذكر فيه من الكفريات والسحريات ما يناسب الاستعاذة منه . فذكر سبحانه الاستعاذة من شر الخلق عموماً ، ثم خص الأمر بالاستعاذة من شر الغاسق إذا وقب ، وهو الزمان الذي يعم شره ، ثم خص بالذكر السحر ، والحسد .

---

(١) سورة الاسراء آية رقم ١٢ .

فالسحر يكون من الأنفس الخبيثة ، لكن بالإستعانة بالأشياء كالنفث في العقد ، والحسد يكون من الأنفس الخبيثة أيضاً إما بالعين ، وإما بالظلم وباللسان واليد ، وخص من السحر النفاثات في العقد ، وهن النساء ، والحاسد الرجال في العادة ، ويكون من الرجال ومن النساء .

والشر الذي يكون من الأنفس الخبيثة من الرجال والنساء هو شر منفصل عن الإنسان ، ليس هو في قلبه كالوسواس الخناس .

وفي سورة الناس ذكر ﴿ **الوسواس ، الخناس** ﴾ فإنه مبدأ الأفعال المذمومة من الكفر والفسوق والعصيان ففيها الاستعاذة من شر ما يدخل الإنسان من الأفعال التي تضره من الكفر والفسوق والعصيان ، وقد تضمن ذلك الاستعاذة من شر نفسه .

وسورة الفلق فيها الاستعاذة من شر المخلوقات عموماً وخصوصاً ، ولهذا قيل فيها برب الفلق ، وقيل في هذه برب الناس ، فإن فالق الإصباح بالنور يزيل بما في نوره من الخير ما في الظلمة من الشر .

وفالق الحب والنوى بعد انعقادهما يزيل ما في عقد النفاثات فإن فلق الحب والنوى أعظم من حل عقد النفاثات .

وكذلك الحسد هو من ضيق الإنسان وشحه لا ينشرح صدره لإنعام الله عليه .

فرب الفلق يزيل ما يحصل بضيق الحاسد وشحه ، وهو سبحانه لا يفلق شيئاً إلا بخير ، فهو فالق الإصباح بالنور الهادي ، والسراج الوهاج الذي به صلاح العباد . وفالق الحب والنوى بأنواع الفواكه والأقوات التي هي رزق الناس ودوابهم .

والإنسان محتاج إلى جلب المنفعة من الهدى والرزق وهذا حاصل بالفلق .

والـرب الذي فلق للنـاس ما تحصـل به منـافعهم يستعـاذ بـه ممـا يضـر الناس ، فيطلب منه تمام نعمته بصرف المؤذيات عن عبده الذي ابتدأ بإنعامـه عليه .

وفلق الشيء عن الشيء هو دليل على تمام القدرة ، وإخراج الشيء من ضـده كمـا يخـرج الحي من الميت ، والميت من الحي . وهـذا من نـوع الفلق ، فهو سبحانه قادر على دفع الضد المؤذي بالضد النافع .

سورة الناس

وقال رحمه الله :

فصل

في ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ [1] إلى آخرها . قوله ﴿ الوَسْوَاسِ الخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ [2] فيها أقوال ، ولم يذكر ابن الجوزي إلا قولين ، ولم يذكر الثالث وهو الصحيح .

وهو أن قوله من الجنة والناس لبيان الوسواس ، أي الذي يوسوس من الجنة ، ومن الناس في صدور الناس فإن الله تعالى قد أخبر أنه جعل لكل نبي عدواً وشياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً وإيحاؤهم هو وسوستهم ، وليس من شرط الموسوس أن يكون مستتراً عن البصر ، بل قد يشاهد .

قال تعالى ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا ، وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخَالِدِينَ . وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ [3] .

---

(١) سورة الناس آية رقم ١ .

(٢) سورة الناس آية رقم ٤ ـ ٦ .

(٣) سورة الأعراف آية رقم ٢٠ ـ ٢١ .

وهـذا كلام من يعـرف قائله ، ليس شيئـاً يلقى في القلب لا يدرى ممن هو ، وإبليس قد أمر بالسجود لآدم فأبى واستكبر ، فلم يكن ممن لا يعرفه آدم وهو ونسله يرون بني آدم من حيث لا يرونهم وأما آدم فقد رآه .

وقـد يـرى الشيـاطـين والجن كثـير من الإنس ، لكن لهم من الاجتنـان والاستتار ما ليس للإنس .

وقد قال تعـالى ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَـالَهُمْ وَقَالَ لَا غَـالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ ﴾ (١) .

وفي التفسير والسيرة : أن الشيطان جاءهم في صورة بعض الناس .

وكذلك قوله ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَـانِ اكْفُرْ فَلَمَّـا كَفَرَ قَـالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢) .

وفي حـديث أبي ذر عن رسـول الله ﷺ نعـوذ بـالله من شيـاطين الإنس والجن . قلت : أو للإنس شياطين ؟

قـال : نعم ، شر من شيـاطين الجن » (٣) .

وأيضاً : فالنفوس لها وسوسة كما قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ (٤) .

فهذا توسوس به نفسه لنفسه ، كما يقال : حـديث النفس قال النبي ﷺ « إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسهـا ما لم تتكلم بـه أو تعمل بـه » (٥)

---

(١) سورة الأنفال آية رقم ٤٨ .

(٢) سورة الحشر آية رقم ١٦ .

(٣) الحديث رواه الامام أحمد في المسند ٥ : ١٧٨ ، ١٧٩ ، ٢٦٥ (حلبي) .

(٤) سورة ق آية رقم ١٦ .

(٥) الحديث رواه ابن ماجـه في كتاب الـطلاق ١٤ باب من طلق في نفسـه ولم يتكلم به ٢٠٤٠ =

أخرجاه في الصحيحين .

فالذي يوسوس في صدور الناس نفسه ،وشياطين الجن ، وشياطين الإنس .

والوسواس الخناس يتناول وسوسة الجنة ، ووسوسة الإنس والا أي معنى للاستعاذة من وسوسة الجن فقط ، مع أن وسوسة نفسه وشياطين الإنس هي مما تضره ، وقد تكون أضر عليه من وسوسة الجن ؟!

وأما قول الفراء : إن المراد من شر الوسواس الذي يوسوس في صدور الناس : الطائفتين من الجن والإنس ، وأنه سمى الجن ناساً كما سماهم رجالاً ، وسماهم نفراً فهذا ضعيف فإن لفظ الناس أشهر وأظهر وأعرف من أن يحتاج الى تنويعه إلى الجن ، وقد ذكر الله تعالى لفظ الناس في غير موضع .

وأيضاً فكونه يوسوس في صدور الطائفتين صفة توضيح وبيان ، وليس وسوسة الجن معروفة عند الناس وإنما يعرف هذا بخبر ، ولا خبر هنا ، ثم قد قال ﴿ **من الجنة والناس** ﴾ فكيف يكون لفظ الناس عاماً للجنة والناس ، وكيف يكون قسيم الشيء قسماً منه ، فهو يجعل الناس قسيم الجن ، ويجعل الجن نوعاً من الناس وهذا كما يقال : أكرم العرب من العجم والعرب ، فهل يقول هذا أحد ؟!

وإذا سماهم الله تعالى رجالاً لم يكن في هذا دليل على أنهم يسمون ناساً ، وإن قدر أنه يقال جاء ناس من الجن فذاك مع التقييد ، كما يقال إنسان من طين وماء دافق ، ولا يلزم من هذا أن يدخلوا في لفظ الناس ، وقد قال تعالى ﴿ **يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا**

= عن سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة عن زرارة بن أبي أوفى ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره ، ورواه البخاري في العتق ٦ ، والطلاق ١١ وإيمان ١٥ ورواه الامام مسلم في إيمان ٢٠١ ، ٢٠٢ وأبو داود في الطلاق ١٥ والترمذي في الطلاق ٨ والنسائي في الطلاق ٢٢

زَوْجَهَا ﴾ [1] فالناس كلهم مخلوقون من آدم وحواء ، مع أنه سبحانه يخاطب الجن والإنس .

والرسول ﷺ مبعوث إلى الجنسين ، لكن لفظ الناس لم يتناول الجن ، ولكن يقول : **﴿ يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنْسِ ﴾** [2] . وكذلك قول الزجاج : إن المعنى **﴿ من شر الوسواس ﴾** الذي هو الجنة ، ومن شر الناس فيه ضعف ، وإن كان أرجح من الأول ، لأن شر الجن أعظم من شر الإنس فكيف يطلق الاستعاذة من جميع الناس ، ولا يستعيذ إلا من بعض الجن؟!

وأيضاً فالوسواس الخناس ان لم يكن إلا من الجنة فلا حاجة إلى قوله **﴿ من الجنة ﴾** ومن **﴿ الناس ﴾** فلماذا يخص الاستعاذة من وسواس الجنة دون وسواس الناس .

وأيضاً فإنه إذا تقدم المعطوف اسماً كان عطفه على القريب أولى ، كما أن عود الضمير إلى الأقرب أولى ، إلا إذا كان هناك دليل يقتضي العطف على البعيد ، فعطف الناس هنا على الجنة المقرون به أولى من عطفه على الوسواس ويكفي أن المسلمين كلهم يقرأون هذه السورة من زمن نبيهم ولم ينقل هذان القولان إلا عن بعض النحاة ، والأقوال المأثورة عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان ليس فيها شيء من هذا بل إنما فيها القول الذي نصرناه ، كما في تفسير معمر عن قتادة **﴿ من الجنة والناس ﴾** .

قال : إن في الجن شياطيناً ، وإن في الإنس شياطينا ، فنعوذ بالله من شياطين الإنس والجن فبين قتادة أن المعنى الاستعاذة من شياطين الإنس

---

(1) سورة النساء آية رقم 1 .

(2) سورة الأنعام آية رقم ١٣٠ وفيها **﴿ ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا ﴾** .

وسورة الرحمن آية رقم ٢٣ وفيها **﴿إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ﴾** .

والجن .

وروى ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله : ﴿ **الوسواس الخناس** ﴾ .

قال : الخناس الذي يوسوس مرة ويخنس مرة من الجن والإنس ، فبين ابن زيد أن الوسواس الخناس من الصنفين وكان يقال : شياطين الإنس أشد على الناس من شياطين الجن : شيطان الجن يوسوس ولا تراه ، وهذا يعاينك معاينة .

وعن ابن جريج ﴿ **من الجنة والناس** ﴾ قال : إنهما وسواسان فوسواس من الجنة فهو ﴿ **الخناس** ﴾ .

ووسواس من نفس الإنسان فهو قوله ﴿ **والناس** ﴾ وهذا القول الثالث وإن كان يشبه قول الزجاج فهذا أحسن منه ، فإنه جعل من الناس الوسواس الذي من نفس الإنسان ، فمعناه أحسن ، ذكر الثلاثة ابن أبي حاتم في تفسيره .

وأيضاً فإنه ذكر في الآية ﴿ **بِرَبِّ النَّاسِ ، مَلِكِ النَّاسِ إِلَـٰهِ النَّاسِ** ﴾ [1] .

فإن كان المقصود أن يستعيذ الناس بربهم وملكهم والههم من شر ما يوسوس في صدورهم ، فإنه هو الذي يطلب منه الخير الذي ينفعهم ، ويطلب منه دفع الشر الذي يضرهم والوسواس أصل كل شر يضرهم ؛ لأنه مبدأ للكفر والفسوق والعصيان ؛ وعقوبات الرب إنما تكون على ذنوبهم ، وإذا لم يكن لأحدهم ذنب ، فكل ما يصيبه نعمة في حقه ، وإذا ابتلي بما يؤلمه فإن الله يرفع درجته ويأجره ،وإذا قدر عدم الذنب مطلقاً ، لكن هذا ليس بواقع منهم ، فإن كل بني آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون .

---

(١) سورة الناس آية رقم ١ ـ ٣ .

وقد قال تعالى ﴿ وَحَمَلَهَا الإنسَانُ إنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ، لِيُعَذِّبَ الله المُنَافِقِينَ وَالمُنَافِقَاتِ وَالمُشْرِكِينَ وَالمُشْرِكَاتِ ، وَيَتُوبَ الله عَلَى المُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ ﴾ (1) فغاية المؤمنين الأنبياء فمن دونهم هي التوبة . قال الله تعالى ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (2) .

وقال نوح ﴿ رَبِّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ، وَإلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ (3) وقال ابراهيم واسماعيل ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (4) .

وقال موسى ﴿ أنتَ وَلِيُّنا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الغَافِرِينَ ﴾ (5) .

ودعاء نبينا بمثل ذلك كثير معروف .

فكان الوسواس مبدأ كل شر ، فإن كانوا قد استعاذوا بربهم ، وملكهم والههم من شره ، فقد دخل في ذلك وسواس الجن والإنس ، وسائر شر الإنس إنما يقع بذنوبهم ، فهو جزاء على أعمالهم ، كالشر الذي يقع من الجن بغير الوسواس ، وكما يحصل من العقوبات السماوية وهم لم يستعيذوا هنا من شر المخلوقات مطلقاً ، كما استعاذوا في سوره الفلق ، بل من شر الذي يكون مبدأه في نفوسهم ، وإن كان ذكر رب الناس ملك الناس إله الناس يستعيذوا به ليعيذهم ، وليعيذ منهم ، وهذا أعم المعنيين ، فذلك يحصل بإعاذته من شر الوسواس الموسوس في صدور الناس ، فإنه هو الذي يوسوس بظلم الناس بعضهم بعضاً ، وبإغواء بعضهم بعضا ، وبإعانة بعضهم بعضاً على الإثم والعدوان . فما حصل لإنسي شر من إنسي إلا كان مبدأه

(1) سورة الأحزاب آية رقم ٧٢ - ٧٣ .
(2) سورة البقرةآية رقم ٣٧ .
(3) سورة هود آية رقم ٤٧ .
(4) سورة البقرة آية رقم ١٢٨ .
(5) سورة الأعراف آية رقم ١٥٥ .

من الوسواس الخناس ، وإلا فما يحصل من أذى بعضهم لبعض إذا لم يكن من الوسواس ، بل كان من الوحي الذي بعث الله به ملائكته كان عدلاً ، كإقامة الحدود وجهاد الكفار ، والاقتصاص من الظالمين ، فهذه الأمور فيها ضرر وأذى للظالمين من الإنس ، لكن هي بوحي الله لا من الوسواس ، وهي نعمة من الله في حق عباده ، حتى في حق المعاقب ، فإنه إذا عوقب كان ذلك كفارة له إن كان مؤمناً ، وإلا كان تخفيفاً لعذابه في الآخرة بالنسبة إلى عذاب من لم يعاقب في الدنيا .

ولهذا كان محمد ﷺ رحمة في حق العالمين باعتبار ما حصل من الخير العام به، وما حصل للمؤمنين به من سعادة الدنيا والآخرة ، وباعتبار أنه في نفسه رحمة ، فمن قبلها وإلا كان هو الظالم لنفسه ، وباعتبار أنه قمع الكفار والمنافقين فنقص شرهم، وعجزوا عما كانوا يفعلونه بدونه ، وقتل من قتل منهم ، فكان تعجيل موته خيراً من طول عمره في الكفر له وللناس ، فكان محمد ﷺ رحمة للعالمين بكل اعتبار ، فلا يستعاذ منه ومن أمثاله من الأنبياء وأتباعهم المؤمنين ، وهم من الناس ، وإن كانوا يفعلون بأعدائهم ما هو أذى وعقوبة وألم لهم ، فلم تبق الاستعاذة من الناس إلا مما يأتي به الوسواس إليهم ، فيستعاذ برب الناس ملك الناس إله الناس على هذا التقدير من شر الوسواس الذي يوسوس للمستعيذ ، ومن شر الوسواس الذي يوسوس لسائر الناس ، حتى لا يحصل منهم شر للمستعيذ ، فإذا لم يكن للناس شر إلا من الوسواس كانت الاستعاذة من شر الذي يوسوس لهم تحصيلاً للمقصود ، وكان حسماً للمادة ، وأقرب إلى العدل ، وكان مخرجاً لأنبياء الله وأوليائه أن يستعاذ من شرهم ، وأن يقرنوا بالوسواس الخناس ، ويكون ذلك تفضيلاً للجن على الإنس وهذا لا يقوله عاقل .

فإن قيل : فإن كان أصل الشر كله من الوسواس الخناس ، فلا حاجة إلى ذكر الإستعاذة من وسواس الناس ، فإنه تابع لوسواس الجن .

قيل : بل الوسوسة نوعان : نوع من الجن ، ونوع من نفوس الإنس ، كما قال ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ (١) .

فالشر من الجهتين جميعاً ، والإنس لهم شياطين كما للجن شياطين ، والوسوسة من جنس الوشوشة بالشين المعجمة ، يقال : فلان يوشوش فلاناً ، وقد وشوشه إذا حدثه سراً في أذنه .

وكذلك الوسوسة ، ومنه وسوسة الحلى لكن هو بالسين المهملة أخص .

و﴿ رب الناس ﴾ الذي يربيهم بقدرته ومشيئته وتدبيره ، وهو رب العالمين كلهم ، فهو الخالق للجميع ولأعمالهم .

و﴿ ملك الناس ﴾ الذي يأمرهم وينهاهم ، فإن الملك يتصرف بالكلام والجماد لا ملك له ، فإنه لا يعقل الخطاب ، لكن له مالك ، وإنما يكون الملك لمن يفهم عنه ، والحيوان يفهم بعضه عن بعض .

كما قال ﴿ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ ﴾ (٢) .

و﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ﴾ (٣)

فلهذا كان له ملك من جنسه ، ومن غير جنسه كما كان سليمان ملكهم ، والإله : هو المعبود الذي هو المقصود بالارادات ، والأعمال كلها .

كما قد بسط الكلام على ذلك .

وقد قيل : إنما خص الناس بالذكر ، لأنهم مستعيذون أو لأنهم المستعاذ من شرهم ، ذكرهما أبو الفرج ، وليس لهما وجه ، فإن وسواس

---

(١) سورة ق آية رقم ١٦ .

(٢) سورة النمل آية رقم ١٦ .

(٣) سورة النمل آية رقم ١٨ .

الجن أعظم ، ولم يذكره ، بل ذكر الناس ؛ لأنهم المستعيذون ، فيستعيذون بربهم الذي يصونهم ، وبملكم الذي أمرهم ونهاهم ، وبإلههم الذي يعبدونه من شر الذي يحول بينهم وبين عبادته ، ويستعيذون أيضاً من شر الوسواس الذي يحصل في نفوس الناس منهم ، ومن الجنة فإنه أصل الشر الذي يصدر منهم ، والذي يرد عليهم .

فصل

وبهذا يتبين بعض هذه الاستعاذة والتي قبلها كما جاءت بذلك الأحاديث عن النبي ﷺ أنه لم يستعذ المستعيذون بمثلهما ، فإن الوسواس أصل كل كفر وفسوق وعصيان فهو أصل الشر كله ، فمتى وقي الإنسان شره وقي عذاب جهنم ، وعذاب القبر ، وفتنة المحيا والممات ، وفتنة المسيح الدجال ، فإن جميع هذه إنما تحصل بطريق الوسواس ووقي عذاب الله في الدنيا والآخرة ، فإنه إنما يعذب على الذنوب وأصلها من الوسواس ، ثم إن دخل في الآية وسواس غيره بحيث يكون قوله ﴿ من شَرِّ الوَسْوَاسِ ﴾ [1] استعاذة من الوسواس الذي يعرض له ، والذي يعرض للناس بسببه ، فقد وقي ظلمهم ، وإن كان إنما يريد وسواسه فهم إنما يسلطون عليه بذنوبه وهي من وسواسه .

قال تعالى ﴿ أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ [2] .

وقال ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِن مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [3] وقال ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ الله وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَفْسِكَ ﴾ [4] .

والوسواس من جنس الحديث والكلام .

---

(١) سورة الناس آية رقم ٤ .
(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٦٥ .
(٣) سورة الشورى آية رقم ٣٠ .
(٤) سورة النساء آية رقم ٧٩ .

ولهذا قال المفسرون في قوله ﴿ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ [1] قالوا : ما تحدث به نفسه .

وقد قال ﷺ : « إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به »[2] .

وهو نوعان : خبر ، وإنشاء .

فالخبر : إما عن ماض ، وإما عن مستقبل .

فالماضي يذكره به ، والمستقبل يحدثه بأن يفعل هو أموراً ، أو أن أموراً ستكون بقدر الله ، أو فعل غيره ، فهذه الأماني والمواعيد الكاذبة .

والإنشاء : أمر ونهي وإباحة .

والشيطان تارة يحدث وسواس الشر ، وتارة ينشىء الخير وكان ذلك بما يشغله به من حديث النفس .

قال تعالى في النسيان ﴿ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [3] .

وقال فتى موسى ﴿ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ ﴾ [4] وقال تعالى ﴿ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ [5] .

وثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا أذن المؤذن أدبر الشيطان وله ضراط ، حتى لا يسمع التأذين ، فإذا قضي التأذين أقبل ، فإذا ثوب بالصلاة أدبر ، فإذا قضي التثويب أقبل ، حتى يخطر بين المرء ونفسه

---

(1) سورة ق آية رقم ١٦ .

(2) سبق تخريج هذا الحديث .

(3) سورة الأنعام آية رقم ٦٨ .

(4) سورة الكهف آية رقم ٦٣ .

(5) سورة يوسف آية رقم ٤٢ .

فيقـول : أذكر كـذا ، أذكر كـذا ، لما لم يـذكر حتى يـظل الرجـل لم يدر كم صلى » [1] .

فالشيطان ذكره بأمور ماضية ، حدث بها نفسه، مما كانت في نفسـه من أفعاله ، ومن غيـر أفعالـه، فبتلك الأمور نسي المصلي كم صلى ولم يـدر كم صلى ، فإن النسيان أزال ما في النفس من الذكر وشغلها بـأمر آخـر حتى نسي الأول .

وأما إخباره بما يكون في المستقبل من المواعيد والأماني فكقوله ﴿ **وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْـدَ الحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَـأَخْلَفْتُكُمْ ، وَمَا كَـانَ لِيَ عَلَيْكُم مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَـاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُـونِي وَلُومُـوا أَنفُسَكُمْ** ﴾ [2] وفي هذه الآية أمره ووعده .

وقال تعالى ﴿ **وَمَن يَتَّخِـذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِن دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِـرَ خُسْرَانـاً مُبِيناً يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَـا يَعِدُهُم الشَّيْـطَانُ إِلاَّ غُرُوراً أولـئـك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصا** ﴾ [3] .

وقال تعالى﴿ **الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُم مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [4] ففي هذه أيضاً أمره ووعده .

وقال موسى لما قتل القبـطي ﴿ **هَذَا مِنْ عَمَـلِ الشَّيْطَانِ إِنَّـهُ عَدُوٌّ مُضِـلٌّ مُبِينٌ** ﴾ [5] .

---

(١) الحديث أخرجه الإمام البخاري في ١٠ ـ كتاب الأذان ٤ باب فضل التـأذين ، ومسلم في ٤ ـ كتـاب الصلاة ٨ ـ بـاب فضل الأذان وهـرب الشيطان عنـد سماعـه حديث ١٩ ورواه صـاحب الموطأ في كتاب الصلاة (١) باب ما جـاء في النداء للصـلاة ٦ وحدثني عن مـالك ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : وذكره .

(٢) سورة ابراهيم آية رقم ٢٢ .

(٣) سورة النساء آية رقم ١١٩-١٢١ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ٢٦٨ .

(٥) سورة القصص آية رقم ١٥ .

وقد قال غير واحد من الصحابة كأبي بكر وابن مسعود فيما يقولونه باجتهادهم ، إن كان صواباً فمن الله ، وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان ، فجعلوا ما يلقى في النفس من الاعتقادات التي ليست مطابقة من الشيطان ، وإن لم يكن صاحبها آثماً لأنه استفرغ وسعه ، كما لا يأثم بالوسواس الذي يكون في الصلاة من الشيطان ، ولا بما يحدث به نفسه .

وقد قال المؤمنون ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إن نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ (١) وقد قال الله : قد فعلت .

والنسيان للحق من الشيطان ، والخطأ من الشيطان .

قال تعالى ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢) .

وقد قال ﷺ « من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها » (٣) .

ولما نام هو وأصحابه عن الصلاة في غزوة خيبر قال لأصحابه : « ارتحلوا فإن هذا مكان حضرنا فيه شيطان » .

وقال « إن الشيطان أتى بلالاً فجعل يهديه كما يهدي الصبي حتى نام » (٤) .

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٨٦ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ٦٨ .

(٣) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الصلاة ١٠ باب من نام عن الصلاة أو نسيها ٦٩٨ ـ عن عبد الله بن رباح عن أبي قتادة قال : ذكروا تفريطهم في النوم فقال : ناموا حتى طلعت الشمس فقال رسول الله ﷺ ـ وذكره ، ورواه الترمذي في الصلاة ١٦ والنسائي في المواقيت ٥٣ .

(٤) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الصلاة ١٠ باب من نام عن الصلاة أو نسيها ٦٩٧ حدثنا حرملة بن يحيى ثنا عبد الله بن وهب ، ثنا يونس عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ حين قفل من غزوة خيبر فسار ليلة حتى =

وكان النبي ﷺ وكل بلالاً أن يوقظهم عند الفجر والنوم الذي يشغل عما أمر به ، والنعاس من الشيطان وإن كان معفواً عنه .

ولهذا قيل : النعاس في مجلس الذكر من الشيطان وكذلك الاحتلام في المنام من الشيطان ، والنائم لا قلم عليه .

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: « الرؤ يا ثلاثة ، رؤ يا من الله ، ورؤ يا من الشيطان ورؤ يا ما يحدث به المرء نفسه في اليقظة فيراه في النوم »[1] وقد قيل : إن هذا من كلام ابن سيرين ، لكن تقسيم الرؤ يا إلى نوعين : نوع من الله ، ونوع من الشيطان صحيح عن النبي ﷺ بلا ريب ، فهذان النوعان من وسواس النفس ، ومن وسواس الشيطان يغشى القلب كطيف الخيال ، فينسيه ما كان معه من الإيمان حتى يعمى عن الحق ، فيقع في الباطل ، فإذا كان من المتقين كان كما قال الله ﴿ **إنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إذا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُبْصِرُونَ** ﴾[2] .

فإن الشيطان مسهم بطيف منه يغشى القلب ، وقد يكون لطيفا ، وقد يكون كثيفا إلا أنه غشاوة على القلب تمنعه إبصار الحق .

قال النبي ﷺ : إن العبد إذا أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء ، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، وإن زاد زيد فيها حتى تعلو قلبه فذلك الران الذي قال الله تعالى ﴿ **كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾[3] .

لكن طيف الشيطان غير رين الذنوب ، هذا جزاء على الذنب والغين

أدركه الكرى عرس وقال لبلال أكلأ لنا الليل » فصلى بلال ما قدر له ، ونام رسول الله - ﷺ - وأصحابه ، فلما تقارب الفجر استند بلال الى راحلته مواجه الفجر فغلبت بلالاً عيناه وهو مستند الى راحلته فلما استيقظوا قال رسول الله - ﷺ وذكره .

(١) سبق تخريج هذا الحديث .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ٢٠٧ .

(٣) سورة المطففين آية رقم ١٤ .

ألطف من ذلك ، كما في الحديث الصحيح عنه ﷺ قال: « إنه ليغان على قلبي ، وإني لأستغفر الله في اليوم سبعين مرة » [١] .

فالشيطان يلقي في النفس الشر ، والملك يلقي الخير وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « ما منكم من أحد ألا وقد وكل به قرينه من الملائكة وقرينه من الجن. قالوا : وإياك يا رسول الله قال : وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم » [٢] وفي رواية : « فلا يأمرني إلا بخير » أي استسلم وانقاد . وكان ابن عيينة يرويه فأسلم بالضم ، ويقول : إن الشيطان لا يسلم ، لكن قوله في الرواية الأخرى : فلا يأمرني إلا بخير ، دل على أنه لم يبق يأمره بالشر ، وهذا إسلامه ، وإن كان ذلك كناية عن خضوعه وذلته ، لا عن إيمانه بالله ، كما يقهر الرجل عدوه الظاهر ويأسره .

وقد عرف العدو المقهور أن ذلك القاهر يعرف ما يشير به عليه من الشر فلا يقبله ، بل يعاقبه على ذلك ، فيحتاج لانقهاره معه إلى أنه لا يشير عليه إلا بخير لذلته وعجزه لا لصلاحه ودينه. ولهذا قال ﷺ : « إلا أن الله أعانني عليه فلا يأمرني إلا بخير » وقال ابن مسعود : إن للملك لمة ، وإن للشيطان لمة ، فلمة الملك ايعاد بالخير ، وتصديق بالحق ، ولمة الشيطان إيعاد بالشر وتكذيب بالحق [٣] .

وقد قال تعالى ﴿ **إِنَّما ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ** ﴾ [٤]: أي يخوفكم أولياؤه بما يقذف في قلوبكم من الوسوسة المرعبة ، كشيطان الإنس الذي

---

(١) الحديث رواه أبو داود في كتاب الوتر باب في الاستغفار ١٥١٥ حدثنا سليمان بن حرب ومسدد قالا : ثنا حماد ، عن ثابت عن أبي بردة ، عن الأعز المزني ، قال مسدد في حديثه ، وكانت له صُحبة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ وذكره .

(٢) الحديث رواه الامام مسلم في المسافرين ٦٩ والدارمي في الرقاق ٢٥ وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٣٨٥ ، ٣٩٧ ، ٤٠١ ، ٤٦٠ (حلبي) .

(٣) الحديث رواه الامام الترمذي في التفسير سورة ٢ : ٣٥ .

(٤) سورة آل عمران آية رقم١٧٥ .

يخوف من العدو فيرجف ويخذل .

وعكس هذا قوله تعالى ﴿ **إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلى المَلاَئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ** ﴾ (١) .

وقال تعالى ﴿ **يُثَبِّتُ الله الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ** ﴾ (٢) .

وقال تعالى ﴿ **وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً** ﴾ (٣) .

والتثبت جعل الإنسان ثابتاً لا مرتاباً ، وذلك بإلقاء ما يثبته من التصديق بالحق والوعد بالخير . كما قال ابن مسعود : لمة الملك وعد بالخير وتصديق بالحق فمتى علم القلب أن ما أخبر به الرسول حق صدقه ، وإذا علم أن الله قد وعده بالتصديق وثق بوعد الله فثبت ،فهذا يثبت بالكلام ، كما يثبت الإنسان الإنسان في أمر قد اضطرب فيه بأن يخبره بصدقه ، ويخبره بما يبين له أنه منصور فيثبت ، وقد يكون التثبت بالفعل بأن يمسك القلب حتى يثبت كما يمسك الإنسان الإنسان حتى يثبت .

وفي الحديث عن النبي ﷺ « من سأل القضاء واستعان عليه وكل إليه ، ومن لم يسأل القضاء ولم يستعن عليه أنزل الله عليه ملكا يسدده فهذا الملك يجعله سديد القول بما يلقي في قلبه من التصديق بالحق والوعد بالخير ، وقد قال تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلاَئِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** ﴾ (٤) .

فدل ذلك على أن هذه الصلاة سبب لخروجهم من الظلمات إلى النور .

وقد ذكر إخراجه للمؤمنين من الظلمات إلى النور في غير آية كقوله

---

(١) سورة الأنفال آية رقم ١٢ .
(٢) سورة ابراهيم آية رقم ٢٧ .
(٣) سورة الاسراء آية رقم ٧٤ .
(٤) سورة الأحزاب آية رقم ٤٣ .

﴿ الله وَلِيُّ الَّـذِينَ آمَنُوا يُخْـرِجُهُم مِنَ الـظُّلُمَـاتِ إِلَى النُّـورِ ، وَالَّـذِينَ كَفَـرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ [1] .

وقال ﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْـدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَـاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِنَ الـظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [2] .

وقال ﴿ كِتَابٌ أنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّـاسَ مِنَ الظُّلُمَـاتِ إِلَى النُّورِ بِـإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ [3] .

وفي الحـديـث : « إن الله ومـلائكتـه يصـلون على مـعلمـي النــاس الخير » [4] .

وذلـك أن هذا بتعليمـه الخير يخـرج الناس من الـظلمـات إلى النـورِ ، والجـزاء من جنس العمـل ، ولهـذا كـان الـرسـول أحق النـاس بكمـال هـذه الصلاة .

كما قال تعالى ﴿ إِنَّ الله وملائِكَتَـهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِي ﴾ [5] والصلاة هي الدعاء ، إما بخير يتضمن الدعاء ، وإما بصيغة الـدعاء ، فـالملائكـة يدعـون للمؤمنين .

كمـا في الصحيـح عن النبي ﷺ أنـه قـال : « والمـلائكـة تصلي على أحـدكم مـا دام في مصـلاه : اللهم أغفـر لـه ، اللهم أرحمـه ، مـا لم يحدث » [6] .

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٥٧ .

(٢) سورة الحديد آية رقم ٩ .

(٣) سورة ابراهيم آية رقم ١ .

(٤) سبق تخريج هذا الحديث .

(٥) سورة الأحزاب آية رقم ٥٦ .

(٦) الحديث رواه الامام البخاري في الآذان ٣٠ ، ٣٦ ، والترمذي في الصلاة ١٢٨ والدارمي في =

فبين أن صلاتهم قولهم « اللهم أغفر له اللهم أرحمه » وفي الأثر « إن الرب يصلي فيقول : سبقت - أو غلبت - رحمتي غضبي »[1] .

وهذا كلامه سبحانه هو خبر وإنشاء يتضمن أن الرحمة تسبق الغضب وتغلبه ، وهو سبحانه لا يدعو غيره أن يفعل ، كما يدعوه الملائكة وغيرهم من الخلق ، بل طلبه بأمره وقوله ، وقسمه ، كقوله : لأفعلن كذا ، وقوله : كن فيكون . وقوله : لأفعلن كذا . قسم منه كقوله ﴿ **لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ** ﴾ [2] .

وقوله ﴿ **وَلَكِنْ حَقَّ القَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ** ﴾ [3] .

وقوله ﴿ **وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً** ﴾ [4] وقوله ﴿ **كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ [5] وهذا وعد مؤكد بالقسم بخلاف قوله ﴿ **إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾ [6] .

فإن هذا وعد وخبر ليس فيه قسم ، لكنه مؤكد باللام التي يمكن أن تكون جواب قسم .

وقوله ﴿ **وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا** ﴾ [7] .

= الصلاة ١٢٢ وصاحب الموطأ في السفر ٥١ ، ٥٤ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٦١ ، ٢٦٦ ، ٢٩٠ ، ٣١٢ ، ٤٢٢ ، ٥٠٠ ، ٥٠٢ (حلبي) .

(١) سبق تخريج هذا الحديث .
(٢) سورة ص آية رقم ٨٥ .
(٣) سورة السجدة آية رقم ١٣ .
(٤) سورة النور آية رقم ٥٥ .
(٥) سورة المجادلة آية رقم ٢١ .
(٦) سورة غافر آية رقم ٥١ .
(٧) سورة الفتح آية رقم ٢٠ .

وقوله ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُم الله إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾[1] ونحو ذلك وعد مجرد .

وقد قال تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ الله إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾[2] .

فأخبر أنه يوحي إلى البشر تارة وحياً منه ، وتارة يرسل رسولاً فيوحي إلى الرسول بإذنه ما يشاء .

والملائكة رسل الله ، ولفظ الملك يتضمن معنى الرسالة فإن أصل الكلمة ملأك على وزن مفعل ، لكن لكثرة الإستعمال خففت ، بأن ألقيت حركة الهمزة على الساكن قبلها ، وحذفت الهمزة ، وملاك مأخوذ من المألك والملأك ، بتقديم الهمزة على اللام ، واللام على الهمزة ، وهو الرسالة ، وكذلك الألوكة بتقديم الهمزة على اللام .

قال الشاعر :

أبلغ النعمان عني مألكاً   أنه قد طال حبسي وانتظاري

وهذا بتقديم الهمزة ، لكن الملك هو بتقديم اللام على الهمزة وهذا أجود ، فإن نظيره في الاشتقاق الأكبر لاك يلوك إذا لاك الكلام ، واللجام .

والهمزة أقوى من الواو ، ويليه في الاشتقاق الأوسط أكل يأكل ، فإن الآكل يلوك ما يدخله في جوفه من الغذاء والكلام والعلم ما يدخل في الباطن ويغذي به صاحبه .

قال عبد الله بن مسعود : إن كل آدب يحب أن تؤتى مأدبته وإن مأدبة الله القرآن ، والأدب المضيف ، والمأدبة الضيافة ، وهو ما يجعل من الطعام للضيف .

---

(١) سورة الأنفال آية رقم ٧ .

(٢) سورة الشورى آية رقم ٥١ .

فبين أن الله ضيف عباده بالكلام الذي أنزله إليهم فهو غذاء قلوبهم وقوتها ، وهو أشد انتفاعاً به ، واحتياجاً إليه من الجسد بغذائه .

وقال علي رضي الله عنه : الربانيون هم الذين يغذون الناس بالحكمة ويربونهم عليها .

وقد قال ﷺ « إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني » (1) .

وقد أخبر الله تعالى أن القرآن شفاء لما في الصدور ، والناس إلى الغذاء أحوج منهم إلى الشفاء في القلوب والأبدان .

وفي الصحيحين عنه ﷺ قال : « مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً ، فكانت منها طائفة أمسكت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها طائفة أمسكت الماء فشرب الناس وسقوا وزرعوا ، وكانت منها طائفة إنما هي قيعان لا تمسك ماء ، ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به من الهدى والعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » (2) .

فأخبر أن ما بعث به للقلوب كالماء للأرض ، تارة تشربه فتنبت ، وتارة تحفظه ، وتارة لا هذا ولا هذا والأرض تشرب الماء وتغتذي به حتى يحصل الخير وقد أخبر الله تعالى أنه روح تحيا به القلوب ، فقال ﴿ **وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا**

---

(1) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الصوم ٤٩ ، . وفي الحدود ٤٣ (محاربين ٢٨) والاعتصام ٥، والتمني ٩ ، ورواه الامام مسلم في الصيام ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٠، ٦١ والترمذي في الصوم ٦١ ، والدارمي في الصوم ١٤ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٣١:٢٣ ، ٢٣٧ ، ٢٤٤ ، ٢٥٢ ، ٢٥٧ ، ٢٦١ (حلبي) .

(2) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب العلم ٢٠ باب فضل من علم وعلّم .

٧٩ ـ حدثنا محمد بن العلاء قال حدثنا حماد بن أسامة عن بريد بن عبد الله عن أبي بردة عن أبي موسى عن النبي ـ ﷺ ـ قال : وذكره ورواه الامام مسلم في الفضائل ١٥ وأحمد بن حنبل في المسند ٤ : ٢٩٩

إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَن نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (١) وإذا كان ما يوحيه إلى عباده تارة يكون بوساطة ملك وتارة بغير وساطة ، فهذا للمؤمنين كلهم مطلقاً لا يختص به الأنبياء .

قال تعالى ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ (٢) وقال تعالى ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ (٣) وإذا كان قد قال ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ (٤) الآية فذكر أنه يوحي إليهم فإلى الإنسان أولى .

وقال تعالى ﴿ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴾ (٥)

وقد قال تعالى ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ (٦) فهو سبحانه يلهم الفجور والتقوى للنفس ، والفجور يكون بواسطة الشيطان وهو إلهام وسواس ، والتقوى بواسطة ملك وهو إلهام وحي ، وهذا أمر بالفجور ، وهذا أمر بالتقوى ، والأمر لا بد أن يقترن به خير .

وقد صار في العرف لفظ الإلهام إذا أطلق لا يراد به الوسوسة ، وهذه الآية مما تدل على أنه يفرق بين إلهام الوحي ، وبين الوسوسة ، فالمأمور به إن كان تقوى الله فهو من إلهام الوحي ، وإن كان من الفجور فهو من وسوسة الشيطان .

فيكون الفرق بين الإلهام المحمود وبين الوسوسة المذمومة هو الكتاب والسنة ، فإن كان مما ألقى في النفس مما دل الكتاب والسنة على أنه تقوى لله فهو من الإلهام المحمود ، وإن كان مما دل على أنه فجور فهو من الوسواس

---

(١) سورة الشورى آية رقم ٥٢ .
(٢) سورة القصص آية رقم ٧ .
(٣) سورة المائدة آية رقم ١١١ .
(٤) سورة النحل آية رقم ٦٨ .
(٥) سورة فصلت آية رقم ١٢ .
(٦) سورة الشمس آية رقم ٨ .

المـذموم ، وهـذا الفرق مـطرد لا ينتقص ، وقد ذكـر أبو حـازم في الفرق بين وسوسة الشيطان فقال : ما كرهته نفسك لنفسك فهو من الشيطان فاستعـذ بالله منه وما أحبته نفسك لنفسك فهو من نفسك فانهها عنه .

وقد تكلم النظار في العلم الحـاصل في القلب عقب النـظر والاستدلال فذكروا فيه ثلاثة أقوال كما ذكر ذلك أبو حامد [1] « في مستصفاه » وغيره قـول الجهمية وقول القدرية ، وقول الفلاسفـة ، وكثير من أهـل الكلام لا يـذكر إلا القولين : قول الجهميـة ، وقول القـدرية . وذلـك أنهم يذكـرون في كتبهم ما يعـرفونـه من أقوال من يعـرفونـه تكلم في هذا ، وهم لا يعـرفون إلا هؤلاء ، والمسألة هي من فروع القدر ، فإن الحاصل في نفس حادث فيهـا فالقـول فيه كالقول في أمثاله .

ومذهب جهم ومن وافقه كأبي الحسن الأشعري ، وكثير من المتأخـرين المثبتـة هو مـذهب أهل السنـة والجماعـة ، أن الله خالق كـل شيء، وأن الله خالق أفعال العباد لكنه لا يثبت سبباً ولا قدرة مؤثـرة ، ولا حكمة لفعـل الرب فـأنكر الـطبائـع والقوى التي في الأعيـان ، وأنكر الأسبـاب والحكم فلهذا لم يجعل لشيء سبباً . بل يقول : هذا حاصل بخلق الله وقدرته . ولم يذكروا له سبباً ، وهم صادقون في إضافته إلـى قدره ، وأنه خالقه خلافاً للقدرية ، لكن من تمام المعرفة إثبات الأسباب ومعرفتها .

وأما القدريـة من المعتزلـة وغيرهم فبنـوه على أصلهم ، وهو أن كـل ما تـولد عن فعـل العبد فهـو فعله لا يضاف إلى غيـره ، كالشبـع والري وزهـوق

---

(١) هو محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي أبو حامد ، حجة الاسلام فيلسوف متصـوف ، له نحو مئتي مصنف ولد عام ٤٥٠ هـ في الـطابران (قصبـة طوس) وتـوفي بها عـام ٥٠٥ هـ رحل الى نيسابور ، ثم الى بغداد ، فالحجاز فبلاد الشام فمصر . من كتبه (الأحيـاء) والمنقذ من الضـلال . وغير ذلـك كثير . [راجـع وفيـات الأعيـان ١ : ٤٦٣ وطبقـات الشـافعيـة ٤ : ١٠١] .

الروح ، ونحو ذلك فقالوا : هذا العلم متولد عن نظر العبد أو تذكر النظر . والمتفلسفة بنوه على أصلهم : في أن ما يحدث من الصور هو من فيض العقل الفعال عند استعداد المواد القابلة ، فقالوا : يحصل في نفوس البشر من فيض العقل الفعال عند استعداد النفس باستحضار المقدمتين ، وهذا القول خطأ ، والذي قبله أقرب منه والأول أقرب ، وليس في شيء منها تحقيق الأمر في ذلك . وحقيقته أن الله وكل بالإنس ملائكة وشياطين يلقون في قلوبهم الخير والشر ، فالعلم الصادق من الخير ، والعقائد الباطلة من الشر ، كما قال ابن مسعود لمة الملك تصديق بالحق ، ولمة الشيطان تكذيب بالحق .

وكما قال النبي ﷺ في القاضي : « أنزل الله عليه ملكاً يسرده » (1) .

وكما أخبر الله أن الملائكة توحي إلى البشر ما توحيه وإن كان البشر لا يشعر بأنه من الملك ، كما لا يشعر بالشيطان الموسوس ، لكن الله أخبر أنه يكلم البشر وحيا ، ويكلمه بملك يوحي بإذنه ما يشاء ، والثالث التكليم من وراء حجاب .

وقد قال بعض المفسرين : المراد بالوحي هنا الوحي في المنام ولم يذكر أبو الفرج غيره ، وليس الأمر كذلك ، فإن المنام تارة يكون من الله ، وتارة يكون من النفس ، وتارة يكون من الشيطان ، وهكذا ما يلقى في اليقظة ، والأنبياء معصومون في اليقظة والمنام .

ولهذا كانت رؤيا الأنبياء وحياً ، كما قال ذلك ابن عباس وعبيد بن

---

(1) الحديث رواه أبو داود في كتاب الأقضية باب في طلب القضاء والتسرع إليه ٣٥٧٨ حدثنا محمد بن كثير ، أخبرنا اسرائيل ، ثنا عبد الأعلى ، عن بلال ، عن أنس بن مالك ، قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : وذكره .

ورواه الترمذي في الأحكام ١ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٣ : ١١٨ ، ٢٢٠ (حلبي) .

عمير ، وقرأ قوله ﴿ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾ [1] .

وليس كل من رأى رؤيا كانت وحياً ، فكذلك ليس كل من ألقي في قلبه شيء يكون وحيا ، والإنسان قد تكون نفسه في يقظته أكمل منها في نومه كالمصلي الذي يناجي ربه ، فإذا جاز أن يوحى إليه في حال النوم فلماذا لا يوحى إليه في حال اليقظة ، كما أوحى إلى أم موسى ، والحواريين ، وإلى النحل ؟!

لكن ليس لأحد أن يطلق القول على ما يقع في نفسه أنه وحي لا في يقظة ، ولا في المنام إلا بدليل يدل على ذلك ، فإن الوسواس غالب على الناس . والله أعلم .

---

(١) سورة الصافات آية رقم ١٠٢ .

وقال شيخ الإسلام قدس الله روحه :

فصل
في « سورة الفلق والناس »

في « الفلق » أقوال ترجع إلى تعميم وتخصيص ، فإنه فسر بالخلق عموماً ، وفسر بكل ما يفلق منه كالفجر والحب والنوى وهو غالب الخلق ، وفسر بالفجر ، وأما تفسيره بالمنار أو بجب ، أو شجرة فيها ، فهذه مرجعه إلى التوقيف . و« الغاسق » قد روي في الحديث المرفوع عن عائشة في الترمذي والنسائي « أن النبي ﷺ نظر إلى القمر ، وقال لها : يا عائشة تعوذي بالله من هذا ، فهذا الغاسق إذا وقب »[1]

قال ابن قتيبة : « الغاسق » القمر إذا كسف فاسود ومعنى وقب دخل في الكسوف .

والمشهور عند أهل التفسير واللغة أن « الغاسق » الليل ﴿ **وقب** ﴾ دخل في كل شيء فأظلم .

و« الغسق » الظلمة .

وقال الزجاج « الغاسق » البارد ، فقيل لليل غاسق لأنه أبرد من النهار ، أو يقال : الغسق السيلان والإحاطة ، وغسق الليل سيلانه وإحاطته بالأرض

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث في هذا الجزء .

وإذا فسر بالقمر ، فقد يقال : وقوبه أي دخوله . وهو دخوله في الكسوف ، ولا منافاة بين تفسيره بالليل وبالقمر ، فإن القمر آية الليل ، فهنا ثلاث مراتب الليل مطلقاً ، ثم القمر مطلقاً ، ثم القمر حال كسوفه وهذا مناسب لما ذكر في المستعاذ به ، فإن عموم الفلق للخلق بإزاء من شر ما خلق ، وخصوصه بالفجر الذي هو ظهور النور بإزاء الغاسق إذا وقب ، الذي هو دخول الظلام .

وقال ابن زيد : الغاسق : الثريا إذا سقطت، وكانت الأسقام والطواعين تكثر عند وقوعها ، وقد تقع عند طلوعها ويشبه - والله أعلم - أن يكون من الحكمة في ذلك : أن النور هو جنس الخير ، والظلمة جنس الشر ، وفي الليل يقع من الشرور النفسانية ما لا يقع في النهار ، والقمر له تأثير في الأرض لا سيما حال كسوفه ، فإن النبي ﷺ قال « إنهما آيتان يخوف الله بهما عباده » والتخويف إنما يكون بانعقاد سبب الخوف ، ولا يكون ذلك إلا عند سبب العذاب ، أو مظنته ، فعلم أن الكسوف مظنة حدوث عذاب بأهل الأرض .

ولهذا شرع عند الكسوف الصلاة الطويلة ، والصدقة والعتاقة ، والدعاء لدفع العذاب ، وكذلك عند سائر الآيات التي هي إنشاء العذاب كالزلزلة ، وظهور الكواكب ، وغير ذلك وهو أقرب الكواكب التي لها تأثير في الأرض بالترطيب واليبس وغير ذلك .

ولهذا كان الطالبون للمنفعة والمضرة من الكواكب إنما يأخذون الأحداث بحسب سير القمر ، فإذا كان في شرفه كالسرطان كان الوقت عندهم سعيدا .

وإذا كان في العقرب وهو هبوطه كان نحساً ، فهذا في علمهم ، وكذلك في عملهم من السحر وغيره :

القمر أقرب المؤثرات ، حتى صنفوا « مصحف القمر » لعبادته وتسبيحه ، فوقع ترتيب المستعاذ منه في هذه السورة على كمال الترتيب ، انتقالاً من الأعم الأعلى الأبعد إلى الأخص الأقرب الأسفل ، فجعلت أربعة

أقسام .

الأول : من شر المخلوقات عموماً ، وقول الحسن : إنه إبليس وذريته ، وقول بعضهم : إنه جهنم : ذكر للشر الذي هو لناشر محض من الأرواح والأجسام .

والثاني : شر الغاسق إذا وقب ، فدخل فيه ما يؤثر من العلويات في السفليات من الليل وما فيه من الكواكب. كالثريا وسلطانه الذي هو القمر ، ودخل في ذلك سحر التمرسحات الذي هو أعلى السحر وأرفعه .

الثالث : شر النفاثات في العقد ، وهن السواحر اللواتي يتصورون بأفعال في أجسام .

و« الرابع » الحاسد ، وهي النفوس المضرة سفهاً ، فانتظم بذلك جميع أسباب الشرور ، ثم خص في « سورة الناس » الشر الصادر من الجن والإنس ، وهم الأرواح المضرة .

فصل

وتظهر المناسبة بين السورتين من وجه آخـر ، وهو أن المستعـاذ منه هـو الشر ، كما أن المطلوب هو الخير .

إما من فعل العبد ، وإما من غير فعله ، ومبدأ فعله للشر هو الوسواس ، الذي يكون تارة من الجن ، وتارة من الإنس وجسم الشـر يحسم أصله ومادتـه أجود من دفعه بعد وقوعه ، فإذا أعيذ العبد من شر الوسواس الذي يوسوس في الصدور ، فقد أعيذ من شر الكفر والفسوق والعصيان .

فهذا في فعل نفسه ، وتعم الآية أيضاً فعل غيره لسوء معه .

فكانت هذه السورة للشر الصادر من العبد .

وأما الشر الصادر من غيره فسـورة « الفلق » فإن فيهـا الاستعاذة من شـر المخلوقات عموماً وخصوصاً والله أعلم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم -

هـذا نهايـة الجـزء الأخيـر من التفسيـر الكبيـر أعـاننـا الله على تحقيقـه وتخريج أحاديثه وترقيم آياته ، وكان الانتهاء منه في مساء يوم الخميس من ذي القعدة سنة ١٤٠٦ هـ الموافق ١٠ من يوليه سنة ١٩٨٦ م .

أ . د . عبد الرحمن عميره

فهرست الجزء السابع والأخير

من

كتاب التفسير الكبير

الموضوع	الصفحة